

هذا الجيب محمد ﷺ يا محب

تأليف
أبي بكر الجزائري

اعتنى به

الشيخ شريف عبد الرحمن



هذا الحبيب محمد
ﷺ يا محب

اسم الكتاب: هذا الحبيب محمد ﷺ يا محب

اسم المؤلف: أبو بكر الجزائري

اعتنى به: الشيخ شريف عبد الرحمن

عدد الصفحات: ٣٨٩

الطبعة: الأولى ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

© حقوق الطبع محفوظة

رقم الإيداع: ٢٤٣٤ / ٢٠٠٧

الناشر

مكتبة الأصولي دمنهور

٠١٠٥٤٠١٣٢٤ - ٠٤٥٢٣١١١٣٨ ☎

دمنهور - خلف عمرافتندي

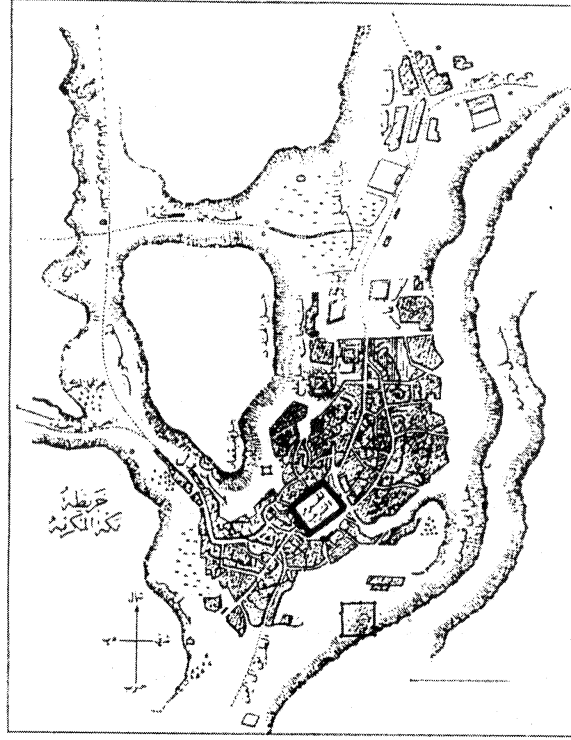
المقدمة

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين . وصلاة الله وسلامه ورحماته وبركاته على صفوة عباده وخيرته من خلقه، محمد عبده ورسوله، وعلى أهل بيته الطاهرين، وصحابه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .
أما بعد؛ فهذه رسالة في سيرة الحبيب محمد ﷺ رَغِبَ في جمعها وتأليفها بعضُ إخوة الإسلام لتكون تكملة «المنهاج المسلم» الذي اشتمل على أصول الدين وفروعه إلا ما كان من السيرة العطرة للحبيب محمد ﷺ، وتحقيقاً لرغبتهم وضعت هذا الكتاب معنوناً بهذا العنوان:

هذا الحبيب محمد ﷺ

يا محب

فكان حقاً - الكتاب - رسالة العلم والإيمان والحب الصادق للحبيب محمد ﷺ .
ونظراً لكثرة ما جُمع وأُلف في الدين في هذا الفن - السيرة - فإني - تجنباً للتكرار والإطالة والاختصار - سلكت بتوفيق الله مسلكاً في جمعه وتأليفه ما جعله بفضل الله تعالى أمثلاً ما كُتِبَ في هذا الفن سهولةً ووضوحاً وشمولاً مع حسن التتويب، وجمال التفصيل، وزانه ما امتاز به من ترصيع كل مقطوعة منه بذكر نتائجها وعبر قد لا تخلو منها في غالبها . فكان بحمد الله تعالى كتاب البيت المسلم الذي يشيع بين أفراد حَبِّ الحبيب المصطفى، وينيرُ ببيان حُسْنِ الأسوة مَعَالِمِ الهدى، في دروب الحياة كلها الدينية منها والاجتماعية والسياسية . ولهذا فإني أدعو أهل كل بيت مسلم أن يجتمعوا على قراءته فيقطعوا نصف ساعة من يومهم - أو ليلتهم - يقرءون فيها صفحة أو صفحتين حسب طول المقطوعة من الكتاب وقصرها، ويقفون على ما فيها من النتائج والعبر يقوون بذلك إيمانهم، وينمّون معارفهم، ويهذبون أخلاقهم . وأعظمُ من ذلك اكتسابُهم حَبِّ نبيهم وحَبِّ أهل بيته الطاهرين، وصحابته الغر الميامين .
وأخيراً، فاللهم اجعل عملي في هذا الكتاب صالحاً واجعله لوجهك خالصاً، وارزقني به - ومن يقرؤه مؤمناً محتسباً - حَبِّ نبيك وشفاعته في النجاة من النار، واللحاق بمنازل الأبرار مع الرفيق الأعلى يا ذا الجلال والإكرام .
سبحان ربك ربّ العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين



هذه مكة .

هذا البلد الأمين .

هذا الوادي الذي قال إبراهيم فيه : ﴿ زَيْنًا إِنَّا أَخْلَصْنَاكَ مِنْ دُرَيْتِي يَوَادِّ عَيْرِي ذِي نَزْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ﴾

أرض النبوة

بجبال فاران، بالوادي الأمين؛ بالأرض المباركة حيث بُني فيها أول بيت للناس، كل الناس بمكة المكرمة دائرة المجد، ومهبط الوحي.

بالبلد الأمين حيث كان مولد سيد جميع العالمين.

بديار الحجاز معقل الإيمان^(١) في آخر الزمان. بها - مكة - طابت مغانيها، وجلّت عن الحصر معانيها، بعث نبي آخر الزمان، الذي سنحدّث عنه. إن شاء الله - الأحباء ببيان أيما بيان. ولنحبس الآن القلم ساعة؛ لنعود إلى الحديث عن أرض النبوة بعد ساعة.

الدوحة الكريمة

من ديار الكفر والطغيان، من أرض الشرك والظلم للإنسان خرج مهاجرًا إبراهيم مع ابن أخيه هاران لوط عليه وعلى إبراهيم وآله السلام.

واتخذ إبراهيم الأرض المباركة مهاجرًا أرض الشام التي باركها الله للأنام، حل إبراهيم يومًا بديار مصر، وهو يحمل رسالة التوحيد، فكان أن أكرم الله سارة^(٢) زوج إبراهيم بعطية هي نعم الهدية إنها هاجر المصرية، أم إسماعيل وجدة العدنانيين أجمعين.

وهبت سارة الكريمة جاريته إبراهيم، فتسرّاهَا، فأنجبت إسماعيل. ويسوق الله أقدارًا إلى أقدار، فتضيق بسارة الدار حيث أكلها أن تلد جاريتهَا غلامًا زكيا، وتُخرّمه هي!!

وبإذن من الله يخرج إبراهيم بجاريته - أم ولده - مستخفيا مستحييا، فتُعفي هاجر آثار أقدامها مبالغة في إخفاء أمرها.

ولنخرج القلم الآن من الحبس؛ لتتابع الحديث عن أرض الأنس والقدس.

إنه بالواد الأمين، المحاط بجبال فاران من أرض طيبة مباركة، وتحت دوحة عظيمة، وضع إبراهيم هاجر وطفلهَا، تاركًا لهما جرابًا فيه طعام، وسقاء فيه ماء وقفل راجعًا. ونظرت إليه هاجر، والدهشة تأخذها، والحيرة تنتابها، ثم تقول: إلى من تكلنا يا إبراهيم؟ وأردفت تساؤلها قائلة: أكله أمرك بهذا يا إبراهيم؟ فأجابها السيد الرحيم قائلاً: نعم. فردت عليه - وهي قريرة العين - إذا فاذهب، فإن الله لا يضيعنا. وذهب إبراهيم عائداً إلى أرض الشام.

ولما بعد - حيث لا تراه هاجر - استقبل مكان البيت قبل بنائه وقال: ﴿وَبَنَّا لِآبَائِنَا بُيُوتًا مِّن دَرَبَيْنِ يَوْمَ ذِي قَعْدٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُظَاهِرَ فَاتِمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧]

(١) ثبت هذا المعنى بالحديث.

(٢) تقرأ هذه القصة في صحيح البخاري. (كتاب الأنبياء).

وقفه قصيرة

فها بنا - معشر الأحياء - نجلس مع هاجر نؤانسها في وحشتها، ونُسْتَجْلِي العبرة من موقفها: هاجر امرأة مؤمنة كسائر المؤمنات تهاجر من بلدها، وتخرج من دارها حتى لا تؤذي ولية نعمتها، تلك المؤمنة الأولى «سارة» بنت هاران عم إبراهيم الزوج الكريم. علمت هاجر ما أصاب سارة من العيرة فأثرت غربتها عن أذية سيدها. فباله من موقف تقفه هذه المصرية الزكية فهلاً تأسى بها الضرات^(١)!!

وهلا عرف هذا أحيائنا - أحبيهم الله - فيؤثر أحدهم بالنفع أخاه، ويتحمل الأذى في سبيل رضاه!!

هذه عبرة، وأخرى: تُتْرَكُ هاجر بواذٍ قفر موحش، لا أنيس به من قريب ولا من بعيد، وتُظْهِر مخاوفها ولا تكتُم ما انتابها من غم وهم. فتقول لإبراهيم: إلى من تكلنا؟ وما إن تسمع جواب إبراهيم: نعم، الله أمرني بهذا، حتى تتجلى حقيقة إيمانها في مستوى لن يرقى إليه غيرها من نساء العالمين، إذ تقول: اذهب؛ فإنه لا يضيعنا. هذا هو الإيمان الذي نطلبه أيها الأحياء. وهذا هو التوكل، الشجرة الشهية لعقيدة الإيمان الحية.

إن إيماناً لا يثمر توكلًا كهذا إيمان ناقص قصير، وقليل يسير. فَلْتُنْشُدْ - أيها الأحياء - إيماناً كاملاً يثمر لنا الخشية والمحبة معاً وتوكلًا كهذا!!!

ولنترك هاجر تبيت ليلتها بالواد الأمين، لنعود إليها بعد حين نستقصي أخبارها، ونتعرف على أحوالها؛ لأنها رحم لنا، ومنبت عزٍّ ومجد كانا لنا، إنها أمُّ إسماعيل، أحد آباء سيد المرسلين محمد الحبيب عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

تقول الأخبار الصادقة: إن هاجر نفذ ماء سقايتها، وعطشت وعطش إسماعيل طفلها، فدارت تطلب الماء، وحارت وكبدها تكاد تَرَفُضُ^(٢) وهي ترى طفلها يتلوَّى من شدة العطش. ونظرت، فإذا أقرب مكان عالٍ إليها، هو جبل الصفا، فأنته ورقيته، ونظرت يمينًا وشمالاً فلم تَرِ ماءً ولا أحدًا، ونظرت أمامها، فإذا أقرب مكان عالٍ إليها جبلُ المروة، فهبطت ذاهبةً إليه.

فانتهت إلى بطن الوادي، فأسرعت وخبت^(٣) فيه حتى اجتازته، وواصلت سعيها حتى انتهت إلى جبل المروة فرقيته، ونظرت يمينًا وشمالاً فلم تَرِ شيئًا، فهبطت عائدة إلى الصفا حتى اكتمل

(١) تأسى: أي اقتدى. والضرات جمع ضرة. المرأة تكون مع أخرى تحت رَجُلٍ واحد، والضررة مشتقة من الضرر، لأن كل واحد منهما يتضرر بالآخرى.

(٢) رَفُضَتْ الكبد: تفتت من العطش أو الحزن أو كادت.

(٣) وخبت: أسرعت.

سعيها بين الصفا والمروة - وهي تطلب الماء لولدها ولها - سبع مرات .
وعندها - وهي على أحد الجبلين - تسمع صوتاً غريباً ، فتقول في لهفة : أَسْمَعْتُ أَسْمَعْتُ فهل من غياث !؟

وترمي ببصرها نحو ولدها ، فإذا برجل - قائم على رأس الطفل تحت الدوحة^(١) وما أن دنت منه حتى قال بعبه هكذا - يرفس الأرض - وإذا بعين ماء تفور ، وكم كانت فرحة هاجر بسقيا إسماعيل !؟ وأخذت تزُمُّها بالتراب والحجارة ؛ تمنع سيلانها على وجه الأرض خشية أن تنضب ، ولو تركتها - فلم تحطها بما أحاطتها به من تراب وحجارة - لكانت عيناً معيناً كما أخبر بذلك حفيدها السيد الجليل محمد إمام المرسلين وسيد جميع العالمين ، عليه أفضل الصلاة وأزكى وأبرك التحية والتسليم .
○ ثمرة القصة :

إن لهذه القصة - التي قصصناها - ثمرة من أغلى الثمار وأشهاها إلى النفوس المؤمنة الطاهرة الزكية ، إنها ثمرة التوكل على الله بتفويض الأمر إليه ، والاعتماد عليه . أتذكر أيها المحب لَمَّا قالت هاجر لإبراهيم : إلى من تتركنا ، آله أمرك بهذا؟ فقال لها : نعم . فقالت : إذا فاذهب ؛ فإنه لا يضيعنا ! إنها توكلت على الله ربنا وربها وأحسن الظنَّ به تعالى . فهذه العين الثرة (زمزم) كانت ثمرة توكلها على ربها وحسن ظنّها به - عز وجل - .
○ بداية أمر مكة :

لما أكرم الله تعالى هاجر أم إسماعيل بماء زمزم ، مرت رفقة من قبيلة «جُرْهُم»^(٢) قريباً من وادي مكة ، فبعثوا من يرتاد لهم ماء ينزلون عليه ، فرأى رائدهم طائراً يحوم ، فعلم أن هناك ماء ، فأتى المكان وإذا فيه هاجر وولدها إسماعيل - وهما إلى جنب ماء زمزم فعاد الرائد فأخبر رفيقه ، فأتوا الماء واستأذنوا هاجر في النزول معها ، فأذنت لهم ، واشترطت ألا يكون لهم حق في الماء ، فقبلوا الشرط ونزلوا ، فكانت هذه بداية عمارة مكة في العهد الإبراهيمي السعيد .
○ عبرة :

أين الذين يتشدقون بالديمقراطية والعدالة الاجتماعية؟ أين هم؟ إنهم في الحضيض الأسفل إزاء هذه الواقعة التاريخية الثابتة بالوحي الإلهي : امرأة غريبة الدار ، تملك بئر ماء في صحراء تستأذنها في النزول إليها رفقة كاملة برجالها ونسائها ، تستأذنها في النزول في جوارها ، فتشترط عليهم في النزول بجوارها - وهي تحب الأنس : ألا يكون لهم حق في الماء فيقبلون الشرط ويرضونه وينزلون !! .

(١) الدوحة : الشجرة العظيمة ذات الظل الوارف .

(٢) جرهم : قبيلة يمانية قحطانية وقحطان من ذرية سام بن نوح - عليه السلام - .

هذه خلة فاضلة كريمة من خلال العرب في الجاهلية فكيف بهم في الإسلام لولا الصرفة التي صُرفوها بِمَكْرِ الثالث الأسود: المجوس واليهود والنصارى .

عمارة مكة

عمرت مكة بهاجر أم إسماعيل أولاً ثم بنزل الرفقة الجرهمية ثانياً . وكبر إسماعيل ، وأصبح أهلاً لأن يسعى ويعمل ولو برغي الماشية وصيد الطيأ والطيور . وجاء إبراهيم يتعهد تركته إسماعيل ابنه وهاجر أم ولده عليهم السلام ، وأوحى إليه الرب تعالى مناماً - ورؤيا الأنبياء - حي - أن اذبح إسماعيل قرباناً لنا . واستشار إبراهيم إسماعيل في ذلك قائلاً: ﴿كَأَلَيْسَ إِنَّيَأْتِي فِي النَّارِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَأَنْظُرَ مَاذَا تَرَكْتُ﴾ [الصافات: ١٠٢] فأجاب إسماعيل قائلاً: ﴿قَالَ تَبَيَّنْتُ أَنَّ مُؤَمَّرَ سَيِّدِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٣] وأراد إبراهيم تنفيذ أمر ربه ، فخرج بإسماعيل ولده إلى منى ، ليذبحه قرباناً لربه حيث أمره ، ولمّا تلهّ للجبين والمدنية بيده - وقيل الإجهاز عليه ناداه ربه: ﴿وَتَذَكَّرَ أَن يَنْذِرَهُ﴾ ١ ﴿فَدَعَا زَوْجَهُ إِذَا كُنَّا لِلْغَدَاةِ وَحِيدَيْنِ﴾ [الصافات: ١٠٤-١٠٥] ، وفداه بذبح عظيم ، أي بكبش أملح كبير ، فترك الولد وذبح الكبش ، وفاز بالرضا الولد والوالد .

○ عبرة:

إن في صبر هاجر على ذبح ولدها - وصبر إسماعيل على ذبح نفسه - لآية ذالة على طيب الأم وولدها ، فلذا اختيرا لأن يكونا جديّن لسيد المرسلين الحبيب محمد ﷺ . إن طيبوبة الأصول تنتقل إلى الفروع ، وقد تزهو الفروع على أصولها .

وجاء الخليل مرة أخرى يتعهد تركته ^(١) وكان إسماعيل - عليه السلام - قد كبر وبلغ وتزوج امرأة جرهمية من الرفقة التي جاورتهم بمكة ، ومن لحق بهم من قومهم . فدخل إبراهيم وسلّم على امرأة ابنه ، وكانت هاجر قد توفيت ، فقال: أين إسماعيل؟ قالت: ذهب يصيد ، وسألها عن حالها مع زوجها ، فلم تذكر خيراً ، فقال: إذا جاء زوجك ، فأقرّنيه السلام ، وقولي له يغيّر عنة بابه . وجاء إسماعيل من الصيد ، وأخبرته بالخبر ، فقال: ذاك أبي وقد أمرني بطلائك ، فالتحقي بأهلك .

مضى زمن - يطول أو يقصر - وبدأ ^(٢) لإبراهيم أن يتعهد تركته ، فجاء مكة ودخل حجر إسماعيل فسلم وقال: أين إسماعيل؟ وسألها عن حالهم ، فذكرت خيراً ، فقال لها: إذا جاء زوجك ، فأقرّنيه السلام ، وقولي له: بُيِّثَ عَتَبَةَ ^(٣) بآبك .

وعاد إبراهيم إلى الشام ، ومضت الأيام - وقد تطول أو تقصر - وبدأ لإبراهيم أن يطلع على تركته ، فجاء مكة فوافق إسماعيل من وراء زمزم - يصلح نبلاً له تحت دوحة عظيمة قريباً من

(١) التركة: ما تركه الإنسان وخلفه وراءه ، ومن هذا تركة الميت .

(٢) بدا: أي ظهر له .

(٣) كناية عن امرأته .

زمزم، فلما رآه قام إليه، فصنعا كما يصنعُ الوالدُ بالولد، والولدُ بالوالد. فقال إبراهيم: يا إسماعيل، إن الله تعالى أمرني بأمر. قال إسماعيل فاصنع ما أمرك ربك، قال إبراهيم: وتعينني؟ قال: وأعينك، قال: فإن الله أمرني أن أبني ههنا بيتاً، وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها.

○ نتائج وعبر:

من نتائج هذه المقطوعة من السيرة وعبرها ما يلي:

- ١ - تعهد الوالد أهل ولده بزيارتهم، والتعرفُ على أحوالهم من الوقت إلى الوقت.
- ٢ - قوة الفراسة والعمل بها، فإن إبراهيم - عليه السلام - تفرس في امرأة ابنه أنها غير صالحة له؛ لِمَا سمعه منها من شكاة، وإن إسماعيل عمل برأي والده وطلق امرأته.
- ٣ - مشروعية استعمال الكنايات في المخاطبات، فقد كنى إبراهيم عن المرأة بعتبة الدار.
- ٤ - مشروعية معانقة الولد للوالد وعكسها، ويقاس عليهما غيرهما.
- ٥ - مشروعية استشارة الوالد ولده، وطلبُ العون منه على أمره.
- ٦ - قدم البيت العتيق، وأنه أول بيت وضع للناس، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ [المعمران: ٩٦].

بناء إبراهيم - عليه السلام - للبيت العتيق

ولمّا وافق إسماعيل على إعانة والده على بناء البيت، شرع إبراهيم في البناء، وقد هداه ربه تعالى إلى مكانه الذي كان به قبل رفعه^(١) عام الطوفان، أو هدمه بفعل السيول الجارفة، وعدم وجود من يقوم ببنائه، فأخذ إبراهيم يبني، وإسماعيلُ يناولُه الحجارة، وهما يقولان ما أخبر تعالى به عنهما في قوله: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧-١٢٨].

ولما ارتفع البناء جاء إسماعيل بحجر كبير مرتفع، فصار إبراهيم يعلو فوقه، ويواصل رفع البناء حتى فرغ، وبقي الحجر تحت جدار البيت، وقد ارتسمت عليه قَدَمَا إبراهيم - وهو صُلْبٌ ليس برطب - لتكون آية للعالمين.

ولما جاء الإسلام - ومرحباً به - شرع الله تعالى الصلاة خلفه؛ إذ قال تعالى من سورة البقرة: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥].

ولما فرغ إبراهيم من بناء البيت، أمره الله تبارك وتعالى أن يؤذن في الناس بالحج، كما قال: ﴿وَادِّعِ فِي الْكَأْسِ بِأَلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَكَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٧].

(١) ذكر أهل العلم قولين في البيت، منهم من قال: إن الله تعالى رفعه قبل الطوفان، ومنهم من قال: لم يرفعه وإنما انهدم بمفعول الطوفان كغيره من سائر المباني، والله أعلم بأي القولين أصح.

فطلع إبراهيم - عليه السلام - على جبل أبي قُبَيْس - وهو من أقرب الجبال إليه - ونادى باسم الله تعالى قائلاً: أيها الناس، إن ربكم بنى لكم بيتاً فحُجُّوه، والتفت بنداءه يميناً وشمالاً - كما يلتفت المؤذن اليوم في أذانه للصلاة - فأسمع الله تعالى نداه، كلَّ نسمة خلقها الله تعالى، فمن لَبَّثَ حَجَّجْتُ، ومن لم تَلَبَّ لم تُحَجَّ أبداً، ومعنى لَبَّت: قالت: لَبَّيْكَ اللهم لَبَّيْكَ أي أجبتُ طلبك مرّة بعد مرّة.

○ نتائج هذه المقطوعة من الحديث:

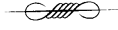
لهذه المقطوعة من سيرة الحبيب العطرة نتائج تُجملها فيما يلي:

- ١ - تقرير بناء إبراهيم للبيت العتيق، شَرَفَهُ الله وَكَرَّمَهُ.
- ٢ - بيان تعاون إبراهيم مع ولده إسماعيل على بناء البيت.
- ٣ - بناء البيت كان على أسس وقواعد قديمة كان عليها قبل حادثة الطوفان. وفي هذا ترجيح للقول بأن البيت كان من عهد آدم - عليه السلام -.
- ٤ - ارتسام قَدَمَي إبراهيم على صخرة المقام آية خالدة من آيات الله تعالى التي كان يعطيها الأنبياء عليهم السلام.
- ٥ - تقرير القول بأن الأرواح مخلوقة قبل خلق أجسامها، وأن الملك الموكَّل بالأرحام ينسخها في المضغة بإذن الله تعالى فتسري فيها، فتحيا.

بداية أمر الحبيب محمد ﷺ

إنه أثناء قيام إبراهيم وولده إسماعيل ببناء البيت العتيق، كانا - عليهما السلام - يتناولان ما أخبر به تعالى عنهما في قوله: ﴿رَبَّنَا وَابْتِئْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩] إذ الضمير في قوله: ﴿يُزَكِّيهِمْ﴾ [البقرة: ١٢٩] عائذ على ذرية إسماعيل وإبراهيم - عليهما السلام - . فكان هذا مبدأ أمر الحبيب محمد ﷺ.

وقد قرَّرَ هذه الحقيقة بنفسه ﷺ: إذ سُئِلَ عن مبدأ أمره، فقال: «أنا دعوة أبي إبراهيم^(١) وبشارة أخي عيسى» - عليهما السلام - .



(١) صح هذا الخبر بروايات سليمة صحيحة.

إسماعيل وذريته

لقد عاش إسماعيل بجوار البيت العتيق، وفي مكة أصهاره من قبيلة جرهم اليمنية القحطانية، وقد نُبِّيَ فيهم، وأُرسل إليهم وإلى كافة من بالحجاز من العماليق. وأنجب إسماعيل أولاداً بلغوا اثني عشر ولداً، منهم نابت - وهم أكبرهم وهو حلقة السلسلة الذهبية المحمدية - فنابت من أولاد إسماعيل الاثني عشر، هو الذي اُختِيرَ لأن يكون من آباء دعوة إبراهيم وإسماعيل ﴿رَبَّنَا وَابْتِئْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٩] واختفت حلقات السلسلة الذهبية فيما بين نابت وعدنان لظروف غامضة غير معروفة. وكان عدد الآباء - ما بين نابت بن إسماعيل وعدنان - يقدر بستة آباء، والجميع عاشوا بالحرم المكي ولم يخرجوا منه ومع هذا لم تضبط أسماء هؤلاء الآباء الستة. وصاحب النسب الزكي الشريف حبيب الأحياء وسيد الأنبياء محمد ﷺ انتهى بذكر نسبه جازماً بما ذكر إلى عدنان، ثم سكت وقال: كذب ^(١) النسابة. قال تعالى: ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كِبِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٨] فلماذا كان الانتهاء إلى حيث انتهى النبي ﷺ بنسبه أولى.

○ نتائج هذه المقطوعة:

لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج، هي كالآتي:

- ١ - النسب الشريف بين إسماعيل وعدنان مجهول، ولا يصح الجزم بما ذكر النسابة حيث بلغوا بالنسب الشريف إلى آدم - عليه السلام -.
- ٢ - صحة النسب الزكي من عدنان إلى عبد الله بن عبد المطلب والد النبي ﷺ بالصحة لا يخالطها شك أبداً.
- ٣ - توهين أقوال النسابة، وعدم الجزم بما يقولون.

سلسلة الطهر النسب الشريف

بين يدي الحديث عن سلسلة الطهر الذهبية أقدم كلمة عن العرب موجزة؛ لِمَا لهم من شرف الأصل، وطيب المحتد، فأقول: إن العرب بأقسامهم الثلاثة: العرب البائدة، والعاربة، والمستعربة يعودون إلى أصل واحد هو سام بن نوح - عليه السلام - . أمّا الذي ينسب إليه العرب ويعترفون به، فهو يعرب بن يشجب بن قحطان بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح الرسول - عليه السلام - .

○ العرب البائدة:

إن العرب الذين بادوا - أي هلكوا - هم طسّم وجديس، وعاد وثمود ^(٢)، هكذا يقول النسابة والمؤرخون. فأما طسم وجديس فقد اقتتلوا، أي قاتل بعضهم بعضاً حتى هلكوا ^(١) رمز إليه السيوطي في جامعه بالصحة. ^(٢) ثمود أخو جديس.

جميعاً، وأما عاد وثمود فقد أصروا على الشرك والتكذيب لرسولهم - هود وصالح - عليهما السلام - حتى أهلكهم الله تعالى، وقد جاءت أخبارهم في القرآن الكريم. قال تعالى: ﴿الْمَلَأْنَاهُ كَذِبًا وَكُنَّا صُورًا مَّا لَمْ يَكُنْ لَهُمْ قُوَّةٌ وَلَا يَكُونُوا يَرْجِعُونَ﴾ [الحاقة: ١-٦].

○ العرب العاربة:

إن العرب العاربة هم الأصلاء في نسبهم إلى يعرب بن يشجب بن قحطان، ولذا يقال لهم: القحطانيون، وبنو عمهم هم العمالقة^(١) الذين يسكنون الحجاز والشام ودخلوا مصر وتفرقوا في البلاد المجاورة للجزيرة العربية. وبنو أميم أيضاً وقد لازموا الجزيرة ولم يخرجوا منها. أما القحطانيون - وهم أولاد يعرب بن يشجب بن قحطان - فقد لازموا الديار اليمانية زمناً، ثم تفرقت قبائلهم^(٢) في الجزيرة والشام^(٣) ومن قبائلهم - الذين^(٤) سكنوا الحجاز - قبيلة جرهم التي سكنت مكة بإذن هاجر أم إسماعيل - عليه السلام -.

○ العرب المستعربة:

إن العرب المستعربة هم أولاد إسماعيل بن إبراهيم الخليل - عليه السلام - وقيل لهم: العرب المستعربة؛ لأن إبراهيم - عليه السلام - لم يكن من أولاد يعرب، وإنما كان من أولاد عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح، ولذا كانت لغته غير العربية - وهي السريانية لغة الكلدانيين من سكان بابل العراق، كما تكلم بلغة الكنعانيين بالشام أيضاً عند هجرته إلى الشام، ولم يتكلم بالعربية.

وأما إسماعيل - عليه السلام - فإنه - بحكم نشأته بين أفراد قبيلة جرهم اليمانية القحطانية التي سكنت مكة بإذن والدته هاجر كما تقدم - تعلم العربية وتفنن أهلها فيها، أي تفوق عليهم فيها بياناً وأدباً وبلاغة، كما تعلمها أولاده منه ومن أمهم السيدة بنت مضاخ الجرهمية ومن أخوالهم المجارون لهم بمكة أيضاً؛ فلهذا قيل لهم: العرب المستعربة؛ نظراً إلى أن جدهم غير عربي وهو إبراهيم، وأن ولده إسماعيل استعرب هو وبنوه، حيث تعلموا لغة العرب وتكلموا بها وفازوا فيها، ومن هنا قيل في القبائل العدنانية^(٥) عامة: العرب المستعربة.

(١) الطاغية: هي الصيحة التي أخذتهم. وقيل فيها: طاغية؛ لأنها تجاوزت الحد في صوتها.

(٢) العمالقة: هم أولاد عملاق، وبنو أميم هم أولاد أميم، وعملاق وأميم هما أولاد لاوذ بن سام بن نوح.

(٣) من أشهر قبائلهم جُمَيْر وكهلان.

(٤) ممن سكن الشام: لخم وجذام وأولاد جفنة ملوك الشام.

(٥) وكذا طيء إذ سكنوا شمال الحجاز، وسكن الأوس والخزرج المدينة النبوية حيث نزلها جدهم نعليه بن عمرو الأزدي مهاجراً من اليمن بعد خراب سد مأرب بمفعول سيل العرم الذي ذكره الله تعالى في سورة «سباء».

(٦) نسبة إلى عدنان أحد أبناء ذرية إسماعيل - عليه السلام -.

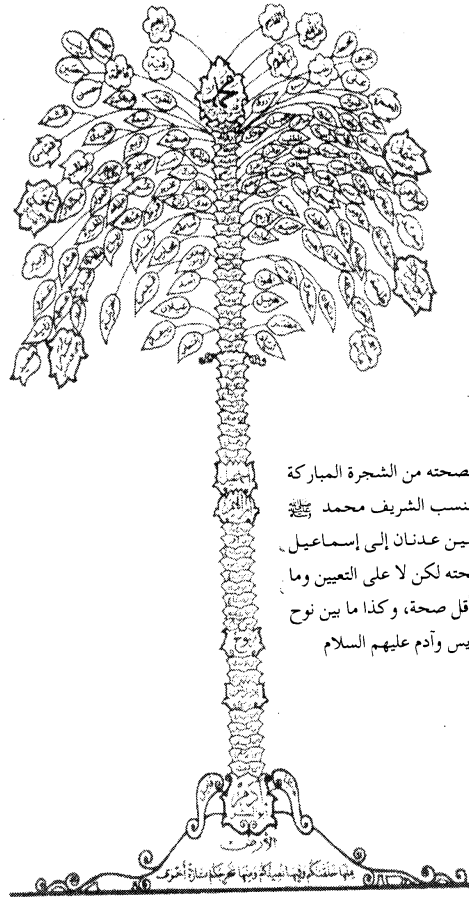
عودة سريعة إلى النسب الشريف

سبق أن ذكرنا أن النسب الشريف ما بين إسماعيل وعدنان فيه غموض وخفاء، حتى إن صاحب النسب الشريف ﷺ قال: «لا ترفعوني فوق عدنان». ولذا، فكل ما يحسن أن يقال: هو أن أولاد إسماعيل بن إبراهيم - عليهما السلام - وهم اثنا عشر ولدًا عاشوا مع أخوالهم من جرحم، ونبيهم ورسول الله إليهم أجمعين هو إسماعيل - عليه السلام - . وكان من بين أولئك الإخوة ثابت وقيدار، والإجماع على أن عدنان هو ابن أحدهما لا محالة. ثم إن عدنان أنجب من البنين عكًا ومعدًا، أما عك فقد نزع إلى اليمن وعاش بها مع أصحابه الأشعرين. وأما معد فقد بقي بمكة وأنجب من البنين نزارًا، وقضاعة، وقنصًا وإيادًا، أما قنص فقد هلك بنوه إلا قليلًا منهم، وكان منهم النعمان بن المنذر. وأما إياد فقد أنجب قبيلة - والنسبة إليها إيادي. ومنهم قس بن ساعدة الإيادي. وأما قضاعة، فقد نزلت إلى حمير باليمن وأقامت بها. وأما نزار فقد عاش بالحرم كأخيه إياد، وأنجب مضرًا وربيعه وأنمازًا. وأنجب مضرًا إلياس وعيلان، وأنجب إلياس مدركة^(١) وطابخة وقمعة، وأنجب مدركة خزيمه، وهذيلًا، وأنجب خزيمه كنانة وأسداً، وأسدة والهون. وأنجب كنانة ملكان والنضر ومالكًا وعبد مناة. وأنجب النضر - وهو أبو قيس حيث كافة قبائلها تعود إليه - أنجب مالكًا ومخلدًا. وأنجب مالك بن النضر فهرًا^(٢). وأنجب فهر غالبًا ومحاربًا والحارث وأسداً. وأنجب غالب بن فهر لؤيا وتيمًا وقيسًا، وأنجب لؤي بن غالب كعبًا وعامرًا وسامة وعوفًا. وأنجب كعب بن لؤي مرة وعديا وهصيصًا. وأنجب مرة ابن كعب كلابًا وتيمًا ويقظة. وأنجب كلاب بن مرة فصيا وزهرة، وأنجب قصي بن كلاب عبد مناف، وعبد الدار، وعبد العزى وعبد قصي. وأنجب عبد مناف بن قصي هاشمًا وعبد شمس والمطلب ونوفل. وأنجب هاشم بن عبد مناف عبد المطلب، وأسداً وأبا صيفي ونضلة. وأنجب عبد المطلب العباس وحمة وعبد الله وأبا طالب والزبير والحارث وحجلًا والمقوم وضارًا وأبا لهب.



(١) اسم مدركة: عامر، واسم طابخة: عمرو واسم قمعة: عمير، والأسماء المذكورة ألقاب لهم لقبوا بها لحادثة معروفة.

(٢) اسمه قريش أو لقب له وهو أب قريش الأول.



تنبيه: المقطوع بصحته من الشجرة المباركة
هو ما بين صاحب النسب الشريف محمد ﷺ
وبين عدنان. وما بين عدنان إلى إسماعيل
وإبراهيم مقطوع بصحته لكن لا على التعيين وما
بين إبراهيم إلى نوح أقل صحة، وكذا ما بين نوح
وإدريس، وما بين إدريس وآدم عليهم السلام

عن صاحبنا العلامة أبي بكر بن محمد بن عثمان بن كثير

قبل الفجر المحمدي

حالة العرب السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية والدينية

لقد اجتمعت كلمة المؤرخين عامةً على أن العالم الإنساني قاطبة - والعالم العربي بصورة خاصة - كان يعيش في دياجير ظلام الظلم والجهل، وظلمات الطغيان والاستبداد، تتنازعه الامبراطوريتان الفارسية شرقاً، والرومانية غرباً. ويؤكد هذه الحقيقة قول الحبيب محمد ﷺ: «إن الله نظر إلى سكان العالم فمقتهم»^(١) عربهم وعجمهم جميعاً إلا بقايا من أهل الكتاب»^(٢). فالأحوال متردية ساقطة هابطة في العالم الإنساني بأسره، لاسيما في العالم العربي حيث الفساد في كل جوانب الحياة السياسية منها كالاقتصادية، والاجتماعية كالدينية، الكل سواء. وهذه نظرة خاطفة تلقيها على ديار العرب، وكلمة عابرة نقولها على تلك الأوضاع المتدهورة المتهاكمة، ليعرف مدى الحاجة إلى فجر النبوة المحمدية لتبديد تلك الظلم المتركمة، وإبعاد تلك الولايات الملازمة للحياة الخاصة والعامة في ربوع ديار العروبة قاطبة؛ إذ لا فرق بين يمنها وشامها، ولا بين حجازها ونجدها. ولتَعَفَّمْ عند ذي الوعي العاقل مئة أنوار الفجر المحمدي التي ستغمر الجزيرة - والكون من ورائها - هداية ونوراً. ولنبدأ بالحالة السياسية في بلاد العرب.

الحالة السياسية في بلاد العرب

إن مُجْمَل القول في الحالة السياسية في بلاد العرب، هو أن بلاد العرب - وهي شبه جزيرة لوقوعها بين ثلاثة أبحر؛ الأحمر غرباً، والهندي جنوباً، والخليج شرقاً - من المناطق السياسية ذات الأثر على الحياة الاجتماعية. ففي اليمن حيث ملوك حمير من التبابعة وغيرهم. والحير شرقاً إلى العراق حيث المناذرة، والشمال حيث الغساسنة. أما الوسط وهو نجد والحجاز وتهام فإنه دائرة المجد، وموضع طلوع الفجر، فأرض حماها مولاهما من سطوة الجبابرة، وسياسة المتاجرة، فلم تصل إليها يد الأحباش الأوباش، ولا يد الفوارس الأنجاس، ولا يد الروم ولا الرومان الأنكاس، لأنها مشرق الأنوار، ومكمن الأسرار، وعما قريب يطلع نجمها ويعلو كعبها، وتسود الدنيا وما فيها.

فالبلاد اليمنية تداولتها ملوك حمير من التبابعة وغيرهم، كما حكمها في فترات ملوك الأحباش مباشرة أحياناً، وبواسطة أبنائها أحياناً أخرى، وقد عظم ملك اليمنيين أحياناً حتى غزوا الشرق، ووصلت طلائع جنودهم إلى بلاد فارس متجاوزة أرض العراق إلى أعماق الشرق. وآخر ملوكهم

(١) الحديث أخرجه مسلم في كتاب الجنة ضمن خطبة له ﷺ.

(٢) يعني من اليهود والنصارى، ومعنى مقتهم: اشتد بغضه لهم؛ إذ المقت شدة البغض.

ذو نواس - وهو صاحب الأخدود وكان يهودي العقيدة - فكان آخر ملوك حمير ببلاد اليمن . كما أن آخر ملوك التباينة باليمن كان أبا كرب تَبَّان بن أسعد الذي غزا المدينة ودخل مكة ، وكسا الكعبة المشرفة وعاد إلى اليمن ، وهلك بها .

وأما المناصرة بالحيرة فإن ملوكهم - وآخرهم النعمان بن المنذر - كانوا تابعين في الغالب لملوك إيران . وكذلك الحال بالنسبة إلى الغساسنة بأرض الشام ، فإنهم تابعون في الغالب لملوك الروم . مع العلم بأن ملوك الحيرة كملوك الشام ، أصلهم يمنيون نزحوا من اليمن بعد خراب سد مأرب ، بواسطة سيل العرم ، والأوس والخزرج بالمدينة النبوية ، وطيب بجبل طيب شمالاً ، والكُل من مهاجري اليمن بعد خراب سدهم الذي كان مصدر غناهم وثروتهم ، إذ أرسل الله تعالى عليهم سيل العرم ؛ عقوبة لهم بعد ما ظلموا . قال تعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ لِسِرٍّ فِي مَكِّيهِمْ آيَةٌ جَنَّاتٍ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾^(١) إلى قوله تعالى : ﴿فَأَعْرَضُوا﴾ [سبا: ١٥، ١٦] أي عن طاعة الله وطاعة رسوله ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرَمِ﴾ [سبا: ١٦].

وأما العدنانيون - وهم سكان مكة وما حولها من ديار تهامة والحجاز فمجلل القول في الحال السياسية عندهم : أن قبيلة جرهم - التي استوطنت مكة مع هاجر أم إسماعيل وعاشت زمناً في ظل حكم إسماعيل وأحافده إلى أن استولت على الحكم بمكة وانتزعته من يد أبناء إسماعيل - عليه السلام - وبقي الحكم في جرهم إلى أن جارت وظلمت ، واستحلت المحرم في مكة فسلط الله تعالى عليها - كما هي سنته تعالى في الظالمين المعرضين عن طاعة الله وطاعة رسوله - بني بكر من كنانة ، وغبشان خزاعة^(٢) فأجلوهم عن مكة ، وهم يبيكون ، فالتحقوا باليمن - ديارهم الأولى - والأبيات التالية ترسم صورة صادقة لجرهم بمكة وحزنها عند جلائها عنها :

وقائله والدمع سَكَبَ مبادرٌ	وقد شَرِقَتْ بالدمع منها المحاجرُ
كأن لم يكن بين الحَجُونِ إلى الصفا	أنيسٌ ولم يشمُرْ بمكة سامرُ
فقلْتُ لها والقلبُ مَتِي كَأَتَمَا	يلجلجُ بين الجناحين طائرُ
بَلَى، نحنُ كُتَّأ أهلها، فأزالنا	صروفُ الليالي والجدودُ العوايرُ
وكنا ولاة البيت من بعد نابت	نطوفُ بذاك البيتِ، والخيرُ ظاهرُ
ونحنُ وَلِينَا البيتُ من بعد نابت	بعزٌ فما يحظى لدينا المكائِرُ
ملكنا فعزَّزنا فأعظم بملكنا	فليسَ لحي غيرنا ثم فاخر

إلى أن قال :

وصرنا أحاديثًا، وكنا بغبطة بذلك عَفَّتْنَا السنون الغوايرُ

(١) اسم أبي قبيلة سبأ، وكان يسمى عبد شمس، فلما سبي - وكان أول من سبي - قالوا فيه : سبأ .
(٢) خزاعة قبيلة يمانية قحطانية وسميت خزاعة ؛ لأنها تَحْرَعَتْ أي تأخرت بمكة وأقامت بها ، وذلك عند هجرة أهل اليمن بعد خراب سد مأرب .

فَسُخِّتْ دُمُوعَ الْعَيْنِ تَبْكِي لِبَلَدَةٍ بِهَا حَرَمٌ أَمْنٌ وَفِيهَا الْمَشَاعِرُ
وَتَبْكِي لِبَيْتٍ لَيْسَ يُوْذَى حِمَامُهُ يَظِلُّ بِهِ أَمْنَا وَفِيهِ الْعَصَافِرُ
وَفِيهِ وَجُوشٌ - لَا تُرَامُ أَنْيْسَةٌ إِذَا خَرَجْتَ مِنْهُ فَلَيْسَتْ تُغَادَرُ

○ ولاية قصي بن كلاب:

وبعد مرور زمن طويل ومكة يحكمها بنو بكر وُغُشَانٌ^(١) خزاعة، أي من يوم انتزعوا الحكم من يد جرهم، تغلبت غُشَانٌ خزاعة على بني بكر واستقلوا بالولاية وتداولوها زمناً، وكان آخر من وليها منهم حُلَيْلُ بْنُ حُبْشَةَ ابن سلول الخزاعي، فخطب ابنته حُبَيَّ قُصَيِّ بْنِ كِلَابٍ، فزوجه إياها فولدت له عبد الدار، وعبد مناف وعبد العزى، وعبدًا وكبروا وكثر مالهم وعظم شرفهم، ومات حُلَيْلٌ، فرأى قُصَيُّ أَنَّهُ وَبْنُهُ أَوْلَى بِوَلَايَةِ الْكَعْبَةِ، فكلَّم رجلاً من قُرَيْشٍ وبني كنانة طَالِبًا نصرتهم فأعانوه على إخراج خزاعة وبني بكر فأخرجوهم، واستتب الأمر لقُصَيِّ وبنيهِ بعد قتال شديد بينهم وبين خزاعة وبني بكر انتهى بصلح وتحكيم عمرو بن عوف الكناني، كانت نهايته ولاية قُصَيِّ عَلَى مَكَّة وَالْكَعْبَةِ، فجمع قُصَيُّ قَوْمَهُ مِنْ قُرَيْشٍ مِنْ مَنَازِلِهِمْ إِلَى مَكَّة وَمَلَكُوهُ فَكَانَ أَوَّلَ أَمِيرٍ مِنْ قُرَيْشٍ فِي مَكَّة الْمَكْرَمَةِ، وَكَانَتْ لَهُ الْحِجَابَةُ وَالسَّقَايَةُ وَالرَّفَادَةُ، وَالتَّدْوَةُ وَاللِّوَاءُ، وَبِهَذَا حَازَ شَرَفَ مَكَّة كُلَّهُ.

وَجَمَعَ قُصَيُّ قَبَائِلَ قُرَيْشٍ فِي مَكَّة وَالْحَرَمِ، وَبِذَلِكَ سُمِّيَ مُجَمَّعًا، وَفِيهِ يَقُولُ الشَّاعِرُ:

قُصَيِّ - لَعْمَرِي - كَانَ يَدْعَى مَجْمَعًا بِهِ جَمَعَ اللَّهُ الْقَبَائِلَ مِنْ فَهْرٍ

○ حقائق وعبر:

من استعراضنا للحالة السياسية في بلاد العرب، نستخلص الحقائق التالية:

١ - إن البلاد اليمنية اعتورتها حكومات، متعددة أعظمها حكومات التبابعة من قبيلة جُمَيْرٍ.
٢ - إن كلا من الأحباش والفوارس، قد استعمروا اليمن بواسطة اليمنيين الذين يستنجدونهم في ظروف معينة.

٣ - شرق الجزيرة من الحيرة إلى العراق، لم يكن في الحقيقة إلا ولايات تابعة للحكم الفارسي طيلة الدهر حتى جاء الإسلام، وأن ملوك المناذرة لم يكونوا مستقلين في الغالب، وإنما هم تابعون سياسياً للحكم الفارسي المجوسي.

٤ - وسط الجزيرة - حيث الحرم وما جاوره من ديار العرب العدنانيين - كان مستقلاً، لا يحكمه الروم ولا فارس ولا الأحباش؛ كرامة الله تعالى لحرمه وسكانه وجيرانه، وهي عبرة لمن اعتبر. وحتى عهد الاستعمار الغربي الذي حكم العالم الإسلامي، فإنه لم يحكم هذه الديار الطاهرة؛ كرامة الله لحرمه وحرم حبيبه محمد ﷺ وسكانهما وجيرانهما.

(١) أبو غُشَان يُقَالُ لَهُ سَلِيمٌ وَهُوَ مِنْ خَزَاعَةَ.

○ وفي هذه المقطوعة من العبر ما يلي :

- ١ - إن الظلم لا يدوم ^(١) وإن طال زمانه ، سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلاً .
- ٢ - حماية الله لبلده وحرمة بإهلاك وإبعاد كل من يظلم فيهما ، ويستبيح المحرم فيهما .
- ٣ - من فضائل قريش الرفادة والسقاية ^(٢) ؛ إذ الرفادة هي جمع المال من أفراد القبائل القرشية سنوياً وإنفاقه في إطعام الحجاج كل عام . والسقاية كذلك ، وهي إحضار الماء محلى أحياناً بالزبيب ، وسقي الحجاج أيام حجّتهم من كل عام .

الحالة الاقتصادية في بلاد العرب

إن بلاد العرب - بأقسامها الآتية الذكر - لم يكن فيها اقتصاد ذو قيمة تُذكرُ، بَوَادٍ صحرواية، إلا ما كان من بلاد اليمن، فقد كانت بلاداً خصبة في الجملة ولاسيما أيام سد مأرب حيث ازدهرت الزراعة والفلاحة عامة بصورة تدعو إلى العجب، وقد جاء ذكرها في القرآن الكريم، إذ قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسُلَيمَ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلٌّ مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لِمَ بَلَدُ بَلَدَةٍ طَيِّبَةٍ وَرَبُّ غَفُورٌ ﴾ [سبا: ١٥] فلم يشكروا وأعرضوا عن طاعة الله ورسوله، فسلبهم الله تعالى ما أعطاهم، فخرّب سدّهم، وأجدبت أرضهم؛ ورحل عنها أكثرهم، فالتحق بعضهم بالعراق، وبعضهم ببشر - ومنهم الأوس والخزرج - وآخرون بالشمال والشام . ومع هذا، فقد وجدت في اليمن صناعات فاخرة في وقتها كصناعة الكتان، والسلاح : من سيوف، وحراب، ودروع، وغيرها .

هذا بالنسبة إلى أهل اليمن، أما القبائل العدنانية، فكان جلّها يعيش في الصحراء، ينتجع الكلا والعشب لماشيتة، ويعيش على ألبانها ولحومها إلا ما كان من قبائل قريش القاطنين بالحرم، فإنهم يعيشون على رخلتي الشتاء إلى اليمن والصيف إلى الشام، وقد امتن الله تعالى ذلك عليهم في قوله: ﴿لَا يَلَيْفُ فُتْرَيْنِ ۖ إِنْ يَنْتَهِم رِحْلَةَ الْهُنَاءِ وَالصَّيْفِ ﴾ [قريش: ١-٢] فكانوا في رَعْدٍ من العيش، على خلاف غيرهم، فإنهم كانوا على شظف العيش وضيقه، وما كان لقريش من سعة الرزق، إنما كان لها من أجل حماها للحرم وتقديسها له، كما هو كرامة الله لأزحام وأصلاّب ينتقل فيها رسولُ الله ﷺ .

○ نتائج هذه المقطوعة :

لهذه المقطوعة من السيرة العطرة ما يلي

- ١ - بيان أن الاقتصاد في بلاد العرب - بصورة عامة - لا يعتبر شيئاً يذكر إلى جانب غيره في

(١) إشارة إلى ظلم جرهم وجلانها، وظلم خزاعة وغبشانها وجلانها .
(٢) كانت قبائل قصي تنقسم هذه المكارم لكل قبيلة لهم منها، وقد كانت السقاية لآل العباس، والحجابة لبني عبد الدار .

البلاد الأخرى .

٢ - بيان أن شمال بلاد اليمن كان ذا اقتصاد لا بأس به ؛ لوجود خصب وصناعة .

٣ - خراب سد مأرب وهجرة أهله من بلادهم كان نقمة إلهية ، سببها الكفر والإعراض عن طاعة الله ورسوله .

٤ - بيان إكرام الله تعالى لقريش بتحقيق أهم هدف للإنسان في هذه الحياة ، وهو الأمن من الخوف ، والإطعام من الجوع .

٥ - وجوب شكر الله تعالى على نعمه ، إذ طَلَبَ ذلك من قريش بقوله : ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا آلِهَتِ اللَّذَاتِ أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَأَمَّنَّهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾ [قريش: ٣-٤] والعبادة هي الشكر ، وأعظمها ، إقامة الصلاة فمن لم يصل ما شكر .

الحالة الاجتماعية في بلاد العرب

إن الفترة التي عاشتها الأمة العربية بدون وحي إلهي - ولا من يحمل هدايته - كانت طويلة جداً ، وهي تلك التي كانت بين إسماعيل والنبي الخاتم محمد ﷺ . فلذا نشأت في المجتمع العربي عادات سيئة للغاية ، وأخرى حسنة للغاية أيضاً إلا أنها قد أخفتها العادات السيئة ، وإنني ذاكراً من كل منهما طرّاً ، وبذلك تعرف بوضوح الحالة الاجتماعية للأمة العربية في الجاهلية قبل الإسلام ، والقصد من ذكر ذلك أن تعرف السيئة لِتُجْتَنَّبَ ، والحسنة لِتُرْتَكَبَ ، ويحمد الله ويشكر على ما منَّ به على أمة العرب من نعمة الإسلام . وبهذا نكون قد توخينا ما يتوخاه العلماء من كتابة التاريخ وقراءته .

○ العادات السيئة :

من جملة العادات السيئة التي هبطت بالمجتمع العربي قبل الإسلام ، هي :

١ - القمار والمعروف بالميسر ، وهي عادة سكان المدن في الجزيرة ، كمكة والطائف وصنعاء وهجر ويثرب ودومة الجندل وغيرها . وقد حرمه الإسلام بآية سورة المائدة ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا لَافْتَرِ الْأَيْبِيرُ وَالْأَهْصَابُ وَالْأَزْلَامُ يَجْسُ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [المائدة: ٩٠] .

٢ - شرب الخمر والاجتماع عليها والمباهاة بتعتيقها وغلاء ثمنها ، وكان هذا عادة أهل المدن من أغنياء ، وكبراء وأدباء شعراء ، ولما كانت هذه العادة متأصلة فيهم متمكنة من نفوسهم ، حرمها الله تعالى عليهم بالتدريج شيئاً فشيئاً وذلك من رحمة الله تعالى بعباده فله الحمد وله المنة .

٣ - نكاح الاستبضاع ، وهو أن تحيض امرأة الرجل منهم ، فتظهر ، فيطلب لها أشراف الرجال وخيارهم نسباً وأدباً ؛ ليطنوها من أجل تُنْجِبَ ولدًا يرث صفات الكمال التي يحملها أولئك المواطنون لها .

٤ - وأُذِ البَنَات، وهي أن يدفن الرجل ابنته بعد ولادتها حية في التراب خوفَ العار. وجاء في القرآن الكريم التنديدُ بهذا العمل، وتقبيحُه، وذلك بذكر توبيخ فاعله يوم القيامة. قال تعالى من سورة التكاوير: ﴿وَلِذَا الْمَوْءِدَةُ سَبَّتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾﴾ (التكاوير: ٨-٩).

٥ - قتل الأولاد مطلقاً ذكوراً أو إناثاً، وذلك عند وجود فقر وحالة مجاعة، أو لمجرد توقع فقر شديد عندما تلوح في الأفق آثاره، لوجود محل وقحط بانقطاع المطر أو قتله. فحرم الإسلام هذه العادة السيئة القبيحة بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴿١٧٠﴾﴾ (النعام: ١٧٠) في آية الأنعام، ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا يَكُنْ لَكُمْ فَرْحٌ مِمَّا كُنْتُمْ كَارِهِينَ ﴿١٧١﴾﴾ (الإسراء: ١٧١). في آية الإسراء. والإملاق شدة الفقر وعظمه. ٦ - تبرج النساء بخروج المرأة كاشفةً عن محاسنها، مازةً بالرجال الأجانب، متغنجة^(١) في مشيتها، متكسرة، كأنها تعرض نفسها وتُغري بها غيرها.

٧ - اتخاذ الحرائر من النساء الأخدان من الرجال، وذلك بالاتصال بهم وتبادل الحب معهم في السر، ومن أجنب عنهن فحرم الإسلام هذه العادة بقوله تعالى: ﴿وَلَا تُخَذِّلْنَ أَعْدَاءَكُمْ ﴿٢٤٠﴾﴾ (النساء: ٢٤٠). من سورة النساء، وحرم على الرجال ذلك بقوله من سورة المائدة: ﴿وَلَا تُتَخَذَّيْ أَعْدَاءُكُمْ ﴿٥٠﴾﴾ (المائدة: ٥٠).

٨ - إعلان الإمام عن البغي بهن، وذلك بأن تجعل إحداهن راية حمراء على باب منزلها لتعرف أنها بغي ويغشاها الرجال، وتأخذ على ذلك أجرًا، أي مالا مقابل الاستبضاع. ٩ - العصبيّة القبليّة، هي مبدأ: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» فجاء الإسلام فأمر بنصرة الأخ المسلم قريباً كان أو بعيداً، إذ الأخوة المعتبرة هنا هي أخوة الإسلام. ونصرته - إذا كان مظلوماً - بدفع الظلم عنه، ونصرته - إذا كان ظالماً - بمنعه من الظلم وحجزه عنه، قال رسول الله ﷺ في رواية البخاري: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً»، ف قيل: يا رسول الله! أنصره إذا كان مظلوماً، فكيف أنصره إذا كان ظالماً؟ قال: «تحجزه عن الظلم».

١٠ - شن الغارات والحروب على بعضهم بعضاً؛ للسلب والنهب. فالقبيلة القوية تُغير على الضعيفة لتسلبها مالها؛ إذ لم يكن لهم حكم ولا شرع يرجعون إليه في أغلب الأوقات وفي أكثر البلاد.

ومن أشهر حروبهم حرب داحس والغبراء التي وقعت بين عيس من جهة وذبيان وفزارة من جهة أخرى. وحرب البسوس حتى قيل: أشأم من حرب البسوس، التي دامت كذا سنة وكانت بين بكر وتغلب. وحرب بُعات التي وقعت بين الأوس والخزرج بالمدينة النبوية قبيل الإسلام وحرب الفجار التي دارت بين قيس عيلان من جهة وبين كنانة وقريش من جهة مقابلة، وسميت حرب الفجار؛ لأنها وقعت في الأشهر الحرم.

(١) تغنجت المرأة: تدللت على زوجها بملاحة، كأنها تخالفه وليس بها خلاف.

١١ - عدم الامتهان تكبراً وأنفة؛ إذ كانوا لا يمتنون الحداة والحيابة والحجامة ولا الفلاحة، وإنما يستندون هذه المهن لإمانهم وعبيدهم. أما الأحرار، فحبسهم التجارة، وركوب الخيل، وشئ الغارات، وإنشاء الشعر، والمفاخرات بالأحساب والأنساب. هذه معظم العادات السيئة التي كانت في المجتمع العربي قبل الإسلام، وهي - كما مرّت - تُحيل المجتمع إلى مجتمع ساقط هابط لا سعادة فيه ولا هناء، إلا أنه - إزاء ذلك - كانت فيه كمالات نوردها تحت عنوان:

○ العادات الحسنة؛ هي:

- ١ - الصدق، والمراد به صدق الحديث، وهو خلق كريم عُرف به العرب في الجاهلية قبل الإسلام، فزاده الإسلام تقريراً وتمتيناً.
- ٢ - قري الضيف، وهو إطعامه، وهو من الكرم الذي يخدم صاحبه عليه، ويحمد له ويثنى به عليه فجاء الإسلام بتقريره وتأكيده؛ إذ قال رسول الله ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه» في رواية البخاري.
- ٣ - الوفاء بالعهود، وعدم نكثها مهما كلفت من ثمن، وهو خلق سام شريف، وجاء الإسلام بتقريره، وتأكيده قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْتُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ [البقرة: ١٧٧]. في بيان صفات المؤمنين في سورة البقرة.
- ٤ - احترام الجاه، وتقدير الحماية لمن طلبها، وعدم خفزه مهما كانت الأحوال، وفي الحديث: «أَجْزَأُ مَنْ أَجْزَتْ يَا أُمَّ هَانِئٍ» وأجار المسلمون أبا العاص بن الربيع - وهو مشرك - حتى دخل المدينة واستردّ ودائع وأمواله وعاد إلى مكة ثم أسلم بعد.
- ٥ - الصبر والتحمل، حتى قالوا: «تجوع الحرة ولا تأكل بشديها» وجاء الإسلام فزاد هذا الخلق قوة ومتانة. وفي القرآن: ﴿أَصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ﴾ [الممران: ٢٠٠]. وفي الحديث: «مَنْ صَبَرَ ظَفَرَ».
- ٦ - الشجاعة والنجدة والأنفة وعدم قبول الذل والمهانة، وهي خلال امتاز بها العرب نساء ورجالاً، وفي أشعارهم وأقاصيصهم شواهد ذلك.
- ٧ - احترام الحرم والأشهر الحرم، بعدم القتال فيها إلا من ضرورة، وتأمين الوافدين إلى الحرم، ولو كانوا ذوي سوابق في الشر.
- ٨ - تحريمهم نكاح الأمهات والبنات.
- ٩ - اغتسالهم من الجنابة.
- ١٠ - المداومة على المضمضة والاستنشاق.
- ١١ - السواك والاستنجا، وتقليم الأظافر، وتنظيف الإبط.

١٢ - الختان للأطفال، والخفاض للبنات.

١٣ - قَطْعُهُمْ يَدَ السَّارِقِ اليمنى.

١٤ - الحج والعمرة.

فهذه جملة من العادات الحسنة الحميدة التي عُرف بها العرب في الجاهلية قبل الإسلام، وإنها - وإن لم تكن عامة في كل فرد - فإنها الطابع العام على غالبيتهم ولولا إرادة الاختصار، وثقة القارئ فيما أقدمه له، لذكرت شواهد ذلك من كلامهم ووقائعهم نظمًا ونثرًا، وحسبنا من ذلك أن أبا سفيان بن حرب لَمَّا حضر عند هرقل ملك الروم بالشام وسأله عن النبي ﷺ لم يكتمه شيئًا مما سأله عنه، مع العلم بأنه ما زال مشتركًا وفي حرب مع الإسلام والمسلمين.

○ نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرًا لنا نبرزها للقارئ إزاء الأرقام الآتية:

١ - إن الصفات الذميمة - كالحميدة - لا تخلص كاملة لأية أمة من الأمم مهما كان رُقيها أو انحطاطها، وإنما العبرة بالحال الغالبة فقط، فمتى غلبت الصفات الحميدة كان المجتمع راقيا صالحًا، ومتى غلبت الصفات الذميمة كان المجتمع هابطًا فاسدًا.

٢ - لما جاء الإسلام - وهو دين الله عز وجل الذي لا يقبل دينًا سواه - أقر العادات الحسنة ورعّب فيها وواعد عليها بحسن المثوبة حتى أصبحت دينًا يتقرب بها إلى الله عز وجل.

وأبطل العادات السيئة الذميمة، ونفّر منها، وتوعّد عليها بالعذاب، ووضع لبعضها حدودًا رادعة، فاقتلع جذورها وطهر المجتمع العربي منها؛ إذ لا مقام لها بين أمة الإجابة والقيادة.

٣ - الخلال الحميدة - كالذميمة - صفاتٌ يساعد على تأصل الأولى في الإنسان وتثبيتها فيه الإيمان والعلم ومجاهدة النفس ومقاومة الشيطان والهوى. ويساعد على تأصل الثانية وبقيتها في الإنسان الكفر والجهل واتباع الشيطان والشهوات والهوى.

٤ - ضعف الإيمان وقلة العلم في الأمة الإسلامية اليوم - وقيل اليوم - أصّل فيها كثيرًا من عادات الجاهلية الأولى، وذلك كالتبرج، وارتكاب الفواحش وعدم احترام الحرم، وشرب المسكرات، ولعب الميسر، وإجهاض الحبالى التي كانت في الجاهلية وحرّمها الإسلام. وسبب عودتها ضعف الإيمان والجهل واتباع الأهواء والجري وراء الشهوات والعياذ بالله تعالى.

الحالة الدينية في بلاد العرب

إن مما لا شك فيه أن هاجر أم إسماعيل كانت مسلمة، وأن ولدها إسماعيل كان مسلمًا كابيه إبراهيم وأمه هاجر، وأن الله تعالى نبّأه وأرسله رسولاً إلى أهل بيته من زوجة وولد، وإلى أخواله وجيرانه من قبيلة جرهم اليمانية، وأن دين الله - وهو الإسلام - قد عمّم وانتظم حياتهم زمنًا

طويلاً لا يعرف منتهاه .

وكما هي سنة الله في الناس ، إذا انقطع الوحي عنهم ، جهلوا وظلوا كالأرض إذا انقطع عنها الغيث - المطر - أمحلت وأجدبت ، وتحولت خضرتها ونضارتها إلى قفرة وظلام يجهل فيه الإنسان ذاته ويتكرر فيه لعقله .

وأول ما بدأ الشرك في العرب المستعربة من ولد إسماعيل ، أنهم كانوا إذا خرجوا من الحرم لطلب الرزق ، أخذوا معهم حجارة من الحرم ، فإذا نزلوا منزلاً وضعوها عندهم ، وطافوا بها طَوَّافَهُمْ بالبيت ودعوا الله عندها وإذا رحلوا أخذوها معهم ، وهكذا . ويموت من أحدث لهم هذا الحدث ، ويمرور الزمان - نشأ جيلٌ جاهل ينظر إلى تلك الأوثان من الحجارة وأنها آلهة يتقرب بها إلى الله تعالى رب البيت والحرم .

فكان هذا مبدأ الوثنية في أولاد إسماعيل من العدنانيين .

أما الأصنام والتماثيل فإن أول من أتى بها من الشام إلى الديار الحجازية عمرو بن لُحي الخزاعي ، إذ سافر مرة من مكة إلى الشام ، فرأى أهل الشام يعبدون الأصنام . فسألهم قائلاً : ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدون؟ قالوا : نعبدها نستعظمها ^(١) فتعظمنا ، ونستعظمها فتعصمنا . فقال لهم : أفلا تعطوني منها صنماً فأذهب به إلى بلاد العرب فيعبدوه؟ فأعطوه صنماً يقال له : هُبَل ، وهو الذي نصبوه حول الكعبة وبقي حولها إلى يوم الفتح الإسلامي حيث حطم مع ثلثمائة وستين صنماً . وأبعدت ، فظهر البيت الحرام ، وظهرت مكة والحرم منها ، والحمد لله رب العالمين .

وكان عمرو بن لُحي محترماً في مكة مقدساً عند أهلها ، يشرع لهم فيقبلون شرعه ، ويتدع لهم فيحسنون بدعته ، فكان أول من بدل دين إبراهيم وإسماعيل في الحجاز ، ويشهد بهذا قول النبي ﷺ في حديثه الصحيح : «رَأَيْتُ عَمْرُو بْنَ لُحِي يَجْرُ قَصْبَهُ ^(٢) فِي النَّارِ . . . إِنَّهُ كَانَ أَوَّلَ مَنْ غَيَّرَ دِينَ إِسْمَاعِيلَ فَنَصَبَ الْأَوْثَانَ ، وَبَحَرَ الْبَحِيرَةَ ، وَسَبَّ السَّائِبَةَ ، وَوَصَلَ الْوَصِيلَةَ ، وَحَمَى الْحَامِيَّ » . وبمقتضى بدعة عمرو بن لُحي في جَلْبِ الأصنام إلى الحجاز من الشام انتشرت الأصنام في بلاد العرب ، وهذا بيانُ أسمائها ومواقعها والقبائل التي كانت تعبدها ، كما ذكر ذلك ابن إسحق ، وغيره من المؤرخين :

١ - سُوَاعٌ بِرُهَاطٍ بِسَاحِلِ يَنْبِيعٍ ، تَعْبُدُهُ قَبِيلَةُ هَذِيلِ الْمَضَرِيَّةِ .

٢ - وَذٌ : بِدُومَةِ الْجَنْدَلِ شِمَالِ الْمَدِينَةِ قَرِيبًا مِنَ الشَّامِ ، تَعْبُدُهُ كَلْبُ الْقَضَاعِيَّةِ .

٣ - يَفُوتٌ : بِجُرَشٍ يَعْبُدُهُ أَهْلُ جُرَشٍ ، وَهُمْ بِمَخَالِفِ الْيَمَنِ جَنُوبَ مَكَّةَ الْمَكْرَمَةِ .

٤ - يَفُوقٌ : بِأَرْضِ هَمْدَانَ مِنْ أَرْضِ الْيَمَنِ ، تَعْبُدُهُ قَبِيلَةُ خِيَوَانَ ، وَهُمْ بِطَنٍ مِنْ هَمْدَانَ .

(١) نستعظمها : نطلب منها إنزال المطر . (٢) القُصْبُ : بوزن قفل ، اسم للأعاء كلها .

وفيه يقول قائلهم:

يريش^(١) الله في الدنيا ويرى ولا يبري يعوق ولا يريش

٥ - نشر: بأرض جُمَيْر من اليمن، وتعبده قبيلة ذو الكَلَّاح من حمير.

٦ - حميانس^(٢): بأرض خولان، تعبده قبيلة خولان اليمانية، وهم الذين قسموا له أنعامهم وحروشهم، ونزل فيهم قول الله تعالى من سورة الأنعام: ﴿وَجَمَلُوا إِلَيْهِ مَنَازِلًا مِنْ أَلْعَزِيزِ وَالْأَنْكَبِ تَصِيَّبًا فَقَالُوا هَذَا إِلَهُ رَجَعِيهَمْ وَهَذَا إِلَهُكَ﴾ [الأنعام: ١٣٦].

٧ - سعد: بأرض يلمكان بن كنانة المضربة وتعبده قبيلة يلمكان، وفيه يقول شاعرهم:

أتينا إلى سعد ليجمع شملنا فشتتنا سعد فلا نحن من سعد

وهل سعد إلا صخرة بتنفوة^(٣) من الأرض لا تدعو لقي ولا تُشَدُّ!

وذلك أن هذا الشاعر أقبل بإبل مؤبلة ليقفها على سعد «الصنم» رجاء بركنه، فلما رآه الإبل - وكان ملطخًا بدم القربان - نفرت الإبل وشردت فذهبت كل مذهب، فأخذ صاحبها حجراً - وهو غضبان - وضرب سعداً الصنم، وقال له: لا بارك الله فيك نفرت علي إيلي، ثم طلب إبله وجمعها بعد تفريقها، ثم أنشد يقول: أتينا إلى سعد ليجمع شملنا إلخ.

٨ - ذو الخُلَصَة: بتبالة جنوب مكة ببلاد اليمن، وكانت تعبده دُؤَس وخثعم وبجيلة. وهذا الصنم بعث إليه رسول الله ﷺ جرير بن عبد الله البجلي، فهدمه عندما نصر الله دينه ورسوله والمؤمنين، فله الحمد والمنة.

٩ - إساف ونائلة: وهما صنمان كانا بالكعبة، ثم وضعا على الصفا والمروة كانت تعبدهما قريش من جملة أصنامها. ويرى أن أصلهما كان رجلاً وامراًة من جرهم، فجرا في داخل الكعبة، فمسخهما الله تعالى فالرجل يدعى إسافاً والمرأة تدعى نائلة. ولما جاء الإسلام تحرَّج أناس في السعي بين الصفا والمروة لمكان إساف ونائلة منهما، فرفع الله ذلك الحرج بقوله عز وجل من سورة البقرة: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة: ١٥٨]. الآية. أي: لا حرج عليه في السعي بينهما.

١٠ - المرؤى^(٤): وكانت بنخلة عن يمين الصاعد إلى العراق من مكة، وكان سَدَنَّتْهَا وحجَّابُهَا بنو شيبان من سليم حلفاء بني هاشم، وكانت تُعْبَدُ وتُقَدَّسُ تقديس البيت الحرام.

١١ - اللات: كانت بالطائف، وكانت تُقَيِّفُ تعبدها، ومنهم سَدَنَّتْهَا وحجَّابُهَا.

(١) يُقال رايش السهم وبراء. والمراد أن الله تعالى ينفع ويضر، وأن يعوق الصنم لا ينفع ولا يضر.

(٢) لعله عرف عن «هم أس» إذ لم يعثر في العربية لى اسم على هذا التركيب.

(٣) التنوفة من الأرض: هي القفر التي لا تنبت عشباً ولا كلاً.

(٤) هدمها خالد بن الوليد رضي الله عنه وهو يقول:

كفرانك يا عزي لا سبحاتك
إني رأيتُ الله قد أهانك

١٢ - مناة: وكانت على ساحل البحر من ناحية المشلل قرب قديد، وتعيدها قبيلتنا الأوس والخزرج، ومن دان بدينهم من أهل يثرب «المدينة» ولما جاء الإسلام وانتصر التوحيد على الشرك، بعث رسول الله ﷺ أبا سفيان أو علي بن أبي طالب رضى الله عنهما فهدمها.

١٣ - فليس: بجبلي طيئ، وهما سلمى وأجأ من أرض طيئ شمال الحجاز قريباً من حائل المدينة المعروفة اليوم، كانت تعيده طيئ بأنواع من العبادات كالهدي إليه، والاستسقاء به، والائتمان بساحته. وبعث إليه النبي ﷺ علي بن أبي طالب فهدمه، وكان شبه إنسان لاصق بجبل أجا.

١٤ - رثام: وهو بيت لجحيم بصنعاء من اليمن يعظمونه وينحرون عنده، وتكلمهم الشياطين عنده؛ لفتنتهم.

١٥ - رضاء: وهو بيت أيضاً لبني ربيعة بن كعب بن زيد مناة بن تميم. ولما جاء الإسلام هدمها المستنصر^(١) بن ربيعة وهو يقول:

ولقد شدت على رضاء شدة فتركها قفراً بقاع أشحما
١٦ - ذوالكعبات: وهو بيت ليكر وتغلب ابني وائل وإياد، وكان يستداد، وهي منازل لإياد أسفل سوار الكوفة، وفيه يقول أعشى بن قيس بن ثعلبة:

بين الخوزن^(٢) والسدير وبارق والبيت ذي الكعبات من سنداد
عمل العرب مع أصنامهم:

أكثر ما يعمله العرب مع أصنامهم أن أحدهم إذا أراد السفر توجه إليه صنمه فتمسح به، ثم سافر. وإذا عاد من سفره أول ما يبدأ به يتمسح بصنمه ثم يدخل على أهله.

○ نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً، نوجزها فيما يلي:

١ - بيان منشأ الشرك في العرب المستعربة، وهو نقلهم الحجارة من الحرم للتبرك بها والطواف، ولذا وجب سد هذه الذريعة فلا ينتقل شيء للتبرك به، حتى إن عمر رضى الله عنه قطع شجرة بيعة الرضوان؛ مخافة أن تُعبد بمرور الزمان اللهم إلا ما كان من آثار النبي ﷺ كشعره

(١) لقد عثر طويلاً فعاش ثلثمائة وثلاثين سنة وهو القائل:

ولقد سئمت من الحياة وطولها وعمرت من عدد السنين مئينا

مائة حدثها بعدها مائتان لي وازددت من عدد الشهور سنينا

هل ما بقى إلا كما قد فاتنا يوم يمر وليلة تحدوننا

(٢) قصر بناء النعمان بالخيرة كان آية في البناء، وخاف من بانيه أن يبني لغيره مثله فرماه من أعلاء فقتله واسم المقتول سينمار، فصار مثلاً: جزاء مجازاة سنمار.

أو ثوبه، أو سلاحه ولم يبقَ من ذلك شيء لمرور الزمان الطويل.

٢ - طاعة عمرو بن لُحي وتعظيمه والغلو فيه هو الذي جرّاه على نقل الأصنام لهم وأمرهم بعبادتها، ولذا وجب التحذير من الغلو في المشائخ، وعدم قبول قولهم وطاعة أمرهم إلا ببرهان من كتاب أو سنة يدل على ذلك ويأمر به.

٣ - عبادة العرب لآلهة قوم نوح بعد مرور القرون الطويلة أمرٌ عجب، إلا أنه لا عجب مع خبث الشياطين، ومكرهم ببني آدم لإغوائهم وإهلاكهم، إنهم - كما زينوا لقوم نوح عبادتهم فعبدوهم - زينوا كذلك للعرب عبادتهم فعبدوهم. ولا عجب، فإننا في ديار القرآن والإسلام وزين الشيطان لإخوان لنا عبادة يعوق ونسراً إذ كان لأهل قرية صغيرة تلان أحدهما يسمونه يعوق والثاني نسرا، وكانوا إذا انقطع المطر عنهم وقحطوا، خرجوا إليهما، وقدموا لهما شيئاً قرباناً واستغاثوا بهما؛ فإذا أمطروا - بقدر الله - قالوا: مُطَرَّنَا باستغاثتنا ببعوق ونسر.

٤ - بناء الأضرحة والقباب على قبور الأولياء والصالحين تركة موروثة عن الجاهلية قبل الإسلام، زينتها الشياطين وحملت الجاهل على بنائها، ثم عبادتها بأنواع العبادات، كالنذر لها والاستغاثة بها وتقديم الشاة والبقرة لها، وإيقاد الشموع عليها، وتجميرها إلى غير ذلك من الحلف بها وتعظيمها وشد الرحال إليها، إذ تقدم أن العزى ورتام ورضاء والكعبات، كانت بيوتاً تعبد ولها سذنة وحُجَّاب كما هي الحال للأضرحة في أكثر بلاد المسلمين.

البدع الدينية في عهد الجاهلية

إنه وإن كان كل ما عليه عرب الجاهلية من دين هو بدع ابتدعوها بعد غياب العلم والعلماء إلا أن هناك أموراً في الابتداع زائدة على أصل الدين الوثني الذي هم عليه، ومن ذلك ما يلي:

١ - البَحيرة، والسائبة والوصيلة، والحام. فالبحيرة: الناقة تشق أذنّها وتترك فلا تركب، ولا يشرب لبنها إلا أن يسقوه ضيقاً من ضيوفهم. ولا شك أن لهذه البدعة سبباً، ولا يبعد أن يكونوا فعلوه تقرباً لآلهتهم. كما أن السائبة: الناقة تُسبب، أي تترك للآلهة في نذر أو غيره كمجرد التقرب فلا يركب ظهرها، ولا يشرب لبنها ولا يؤكل لحمها.

وأما الوصلة فالابتداع فيها ظاهر، إذ هي الشاة تُنثَّم بأن تلد عشر إناث في خمسة أبطن ليس بينهم ذكر، فيطلقون عليها اسم الوصلة بمعنى الوصلة، إذ وصلت بين إناثها العشرة ثم هي بعد ذلك إذا ولدت، فما تلده لذكورهم دون إناثهم إلا أن يولد ميتاً، فإنهم يشركون فيه إناثهم فيأكلونه جميعاً. وهذا ما ذكره تعالى في قوله من سورة الأنعام: ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْثَىٰ ذَكَرًا لِّمَكْرُورٍ﴾ وهذا ما ذكره تعالى في قوله من سورة الأنعام: ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْثَىٰ ذَكَرًا لِّمَكْرُورٍ﴾ [الأنعام: ١٣٩].

هذه الوصلة، وأما الحامي^(١) فهو الجمل إذا بلغ حداً معيناً من النتاج، يحمون ظهره فلا

(١) الحام يجمع على حوم.

يركب ولا يحمل عليه، ويتركونه للضراب^(١) فقط، ولا شك أن هذا يفعلونه تعبدًا وتقربًا للآلهة.
 ٢ - بدعة الوقوف في الحج بمزدلفة دون عرفة، وهذه البدعة ابتدعها أشراف مكة، وهم الذي يعرفون بالحُمَسي^(٢) أما سائر العرب فإنهم يقفون بعرفات ولا يسمح لهم أن يقفوا بمزدلفة.
 ٣ - بدعة عدم الطواف في ثياب عصي فيها الله عز وجل، فلا يحلّون لأحد من غير الحمس أن يطوف في ثوب قديم، فإن لم يجد من الحمس ثوبًا يطوف فيه: طاف عريانًا، حتى إن المرأة تطوف عارية، وتضع شيئًا تستر به فرجها، ويؤكد هذا قول إحداهن:
 اليوم يبدو بَعْضُهُ أو كُلُّهُ وما بدأ منه فلا أجله
 وفي إبطال هاتين البدعتين أنزل الله تعالى قوله: ﴿ثُمَّ أَيْسُرُوا مِنْ حَيْثُ أَكْثَرَ النَّكَاسِ﴾ [البقرة: ١٩٩].

وقوله: ﴿يَبْقَى تَادَمَ حُدُودًا وَيَنْتَكِرَ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١].

٤ - بدعة الاستقسام بالأزلام، وهي عبارة عن ثلاثة قدام، كُتب على أحدها «أمرني ربي» والثاني «نهاني»، والثالث يترك غفلاً لا يكتب عليه شيء، فإذا أراد أحدهم أن يتزوج أو يطلق أو يسافر، أو يتاجر: يذهب إلى صاحب الأزلام «القَداح» فيقدم له شيئًا من المال ويجعل القداح في خريطة فإذا خرج «أمرني» أمضي ما عزم عليه، وإن خرج القدح الغفل أعاد العملية بإزالة القداح مرة أخرى، وقد حرم الله هذه البدعة بقوله من سورة المائدة: ﴿وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ﴾ [المائدة: ٩٠] وسُمِّي هذا العمل استقسامًا لأنهم يطلبون به معرفة ما قُيِّمَ لهم.

٥ - بدعة النسيء، وهي تأخير حرمة شهر المحرم إلى صفر من أجل استحلال القتال في الشهر الحرام، وأصحاب هذه البدعة يقال لهم: النَّسَاء، ويفأخرون بهذه البدعة حتى قال قائلهم:
 ألسنا الناسئين على معد شهر الحِلِّ نجعلها حرامًا
 ولما جاء الإسلام حرم هذه البدعة، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْلِلُونَ مَا كَانَ مَحْظُورًا لَهُمْ أَنْ يُولَاطُوا إِلَهُهُمْ أُولَئِكَ يَفْعَلُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحْلِلُوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ إِنَّهُمْ لَهُمْ سَوْءُ مَعْلَمِينَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٣٧].

إن لهذه المقطوعة في السيرة العطرة نتائج وعبرًا نُجملها فيما يأتي:

- ١ - إذا غاب نور العلم بموت العلماء نجمت البدع، واستبدل الناس الهدى بالضلال.
- ٢ - ضَعُفُ الإنسان الفطري هو الذي يحمله علي طلب ما يجلب له النفع ويدفع عنه الضرر، فإن اهتدى إلى الطريق الذي يحصل به على ما يرغب وينجو به مما يرهب فذاك، وإلا سلك مسالك الغواية والضلال من الظلم والشرك والابتداع.

(١) الضراب: هو اللقاح بواسطة اتصال الفحل بالأنثى.

(٢) جمع أحس، وهو المتحمس للدين وشعائره من قريش.

٣ - مع طول العهد من قَدَّ العدنانيين للعلم الصحيح بالله ودينه : فقد بقيت لهم بقايا صالحة كالحنج والعمرة ، وتعظيم البيت ، واحترام الحرم والأشهر الحرم ، والتقرب إلى الله تعالى بالهدي وإطعام الحاج ، وسقايته ، ودفع الظلم عنه .

كانت هذه نتائج ، وأما العبر فهي :

١ - إن المسلمين الذين فقدوا العلم الصحيح في ديارهم ابتدعوا بدعاً شبيهةً ببدع أهل الجاهلية ، فقد نذروا لأصحاب الأضرحة والقباب وساقوا لهم الشاة والعجل ، وحلفوا بأسمائهم ، وكسوا توابيتهم^(١) بأفخر أنواع الكسوة .

٢ - بدعة خط الرَّمْل للتعرف على المغيبات عند جهال المسلمين : كبدعة الاستقسام بالأزلام عند أهل الجاهلية المشركين .

٣ - احتيال بعض المشائخ على تحليل بعض المحرمات لمنافع خاصة لهم أو لغيرهم : هو مسلك النساء^(٢) في تأخير الشهر الحرام لاستحلاله ، وهكذا فكل فتياً يراد بها استحلال ما حرم الله بالتأويلات البعيدة فهي اتباع لأهل الجاهلية ، واستنان بسنتهم الجاهلية ، والعياذ بالله تعالى .

وأخيراً :

النصرانية واليهودية في بلاد العرب

بمناسبة ذكر الدين الذي كان عليه العرب العدنانيون قبل الإسلام - وهو الوثنية - يحسن ذكر نبذة عن الديانتين النصرانية واليهودية في بلاد العرب جنوباً وشمالاً ؛ ليعلم القارئ بكامل الحال التي كان عليها الناس في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام ؛ وليعلم أن الإسلام كان حاجة الناس في تلك البلاد كما هو حاجة كل الناس وفي كل ديارهم أمس واليوم ، غداً ؛ إذ لا كمال للإنسان ولا سعادة إلا به وعليه .

يروى ابن إسحاق حديثاً وهب بن منبه في دخول النصرانية إلى نجران جنوب مكة من بلاد اليمن - فيقول : إن رجلاً يقال له : فيميون من أهل الشام ، كان على دين المسيح - عليه السلام ، وكان صالحاً ورزقه الله كرامات ، فأحبه رجل من أهل البلاد يقال له : صالح ، ولأزمه .

ولما عُرف فيميون بالصلاح وظهور الكرامات ، خرج مع ذلك الرجل الذي أحبه فدخل بلاد العرب ، فعدوا عليهما وباعوهما عبيدين في مدينة نجران ، وأهل نجران يومئذ على دين العرب وهو الوثنية ، وكانت نخلة يعبدونها ، فجعلوا لها عيداً سنوياً يأتونها فيه ، فيعلقون عليها أجمل

(١) التوابيت : جمع تابوت ، وهو صندوق من خشب يوضع على القبر ، ويوضع عليه الثياب الحريرية تقرئاً إلى الميت الولي ، هكذا يزعم الجاهلون .

(٢) النساء : جمع ناس ، وهو الذي ينسأ الشهر الحرام ، أي يؤخره .

التياب وأحسن حلي النساء .

واشترى فيميون أحد أشرف نجران، وكان فيميون إذا قام من الليل يتنهجد أشرق له البيت نوراً . فعجب سيده من هذه الكرامة ، فسأله عن دينه؟ فأخبره بأنه على دين المسيح ، وأعلمه أن ما عليه أهل نجران هو الباطل ، كما أعلمه أن الله تعالى هو الإله الحق ، وأن هذه النخلة لا تنفع ولا تضر ، وأنه لو دعا الله تعالى عليها لأسقطها ، وفعلوا دعا الله تعالى ، فعصفت بها عاصفة فاقطعتها من جذورها .

ومما يذكر هنا : أن عبد الله بن الثامر - وكان على دين المسيح - كان له أثر كبير في نشر المسيحية في نجران بعد العبد الصالح فيميون .

وكان من أمر ابن الثامر أنه لما انتشرت المسيحية بين الناس دعاه ملك البلاد وقال له : أفندت علي أهل قريتي ، وخالفت ديني ودين آبائي ، لأمتلئ بك ؛ وجعل يعرضه لكل ألوان التعذيب ، والقتل ولم يقدر على قتله ، فقال له ابن الثامر : إنك لن تقدر على قتلي حتى تؤخذ الله تعالى ، ففعل الملك ، وضرب ابن الثامر فقتله ، ثم مات الملك على الفور إلى جنه ، وبذلك استجمع أهل نجران على الدين المسيحي ، ثم أصابهم ما أصاب غيرهم من البدع والفساد ، فكان هذا أصل النصرانية في نجران .

ولما ملك ذونواس الحميري ، وكان قد دان باليهودية ، وجد أهل نجران على المسيحية ، فدعاهم إلى دينه ، فأبوا عليه ، فحفر لهم الأخاديد وأحرق عدداً كبيراً منهم بالنار ليرجعوا عن دينهم فلم يرجعوا ، وهم الذين ذكرهم الله تعالى في سورة البروج ، وحذث عنهم رسول الله ﷺ . ثم إن رجلاً يقال له : دؤس ، قد نجا من الحريق ، وذهب إلى ملك الروم فاستعده على ذي نواس الذي قتل النصاري من أهل دينه ، فكتب له كتاباً إلى ملك الحبشة - حيث هو على دين النصاري - فأعطاه جيشاً قوامه سبعون ألفاً غزا به ذا نواس ، فهزموه ودخلوا البلاد ، حكموها بعد موت ذي نواس . وكان على رأس الجيش الحبشي أرياط وأبرهة ، فتنازعا الملك ، وغلب أبرهة أرياط وقتله ، وأصبح أبرهة الحاكم العام في البلاد ، وملك الحبشة يدعمه ويشد من أزره . هذه قصة النصرانية في نجران من بلاد اليمن .

أما اليهودية : فإنها لم تدم طويلاً في بلاد اليمن . وسبب ذلك أن تبعاً ذا نواس ، لما دخل المدينة خرج معه خبران من أحبار اليهود ، وهما اللذان دعوا إلى اليهودية فقبلها ودان بها ، وعذب نصاري نجران كما تقدم ، وانتهى ملكه بموته على يد أرياط وأبرهة الحبشيين كما سبق ذكره . إلا أن اليهودية كانت بشمال الجزيرة بفدك وتيماء وخيبر والمدينة - التي كانت تسمى يثرب - وسبب دخول اليهود إلى الحجاز من أرض الجزيرة ، هو الضغط الذي أصابهم من ملوك الروم بعد بختنصر ؛ هذا من جهة ، ومن جهة أخرى تطلعتهم إلى النبي المبعث به في التوراة والإنجيل ،

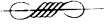
وأنة يخرج من جبال فاران، وأن مهاجرة: يثرب ذات النخيل والأرض السبخة، فنزلوا ديار الحجاز الشمالية رجاء أن يبعث نبي آخر الزمان، فيؤمنوا به ويقاتلوا أعداءهم معه، ويستردوا ملكهم المسلوب منهم من عدة قرون.

مع العلم أن اليهود والنصارى قد فسد معتقدتهم، وضاعت شريعتهم تحت تأثير التأويل للنصوص وتحريفها وتغييرها وتبديلها لتوافق الأهواء والأطماع الخاصة والشهوات العامة، فما أصبحت اليهودية، ولا النصرانية تُزَكِّي النفوس ولا تُصلح القلوب ولا تُهذب الأخلاق بعد فسادها؛ فحاجة أهل الملتين إلى الإسلام كحاجة غيرهم من المجوس والوثنيين. وقد كان اليهود يستفتحون على مشركي العرب يقولون لهم: إن نبيا قد أظلم زمانه، ويوم يظهر نؤمن به ونقاتلكم معه. نزل بقولهم هذا القرآن العظيم في سورة البقرة بقوله تعالى: ﴿وَكَاذِبًا مِّن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَمَسَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩].

○ نتائج وعبر:

لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبر، نُجملها فيما يلي:

- ١ - لم تكن النصرانية ولا اليهودية في بلاد العرب ذات شأن يذكر؛ إذ الوثنية هي الغالبة.
- ٢ - الفترة - التي كانت النصرانية في نجران سليمة في معتقداتها وشرائعها - كنت قصيرة جداً، ولذا لم يُقدَّر لها أن تنشر في بلاد العرب.
- ٣ - اليهودية ما دخلت بلاد العرب إلا بعد فسادها، فلذا لم ينتفع بها أهلها في دار هجرتهم فضلاً عن العرب الذي نزحوا إليهم وسكنوا ديارهم.
- ٤ - نظراً لفساد الديانتين السماويتين اليهودية والنصرانية، وفساد المجوسية والوثنية بالأصالة: فإن حال الناس تتطلب ديناً سماوياً جديداً، تكمل عليه الأرواح وتزكو وتهذب به الأخلاق، وتحقق به للناس السعادة والكمال في الدنيا والآخرة. وهو ما ستكشف عنه الأيام قريباً إن شاء الله تعالى.





هذه البلاد العربية، وقبائل العرب مفرقة فيها :
 خولان جنوباً، وعدرة شمالاً، والأزد شرقاً، وبنو المصطلق من خزاعة غرباً.

هل من حنفاء في بلاد العرب؟

إن الجواب عن هذا السؤال الملح هو - مع الأسف - أنه لم يكن في بلاد العرب في هذه الظروف حنفاء يؤمنون بالله وحده ويعبدونه بما شرع مخلصين له في ذلك . اللهم إلا ما كان من زيد بن عمرو بن نفيل الذي قال فيه رسول الله ﷺ : «إنه يبعث يوم القيامة أمةً وخذه» . فقد كان ينكر أعمال أهل الجاهلية ويصرح ببطلان دين قريش ويقول لهم : والذي نفسُ زيد بن عمرو بيده ، ما أصبح منكم أحد على دين إبراهيم غيري . وقال محمد بن إسحق : لقد خُذْتُ أن سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ، وعمر بن الخطاب قالا لرسول الله ﷺ : أنستغفر لزيد بن عمرو بن نفيل؟ قال : «نعم، فإنه يبعث أمةً وحده» .

وقد مات زيد قبل بعثة الرسول ﷺ . ومصدقاً هذا في حديث مسلم إذ قال ﷺ : «إن الله تنظر إلى أهل الأرض فمقتهم، عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب» فهذا الحديث دليل واضح أنه ما بُعث النبي الحبيب محمد ﷺ وفي العرب رجل واحد على دين صحيح يقبده به الله تعالى . أما اليهود والنصارى ، ففيهم بقايا يعبدون الله تعالى بدين صحيح من دين موسى وعيسى - عليهما السلام - لكنهم قليل جداً لا يتم على أيديهم هداية الناس ولا إصلاحهم .

ومن شعر زيد بن عمرو بن نفيل المصريح بإيمانه وتوحيده قوله :

أرَبًا واحدًا أم ألف ربٍّ أدينُ إذا تقسَّمت الأمورُ
عَزَلْتُ اللائِكُ والعُزَّى جميعًا كذلك يفعلُ الجَدُّ الصَّبورُ
فلا العُزَّى أدينُ ولا ابنتيها ولا صَنَمي بني عمرو أُوورُ
ولا هُبَلًا أدينُ وكَبَانُ ربًّا لنا في الدهرِ إذ جَلَمي يسيرُ

وأما ورقة بن نوفل ، فقد دان بالنصرانية ، ومات قبل بدء الدعوة الإسلامية كما أن عبید الله بن جحش ابن رثاب - وإن أسلم في أول الأمر ؛ لأنه حضر البعثة المحمدية - إلا أنه ترك الإسلام وتنصر في الحبشة لما هاجر إليها مع من هاجر من المسلمين ، خلف زوجته أم حبيبة بنت أبي سفيان فتزوجها رسول الله ﷺ رحمةً بها ، وأتاب عنه في عقد نكاحها أضخم النجاشي ملك الحبشة - رحمه الله تعالى - .

وأما عثمان بن الحُوَيرث ، فقد قدم الشام وتنصر ، وكانت له منزلة عند قيصر ملك الروم النصراني . فهؤلاء الرجال الأربعة الذين كانوا قد أنكروا على قريش عبادة الأوثان ، وكانوا يصرحون بأنهم على دين إبراهيم - عليه السلام - إلا أنهم في آخر الأمر ماتوا على غير الحنيفية إلا ما كان من زيد بن عمرو بن نفيل فإنه مات حنيفًا مسلمًا على ملة التوحيد ، ويؤكد ذلك إذن النبي ﷺ لولده سعيد وعمر بن الخطاب بالاستغفار له ، وأخبر أنه يبعث يوم القيامة أمةً وحده .

○ نتائج وعبر :

- إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرًا تُوجزها فيما يلي :
- ١ - بيان أن الناس - عربًا وعجمًا - قد ضلوا سواء السبيل، واستوجبوا مَقَتَّ الله تعالى لهم، اللهم إلا أفرادًا قلائل من أهل الكتابين اليهود والنصارى، فإنهم بقُوا يعبدون الله تعالى بما شرع على السنة رسله حتى بُعث النبي الخاتم الحبيب محمد ﷺ وهم قليل .
 - ٢ - بيان أن العرب لم يَثِقْ منهم رجل واحد على دين الله الذي أرسل الله به إبراهيم وإسماعيل - والأنبياء من قبل ومن بعد - يعبد الله تعالى بما شرع ويوحده في عبادته ؛ لأن زيد بن عمرو بن نفيل - وإن كان موحدًا - إلا أنه لم يكن له شرع يَغْدُ الله تعالى به . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإنه قد مات قبل البعثة المحمدية .
 - ٣ - حال الناس هذه - في ضلالهم وعدم هدايتهم - كانت مستوجبة للبعثة المحمدية منتظبة لها بل كانت حاجتها الملحة التي لا بد منها .

تباشير الصباح

إن من سنن الله تعالى في الكون، أن الانفراج يكون بعد الشدة، والضياء يكون بعد الظلام، واليسر بعد العسر .

إنه، بعد ذلك الظلام الحالك الشديد، الذي غطى سماء الحياة البشرية حيث عَمَّ ظلام الشرك والكفر والظلم والشر والفساد؛ إذ نظر الله تعالى إلى الناس فمقتهم عربهم وعجمهم؛ لما هم عليه من انكفر والشر والفساد إلا بقايا من أهل الكتاب - في هذا الظروف بالذات أخذت تباشير الصباح تلوح بقرب انبثاق النور المحمدي، يلوح هنا وهناك في الآفاق المظلمة المدلهمة .

وها هي ذي بين يديك أيها القارئ الكريم كواكب زهر تلوح في الأفق كوكبًا بعد كوكب، مؤذنة بقرب انبلاج الفجر المحمدي .

○ فأولاً: دعوة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام:

فقد أخبر تعالى عنهما أنهما سألاه أن يبعث في ذريتهما رسولاً منهم جاء ذلك في قوله تعالى من سورة البقرة: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (البقرة: ١٢٨-١٢٩) . كما أخبر هو بنفسه ﷺ مقررًا هذه الحقيقة مؤكدة لها فقال: «أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى»^(١) .

(١) تقدم تفريغ هذا الخبر، ونصه أطول من هذا .

○ ثانياً: أخذ الميثاق له ﷺ:

لقد أخذ الله الميثاق على كل نبي نبيه، ورسول أرسله: أن يؤمن بمحمد ﷺ وينصره متى بُعث، ولازم هذا أنه عرفه باسمه وصفاته. جاء هذا في قوله تعالى من سورة آل عمران: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الْنَّبِيِّينَ لَمَّا أَعْتَبْتُمْ مِنْكُمْ وَيَكْفُرُوا بِهِ وَيَسْعَى فِي الْأَرْضِ يَمْسِكُ بِقُلُوبِهِمْ قُلْ رَبِّكُمْ يَعْلَمُ بِمَا فِي صُفُوفِكُمْ وَكَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْغَالِبِينَ﴾ [١٨١].

○ ثالثاً: بشارات الكتب الإلهية به:

ففي التوراة، يروي البخاري عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قوله قال: وجدت في التوراة في صفة النبي ﷺ يقول الله سبحانه وتعالى: يا أيها النبي إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا، وَحَرًّا لِلْأُمِّيِّينَ، أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي، سَمِيْتُكَ الْمُتَوَكِّلَ، لَيْسَ بِقَطْرٍ وَلَا غَلِيظٍ، وَلَا صَخَابٍ فِي الْأَسْوَاقِ، وَلَا يَدْفَعُ السَّيِّئَةَ بِالسَّيِّئَةِ، وَلَكِنْ يَغْفُو وَيُصَفِّحُ، وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللَّهُ حَتَّى يقيم به الملة العوجاء، ويفتح عيوناً عمياً، وأذاناً صُمًّا، وقلوباً غُلْفًا بأن يقولوا: لا إله إلا الله. وفيها - أي في التوراة - أيضاً: «تجلى الله من طور سيناء، وأشرف من ساعير، واستعلى من جبال فاران». فتجلى له سبحانه وتعالى من طور سيناء، المراد به إنزاله التوراة على موسى. وإشراقه من ساعير: المراد به إنزاله الإنجيل على عيسى واستعلاؤه من جبال فاران: إنزاله القرآن الكريم على المبعث به محمد ﷺ؛ إذ جبال فاران هي جبال مكة المكرمة.

○ وجاء في التوراة أيضاً:

«أقيم لهم نبيا من وسط إخوتهم مثلك، وأجعل كلامي في فمه، فيكلمهم بكل ما أوصيه به». فالذي يجعل الله تعالى كلامه في فمه لن يكون إلا محمداً ﷺ إذ هو الذي يقرأ القرآن عن ظهر قلب، ولا ينطق إلا بما جاء فيه ودعا إليه من الحق والهدى الخير. ○ وجاء في الإنجيل:

«في تلك الأيام، جاء يوحنا المعمدان يكرز في بَرِيَّةِ الْيَهُودِ قَائِلًا: تَرَبُّوا؛ لِأَنَّهُ قَدْ اقْتَرَبَ مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ». فقولُه: «قد اقترَبَ ملكوت السموات» إشارة إلى النبي محمد ﷺ وبشارة به وبقرَب بعثته؛ إذ هو الذي ملك وحكم بقانون السماء الذي هو شرع الله تعالى. ○ وجاء فيه أيضاً:

قَدَّمَ لَهُمْ مَثَلًا: قَائِلًا: «يُشَبِّهُ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ حَبَّةَ خَرْدَلٍ أَخَذَهَا إِنْسَانٌ وَزَرَعَهَا فِي حَقْلِهِ وَهِيَ أَصْغَرُ جَمِيعِ الْبُذُورِ، وَلَكِنْ مَتَى نَمَتْ فَهِيَ أَكْبَرُ الْبَقُولِ» فهذه البشارة، هي غيبها التي في القرآن؛ إذ قال تعالى في سورة الفتح: ﴿وَنُنَزِّلُ فِي الْإِنجِيلِ كَرِّمًا أَخْرَجَ مِنْكُمْ شَخْصًا فَتَوَلَّى فَاسْتَفْتَى عَلَى سُلُوفِهِمْ يُحِبُّ الزَّعَامَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٤].

○ وجاء فيه أيضًا:

«أنطلق؛ لأنني - إن لم أنطلق - لم يأتكم «البارقليط» فأما إن انطلقتُ أرسلته إليكم فإذا جاء، ذاك الذي يوبخ العالم على خطيئته». فهذه بشارة كاملة بالنبي الذي يوبخ العالم على خطيئته؛ إذ بعث ﷺ والعالم كله في ظلمات الشرك والكفر، وقد مقت الرب تبارك وتعالى الناس عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب، وقد تقدم بيان ذلك.

○ وجاء في الزبور:

«ومن أجل هذا بارك الله عليك إلى الأبد، فتقلد أيها الجبار^(١) بالسيف؛ لأن البهاء لوجهك، والحمد الغالب عليك، اركب كلمة الحق، وسمة التأله، فإن ناموسك وشرائعك مقرونة بهيبة يمينك، وسهامك مستونة، والأمم يخزّون تحتك».

○ رابعًا: قال أشعيا النبي - عليه السلام -:

«وُلد لنا غلام يكون عجبًا وبشرا، والشامة^(٢) على كتفيه، أركون^(٣) السلام إله جبار وسلطانة سلطان السلم، يجلس على كرسي داود».

○ وقال أيضًا:

قيل لي: قُمْ ناظرًا، فانظر ماذا ترى؟ قلت: أرى راكبين مقبلين، أحدهما على حمار، والآخر على جمل، ويقول أحدهما لصاحبه: سقطت أصنام بابل للبحر. إن الراكبين هما عيسى ومحمد ﷺ وسقوط أصنام بابل كان على يد أمة محمد ﷺ.

○ وقال حزقيال - عليه السلام -:

قال حزقيال - عليه السلام - وهو يصف للناس أمة محمد ﷺ: «إن الله يظهرهم عليكم، وبعث فيهم نبيًا، ومنزل عليهم كتابًا، ويملكهم رقابكم فيقهرونكم ويذلونكم بالحق، ويخرج رجال من بني قيذار^(٤) في جماعات الشعوب ومعهم ملائكة على خيل بيض^(٥) متسلحين فيحيطون، وتكون عاقبتكم إلى النار».

(١) قال أهل العلم: إن هذه الصفات لا تنطبق على أحد بعد داود إلا على محمد ﷺ، وذكر هذا شيخ الإسلام ابن تيمية في الجواب الصحيح، لمن بدل دين المسيح.

(٢) الشامة هي خاتم النبوة بين كتفيه ﷺ.

(٣) الأركون: العظيم بلغة الإنجيل.

(٤) أولاد قيذار هم: ربيعة ومضر من ولد عدنان بن إسماعيل، وفي هذا الخبر ترجيح أن العدنانيين هم من قيذار لا من نابت أخيه. إلا أن الخطب سهل، لأن نابتًا شقيق قيذار فأيا ما كانوا فهم أولاد عدنان بن إسماعيل بن إبراهيم - عليه السلام.

(٥) هذا الوصف لا ينطبق إلا على أمة محمد ﷺ: إذ هم الذين قاتلت معهم الملائكة في بدر وغيرها وكانت خيولهم بيضاء.

○ وقال دانيال - عليه السلام - :

فظهر لي الملك في صورة شاب حسن الوجه ، فقال السلام عليكم يا دانيال إن الله يقول : إن بني إسرائيل أغضبوني ، وتمردوا علي ، وعبدوا من دوني آلهة أخرى ، وصاروا من بعد العلم إلى الجهل ، ومن بعد الصدق إلى الكذب ، فسلطت عليهم بختنصر ، فقتل رجالهم وسبى ذرياتهم ، وهدم بيت مقدسهم وحرق كتبهم ، وكذلك فعل من بعده بهم . وأنا غير راض عنهم ، ولا مقبلهم عثراتهم ؛ فلا يزالون مغلوبين ، عليهم الذلة والمسكنة حتى أبعث فيهم نبيا^(١) من بني إسماعيل الذي بشرت به هاجر ، وأرسلت إليها ملاكي فيبشرها ، وأوحى إلي ذلك النبي وأعلمه الأسماء وأزيته بالتقوى ، وأجعل البر شعاره ، والتقوى ضميره ، والصدق قوله ، والوفاء طبيعته ، القصد سيرته ، والرشد سنته ، أخضه بكتاب مصدق لما بين يديه ، وناسخ لبعض ما فيها ، أصري به إلي من سماء إلى سماء حتى يعلق فأذنيه ، وأسلم عليه ، وأوحى إليه ، ثم أرده إلى عبادي بالسرور والغبطة ، حافظا لما استودع ، صادعا بما أمر ، يدعو إلى توحيدي باللين من القول ، والموعظة الحسنة ، لا فظ ولا غليظ ، ولا صخاب في الأسواق ، رءوف بمن والاه ، رحيم بمن آمن به ، خشن على من عاداه ، فيدعو قومه إلى توحيدي وعبادتي ، ويخبرهم بما رأى من آياتي فيكذبونه ويؤذونه .

○ شهادات أهل الكتاب :

قال بعض أهل المدينة ممن أنعم الله عليهم بنعمة الإسلام فأسلموا لله ظاهرا وباطنا : إن مما دعانا إلى الإسلام - مع رحمة الله وهداه لنا - أن كنا نسمع من رجال يهود ؛ إذ كنا أهل شرك وأصحاب أوثان ، وكانوا أهل كتاب عندهم علم ليس عندنا ، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شروخ ، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون ، قالوا لنا : إنه قد تقارب زمان نبي ، يبعث فنقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فكنا كثيرا ما نسمع ذلك منهم . فلما بعث الله رسوله محمدا ﷺ أجبناه حين دعانا إلى الله ، وعرفنا ما كانوا يتوعدونا به ، فبادرناهم إليه فأمنوا ، وكفروا به وكذبوه ، وفيهم نزلت هذه الآيات من البقرة : ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْهِمُونَ عَلَى الْأَيِّينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩] . وقال ابن الهيثمان اليهودي - عند موته بالمدينة وقد جاء من الشام - يا معشر يهود ، ما ترونه أخرجني من أرض الخمر والخبز إلى أرض البؤس والجوع ؟ فقالوا له : أنت أعلم . فقال : إني قدمت هذه البلدة ، أتوقع خروج نبي قد أظن زمانه ، هذه البلدة مهاجرة ، فكنت أرجو أن يبعث فاتبعه ، إنه قد أظلمك زمانه فلا تسبقن إليه يا معشر يهود !!^(١) .

(١) فقلوه - عليه السلام - : حتى أبعث فيهم نبيا إلى آخر كلامه وهو يخبرهم بما رآه ، هو وصف كامل وإخبار صادق لمحمد ﷺ وكتابه ودعوته .

وقال صاحب عمورية^(١) - وكان على دين المسيح - قال لسلمان الفارسي وقد تنقل إليه من رجل دين إلى آخر حتى انتهى إليه بوصية وُصِّي بها، وقد حضره الموت قال له: «والله ما أعلم أنه أصبح اليوم أحد من الناس على مثل ما عليه هؤلاء - الرهبان الذين تنقل بينهم سلمان - أمرك أن تأتبه، ولكنه قد أظلم زمان نبي هو مبعوث بدين إبراهيم - عليه السلام -، يخرج بأرض العرب، مهاجرة إلى أرض بين خرتين بينهما نخل - إنها المدينة ورب الكعبة - به علامات لا تخفى، يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة، بين كنفه خاتم النبوة، فإن استطعت أن تلحق به بتلك البلاد فافعل».

○ هتاف الجن بالبشري:

إن من جملة تباشير الصباح - التي سبقت طلوع الفجر المحمدي - أن كثرت الشهب في السماء، ورجمت الشياطين، الأمر الذي اندهش له الناس وفزعت له الكهان من نساء ورجال، وهذا سواد بن قارب رضى الله عنه يُمَرُّ بين يدي عمر بن الخطاب، فيقول له رجل: يا أمير المؤمنين هل تعرف من المار؟ فيقول عمر: لا، ومن هو؟ فيقول له: هذا سواد بن قارب الذي أتاه رثيه بظهور النبي ﷺ، وعندها أرسل إليه عمر فجاء، فقال له: أنت سواد بن قارب؟ قال: نعم. قال: أفأنت على ما كنت عليه من كهانتك؟ فغضب سواد وقال: ما استقبلني بهذا أحد منذ أسلمت يا أمير المؤمنين، فقال عمر: سبحان الله!! ما كنا عليه من الشرك أعظم مما كنت عليه من كهانتك. فأخبرني بإتيانك رثيك بظهور النبي ﷺ. قال: نعم يا أمير المؤمنين، بينما أنا ذات ليلة بين النائم واليقظان، إذ أتاني رثي، فضربني برجله، وقال: قُمْ يا سواد بن قارب، فاسمع مقالتي، واعقل إن كنت تعقل: إنه قد بعث رسول من لؤي ابن غالب يدعو إلى الله وإلى عبادته، ثم أنشأ يقول:

عجبت للجنِّ وتطَلَّابِها وشَدَّها العيس^(٢) بأقنابِها
تهوي إلى مكة تبغي الهدى ما صادقُ الجنِّ ككذابِها
فارحلْ إلى الصُّفوة من هاشم ليس المقاديم^(٣) كأذنابِها
ثم ذكر أنه أتاه ليلتين بعد الأولى - وهو فيها كلُّها بين النائم واليقظان - وقال له: قُمْ يا سواد بن قارب، واعقل إن كنت تعقل؛ إنه قد بعث رسول من لؤي بن غالب، يدعو إلى الله وإلى عبادته، وأنشده في كل ليلة أبياتاً منها قوله:

أتاني نجيب بعد هذو ورقدة ولم يك فيما قد تَلَوْتُ بكاذِب
ثلاث ليالٍ قولُه - كل ليلة - : أتاك رسولٌ من لؤي بن غالب

(١) عمورية: بلد في الروم غزاه المعتصم حين شراة العلوية.

(٢) العيس: الإبل البيض اللون.

(٣) أي أوائلها، كأذنابها، أي أواخرها، يريد الفضل لأهل السبق الذين بادروا إلى الإسلام وسبقوا غيرهم إليه.

ولما بعث النبي ﷺ أسلم سواد، وأتى النبي ﷺ، وقص عليه قصة رثيه، وأنشد الأبيات التالية:

فأشهد أن الله لا ربَّ غيره وأنت مأمونٌ على كل غائب
وأنت أدنى المرسلين وسيلةً إلى الله يا ابن الأكرمين الأطياب
فمُرْنَا بما يأتيك من وحي ربنا وإن كان فيما قلت شيب اللؤباب
وكن لي شفيعاً يوم لا ذو شفاعة بمُغْنٍ فتيلاً عن سواد بن قارب
أما كثرة الشهب وزعمي الشياطين بها، ومَنَعهم من استراق السمع، فقد جاء ذكره في القرآن الكريم، وهو قوله تعالى من سورة الجن: ﴿وَأَنَّا لَنَسَنَّا أَلسِنَتَهَا مُتَّبِعَةً حَرَماً شَيْدَاً وَشُهَبَاً ۚ وَأَنَّا كُنَّا نَعْبُدُهُمْ إِتْمَاعًا لِّلشَّيْطَانِ فَمَنْ يَسْتَعِجِ الْآنَ يَجِدْ لَكُمْ يُشَاقُّكُمْ رَصَدًا ۚ وَأَنَّا لَا تَدْرِي أَتَرَىٰ أُنْزِلَ فِي الْأَرْضِ أَمْرٌ أَزَادَ بِرُءُوسِهِمْ رُشْدًا ۚ﴾ [الجن: ٨-١٠].

إن المراد من حادثة أصحاب الفيل، هو غزوة أبرهة الأشرم عامل ملك الحبشة على اليمن وكان سبب غزوه مكة - حماتها الله من كل جبار ظالم - أنه أراد التقرب إلى ملك الحبشة لأمر حدث بينهما، فبنى بصنعاء بيتاً لم ير مثله وسماه «القليس» وقال: إنه يدعو الناس لحججه بدل الكعبة في مكة المكرمة؛ لتتحول تجارة العرب إلى اليمن، فسمع بذلك رجل كناني، فأتى القليس وأحدث^(١) فيه وذهب، فبلغ ذلك أبرهة، فحلف أن يغزو مكة ويهدم الكعبة. وجهاز جيشاً قويا، وأخرج معه الفيل المسمى محموداً، وسار في طريقه وكلما اعترضته قبيلة من القبائل العربية لتصدّه قاتلها وهزمها، حتى انتهى إلى مشارف الحرم، فبعث رجاله، فساقوا ماشية أهل مكة، ومن بينها مائتا بعير لعبد المطلب بن هاشم شيخ مكة ورئيس قريش بها، ثم جرت سفارة انتهت بمفاوضات طالَبَ فيها عبد المطلب بإبله. وأما البيت فقد قال قولاً سارَ مثلاً: «إن للبيت رباً يخميه» ولما علم عبد المطلب عجز قومه عن مقاومة هذا العدو الظالم ذي الجيش العرمرم الجرار، أمر أهل مكة أن يلتحقوا بشعاف الجبال وقممها حتى لا تلحقهم معرة الجيش الغازي، ففعل ذلك أهل مكة، ووقف عبد المطلب بباب الكعبة أخذاً بحلقته، وهو يقول:

لأهْمُ إن العبد ينف نَحْ رَحْلُهُ؛ فامنع جلالك^(٢)
لا يغلبن صليبهم ومخالهم غَدُوا محالك^(٣)
إن كنت تاركهم وبلد لمَنَّا فأمر ما بدا لك
وانصر على آل الصّليب ب وعابديه اليوم ألك

(١) أي تغرّط ولطخ جدران البيت بالعذرة.

(٢) جمع جل: المجموعة من البيوتات وأهل خلول بها.

(٣) المحال: القوة. وغدوا بمعنى غداً ردت الواو المحذوفة منه في الشعر.

فلما أصبح أبرهة، وتعباً لدخول مكة، ووجه الفيل إلى مكة، أبى الفيل أن يمشي، فإذا وجَّهه إلى غيرها مشى، وما زال يحاوله حتى أرسل الله تعالى عليهم طيراً أبابيل من البحر، يحمل كلُّ طير ثلاثة أحجار، واحدة بمنقاره واثنين برجليه فما أصابت رجلاً إلا أخذ لحمه ينساقط، وطلبوا من يدلهم على الطريق ليعودوا هارين إلى اليمن. فقال دليلهم:

أين المفسر والإله الطالب والأشرم المغلوب ليس الغالب وانتهت الحال بهزيمة جيش أبرهة وهلاكه، وأما أبرهة فقد نُقل مُثَخَّنًا بجراحاته إلى صنعاء فمات بها، وقد أنزل الله تعالى سورة «الفيل» متضمنة هذه الحادثة إجمالاً، وهي آية صدق النبوة المحمدية.

○ نتائج وعبر:

- لهذه المقطوعة من السيرة نتائج وعبر نجملها فيما يأتي:
- ١ - بيان بداية أمر النبي ﷺ، وأنها كانت من عهد إبراهيم - عليه السلام -.
 - ٢ - بيان استجابة الله تعالى دعوة خليله إبراهيم - عليه السلام -.
 - ٣ - بيان علو شأن الحبيب محمد ﷺ وكمال شرفه الذي لا يداني فيه؛ وذلك بأخذ الله تعالى الميثاق على الأنبياء، بأنه متى بُعث النبي محمد ﷺ آمنوا به ونصروه وعزَّوه.
 - ٤ - بيان كمال خلق الحبيب محمد ﷺ الذي تجلَّى فيما وصفه به ربُّه تعالى في التوراة، وعلى لسان المَلَك الذي نزل على النبي دانيال - عليه السلام -.
 - ٥ - بيان شرف العرب، وما حياهم ربهم تعالى به من بعثة أفضل أنبيائه، وجعله حرراً لهم، فكملموا وسعدوا به بعد أن آمنوا به وبما جاء به، واتبعوا النور الذي أنزل عليه، وهو القرآن الكريم.
 - ٦ - إثبات نبوة الحبيب محمد ﷺ وتقريرها بشهادات التوراة والزبور والإنجيل وأنبياء بني إسرائيل ومؤمني الجن وصالحي أهل الكتاب من يهود ونصارى، الأمر الذي يصبح معه إنكار رسالته ﷺ ضرباً من السفه والحمق والضلال العقلي، والحكم بالخسران الأبدي لصاحبه.
 - ٧ - في هزيمة أبرهة وجيشه بخارقة لم يعرف مثلها: أكثر آية على قرب طلوع الفجر المحمدي.
 - ٨ - إن العبرة من هذا الذي تقدم في هذه المقطوعة من السيرة، هو وجوب الإيمان اليقيني بنبوة محمد ﷺ، ووجوب اتباعه وتعظيمه ومحبة فوق محبة النفس والمال والأهل والولد.

طلوع الفجر المحمدي أو الميلاد السعيد

من عام الفيل، وفي شهر ربيع الأول الذي أصبح يعرف بربيع الأنور، ومن ليلة الاثنين الثاني عشر منه: طلع فجر النبوة المحمدية.

هذا الذي عليه أكثر المؤرخين للميلاد النبوي السعيد .

الحمل قبل الميلاد .

والمصاهرة قبل الحمل .

والوالد قبل الولد .

ولكل زمان ومكان .

في بطحاء مكة ، وفي بيت عريق في الشرف - بيت شيبه الحمد عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي - زوج عبد المطلب ولده عبد الله الذبيح سليله الشرف أشرف فتاة وأعفها وأكملها خلقتا وخلقتا آمنه بنت وهب ابن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة ابن كعب الزهرية القرشية . أما عبد الله الوالد ، فللقبه بالذبيح قصة من أطرف القصص وأطرفها تتشرف الأذان بسماعها ، وتهفو القلوب لذكرها ، وهذا عرضها باختصار حتى لا نبعد من ساحة الأنوار :

كانت زمزم قد طمرت جرحهم عند مغادرتها مكة لظلمها فانهزامها ، كان ذلك منها نعمة على أهلها الذي حاربوها وطردوها . وظلت زمزم مطمورة إلى عهد شيبه الحمد عبد المطلب فأري في المنام مكانها وحاول إعادة حفرها ، ومنعته قريش ، ولم يكن له يومئذ من ولد يعينه على تحقيق مراده إلا الحارث ، فنذر لله تعالى إن رزقه عشرة من الولد - يحمونه ويعينونه - ذبح أحدهم ، ولما رزقه الله عشرة من الولد وأراد أن يفي بنذره لربه ، فافترع على أبيهم يكون الذبيح ، فكانت القرعة على عبد الله ، وهم أن يذبحه عند الكعبة فمنعته قريش ، وطلبوا إليه أن يرجع في أمره إلى عرافة بالمدينة تفتيه في أمر ذبح ولده فأرشدته إلى أن يضع عشرا من الإبل - وهي دية الفرد عندهم - وأن يضرب بالقداح على عبد الله وعلى الإبل ، فإن خرجت على عبد الله الذبيح زاد عشرا من الإبل ، وإن خرجت على الإبل فأنحرها ؛ فقد رضيها ربكم ، ونجا صاحبكم !! فوصلوا مكة ، وجيء بالإبل وصاحب القداح ، وقام عبد المطلب عند هبل داخل الكعبة يدعو الله عز وجل ، وأخذ صاحب القداح يضربها ، وكلما خرجت على عبد الله زادوا عشرا من الإبل حتى بلغت مائة ، كل ذلك وعبد المطلب قائم يدعو الله عز وجل عند هبل ، فقال رجال قريش : قد انتهى رضا ربك يا عبد المطلب ، فأبى إلا أن يضرب عنها القداح ثلاث مرات ففعل ، فكانت في كل مرة تخرج على الإبل ، وعندها رضي عبد المطلب ونحر الإبل وتركها لا يصد عنها إنسان ولا حيوان ، ونجى الله تعالى - والحمد لله لا لسواه - عبد الله والد رسول الله . فهذا سبب لقب عبد الله بالذبيح ، وهو أحب أولاد عبد المطلب العشرة إليه ، وزاده حباً فيه هذه الحادثة العجيبة .

وأكرم الله تعالى عبد المطلب بإعادة حفر زمزم إذ وافقته قريش على حفرها ، وكانت موافقتها لآية شاهدها لعبد المطلب ، وهي أنهم لما منعه من حفرها وأبى عليهم ذلك قالوا : نختمهم إلى الكاهنة - وهي كاهنة بني سعد وكانت بأعالي الشام - فذهبوا إليها ، وأثناء سيرهم في طريقهم

عطشوا لنفاد مائهم فلما ظنوا الهلاك، وإذا بعين تنفجر تحت خفّ ناقة عبد المطلب، فقاموا فثربوا وسقوا وعندها أذعنوا لأمر عبد المطلب ورضوا له بحفر بئر زمزم خالصة له دون غيره من أهل مكة.

○ نتائج وعبر:

- ١ - إن من نتائج وعبر هذه المقطوعة من السيرة العطرة ما يلي:
١ - فَرَّغَ عبد المطلب إلى الله تعالى يدعوه، وفي كل النواصب دليل على أن مشركي العرب ما كانوا ملاحدة، بل كانوا يؤمنون بالله رباً خالقاً رازقاً مديراً، والقرآن شاهدٌ بهذا.
- ٢ - دعاء عبد المطلب الله تعالى عند هُبل استشفاعاً به وتوسلاً، وَرَّثَهُ الشَّيْطَانُ جِهَالًا المسلمين، فإن أحدهم يأتي قبر الولي ويدعو الله تعالى عنده استشفاعاً بالولي وتوسلاً به على سنة عبد المطلب الجاهلي، والعياذ بالله تعالى.
- ٣ - كرامات عبد المطلب التي أكرمها الله بها - كرؤيا بئر زمزم وحفرها والماء الذي نبع من تحت خف ناقة، وخروج القداح على الإبل لا على ولده - هي في الظاهر كراماتٌ لعبد المطلب، إلا أنها في الحقيقة هي آيات النبوة المحمدية وتبشيرها.
- ٤ - مواصلة ضرب القداح - حتى بلغت مائة - كانت مبدأ تقرير دية الرجل وهي مائة من الإبل وأقرها الإسلام فكانت دية الرجل المؤمن، والمرأة على النصف منها.

الحمل والولادة

- لقد تزوج عبد الله آمنه، زوجه بها والدّه عبد المطلب على إثر نجاته من الذبح وفاءً بالتذر، وبنى بها عبد الله، وحملت منه بالحبيب محمد ﷺ، وواكبت حَمْلَهُ ووضعت آيات نبوته التالية:
- ١ - إنه ولد ﷺ من نكاح شرعي لا من سفاح جاهلي، وهي عصمة إلهية لا يقدر عليها إلا الله.
- ٢ - إن أمه آمنه لم تجد أثناء حملها به ﷺ ما تجده الحوامل عادة، من الوهن والضعف، فكان هذا آية.
- ٣ - إن آمنه لما حملت به ﷺ ولما وضعته، رأت نوراً خرج منها فأضاء لها قصور الشام: فقد سئل ﷺ عن نفسه قال: «أنا دعوة إبي إبراهيم وبُشْرَى عيسى، ورأت أمي حين حملت بي: أنه خرج منها نور أضاء لها قصور الشام».
- ٤ - إن آمنه لما حملت به ﷺ أتاهَا آتٍ: إنك حملت بسيد هذه الأمة، فإذا وُضِعَ في الأرض فقولِي: أعينه بالواحد، من شر كل حاسد، وآية ذلك أنه يخرج معه نور يملأ قصور بُشْرَى من أرض الشام؛ فإذا فسّمته محمداً، فإن اسمه في التوراة أحمد يحمدّه أهل السماء وأهل الأرض.
- ٥ - إنه ولد ﷺ مسروراً، أي مقطوع السرة على خلاف المواليد في قطع القوابل سرارهم

المتصلة بأمراتهم .

- ٦ - إنه ولد ﷺ مختوناً، أي مقطوع غلفة الذكر فلم يخن كما يخن المواليد ولهذا أُعْجِبَ به جده عبد المطلب، وقال سيكون لابني هذا شأنٌ عظيم، وخطي عنده بأكرم منزلة .
 - ٧ - انكسار البرمة التي وضعت عليه بعد ولادته على عادة النساء من قريش؛ إذ وجدت منكسرة على شقين، ولم يَبْتَ تحتها ﷺ، فكانت آية نبوته ﷺ .
 - ٨ - ارتجاج إيوان كسرى فارس وسقوط أربع ^(١) عشرة شُرْفَة من شرفاته .
 - ٩ - خمود نار فارس التي لم تخمد منذ ألف سنة .
 - ١٠ - امتلاء البيت - الذي ولد به - نوراً، ورؤية النجوم، وهي تدنو منه حتى لتكاد تقع عليه ﷺ، رأت هذا أمه والقابلة التي كانت معها وخدنتاً به، وهو حق لا باطل، وصدق لا كذب .
- فهذه عشر آيات واكبت ميلاده ﷺ؛ إعلاتاً عن نبوته، وإعلاماً بعلو شأنه، وإخباراً بما سيؤول إليه أمره فصلَّى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً .
- ولد ﷺ بدار المولد المعروفة بدار محمد بن يوسف أخي الحجاج بن يوسف، وهي الآن مكتبة عامة . وكان ذلك عام الفيل كما تقدم، أي بعد غزو أبرهة الأشرم وهزيمته بقرابة خمسين يوماً، فكانت تلك الهزيمة آية أخرى لمحمد ﷺ دالة على صدق نبوته وصحة رسالته وعظم شأنه في العالمين .
- ولد بعد وفاة والده عبد الله بكذا شهراً؛ إذ تركه حملاً في بطن أمه وسافر للتجارة في أرض غزة من فلسطين حيث توفي جده هاشم، إلا أن عبد الله عاد منها، فعرض في طريق عودته، فنزل عند أخواله من بني عدي بن النجار فمات عندهم بالمدينة النبوية، وقيده معروف المكان إلى عهد قريب حين أخفي؛ لزيارة الجهال له والاستشفاع به، وحتى دعائه - والعياذ بالله - وهذا لغلبة الجهل على المسلمين لقلة العلماء وقلة الرغبة في طلب العلم .
- نتائج وعبر:
- إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نجملها في الأرقام التالية:
- ١ - بيان شرف أبوي الرسول ﷺ وطهرتهما، وفي هذا ما يوجب إكباره ﷺ ومحبه وتقديره .
 - ٢ - الآيات العشر - التي واكبت حملة وولادته - تقرّر نبوته وسيادته على الناس أجمعين .
 - ٣ - في الآية الثالثة إشارة واضحة إلى عموم رسالته وانتشار دينه في الشرق والغرب .
 - ٤ - في الآية الثامنة - وهي سقوط أربع عشرة شُرْفَة من شرفات القصر - آية نبوته ﷺ؛ إذ تداول ملكُ الفرس في خلال أربع سنوات عشرُ ملوك وملكات، وتم الأربعة الباقون في عهد
- (١) أول هذا اللفظ بسقوط أربعة عشر ملكاً من ملوكهم وملكاتهم، فسقط عشرة منهم في أربع سنوات، وأربع ثم سقطهم على عهد الفتح الإسلامي .

الخلفاء الراشدين - رضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين - .

رضاع الحبيب ومراضعه صلى الله عليه وآله

إن أول مرضع - تشرفت برضاعه ﷺ - والدته الشريفة العفيفة الطيبة الأردان آمنة بنت وهب الزهرية التي رأت من آيات النبوة ما رأت، ثم ثوية مولاة أبي لهب التي أرضعت عمه حمزة كذلك، فكان أخا للنبي من الرضاعة، وهو عمه صنو أبيه. ثم أرضعته حليلة بنت أبي ذؤيب السعدية من بني سعد بن بكر، رضع مع ابنتها الشيماء بنت الحارث ابن عبد العزى. وقد رأت في إرضاعه ﷺ آيات، فلتتركها وتحدثنا بنفسها عما شاهدت من آيات نبوته ﷺ.

إنها قالت: خرجت من بلدي مع زوجي وابن صغير لنا نرضعه في نسوة من بني سعد نلتبس الرضعاء، وذلك في سنة شهباء لم تُبَيَّنْ لنا شيئاً، خرجنا على أتان^(١) لنا قمرأ، ومعنا شارف لنا، والله ما تبض بقطرة، وما ننام ليلنا أجمع من بكاء صبينا الذي معنا من الجوع إذ ما في ثديي ما يغنيه وما في شارفنا ما يغذيه، ولكننا كنا نرجو الغيث والفرج، خرجنا نلتبس الرضعاء في مكة فما منا امرأة إلا وقد عُرِضَ عليها رسول الله ﷺ فتأباه إذا قيل لها إنه يتيم، وذلك أننا كنا نرجو المعروف من أبي الصبي، فما بقيت امرأة قدمت معي إلا أخذت رضيعاً - غيري، فلما أجمعنا العودة إلى بلدنا، قلت لزوجي: والله، إنني لأكره أن أرجع ولم آخذ رضيعاً، والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فأخذه، فقال لي: لا عليك أن تفعلني، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة، فذهبتُ إليه فأخذه، وما حملني على ذلك إلا أنني لم أجده غيره، فلما رجعت به إلى رحلي ووضعت في حجرني: أقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن، فشرب حتى روي وشرب معه أخوه حتى روي، ثم نام، وقام زوجي إلى شارفنا تلك، فإذا هي حافل^(٢)، فحلب منها ما شرب، وشربتُ معه حتى انتهينا ربا وشبعا، فبتنا بخير ليلة، فلما أصبحنا، قال لي زوجي: تعلمين - والله - يا حليلة، لقد أخذت نسمة مباركة، قلتُ: والله، إنني لأرجو ذلك، ثم خرجنا وركبت أتانتي وحملتُ عليها معي، فوالله، لقطعت بالركب: ما يقدر عليها شيء من حمهم حتى إن صواحي قلن لي: يا ابنة أبي ذؤيب، ويحك اربعي^(٣) علينا، أليست هذه أتانك التي كنت خرجت عليها؟ فقلت لهن: بلى والله إنها لهي هي، فقلن: والله إن لها لساناً. ثم قدمنا منازلنا من بلاد بني سعد، وما أعلم أرضاً من أرض الله أجذب منها، فكانت غنمي تروح على - حين قدمنا به معنا - شباعاً بُتّاً^(٤) فنحلب ونشرب، وما يحلب إنسان قطرة لبن ولا يجدها في ضرع حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم: ويلكم اسرحوا حيث يسرع راعي بنت أبي ذؤيب، فتروح أغنامهم جياغاً ما تبض بقطرة

(١) حمارة.

(٢) ربت الإبل: سرحت في المرعى وأكلت وشربت كيف شاءت.

(٣) كثير اللبن.

(٤) حافل: اجتمع فيه اللبن.

لبن، وتروح غنمي شباعاً لبناً، فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير حتى مضت سنتاه (أي سنتا رضاعه) وفصلته، وكان يشبُّ شباباً لا يشبه الغلمان، فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلاماً خفراً «غليظاً شديداً» فقدّمنا به على أمه، ونحن أحرص شيء على مكثه فينا؛ لما كنا نرى من بركته، فكلّمنا أمه وقلنا لها: لو تركت بني عندي حتى يغلظ؛ فإني أخشى عليه وباء مكة، فلم نزل بها حتى ردتنا معنا فرجعنا به، وبعد مقدمنا بأشهر، وإنه لفى بهم (١) لنا مع أخيه خلف بيوتنا، إذ أتانا أخوه يشتدّ، فقال لي، ولأبيه: ذاك أخي القرشي قد أخذه رجلاً، عليهما ثياب بيض، فأضجعاه فشقا بطنه، قالت: فخرجت أنا وأبوه نحوه فوجدناه قائماً منتقعاً «متغيراً» وجهه فالتزمته والتزمه أبوه، فقلنا له: مالك يا بني؟ قال: جاء لي رجلان عليهما ثياب بيض، فأضجعاني وشقاً بطني، فالتمسنا فيه شيئاً لا أدري ما هو.. فرجعنا به إلى خباتنا، وقال لي أبوه: يا حليلة، لقد خشيت أن يكون هذا الغلام قد أصيب؛ فألحقه بأهله قبل أن يظهر ذلك له، فاحتملناه، فقدّمنا به على أمه، فقالت: ما أقدمك به يا ظئر (٢) وقد كنت حريصة عليه وعلى مكثه عندك؟ فقلنا لها: قد بلغ الندب بابني، وقضيت الذي علي وتخوفت الأحداث عليه، فأدبته إليك كما تحبين، قالت: ما هذا شأنك، فاصدقيني خبرك، فلم تدعني حتى أخبرتها. قالت: أفتخوفت عليه الشيطان؟ قلت: نعم، قالت: كلا والله ما للشيطان عليه من سبيل، وإن لبني لثأناً، أفلا أخبرك به؟ قلت: بلى. قالت: رأيت حين حملت به أنه خرج مني نورٌ أضاء لي قصور بصرى من أرض الشام، ثم حملت به، فوالله، ما رأيت من حمل قط كان أخفّ علي ولا أيسر منه، ووقع حين ولدته وإنه لواضع يديه بالأرض رافع رأسه إلى السماء، دعيه عنك وانطلق راشداً.

هكذا كان استرضاعه ﷺ في بادية بني سعد، شأنه شأن أبناء سادات قريش، يرضعون أولادهم في البوادي ليصحبوا أجساماً، ويفصحوا لساناً، ويقووا جناتاً، ولقد قال مرة ﷺ معترّاً بشرف أصله واسترضاعه في البادية: «أنا أعربكم، أنا قرشي واسترضعت في بني سعد بن بكر».

○ نتائج وعبر:

لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبر نوجزها فيما يأتي:

- ١ - بيان عدد مرضعاته ﷺ وأنهن ثلاث: الأم السرية أمّنة، وثوبية مولاة عمه أبي لهب، وحليمة السعدية.
- ٢ - بيان مدة رضاعه، وأنها كانت حولين كاملين، وهي المدة التي قررها الإسلام.
- ٣ - بيان ما نال حليلة السعدية وأسرته من خير وبركة، وما فازت من شرف - لا يقاдр قدره - بإرضاعها رسول الله ﷺ وحبيها له.
- ٤ - حب النبي ﷺ موجب للخير دافع للشر؛ فإن حب أبي لهب له لما بشر بولده نفعه،

(١) البهم: واحدة بهيمة: صغار الغنم. (٢) الظئر: العاطفة على ولد غيرها المرضعة له.

فرؤي في المنام وإنه يعذب لموته على الشرك والكفر إلا أنه يمتص من أناملته ماء كل يوم اثنين وهو يوم ولادته ﷺ وتبشيره به .

٥ - تقرير الإسلام لمشروعية الإرضاع حولين كاملين لمن أراد ذلك .

٦ - بيان إعداد الله تعالى عبده ورسوله محمدًا ﷺ لتلقي الوحي عنه بشق صدره، ونزغ مغمز الشيطان منه حتى لا يبقى له محل ينزل به ليوسوس .

٧ - بيان آيات نبوته التي رآها أمته والدته يوم حملها ويوم وضعها .

٨ - جواز الاعتزاز بالخير الذي يعطيه الرب تبارك وتعالى عبده، ويكرمه به . لكن مع شكر المنعم سبحانه وتعالى على ما أولى العبد من خير وفضل .

كفلاء الحبيب محمد ﷺ وحاضنته

لقد عاد بالحبيب ﷺ مرضعته حليلة السعدية لتكفله أمه أمية، ويرعاه جده عبد المطلب، والله تعالى كائى الكل وحافظهم، وبهذا كانت أمية الوالدة أول كافل للنبي ﷺ في صباه، وشاء الله تعالى أن يخرج أمية بسلامها الزكي النقي الطاهر إلى يثرب «المدينة النبوية» لتزيره أخواله من بني عدي بن النجار إذ هم أخوال أبيه، وخال الأب خال الابن، لأن أم عبد المطلب والد عبد الله هي سلمى بنت عمرو التجارية. ولما وصلت أمية الأبناء - عائدة من المدينة إلى مكة - أدركتها المعنية فماتت بها، وحضنت الحبيب محمدًا الغلام اليافع مولاه أمية أم أيمن بركة - باركها الله ورضي عنها - إنها أم أسامة حب رسول الله ﷺ ابن حبه زيد بن حارثة مولاه - رضي الله عنه وأرضاه - ، فوصلت به حاضنته أم أيمن مكة المكرمة، فسلمته إلى جده عبد المطلب فكفله، فكان ثاني الكفلاء لرسول الله ﷺ، ولقد لقي محمد الغلام الطاهر من الحفاوة والتكريم والإجلال والتقدير من جده الكفيل ما لا يقادر قدره، ولا يغرف مداً.

ومات الجد الرحيم والكافل الكريم، وسن النبي ﷺ ثماني سنوات ليكفله - بوصية خصوصية من عبد المطلب - عمه أبو طالب وهو شقيق أبيه، فكان أبو طالب ثالث الكفلاء لرسول الله ﷺ في صباه، وما زال في كفالته حتى بلغ سن الرشد، ثم لازمه أبو طالب العم الكفيل فلم يتركه ولم يسلمه لقريب ولا لبعيد حتى قبضه الله في السنة الحادية عشرة من البعثة النبوية العظيمة. ومات أبو طالب - مع الأسف - على غير ملة الإسلام لما سبق في قضاء الله تعالى أنه يموت غير مسلم، ولا زاد لما قضى الله .

○ نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرًا هي كالتالي:

١ - بيان يتم النبي ﷺ؛ إذ مات والده وهو حمل لم يولد بعد، ومات والدته وهو في السادسة من عمره، وفي القرآن الكريم: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾ [الضحى: ١٠] .

- ٢ - بيان مَنْ شرفه الله تعالى بكفالة نبيه أيام طفولته ﷺ.
- ٣ - بيان شرف بركة أم أيمن مولاة رسول الله ﷺ إذ أكرمها الله بحضانه بعد وفاة أمه ﷺ.
- ٤ - تقرير عقيدة القضاء والقدر، وأن السعيد من سعد في بطن أمه، والشقي من شقي في بطن أمه كذلك، إذ رفعت الأقدام وجفت الصحف بما هو كائن.
- ٥ - بيان أن فعل الخير لا يعدم فاعله جوازيه^(١) فإن أبا طالب أخبر النبي ﷺ عنه أنه في النار لموته على غير الإسلام، وأخبر أنه يخفف عنه العذاب؛ لما قدّم لرسول الله ﷺ من عون وحماية طيلة حياته معه في مكة.

مظاهر الكمال الحمدي قبل النبوة

إن الفترة التي قضاها الحبيب ﷺ من أيام طفولته إلى يوم مبعثه، كانت حقاً زاخرة بمظاهر الكمالات المحمدية، وكلّها دلائل لنبوته، وآيات كمالاته. وما نحن أولاء نستعرض مع القارئ الكريم طرقاً منها؛ طلباً لكمال محبته واليقين في الإيمان به ﷺ.

وإن أول تلك المظاهر الكمالية الاستسقاء به ﷺ وهو طفل لم يبلغ بعد، فقد ذكر الشيخ عبد الله بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله - في مختصره أن ابن عساكر روى عن جُلُصَمَة بن عرفة قال: قدمت مكة وهم في قحط، فقالت قريش: يا أبا طالب أفحط الوادي وأجذب العيال، فهُلِمُ فاستسقى. فخرج أبو طالب ومعه غلام كأنه شمس دجن تجلب عنه سحابة قتماء حوله أغيلة فأخذه أبو طالب فالصق ظهره بالكعبة ولاذ بأصبغه الغلام، وما في السماء قُزعة، فأقبل السحاب من ههنا وههنا وأغدق، وانفجر الوادي وأخصب النادي والبادي. وفي هذا قال أبو طالب:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى^(٢) عصمة للأرامل^(٣)
فهذه إحدى الكرامات الإلهية للحبيب ﷺ، وهو مظهر من مظاهر الكمال؛ إذ ألهم الله تعالى أبا طالب أن يستسقى به ﷺ وهو طفل، فيأخذه ويأتي به إلى الكعبة، ويلصق ظهره بها ويرفع الغلام بين يديه، ولسان حاله يقول: اسقنا ربُّنا؛ فقد توسلنا^(٤) إليك بهذا الغلام المبارك، فيسقيهم الله تعالى حتى يجري واديهم وتخصب أراضيهم. فكانت هذه من طلائع النبوة وتباشيرها.

(١) الجوازي: جمع جازية، أي لا يعدم جزاء عليه.

(٢) غيائهم وملجؤهم.

(٣) المساكين من الرجال والنساء، وعصمتهم: أي يمنهم من الضياع ويسد حاجتهم.

(٤) توسلهم كان بحبهم وتعظيمهم له ﷺ فلذا سقاهم الله تعالى.

○ نتيجة هذا المظهر :

إن نتيجة هذا المظهر من مظاهر الكمال المحمدي، هي تقرير النبوة المحمدية وتأكيداتها؛ لنتمتع بعد ذلك حب النبي ﷺ، وتعلق القلب به حتى يكون أحب إلى المرء من نفسه التي بين جنبيه، ويصبح المحب مستعداً - نفساً - لترك ما يحب لمحبوبه ﷺ، وبذلك تتم اطاعة لرسول الله ﷺ ومتابعته فيما جاء عقيدة وعبادة وخلقاً وأدباً، وهذه سبيل النجاة من المرهوب، والظفر بالمحبيب في الدارين، وتلك غاية الطالبين الصالحين.

وثاني تلك المظاهر للكمال المحمدي: أنه ﷺ لم تكشف له عورة قط بعد أن حدث له مرة، وهو ينقل الحجارة مع رجال قريش لبناء الكعبة المشرفة وكانوا يرفعون أوزهم على عواتقهم يتقون بها ضرر الحجارة، وكان هو ﷺ يضع الحجارة على عاتقه وليس عليه شيء، فرآه عمه العباس رضي الله عنه فقال له: لو رفعت من إزارك على عاتقك حتى لا تضرك الحجارة، ففعل ﷺ فبدت عورته، فوقع على وجهه فوق الأرض، وتودى: «استر عورتك» أي ناداه ملك، فما رؤيت له بعد ذلك عورة أبداً.

○ نتيجة هذا المظهر :

إن لهذا المظهر نتائج هي كالتالي:

- ١ - عناية الله تعالى لنبيه ﷺ، وحفظه له من كل ما يسيء إلى مقامه الرفيع، ومكانته السامية.
- ٢ - كشف العورات مما جاء الإسلام بتحريمه ومنعه إلا من ضرورة تطبيب ونحوه.
- ٣ - بيان مشاركة النبي ﷺ قومه فيما هو خيرٌ ومعروف، وهو مظهر من مظاهر كماله ﷺ ذاتاً وروحاً وخلقاً.

وثالث مظاهر الكمال: أنه ﷺ قد بغض الله تعالى إليه الأوثان وكل أنواع الباطل التي كان يـُـ . فتيان قريش ورجالاتها من الغناء وشرب الخمر والقمار وسائر الملاهي، وقد أخبر ﷺ عن ذلك عن نفسه فقال: «لما نشأت بغضت إلي الأوثان وبغض إلي الشعر، ولم أهتم بشيء مما كانت الجاهلية تفعله إلا مرتين، كل ذلك يحول الله تعالى بيني وبين ما أريد من ذلك، ثم ما هممت بسوء بعدهما حتى أكرمني الله برسالته. فُلْتُ ليلة لفلان كان يرعى معي: لو أبصرت لي غنمي حتى أدخل مكة؛ فأسمر كما يسمر الشباب، فخرجت حتى جئت أول دار من مكة أسمع عزفاً بالدفوف والمزامير لعرس كان لبعضهم، فجلست لذلك، فضربت الله على أذني؛ فنيمت فما أيقظني إلا حر الشمس، ولم أقض شيئاً، ثم عراني مثل ذلك مرة أخرى»^(١).

(١) أخرجه الحاكم وصححه وافق عليه الذهبي.

○ نتائج هذا المظهر:

إن لهذا المظهر من مظاهر الكمال المحمدي قبل مبعثه ﷺ نتائج، هي كما يلي:

- ١ - حماية الله لرسوله ﷺ من كل ما يسيء إلى سامي مقايه وعظيم منزلته (فداه أبي وأمي).
- ٢ - بيان رَغْبِهِ ﷺ الغنم في البادية، وهي سُنَّة الأنبياء من قبله؛ فقد قال ﷺ: «ما من نبي إلا وقد رعى الغنم» فقالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ فقال: «ولا أنا، فقد كنتُ أرهاها على قراريط لأهل مكة».

٣ - إن الحكمة من رَغْبِي الأنبياء للغنم، هي الإعداد لسياسة البشر بالرفق والرحمة واللين؛ لأن الغنم - وهي الضأن والمعز، أضعفُ من الإبل والبقر، وأحوج إلى الرفق، والإنسان أضعف منها؛ ولذا يحتاج إلى سياسة الرفق واللين، وعدم الشدة والعنف.

ودواعي المظاهر للكمال: هو تحكيم قريش له في أعظم خلاف لها كاد يفضي بها إلى الحرب والقتال، وذلك أن السيل كان قد طغى على الكعبة فغمرها بالمياه وزلزل بناءها وكاد يهدُّ أركانها، وتشاورت قريش طويلاً في إعادة بناء الكعبة بعد الذي أصابها، وكانت تنهيب أن تمسَّ الكعبة بشيءٍ لاسيما هدمها وتجديد بنائها؛ مخافة أن تنالها عقوبة من الله ربَّ الكعبة وحاميها من كل كيد يراد لها وبعد أخذ وردُّ أقدمت على هدمها وتجديد بنائها بعدما أعدت لذلك عُذَّتْ ومنه المال الحلال، وفعلاً وزعت أركانها على قبائلها، وشرعت في الهد والبناء، ولما ارتفع جدارُ الكعبة، وبلغ موضع الحجر الأسود: اختلفوا فيمن يتشرف بوضع الحجر مكانه من الركن اليماني الشرقي، وتنافسوا في ذلك، وشحَّوا به على بعضهم حتى كادوا يقتتلون.

وأخيراً ألهمهم الله تعالى إلى تحكيم أول من يقبل من باب الصفا، وما زالوا كذلك حتى أقبل محمد ﷺ فما إن رأوه مقبلاً حتى قالوا: هذا الأمين رضينا به حَكَمًا. وفعلاً رضي ﷺ بتحكيمهم له، فأمرهم أن يبسطوا ثوباً، فوضعه فيه، ثم أمر ممثلي قبائل قريش أن يأخذ ممثل كل قبيلة بطرف ورفعه، ولما حاذوا به مكانه من الجدار رفعه بيديه الكريمتين فوضعه مكانه، وبذلك حققت دماء قريش، وعادت الألفة والمودة بين رجالات قريش. فكان هذا الحكم والتحكيم أكبر مظهر من مظاهر الكمال المحمدي قبل إنباته وإرساله نبياً ورسولاً.

○ نتائج هذا المظهر:

إن لهذا المظهر من مظاهر الكمال المحمدي نتائج هي فيما يلي:

- ١ - تقرير الكمال المحمدي الذي دل عليه وصف قريش له بأنه الأمين؛ إذ لم يغرف بخيانة في عرض ولا مال ولا قول ولا عمل قطُّ.
- ٢ - حسنُ السياسة التي بها حققت دماء قريش التي كادت تسيل من شدة الخلاف واحتدامه.
- ٣ - إظهار شرف محمد ﷺ على كافة رجالات قريش بتحكيمهم إياه ورضاهم بحكمه، وبهذا

- وغيره - قامت الحجة على أكثرهم في إنكارهم نبوته واعتراضهم على رسالته، واتهامهم إياه بالتناقض!! وهو أكملهم على الإطلاق.

وخامس المظاهر للكمال المحمدي: اعترافُ بحيرا الراهب بكماله ونبوته ووصيته عمه أبا طالب به، وذلك أنه لما بلغ ﷺ الثانية عشرة من عمره - أو ما يقاربها - وأراد أبو طالب - وهو عمه وكافله - السفرَ إلى الشام صحبة قافلة تجارية: عزَّ على أبي طالب أن يخلف محمداً وقد امتلأ قلبه بحبه ﷺ.

وعزَّ على محمد ﷺ أن يفارقه عمه كذلك، فتعينت الصحبة، فصحبه أبو طالب معه إلى الشام مجتازين ديار ثمود وبلاد مدين إلى الشام، وانتهوا إلى بصرى من ديار الشام، فنزلوا منزلاً قريباً من صومعة راهب هو بحيرا، وكان بحيرا ذا علم بالمسيحية والكتب الأولى، وكان رأساً في المنطقة لعلمه وفضله.

و شاء الله تعالى أن يطلَّ من أعلى صومعته، فيرى قافلة قريش وهي مُقَدِّمةٌ نحوه، وأن يبنيها غلاماً تظلمه غمامة من الشمس. ولما وقفت القافلة للنزول، ونزلت رأى الغمامة تقف فوق الغلام لا تتعداه؛ تحفظه من حرِّ الشمس، فعلم أنَّ لهذا الغلام شأنًا. وكيف يصل إليه ويجري الحديث معه ليعرف شأنه؟ فما كان من الراهب إلا أن دعا القافلة إلى طعام عشاء عنده بعنوان ضيافة، وقبلت القافلة ذلك بعد تردد واستفسار عن مثل هذه الضيافة التي لم تحصل لقوافلهم المتعددة قط، وطمأنهم بحيرا لأنه لا غرض له إلا إكرامهم، والتعرف على أحوالهم.

ولما حضر الطعام وتقدم الأكلة لم يرَ بحيرا الغلام الذي رأى الغمامة تظله فتعجب، وقال للقوم: هل تخلف من قافلكنم أحد؟ فقالوا: لا، فقال: بلى، أين الغلام الذي كان معكم؟ فجاءوا به، وقد تخلف لصغره وحيائه أن يطعم مع رجال قريش، فبقي في رحل عمه، فلما جاء وجلس أخذ بحيرا يلحظه ويتأمله، ولما انصرف القوم قام بحيرا إلى محمد ﷺ، وقال له: يا غلام أسألك بحق اللات والعزى - جريا على حلف العرب بهما - إلا أخبرتني عما أسألك عنه، فقال له رسول الله ﷺ: «لا تسألني باللات والعزى؛ فوالله ما أبغض شيئاً قط بُغِضَهما». فقال له: أسألك بالله إلا أخبرتني عما أسألك عنه. فقال له ﷺ: «سل عما بدا لك» فجعل بحيرا يسأله عن أشياء عن حاله في نومه وحيثه، فجعل النبي ﷺ يخبره، فيوافق ذلك ما عند بحيرا من نعوت الرسول ﷺ وصفاته التي عرفها من الكتب السابقة، ثم نظر إلى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه - وكان مثل أثر المحجم - ثم التفت الراهب بحيرا إلى أبي طالب، فسأله عن الغلام فأخبره فعلم أنه النبي المنتظر، وأمره أن يعود به إلى دياره؛ مخافة أن يغتاله يهود إذا رأوه وعلموا به، فقبض أبو طالب حاجته من تجارته بسرعة وعاد بابن أخيه مُسرَّعاً إلى مكة.

○ نتائج هذا المظهر :

إن لهذا المظهر من الكمال المحمدي نتائج نجملها فيما يلي :

- ١ - بيان مدى حُبِّ أبي طالب للنبي ﷺ .
- ٢ - آية تظليل الغمامة للنبي ﷺ .
- ٣ - تقرير النبوة المحمدية بشهادة بحيرا الراهب .
- ٤ - عصمة النبي ﷺ قبل بعثته من الشرك لبغضه الحلف باللات والعزى أشدَّ بغض .
- ٥ - حرمة الحلف بغير الله تعالى ، وأن الحلف بغير الله شرك .

وسادس المظاهر للكمال المحمدي : حضوره ﷺ حلف الفضول . وإنَّ حلف الفضول كان بعد حرب الفجار التي كانت حرباً فجر فيها أهلها بانتهاكهم حرمة الشهر الحرام ، وقد دارت تلك الحرب بين كنانة وقريش من جهة ، وقيس من جهة أخرى ، وكان سببها تافهاً لم يغدِّ قتل رجلٍ من قيس تداعى بعده الأحلاف للقتال ، ولما انتهت تلك الحرب الفاجرة الخاسرة ؛ إذ هي من عمل الجاهلية : دعت قريش إلى حلف الفضول ، وسببه أن رجلاً من زبيد جاء مكة ببضاعة ، فاشتراها منه العاص بن وائل - وكان ذا قدر وشرف في مكة - فمنعه حقُّه فاستعدى الزبيدي الأحلاف على العاص ، وهم عبد الدار ومخزوم ، وجُمَح ، وسهم ، وعدي فأبوا أن يعينوه على العاص بن وائل ، فما كان منه إلا أن علا جبال أبي قبيس ، وصاح بشعر يصف فيه ظلامته ، وعنها مشى الزبير بن عبد المطلب ، وقال : ما لهذا مترك ، فاجتمعت هاشم وزهرة وتيمم بن مرج في دار عبد الله ابن جدعان ، ومعهم النبي ﷺ وكان عمره إذ ذاك عشرين سنة ، فصنع لهم عبد الله طعاماً وتحالفوا وهم في شهر ذي القعدة - أي حلف بعضهم لبعض - متعاهدين متعاقدين بالله ليكوننَّ يداً واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يؤدي إليه حقُّه ما بل بحر صوفة ، فسمت قريش ذلك الحلف «حلف الفضول» وقالوا قد دخل هؤلاء في فضل من الأمر ، ثم مشوا إلى العاص بن وائل ، وانتزعوا منه حق الزبيدي . وفي هذا قال الزبير ابن عبد المطلب وهو عم النبي ﷺ :

إن الفضول تحالفوا وتعاهدوا ألا يقيم ببطن مكة ظالمٌ
أمرٌ عليه توافقوا وتعاهدوا فالجار والمَعَرُّ فيهم سالمٌ
وفي هذا الحلف يقول الرسول ﷺ في الإسلام : «لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لي به حمر النعم ، ولو أذعى به في الإسلام لأجيت» .

وعبد الله بن جدعان هذا ، هو الذي كان يكسو ألف حلة وينحر ألف بعير في كل موسم . وقالت فيه أم المؤمنين عائشة و : إن عبد الله بن جدعان - يا رسول الله - كان يطعم الطعام ويقرِّي الضيف ، فهل ينفعه ذلك يوم الدين ؟ فقال : «لا ؛ لأنه لم يقل يوماً من الدهر : رب اغفر لي

خطيبي يوم الدين»^(١).

○ نتائج هذا المظهر:

إن لهذا المظهر من الكمال المحمدي نتائج وعبراً تلخصها فيما يلي:

١ - شعور أهل الجاهلية بالخطيئة وكراهيتهم لها، ولذا سموا الحرب التي انتهكوا فيها حرمة الحرم بحرب الفجار، وهو فعال من الفجور، إذ تبادلوا فيه الفجور، فصار فعلاً من باب «فاعل» كقاتل قتالاً.

٢ - بيان ظلم وطغيان العاص بن وائل، وهو الذي وقف في وجه الدعوة الإسلامية يحاربها حتى مات إلى جهنم.

٣ - بيان مروءة الزبير بن عبد المطلب، إذ هو الذي كان السبب في تكوين حلف الفضول، وإعادة حق الزبيدي إليه بعد انتزاعه من العاص بن وائل.

٤ - بيان فضل بني هاشم على غيرهم. وحسبهم شرقاً: مفاخرهم الجملة وكون النبي ﷺ منهم.

٥ - تقرير الكمال المحمدي وتأكيده بحضوره ﷺ هذا الحلف، ومفاخرته به في قوله الثابت الصحيح: «لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلقاً ما أحب أن لي به خمر الثَّم، ولو أدرى به في الإسلام لأجبت».

٦ - عدم انتفاع العبد بما يعمل به من الخيرات والصالحات إذا مات مشركاً؛ لقول الرسول ﷺ لعائشة - وقد سأله عن عبد الله بن جدعان -: «إنه لم يقل يوماً من الدهر: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين». أي لا ينفعه عمله الصالح لموته على الشرك والكفر.

وسابع الكمالات المحمدية هو: رغبة خديجة فيه، وزواجها به ﷺ. إنه لما تجاوز العشرين من عمره، وحضر حلف الفضول، وقبَّله تحكيم قريش له في وضع الحجر الأسود، واشتهاره بالصدق والوفاء والأمانة والعفة والنزاهة زيادة على شرف الأصل، وطيب المحدث، وكان بمكة امرأة سرية ثرية ذات كمالات نفسية من خلق فاضل، وأدب رفيع، تلك هي خديجة بنت خويلد الأسدية القرشية وقد بلغها من مظاهر الكمال المحمدي ما جعلها تعرض عليه الاتجار بمالها، ليوفر له دخلاً مادياً يستغني به عن كفالة عمه أبي طالب ورفادته، ورضي الحبيب محمد ﷺ بالعرض وقبَّل الطلب وخرج في قافلة تجارية إلى الشام، ويصحبه لخدمته غلامٌ خديجة المسمَّى بميسرة. وهذا المرة الثانية التي يسافر فيها ﷺ إلى الشام؛ إذ الأولى كانت مع عمه وفي صباه، وقد تقدم الحديث عنها في رابع الكمالات المحمدية.

(١) رواه مسلم. وعبد الله بن جدعان يكنى بأبي زهير، وهو تيمِّي من قرابة عائشة؛ ولذا سألت عنه رضي الله عنه.

ومن الآيات التي شاهدها ميسرة في سفره مع الحبيب ﷺ أنه رأى ملكين يظللانه من حر الشمس إذا اشتدت الهاجرة، كما أنه ﷺ نزل يوماً تحت ظل شجرة قريبة من صومعة راهب، فرآه الراهب، فسأله ميسرة عنه، فقال له: هو رجل من أهل الحرم قرشي، فقال له الراهب: إنه ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي، وذلك لما شاهد من آيات النبوة التي تلوح لكل ذي بصيرة وتأمل. كما قال الأعرابي الذي نظر لأول مرة إلى الحبيب ﷺ فقال: والله ما هو بوجه كذاب!!

وعاد الحبيب ﷺ بتجارة رابحة وسُرّت خديجة، وزادها سروراً ما أنبأها به غلامها ميسرة من خبر الراهب وأمر الملكين اللذين يظللانه من حر الشمس. فرغبت لذلك - ولغيره - في الزواج به ﷺ وعمره يومئذ خمسة وعشرون عاماً، وعمرها ما بين الخامسة والثلاثين والأربعين من السنين. وقد تزوجت قبله ﷺ أبا هالة زرارة التميمي، وتزوجت قبل هذا بعثيق بن غانذ الخزومي، وولدت له ابناً يدعى هنذا وبهذا كان كل من هند وهالة ربيباً للنبي ﷺ.

○ خطبة الزواج الميمون:

وكانت الخطبة كالتالي: بعثت خديجةً إليه ﷺ تقول: يا ابن عم، إني قد رغبت فيك لقرابتك وسيطتك^(١) في قومك، وحسن خلقك، وصدق حديثك، ثم عَرَضْتُ عليه نفسها ليتزوجها. وكانت و يومئذ من أوسط نساء قريش نسباً وأعظمهن شرفاً وأكثرهن مالاً، وكل واحد من قومها كان حريصاً على الزواج بها لو يقدر على ذلك.

فذكر ﷺ ذلك لأعمامه، فخرج معه عمه حمزة بن عبد المطلب، وأبوطالب، حتى دخلا على والدها خويلد بن أسد، فخطباها إليه فزوجها، وأصدقها رسول الله ﷺ عشرين بكرة، وكانت أول امرأة تزوجها رسول الله ﷺ، ولم يتزوج غيرها حتى توفيها الله، وانتقلت إلى جواره، وكل أولاده^(٢) منها إلا ما كان من إبراهيم، فإنه ابن مارية القبطية المصرية.

○ نتائج وعبر هذا المظهر:

إن لهذا المظهر من الكمال المحمدي نتائج وعبراً نجملها إزاء النقاط التالية:

- ١ - تقرير النبوة المحمدية برؤية الملكين يظللانه من حر الشمس.
- ٢ - شهادة الراهب له بالنبوة، وهي شهادة عالم وكفى بها شهادة.
- ٣ - بيان ما حبا الله تعالى به نبيه من الكمالات النفسية التي رغبت خديجة في الزواج به.
- ٤ - مشروعية إبداء المرأة رغبته في الرجل تريد الزواج به.
- ٥ - مشروعية الخطبة للزواج، وتولي ذلك قريب الزوج، كما تولى حمزة وأبوطالب خطبة

(١) شرفك وسيادتك.

(٢) الذكور هم: القاسم، وبه يكنى ﷺ، وعبد الله، والطيب، والإناث: فاطمة، وزينب، ورقية، وأم كلثوم - على جميعهم السلام -.

خديجة من والدها خويلد بن أسد .

٦ - بيان شرف خديجة أم المؤمنين ، وهي حقاً سيدة نساء أهل قریش ، وقد جاء جبريل - عليه السلام - ببشارة لها من أعظم البشريات ، جاء بها من الله عز وجل وهي : إن الله يقول لك - يريد رسول الله - أقرئي خديجة مني السلام ، وبشراً بقصر في الجنة من قصب^(١) .

دنو ساعة طلوع الشمس المحمدية

لقد بلغ الحبيب الآن الأربعين من عمره ﷺ ، وأخذت ساعة طلوع الشمس المحمدية تقترب ، وها هو ذا ﷺ - إن غدا الحاجة أو راح - لا يمر بشجر ولا حجر إلا قال له : السلام عليك يا رسول الله ، فيلتفت حوله يميناً وشمالاً فلا يرى أحداً سوى الشجر والحجر يسلم عليه . فكانت هذه مقدمة الأنبياء العظيم .

طلوع الشمس المحمدية

وفي ليلة الاثنين من شهر ربيع الأول ، طلعت الشمس المحمدية ؛ حيث صار لا يرى رؤيا - في ليله ولا نهاره - إلا جاءت كفلق الصبح ، وهذا الزهري - يروى عن عروة عن خالته عائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها وأرضاها - قولها : إن أول ما بُدئ به رسول الله ﷺ من النبوة - حين أراد الله كرامته ، ورحمة العباد به - الرؤيا الصادقة ، لا يرى رسول الله ﷺ رؤيا في نومه إلا جاءت كفلق الصبح ، قالت : وحُبب إليه الخلو : فلم يكن شيء أحب إليه من أن يخلو وحده . واختار ﷺ لخلوته المحبة إليه جبل حراء - وهو أحد جبال مكة المطلة عليها - فكان يخلو به مجاوراً فيه ، يتحنث - أي يزيل الحنث عنه - وهو ما يراه ويسمعه من الشرك والباطل بين أفراد قومه من قریش . وفي ليلة من ليالي رمضان المبارك - ولعلها السابعة عشرة منه - نزل عليه جبريل - عليه السلام - يحملاً بشرى النبوة تمهيداً لحمل الرسالة إلى الناس كافة .

وها هو ذا إمام المحدثين البخاري - رحمه الله تعالى ورضي عنه - يروي لنا عن أمنا عائشة و قصة بدء الوحي . إذ تقول : أول ما بدئ به رسول الله ﷺ الرؤيا الصالحة في النوم . فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حُبب إليه الخلاء ، فكان يخلو بغار حراء ، فيتحنث فيه - وهو التعبد - الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع^(٢) إلى أهله ، وتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة ، فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو في غار حراء .

فجاء الملك فقال : اقرأ ، قال : « ما أنا بقارئ » . قال : « فأخذني فغططني^(٣) حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارئ . فأخذني فغططني الثانية حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني ، فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارئ ، فأخذني فغططني الثالثة ثم أرسلني فقال : ﴿ اقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ » .

(١) ذهب

(٢) ينزع : يرجع .

(٣) غططني : ضمني إليه وعصرني كما تضم الأم ولدها إلى صدرها رحمة به وشفقة عليه .

رَبِّكَ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۚ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿١﴾
 ١٥. فرجع بها رسول الله ﷺ يزجف فوائده، فدخل على خديجة بنت خويلد فقال: «زملوني»^(١)
 زملوني» فزملوه حتى ذهب عنه الروع^(٢). فقال - لخديجة، وأخبرها الخبر - : «لقد خشيت على نفسي»، فقالت: كلا - والله - ما يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل^(٣)،
 وتكسب المعدوم^(٤)، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق.
 ○ نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نجملها فيما يأتي:

- ١ - تقرير سنة غالبية، وهي أن الأنبياء يرسلون على رأس الأربعين من أعمارهم.
- ٢ - بيان آية من آيات النبوة المحمدية، وهي سلام الأشجار والأحجار عليه ﷺ.
- ٣ - تقرير أن الرؤيا الصالحة جزء من سنة وأربعين جزءاً من النبوة، إذ فترة الوحي كانت ثلاثاً وعشرين سنة، منها سنة أشهر كانت مناماً.
- ٤ - مشروعية العزلة إذا فسد الناس وأصبح المؤمن لا يسلم من شرهم.
- ٥ - بيان أن أول ما نبي به النبي ﷺ هو ﴿أَفْرَأَ بِأَسْمَىٰ رَبِّكَ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ [المع: ١٠]. وأن النبوة كانت قبل الرسالة؛ إذ نبي ﷺ باقراً، وأزبل بالمدثر، وبينهما فترة من الزمن.
- ٦ - تعين القراءة على المسلم وطلب العلم والتعليم، إذ ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

أشعة الشمس المحمدية تضيء دار خديجة

وتطلع على ورقة بن نوفل

ما إن جاء خديجة وقص عليها حتى قالت له: أبشر يا ابن عم فول الذي نفس خديجة بيده،
 إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة، ثم جمعت عليها ثيابها، وانطلقت به إلى ورقة بن نوفل ابن عمها، وكان قد تنصّر وقرأ الكتب وسمع من أهل التوراة والإنجيل، وقالت: يا ابن عم، اسمع من ابن أخيك. فقال له ورقة: هذا الناموس الأكبر الذي أنزل علي موسى، يا ليتني فيها جذع، ليتني أكون حيا إذ يخرجك قومك. فقال رسول الله ﷺ: «أو مخرجي هم؟» قال ورقة: نعم، لم يأت رجل قط بما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزراً.
 وكان الحبيب ﷺ لم يقض المدة التي يقضيها في غار حراء متحنناً فعاد إلى حراء لإتمامها.
 فلما قضاهما وعاد من جواره، بدأ بالبيت كعادته، فطاف سبعا، فلقبه ورقة وهو يطوف - فقال: يا

(١) أدخلوني في ثياب وغطوني بها.

(٢) الروح: الفزع والخوف.

(٣) الكل: التعب الحيز من الإعياء.

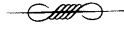
(٤) إنك بعزمك وقوة إرادتك تفوز وتظفر بما لا يحصل عليه غيرك، هذا إن قرئ بفتح التاء «تكسب»، وإلا فمعناه أنك تعطي ما لا يعطيه غيرك من المال وغيره.

ابن أخي، أخبرني بما رأيته، فأخبره رسول الله ﷺ، فقال ورقة: والذي نفسي بيده إنك لنبي هذه الأمة، ولقد جاءك الناموس^(١) الأكبر الذي جاء موسى، وكَتَبَتْهُ وَلَتُؤَدِّيْتُهُ، وَلَتُخْرِجُنَّهُ، وَلَتَقَاتِلَنَّهُ، ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصرًا يعلمه، ثم أدنى رأسه منه فقبَّلَ يافوخه^(٢) ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى منزله.

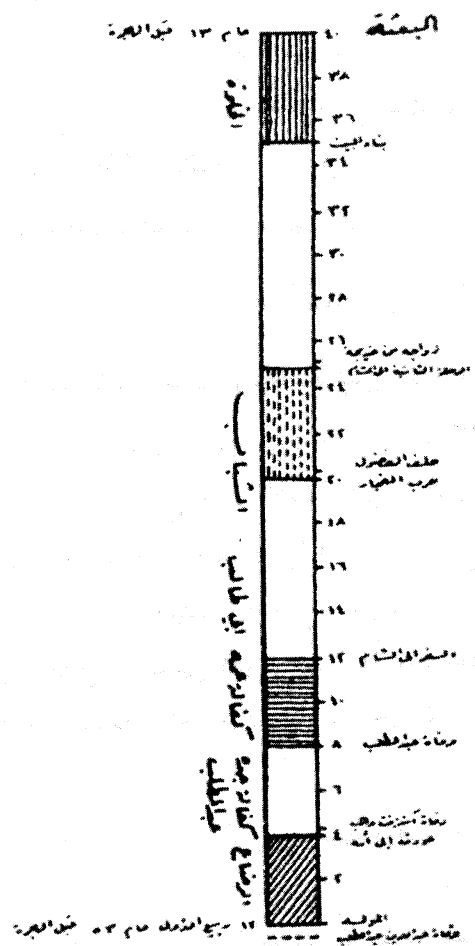
وحمل خديجة حرصها علي تجلي الحقيقة ومعرفة الأمر على حقيقته ليكون إيمانها بعلم ويقين، فأجرت الاختبار التالي:

فقال لرسول الله ﷺ: يا ابن عم، هل تستطيع أن تخبرني بصاحبك هذا الذي يأتيك إذ جاءك؟ قال: «نعم». قالت: فإذا جاءك فأخبرني، فجاءه جبريل - عليه السلام - كما كان يجيئه، فقال رسول الله ﷺ لخديجة: «يا خديجة! هذا جبريل قد جاءني»، قالت: قم يا ابن عم فاجلس على فخذي اليسرى، فقام رسول الله ﷺ، فجلس على فخذه اليسرى، قالت: هل تراه؟ قال: «نعم» قالت: فتحوّل فاجلس على فخذي اليمنى، فتحوّل وجلس وقالت: هل تراه؟ قال: «نعم» قالت: فتحوّل فاجلس في حجري، فتحوّل فجلس في حجرها، قالت: هل تراه؟ قال: «نعم». فتحسرت وألقت خمارها - ورسول الله ﷺ جالس في حجرها - ثم قالت: هل تراه؟ قال: «لا»، قالت: يا ابن عم أثبت وأبشر؛ فوالله إنه ملك، وما هذا بشيطان.

وبهذا كانت خديجة أول من استضاء بنور النبوة المحمدية وأول من آمن برسول الله ﷺ والوحي الذي جاءه، كما أن ورقة كان من الفائزين بالأسبقية لولا أن المنية اخترمته فلم يشهد ضحى الشمس المحمدية.



(١) المراد بالناموس جبريل - عليه السلام -، وأصل الناموس أنه صاحب سرّ الرجل في الخير والشر.
(٢) اليافوخ: وسط الرأس. روى الترمذي عنه ﷺ: «أنه رأى ورقة في المنام وعليه ثياب بيض». وورد أيضا قوله ﷺ: «رأيت القس في الجنة وعليه ثياب الحرير؛ لأنه أول من آمن بي».



○ نتائج وعبر :

- إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرًا نلخصها كالآتي :
- ١ - بيان كمال عقل خديجة وصحة علم ورقة، وفضل كل منهما وكماله الروحي .
 - ٢ - بيان ذكاء خديجة وسلامة فطرتها بإجرائها ذلك الاختبار العجيب الذي كانت نتيجته تقرير النبوة المحمدية فأمنت على علم وبيقين فرضي الله عنها وأرضاها .
 - ٣ - الملائكة تكون مع الحياء والستر، والشياطين تكون مع التفحش والوقاحة والغري .
 - ٤ - استحباب ستر المرأة رأسها ولو في خلوتها؛ حتى لا تقربها الشياطين .

فتور الوحي وعودته

إنه بعد تلك المفاجأة السارة له ﷺ ولخديجة وورقة بن نوفل - غفر الله له - فتر الوحي وانقطع قرابة الأربعين يومًا . ومات ورقة، واشتد الألم النفسي بالحبيب ﷺ حتى صرح لخديجة بأنه خائف على نفسه، بل كان كالهائم على وجهه في جبال مكة وشعابها، وكان كلما اشتد به الحزن تبدى له جبريل يقول له : يا محمد، إنك رسول الله حقًا، فيخف عنه حزنه، ويقف ألمه . وتمضي الأيام وفجأة - وهو يمشي - يسمع صوتًا من السماء فيرفع بصره، فإذا الملك الذي جاءه بغار حراء قاعد على رفرق^(١) بين السماء والأرض، فرعب منه أشد الرعب، ورجع إلى أهله يقول : زملوني زملوني^(٢) فأنزل الله تعالى قوله : ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ زُرِّيكَ فَكَيْزٌ ﴿٣﴾ وَبَابُكَ قَطِرٌ ﴿٤﴾ وَالْجِزْ فَأَنْذِرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَسْنِ كَسْكُزٌ ﴿٦﴾ وَزُرِّيكَ فَاتْمِرْ ﴿٧﴾﴾ [المدثر: ١-٧] .

○ نتائج وعبر :

- إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرًا نلخصها فيما يلي :
- ١ - تشويق الرسول ﷺ إلى الوحي بانقطاعه عنه مدة من الزمن، الأمر الذي تألم له رسول الله ﷺ أشد الألم .
 - ٢ - لطف الله تعالى ورحمته بنبيه ﷺ إذ كان يرسل إليه جبريل يناديه ويطمئنه ويبشره بأنه رسول الله حقًا .
 - ٣ - بيان أول ما أرسل به ﷺ وهو النذارة، والبشارة لازمة لمن قبل النذارة فآمن ووحد الله في عبادته، وتابَعَ الرسول فيما جاء به .

صور الوحي الحمدي

إن الوحي هو الإعلام السريع الخفي، وله مع رسول الله ﷺ صور، جاء ذكر بعضها في

(١) الرفرف: البساط من إستبرق، والإستبرق الحرير الغليظ .

(٢) التزمل والتدثر بمعنى واحد وهو التلفف في الثياب للتدفئة وذهاب الفزع .

قول الله تعالى من سورة الشورى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُمْ عَلَى حَكِيمٍ﴾ (الشورى: ٥١).

وبيان تلك الصور كالتالي:

١ - الرؤيا الصالحة الصادقة في النوم، وقد بدئ بها الوحي إلى رسول الله ﷺ واستمرت لمدة ستة أشهر؛ إذ قالت عائشة و: أول ما بُدئ به رسول الله ﷺ الرؤيا الصالحة، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح.

٢ - الإلقاء في الرُّوح والنفث فيه، لقوله ﷺ: «إن روح القدس نفث في روعي: أن نفسا لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها، فاتقوا الله، وأجملوا في الطلب، ولا يحملنكم استبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعصية الله فإن ما عند الله لا ينال إلا بطاعته»^(١).

٣ - أن يأتي في مثل صلصلة الجرس - وهو أشده على رسول الله ﷺ كما أخبر بذلك عن نفسه في حديث البخاري إذ قال ﷺ - وقد سأله الحارث بن هشام عن كيفية إتيان الوحي له - فقال: «أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس - وهو أشده علي - فينفصم عني وقد وعيت عنه ما قاله».

٤ - أن يأتيه الملك في صورة رجل، فيوحي إليه ما شاء الله، وهو أهون عليه لوجود التجانس المطلوب عادة للتفاهم بين المتخاطبين، وقد جاء هذا أيضا في حديث البخاري، إذ جاء فيه قوله: «وأحيانا يتمثل لي رجالا فيكلمني فأعي ما يقول». وكثيرا ما كان يأتيه ﷺ جبريل - عليه السلام - في صورة دحية بن خليفة الكلبي الأنصاري.

٥ - أن يخاطبه الرب عز وجل كفأخا من وراء حجاب، كما تم ذلك له ﷺ ليلة الإسراء والمعراج حيث فرض عليه وعلى أمته الصلوات الخمس، وتردد عليه في ذلك عدة مرات؛ يسأله التخفيف، وكان ذلك بإرشاد موسى - عليه السلام -، وكما تم لموسى - عليه السلام - بجبل الطور عدة مرات، فكان يسمع كلامه ولا يرى وجهه.

○ نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرًا نذكرها فيما يلي:

- ١ - تقرير الوحي المحمدي وإتيانه.
- ٢ - بيان صور الوحي التي كان ينزل عليها.
- ٣ - تقرير أن الرؤيا الصالحة من الوحي.
- ٤ - ذم الحرص من عبد يؤمن بالقضاء والقدر.
- ٥ - بيان حقيقة، وهي أن ما عند الله ينبغي أن يطلب بطاعته تعالى لا بمعصيته.

^(١) رواه ابن أبي الدنيا وأخرجه الحاكم وصححه.

٦ - تقريرُ ستّة، وهي أن التجانس ضروري لحصول التفاهم بين المتخاطبين .

٧ - بيان شرف دحية بن خليفة الأنصاري إذ كان جبريل يأتي في صورته .

٨ - أكمل صور الوحي ما كان كفاحاً^(١) مع الله عز وجل بلا واسطة .

بدء الحبيب ﷺ دعوته وأول من أسلم

إن عودة الوحي كانت حامية حازة إذ أمر فيها رسول الله ﷺ بإنذار قومه عاقبة ما هم فيه من الشرك، وما هم عليه من الكفر والفساد والشر، كما أمر هو ﷺ بتعظيم الله عز وجل وتوحيده، ثم بتطهير ثيابه من النجاسات؛ لأنه أصبح يتلقى الوحي في كل حين، فتعين أن يكون ﷺ على أتم الأحوال وأحسنها، كما أمر بالاستمرار على هجر الأوثان، والبعد عنها، وعدم الالتفات إليها بحال من الأحوال . كل هذا تضمنه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدْيَنَةُ ﴿١﴾ قُرْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبِّكَ نَذِيرٌ ﴿٣﴾ وَيَا أَيُّهَا الْقُرَيْشُ ﴿٤﴾ لَا تَمْنُنْ تَسْتَكْبِرُ ﴿٥﴾ وَلَرَبُّكَ فَاعِلٌ ﴿٦﴾﴾ [المدثر: ١-٧] .

ومن هنا بدأ ﷺ دعوته بعرضها على من يرى فيه الاستعداد لقبولها، فكان أول من أسلم من النساء خديجة بنت خويلد أم المؤمنين - رضي الله عنها وأرضاها - . وأول من أسلم من الصبيان علي بن أبي طالب رضي الله عنه إذ أسلم وعمره عشر سنين، وصلى مع رسول الله ﷺ مختفين بصلاتهما عن أعين قريش .

وأول من أسلم من الرجال أبو بكر الصديق رضي الله عنه، واسم أبي بكر قبل الإسلام: عتيق، واسم أبيه عثمان بن عمرو التيمي القرشي، وكنية عثمان أبو قحافة .

وأول من أسلم من الموالي زيد بن حارثة بن شُرْحَبِيل الكلبي، وكان عبداً للحكيم ابن حزام، فوهبه لعمته خديجة بنت خويلد - وهي زوجة لرسول الله ﷺ يومئذ - فاستوهبه منها رسول الله ﷺ فوهبته إياه فأعتقه ﷺ وتبّاه، وذلك قبل البيعة النبوية، وكان زيد قد خرجت به أمه - وهو ابن ثمانية أعوام لتزيره بعض أقربائه - فأصابته خيل من بني القين، فباعوه في سوق حَبَاشَةَ من أسواق العرب، فاشتراه حكيم ابن حزام في جملة أغبَد، ووهبه خديجة كما تقدم، وقد حزن لفراقه والدّه، وقال فيه قصيدة منها الأبيات التالية:

بكيث علي زيد ولم أدر ما فعل	أحي فيرجى أم أتى دونه الأجل
فوالله ما أدري وإنني لسائل	أغالك ^(٢) بعدي السهل أم غالك الجبل؟
ويا ليت شعري! هل لك - الدّهر - أوبة	فحسبي ^(٣) من الدنيا رجوعك لي بجبل
تذكّرنّيه الشمس عند طلوعها	وتغرض ذكره إذا غربها أقل

(١) يقال: لقيت فلاناً كفاحاً . أي مواجهة ليس بينهما شيء .

(٢) أي أهلكك .

(٣) يكفيني .

وإن هبت الأرياح هيجن ذُكره فيا طول ما حزني عليه وما وُجِّل^(١)
 سأعمل نصّ العيس في الأرض جاهداً ولا أسألم التطواف أو تسألم الإبل
 حياتي، أو تأتني علي منيتي فكلُّ امرئٍ فإنّ وإن غرّه الأمل
 وبعد زمنٍ، قدم والده مكّة وعَرَفَ ولده زيداً وخيره الرسول ﷺ بين الذهاب مع والده وبين
 البقاء معه، فاختار رسول الله ﷺ ولذا اعتقه وتبناه وكان يعرف بزيد بن محمد حتى جاء الإسلام
 وحرم التبني؛ فأصبح يعرف بزيد بن حارثة بدل محمد ﷺ.

○ نتائج وعبر:

- إن لهذه المقطوعة من السير العطرة نتائج وعبرًا، نجملها تحت الأرقام الآتية:
- ١ - بيان ما أمر به رسول الله ﷺ بعد فترة الوحي من النذارة والتوحيد، والطهارة والاستمرار على هجران الأوثان.
 - ٢ - بيان أن أول من أسلم من النساء خديجة، ومن الصبيان علي، ومن الرجال أبوبكر، ومن الموالى زيد بن حارثة - رضي الله عنهم أجمعين -.
 - ٣ - بيان سبب عتق زيد وتبني الرسول ﷺ له، وهو اختياره للرسول ﷺ دون والده وعمه.



(٢) نص العيس: سير الإبل.

(١) الوجل: الخوف.

إسلام الصديق وأثره في الدعوة

لقد أسلم الصديق مبكرًا - إذ هو أول من أسلم من الرجال الأحرار، كما تقدم - وقد تَوَجَّه الرسول ﷺ بكلمة لم يظفر بها أحدٌ غير أبي بكر الصديق، وهي قوله ﷺ: «ما دعوتُ أحدًا إلى الإسلام إلا كانت فيه عنده كِبُوةٌ» (١)، ونظروا وتردُّدًا إلا ما كان من أبي بكر بن أبي قحافة ما عكم (٢) عنه حين ذكرته له، وما تردد فيه».

وكان الصديق رضي الله عنه في سنٍّ قريبة من سنِّ الرسول ﷺ، وكان ذا حَسَبٍ ونسبٍ في ديار مكة وبين سكَّانها وهو - وإن لم يكن هاشميا - فهو تَيْمِي قُرَيْشي، يمتاز بحسن الخلق، وكرم النفس، والمعرفة بأنساب العرب حتى إنه ليضربَ به المثل في ذلك.

وما إن أسلم رضي الله عنه عن قناعة وعلم بما دخل فيه من دين الله تعالى، حتى أخذ يتصل بخيار رجالات قريش في مكة يعرض عليهم الإسلام سرًّا، فأجابه وأسلم على يديه نخبةٌ ممتازة كان لها الأثر الكبير في نشر الدعوة داخل مكة وخارجها. وأفراد هذه الطليعة هم:

عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس الخليفة الراشد - رضي الله عنه وأرضاه -، يكنى بأبي عبد الله، وبأبي عمرو ويلقب بذي النورين؛ لتزوجه بابنتي رسول الله ﷺ: رقية، ثم أم كلثوم رضي الله عنهما.

الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى القرشي، يكنى بأبي عبد الله، وهو حوارى رسول الله ﷺ، وابن عمته صفية بنت عبد المطلب.

عبد الرحمن بن حوف بن عبد الحارث بن زهرة القرشي، ذو الهجرتين - رضي الله عنه وأرضاه -.

سعد بن أبي وقاص واسمُ أبي وقاص - والد سعد - مالك بن أهيب بن عبد مناف القرشي، خال الحبيب ﷺ، إذ جد سعد أهيب عم أمّته بنت وهب أم النبي ﷺ. وكان رضي الله عنه مجاب الدعوة حتى قيل فيه: احذروا دعوة سعد (٣). فرضي الله عن سعد وأرضاه.

طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب القرشي يكنى بأبي محمد الفياض أحد العشرة المبشرين بالجنة، قُتِلَ في وقعة الجمل - رضي الله عنه وأرضاه -.

فهؤلاء الثفر الذين أسلموا على يد أبي بكر الصديق، يضاف إليهم علي وزيد وأبو بكر الصديق فيصبحون ثمانية أنفار هم أهل السبق في الإسلام؛ إذ آمنوا وصلُّوا مع رسول الله ﷺ قبل كل أحد

(١) الكِبُوة: التأخير وقلة الاستجابة.

(٢) ما تَلَبَّثَ ولا تَرَبَّثَ بل أجاب بسرعة.

(٣) روى أن سعدًا رضي الله عنه قال مرةً للنبي ﷺ: ادع الله تعالى أن يجعلني مجاب الدعوة يا رسول الله فقال له الرسول ﷺ: «أطب مَكْسِبِك نَجَبَ دَعْوَتِكَ».

كل أحد من الناس باستثناء السيدة خديجة وإذ كانت أول المؤمنين .

○ نتائج وعبر :

من نتائج هذه المقطوعة من السيرة المعطرة ما يلي :

- ١ - بيان فضل أبي بكر الصديق .
- ٢ - بيان فضل الدعوة إلى الله ، وفضل من يهدي الله على يديه فرداً أو أفراداً .
- ٣ - بيان شرف هؤلاء الأنفار الثمانية لسبقهم في الإسلام ؛ إذ أثنى تعالى عليهم في قوله : ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَدَّمُونَ وَالْأُولَئِكَ الْأُولُونَ الَّذِينَ أُتْبِعُوهُم يَلْحَقُونَ بِمَا لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُمْ فِي الْمَقَامِ الْمَكِينِ ﴾ [النسوة : ١٠٠] .

أفواج السابقين بعد الأولين

وما إن أسلم أولئك النفر الكرام ، حتى تتابع أشراف قريش يدخلون في الإسلام فيؤمنون بالله رباً وإلهاً ، لا إله غيره ، ولا رب سواه ، وبمحمد نبياً ورسولاً ، وبالقرآن هدى ونوراً ، فأسلم : أبو عبيدة عامر بن الجراح القرشي الملقب بأمين هذه الأمة ، أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وهو الذي انتزع من رسول الله ﷺ حلقتي الدرع يوم أحد ، فسقطت بذلك ثنياه - رضي الله عنه وأرضاه - .

أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد بن هلال القرشي ، وأمه برة بنت عبد المطلب فهو ابن عمه رسول الله ﷺ . هاجر الهجرتين وشهد بدرًا ، وتوفي سنة ثلاث من الهجرة ، وتزوج رسول الله ﷺ امرأته - إكراماً له واعترافاً بفضله في إسلامه - أم سلمة فأصبحت أم المؤمنين ، وهذا من إكرام الله تعالى لها ولأبي سلمة - رضي الله عنهما وأرضاهما - .

والأرقم بن أبي الأرقم وهو عبد مناف بن أسد القرشي أسلم عاشر عشرة وكان النبي ﷺ قد استخفى في داره بالصفاء يدعو الناس إلى الإسلام سرًا حتى اكتمل عدد المسلمين أربعين رجلاً . وكان آخرهم إسلامًا عمر بن الخطاب ق ويومئذ خرجوا من الدار وصلوا جبهة حول الكعبة .

وعثمان بن مظعون القرشي ، يكنى بأبي السائب وهو أخ للنبي ﷺ من الرضاع ، وهو أول مهاجر توفي بالمدينة النبوية ، ومن فضائله وكمالاته الروحية : أنه امتنع من شرب الخمر في الجاهلية قبل الإسلام ، وقال لا أشرب شراباً يذهب عقلي ، ويضجك بي من هو أدنى مني ويحملني على أن أنكح كريمتي .

وعبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف بن قصي القرشي ، وكان أسن من النبي ﷺ بعشر سنين ، هاجر إلى المدينة مع أخويه الطفيل وحصين . أسلم قبل دخول الرسول ﷺ دار الأرقم ، وكانت له منزلة عند رسول الله ﷺ وقدرًا ، يكنى بأبي الحارث - رضي الله عنه وأرضاه - .

وبسبب : بن زيد بن عمرو بن نفيل العدوي القرشي ابن عم عمر بن الخطاب رضي الله عنهما

وصهره؛ إذ كانت تحتها فاطمة بنت الخطاب والتي كانت سبب إسلام أخيها عمر رضي الله عنهما.

وأسماء وعائشة بنتا الصديق أسلمت عائشة وهي طفلة صغيرة. وأما أسماء فكانت متزوجة بالزبير بن العوام حين أسلمت - فرضي الله عنهما وأرضاهما -.

وختاب بن الأرت حليف بني زهرة التميمي.

وعبد الله بن مسعود بن أم عبد الهذلي.

وعمر بن أبي وقاص أخو سعد بن أبي وقاص.

ومسعود بن القاري بن ربيعة من القارة، وهم قوم رماة لُقُبُوا بالقارة.

وهكذا توالى إسلام من أكرمهم الله بالإسلام، فأسلم جعفر بن أبي طالب وامرأته^(١)، وأسلم عياش وامرأته، وخنيس، وعامر بن ربيعة بن عنز ابن وائل، وعبد الله بن جحش وأخوه أبو أحمد وحاطب بن الحارث وامرأته فاطمة بنت المُجَلَّل، وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر الصديق، وخالد بن سعد بن العاص، وعمار ابن ياسر العنسي المذحجي حليف بني يقظة، وصهيب بن سنان الرومي - نسبة إلى الروم - إذ كان قد أُسِرَ في أرض الروم - وهي الشام - فاشترى منهم، ووردَ فيه قول النبي ﷺ: «صهيب سابق الروم» فرضي الله عنه وأرضاه وجعل الجنة مأوانا ومأواه، آمين.

لقد بلغ المسلمون هذا العدد الكبير وما زالت الدعوة سرًا لم يَجْهر بها بين صفوف قريش؛ لأن هذا العدد غير كاف في دفع ما يتوقَّع من أذى تُصيب به قريشُ المسلمين، وقبل كل شيء أن الله تعالى لم يأذن لرسوله والمؤمنين بالجهر بالدعوة، ولو أذن لهم لجهروا بها وكلفهم ذلك ما كلفهم، وسيأتي اليوم الذي يؤذن لهم، وسوف يتعرضون لألوان من التعذيب والاضطهاد يتلقون ذلك بطيب نفس ورحابة صدر؛ لأنه في ذات الله، وما كان في ذات الله فهو محبوب للحبيب الصادق.

○ نتائج وعبر:

لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبر نجملها فيما يلي:

١ - بيان فضل السبق في الخير وأهله.

٢ - تقرير مبدأ وَضَعَهُ رسولُ الله ﷺ وهو قوله: «خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا».

٣ - بيان فوز الأرقم بن أبي الأرقم بمنقبة عظيمة، وهي اتخاذ داره مركزًا للدعوة أيام ضعفها واستخفافها وهي أوقات مرت بها الدعوة.

(١) هي أسماء بنت عميس تزوجها أبو بكر الصديق بعد استشهاد جعفر في مؤته فرضي الله عنهم أجمعين.

- ٤ - بيان فضيلة فاطمة بنت الخطاب بسبقها للإسلام وهداية أخيها عمر بسببها .
 ٥ - إن من النساء من قُزْنَ بالسبق في الإسلام، وهن : عائشة، وأسماء بنتا الصديق، وفاطمة بنت الخطاب، وأسماء بنت عميس امرأة جعفر، وأم سلمة امرأة أبي سلمة أم المؤمنين وغيرهن - رضي الله عنهن وأرضاهن - .

الجهر بالدعوة بعد الإسراء بها

إنه بعد أن اكتمل عدد المسلمين نيفاً وأربعين رجلاً وكذا امرأة . . . وأسلم حمزة عم النبي ﷺ ، وعمر ابن الخطاب ؛ استجابَّ الله لدعوة رسوله ﷺ حيث قال : «اللهم أيد الإسلام بأحد العمرين»^(١) . يعني عمر بن الخطاب أو عمرو بن هشام «أبو جهل» .
 وبإسلام حمزة وعمر رضي الله عنهما قويت شوكة المسلمين ، وأنزل قوله تعالى : ﴿فَاصْخَبْ يَا نُؤْمُرُ الْغَرَضِ عَنِ الشُّرَكِيِّ﴾ [الحجر: ٩٤] . وأنزل الله سبحانه وتعالى قوله لرسول الله ﷺ : ﴿وَأَنْزَلَ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] . فصعد ﷺ على جبل الصفا ، ونادى بأعلى صوته قائلاً : واصباحاه !! واصباحاه !! فهزَّ صوته حثيات وادي مكة ، وأقبل الناس نحو النداء زرافات ووحداناً حتى امتلأت ساحة الصفا ، فأقبل عليهم رسول الله ﷺ كاليدبر ليلة هالته فقال : «يا معشر قريش : رأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً يسفح هذا الجبل ، تريد أن تغير عليكم صدقتهموني؟» قالوا : نعم . فقال : «إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد ، أنقلدوا أنفسكم من النار» فقام أبو لهب فقال : تَبَّأَ لَكَ سائر اليوم ، أما دعوتنا إلا لهذا . فأنزل الله تعالى سورة المسد : ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝ فِي جَهَنَّمَ حَبَلٌ مِّنْ مَّسَدٍ﴾ [المسد: ١-٥] .

○ نتائج وعبر :

- إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرًا نذكرها فيما يلي :
- ١ - بيان المدة التي كانت فيها الدعوة سرًا وهي ثلاث سنوات .
 - ٢ - بيان مقتضى سرية الدعوة ، وهو قلة المؤمنين وكثرة المشركين .
 - ٣ - الجهر بالدعوة كان بأمر الله تعالى لآية الجحجر .
 - ٤ - بيان سبب نزول سورة المسد ، وهو قول أبي لهب لرسول الله ﷺ : تَبَّأَ لَكَ سائر اليوم .
 - ٥ - بيان أنه لا دليل لمن يرى سرية الدعوة في بلاد المسلمين اليوم - في سرية الرسول ﷺ لها ثلاث سنوات ؛ لأن الرسول وأصحابه كان لا يسمح لهم أن يقولوا : لا إله إلا الله محمد
- (١) رواه الترمذي وصححه بلفظ : «اللهم أعز الإسلام بأحد الرجلين إليك بعمر ابن الخطاب أو بأبي جهل بن هشام» وقد تكلم بعضهم في هذا الخبر ، ولا حاجة إلى ذلك ما دام الله تعالى قد أيد دينه بعمر بن الخطاب رضي الله عنه .

رسول الله ولا يؤذّنوا أو يصلوا، ولما قويت شوكتهم أمروا بالجهر بالدعوة، فجهروا ولاقوا من الأذى ما هو معروف بين المسلمين.

٦ - ذكر إسلام حمزة، ولم نذكر قصة إسلامه، فلنذكرها، لما فيها من العبرة، وكذا الحال بالنسبة لإسلام عمر فلما لم نذكر قصته في سبب إسلامه رضى الله عنه وسنذكرها إن شاء الله إزاء رقم سبعة بعد قصة إسلام حمزة رضى الله عنه.

○ قصة إسلام حمزة رضى الله عنه:

لقد مر يوماً أبو جهل - عليه لعائن الله - برسول الله ﷺ وهو عند الصفا، فأذاه وشتمه ونال منه بعض ما يكره: من العيب لدينه والتضعيف لأمره، فلم يرد عليه رسول الله ﷺ ولم يكلمه، وكانت مولاة لعبد الله ابن جدعان في مسكن لها تسمع ما قاله أبو جهل، وشاء الله تعالى أن يمر حمزة راجعاً من قنص له متوشحاً قوسه، فقالت له المرأة: يا أبا عمارة لو رأيت ما لقي ابن أخيك محمد أنفأ من أبي الحكم عمرو ابن هشام؟ وجده ههنا جالساً فأذاه وسبه وبلغ منه ما يكره، ثم انصرف ولم يكلمه محمد ﷺ، فاحتلم حمزة الغضب، فخرج يسعى ولم يلتفت إلى أحد حتى أتى أبا جهل - وهو جالس في نادي القوم حول المسجد - فضربه بالقوس فشج رأسه شجة منكراً، ثم قال: أتشتمة وأنا على دينه، أقول ما يقول فرء ذلك علي إن استطعت. فقام رجال من بني مخزوم لينصروا أبا جهل، فقال أبو جهل: دعوا أبا عمارة؛ فإني والله قد سببت ابن أخيه سباً قبيحاً.

وثبت حمزة من ساعتئذ على ما قاله، فأسلم وحسن إسلامه، ويومها عرفت قريش أن رسول الله ﷺ قد عزّ وامتنع بإسلام عمه حمزة - المعروف بينهم بأنه أعزّ فتى في قريش.

○ قصة إسلام عمر رضى الله عنه:

وأما قصة إسلام عمر رضى الله عنه فهي كالآتي:

مرَّ عمر برجل مخزومي قد أسلم، فعابه عمر، فرد عليه الرجل، بأنه إن أسلم هو فقد أسلم من هو أحقّ باللوم والعتاب مني يا عمر. فقال عمر: من هو؟ قال الرجل: أختك وختك - أي صهرك - فذهب عمر إلى دار أخته فاطمة - وهي تحت سعيد بن زيد - وسأل ما هذا الذي بلغني عنكما؟ فرداً عليه، وما كان منه إلا أن ضرب رأس أخته فأدماه، فقامت إليه وقالت: وقد كان ذلك على رغم أنفك، فاستحيا عمر حين رأى الدم يسيل من رأس أخته، وجلس، وقد رأى بينهما كتاباً، فقال: أروني هذا الكتاب، فقالت له فاطمة: إنه لا يمسه إلا المطهرون، فقام عمر فاغتسل، فأخرجنا له صحيفة فيها ﴿يَسْمِعُ اللَّهُ الْكَافِرَ الْيَكِيدَ﴾ فقال: أسماء طيبة طاهرة ﴿طَهْرًا﴾ مَا أَرْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿١-٢﴾. إلى قوله تعالى: ﴿الْأَحْمَاءُ الْكُسُفِيُّ﴾ [٨: فتعظم ذلك في صدر عمر وأسلم، وقال لهما: أين رسول الله ﷺ؟ فقالت له في دار الأرقم، فذهب إلى دار الأرقم، ففرع الباب، ففرغ من في الدار، فقال لهم حمزة: مالكم؟ قالوا: عمر،

قال: افتحوا له الباب، فإنه إن أقبل قبلناه، وإن أدبر قتلناه. وكان رسول الله ﷺ في حجرة الدار، فلما سمع الحديث خرج فتشهد عمر، فكبر أهل الدار تكبيرة سمعها من في المسجد، وقال عمر: ألسنا على الحق يا رسول الله؟ قال: «بلى» قال: ففيم الاختفاء؟ فخرجنا صفين عمر في أحدهما، وحمزة في الآخر - وقد كان أسلم قبل عمر بثلاثة أيام - ولما دخلوا المسجد ورأتهم قريش - وبينهما حمزة وعمر - أصابتها كآبة وحزن شديد. وسمى النبي ﷺ ساعتها عُمَرُ: الفاروق.

ارتفاع ضوء الشمس للحمدية

وعشنا أبصار المشركين

إنه بعد أن أعلن النبي ﷺ دعوته، وجهر بها في أوساط المشركين - وهي دعوة واضحة سليمة لا عيب فيها، واضحة لا غموض ولا لبس فيها - عشت عنها أبصار المشركين، فلم يروا ما تحمله من الخير والهدى، فناصبوها العدا، وأصبحوا لها خصوماً ألداء، يحاربونها بكل ما لديهم من قوة وشدة. وفي العرض التالي تتجلى هذه الحقيقة.

لقد مر بنا في قصة إسلام حمزة - قبل قليل - أن أباجهل وجد النبي ﷺ جالساً عند الصفا، فنال منه سباً وشتماً، وعيباً لأمره، ولم يرد عليه النبي ﷺ إلا أن الله تعالى قيض له أسداً من آساده؛ حمزة بن عبد المطلب عم الحبيب ﷺ، فضربه على رأسه فشجه شجة منكراً، وأغاظه بأنم غيظ إذ أسلم أمامه وحسن إسلامه، وبإسلام حمزة وعمر رضى الله عنهما دخلت الدعوة في طور جديد، فجاهر الرسول ﷺ وصدع بما يأمره به ربه، فأقضى هذا الموقف الجديد مضاجع المشركين، وأفزعههم، وزادهم هولاً وفزعاً تزايد عدد المسلمين وإعلانهم عن إسلامهم، وعدم مبالاتهم بعداء المشركين له، الأمر الذي جعل رجالات قريش يسامون رسول الله ﷺ، وها هو ذا أبو الوليد عتبة بن ربيعة يتبع من قتل المشركين ليعرض على رسول الله ﷺ ما رأوه حلاً للمشكلة في نظرهم، فيقول له: يا ابن أخي، إنك منا حيث قد علمت من السطة^(١) في العشيرة، والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت به جماعتهم، وسفّهت به أحلامهم وعيبت به آلهتهم ودينهم، وكفرت به من مضي من آباءهم، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها، فقال له الرسول ﷺ: «قل يا أبا الوليد أسمع». قال: يا ابن أخي، إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت تريد به شرفاً سؤدناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رثياً تراه لا تستطيع ردة عن نفسك، طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى تُبترلك منه؛ فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه.

(١) السطة: الشرف.

وفرغ عتبة من كلامه، ورسول الله ﷺ يستمع منه فقال: «أفد فرغت يا أبا الوليد؟» قال: نعم. قال: «فاسمع مني» قال: أفعل. فقال الحبيب ﷺ: ﴿يَسْمِعُ أَفْرَ الْكَفْرِ الْبَيْتِ﴾ ﴿حَتَّى تَنْزِيلُ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [فصلت: ١-٢]. ومضى رسول الله ﷺ يقرأ وقد ألقى عتبة يديه وراء ظهره معتمدا عليهما يسمع مُنصتًا - حتى انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة^(١) فسجد ثم قال: «قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك»!!.

وعاد عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به. فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أني قد سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة، أطيعوني، واجعلوها لي، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تُصِبه العرب فقد كُفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملككم ملككم وعزَّه عزَّكم، وكنتم أسعد الناس به. فما كان جوابهم إلا أن قالوا: سحرك يا أبا الوليد بلسانه، فقال: هذا رأيي فيه فاصنعوا ما بدا لكم!! . كان هذا عرضاً.

○ وعرض ثان:

إن ما عرضه أبو الوليد على النبي ﷺ كان عرضاً معقولاً، لولا أنه أراد به الصَّدَّ عن سبيل الله، بصرف الرسول ﷺ عن دعوته، ولذا نزل القرآن الكريم يأمر رسول الله ﷺ برفضه وعدم قبوله بالجملة، فقال تعالى من سورة الإنسان: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ۖ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُلْغُ عَنْهُمْ إِنِّي كُنَّا أَزْكَرًا﴾ [الإنسان: ٢٣-٢٤]. كما أن رد عتبة علي المشركين لما اتهموه بأنه سحر، كان ردّاً معقولاً ومقبولاً لولا العَمَّة والحيرة اللتان أصيب بهما المشركون، يدل على ذلك أن قوله عتبة أبي الوليد لهم تَرَى الذهب لو كان لهم عقل، أو كانوا يبصرون، أو كانت لهم حنكة سياسية^(٢)، ويدل على عَمَهِم وحيرتهم أيضاً أنهم بعد ما سمعوا الذي سمعوه من أبي الوليد كَوَّنوا وفداً من أعظم رجالائهم، وبعثوا به إلى رسول الله ﷺ، ليساومه بنفس المساومة ويقول له نفس الكلام الذي قال له أبو الوليد، وفعلاً أتى الوفد الجديد وكرر قوله أبي الوليد، فردَّ الرسول ﷺ قائلاً: «إنه ما بي

(١) ورد في هذه أن النبي ﷺ لما بلغ في قراءته ﴿فَقُلْ أَتَدْرِكُونَ صَفِيَّةً مَثَلُ صَفِيَّةَ عَاوِ وَثُودَ﴾ [فصلت: ١٣] جعل عتبة يضع يده في فم رسول الله ويناشده الله والرحم خشية أن تنزل عليه صاعقة لما يعلمه من صدق رسول الله ﷺ.

(٢) هكذا كانت السياسة العالمية: إذ ظهر في الأمة رجل طموح يطالب بأمر يفاوضونه مفاوضة أبي الوليد للرسول ﷺ فيرضونه حتى يرضى ويسكت لهم إلى أن ظهر المذهب الشيوعي أخيراً فعدلوا عن المفاضات والعرض والمساومات إلى التعذيب والتنكيل حتى يقطعوا أنفاسه فيسكت أو يهلك، وذلك لأنهم لا يؤمنون بالله ولقائه، فلذا هم يعذبون الإنسان وكأنه غير إنسان من شجر أو حجر، فباسم الله نلعنهم، ونبرأ إلى الله من صنيعهم!

ما تقولون، ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولا وأنزل علي كتابا، وأمرني أن أكون لكم بشيرا ونذيرا، فأبلغكم رسالات ربي، ونصحت لكم فإن قبلوا مني ما جئتكم به: فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم بيني وبينكم!! ولما سمعوا هذا الرد الكريم الحكيم من سيد المرسلين محمد ﷺ فقدوا صوابهم وجن جنونهم وأخذوا يهذرون ويهرفون بما لا يعرفون، ومن جملة ما قالوه: أنهم طالبوا النبي ﷺ أن يدعو ربه ليحيي لهم من مات من آبائهم، وأن يزيل عنهم الجبال المحيطة بمكة، وأن يفجر خلالها الأنهار لتصبح حدائق من نخيل وأعناب، وذكروا كلاما وطالبوا بأمور ذكرها الله تعالى في سورة الإسراء في قوله: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَكَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ۖ أَوْ تَكُونَ لَكَ جُنَّةٌ مِنْ حَبْلٍ مِصْرَبٍ ۖ فَتُجَرَّ الْأَنْهَارُ جَلَلَهَا تَفْجِيرًا ۚ﴾ أَوْ تُنْفِطَ السَّمَاءُ كَمَا زُغَمَتِ عَلَيْنَا كِسْفًا ^(١) أَوْ تَأْتِيَ بَالِغٍ يَأْتِيهِ وَالْمَلَيْكَةُ قِيَامًا ^(٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرَفٍ ^(٣) أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِزُفَيْكَ حَتَّى تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِنَافًا نَقْرُوهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴿[الإسراء: ٩٠-٩٣]. وهنا أمره ربه أن يقول لهم: ﴿سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٣].

ولما فرغوا من عرضهم وردهم السخيف وقام رسول الله ﷺ تبعه عبد الله بن أبي أمية الخزومي وهو ابن عمه رسول الله ﷺ؛ لأن أمه عاتكة بنت عبد المطلب، فقال له: عرضت عليك قريش كذا وكذا، ورفضت كل ذلك، فوالله لا أومن بك أبدا. وعاد رسول الله ﷺ حزينا أسفا لما فاته مما كان أمثله من استجابة قومه لما دعوه ليكلّموه في أمر دعوته. كان هذا عرضا.

○ وعرض ثالث:

إنه لما فشل رجال قريش في المساومات التي تقدّموا بها إلى رسول الله ﷺ وسمعوا ما أبأسهم به رسول الله ﷺ من عدم التنازل عن شيء من دعوته وإن قل، ومن عدم التزحزح عما يدعوه إليه قيد شعرة: قام أبو جهل ليشفي صدره الذي احتدم غيظا، فأخذ حجرا كبيرا وقال: لأفلقن به رأس محمد ﷺ وهو يصلي، وتخين عدو الله الفرصة، فلما قام رسول الله ﷺ يصلي حول الكعبة بين الركنين مستقبل البيت، جاء أبو جهل - لعنه الله - وتقدم نحو رسول الله ﷺ ليضربه بالحجر، ورجال قريش في أنديتهم ينتظرون ما يفعله طاغيتهم - عليه لعائن الله - فلما دنا من رسول الله ﷺ ولّى هاربًا منتقع ^(٤) اللون مرعوبا ^(٥) قد بيست يدها على الحجر، وقام إليه رجال قريش يقولون: مالك يا أبا الحكم؟ ما أصابك؟ قال: قممت إليه لأفعل به ما قلت لكم البارحة، فلما دنوت منه عرض لي دونه فحلّ من الإبل، لا والله ما رأيت مثل هامته ^(٦) ولا مثل

(١) قطعا: جمع كسفة كقطعة.

(٢) أي مقابلة لتراهم عيانا.

(٣) أي من ذهب، إذ الزخرف هو الذهب.

(٤) أي متغير الوجه.

(٥) ضخمته رأسه.

(٦) أي خافها.

قَصْرَهُ^(١) ولا أنيابه لفحل قط، فَهَمَّ بي ليأكلني. وفي هذه الحادثة نزل قول الله تعالى: ﴿لَا يَنْزِلُ رَبُّنَا تَلَافُظًا^(٢)﴾ يَا نَاصِيَةَ^(٣) نَاصِيَةً كَذِبًا عَاطِيَةً^(٤) قَلْبُكَ نَادِيَهُ^(٥) سَتَعُ الرَّايَةَ^(٦) كَلَّا لَا تُلَاقُهُمْ وَأَسْجُدُ أَقْرَبَ^(٧)﴾ [الملق: ١٥-١٩].

ولما سمع وشاهد هذه الحادثة النضر بن الحارث، قام في قريش وقال: يا معشر قريش إنه - والله - قد نزل بكم أمرٌ ما أنتم له بحيلة بعد، فقد كان فيكم محمد غلامًا حدثًا، أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثًا، وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم في صدغه^(٨) الشيب، وجاءكم بما جاءكم به قلتم: ساحر، لا والله ما هو بساحر، لقد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم، وقتلتم: كاهن، لا والله ما هو بكاهن؛ قد رأينا الكهنة وتخالجهم وسمعنا سجعهم. وقتلتم شاعر، لا والله ما هو بشاعر؛ قد رأينا الشعر وسمعنا أصنافه كلها هزجه وَرَجَّزَه.

وقلتم: مجنون، لا والله ما هو بمجنون؛ لقد رأينا الجنون فما هو بخنقه ولا وسوسته ولا تخليطه. يا معشر قريش فانظروا في شأنكم فإنه والله قد نزل بكم أمر عظيم.

إذ كان النضر بن الحارث هذا شيطان قريش، كان أخبثهم نفسًا وأشدهم عدواة لرسول الله ﷺ والمؤمنين؛ إذ هو القاتل: أنا أحسن حديثًا من محمد ﷺ وكان يقص أخبار ملوك فارس ويقول: ﴿سَأُولُ يَمَلُّ مَا أَرَزَّ أَنَّهُ﴾ [الأنعام: ٩٣]. لما أصابه من الحسد والغرور وعمى البصر والبصيرة. كان هذا عرضًا.

ولقد نزل في النضر قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا هُوَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْكَ فَامْطُرْ عَلَيْنَا جِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِكَ آيَاتٍ﴾. جاء هذا في سورة الأنفال، ونزل فيه قوله تعالى أيضًا: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُمْ دَافِعٌ مِّنْهُ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ [المعارج: ١-٣].

○ وعرض رابع:

إنه لما أعيت الحيل قريشًا، ولم تجد ما تدفع به دعوة الحق التي عشت أبصارها عن أنوارها الساطعة، بعثت وفدًا إلى يثرب «المدينة» بجلي لها حقيقة الموقف بواسطة أحبار اليهود؛ لأنهم أهل كتاب، وَدَوُّو علم بالاديان.

ويتكون الوفد من النضر بن الحارث - شيطان قريش - أميرًا، وعقبة بن أبي معيط مساعدًا له، وقالوا لهما: اسألا أحبار اليهود عن محمد ﷺ وصفًا لهم صفته وأخبراهم بقوله الذي يقول، ودعوته التي يدعو إليها؛ فإنهم أهل كتاب، وعندهم علم بالأنبياء ليس عندنا. فخرجا حتى أتيا المدينة؛ فسألا أحبار يهود عن رسول الله ﷺ ووصفا لهم أمره وأخبراهم ببعض قوله، وقالوا

(١) أصل العنق؛ إذ القصر أصل العنق.

(٢) لناخذ بناصيته.

(٣) أي رجال مجلسه ومُتَنِّداه.

(٤) الصدغ المكان بين الأذن والحاجب حيث الشعر مسترسل من الرأس، ولكل إنسان صدغان، وأول ما يبدأ الشيب يظهر فيها غالبًا.

لهم: إنكم أهل التوراة، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا. فقالت لهم أحبار يهود: سلوه عن ثلاث نأمركم بهنّ، فإن أخبركم بهنّ فهو نبي مرسل، وإن لم يفعل فالرجل متقوّل، فَرُوا فيه رأيكم: سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان أمرهم؟ فإنه قد كان لهم حديث عجب، وسلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها، ما كان نبؤه؟ وسلوه عن الروح، ما هي؟ فإن أخبركم بذلك فاتبعوه فإنه نبي، وإن لم يفعل فهو متقوّل فاصنعوا في أمره ما بدا لكم. وعاد الوفد إلى قريش، وقال لهم: جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد ﷺ قد أخبرنا أحبار يهود أن نسأله عن أشياء أمرونا بها، فإن أخبركم بها فهو نبي، وإن لم يفعل فالرجل متقوّل فَرُوا رأيكم فيه.

وسألت قريش النبي ﷺ وقال: «غداً أخبركم» ولم يستثن، وانصرفوا عنه. وحبس الوحي عنه لعدم استثنائه قرابة نصف الشهر حتى حزن ﷺ وفرحت قريش وقالوا الكثير من القول حتى قالوا: قلاه شيطانه الذي كان يأتيه، ثم أنزل الله تعالى سورة «الضحى» ينفي فيها ما قالته قريش وأدعاه بعضهم من غلاة المبغضين له ﷺ من أن الله تعالى قد قلاه، أي تركه وأضاعه مبعوضاً له، وأنزل سورة «الكهف» وفيها بيان حديث أصحاب الكهف تفصيلاً، وفيها خبر الرجل الطوّاف وهو الإسكندر ذو القرنين، ونزل في شأن الروح قوله تعالى في السورة التي قبل سورة الكهف «الإسراء»: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ بِهِ إِلَّا قِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]. ردّا على اليهود. كان هذا عرضاً.

○ وعرض خامس:

ولما فشلت قريش في محاولتها الأخيرة بإرسالها وفداً إلى أحبار اليهود: لجّت في الخصومة وأعلنت حرباً كلامية على رسول الله ﷺ محاولةً بذلك إطفاء نور الله بأفواهها، وها هو ذا أبو جهل يقول هازناً ساخراً برسول الله ﷺ وبما جاء به من الهدى ودين الحق: يا معشر قريش، يزعم محمد ﷺ أن جنود الله الذين يعذبونكم في النار ويحبسونكم فيها تسعة عشر، وأنتم أكثر الناس عدداً وكثرة، أفيعجز كل مائة رجل منكم عن رجل منهم؟ وفي هذا نزل قول الله تعالى من سورة المدثر: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَثَارَ الْآثَارِ إِلَّا مَلَكُوتًا وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [المدثر: ٣١]. ويكشف أبو جهل عن وجه حسده وكبريائه، فيأتيه الأخنس بن شريق فيقول له: يا أبا الحكم، ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ - يزيد من قراءته القرآن - فقال: ماذا سمعت؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف؛ أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاينا^(١) على الركب، وكنا كفرنسي رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك مثل هذه؟ والله لا نؤمن به أبداً، ولا نصدق.

(١) يُروى تحاذينا، وكلاهما صحيح.

ويحملهم البغض والخوف على أن يمتنعوا سماع القرآن، فيتخذوا في ناديم قرارًا بمنع سماع قراءة القرآن، وأنزل الله تعالى في ذلك قرآنًا؛ وهو قوله في سورة فصلت: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْقُرْآنُ فِيهِ لَعْنٌ كَثِيرٌ﴾ [فصلت: ٢٦].

وعزّ عليهم ألا يسمعه - وقد أصدروا قرارًا بمنع سماعه - فخرج أبو سفيان وأبو جهل والأخنس بن شريق خرجوا ثلاثتهم ليلاً ليستمعوا قراءة الرسول ﷺ وهو يقرأ في صلاته في بيته، واتخذوا مجالس لهم يستمعون فيها في الظلام - ولا يدري أحدهم عن الآخر - حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعتهم الطريق فتلاوموا وتعاهدوا ألا يعودوا لمثلها، ولكنهم لم يصبروا؛ فخرجوا في ليلة أخرى - ولا يدري أحدهم عن الآخر، واستمعوا إلى قراءة النبي ﷺ حتى إذا طلع الفجر تفرقوا وجمعتهم الطريق فتلاوموا، وتكرر هذا منهم ثلاث مرات، وفي الرابعة تعاهدوا ألا يعودوا لمثلها أبداً.

وهكذا تجلّت الحقيقة واضحة لا غموض فيها ولا لبس ولا خفاء، وهي أن المشركين عشت أبصارهم^(١) عن النور المحمدي فلم يروا فيما جاء به هدى ولا خيراً؛ فناصبوه العداة وأصبحوا خصوماً لآلء يحاربونه ﷺ ويحاربون دعوته وأتباعه بكل ما لديهم من قوة، كما هي حال الكافرين إلى اليوم، فهم حرب على الإسلام والمسلمين دائماً وأبداً، ولولا أن الله تعالى ناصر دينه وأوليائه لغلّبوا على الإسلام والمسلمين، ولم يبقَ إسلام ولا مسلمون.

○ نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نجمتها في الآتي:

- ١ - إثبات حيرة المشركين إزاء الدعوة المحمدية وإلى اليوم.
- ٢ - بيان استعمال المشركين أسلوب المساومات لإحباط الدعوة وإطفاء نورها.
- ٣ - ثبات النبي ﷺ ووقوفه كأنه جبل أَسْمُ أمام المساومات والتحديات.
- ٤ - شهادة عتبة بن ربيعة بصحة الدعوة المحمدية وسلامتها وأحقيتها - وهو من خصومها - لها قيمتها المعنوية. كما قيل: «والحق ما شهدت به الأعداء».
- ٥ - بيان تعنت المشركين وصلفهم وكبريائهم برفضهم دعوة الحق بعد ثبوتها، ومطالبتهم بأمور ليس تحقيقها من لازم النبوة ولا شرطاً في قبول دعوة الحق.
- ٦ - بيان خبث أبي جهل وشدة عداته للنبي ﷺ، ومحاربته لدعوته.
- ٧ - استحباب قول العبد: «إن شاء الله» فيما يستقبل من قول أو عمل.
- ٨ - بيان تأثير القرآن في نفس من يسمعه متدبراً له متفكراً فيه.

(١) عشت أبصارهم: ضعفت عن النظر لما أصابها من مرض العشا.

خيبة المشركين تتحول إلى نقمة

على المستضعفين من المؤمنين

إنه بعد أن بذلت قريش كل ما في وسعها من قوة وحيلة في إطفاء أنوار الدعوة المحمدية، وباءت بخيبة مريرة: حولت ذلك إلى نقمة على المستضعفين من المؤمنين كبلال وعمار والدة ياسر وأمه سمية، وصهيب الرومي، وخباب بن الأرت وأبي فهيرة، وأبي فكيهة ومن النساء زئيرة، والتهدية، وأم عُبَيْس.

أما بلال فكان مملوكاً لأمية بن خلف الجُمحي، وكان يعذبه باللقائه في الرمضاء على وجهه وظهره، ويضع الصخرة العظيمة على صدره، وذلك إذا حميت الشمس وقت الظهيرة، ويقول له: لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد، وتعبد اللات والعزى، وبلال صابر يردد كلمة: أحدٌ أحدٌ، وأخيراً استبدله أبوبكر الصديق بعبد مشرك وأعتقه رضى الله عنهما.

وأما عمار وأمه ووالده ياسر، فقد كانوا يخرجونهم إلى الأبطح إذا حميت الرمضاء يعذبونهم بحرّ الرمضاء، فمرّ بهم النبي ﷺ وهو يعذبون فقال: «صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة» فمات ياسر تحت العذاب - رحمه الله رحمة واسعة -.

وأما سمية فقد أغلظت القول لأبي جهل - عليه لعائن الله - فطعنها بحربة في قبلها فماتت شهيدة، وكانت أول شهيد في الإسلام.

وشدد أعداء الله العذاب على عمار ونوعوا العذاب عليه، فمرة بالجرّ، ومرة بوضع الصخرة على صدره، وأخرى بالغمس في الماء إلى حد الاختناق ويقولون له: لا نتركك حتى تسب محمداً، وتقول في اللات والعزى خيراً. وفعل ما طلبوه منه فتركوه، فأثنى النبي ﷺ بيكي، فقال: «ما وراءك؟» فقال: شرّ يا رسول الله، كان الأمر كذا وكذا، فقال: «كيف تجد قلبك؟» قال: أجده مطمئناً بالإيمان. فقال: «إن عادوا يا عمار فعد». وأنزل الله تعالى في قوله من سورة النحل: ﴿إِنَّمَا مَنْ كَفَرَهُ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا﴾ [النحل: ١٠٦]. وأما خباب، فقد أسلم سادس ستة، فقد عذبه المشركون عذاباً شديداً إذ كانوا يلصقون ظهره بالرمضاء ثم بالحجارة المحمّاة بالنار ويلوون رأسه.

وأما عامر بن فهيرة، فقد أسلم قديماً قبل دخول الرسول ﷺ إلى دار الأرقم، وكان من المستضعفين، فعُذّب عذاباً شديداً، ولم يرّه ذلك عن دينه، وكان يرعى غنماً لأبي بكر، وكان يروح بها على النبي ﷺ وأبي بكر - وهما في الغار طوال المدة التي كانا فيها في الغار - وأما أبو فكيهة - واسمه أفلح أو يسار فقد كان عبداً لصفوان بن أمية ابن خلف الجُمحي أسلم مع بلال، فأخذته أمية بن خلف - عليه لعائن الله - وربط في رجليه حبلاً وأمر به فجُرّ ثم ألقاه في الرمضاء، ومر به جَعَلٌ «حشرة معروفة» فقال له أمية: أليس هذا ربك؟ فقال: الله ربي وربك ورب هذا.

فخنقه خنقاً شديداً . وكان معه أخوه أبي بن خلف فيقول : زده عذاباً حتى يأتي محمدٌ فيخلصه بسحره . ولم يزالوا يعذبونه كذلك حتى أغمى عليه فظنوه مات ، ثم أفاق ، فاشترأه أبو بكر الصديق وأعتقه .

وأما النساء - زينة وأم عبيس وليبية والنهدية - فقد عذبن كذلك أشد العذاب من قبل مواليهن ولم يرجعن عن دينهن ، فرضي الله عنهن وأرضاهن .

○ نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرًا نذكرها إزاء الأرقام التالية :

١ - تقرير وتأكيد معنى قوله تعالى : ﴿ أَحْيَبَ أَتَأْتُونَ بُرْجًا أَنْ يَرْكَبُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ [التكوير: ٢] .

٢ - بيان ما لاقاه المستضعفون المؤمنون من ألوان العذاب ، ولم يردهم ذلك عن دينهم .

٣ - بيان أن أول شهيد في الإسلام كان سمية أم عمار رضی الله عنهما .

٤ - بيان ما كان عليه طغاة المشركين من شدة وغلظة وحنق على المسلمين ، وما أنزلوه من عذاب بالمستضعفين من الموالى والعبيد نساء ورجالاً .

المستهزئون بالحبيب ﷺ وما أنزل الله تعالى

بهم من أليم العذاب

إن تلك النعمة - التي أنزلها المشركون بالمستضعفين من المؤمنين - لم تكن في الحقيقة خاصة بالمستضعفين ، بل هي عامة في كل المؤمنين ، وعلى رأسهم سيد العالمين الحبيب محمد ﷺ ، إلا أن الأحرار من المؤمنين كان لهم من المنعة ما جعل المشركين لا يقدرّون على أن يعذبوهم مثل تعذيب المستضعفين من العبيد والإماء والموالي الأغراب ، وإلا فإنه لم يشلم مؤمنٌ واحد من التعذيب والاضطهاد والاستهزاء والسخرية منه . وهذا رسول الله ﷺ قد سُخر منه واستهزئ به ، وسُبّ وشتم ، ونال منه المشركون ما لم ينالوه من كثير من المؤمنين ، وكان شرٌّ من استهزأ برسول الله ﷺ من عناهم الله تعالى بقوله - من سورة الحجر : ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ۚ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُوفَىٰ يُعْلَمُونَ ﴾ [الحجر: ٩٥-٩٦] .

وها هي ذي أسماؤهم - عليهم لعائن الله - مع بيان حالهم نهاية حياتهم :

١ - **أبولهب^(١)** : وهو عبد العزى بن عبد المطلب ، وهو عم النبي ﷺ ، وكان من أشد الناس تكذيباً لرسول الله ﷺ وأكثرهم أذى له حتى إنه كان يطرح العذرة والنتن على باب النبي ﷺ إذ كان مجاوراً له ، وكان النبي ﷺ إذا وجد ذلك يقول : «أي جوارٍ هذا يا بني عبد المطلب؟» ومَرَّ

(١) نقلًا عن الكامل لابن الأثير بتصرف .

حمزة مرة بأبي لهب وهو يطرح العذرة على باب النبي ﷺ فأخذها وطرحها على رأس أبي لهب . وكانت امرأته - أم جميل العوراء - مثله في عدواة الرسول ﷺ وشدة بغضه ، وقد لقبها الرحمن في كتابه : بحمالة الحطب ، وهي القائلة :
مُذَمَّمًا^(١) عَصِينَا وأمره أَيْنَا ودينه قَلِينَا^(٢)

قالت هذا لما نزلت سورة المسد تحمل البشرى لها ولزوجها بالهلاك في الدنيا والخلود في النار في الآخرة ، فقد أتت تطلب الرسول ﷺ - وفي يدها فهر - أي : حجر كبير على قد الكف ، وتقف عليه ولم تره حيث ذهب الله ببصرها ، ورأت أبا بكر فقالت له : أين صاحبك ؟ فقد بلغني أنه يهجوني ، والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه ، أما والله إني لشاعرة ، ثم قالت :
مُذَمَّمًا عَصِينَا وأمره أَيْنَا ودينه قَلِينَا

وأخذ الله جل جلاله أبا لهب بمكة إذا أصابه بمرض خبيث يقال له : مرض العَدَسَة ، وكان ذلك يوم هزيمة المشركين ببدر ، فما إن بلغه خبر هزيمة قومه حتى أصيب بمرض العدسة ، فمات شراً ميتة حتى إنهم لم يقدروا على تغسيله ، فصبوا عليه الماء من بعيد من شدة الرائحة الكريهة التي تفوح من جسمه الذي نضج وتَهَرَّى^(٣) بصورة لم يعرف لها نظير .

٢ - الوليد بن المغيرة المخزومي ، وهو القائل لقريش : إن الناس يأتونكم في الحج فيسألونكم عن محمد ، فلا تختلف أقوالكم فيه بأن يقول بعض : هو شاعر ، وآخر يقول : هو كاهن ، و ولكن قولوا كلمة واحدة : هو ساحر ؛ لأنه يفرق بين المرء وأخيه وزوجته . وكان سبب هلاكه : أن وطئ سهماً فخدشه فتورمت رجله ، ومات بذلك شراً ميتة ، وكفى الله رسوله شراً وشر كل مستهزئ بحبيبه ﷺ .

٣ - أبو جهل عمرو بن هشام المخزومي : وكان من أشد الناس عدواة للرسول ﷺ واسمه عمرو ، وكنيته أبا الحكم ، وكناه المسلمون بأبي جهل لخبيثه وسوء أفعاله وقبيح صنائعه ، هلك ببدر قتله ابنا عفراء ، واحتز رأسه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، إذ كان يغيره باين راعية الغنم ، وهو القائل : لئن سبَّ محمدٌ آلهتنا سببنا إلهه ، فأنزل الله تعالى من سورة الأنعام قوله : ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام: ١٠٨] .

٤ - النضر بن الحارث : وكان من أشد الناس تكذيباً للنبي ﷺ وأذى له ولأصحابه ، وكان يقرأ كتب الفرس ويخالط اليهود والنصارى ، ولما سمع ذكر النبي المنتظر وقُرِبَ مبعثه قال : إن جاءنا لنكوننَّ أهدى من إحدى الأمم ، مصداق قوله هذا في قوله تعالى من سورة فاطر ، إذ قال تعالى : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَأْتِيهِمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا رَأَوْهُمْ إِلَّا تُفُورًا

(١) تعني عمداً وكان هذا صرقاً لها من الله تعالى عن اسم نبيه .

(٢) تركنا ميغضين له .

(٣) انسلخ وتساقط .

﴿أَسْكَنَّاكَ فِي الْأَرْضِ وَمَكَّرَ الْإِنْسِيُّ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ الشَّيْءُ إِلَّا بِأَهْلِيهِ﴾ ، وهو القائل : ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ أَرْضُ الْحَقِّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا جِسَارًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ أَنْتِنَا بِمَذَابِ الْيَمِّ﴾ [الأنفال: ٣٢] . وهو المعني بقوله تعالى : ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِمَذَابِ وَاقِعٍ﴾ [الكَافِرِينَ لَنْ لَسَ لَمْ دَافِعٌ] ﴿مِنْ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ﴾ [المعارج: ٣-١] . وهو المعني بقول الله تعالى من سورة الأنفال : ﴿وَمِنَ الْأَنْبِيَاءِ مَنْ يَشْتَرِي نَفْسَهُ الْحَكِيمُ يُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ يَتَّبِعْ عَلَيْهِ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾ [النمل: ٦٠] .

هلك هذا الطاغية ببدر ، إذ أسره المقداد بن الأسود ، وأمر الرسول ﷺ بضرب عنقه لكثرة شره ، فقتله علي رضي الله عنه .

٥ - عقبة بن أبي معيط : الأموي ، وكان من أشد الناس أذى لرسول الله ﷺ وعداوة له وللمسلمين ، وهو الذي وضع سلكي الجوزور بين كتفي رسول الله ﷺ وهو يصلي عند البيت ورجالاً قريش يضحكون ، حتى جاءت فاطمة - وكانت جويرية صغيرة - فنحته عن رسول الله ﷺ ونالت منه سباً وانصرفت - رضي الله عنها وأرضاها - .

هلك هذا الطاغية الخبيث ببدر حيث أسيّر بها وصلب ، وهو أول مصلوب في الإسلام وكان أخيراً أزرق العينين شبيه رسول الله ﷺ بعافر ناقة صالح قدار بن سالف - عليهما معاً لعائن الله .

٦ - الأسود بن عبد يغوث الزهري : كان من المستهزئين ، وكان إذا رأى فقراء المسلمين قال لأصحابه : هؤلاء ملوك الأرض الذين يرثون ملك كسرى ، وكان يقول للنبي ﷺ مستهزئاً به : أما كُلمت اليوم من السماء يا محمد؟! خرج عدو الله من أهله يوماً فأصابه السموم فاسود وجهه ، وأصابته الأكلة «مرض» فامتلاً جسمه قيحاً فمات شراً ميتة ، فلا رحمه الله ، ولا خفف عنه - يوماً - عذابه .

٧ - الحارث بن قيس السهمي : وكان أحد المستهزئين بالنبي ﷺ الذي لا يبرحون يؤذونه طوال حياتهم ، وكان لجهله وشدة شغفه بالأوثان يأخذ الحجر يعبده ، فإذا رأى غيره أحسن منه تركه وعبد غيره مما رآه أحسن في نظره وكان يقول : قد غر محمد أصحابه ووعدهم أن يحيوا بعد الموت ، والله ما يهلكنا إلا الدهر .

وفيه نزل قوله تعالى من سورة الجاثية : ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوْنَهُ وَأَسْلَمَ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَمَّ عَلَىٰ تَمِيمٍ. وَقَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ عِثْنَوةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣-٢٤] .

وهلك هذا الطاغية الملحد الدهري بالذبيحة ، إذ أكل حوتاً مملوحاً فلم يزل يشرب حتى مات ، وقد امتلاً رأسه قيحاً ؛ فكانت ميتته شراً ميتة وأنكرها .

٨ - ٩ - أبي وأمية ابنا خلف : وكانا من أشد الناس أذية لرسول الله ﷺ وعداوة له ولأصحابه ،

واستهزاء بدين الله؛ إذ جاء أبي - عليه لعائن الله - إلى رسول الله ﷺ وفي يده عظم، ففتته بيده وقال: زعمت أن ربك يحيي هذا العظم! وفيه نزلت آية يس: ﴿قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَمَ وَيُحْيِي رَمِيمَهُ﴾ [يس: ٧٨].

وضع عقبة بن أبي معيط طعاماً، ودعا إليه رسول الله ﷺ فقال: «لا أحضره حتى تشهد أن لا إله إلا الله» ففعل، فأثاه رسول الله ﷺ فقال أمية بن خلف لعقبة: أقلت كذا وكذا. فقال: إنما قلت ذلك لطعامنا، فنزلت آية الفرقان: ﴿وَيَوْمَ نَبْعُثُ الظَّالِمَ عَلَى يَدَيْهِ يَكُولُ نَلْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ [يونس: ١٠٩] لِيَتَنِي لَمْ أَخَذْ فَلَا تَأْخُذْ عَلَيَّ لَقَدْ أَهْلَيْتُ عَنِ الْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٩].

وهلك أمية يوم بدر مرذولاً مخزياً شرميتاً، وهلك أخوه أبي بطريق مكة، إذ ضربه الرسول ﷺ بحربة في ترقوته في أحد، فهلك بها في طريقه إلى جهنم وبئس المصير.

١٠ - أبوقيس بن الفاكه المغيرة: وكان ممن يؤذي النبي ﷺ، ويعين أبا جهل على ذلك، هلك ببدر على يد حمزة عم الحبيب ﷺ، ورضي الله عن حمزة ومن ترضى عن حمزة موقناً موحدًا لا يشرك بالله شيئاً.

١١ - العاص بن وائل السهمي: والد عمرو بن العاص رضي الله عنه، وكان من المستهزئين، وهو القائل لما مات القاسم بن النبي ﷺ: إن محمداً أبتر لا يعيش له ولد ذكر، فأنزل الله تعالى في سورة الكوثر: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۖ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ۚ إِنَّكَ شَانِئٌ هُوَ الْأَلْبَنَىٰ ۚ﴾ [الكوثر: ١-٣]. هلك بمكة بسبب لدغة في رجله، انتفخت لها رجله حتى صارت كعنق البعير، فمات بعد هجرة النبي ﷺ إلى المدينة بشهر وكذا يوماً. هلك إلى جهنم وبئس المصير.

١٢ - ١٣ - ثبیه ومُنْبِه ابنا الحجاج السهميان: وكانا من المستهزئين المؤذنين لرسول الله ﷺ والمؤمنين، وكانا إذا لقيا رسول الله ﷺ يقولان له: أما وجد الله من يبعثه غيرك؟ إن ههنا من هو أسن^(٣) منك وأيسر^(٤). هلك كل منهما ببدر، فقتل علي رضي الله عنه مُنْبِهًا والآخر لا يدري مَنْ قتله، فألى سخط الله وعذابه دائماً وأبداً، وذلك جزاء المستهزئين.

١٤ - الأسود بن المطلب بن أسد: ويكنى أبا زمعة، كان من المستهزئين، إذ كان مع أصحابه يتغامزون بالنبي ﷺ وأصحابه ويقولون: قد جاءكم ملوك الأرض، وَمَنْ يَغْلِبُ عَلَى كَنُوزِ كَسْرَى وقيصراً!! ويصفرون به ويصفقون؛ لهواً وضحكاً وسخرية، دعا عليه رسول الله ﷺ أن يغمى ويثكل^(٥) ولده، فعمي وثكل ولده ومات بمكة، والناس يتجهزون لأحد وهو يحرض الكفار على

(١) أي ميفضك.

(٢) أي الناقص المقطوع النسل قد انقطع نسله وخلد نسل محمد ﷺ إلى يوم القيامة.

(٣) أي أكبر منك سنًا.

(٤) أي أكثر منك مالا وغنى.

(٥) أي يفقد ولده بموته.

الخروج مع ما هو عليه من المرض من شدة بغضه لرسول الله وأصحابه ودين الله، فهلك أعمى أكل إلى جهنم وبئس المصير.

١٥ - طعيمة بن عدي بن نوفل: كان ممن يؤذي رسول الله ﷺ ويشتمونه ويكذبونه، أسر بيدر وقُتل صبراً بها، فألى جهنم وبئس المصير.

١٦ - مالك بن الطلالة بن عمرو بن عيشان: كان من المستهزئين، وكان سفيهاً، فدعا عليه النبي ﷺ فمات بمكة بعدما امتلأ رأسه قيحاً، فألى جهنم وبئس المصير.

١٧ - ركانة بن عبد يزيد: وكان شديد العداوة للنبي ﷺ والاستهزاء به، فقال يوماً للرسول ﷺ: يا ابن أخي، بلغني عنك أمرٌ ولست بكذاب، فإن صرعتني علمت أنك صادق - ولم يكن يقدر على صرعه أحد، فصارعه النبي ﷺ وصرعه ثلاث مرات، ودعاه إلى الإسلام، فأبى أن يسلم وقال: لا أسلم حتى تدعو هذه الشجرة، فقال لها رسول الله ﷺ: «أقبلي» فأقبلت تخذ^(١) الأرض، فقال ركانة: ما رأيت سحرًا أعظم من هذا، مُرّها فلترجع، فأمرها ﷺ فعادت إلى مكانها، فقال ركانة: هذا سحر عظيم.

قال ابن الأثير: هؤلاء أشد عداوة لرسول الله ﷺ ومن عداهم من رؤساء قريش كانوا أقل عداوة من هؤلاء كعتبة وشيبة ابني ربيعة وغيرهما.

وهناك جماعة كانوا شديدي الأذى والعداوة لرسول الله ﷺ وأصحابه ولكنهم آمنوا وأسلموا وحسن إسلامهم كأبي سفيان بن حرب والحكم بن أبي العاص، وعبد الله بن أبي أمية المخزومي أخي أم سلمة لأبيها رضى الله عنهما.

○ نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة من النتائج والعبر ما نوجزه فيما يلي:

١ - تقرير أن الاستهزاء بالله أو آياته أو رسوله: كُفْرٌ موجب للخلود في العذاب كما أن الاستهزاء بالمؤمنين موجب لغضب الله وسخطه على فاعله.

٢ - بيان ما نال رسول الله ﷺ من أذى المشركين، وكيف قابله رسول الله ﷺ بالصبر حتى نصره الله فأعزه وأعز دينه وأذل المشركين وأبطل دينهم.

٣ - تقرير سنة الله في أن أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل.

٤ - بيان صدق وعد الله تعالى لرسوله في قوله: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ (الحجر: ٩٥) فقد كفاه إياهم بأن أهلكهم كلهم والرسول ﷺ يشاهد هلاكهم، وفي فترة وجيزة، وزمن قليل.

٥ - إن الآيات والمعجزات لا تستلزم الإيمان فقد رأى ركانة أعظم آية وما آمن.

(١) تَخَذُ الأرض أي تشققها.

أول هجرة في الإسلام

إنه بعد أن جهر رسول الله ﷺ بدعوته وكثر عدد المسلمين : ازداد حَنَقُ المشركين على المسلمين ، وبسطوا إليهم أيديهم وألسنتهم بالسُّوء . ورأى النبي ﷺ أنه غير قادر على حمايتهم ؛ فأذن لهم في الهجرة إلى الحبشة ، فقال لهم - فداه أبي وأمي - : « لو خرجتم إلى أرض الحبشة ؛ فإن فيها ملكاً لا يظلم أحد عنده حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه » وقَبِلَ المسلمون العرضَ الكريم ، فخرجوا من مكة فراراً بدينهم يريدون بلاد النجاشي ، وذلك في شهر رجب سنة خمس من البعثة وهي السنة الثانية من إظهار الدعوة والجهار بها ، فوصلوها وكانوا قرابة عشرة رجال : منهم عثمان ابن عفان وزوجته رقية بنت الرسول ﷺ ، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة ومعه امرأته سهلة بنت سهيل ، والزبير بن العوام . فأقاموا بالحبشة شهرين : شعبان ورمضان من سنة خمس من البعثة ، وعادوا إلى مكة في شوال ، وسبب عودتهم ما بلغهم من أن النبي ﷺ قد اصطلح مع قريش ، وأنه لم يبقَ اضطهاد للمسلمين من قِبَلِ المشركين لما تَمَّ من الصلح بينهم وبين الرسول ﷺ .

وسبب هذه الشائعة الكاذبة أن النبي ﷺ كان يقرأ حول الكعبة سورة «النجم» فلما بلغ قوله تعالى : ﴿ أَزْهَقْنَاهُ أَكْذَبًا وَأَعَزَّنَا فِي الْخُزْءِ ۚ وَنُزْجُ إِلَيْنَا الْوُحْيَ ۚ وَالْأَنبِيَاءُ أَتَانَا ۚ فَتُحْيَوْنَهُمْ ۚ وَهُمْ يُكَذِّبُونَ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۚ إِنَّ إِلَهُنَا لَإِلهٌ وَاحِدٌ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۚ فَاسْبُحْ ۚ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۚ ﴾ [النجم: ١٩-٢٠] . ألقى الشيطان في مسامع المشركين قوله : تلك الغرائق العلاء ، وإن شفاعتهن لَتُرْتَجَى ، فخيّل للمشركين أن النبي ﷺ هو الذي قالها ، وأنه بذلك قد امتدحها ، فلما سجد ﷺ في آخر السورة - وهي سجدة من عزائم السجدة - سجد المشركون معه حتى إن الوليد بن المغيرة - وكان كبير السن - أخذ كُفًا من البطحاء وسجد عليه ، ثم تفرق الناس ، وبلغ الرسول ﷺ أن سجد المشركين كان من أجل ما ألقى الشيطان في مسامعهم من مدح للآل والعزى مُوهماً إياهم أنَّ النبي ﷺ هو الذي امتدحها ، فحزن لذلك رسول الله ﷺ وآلمه الخبر ، فأنزل الله تعالى - تسلياً له وتخفيفاً عنه - قوله من سورة الحج : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى ^(١) أَلَقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ ءَايَتِهِ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۚ ﴾ [الحج: ٥٢] .

فَسَرَّ بذلك رسول الله ﷺ وذهب عنه ما وجد في نفسه من الخوف والحزن بما أعلمه به ربه من أنَّ هذا الأمر جرى على سنة من سننه تعالى في أنبيائه ورسله لحكم عالية يعلمها تعالى .

ولما قارب المهاجرون دخول مكة تبين لهم أن إسلام أهل مكة باطل ، وأن المشركين مازالوا على الشرك والكفر ، وأنهم قد ازدادوا قسوة وشدة على المسلمين فلم يدخلوا إلا بجوار ، أو في

(١) تمنى : هنا بمعنى قرأ وتلا ، وقد تكون بمعنى أحب وتشهى .

استخفاء، وأقاموا بمكة بعد عودتهم إليها يتلقون الأذى ويعذبون ويضطهدون - كما كانوا قبل هجرتهم وعودتهم - فأرأوا لذلك أن يعودوا إلى الحبشة مرة ثانية، فعادوا وهاجر معهم خلق كثير بلغ عددهم ثلاثة وثمانين رجلاً، وهي الهجرة الثانية.

وبقي الحبيب ﷺ في مكة يدعو إلى ربه سرًا وجهراً، صابراً موقفاً بنصر الله له ولدعوته، وهو يتعرض لأذى قريش كل يوم، ومن أبرز ما سُجل في هذه الفترة من أذى نال رسول الله ﷺ ما حدث به عمرو بن العاص رضى الله عنه ورواه عنه ابن الأثير وغيره من أصحاب السير، وهو قوله: حضرت قريش يوماً بالحجر، فذكروا النبي ﷺ وما نال منهم وصبرهم عليه، فبينما هم كذلك، إذ طلع النبي ﷺ ومشى حتى استلم الركن، ثم مرّ بهم طائفاً فغمزوه ببعض القول، فعرفت ذلك في وجهه، ثم مضى، فلما مرّ بهم الثانية غمزوه بمثلها، ثم الثالثة فقال لهم: «أسمعون يا معشر قريش، والذي نفس محمد بيده لقد جئتكم بالذبح» فلم يتكلموا حتى لكان على رءوسهم الطير، وإن أشدهم وصاة فيه ليرفؤه^(١) بأحسن ما يجد. وانصرف رسول الله ﷺ حتى إذا كان الغد اجتمعوا في الحجر، وقال بعضهم لبعض: ذكرت ما بلغ منكم، حتى إذا أتاكم بما تكرهون تركتموه!!

فبينما هم كذلك، إذ طلع رسول الله ﷺ، فوثبوا إليه وثبة رجل واحد يقولون: أنت الذي تقول كذا وكذا.. فيقول: «أنا الذي أقول كذلك» فأخذ عقبة بن أبي معيط بردائه، وقام أبو بكر الصديق دونه يقول - وهو يبكي - ويلكم!! أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله - كالتي قالها مؤمن آل فرعون - ثم انصرفوا بعد ما نالوا من الصديق ما نالوا رفقاً بأرجلهم وضرباً بأيديهم.

○ نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نجملها فيما يأتي:

- ١ - مشروعية الهجرة - وهي الانتقال من بلد الكفر حيث تعذر على العبد أن يعبد الله - إلى دار يتمكن فيها من عبادة الله تعالى بدون تعذيب.
- ٢ - بيان أول هجرة وقعت في الإسلام، وهي الهجرة الأولى إلى الحبشة.
- ٣ - بيان فضل أصحاب الهجرة إلى الحبشة، ومن بينهم عثمان بن عفان وزوجه رقية بنت رسول الله ﷺ.
- ٤ - بيان خطر الشائعات؛ إذ بها رجع المهاجرون ولأقوا ما لاقوا من العذاب حتى اضطروا إلى الهجرة مرة ثانية.
- ٥ - تقرير قصة الغرانيق، وأن من العجب أن يكذب بها أناسٌ لمجرد الخوف من أن يقال: إذا

(١) أي يقولون له من القول ما يُجمل ويُحس كقول بعضهم: انصرف أبا القاسم، فوالله ما كنت جهولاً.

صحت قصة الغرائق، فمن الجائز أن يكون قد أدخل في القرآن ما ليس منه، وهو وهمٌ بحت شبيه بهم الروافض القائلين بأن جبريل بَدَّلَ أن يأتي عليا بالوحي والرسالة أتى بهما محمداً ﷺ، إذ لازم هذا أن الله تعالى عاجز، ونسبة العجز إلى الله كفر وكذب وباطل؛ إذ لا يمكن أن يقع في الكون غير ما يريد الله سبحانه وتعالى.

ولو فرضنا أن الشيطان ألقى بكلمة أو كلمات في قراءة الرسول ﷺ أليس الله قادراً على تبينها وإبطالها؟ بلى؛ وكيف وقد قال: ﴿وَيَمَحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُخْلِقُ الْخَيْرَ يَكُونُ عَلَيْهِ يَدَاتِ الشُّدُورِ﴾ [الشورى: ٢٤] وكيف وقد قال في سياق الآية: ﴿فَنَسَخَ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ الْكَيْدَ﴾ [الص: ٥٢].

والذي ينبغي أن يعلم هنا، هو أن الرسول ﷺ لم ينطق بكلمة تلك الغرائق وما بعدها، وإنما الذي نطق بها الشيطان، فأسمع صوته أولياءه من المشركين ليقبوا على اعتقادهم الفاسد في آلهتهم من اللات والعزى، ولذا لما سجد النبي ﷺ سجدوا معه كما هو في صحيح البخاري - رحمه الله تعالى - وأحسن ما قيل في قصة الغرائق، هو قول الحافظ ابن حجر في الفتح، وما ذكرناه هنا لا يختلف معه. والله أعلم، وأعز وأحكم، وصلى الله على نبيه محمد وآله وصحبه وسلم.

إرسال قريش وفدها إلى النجاشي

لما علمت قريش باستقرار المهاجرين بالحبشة، وإيواء ملكها لهم، وإكرامه لهم: خافت عواقب ذلك، فكونت وفداً من عمرو بن العاص - السياسي المشهور - وعبد الله ابن أبي أمية، وحملتهما هدية فاخرة إلى الملك النجاشي وإلى أعيان رجاله لتستميلهم نفسياً فبرؤوا المهاجرين قسراً إلى مكة؛ لتعذيبهم وتعويقهم عن أية حركة إيجابية تنتصر بها دعوة الإسلام.

ووصل الوفد يحمل الهدايا، وقدمها فعلاً إلى النجاشي وأعيان رجال الحكم، إلا أن الوفد بدأ في تقديم الهدايا بأعيان رجال النجاشي وأخبره هو، سياسةً منه ليحصل على دعم الأعيان عند مطالبة الملك برد المهاجرين إلى مكة.

ولما فرغ الوفد من تقديم الهدايا، تكلم عمرو، وقال للملك ورجاله: «إن ناساً من سفهائنا فارقوا دينهم وجاءوا بدين جديد مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم».

وما إن فرغ عمرو من كلامه حتى أشار أصحاب النجاشي بتسليم المهاجرين إلى وفد قريش متأثرين بالهدايا، وما واعدوا به الوفد من المساعدة.

وهنا قال النجاشي: لا، والله لا أسلم قوماً جاوروني ونزلوا بلادني، واختاروني على من سواي حتى أدعوهم وأسألهم عما يقول هذان، فإن كانا صادقين سلمتهم إليهما، وإن كانوا على غير ما ذكر هذان، منعتهم، وأحسنن جوارهم.

ثم أرسل النجاشي إلى المهاجرين أصحاب النبي ﷺ فحضرُوا وهم مُجمعون على أن يقولوا

الحق سواء سرّه أو أساءه؛ وكان المتكلم عنهم جعفر بن أبي طالب رضى الله عنه، فقال لهم النجاشي: ما هذا الذي فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا في ديني ولا دين أحد من الملل؟ فقال جعفر: أيها الملك، كنا أهل جاهلية: نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونُسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه، وأمانته وعفته، فدعانا لتوحيد الله، وألا نشرك به شيئاً، ونخلع ما كنا نعبد من الأصنام، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم، والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وأمرنا بالصلاة والصيام - وعدد عليه أمور الإسلام - فآمنّا به وصدقناه، وحرّمنا ما حرّم علينا، وحلّلنا ما أحل لنا، فتعدّى علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان. فلما قهرونا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك واخترتناك عن سواك ورجونا ألا تُظلم عندك أيها الملك؛ وهنا نطق الملك وقال: هل معك مما جاء به عن الله شيء؟ قال: نعم، فقرأ عليه قرآنًا، فبكى النجاشي وبكى أساقفته، وقال النجاشي: إن هذا والذي جاء به عيسى يخرج من مشكاة واحدة، وقال لرجلي الوفد: انطلقا، والله لا أسلمهم إليكما أبداً.

فلما خرجنا، قال عمرو: والله لآتيته غداً بما يببّد خضرأهم، فقال له عبد الله: لا تفعل فإن لهم أرحامًا، وكان عبد الله أتقى من عمرو.

فلما كان الغد أتيا النجاشي، وقال له عمرو: إن هؤلاء يقولون في عيسى ابن مريم قولاً عظيماً، فأرسل النجاشي إليهم، فجاءوا فسألهم عن قولهم في المسيح، فقال جعفر: نقول الذي جاءنا به نبينا: «هو عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول» فأخذ النجاشي عوداً من الأرض وقال: ما عدا عيسى ما قلت هذا العود، فتخرت^(١) بطارقه فقال لهم: وإن نخرتم، وقال لجعفر وأصحابه: اذهبوا فأنتم آمنون، ما أحب أن لي جبلاً من ذهب وأنني أذيت رجلاً منكم!!

ورد هدية قريش، وقال: ما أخذ الله الرشوة^(٢) متي حتى أخذها منكم، ولا أطاع الناس في حتى أطيعهم فيه. وأقام المسلمون بخير دار، وأحسن جوار.

○ نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نوجزها فيما يلي:

- ١ - بيان أن ظلم قريش للمسلمين بلغ حدًا لم يتجاوزه ظلم عَرَفَ العرب في بلادهم.
- ٢ - بيان خيبة وفد قريش وفشله في مهمته؛ لأنه يحارب الله في أوليائه ومن يحارب الله يهزم، ويخسر في الدنيا والآخرة.
- ٣ - بيان كمال جعفر بن أبي طالب العلمي والديني - فرضي الله عنه وأرضاه -.

(١) يُقال: نخر إذا رفع صوته بخيشومه.

(٢) يريد حين رد الله عليه ملكه.

- ٤ - بيان كمال أصحاب النجاشي إيماناً وعلماً وكرماً وحسن جوار - فرحمه الله رحمة واسعة .
٥ - حرمة الرشوة وسوء أحوال أهلها مغطين وأخذين .

هجرة أبي بكر الصديق الأولى

إن أبا بكر، لما هاجر ذلك العدد الكبير من المسلمين إلى بلاد الحبشة ورأى اشتداد ضغط المشركين على المسلمين مع قلة الناصر، وأنه لم يقدر على أن يدفع عن أحد من المسلمين : قرر الهجرة إلى الحبشة، وفعلاً استأذن الرسول ﷺ فأذن له، فخرج حتى إذا سار مسافة قرابة اليومين من مكة لقيه ابن الدغنة، وهو يومها سيد الأحابيش^(١) فقال له : إلى أين يا أبا بكر؟ قال : أخرجني قومي، وأذوني وضيقوا علي . فقال ابن الدغنة : ولم؟ فوالله إنك لتزين العشيرة، وتعين على النوائب، وتفعل المعروف، وتكسب المعدوم؛ أرجع فأنت في جوار، فرجع معه حتى إذا دخل مكة، قام ابن الدغنة فقال : يا معشر قريش، إني قد أجرت ابن أبي قحافة، فلا يعرضنَّ له أحد إلا بخير، وحينئذ كفوا فلم يعرضوا له بسوء .

وكان لأبي بكر مسجدٌ عند باب داره يصلي فيه ويقرأ القرآن، فيبكي فيقف عليه الصبيان والعبيد والنساء يعجبون لما يرون من هيئته وبكائه وقراءته، وبلغ قريشاً ذلك، فأتوا إلى ابن الدغنة، وقالوا له : إنك لم تُجر هذا الرجل ليؤذينا؛ إنه رجل إذا صلى قرأ ما جاء به محمد يرق ويبكي، وكانت له هيئة، فنحن نتخوف على صبياننا ونسائنا وضعفتنا أن يفتنهم، فأنه قُمره أن يدخل بيته فليصنع فيه ما شاء، فذهب ابن الدغنة إلى أبي بكر، فقال له : يا أبا بكر، إني لم أجرك لتؤذي قومك؛ إنهم قد كرهوا مكانك الذي أنت فيه، وتأذوا بذلك منك، فادخل بيتك فاصنع فيه ما أحببت . فقال أبو بكر : أو أرد عليك جوارك وأرضى بجوار الله؟ قال فارد علي جوار، قال : فرددته، فقام ابن الدغنة فقال : يا معشر قريش، إن ابن أبي قحافة قد رد علي جوار فشانكم بصاحبكم . فمرَّ بأبي بكر - وهو عامد إلى الكعبة - سفيه من سفهاء قريش فحثا على رأس أبي بكر تراثاً، ومرَّ بأبي بكر رجل من قريش - ولعله الوليد بن المغيرة أو العاص بن وائل - فقال له أبو بكر : ألا ترى ما يصنع هذه السفية؟ فقال : أنت فعلت ذلك بنفسك . ومضى أبو بكر وهو يقول ربَّ ما أحلمك، أي ربَّ ما أحلمك، أي ربَّ ما أحلمك!! .

نتائج وعبر :

لهذه المقطوعة من السيرة نتائج وعبر نجملها فيما يأتي :

- ١ - هجرة أبي بكر مثَّل لكل مؤمن يضطهد في بلده، فيخرج منه طالباً لعزة نفسه وحرية عمله الإسلامي .

(١) الأحابيش : هم بنو الحارث من كنانة، والهون بن خزيمه بن مدركة وبنو المصطلق بن خزاعة تحالفوا جميعاً بواو يُقال له : الأحيش بيطن مكة، فقليل لهم : الأحابيش .

- ٢ - بيان فضل أبي بكر، وما كان عليه من الإيمان والتقوى .
 ٣ - في ردّ أبي بكر جوار ابن الدغنة ورضاه بجوار ربّه مثلاً عالٍ في التوكل على الله تعالى .
 ٤ - وقول أبي بكر: ربّ ما أحلمك، ثلاثاً بعد ما وضع السفينة على رأسه التراب وشكاته إلى الرجل القرشي وردّه عليه بقوله: أنت فعلت ذلك بنفسك: عبرة لكل مؤمن يضطهد في ذات الله، فيصبر على أذى قومه، ينتظر عقوبة الله تحل بالظالمين .

في شغب أبي طالب

إنه لما رأت قريش انتشار وكثرة من يدخل فيه، وبلغها ما لقي المهاجرون في بلاد الحبشة من إكرام وتأمين - مع عودة وفدّها - خائفاً لم يحصل على طائل - اشتد حنقها على الإسلام والمسلمين، فقامت باتخاذ إجراء انتقام ظالم جائر، ما كان لها أن تتخذه لولا ما أصابها من خيبة أمل جعلها تفكر هذا التفكير وتعمل هذا العمل الشرير .

اجتمع رجالها واتخذوا قراراً بكتابة كتاب يتعاقدون فيه على بني هاشم وبني عبد المطلب، على ألا ينكحوا إليهم ولا ينكحوهم، ولا يبيعوهم شيئاً ولا يبتاعوا منهم، وفعلوا كتبوا صحيفة بذلك، وتعاهدوا عليها وتواثقوا، ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة تأكيداً لأمرهم بذلك . وكتب الصحيفة منصور بن عكرمة بن عامر فدعا عليه رسول الله ﷺ فشلت يده .

ولما فعلت قريش هذا الفعل القبيح الجائر انحاز بنو هاشم وبني المطلب إلى شعب أبي طالب، ودخلوا فيه برجالهم ونسائهم وأطفالهم، إلا ما كان من الطاغية أبي لهب، فإنه لم يدخل معهم؛ لأنه ظاهر قريشاً على عملهم الإجرامي هذا . وكان سنة سبع من البعثة، واستمر الحصار في الشعب لبني هاشم وبني المطلب ثلاث سنوات، عانوا فيها الجوع والحرمان ما لا يخطر ببال، إنهم من شدة الجوع أكلوا ورق الشجر، وكان يسمع - من بعيد - بكاء أطفالهم من الجوع .

ولما أراد الله تعالى تفريج كربهم - بعد أن ضربوا الرقم القياسي في الصبر والاحتساب - قيض الله جل جلاله رجالاً من ذوي المروءة والحسب وعلى رأسهم هشام بن عمرو بن ربيعة إذ هو الذي مشى إلى رجال من قريش عرف فيهم عدم رضاهم على قرار قريش الجائر، فاستشار شعورهم وحملهم على أن يتعاونوا على نقض الصحيفة، وكانوا خمسة رجال، ولما اجتمعت قريش في أندية، قام أحدهم - وهو زهير بن أبي أمية - وأقبل على الناس، وقال: يا أهل مكة أناكل الطعام، ونلبس الثياب، وبنوهاشم هلكت لا يباع لهم ولا يبتاع منهم، والله لا أقعدنّ حتى تُشَقَّ هذه الصحيفة الظالمة، وقام أحد الرجال الخمسة فقال مثلما قال الأول، وقام ثالث مؤيداً، وقام رابع بنفس الروح، وتقدم المطعم بن عدي إلى الصحيفة ليشقها فوجد الأرضة قد أكلتها إلا كلمة «باسمك اللهم» وكان أبو جهل يسمع ويرى ما يجري في القضية، فلم يتمالك اللعين حتى قال: هذا أمر دُبر بليل . . ومزقت الصحيفة وبطل مفعولها، ويومئذ خرج بنوهاشم وبني المطلب

من الشَّعْبِ.

ومن آيات النبوة أن النبي ﷺ أخبر عمه أبوطالب بأن الأرض قد أكلت كلمات الباطل والجور فيها وأبقت كلمة الحق فيها، وهي «باسمك اللهم» وكان الأمر كذلك، فإنهم لما انتزعوا الصحيفة من جدار الكعبة لم يجدوا فيها إلا جملة «باسمك اللهم» وبذلك وبخهم أبوطالب على صنيعهم، فطأطأوا رؤوسهم ولم يجيبوا بشيء، وقال في هذا أبوطالب، شعراً وهو قوله:

وقد كان في أمر الصحيفة عبْرَةٌ متى ما يخبَّر غائب القوم يعجب
محا الله منها كفرهم وعقوقهم وما تقموا من ناطق الحق مُعرب
فأصبح ما قالوا من الأمر باطلاً ومن يختلق ما ليس بالحق يكذب

○ نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً هي كالتالي:

- ١ - بيان ما وصلت إليه قريش في الظلم والتعسف والجور، وذلك باتخاذها قرار المقاطعة الجائر الهادم لكل خلق وقيمة إنسانية.
- ٢ - بيان ما لقي رسول الله ﷺ والمؤمنون من أذى واضطهاد من كفار قريش.
- ٣ - بيان صبر المؤمنين وجَلْدِهِمْ وذلك في ذات الله عز وجل.
- ٤ - بيان أن أهل المروءة لا يخلو منهم زمان ولا مكان، والحمد لله.
- ٥ - تجلّي آية النبوة المحمدية في أكل الأرضة الصحيفة الجائرة إلا اسم الله تعالى، وإخبار الرسول ﷺ بذلك، فكان الأمر كما أخبر، إذ نزع الصحيفة فلم يجدوا فيها إلا جملة «باسمك اللهم» وما عدا ذلك أكلته الأرضة.

اشتداد حلوكه الليلي والأيام على الحبيب

عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام

إنه - ما إن انفرجت تلك الأزمة الخانقة بالحصار في شعب أبي طالب التي دامت ثلاث سنوات تقريباً - حتى رزئ ﷺ بأعظم رزء، إنه وفاة أبي طالب العم الكافل والطود الأشم المانع، والأسد الحامي والحصن الواقي، ووفاء خديجة، ومن هي خديجة؟ إنها الملاذ بعد الله، والأنيس بعد ذكره، إنها كانت تؤمنه إذا خاف، وتؤنسه إذا استوحش، تُريحه بعدوبة حديثها إذا تعب، وتسدده بصائب رأيها إذا قلق أو اضطراب.

مرض أبوطالب مرضه الذي توفي فيه، وعلم به كفار قريش، فجاءوا يطلبون منه أن يفاوض لهم ابن أخيه عليهم يظفرون بصلح معه قبل وفاة عمه، فبعث أبوطالب إلى النبي ﷺ فحضر، فقال له: يا ابن أخي هؤلاء أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليعطوك وليأخذوا منك، فقال رسول الله ﷺ: «نعم كلمة واحدة تُعطونيها تملكون بها العرب، وتدين لكم بها المعجم»، فقال أبوجهل:

وأبيك وعشر كلمات . قال ﷺ تقولون : « لا إله إلا الله ، وتخلعون ما تعبدون من دونه » فصفقوا بأيديهم وقالوا : أتريد يا محمد أن تجعل الآلهة إلهاً واحداً ، إن أمرك لعجب . ثم قال بعضهم لبعض : إنه والله ما هذا الرجل الذي يعطيكم شيئاً مما تريدون ، فانطلقوا وامضوا على دين آبائكم حتى يحكم الله بينكم وبينه ، ثم تفرقوا ، وفيهم نزلت الآيات الأولى من سورة « ص » ﴿ ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴾ [ص: ١٠] إلى قوله : ﴿ إِنَّ هَذَا إِلَّا خَلَقُ ﴾ [ص: ١٧] .

واشتد المرض بأبي طالب ، فعاده الرسول ﷺ ، فوجد عنده بعض المشركين فعرض عليه الشهادة فقال : « يا عم قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله يوم القيامة » فنظر أبو طالب إلى أشياخ الشرك حوله ، فقالوا له : أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فقال : هو على ملة عبد المطلب ^(١) ، ومات ، فحزن الرسول ﷺ فقال : « لأستغفرن لك ما لم أنه عن ذلك » فأنزل الله تعالى من سورة التوبة : ﴿ مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالنَّبِيِّاتِ أَنْ يَقُولُوا سُبْحَانَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَمَا كَانُوا يَفْقَهُوا ﴾ [التوبة: ١١٣] .

وأخبر هو ﷺ بعد : أن عمه أبا طالب في ضحضاح من نار يصل إلى كعبه يغلي منه دماغه . وبعد خمسين يوماً من موت أبي طالب تقريباً ، ماتت أم المؤمنين خديجة و ، وتنابت المصائب على رسول الله ﷺ ، واشتد الكرب وعظم الحزن . مات العم الذي كان عضداً قويا لرسول الله ﷺ ، وكان حرراً منيعاً ، ومات بعده خديجة المؤنسة ساعة الوحشة ، والمؤمنة المطمئنة ساعة القلق والخوف ، وخلت الساحة للمشركين ، فأخذوا بنالون من رسول الله ﷺ ما لم يكونوا ينالونه من قبل ، فقد رموا بالأقذار عليه ، وعلى باب داره ، بل ودخل الدار حتى رموا بالقدر في القدر الذي يطبخ فيه .

○ نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نوجزها في التالي :

- ١ - بيان سنة وفاة كل من أبي طالب وخديجة و وهي سنة عشر من البعثة .
- ٢ - ذكر آخر عرض رَفَضَهُ المشركون على رسول الله ﷺ للمصلح ؛ ولم يفلحوا ، لأنهم مصرون على الشرك .
- ٣ - بيان سبب نزول آيات : « ص » و « التوبة » و « القصص » فالأولى في المصالحة الفاشلة ، والثانية والثالثة في أبي طالب ، الثانية في عدم الاستغفار له ، والثالثة في تسلية الرسول ﷺ وحزنه على موته على الشرك .
- ٤ - تنايع المصائب على الحبيب ﷺ كان مؤذناً بالفرج القريب .

(١) وفي هذا نزل قوله تعالى في سورة القصص : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَئِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ الْغُهِيمِينَ ﴾ [القصص: ٥٦] .

٥ - فيما أصاب رسول الله ﷺ من مصائب عزاء لكل مؤمن فيما يصيبه في هذه الحياة من بلاء ومصائب مهما عظمت، إذ رسول الله ﷺ أسوة المؤمنين والمؤمنات.

خروج الحبيب ﷺ إلى الطائف

يطلب النصرة لدينه

وبعد أن فقد رسول الله ﷺ عمه أبا طالب - الذي كان عضده القوي، وحماه المنيع - خرج إلى الطائف يطلب ناصرًا من ثقيف ينصره على قومه، ويعينه على إبلاغ دعوته، خرج وهو راجٍ أن يقبل أهل الطائف منه ما جاءهم به من الله عز وجل. ولما وصل الطائف، قصد ثلاثة أنفار من ثقيف هم سادة ثقيف وأشرافها، وهم الإخوة الثلاثة: عبد ياليل بن عمرو بن عمير ومسعود، وحبيب، وكان عند أحدهم امرأة من قريش، فجلس إليهم رسول الله ﷺ فدعاهم إلى الله، وكلهم بما جاءهم من نصرته والقيام معه على من خالفه من قومه، فقال أحدهم: هو يمرط^(١) ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك!! وقال الآخر: أما وجد الله أحدًا يرسله غيرك!!

وقال الثالث: والله لا أكلمك كلمة أبدًا، لئن كنت رسول الله ﷺ كما تقول لأنت أعظم خطرًا من أن أردّ عليك، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي أن أكلمك!!

فقام رسول الله ﷺ من عندهم وهو يائس من خير ثقيف، وقد طلب إلى الإخوة الثلاثة ألا يذكروا ما دار بينهم إلى قريش، فلم يفعلوا وأغروا به سفهاءهم، وعبيدهم يسبونهم ويصيحون به ويرمونهم بالحجارة حتى أدموا عقيبته، وألجئوه إلى حائط «بستان» لابنتي ربيعة عتبة وشيبة، وعمد ﷺ إلى ظل شجرة عنب، فجلس تحتها مستظلًا بها، فلما اطمأن وسكنت نفسه قال: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس. يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربي إلى من تكلني، إلى بعيد يتجهمني^(٢) أم إلى عدو ملكته أمري، إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك، أو يحل علي سخطك، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك».

ولما فرغ ﷺ من مناجاته ربه عز وجل، ورآه ابنا ربيعة عتبة وشيبة: دَعَا غلامًا لهما يقال له: عداس، وأمره أن يأخذ قطعًا من عنب فيضعه في طبق، ثم يذهب به إلى رسول الله ﷺ، فيضعه بين يديه، ويقول له: كل من هذا، ففعل عداس، فلما وضع الرسول ﷺ فيه يده قال: «باسم الله» ثم أكل فنظر عداس في وجهه، ثم قال: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد، فقال

(١) يمرط ثياب الكعبة: أي ينزعها ويلقيها بعيدًا عنها، وهو إثم عظيم في نظره، وهو إثم ولكن تكذيبًا لرسوله وسخرية به وإغراء السفهاء به أعظم.

(٢) يتجهمني: يعبس في وجهي ويُريني ما أكره.

رسول الله ﷺ: «ومن أي البلاد أنت يا عداس؟ وما دينك؟» قال: نصراني، وأنا رجل من أهل تَيْبَوَيْ، فقال رسول الله ﷺ: «من قرية الرجل الصالح يونس بن مَتَّى». فقال له عداس: وما يدريك ما يونس بن مَتَّى؟ فقال رسول الله ﷺ: «ذاك أخي كان نبيا وأنا نبي». فأكبَّ عداس على رسول الله ﷺ يقبل رأسه، ويديه وقدميه.

وهنا، نظر ابنا ربيعة أحدهما للآخر، وقال له: أما غلامك فقد أفسده عليك. فلما جاءهما عداس، قال له: ويحك يا عداس مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه؟ قال: يا سيدي ما في الأرض شيء خيرا من هذا، لقد أخبرني بأمر لا يعلمه إلا نبي، فقال له: ويحك يا عداس لا يصرفتك عن دينك، فإن دينك خير من دينه.

وانصرف رسول الله ﷺ عائداً من الطائف بعد أن أيس من خير ثقيف، حتى إذا كان بنخلة^(١) قام من جوف الليل يصلي، فمرَّ به نفر من الجن الذين ذكرهم الله تعالى في سورة «الأحقاف» في قوله: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا﴾ [الأحقاف: ٢٩] الآيات. . . وهم من جن نصيبين^(٢) وكانوا سبعة نفر وحملوا رسالة الله تعالى إلى قومهم منذرين، كما نزلت سورة «الجن» في شأنهم أيضاً، وفيها من أخبارهم الكثير.

○ نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نذكرها إزاء الأرقام الآتية:

- ١ - بيان ثبات الرسول ﷺ وعدم يأسه مهما عظم البلاء، يدل على ذلك خروجُه إلى الطائف يطلب النصر.
- ٢ - بيان أن النبي ﷺ كان حكيماً بل أستاذاً في الحكمة، فانظر كيف اختار نفر الثلاثة إذ كانوا سادة ثقيف، فلو أجابوا دعوته لأجابت كل أهل الطائف، فلما رفضوها علم أن غيرهم سيرفضها، فلذا لم يتصل بأحد غير نفر الثلاثة.
- ٣ - بيان سوء معاملة أهل الطائف، ومع هذا لم يدعُ عليهم ﷺ بل دعا لهم، فقال: «اللهم اهد ثقيفاً وأت بهم» واستجاب الله تعالى له فيهم فأتوا بعد حصارهم وآمنوا وأسلموا.
- ٤ - بيان فضل عداس، وشهادته بنبوة رسول الله ﷺ.
- ٥ - بيان مكان لقاء الجن النبي ﷺ، وحملهم رسالة الإسلام إلى أقوامهم.



(١) مكان بين مكة والطائف.

(٢) مدينة بالشام.

الإسراء بالحبيب ﷺ والعروج به إلى الملكوت الأعلى

نبدأ الحديث باسم الله، ثم بالسؤال التالي:

○ متى كان الإسراء والمعراج؟

إنه في السنة العاشرة من سني البعثة النبوية، إنه - الإسراء والمعراج - كان مكافأة ربانية على ما لاقاه الحبيب ﷺ من أتراح وآلام وأحزان؛ إذ كان بعد حصار دام ثلاث سنوات في شُعب أبي طالب، وما لاقى أثناءه من جوع وحرمان، إنه كان بعد فَقْدِ الناصر الحميم، وفقد خديجة أم المؤمنين، إنه كان بعد خيبة الأمل في تعف، وما ناله من سفهائها وصبيانها وعبيدها. بعد هذه الآلام، كافأ الحبيب حبيبهُ، فرفعه إليه وقربه وأدناه، وخلع عليه من حُلل الرضا ما أنساه كل ما كان قد لاقاه، من حزن وألم ونصب وتعَب، وما قد يلاقيه في سبيل إبلاغ رسالته ونشر دعوته، فصلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ما ذكر الله الذاكرون، وما غفل عن ذكره الغافلون.

○ وكيف كان الإسراء؟

لقد كان الإسراء من بيت أم هانئ حيث أُخرج الحبيب منه إلى المسجد الحرام إلى ما بين الحجر والحطيم، حيث أُجريت له عملية شق الصدر فأُخرج القلب وغُسل بماء زمزم المبارك، ثم أُتي بطست من ذهب مملوء إيماناً وحكمة فحُشي القلب بذلك الإيمان وتلك الحكمة، ثم أعيد القلب كما كان. ثم أتت بداية وهي البراق، فركبه إلى بيت المقدس، فربطه في حلقة باب المسجد، ودخل المسجد فصلى فيه، ثم وُضع له معراج ممتد ما بين السماء الدنيا فاستفتح جبريل، فسئل عمن معه؟، فأخبر أنه محمد ﷺ وقد أُذِنَ له، ففُتِحَ لهما. وهكذا سماء بعد سماء حتى انتهيا إلى السماء السابعة، وقد لاقاهما في كل سماء مُقَرَّبوها من الملائكة والأنبياء، فلقياً في الأولى آدم - عليه السلام -، وفي الثانية يحيى وعيسى - عليهما السلام - وهما ابنا الخالة، وفي الثالثة يوسف - عليه السلام -، وفي الرابعة إدريس - عليه السلام -، وفي الخامسة هارون - عليه السلام -، وفي السادسة موسى - عليه السلام -، وفي السابعة إبراهيم - عليه السلام -.

وكان ﷺ يلقي في كل سماء من الترحيب ما تقرب به عينه وينشرح له صدره، وتطيب به نفسه - وهو لذلك أهل - ثم رفعت له سدرة المنتهى وإذا ورقها كأذان الفيلة، ونبقها كقلال هجر، وغشيتها عند ذلك أمورٌ عظيمة، وألوان متعددة باهرة، وركبتها الملائكة مثل الغربان على الشجرة كثرة، وفراش من ذهب، وغشيتها من نور الرب جل جلاله ما غشيتها، ورأى ﷺ في هذا المكان جبريل - عليه السلام - وله ستمائة جناح ما بين كل جناحين كما بين السماء والأرض. وهذا ما دل عليه قوله تعالى من سورة «النجم»: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۖ عِنْدَ يَدَيْهِ الرَّحْمَنُ ۖ عِنْدَمَا جَاءَهُ الْوَكُوفُ ۝﴾

إِذْ يَنْتَقِي الْيَدْرَةَ مَا يَنْتَقِي ۖ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا كَلَفَ ۖ [النجم: ١٣-١٧] . إذ ثبت ينظر إلى المكان الذي حُدِّد له النظر إليه فلم يتجاوزَه، وهذا غاية الأدب منه ﷺ. كما رفع له البيت المعمور فإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك . ثم أتى بإناء من خمر، وإناء من لبن، وإناء من عسل، فأخذ اللبن، فقيل له: هي الفطرة التي أنت عليها وأمتك . . ثم رفع وأذني حتى انتهى إلى مستوى سمع فيها صرير الأقلام، وهنا قربَه ربُّه وناجاه - وإن لم يره - لأنه نور كيف يراه؟ .

وفرض عليه وعلى أُمَّته الصلوات الخمس، ولما رجع عائداً مرَّ بموسى - عليه السلام - فسأله؛ فأخبره، فطلب إليه أن يعود إلى ربِّه يسأله التخفيف؛ لأن موسى جرَّب بني إسرائيل ولم يجد لهم عزماً، فخشي أن يحصل لأمة محمد ما حصل لأمة، فعاد الحبيب ﷺ إلى حبيبه - جل جلاله وعظم سلطانه - يسأله التخفيف؛ إذ فرضها أولاً خمسين صلاة، فما زال يراجعها سائلاً التخفيف حتى كانت خمسا بديل الخمسين^(١).

ونزل الحبيب ﷺ صحبة جبريل - عليه السلام - إلى بيت المقدس، فنزلت الأنبياء يشيعون الحبيب ﷺ، فصلى بهم صلاة الصبح بالمسجد الأقصى . وركب البراق - حيث تركه مربوطاً بحلقة الباب - وعاد إلى مكة في صبيحة تلك الليلة، وقد ذهب عنه ﷺ كلُّ كرب وغم وحزن وهم . وعاد أوفر ما يكون ثقةً وطمأنينة، وتلك ثمرة هذه الرحلة المباركة إلى الملكوت الأعلى، إذ رأى فيها بأَم عينيه ما كان أخْبِرَه وتلقاه وحيا من ربِّه، فَصَدَّقَ الْخَيْرُ الْخَيْرَ، وما زاء كمن سمع، والحمد لله ذي الإنعام والجلال والإكرام . وكيف قابلت قريش هذا النبأ العظيم؟ .

إنه ﷺ قد عاد إلى المسجد الحرام وجلس فيه - وهو لا يدري - بم تقابل قريش هذا النبأ العظيم، والحدث الجلل، فما زال جالساً حتى مرَّ به أبو جهل - عليه لعائن الله - فسأله قائلاً مستهزئاً: هل استفدت الليلة شيئاً؟ فأجاب المصطفى: «نعم، أُسْري بي الليلة إلى بيت المقدس» . قال أبو جهل: ثم أصبحت بين ظهرائنا؟ قال النبي ﷺ: «نعم» . فقال أبو جهل: أخْبِرْ قَوْمَكَ بذلك؟ فقال النبي ﷺ: «نعم» . فقال أبو جهل: يا معشر بني كعب بن لؤي، هلموا، فأقبلوا، فحدثهم النبي ﷺ فَمَنْ مُصَدِّقٌ، وَمَنْ مَكْذِبٌ مُصَفَّقٌ واضع يده على رأسه؛ استعظاماً للخبر وإنكاراً له، وتعجباً منه .

ولشدة ما أثار الخبر من سخرية وتعجب ارتد بعض من آمن ولم يرسخ الإيمان في قلوبهم ولم تخالط بشاشته قلوبهم .

ومشي رجال من المشركين المستهزئين إلى أبي بكر الصديق، وقالوا له: إن صاحبك يزعم أنه أُسْري به إلى البيت المقدس، فقال الصديق: إن كان قال هذا فقد صدق! إني لأصدقُه فيما هو

(١) أمّا بيان هذه الصلوات الخمس من حيث الوقت والكيفية فقد نزل جبريل بعد ذلك وصلّى بالرسول والمؤمنين عند الكعبة يوماً وليلة فعلمهم الكيفية والوقت المطلوب لأداء الصلوات الخمس، كما في الموطأ والصحيحين .

أبعد من ذلك، أصدقته في خبر السماء يأتيه في غدوة أو روحة، فلقب أبوبكر بالصادق من يومئذ. واجتمع رجال من قريش، وأرادوا امتحان النبي ﷺ فقالوا له: انعت لنا المسجد الأقصى، فأخذ ينعته لهم، فالتبس عليه، فجيء له بالمسجد ينظر إليه وينعته لهم، وعندئذ قالوا له: أخبرنا عن عبرنا القادمة من الشام، فقال: «قد مررت على عير بني فلان بالروحاء وقد أضلوا بعيرنا لهم، وهم في طلبه فسلوهم عن ذلك، ومررت بعير بني فلان وفلان وفلان، ورأيت راكباً قعوداً بذئ مز فنفرت بكزه منه فسقط فلان فانكسرت يده فسلوه. ومررت بعيركم بالتنعيم، يقدمها جمل أروق عليه غرارتان تطلع عليكما طلوع الشمس»، فخرجوا إلى الثنية فجلسوا ينتظرون طلوع الشمس، ليكذبوه، وفجأة قال قائل: هذه الشمس قد طلعت، فقال آخر: والله هذه العير قد طلعت يقدمها بعير أروق كما قال. ومع هذا فلم يؤمنوا، وقالوا: إن هذا إلا سحر مبین. وأنزل الله تعالى مصداق ذلك فاتحة سورة «الإسراء».

○ نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نجملها فيما يأتي:

١ - المعجزات ليست ضرورية لحصول الإيمان؛ فقد رأى كفار قريش آيات عظاماً ولم يؤمنوا.

٢ - تقرير حادثة الإسراء والمعراج، وثبوتها بالكتاب والسنة والإجماع، وأن الإسراء والمعراج كانا بالروح والجسد معاً.

٣ - سبق أبي بكر وفضله وسبب تلقيبه بالصادق، فرضي الله عنه وأرضاه.

ثلاث آيات من آيات النبوة المحمدية

إن آيات النبوة المحمدية أكثر من أن تعد أو تحصى، وقد تقدم العديد منها في مطلع هذا الكتاب، وسيأتي في آخره ذكر عشرات المعجزات. وإنما أردنا ذكر ثلاث آيات هنا حيث أفردتها المؤرخون بالذكر لعظم دلالتها وقوة برهانها على صدق الحبيب ﷺ فيما جاء به من الهدى ودين الحق، كما أن الناحية التاريخية تقتضي ذكرها هنا بعد حادثة الإسراء والمعراج.

وأولى هذه الآيات: آية انشقاق القمر، فقد روى أحمد في مسنده عن أنس بن مالك أن أهل مكة سألوا النبي ﷺ آية، فانشق القمر فرقتين، وروى البخاري عن قتادة عن أنس أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية، فأراهم القمر شققتين حتى رأوا جزءاً بينها. ومصدق هذا في كتاب الله تعالى إذ قال عز من قائل في فاتحة سورة «القمر»: ﴿أَفَرَأَيْتِ السَّاعَةَ أَفَئِنَّ الْقَمَرَ ۖ وَإِنْ يَرَوْا ءَايَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَعِزٌّ ۖ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أُمْرٍ مُّسْتَوَرٌّ ۖ﴾ (القمر: ١-٣). وخطب حذيفة بن اليمان بالمدائن يوماً فقال - بعد أن حمد الله وأثنى عليه ﴿أَفَرَأَيْتِ السَّاعَةَ أَفَئِنَّ الْقَمَرَ ۖ﴾ [١]. ألا وإن الساعة قد اقتربت، ألا وإن القمر قد انشق، ألا وإن الدنيا قد

آذنت بفراق، ألا وإن اليوم المضمار، وغداً السباق. وروى أحمد عن ابن مسعود رضى الله عنه قوله: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ حتى نظروا إليه فقال رسول الله ﷺ: «اشهدوا» وقال المشركون: هذا سحر ابن أبي كبشة. وقالوا: نسال السفار خارج مكة، فسالوا السفار، فأخبروا أنهم رأوا ليلة كذا قد انشق القمر فرقتين.

وثاني الآيات: هي دعاء النبي ﷺ على أهل مكة بالقحط لما استعصوا، وأبوا قبول دعوة الحق، ولجؤا في الخصومة والعناد والمكابرة، فقد قال ﷺ: «اللهم أعني عليهم بسبع كسيع يوسف» فأصابته سنة حتى أكلوا الميتة والجلود والعظام، فجاء أبوسفیان ومعه رجال من مكة وقالوا: يا محمد إنك تزعم أنك بُعِثَ رحمة وإن قومك قد هلكوا فاذن الله لهم، فدعا ﷺ فسقوا الغيث، وقد كان بلغ بهم الجوع حتى إن أحدهم كان يرى ما بينه وبين السماء كهيئة الدخان من الجوع.

وفي هذا، نزل قرآن، وهو قوله تعالى من سورة الدخان: ﴿فَأَنزَلْنَا يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الدخان: ١٠-١١] الآيتان.

إلا أنهم لما دعا لهم الرسول ﷺ وسقوا الغيث، عادوا إلى الإصرار والعناد، فعلم تعالى ذلك منهم وقال: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابَ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ [الدخان: ١٥]. وقد انتقم الله منهم يوم بدر، إذ قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبُطُّ أَلْبُسَةُ الْكُفْرَةِ إِنَّا مُنْزِلُونَ﴾ [الدخان: ١٦] وفعلاً قد أخذ الله رؤساءهم يوم بدر فأهلكهم ولم ينج إلا القليل منهم ممن كتب الله لهم النجاة ليؤمنوا وينجوا من عذاب الآخرة كأبي سفيان وغيره.

وثالث الآيات: هي أنه يوم اشتد الصراع بين المشركين من جهة وبين المؤمنين من جهة أخرى - وذلك بمكة - كانت قد دارت حرب ضروس بين فارس والروم الدولتين العظميين المتجاورتين، ونظراً إلى أن دولة الروم مسيحية من أهل الكتاب، ودولة الفرس مجوسية وثنية، كان أهل مكة يتلقون الأخبار ويتبعونها، ويسرهم أن تنتصر دولة الفرس الوثنية، ونزل قرآن كريم في هذا الشأن، وهو قوله تعالى من سورة «الروم» ﴿اللَّهُ غَلِبَ الرُّومُ ﴿١﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَتَوَلُّونَ ﴿٢﴾ فِي بَيْضِ بَرْبَرٍ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَبَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ بَنَصْرِ اللَّهِ بِصُرٍّ مِنَ بَيْتِئِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الروم: ١-٣]. فأخبر تعالى بأن فارساً قد غلبت الروم، وأن الروم ستغلب فارساً في خلال بضع سنين، والبضع من الثلاث إلى التسع، فقال المشركون لأبي بكر الصديق: اجعل بيننا وبينك أجلاً، إن ظهر الروم على فارس كان لك كذا وكذا، وإن ظهرت فارس على الروم كان لنا كذا وكذا، والذي قال هذا وراهن أبابكر الصديق أبي بن خلف، وإن الرهن كان على خمس فلائص^(١) من الإبل، ولم يمضِ البضع من السنين

(١) جمع قلوص وهي الفتية من الإبل.

حتى غلبت الروم فارساً، وكان ذلك يوم بدر حيث فرح المؤمنون بنصر الله لهم على المشركين، ونصر الروم على فارس الوثنية، فكان هذا آية من أظهر الآيات دلالة على صدق ما جاء به الرسول محمد ﷺ من الهدى والدين الحق. فهذه ثلاث آيات ناطقة بالنبوة المحمدية شاهدة بصدق ما جاء به الحبيب ﷺ من الهدى والدين الحق.

○ نتائج وعبر:

- لقد اشتملت هذه القطعة من السيرة العطرة على نتائج وعبر، هي كالتالي:
- ١ - آية انشقاق القمر من أكبر الآيات، وهي ثابتة بالكتاب والسنة وبالأخبار المستفيضة المتواترة، وهي تقرر النبوة المحمدية وتؤكدّها.
 - ٢ - بيان أن دعوة النبي ﷺ لا ترد، وأن استجابة الله تعالى له آية نبوته وتقرير رسالته وصحة دعوته.
 - ٣ - بيان أن هذه الآيات لا تستلزم الإيمان ممن رآها؛ إذ رآها المشركون وما آمنوا ولا أسلموا إلا من شاء الله تعالى منهم ذلك.
 - ٤ - تقرير صحة الدين الإسلامي، وأنه الدين الحق لصدق ما يخبر به كتابه من الغيوب المتعددة، وتقع كما أخير ولا تتخلف أبداً.
 - ٥ - بيان أن أهل الكتب من يهود ونصارى أقرب إلى المسلمين من المشركين والملاحدة الشيعيين.

الخروج بالدعوة خارج مكة

إنه لما خرج رسول الله ﷺ إلى الطائف يعرض دعوته على رجال ثقيف، وعاد آيساً من خيرهم: دخل مكة في جوار المطعم بن عدي؛ إذ طلب إليه ذلك، فوافق عليه، فرآه أبو جهل فقال مستهزئاً: هذا نبيكم يا بني عبد مناف!! فرد عليه عتبة بن ربيعة قائلاً: وما ينكر أن يكون منا نبي ومَلِك؟ وسمع ذلك رسول الله ﷺ فقال لعنتية: «أما أنت فما حميت لله، وإنما حميت لنفسك، وأما أنت يا أبا جهل فهو الله لا يأتي عليك غير يعيد حتى تضحك قليلاً، وتبكي كثيراً، وأما أنتم - يا معشر قريش - فوالله، لا يأتي عليكم غير كثير حتى تدخلوا فيما تنكرون وأنتم كارهون».

وكان الأمر كذلك فكانت آية نبوته ﷺ.

وبقي ﷺ بمكة وقد قلّ ناصره واشتدت عداوة القوم له، ولم يكن بمكة من المؤمنين غير المستضعفين، ففكر ﷺ في الخروج بدعوته خارج مكة، فأخذ يعرض نفسه طالباً نصرته حتى يبلغ دعوة ربه، وذلك في المواسم والأسواق والمناسبات السنوية وغيرها، فأتى قبيلة كندة فدعاهم وطلب نصرته، فأبوا عليه. وأتى بطناً من كلب يقال لهم: بنوعيد الله فدعاهم إلى الله

وعرض عليهم نصرته، فلم يقبلوا منه ما عرض عليهم. ثم أتى بني حنيفة - وهم قوم مسيلمة الكذاب - فلم يكن أحد أسوأ منهم ردًا وأقبحهم، وأتى بني عامر فعرض عليهم نصرته والإيمان بدعوته فرفضوا، وقال له أحدهم: أرايت إن نحن تابعتك، فأظهرك الله على مَنْ خالفك أ يكون لنا الأمر من بعدك؟ فرد عليه الرسول ﷺ بقوله: «الأمر إلى الله، يضعه حيث شاء». فقال العامري: أفنهدفُ نُحوَرَتًا للعرب دونك، فإذا ظهرت كان الأمر لغيرنا؟! لا حاجة لنا بأمرك. ولما رجع بنو عامر إلى ديارهم، أخبروا شيخًا كبيرًا من رجالهم بالخبر، فوضع يده على رأسه، وقال: يا بني عامر هل من تلاف؟ والذي نفسي بيده ما تقولها إسماعيلي قط، وإنها لحق، وأين كان رأيكم عنه؟.

ولم يزل ﷺ يعرض نفسه ودعوته على كل قادم له اسمٌ وشرف؛ علَّه يجد من ينصره علي دعوته. وكان كلما أتى قبيلة يدعوها تبعه عمه أبولهب، فإذا فرغ من كلامه يقول لهم: يا بني فلان إنما يدعوكم هذا إلى أن تسلخوا اللات والعزى من أغناقكم إلى ما جاء به من الضلالة والبدعة؛ فلا تطيعوه، ولا تسمعوا له.

○ نتائج وعبر:

- ١ - إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرًا نوجزها فيما يلي:
- ١ - ما كان العرب يلتزمونه من الجوار سنة حسنة، وهي تعرف اليوم باللجوء السياسي.
- ٢ - آية صدق النبوة المحمدية تتجلى في صدق ما أخبر به الرسول ﷺ أباجهل وقريشًا إذ كان ما أخبر به كلا منهما: كما أخبر.
- ٣ - قوة فراسة العامري؛ إذ عرف صدق النبي ﷺ وصحة دعوته وأنها الحق.
- ٤ - بيان ما كان عليه أبولهب من الصد عن الدعوة ومحاربتها حتى خارج مكة.
- ٥ - استعمال أبي لهب لفظ البدعة والضلالة فيما هو شرع وهدى كاستعمال أصحاب الأهواء اليوم لفظ البدعة والضلالة على هدي الكتاب والسنة؛ تنفيرًا للناس عنهما.

تدابير إلهية لظهور الإسلام

ما زال الحبيب ﷺ يعرض دعوته ونصرته على كل ذي اسم، وشرف. وقدم مكة سويد بن الصامت الملقب بالكمال؛ لقوته وجلده - وهو أوسي من أهل المدينة - قدم حاجًا ومعتنًا، فتصدى له الرسول ﷺ، فدعاه إلى الإسلام وقرأ عليه القرآن، فقال: إن هذا لحسن، ثم انصرف وقدم المدينة، فلم يلبث أن قتله الخزرج في حرب بُعثت الدائرة بين قبيلتي الأوس والخزرج، فكان قومه يقولون: قُتلَ الكامل وهو مسلم. . . وهذا تدبير.

وآخر: هو قدوم أبي الحُيسر أنس بن رافع مكة مع فتية من بني عبد الأشهل من بينهم إياس بن معاذ قدموا يلتمسون حلفًا من قريش على قومهم من الخزرج فاتاهم النبي ﷺ وقال لهم: «هل

لكم فيما هو خير لكم مما جئتم له؟ ودعاهم إلى الإسلام وقرأ عليهم القرآن، فقال إياس - وكان غلاماً حدثاً - هذا والله خير مما جئنا له، فضرب وجهه أبو الحيسر بحفنة من البطحاء^(١) وقال: دعنا منك. فلقد جئنا لغير هذا، وقام رسول الله ﷺ ولم يلبث أن هلك إياس فسمعه قومه يهمل ويكبر حتى مات، فما يشكون أنه مات مسلماً. . هذا تدبير.

وثالث: بينما رسول الله ﷺ يعرض نفسه طالباً النصر على القبائل الوافدة إلى الحج والعمرة، وإذا برهط من الخزرج عند العقبة، فدعاهم إلى الله تعالى وعرض عليهم الإسلام، وذكرهم هذا بما تقوله اليهود لهم بالمدينة من أن نبيا يبعث الآن نتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وثمود. فقال بعضهم لبعض: هذا والله النبي الذي توعدكم به اليهود، فأجابوا دعوة النبي ﷺ وصدقوا به، وقالوا له: إن بين قومنا شرّاً وعسى الله أن يجمعهم بك، فإن اجتمعوا عليك فلا رجل أعز منك، ثم انصرفوا عنه، وكانوا سبعة نفر.

فلما قدموا المدينة ذكروا لأهلها النبي ﷺ ودعوهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم وانتشر خبره. حتى إذا كان العام المقبل وفي الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلاً، فلقوا النبي ﷺ بالعقبة فبايعوه بيعة النساء^(٢).

وكانت هذه بيعة العقبة الأولى، وكان أهل هذه البيعة أسعد بن زرارة، وعوف ومعاذ ابنا الحارث هما ابنا عفرأ، ورافع بن مالك بن عجلان، وعبادة بن الصامت وغيرهم من الخزرج، ومن الأوس: أبو الهيثم ابن التيهان، وعويم بن ساعدة، فانصرفوا بعد البيعة، وبعث معهم النبي ﷺ مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار، وأمره أن يقرّتهم القرآن، ويعلمهم الإسلام، فنزل مصعب بالمدينة على أسعد بن زرارة، وأنزله أسعد في دار بني ظفر، واجتمع عليه رجال ممن أسلموا، فسمع به سعد بن معاذ وأسيد بن حضير وهما سيّدا بني الأشهل - وكانا مشركين - فقال سعد لأسيد: انطلق إلى هذين اللذين أتيا دارنا فانهما - يعني بالرجلين مصعب بن عمير وأسعد بن زرارة - فإنه لولا أسعد بن زرارة وهو ابن خالتي لكفيتك ذلك، فأخذ أسيد حربته، ثم أقبل عليهما فقال: ما جاء بكما تسفهان ضعافنا؟ اعتزلا عتاً، فقال له مصعب: أو تجلس فتسمع، فإن رضيت أمراً قبلته، وإن كرهته كفّ عنك ما تكره؟ فقال: أنصفت. ثم جلس إليهما، فكلمه مصعب بالإسلام، فقال: ما أحسن هذا وأجلّه؟ كيف تصنعون إذا دخلتم هذا الدين؟ قال: تغتسل وتطهر ثيابك، ثم تشهد شهادة الحق - لا إله إلا الله محمد رسول الله - ثم تصلي ركعتين، ففعل ذلك وأسلم، ثم قال لهما: إن ورائي رجلاً إن تبعكما لم يتخلف عنكما

(١) البطحاء: رمل وحصى.

(٢) المراد من بيعة النساء أنهم بايعوا على ألا يشركن بالله شيئاً إلى آخر ما جاء في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ بِمَا يَمْنَعُكُم عَنْ أَنْ لَا يَشْرَكَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَتَرَفَّقَ﴾ [الممتحنة: ١٢] إلى: ﴿أَنَّهُ أَتَمَّ بِالْمُسْلِمِينَ﴾ [الممتحنة: ١٢] ولم يذكر فيها القتال لأن النساء ليس عليهن جهاد.

أحد من قومه، وسأرسله إليكم وهو سعد بن معاذ.

وانصرف أسيد إلى سعد وقومه. فلما نظر إليه سعد قال: أخلف بالله لقد جاءكم بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، ثم قال لأسيد: ما فعلت؟ قال: كلمت الرجلين، والله ما رأيت بهما بأساً، وذهب سعد بن معاذ إلى أسعد ومصعب، فدعاه إلى الإسلام فأسلم على نحو ما أسلم أسيد ثم ذهب إلى دار بني عبد الأشهل فسألهم قائلاً: كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيدنا وأفضلنا، قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم علي حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله. فوالله ما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلماً أو مسلمة.

ورجع مصعب إلى منزل أسعد بن زرارة، وما زال يدعو إلى الإسلام حتى لم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون إلا ما كان من بني أمية بن زيد ووائل وواقف فإنهم أطاعوا أباقيس بن الأسلت، فوقف بهم عن الإسلام حتى هاجر رسول الله ﷺ ونزل بالمدينة، وحتى مضت بدر وأحد والخندق ثم دخلوا في الإسلام فأسلموا وحسن إسلامهم.

ورابع هو: أنه لما فشا الإسلام في المدينة بين الأنصار، اجتمع جماعة من أهل المدينة وقرروا أن يأتوا النبي ﷺ في الحج ويجمعوا معه سرّاً ويدرسوا معه - على كُتُب - موضوع هجرته إليهم، وانتهوا إلى مكة، واتصلوا بالحبیب ﷺ سرّاً، وواعدوه وسط ليالي التشريق، فوافوه بالعقبة ليلاً وكانوا سبعين رجلاً ومعهم امرأتان هما نُسَيبَةُ بنت كعب أم عمار، وأسماء أم عمرو بن عدي من بني سَلَمَةَ - وكان مع الرسول ﷺ عمه العباس رضى الله عنه، وهو يومئذ كافر لم يؤمن، وإنما حضر ليستوثق لابن أخيه من كل ما يعده به الأنصار ويعطونه له من أنفسهم، فكان أول من تكلم العباس فقال: يا معشر الخزرج، إن محمدًا منا حيث علمتم في عزٍّ ومَنعة، وقد أبى إلا الانقطاع إليكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه فأنتم وذلك، وإن كنتم ترون أنكم مُسْلِمُوهُ، فمن الآن فدعوه؛ فإنه في عزٍّ ومنعة.

فقال الأنصار: قد سمعنا ما قلت، فتكلم يا رسول الله وخذ لنفسك ولربك ما أحببت. فتكلم رسول الله ﷺ وتلا القرآن ورغب في الإسلام، ثم قال: «تمنعونني مما تمنعون منه نساءكم وأبنائكم». فأخذ البراء بن معرور بيده، ثم قال: نعم، والذي بعثك بالحق نبياً، لنمنعَنَّك مما نمنع منه أئزنا^(١) فبايعنا يا رسول الله فنحن والله أبناء الحرب وأهل الحدة^(٢) ورثناها كابراً عن كابر. وهنا، اعترض الكلام أبو الهيثم بن التيهان، فقال: يا رسول الله، إن بيننا وبين الرجال حيالاً، وإنا قاطعوها، فهل عسيت - إن نحن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله - أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ فتبسّم رسول الله ﷺ ثم قال: «بل الدم^(٣)، والهدم^(٤)، أنا

(١) أي نساءنا: فالأزر كناية عن النساء، لأن الأزر ستائر، والنساء كذلك يسترن الرجال.

(٢) السلاح.

(٣) أي نطالب بدمكم، وهو معنى الدم وما تتركونه من الدماء أتركه أنا أيضاً وهو معنى الهدم.

منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتكم وأسالم من سالمكم». وهنا التفت إليهم العباس بن عباد الأنصاري وقال يا معشر الخزرج، هل تدرون عَلَامَ تبايعون هذا الرجل، تبايعونه على حرب الأحمر والأسود، فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة وأشرافكم قتلاً أسلمتموه فمن الآن فهو - والله - خزي الدنيا والآخرة وإن كنتم ترون أنكم وافون له فخذوه فهو - والله - خير الدنيا والآخرة، فأجابوه قائلين: إنا نأخذُه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف، والتفتوا إلى الحبيب ﷺ وقالوا: فما لنا بذلك يا رسول الله؟ قال - فداه أبي وأمي والناس أجمعون - : «الجنة»!! فقالوا: أبسط يدك نبايعك، فبسط يده فبايعوه على خلاف بيعة النساء الأولى، إذ بايعوه على حرب الأحمر والأسود. وعَيَّنَ منهم ﷺ اثني عشر نقيباً تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس. فالخزرجيون هم: أسعد بن زرارة - وسعد ابن الربيع - وعبد الله بن رواحة - رافع بن مالك - وعباد بن الصامت - وسعد بن عباد - والمنذر بن عمرو بن حُنَيْسٍ - والأوثيبيون هم: أسيد بن حضير - وسعد بن خيثمة - ورفاعة بن عبد المنذر.

وبهذا كانت بيعة العقبة الثانية. وصرخ الشيطان من أعلى العقبة قائلاً: يا أهل الجَبَابِجِ^(١) هل لكم في مَذَمِّمٍ^(٢) والصباة^(٣) معه قد اجتمعوا على حربكم، فقال رسول الله ﷺ: «هذا أزب^(٤) العقبة، أسمع أي عدو الله، أما والله لأتفرغنَّ لك» ثم قال ﷺ: «ارجعوا إلى رجالكم» فقال العباس بن عباد: والذي بعثك بالحق نبياً لئن شئت لَتَمِيلَنَّ غَدًا على أهل مني بأسيا فانا، فقال ﷺ: «لم نُؤمر بذلك».

وسمعت قريش بهذه البيعة المباركة، فلاحقت أهلها فلم تظفر إلا بسعد بن عباد فعذبته، ثم نجاه الله تعالى فلحق بالمدينة، واشتد لذلك غضب قريش وعظم أذاها للمؤمنين، فأمر النبي ﷺ المؤمنين بالهجرة إلى المدينة.

فكان أول من قدم المدينة أبو سلمة بن عبد الأسد، ثم هاجر عامر بن ربيعة مع امرأته ليلي، ثم عبد الله بن جحش، وتتابع الأصحاب، فهاجَرَ عُمَرُ بن الخطاب وعياش بن ربيعة، وغيرهم.

○ نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرًا نجملها فيما يأتي:

١ - بيان شرف سويد بن الصامت - الملقب بالكامل - إذ كان أول من لقيه رسول الله وعرض عليه الإسلام، فاستحسنه ونقل خبره إلى المدينة.

(١) المنازل.

(٢) يعني - لعنه الله - محمد ﷺ.

(٣) الصباة: جمع صاب، أي مائل عن دينه يعني أهل البيعة.

(٤) أزب العقبة: شيطانها، والأزب: القصير الماكر والبخيل الخبيث.

- ٢ - بيان شرف إياس الشاب الذي ما إن سمع قول الرسول ﷺ حتى قال : هذا والله خير مما جئتم له ، فأجابوه وآمنوا وعادوا إلى المدينة ، فنشروا الإسلام .
- ٣ - بيان فضل الرهط الذين لقيهم رسول الله ﷺ عند العقبة ، وعرض عليهم الإسلام .
- ٤ - بيان شرف أهل بيعة العقبة الأولى ، وعلى رأسهم أسعد بن زرارة .
- ٥ - بيان فضل مصعب بن عمير شهيد أحد رضى الله عنه إذ ضرب المثل في حسن الدعوة والصبر على البلاء فرضي الله عن ترضى عن مصعب من كل مؤمن مؤخذ .
- ٦ - شرف أهل بيعة العقبة الثانية وفضل النقباء منهم ، وهم اثنا عشر رجلاً .
- ٧ - بيان عداوة الشيطان ، إذ صرخ متأثراً لما شاهد من نصرة الإسلام ، وأغرى المشركين بالمؤمنين وأذاع خبر بيعة العقبة - فلعنة الله عليه - .

لطائف أمور قبل هجرة الحبيب ﷺ

أول هذه الأمور : نص حديث البيعة إذ جاء فيه ما يلي : قال عبادة بن الصامت - وكان أحد النقباء : بايعنا رسول الله ﷺ ببيعة الحرب على السمع والطاعة في عسرنا ويسرنا ، ومنشطنا ومكرهنا وأثرة علينا ، وألا ننازع الأمر أهله ، وأن نقول بالحق أينما كنا لا نخاف في الله لومة لائم .

وثاني هذه الأمور : أن العباس بن عبادة العوفي ، هو الوحيد الذي ظفر بقلب مهاجر أنصاري ، فالأصحاب كلهم إما مهاجر أو أنصاري إلا العباس ابن عبادة العوفي ، فإنه خرج إلى رسول الله ﷺ بمكة وأقام بها ، فكان يقال له : مهاجري أنصاري . استشهد بأحد - رضي الله عنه وأرضاه وجعل الجنة مأواه - .

وثالث هذه الأمور : لما تمت بيعة العقبة الثانية ، وقد تضمنت نصرة رسول الله ﷺ ، قال لهم : «إن الله عز وجل قد جعل لكم إخواناً وداراً آمناً بها» فخرجوا أرسالاً - أي جماعة إثر جماعة - وأقام رسول الله ﷺ بمكة ينتظر إذن ربه له في الهجرة إلى المدينة .

ورابع هذه الأمور : أن أول مهاجر من قريش من بني مخزوم إلى المدينة كان أباسلمة بن عبد الأسد ابن هلال ، واسمه عبد الله - رضي الله عنه وأرضاه - .

وحديث هجرة أبي سلمة اللطيف الشريف كان كالتالي ، فلنستمع إليه :
لما عاد أبوسلمة من الحبشة إذ هاجر إليها أولاً ، ولما وصل مكة ، آذته قريش ، وبلغه إسلام من أسلم من الأنصار ، فقرر الهجرة إلى المدينة ، فحمل زوجته أم سلمة وطفله وقاد بهما راحلته ، وخرج فلحقه رجال من بني مخزوم ، فقالوا له : هذه نفسك قد غلبتنا عليها ، أرايتك صاحبك هذه ، علام نتركك تسير بها في البلاد؟! ونزعوا خطام البعير من يده ، وأخذوا الراحلة وعليها امرأته وولده ، وغضب عند ذلك رجال من رهط أبي سلمة فقالوا : والله ، لا نترك ولدنا عندها ؛ إذ

نزعتموها من صاحبنا، فتجاذبوا الطفل حتى خلعت يده، وانطلق به بنوعيد الأسد، وحبس بنوالمغيرة أم سلمة عندهم.

ولنستمع إليها، وهي تحدث عن قصة هجرتها، قالت و: ففرقوا بيني وبين زوجي - إذ واصل هو سيره إلى المدينة - وبينني ولدي إذ أخذه رهط زوجي، فكنت أخرج كل غداة إلى الأبطح فأجلس أبكي، فلا أزال أبكي حتى أمسي، وذلك سنة أو قريباً منها، حتى مرّ بي رجل من بني عمّي أحد بني المغيرة، فرأى ما بي فرحمني، فقال لبني المغيرة: ألا تخرجون هذه المسكينة!! فرقم بينها وبين زوجها، وبينها وبين ولدها. قالت: فقالوا لي: الحقّي بزوجك إن شئت، قالت: ورد بنوعيد الأسد إلي عند ذلك ابني، فارتحلت بعيري، ثم أخذت ابني فوضعتني في حجره، ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة، وما معي أحد من خلق الله، فقلت: أتبلغ بمنّ لقيت حتى أقدم على زوجي، حتى إذا كنت بالتنعيم لقيت عثمان بن طلحة بن أبي طلحة أنا بني عبد الدار، فقال لي: إلى أين يا بنت أبي أمية؟ قلت: أريد زوجي بالمدينة. قال: أو ما معك أحد؟ قلت: لا والله إلا الله وبني هذا، قال: والله مالك من مترك، فأخذ بخطام البعير، فانطلق معي بهوي بي، فوالله ما صحبت رجلاً من العرب قط أرى أنه كان أكرم منه، كان إذا بلغ المنزل أناخ بي ثم استأخر عني، حتى إذا نزلت استأخر ببعيري فحط، ثم قيده في الشجرة ثم تنحى عني إلى شجرة أخرى فاضطجع تحتها، فإذا دنا الرواح قام إلى بعيري فقدمه فرحله ثم استأخر عني، وقال: اركبي فإذا ركبت واستويت على بعيري، أتى وأخذ بخطامه، فقاده حتى ينزل بي، فلم يزل يصنع ذلك بي حتى أقدمني المدينة، فلما نظر إلى قرية بني عمرو بن عوف بقاء قال: زوجك في هذه القرية - وكان أبوسلمة نازلاً بها - فادخلها على بركة الله، ثم انصرف راجعاً إلى مكة وهو يومئذ على الشرك، وما أسلم إلا في هدنة الحديبية.

والله ما أعلم أهل بيت في الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبي سلمة، وما رأيت صاحباً قط أكرم من عثمان بن طلحة.

○ مراجعة:

هيا بنا يا إخوة الإسلام نراجع قصة أم سلمة هذه لعلنا نبيكي فتمسح بدموعنا بعض آثامنا، ونذهب بها بعض قساوة قلوبنا.

هذه أم سلمة وذاك زوجها - قبل رسول الله ﷺ - أبوسلمة ذو الهجرتين، يخرج بها من مكة مهاجراً بها إلى دار الهجرة، ففتكت منه زوجته وولده، ويفتك الولد من أمه، ويترك أبوسلمة زوجته وولده ويهاجر إلى ربه تاركاً نصفه وراءه، وتنظر أم سلمة فلم تجد مواسياً ولا مؤانساً، فتخرج كل يوم إلى الأبطح تبكي طوال يومها، وتعود إلى كسر بيتها إلى انسلاخ سنة بأشهرها الإثني عشر، ثم يؤذن لها بالهجرة، فتهاجر وحدها على بعير وما معها سوى طفلها تسافر مسافة

عشرة أيام .

حقاً ما قالته : ما أعلم أهل بيت أصابهم ما أصاب آل أبي سلمة . هذه ، وأخرى في كمال عثمان بن طلحة الذي يضرب الرقم القياسي في الكرم النفسي : إنه يجد امرأة على بعيرها تريد السفر مسافة عشرة أيام في صحراء ، لا خضراء بها ولا ماء ، فيقول - وقد سألها عن حالها : والله مالك من مُتَزَكٍ ، ويقود بعيرها ويحسن إليها في ركوبها ونزولها ، ويربها من العفة والكرم ما لم تره امرأة مثلها قط .

آه أين هؤلاء الرجال الأعفاء الكرماء ذوو النجدة؟! لقد أقفرت منهم الحياة ، وأجدبت منهم ساحة الوجود ، ولا خير في دنيا يفقد فيها أمثال هؤلاء .

وخامس هذه الأمور : أن المهاجرين جميعهم ، ما منهم أحد إلا نزل بيت أحد الأنصار ، فأي كرم أعظم من هذا؟ وأي إخاء أصدق من هذا الإخاء؟ وأي إسلام أحسن من هذا؟ وأي صبر أقوى من هذا؟ وأي إيمان أثمر من هذا؟ وأين نحن اليوم من ذا وذلك يا عباد الله؟ .

وسادس هذه الأمور : هو هجرة صهيب ، إنه حين أراد الهجرة إلى المدينة قال كفار قريش : أتيتنا صعلوكاً ، فكثر مالك عندنا ، وبلغت الذي بلغت ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك ! والله لا يكون ذلك ، فقال لهم صهيب : أرايتم إن جعلت لكم مالي أتخلون سبيلي؟ قالوا : نعم . قال فإني جعلت لكم مالي ، ودلهم على مكانه وهاجر ، فلما رآه رسول الله ﷺ بادره قائلاً : «ريح البيع ، صهيب . . . ربح البيع ، صهيب» ونزل فيه قرآن يتلى إلى اليوم ، وهو قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿وَمِنَ الَّذِينَ مَنَئِرُ نَفْسُهُمُ آيَاتُنَا مَنَاسِكَتُ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْغَافِلِينَ﴾ [البقرة: ٢٠٧] .

وسابع هذه الأمور : هو أن النبي ﷺ ، كان قد أرسل مع أهل بيعة العقبة الأولى مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف ، وأمره أن يقرئهم القرآن ، ويعلمهم الإسلام ويَقْفَهُمْ في الدين ، فكان أول من لُقِبَ بالمقرئ ، واستشهد بأحد ، فهو ضجيع سيد الشهداء حمزة في ساحة أحد يزاران مع بعضهما بعضاً ، فرضي الله عنهما وأرضاهما وجعل الجنة مأواهما .

وثامن هذه الأمور : هو أن عبد الرحمن بن كعب بن مالك قال : كنتُ قائد أبي لما ذهب بصره فكنت إذا خرجت به إلى الجمعة ، فسمع الأذان : صلى على أسعد بن زرارة فسألته عن ذلك قائلاً : يا أبت ! ما لك إذا سمعت الأذان للجمعة صليت على أبي أمامة؟ قال يا بني إنه كان أول من جمع بنا بالمدينة في هَزَمِ النَّبِيِّ ^(١) من حرة بني بياضة ، يقال له : نقيع ^(٢) الخَضِصَاتِ ^(٣) قلت له : وكم كنتم يومئذ؟ قال : أربعون رجلاً .

(١) هزم النبي : جبل على بريد من المدينة .

(٢) يروى النقيع بالنون والقيح بالياء .

(٣) من الخضم الذي هو الأكل بالقم كله ، والقضم الأكل بأطراف الأسنان .

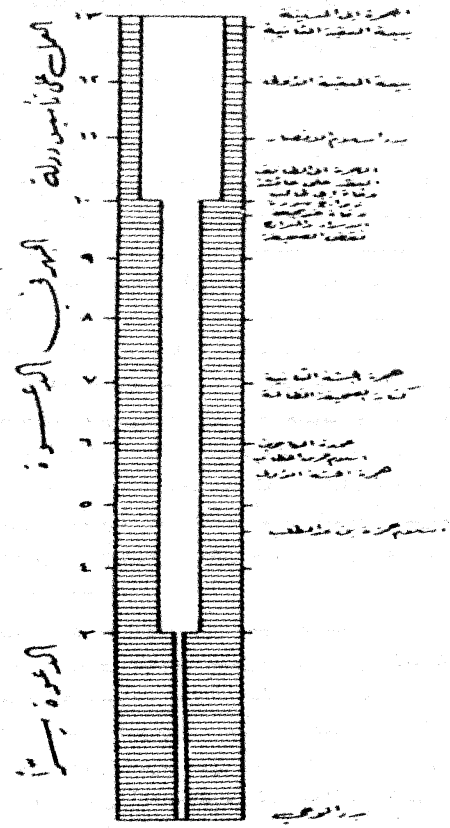
وتاسع هذه الأمور هو: إنه لما عاد أهل بيعة العقبة إلى المدينة وأظهروا الإسلام فيها كان من بينهم معاذ بن عمرو بن الجموح، ومعاذ بن جبل، وكان لعمر بن الجموح - والد معاذ - صنم قد اتخذه في داره، شأنه شأن سادات وأشراف المدينة، وكان الصنم من خشب، فكان يعبد به بدعائه وتعظيمه فيجيء معاذ ولده مع معاذ بن جبل - في فتیان ممن أسلموا - بالليل المظلم فيأخذون الصنم ويلقونه في حفرة لبني سلمة يلقون فيها العذرة والأوساخ منكسا رأسه، فيصبح عمرو فيطلبه فلا يجده، فيبحث عنه فيجده في تلك الحفرة منكسا ملطخا، فيأخذه فيطهره ويطيبه وينصبه في داره، فيأتي الفتیان المسلمون ليلاً فيأخذونه ويفعلون به ما فعلوا به الليلة البارحة، وهكذا فيأتي به عمرو ويقول: لو أعلم من فعل هذا بك لأضربه. ولما أكثروا به ذلك جاء به يوماً فغسله وطهره وطيبه، ثم جاء بسيفه فعلقه عليه، ثم قال: إني والله لا أعلم من يصنع بك ما ترى، فإن كان فيك خير فامتنع، فهذا السيف معك! فلما أمسى عمرو جاء الفتیان فعدا عليه، وأخذوا السيف من عنقه، ثم أخذوا كلباً ميتاً فقرنوه به في حبل ثم ألقيوه في بئر من آبار بني سلمة فيها عذر^(١) من عذر الناس، ثم غدا عمرو يطلبه فلم يجده في مكانه الذي تركه فيه، فخرج يتبعه حتى وجده في تلك البئر منكسا مقرونا بكلب ميت فلما رآه وأبصر شأنه تبين له عدم صلاحيته للأنس، وكلّمه بعض رجال قومه في الإسلام فأسلم، وقال في صنمه شعراً، هذا نصّه:

والله لو كنت إلها لم تكن أنت وكلب وشط بئر في قرن إلى أن قال:

الحمد لله العلي ذي الجِنَّ الواهب الرزاق ديان الدين
هو الذي أنقذني من قبل أن أكون في ظلمة قبر مُرْتَهَن



(١) جمع عذرة، وهي الغائط، أي الخراء.



بيان مراحل هامة مرت بها الدعوة من البعثة الصادقة
إلى الهجرة المباركة إلى طيبة الطيبة الطاهر

هجرة الحبيب الطيب محمد ﷺ إلى طيبة الطيبة

إنه - بعد أن خرج المؤمنون من مكة أرسالاً إلى المدينة مهاجرين، ولم يبقَ منهم إلا محبوسٌ أو مفتون - كان الحبيب ﷺ في انتظار الإذن له من ربّه عز وجل بالهجرة، وأبقى معه علياً لحاجته إليه. وأما أبي بكر الصديق فإنه كثيراً ما كان يستأذن رسول الله ﷺ في الهجرة فيقول: لا تعجل! لعل الله يجعل لك صاحباً!! فيطمع أبي بكر أن يكون رسول الله ﷺ هو صاحب. وفي هذه الأيام بالذات، كان رجال قريش يتخوفون منه ﷺ أن يلتحق بدور الأنصار وهم ذوو شركة ومنعة وقد لحق بهم المؤمنون، فقرروا عقد اجتماع لهم بدار الندوة يحضره أولو الرأي والمشورة منهم للتفكير في أمر محمد ﷺ، وجاءوا دار الندوة وإذا بشيخ جليل عند بابها، فسألوه «من أنت؟» قال: شيخ من نجد سمعتُ بما اتعدتم عليه، فحضرت لأسمع ما تقولون، وعسى ألا تعدموا متي رأياً ونصحاً، فدخل معهم وقد ضم الاجتماع أباسفيان وأباهل والنضر بن الحارث وكيار رجال قريش، ودارت المناقشة للبحث عن المخرج، فقال بعضهم: إن هذا الرجل، قد كان من أمره ما قد رأيتم - يعنون النبي ﷺ - فإنا والله ما نأمنه من الوثوب علينا فيمن قد اتبعه من غيرنا فأجمعوا فيه رأياً. فقال بعضهم: احبسوه في الحديد، وأغلقوا عليه باباً ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذي كانوا قبله - يريدون حتى يموت في الحبس - وفي هذا يقول تعالى عنهم: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرْتَلُ بِهِ رِيبَ الْقَوْمِ﴾ (الطور: ٣٠). أي الموت وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَرَأَى يَتَكَبَّرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْكِرُونَ﴾ (الأنفال: ٣٠). أي في الحديد محبوساً في دار حتى الموت.

وهنا قال الشيخ النجدي - وهو أبلّيس عليه لعنة الله - أتاهم في صورة شيخ جليل ليثقوا فيما يقترحه عليهم، وهو الذي صرخ بأعلى العقبة منذ أشهر قائلاً: يا أهل الجبابج، هل لكم في مذمم والصباة، وردّ عليه الرسول ﷺ قائلاً: «هذا أذب العقبة، والله لأفرغن لك؟ أي عدوّ الله». جاء اليوم لينتقم، فقال: لا والله ما هذا لكم برأي، والله لئن حبستموه كما تقولون ليخرجن أمره من وراء الباب الذي أغلقتموه دونه إلى أصحابه فلا وشكوا أن يشبوا عليكم فينزعه من أيديكم، ثم يكاثروكم به حتى يغلبوكم على أمركم، ما هذا لكم برأي؛ فانظروا غيره، فتشاوروا، ثم قال بعضهم: نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلادنا، فإذا أخرج عنا فوالله لا نبالي أين ذهب. قال الشيخ النجدي: والله ما هذا لكم بالرأي، ألم تروا حسن حديثه، وحلاوة منطقته، وغلبته علي عقول الرجال بما يأتي به، دَبَرُوا فيه أمراً غير هذا. فقال أبو جهل: والله إن لي فيه لرأياً ما أراكم وقعتم عليه أبداً. قالوا: وما هو يا أبا الحكم؟ قال: أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شاباً نسيباً^(١) وسيطاً^(٢) فينا، ثم نعطي كل فتى منهم سيفاً صارماً، ثم يعمدوا إليه فيضربوه ضربة رجل واحد فيقتلوه فنستريح منه، ويتفرّق دمه في القبائل؛ فلا يقدر بتوعبد مناف على حرب قومهم جميعاً،

(١) ذو نسب شريف.

(٢) شريكاً.

فيرضون منا بالعقل^(١) فتَعَفَّلَهُ لهم، أي ندفع ذبته لهم، وهنا قال الشيخ النجدي «إيليس»: هذا الرأي الذي لا رأي غيره، فأجمعوا عليه ونفذوا خطتهم، وقد أوحى تعالى بذلك إلى رسوله محمد ﷺ، فأمر ابن عمه علياً بأن ينام على فراشه ويتغطى ببرده ﷺ، وأعلمه أنه لا يناله ما يكره إن شاء الله تعالى ثم أخذ حفنة من تراب وخرج وهو يقرأ: ﴿يَسَّ وَالْقُرْآنَ الْكَبِيرَ﴾ [يس: ١-٢] إلى قوله: ﴿فَهُمْ لَا يَبْصُرُونَ﴾ [يس: ٩] فأعمى الله أبصارهم، فخرج من بين أيديهم، ووضع التراب على رؤوسهم وهم لا يشعرون، وانصرف ﷺ حيث أراد وبعد ساعة أتاهم آت فقال لهم:

ما تنتظرون ههنا؟ قالوا: محمداً، فقال: خيبكم الله!! قد والله خرج عليكم، ثم ما ترك رجلاً منكم إلا وضع التراب على رأسه، وانطلق لحاجته، فوضع كل واحد منهم يده على رأسه فإذا التراب عليه، فجعلوا يتطلعون من خلال شقوق الباب فيرون علياً على الفراش متغطياً ببرد النبي ﷺ، فيقولون: والله إن هذا لمحمد نائماً عليه برده، فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا، فقام علي رضي الله عنه عن الفراش، فلما رآوه قالوا: والله لقد صدقنا الذي كان حدثنا وانصرفوا.

أما الحبيب ﷺ، فلترك لعائشة أم المؤمنين تقص علينا تحركه نحو هجرته، فقد قالت: كان النبي ﷺ لا يخطئ أن يأتي بيت أبي بكر أحد طرفي النهار - إما بكرة وإما عشيّة - حتى إذا كان اليوم الذي أذن فيه لرسول الله ﷺ بالهجرة فإنه أتانا بالهجرة، وساعة كان لا يأتينا فيها.

فلما رآه أبو بكر قال: ما جاء برسول الله ﷺ في هذا الوقت إلا أمر حدث، فلما دخل رسول الله ﷺ تأخر له أبو بكر عن سريره فجلس ﷺ وليس عند أبي بكر إلا أنا وأختي أسماء، فقال رسول الله ﷺ: «أخرج من عندك» فقال: يا رسول الله إنما هما بنتاي، وما ذاك - فذاك أبي وأمي؟ فقال: «إن الله قد أذن لي في الخروج والهجرة» فقال أبو بكر: الصعبة يا رسول الله؟ قال: «الصعبة». قالت عائشة: والله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحداً يبكي من الفرح حتى رأيت أبا بكر يبكي يومئذ، ثم قال أبو بكر: يا نبي الله إن هاتين راحلتان، قد كنت أعددتكما لهذا، فاستأجرا عبد الله بن أريقط من بني الدليل - وكان مشركاً - ليذلّهما على الطريق، فدفعنا إليهما الراحلتين يرعاهما لميعاد خروجهما من مكة إلى المدينة، ولما أجمع رسول الله ﷺ علي الخروج عهد إلى علي بن أبي طالب أن يتخلف بعده بمكة ليؤدي عن رسول الله ﷺ الودائع التي كانت عنده للناس، إذ كان الناس يضعون عنده ودائعهم مما يخافون عليه، وذلك لما رأوا من أمانته وصدقه، وأتى أبا بكر فخرج معه من خوخة له في ظهر بيته، فعمداً إلى غار ثور^(٢)، وأمر أبو بكر ابنه عبد الله أن يتسمع لهما ما يقول الناس فيهما نهاره ثم يأتيهما مساء بما كان في ذلك اليوم من الخبر، كما أمر أبو بكر عامر بن فهيرة موله أن يرعى غنمه نهاراً ثم يريحها عليهما مساءً، ليسقيهما من لبنها، وإذا جاءهما عبد الله أو أخته أسماء بطعام أتبع عامراً أثرهما بالغنم، فعفى أثرهما.

(١) أي بالدية.

(٢) جبل من جبال مكة.

وأقام رسول الله ﷺ مع أبي بكر ثلاثة أيام، وطلبهما المشركون طيلة الثلاثة الأيام، ومن آيات النبوة أن العنكبوت نسجت على الغار، والحمامة عشت وباضت، تعمية على الطالبين من المشركين.

ولما مضت ثلاثة أيام، وسكن الناس عنهما، وأيسوا من العثور عليهما، أتاهما من استأجراه بالراحلتين، وكانت أسماء قد جاءت بطعام في سفرة، ونسيث أن تجعل له عصامًا، وأرادت أن تعلق السفرة بالبعير، فلم تستطع ذلك، فشقت نطاقها نصفين، فعلقت السفرة بنصفه وانتطقت بالنصف الآخر، فوئ ثم لقيت بذات النطاقين.

ولما كان المشركون يطلبون رسول الله وأبا بكر - وهما في الغار - سمع أبو بكر قرع نعال الطالبين، فخاف حزناً وقال: يا رسول الله لو يرفع أحدهم قدمه لرأنا، فقال له الرسول ﷺ: «ما بالك يا أبا بكر بائنين، الله ثالثهما»؟!.

وفي ذلك نزلت آية سورة التوبة: ﴿إِلَّا نُنصِرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَوَلَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّكَ اللَّهُ مَنَّانٌ﴾ [التوبة: ٤٠].

○ نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرًا نذكرها فيما يلي:

- ١ - بيان مدى حب الصديق للرسول ﷺ، إذ كان يرغب في صحبته، حتى إنه - لما أذن للرسول ﷺ بالهجرة وقيل صحبته - بكى ممن شدة الفرح رضى الله عنه، وهذا شأن المحب الصادق.
- ٢ - بيان قرار قريش الجائر الذي شارك فيه أبو مرة - إبليس عليه لعائن الله - ورضيه لما فيه من الإجماع على قتل النبي ﷺ، وتوزيع دمه على الأباطل حتى لا يطالب بدمه، ويرضى بالدية.
- ٣ - آية خروج الرسول ﷺ ومروءه بين أيدي المشركين ووضع التراب على رؤوسهم وهم لا يشعرون.

٤ - بيان أن أول فداء كان في الإسلام، فداء علي النبي ﷺ إذ تركه نائماً على فراشه وخرج، والمشركون يظنون أنه النبي ﷺ وهو علي رضى الله عنه.

٥ - بيان أن النبي ﷺ كان يأخذ بالأسباب وبالاحتمال، إذ أوهم المشركين بترك علي نائماً على فراشه، هذا أولاً، وثانياً: أعد الراحلة للسفر والخروج العالم بالطريق ومسالكها. وثالثاً: دخوله غار ثور مع صاحبه استخفاءً عن أعين المشركين الطالبين له.

٦ - آية نسج العنكبوت وتعشيش الحمامة وتبييضها؛ سترًا على رسول الله ﷺ وتعمية على المشركين، ولا عجب في هذا، فإن الوزغة لما ألقي إبراهيم في النار كانت تنفخ فيها لشتعل على إبراهيم، فكانت الوزغة أخبث حيوان وكان في قتلها أجر إلى اليوم؛ لورود السنة بذلك.

٧ - بيان طيبوبة أسرة الصديق نساءً ورجالاً، وبيان سبب لقب أسماء بذات النطاقين.

الطريق إلى المدينة

وخرج الحبيب ﷺ وصاحبه بعد هدوء الأحوال، تلقاهما من استأجراه بالراحتين فقدّم أبو بكر لرسول الله ﷺ أفضلهما، وقال: اركب - فذاك أبي وأمي - فقال رسول الله ﷺ: «لا أركب بغيري ليس لي» فقال الصديق: هو لك - فذاك أبي وأمي - فقال الحبيب: «لا إلا بالثمن الذي ابتعتها^(١) به». فقال أبو بكر: هو كذا وكذا، فقال النبي ﷺ: «قد أخذتها به» وركبا وانطلقا وقد أردف أبو بكر مولاه عامر بن فهيرة لخدمتهما في رحلتهم إلى طيبة الطيبة وساروا على بركة الله، وعينُ الله ترعاهم. هذا، ونعود إلى مكة لتسجيل حادثين أو ثلاثة من مهمات الأحداث.

الأول: أن قريشًا لما كانوا يبحثون عن النبي ﷺ وصاحبه، أتوا دار أبي بكر، فخرجت لهم أسماء فسألوها: أين أبوك يا بنت أبي بكر؟ قالت: لا أدري والله أين أبي، فرفع أبو جهل يده - وكان فاحشًا خبيثًا - فلطم خد أسماء لطمّة أسقط قرطها من أذنها.

والثاني: أن قريشًا ما إن فقدت النبي ﷺ وطلبت له ولم تجده حتى أعلنت عن جائزة مقدارها مائة بعير لمن يأتيها برسول الله ﷺ حيا أو ميتًا.

والثالث: أنه لما غادر رسول الله ﷺ مكة مع صاحبه، قالت أسماء: مكثنا ثلاثًا لا ندري أين اتجه رسول الله ﷺ، وإذا برجل من الجن يقبل من أسفل حتى خرج من أعلى مكة، وبهذا عرفنا رجّة رسول الله ﷺ وصاحبه وأنهما اتجها إلى المدينة النبوية.

وها هي ذي الآيات التي كان يتغنّى بها رجل الجن:

جزى الله ربّ الناس خيرَ جزائه رفيقين حلاًّ خيمتي أمّ مُعبدٍ
هما نزلا بالببر ثم ترّوحا فأفلح من أمسى رفيق محمد
ليهنّ بني كعب مكان فتاتهم ومقعدهما للمؤمنين بِمرصدٍ

والرابع: أن أسماء قالت: لما خرج أبو بكر مهاجرًا أخذ كل ماله معه، وكان ستة آلاف درهم. قالت: فدخل علينا جدي أبو قحافة، وكان قد ذهب بصره، فقال: إني أراه قد فجّعكم بماله مع نفسه، قالت: قلت له: كلا يا أبتٍ إنه قد ترك لنا خيرًا كثيرًا، وأخذت أحجارًا فوضعتها في كوة في البيت الذي كان أبي يضع ماله فيها، ثم وضعت عليها ثوبًا، ثم أخذت بيده فوضعتها عليها وقلت: يا أبت هذا المال الذي ترك لنا أبو بكر. فقال: إن كان ترك لكم هذا فقد أحسن، وفي هذا بلاغ^(٢) لكم. قالت أسماء بعد ذلك: والله ما ترك لنا شيئًا، وإنما أردت أن أسكن الشيخ بذلك لا غير.

(١) اشتريتها.

(٢) البلاغ: ما يُبلغ به في الحياة من مال أو طعام ونحوه.

○ عودة إلى مسابقة الركب الميمون :

وفي طريق الركب الميمون مروا بخيمة أم معبد، فسألوها طعاماً أو شرباً فلم يصيبوا عندها شيئاً، وكانت بكسر خيمتها شاة هزيلة خلفتها الغنم لهنزالها . فقال الحبيب الطيب : «هل بها من لبن؟» فقالت : هي أجهد من ذلك فقال : «هل تأذنين لي أن أحلبها؟» فقالت : بأبي أنت وأمي إن رأيت بها حلباً فاحلبها، فدعا بها رسول الله ﷺ فجاءت فمسح بيده ضرعها، وسمي الله تعالى ودعا لها في شأنها فتفاجت^(١) ودرت واجترت، ودعا بإناء يروي الرهط فحلب فيه ثَجًّا حتى علاه لبنها، ثم سقاها «أم معبد» حتى رويت، وسقى أصحابه حتى رويوا، وشرب آخرهم، وكيف لا، وهو القائل : «ساقى القوم آخرهم شرباً»^(٢) ثم بايع أم معبد على الإسلام وارتحل، وارتحل معه رفقة .

وها هو ذا أبو بكر الصديق يروي الحادثة التالية، وهي آية النبوة كآية در الشاة هي أعظم . قال رضى الله عنه : قال سراق بن مالك بن جعشم : لما خرج رسول الله ﷺ مهاجراً من مكة إلى المدينة جعلت قريش فيه مائة ناقة لمن رده عليهم، وبينما أنا جالس في نادي قومي، إذ أقبل رجل منا حتى وقف علينا، فقال : والله لقد رأيت رَكْبًا ثلاثة مروا علي أنفًا، إنني لأراهم محمدًا وأصحابه . فأومأت إليه أن اسكت، ثم أمرت بفرسي وسلاحي فأحضرا لي، وركبت وأنا أرجو أن أرده علي قريش وأخذ المائة ناقة، وركبت سائرًا في أثره حتى بدا لي القوم ورأيتهم، عثر بي فرسي فذهبت يده في الأرض، وسقطت عنه، ثم انتزع يده من الأرض وتبعهما دخان كأنه إعصار^(٣)، فعرفت حين رأيت ذلك أنه قد مُنِعَ مني وأنه ظاهر، فناديت القوم قائلاً : أنا سراق بن جعشم أنظروني أكلمكم فوالله لا أريكم^(٤) فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر : «قل له : وما تبغي منا؟» قال : خذ يا رسول الله سهمًا من كنانتي، وإن إبلي بمكان كذا فخذ منها ما أحببت، فقال له ﷺ : «لا حاجة لي بإبلك» فلما أراد سراق أن يرجع، قال له ﷺ : «كيف بك يا سراق إذا سوزت بسوازي»^(٥) قال سراق : كسرى بن هرمز؟ قال : «نعم» . وعاد سراق إلى مكة لا يلتقى أحدًا يريد رسول الله ﷺ إلا رده بقوله : كفيتم ما ههنا .

وواصل الركب الميمون سيره، يتقدمه الخريت بن الدليل حتى وصلوا إلى قباء ديار بني عمرو بن عوف يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول، فنزل رسول الله ﷺ علي كلثوم بن الهدم أخي ابن عمرو بن عوف، وكان عزبًا، فتنزل عليه الأعزاب من أصحاب رسول الله ﷺ المهاجرين، حتى قيل لبيته : بيت العزاب، ونزل أبو بكر على خبيب بن إساف

(١) فرجت بين رجلها .

(٢) رواه أبو داود .

(٣) ربح معها غبار .

(٤) أي لا ترون مني مكروهاً .

(٥) وقد تم ذلك يوم فتح فارس على يد عمر رضي الله عنه .

بالسُّنْح، ولحق علي الركب بعد أن أدى ودائع الناس، ووصل قباء بعد ثلاثة أيام من وصول الحبيب ﷺ إليها وقد تفتطرت قدماء حتى إنه لما دعا به رسول الله ﷺ قيل: إنه لا يقدر على المشي، فأتاه رسول الله ﷺ واعتنقه وبكى رحمةً به، وتفل في كفيه الطاهرتين ومسح بهما رجلتي علي، فشفني في الحال، ولم يشك قدميه حتى قتل رضى الله عنه وقد نزل علي على امرأة لا زوج لها فرأى رجالاً يأتونها بالليل فارتاب في أمرها فسألها فقالت الذي يأتيني هو سهل ابن حنيف؛ إنه رأي امرأة لا زوج لي فهو يكسر أصنام قومه ويحملها إلي ويقول احتطبي بها، فكان علي يذكر هذا لسهل بن حنيف بعد موته - رضي الله عنهم أجمعين - .

○ نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة نتائج وعبرًا نجملها فيما يلي:

- ١ - بيان خبث أبي جهل وشدته على المؤمنين - فلعن الله حيا وميتاً - .
- ٢ - بيان مدى ما بذلت قريش في سبيل قتل النبي ﷺ، والقضاء على الإسلام .
- ٣ - من الجن مؤمنون، وإن كلامهم ليسمع، وإن لم تُر ذواتهم .
- ٤ - فضل أم معبد، وهي عاتكة بنت خالد .
- ٥ - تجلّي آية النبوة المحمدية في ذرّ الشاة، وسقى الرسول ﷺ أهل بيت أم معبد وسائر أفراد رفقته .
- ٦ - تجلّي آية النبوة في سقوط فرس سراقه وعجزه عن الوصول إلى النبي ﷺ، وفي إخبار الرسول ﷺ له بأنه سيسور سيوارّي كسرى، وكان الأمر كما أخبر ﷺ .
- ٧ - تجلّي آية النبوة في شفاء علي فور مسح الرسول ﷺ رجله .

في طيبة دار الحبيب ﷺ

إن الثلاث عشرة سنة التي قضاها رسول الله ﷺ بمكة من مبعثه إلى يوم هجرته، كانت كلها آلاماً ودموعاً وأحزاناً، لم ينعم فيها رسول الله ﷺ بساعة سرور، أو يوم راحة قط . إلا أن العشر سنين التي قضاها بالمدينة كانت كلها جهاداً متواصلًا لم يفتّر شهرًا واحدًا ولم ينعم فيها رسول الله ﷺ بالراحة يومًا واحدًا، وكان شظف العيش فيها بالغًا أشدّه، فلم يشبع فيها رسول الله ﷺ، من خبز شعير مرتين في يوم واحد قط .

نعم . . . لقد كانت للحبيب ﷺ بدار الهجرة أيام مشرقة، إلا أن أكثر أيامها كانت محرقة، وهلم - إخوة الإيمان - نعيش بأرواحنا مع رسولنا وحبيبنا تلك السنين العشر التي عاشها ﷺ بالمدينة دار هجرته وحاضرة دولته، دولة الإسلام الخالدة، وسوف نشعر بأن السنين العشر ما كانت السنة الواحدة منها إلا عشر سنوات، فعشر السنين كانت وكأنها مائة سنة أو تزيد، وذلك لما تم فيها من جلائل الأعمال، وما تخللها من عظام الأمور . والله نسأل أن يرزقنا البكاء عند ذكر ما يبكي منها، وأن يرزقنا الفرح عند ذكر ما يفرح، فيكون ذلك شاهد حَبْنًا للحبيب ﷺ وآية إيماننا به

وعنوان إسلامنا لرنا وإحساننا في ديننا .

فهيا بنا نعيش الحبيب وصَحْبَهُ بأرواحنا وإن لم نعيشهم بأبداننا، لطول العهد، وفضل ما بيننا وبينهم، إذ هم كواكب مشرقة في السماء تنير الأرض لأهلها، وأما نحن فإنا ضعيفو الصلة بالسماء، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

الحبيب ﷺ بقاء

إنه قبل وصوله ﷺ إلى قباء - وهي ضاحية من ضواحي المدينة على ثلاثة أميال منها - كان رجال من الأنصار لما بلغهم خروج النبي ﷺ من مكة إذا صلوا الصبح خرجوا إلى ظاهر المدينة إلى الحرة الجنوبية ينتظرون طلوع رسول الله ﷺ عليهم فلا يبرحون ينتظرون حتى لم يبق ظل يستظلون به من حر الشمس، ثم يعودون إلى بيوتهم . ولما كان اليوم الذي وصل فيه رسول الله ﷺ كانوا قد خرجوا كعادتهم، وما إن عادوا إلى بيوتهم لارتفاع النهار وانعدام الظلال إلا وصائح يصيح بأعلى صوته: يا بني قيلة، هذا جدكم قد جاء . وكان الصائح رجلاً من اليهود كان قد علم بخروجهم كذا يوماً انتظاراً لقدم الرسول ﷺ، وتَسَبَّهَ إلى «قيلة»^(١) . وما إن سمعوا الصراخ حتى خرجوا كلهم وإذا برَسُولِ اللَّهِ ﷺ مع صاحبه مستظل بظل نخلة، وأكثرهم لم يكن قد رأى النبي ﷺ، وكان أبو بكر في سن رسول الله ﷺ، وركبهما الناس يسلمون عليهما، وما يعرفون رسول الله ﷺ من أبي بكر حتى زال الظل عن رسول الله ﷺ فقام أبو بكر فأظله بردائه فعرفوه عند ذلك . ونزل الحبيب على كلثوم ابن الهذم، ونزل الصديق على خبيب بن إساف كما تقدم .

أول عمل بقاء لرسول الله ﷺ

إن أول عمل إصلاحي خيري بقاء قام به النبي ﷺ بقاء، هو بناؤه مسجد بقاء في الفترة التي أقامها بين سكانها وهم بنو عمرو بن عوف بن مالك، والتي لم تتجاوز أسبوعاً واحداً .

وكان مسجد بقاء أول مسجد بني في الإسلام، وقد ذكره تعالى في كتابه وأثنى على أهله خيراً فقال تعالى من سورة التوبة: ﴿لَمَسْجِدَ أُتَيْسَ عَلَى الْتَفْوَيْ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨] .

وهنا بقاء أتى سلمان الفارسي الذي طالما انتظر مجيئه . جاءه من المدينة بكيس من التمر، وقال: هذا صدقة تصدقُ بها عليكم - وهو يريد بذلك اختباره - فقال الحبيب ﷺ: «إنا لا نأكل الصدقة» وأمره أن يتصدق بها على غيره، وانصرف سلمان وعاد في اليوم الثاني - ومعه تمر آخر - وقدّمه للرسول ﷺ، وقال: هذه هدية قدمتها لك، فقبلها ﷺ ودعا له بخير .

وهنا أعلن سلمان إسلامه، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله .

(١) القيل: الملك، والجمع: أقيال، والقيلة: الملكة، وقد تجمع على قيلات .

وسبب عمل سلمان هذا أنه علم من الكتب السابقة أن النبي محمدًا ﷺ من نعوته وصفاته أنه يقبل الهدية ولا يأكل الصدقة .

ولما قضى رسول الله ﷺ ما كتب الله له من أيام في قباء بديار بني عمرو بن عوف سار إلى المدينة ، وفي طريقه أدركته صلاة الظهر بديار بني سالم بن عوف ، وكان اليوم يوم الجمعة فصلى بهم الجمعة وخطبهم في مسجدهم ببطن الوادي «رانونا» فكانت أول جمعة صليت في الإسلام . وركب الحبيب ﷺ راحلته فأناه عتبان بن مالك وعباس بن عباد في رجال من بني سالم وقالوا له : يا رسول الله ، أقم عندنا حيث العدد والعدة والمنعة ، وهم ممسكون بخطام ناقته لينبخروها ، فقال لهم : «دعوها فإنها مأمورة» ، وواصل سيره إلى طيبة طابت مغانيها ، وسلام على ساكنيها .

○ نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرًا نوجزها في الآتي :

- ١ - بيان أن مسجد قباء كان أول مسجد بني في الإسلام .
- ٢ - بيان كيفية معرفة سلمان للنبي ﷺ وذلك بما أجرى من اختبار عليه بالصدقة والهدية لعلمه السابق أن من صفات نبي آخر الزمان أنه يقبل الهدية ولا يأكل الصدقة .
- ٣ - بيان أن أول جمعة صليت في الإسلام هي تلك التي صلاها رسول الله ﷺ في مسجد بني سالم بن عوف ببطن وادي «رانونا» .
- ٤ - عَرَضُ بني سالم على النبي ﷺ الإقامة بينهم وترغيبه في ذلك وذكرهم لكثرة رجالهم وسلاحهم ومنعتهم الحربية يعتبر موقفًا مشرفًا خالدًا لهم - رضي الله عنهم وأرضاهم - .

استقبال الأنصار للحبيب ﷺ وعظيم

فرحهم وحفاوتهم به

إنه ما إن ركب ﷺ راحلته ، وسارت به من ديار بني سالم متجهة نحو المدينة ، وأهل كل دار من دور الأنصار يمر بها إلا ويستقبله رجالها قائلين : هَلُمَّ إلينا يا رسول الله ، إلى العدد والعدة والمنعة - وهم ممسكون بخطام ناقته - وهو يقول : «دعوها فإنها مأمورة» .

وخرج أهل المدينة لاستقبال الحبيب ﷺ عَنْ بكرة أبيهم ، فامتألت بهم الطرق ، وظهروا على سطوح المنازل نسأة وأطفالاً ورجالاً وهم يقولون : الله أكبر جاء رسول الله ، الله أكبر جاء محمد ، الله أكبر جاء رسول الله ، والنساء والصبيان يضربون بالدفوف وينشدون :

طلع البدر علينا	من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا	ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا	جئت بالأمر المطاع
جئت شرفت المدينة	مرحبًا يا خير داع

وواصل الحبيب سيره في تلك الحشود الحاشدة، والجموع المتجمعة في هذا اليوم التاريخي العظيم الذي قال فيه أنس بن مالك: لقد رأيتُ اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ علينا، واليوم الذي قبض فيه فلم أرَ يومين مثلهما قط. حتى انتهى إلى قرب دار أبي أيوب الأنصاري، فبركت - والرسول ﷺ مُرخ الزمام لها - ثم وثبت فسارت غير بعيد، ثم بركت وتلحلت^(١) وضربت بجوانها^(٢) في الأرض، فنزل عنها الحبيب ﷺ فاحتمل أبوأيوب الرحل فوضعه في بيته، ونزل النبي ﷺ بداره؛ لأنه أحد أحوال أبيه من بني النجار.

ونزل رسول الله ﷺ بالسفل من الدار، وأبوأيوب وأم أيوب بالعلوي، فأكلم ذلك أباأيوب، فقال: يا رسول الله إني أكره أن أكون فوقك وتكون تحتي، فأظهر أنت فكن في العلوي ونزل نحن فنكون في السفلي، فقال رسول الله ﷺ: «يا أباأيوب، إن أرفق بنا وبين يغشانا أن أكون في أسفل البيت» وبذلك طابث نفس أبي أيوب رضى الله عنه.

وكان أبوأيوب يصنع للرسول ﷺ الطعام، فإذا أكل منه ﷺ وأخذ وقدم لأبي أيوب ليأكل منه، فكان رضى الله عنه يسأل عن موضع أصابع رسول الله ﷺ ليتبع موضع أصابعه فيأكل منه؛ رجاء البركة. فصنع له يوماً طعاماً فيه ثوم، فلما رُدَّ إليه سأل عن موضع أصابع رسول الله ﷺ فقيل له: لم يأكل، ففزع، وأتى رسول الله ﷺ فقال: أحرام؟ فقال: «لا ولكني أكره ذلك». وهذا لأنه يناجي المَلَك، وغيره لا يناجي.

ومبرك الناقة كان مربداً ليتيمين، وكان فيه نخل وبعض قبور، فسأل عنه فقال له معاذ ابن عفراء، يا رسول الله هو ليتيمين لي وسأرضيهما منه، فاتخذ رسول الله ﷺ مسجداً.

○ نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج نجملها في الآتي:

- ١ - بيان عظم فرحة الأنصار بمقدم الرسول ﷺ، وما أبدوه من حفاوة وترحيب لم يسبق لهما نظير في التاريخ البشري قط.
- ٢ - بيان آية الناقة في سيرها وبروكها لقوله ﷺ: «دعوها فإنها مأمورة».
- ٣ - بيان فوز أبي أيوب خالد بن زيد بنزول الرسول ﷺ بداره، وإقامته بها حتى بنى مسجده، وحجرات نسائه بإذنه.
- ٤ - بيان أدب أبي أيوب وكمال حبه لرسول الله ﷺ إذ لم تطب نفسه أن يسكن في أعلى المنزل والرسول ﷺ في أسفله.
- ٥ - مشروعية التماس البركة من آثار النبي ﷺ - إن وجدت - كسُورِه وشعره وريقه وثيابه، وما إلى ذلك.

(١) ترحلت. (٢) الجران: باطن العنق من البعير أي ثبتت واستقرت.

(١) ترحلت.

بناء المسجد النبوي وفضله وشرف المدينة وأهلها

إنه ما إن بركت الناقة وضربت بجرانها من مساء يوم الجمعة من شهر ربيع الأول، حتى سأل رسول الله ﷺ عن المرید^(١) الذي بركت فيه الناقة لمن هو؟ وقال: «يا معشر الأنصار ثامنوني بحائطكم هذا؛ لأتخذ مسجداً». وقال معاذ ابن عفراء: هو ليتيمين لي، هما سهل وسهيل ابني عمرو وسأرضيهما، فاتخذ مسجداً.

وأمر ﷺ أصحابه بالشروع في العمل، وتقذّمهم لذلك؛ تشجيعاً لهم واندفعوا - مهاجرين وأنصاراً - يعملون حتى قال قائلهم:

لئن قعدنا والنبي يعمل لذاك ممّا العمل المفضل
وكان بالمرید قبور مشركين ونخل وخراب، فأمر بالنخل فقطع، وبالخراب فسوي وبالقبور، فنيشت، وأخذوا ينقلون الحجارة، وهم يرتجزون:

اللهم لا خير إلا خير الآخرة فارحم الأنصار والمهاجرة
والرسول ﷺ ينقل الحجارة ويقول: «لا عيش إلا عيش الآخرة، اللهم ارحم المهاجرين والأنصار». وارتجز علي قاتلاً:

لا يستوي من يعمر المساجدا يدأب فيه قائما وقاعدا
ومن يرى عن الغبار حائدا

فأخذ عمار بن ياسر يرتجزها، فظن أحد الأصحاب أنه يعنيه بها تعريضاً به، فقال لعمار: يا ابن سمية والله إنني لأراني سأعرض هذه العصا لأنفك. فسمع ذلك رسول الله ﷺ فغضب وقال: «ما لهم ولعمار! يدعوه إلى الجنة ويدعونه إلى النار» وتم بناء المسجد بالحجارة، وكان سف جريد النخل، وبني بإزائه حجرات نسائه ﷺ.

وكان هذا المسجد المبارك أحد المساجد الثلاثة التي لا تشد الرحال إلا إليها، وذلك لفضل واستواء سائر المساجد في الفضل دونها، فقد قال الحبيب ﷺ: «لَا تُشَدُّ الرَّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثِ مَسَاجِدَ: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى» وقال ﷺ في بيان فضله: «صلاة في مسجدي هذا بألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام» وقال: «من أتى مسجدي هذا، لا يأتيه إلا لخير يعلمه أو يتعلمه، كان كالمجاهد في سبيل الله». وقال: - فداء أبي وأمي - ﷺ: «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة».

أما عن شرف المدينة وأهلها، فحسبنا أن نورد بعض ما ورد وصح في بيان فضلها وفضل أهلها. ومن ذلك:

قوله ﷺ: «إن الإيمان ليأرز^(٢) إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها».

(١) المرید: ما يجفف فيه التمر، ومحبس الحيوان. (٢) في الصحيح.

وقوله ﷺ: «أمرت بقرية تأكل القرى، يقولون: يشرب، وهي المدينة تنفي الناس كما ينفي الكبير خبث الحديد».

ولو صح حديث: «اللهم إنك أخرجتني من أحب البلاد إلي فأسكنني في أحب البلاد إليك» ولم يعارض بحديث:

«والله إنك خير أرض الله، وأحب أرض الله إلي، ولولا أني أخرجت^(١) منك ما خرجت»، لكانت المدينة أفضل من مكة - كرمها الله.

ومما يزيد المدينة حباً في قلوب المؤمنين ورغبة في المقام بها حتى الموت: قوله ﷺ: «من استطاع أن يموت بالمدينة فليمت بها؛ فإني أكون له شاهداً أو شفيعاً يوم القيامة» عرف هذا عمر رضي الله عنه فكان يدعو ويقول: اللهم إني أسألك شهادة في سبيلك وموتاً في بلد رسولك.

وحسب المدينة شرفاً وفضلاً أن أصبحت داراً للرسول ﷺ بها مسجده وفيها قبره، ومنها مبعثه.

وأما أهل المدينة - وهم الأنصار - فشرفهم كان بمسارعتهم للإيمان، وإيواء الرسول والمؤمنين، ونصرتهم، ومقاسمتهم العيش معهم. أثنى الله تعالى عليهم بقوله: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُخَيِّطُونَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُرِيدُونَ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الفتح: ٩]. وقرر الرسول ﷺ شرفهم وفضلهم في أحاديث كثيرة منها قوله ﷺ: «آية الإيمان حب الأنصار، وآية النفاق بغض الأنصار». وقوله: «الأنصار لا يجهنم إلا مؤمن، ولا يبغضهم إلا منافق، فمن أحبهم أحبه الله، ومن أبغضهم أبغضه الله». وقوله ﷺ: «لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار، ولو سلك الأنصار وادياً وشعباً لسلكت وادي الأنصار وشعبهم، الأنصار شعار^(٢)، والناس دثار».

ولنستمع إلى شاعر^(٣) الأنصار يقول ويذكر بما أكرمهم الله تعالى به من الإسلام، وما خصهم به من هجرة رسوله إليهم ونصرهم له، وبذل الرخيص والغالي له ﷺ ليأمن ويعز ويتنصر:

ثوى في قريش بضع عشرة حجة	يذكر لو يلقى صديقاً موالياً
ويعرض في أهل المواسم نفسه	فلم ير من يؤوي ولم ير داعياً
فلما أتانا أظهر الله دينه	وأصبح مسروراً بطيبة راضياً
وألفى صديقاً واطمأنت به الثوى	وكان له عوناً من الله بادياً
يقص لنا ما قال نوح لقومه	وما قال موسى إذ أجاب المنادياً
فأصبح لا يخشى من الناس واحداً	قريباً ولا يخشى من الناس نائياً

(١) صحيح الإسناد.

(٢) الشعار: الثوب يلي الجسد، والدثار فوقه.

(٣) هو أبو قيس صرمة بن أبي أنس الأنصاري.

بذلنا له الأموال من أجل مآلنا^(١) وأنفسنا عند الوغى والتآسبى
نعادي الذي عادى من الناس كلهم جميعاً ولو كان الحبيب الموسابى
○ نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة نتائج وعبراً نذكرها فيما يأتي:

- ١ - بيان تاريخ بناء المسجد النبوي الشريف، وبنائه أول عمل قام به النبي ﷺ في المدينة.
- ٢ - بيان فضل المسجد النبوي الشريف.
- ٣ - بيان فضل المدينة النبوية (على صاحبها أفضل وأزكى السلام).
- ٤ - بيان فضل الأنصار، وهم سكان المدينة الذين آووا ونصروا.
- ٥ - بيان فضل العيش في المدينة والوفاء فيها.

جهود الحبيب ﷺ في الإصلاح

والتأسيس والبناء بالمدينة النبوية

إنه من ساعة حلوله بالمدينة أخذ ﷺ على عاتقه مهمة الإصلاح والتأسيس والبناء للمجتمع المسلم والدولة الإسلامية الوارثة لأكبر دولتين عالميتين - وهما دولة الفرس ودولة الروم - وبتتبع الخطوات التالية تتجلى هذه الحقيقة وتتأكد بإذن الله تعالى:

○ الخطوة الأولى:

إن أول خطوة كانت في الإصلاح والبناء والتأسيس بناء المسجد النبوي الشريف والحجرات الطاهرات.

○ الخطوة الثانية:

إنها استقدام الأسرتين الشريفتين أسرة الحبيب ﷺ وأسرة الصديق رضى الله عنه. إنه لما كان عبد الله بن أريقط الخبير بالطرق استأجره الرسول ﷺ مع صاحبه في هجرتهما عائداً إلى مكة المكرمة بعث معه الرسول ﷺ زيد بن حارثة ومولاه أبارافع بمال ورواحل، وأمره أن يأتي ببقية أسرته الشريفة، فجاء فعلاً ببناته الطاهرات فاطمة وغيرها ما عدا زينب فإنها تحت أبي العاص ابن الربيع كما جاء بسودة بنت زمعة إحدى أمهات المؤمنين، وكذلك فعل الصديق إذ بعث في طلب أسرته. فجاء بها ولده عبد الله بن أبي بكر، ومن بينهم عائشة أم المؤمنين كما جاء بأم أيمن زوج زيد مولى رسول الله ﷺ، وبهذا استقر النبي ﷺ بالمدينة دار هجرته، والتي أصبحت تُعرفُ به فيقال: المدينة النبوية.

(١) يشير إلى أحد بنود البيعة حيث قالوا: إن نحن بايعناك على النصرة فما لنا نحن؟ قال: «الجنة» هذا الذي لهم وما أعظمه إنه الجنة دار السلام.

○ الخطوة الثالثة :

الاتصال باليهود بواسطة عبد الله بن سلام رضى الله عنه، ودعوتهم إلى الإسلام . إنه ما إن نزل ﷺ بطيبة حتى جاءه عبد الله بن سلام أحد أحبار اليهود بالمدينة ليمتحنه في صدق نبوته وصحة رسالته، فيسأله الأسئلة التالية: فيقول له: إني سأتلك عن ثلاثة لا يعلمهن إلا نبي وهي: ما أول أشراف الساعة؟

ما أول طعام يأكله أهل الجنة؟

ما بال الولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمه؟

فأجابه الحبيب ﷺ قائلاً: «أخبرتني بهن جبريلُ أنفاً». فقال عبد الله: جبريل؟ فقال النبي ﷺ: «نعم» قال عبد الله: هو عدو اليهود من الملائكة، وأخذ الرسول ﷺ يشرح مضمون الأسئلة فقال: «أما أول أشراف الساعة فنارٌ تخرج على الناس من المشرق تسوقهم إلى المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت، وأما الولد فإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد إلى أبيه، وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزع الولد إلى أمه».

وهنا قال عبد الله بن سلام: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنك رسول الله.

ولما أسلم عبد الله بن سلام وحسن إسلامه كانت الفرصة مواتية للاتصال باليهود ودعوتهم إلى الإسلام، فقال عبد الله: يا رسول الله، إن اليهود قومٌ بُهت، وهم يعلمون أنني سيدهم وابن سيدهم، وأعلمهم وابن أعلمهم، فادعهم فسلهم عني قبل أن يعلموا أنني قد أسلمت، فإنهم إن يعلموا أنني قد أسلمت، قالوا في ما ليس في. فأرسل النبي ﷺ إلى اليهود فدخلوا عليه فقال لهم: «يا معشر يهود، ويلكم اتقوا الله، فوالله الذي لا إله إلا هو إنكم تعلمون أنني رسول الله حقاً وأني جئتكم بحق فأسلموا» فأجابوا قائلين: ما نعلمه، فأعاد ﷺ دعوتهم إلى الإسلام ثلاث مرات، ثم قال لهم: «فأي رجل فيكم عبد الله بن سلام؟» قالوا: ذاك سيدنا وابن سيدنا، وأعلمنا وابن أعلمنا. قال: «أفرايتم إن أسلم؟» قالوا: حاشا لله، ما كان ليسلم وهنا قال الحبيب ﷺ: «يا ابن سلام اخرج عليهم» فخرج فقال: يا معشر يهود اتقوا الله فوالله الذي لا إله إلا هو، إنكم تعلمون أنه رسول الله، وأنه جاء بالحق. فلما سمعوا هذا القول قالوا: شرتنا وابن شرتنا وتنقصوه فأخرجهم الرسول ﷺ. وقال عبد الله لرسول الله ﷺ: هذا الذي كنت أخاف، وكان عبد الله بن سلام يقول: لما دخل الرسول ﷺ المدينة نظرت إلى وجهه فعرفت أنه ليس بوجه كذاب، وكان أول شيء سمعته منه قوله ﷺ: «أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا بالليل والناس نيام: تدخلوا الجنة بسلام».

○ الخطوة الرابعة :

وضعه ﷺ ميثاقاً للمهاجرين والأنصار متضمناً موادة اليهود بالمدينة. إن من أبرز الجهود

التي بذلها الحبيب ﷺ في الإصلاح والتأسيس والبناء: كتابه الذي كتبه فضّمته ميثاقاً في غاية الدقة، وحسن السياسة، فألف بين سكان المدينة من الأنصار والمهاجرين وجيرانهم من طوائف اليهود، وربط بينهم فأصبحوا به كتلة واحدة يستطيعون أن يقفوا في وجه كل من يريد أهل المدينة بسوء. وهذه ديباجة الكتاب المذكور وبعض ما حواه من مواد الميثاق الذي اشتمل عليه.

بسم الله الرحمن الرحيم

«هذا كتاب من محمد النبي الأمي بين المؤمنين والمسلمين من قریش ويثرب - ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم - أنهم أمة واحدة من دون الناس» إلى آخر كتابه ﷺ المتضمن لأعظم ميثاق عرفه الناس. وهذا بعض ما جاء فيه من مواد في غاية الأهمية:

- إن المؤمنين لا يتركون مَفَرَّحًا^(١) بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء وعقل.
- لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه.
- إن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى ذبيحة ظُلم أو إثم أو عدوان، أو فساد بين المؤمنين، وإن أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولد أحدهم.
- لا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر، ولا ينصر كافراً على مؤمن، وإن ذمة الله واحدة، يجير عليهم أدناهم.
- إن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس، وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا مُتَنَاصِر عليهم.
- إن يبْلَمَ المؤمن واحد، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم.
- من اغتبط مؤمناً قتلاً عن بيته فإنه قَوْدٌ به إلا أن يرضى ولي المقتول. وإن المؤمنين عليه كافة، ولا يحل لهم إلا قيام عليه.
- إن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم أو أثم فإنه لا يوتغ^(٢) إلا نفسه وأهل بيته.
- إن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة، والبر دون الإثم، وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه، وإن النصر للمظلوم، وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم.
- إنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة، وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر مُخَدَّثًا، ولا يؤويه، وإنه من نصره أو آواه، فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل.

(١) المَفَرَّح: المقل بالذئب الكثير.

(٢) لا يوتغ: أي لا يوبى ولا يهلك إلا نفسه وأهل بيته.

«وإنكم - مهما اختلفتم فيه من شيء - فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله ﷺ» .
 ○ الخطوة الخامسة :

هي مؤاخاته ﷺ بين المهاجرين والأنصار .

إن من الرشد والكمال النبوي ، والنضج السياسي ، والحكمة المحمدية خطوة الحبيب ﷺ في المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار في ظرف كان المهاجرون فيه أحوج ما يكونون إلى ما يخفف عنهم آلام الغربة والفاقة والفرقة إذ تركوا ديارهم وأموالهم وأهلهم ، وحلوا ببلد لم يكن ليتسع حتى لأهله فضلاً عن النازحين إليه .

وبهذه المؤاخاة التي آخى فيها الرسول الحكيم بين المهاجرين والأنصار ، والتي كان الأنصاري فيها يقول لأخيه المهاجر : انظر إلى أعجب نسائي إليك أطلقها فإذا انتهت عدتها تزوجتها ، بهذه المؤاخاة كان المجتمع المدني قد التزم بعضه ببعض ، وأصبح جسماً واحداً ينهض بكل عبء يلقي عليه . وبذلك أعده الرسول الحكيم لتحمل عبء إعلان الحرب على الأبيض والأصفر ، وقتال القريب والبعيد من كافة أهل الشرك والكفر .

وهذا أنموذج مصغر من تلك المؤاخاة :

أخوان المهاجر	أبو بكر الصديق
الأنصاري	خارجة بن زهير
أخوان المهاجر	أبو عبيدة عامر بن الجراح
الأنصاري	سعد بن معاذ
أخوان المهاجر	عبد الرحمن بن عون
الأنصاري	سعد بن الربيع
أخوان المهاجر	عمر بن الخطاب
الأنصاري	عتبان بن مالك
أخوان المهاجر	عثمان بن عفان
الأنصاري	أوس بن ثابت
أخوان المهاجر	طلحة بن عبيد الله
الأنصاري	كعب بن مالك
أخوان المهاجر	سلمان الفارسي
الأنصاري	أبو السرداء
أخوان المهاجر	بلال بن رباح
الأنصاري	أبو رويحة

وما هي ذي الكلمة الطيبة التي قالها الحبيب ﷺ فتمت بها المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، إنها هي قوله - فداه أبي وأمي والناس أجمعون - :
«إن إخوانكم قد تركوا الأموال والأولاد وخرجوا إليكم».

وما إن قالها حتى قال الأنصار: أموالنا بيننا قطائع. فقال رسول الله ﷺ: «أو غير ذلك؟» فقالوا: وما ذاك يا رسول الله قال: «هم قوم لا يعرفون العمل فتكفونهم العمل، وتقاسمونهم الثمر». قالوا: نعم. وبعدها قال المهاجرون: يا رسول الله ما رأينا مثل قوم قديمنا عليهم أحسن مواساة في قليل، ولا أحسن بذلاً من كثير، لقد كفونا المثونة وأشركونا في المهنة، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله. فقال الحبيب ﷺ: «لا، ما أثنيتم عليهم ودعوتهم الله لهم». هكذا كانت المؤاخاة في ظروف الحاجة، ولما وسع الله على المسلمين نسخ التوارث بها، وأقر المودة والحب بينهم. فقال تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْثَاءِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ تَرَوفًا كَذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ [الأحزاب: ٦].

○ نتائج وعبر:

إن لهذه الخطوات الخمس في السيرة العطرة نتائج وعبرًا نجملها في الآتي:

- ١ - المسجد في الإسلام هو المنطلق لكل خير وكمال تطلبه الأمة المسلمة، إذ فيه تعالج أمراض الجهل وسوء الخلق، والملكات السيئة في بعض الأفراد.
- ٢ - تظهر الحكمة المحمدية في كل خطوة من هذه الخطوات الخمس.
- ٣ - المواد التي اشتمل عليها الميثاق الذي تضمنه كتاب رسول الله ﷺ للمهاجرين والأنصار دالة على ما كان يتمتع به الحبيب ﷺ من العلم والحكمة وحسن السياسة والرشد العام فيها.
- ٤ - المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، وكتاب الميثاق وما اشتمل عليه من مواد إصلاحية وسياسية الكل: دالٌّ رصوح على أن هناك توقُّعاً لحرب قد يطول مداها، وكذلك فقد دامت زهاء عشر سنوات أي إلى^١ - . نتحق الحبيب ﷺ بالرفيق الأعلى. وخاضها بعده خلفاؤه وتابعوهم، وستبقى الحرب وتستمر بين الشرك والتوحيد، والإيمان والكفر ما بقيت فتنة، ووُجد من يعبد غير الله تعالى. مصداق هذا قوله تعالى من سورة الأنفال: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩].



أحداث بعضها مفرح، وبعضها محزن

ما زالت سنة هجرة الحبيب ﷺ الأولى لم تكتمل، وما زالت الأحداث والوقائع فيها تتجدد. وهذه بعض تلك الأحداث نذكرها تحت عناوينها.

○ الصلاة والأذان:

من المعلوم أن النبي ﷺ كان قبل الإسراء والمعراج يصلي هو والمؤمنون معه ركعتين في الصباح وركعتين في المساء، لقوله تعالى في خطابه ﷺ: ﴿قَاصِرَ إِيكُ وَعَدَ اللَّهِ حَقٌّ وَسْتَقْفِرُ لِدُنْيَاكَ وَسَيَحْ يَحْمَدُ رَبَّكَ يَا مَعْشَرَ الْإِيْمَانِ﴾ [فاطر: ٥٥]. ولما أُسْرِيَ به ﷺ إلى بيت المقدس، وعرج به إلى الملكوت الأعلى فرض الله تعالى عليه وعلى أمته الصلوات الخمس، نزل جبريل - عليه السلام - فصلى بالرسول ﷺ عند الكعبة، فعلمه كيفية الصلوات الخمس، وبين له أوقاتها الاختيارية، والضرورية. ولما هاجر إلى المدينة بعد ثلاث سنوات من فرض الصلوات الخمس، نزلت الرخصة بقصر الرباعية إلى ركعتين في السفر كما كانت ركعتين قبل الإسراء والمعراج، وهذا معنى قول أم المؤمنين عائشة و في حديث البخاري: إن الصلاة نزلت ركعتين ركعتين، فزيدت في الحضر وأُزِّت في السفر؛ إذ نزلت الرخصة بقصر الرباعية على ركعتين في قول الله تعالى من سورة النساء: ﴿وَلَا تَرْتَمُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحُكُمْ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ أَتَيْنَ كَذِبًا كَذِبًا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا أَكْثَرًا عَدُوًّا مُبِينًا﴾ [النساء: ١٠١].

هذه هي الصلاة^(١) أما الأذان: فإنه بعد أن استقر الحبيب ﷺ بالمدينة وبنى مسجده فيها «وأصبح المسلمون» يجتمعون فيه للصلاة، وكانوا يأتون وقت الصلاة بدون إعلام فيصلون وينصرفون، ويأتون في الوقت التالي للأول وهكذا، ثم رأى الرسول ﷺ أنه ينبغي أن يكون هناك ما يعلم به المسلمون دخول وقت الصلاة وقرب إقامتها، فاستشار أصحابه، فأشاروا عليه بالبوق، فكرهه؛ لاستعمال اليهود له، وأشاروا بالنافوس، فكرهه أيضا؛ لاستعمال النصارى له، وانصرفوا ولم يتفقوا على شيء. فنام عبد الله بن زيد الأنصاري الخزرجي فرأى أن رجلاً عليه ثوبان أخضران يحمل ناقوساً في يده، فقلت له: يا عبد الله أتبيع هذا الناقوس؟ فقال: وما تصنع به؟ قلت: ندعو به إلى الصلاة. قال: ألا أدلك على خير من ذلك؟ قلت: وما هو؟ قال تقول: الله أكبر، الله أكبر. أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله. أشهد أن محمداً رسول الله، أشهد أن محمداً رسول الله. حي على الصلاة، حي على الصلاة، حي على الفلاح، حي على الفلاح. الله أكبر، الله أكبر. لا إله إلا الله. فأنبأها الرسول ﷺ فقال: «إنها رؤيا حق إن شاء الله، فقم مع بلال فأنطقها عليه؛ فإنه أندى صوتاً منك».

(١) هذه المسألة مما كثر فيها الخلاف والكلام، وما ذكرته فيها أقرب إلى الحقيقة فيما ظهر لي، والله أعلم.

فلما أذن بلالٌ سمعه عمر بن الخطاب - وهو في بيته - فخرج إلى رسول الله ﷺ وهو يجرد رداءه ويقول: يا نبي الله، والذي بعثك بالحق لقد رأيت مثل الذي رأي، فقال الحبيب ﷺ: «فلله الحمد»، وزاد بلال في أذان الفجر «الصلوة خير من النوم» فأقرّ عليها. وعلم رسول الله ﷺ بلالاً الإقامة فقال له: «وإذا أقمت للصلاة تقول: الله أكبر، الله أكبر. أشهد أن لا إله إلا الله. أشهد أن محمداً رسول الله. حي على الصلاة. حي على الفلاح. قد قامت الصلاة، قد قامت الصلاة. الله أكبر، الله أكبر. لا إله إلا الله».

○ نتائج وعبر:

- ١ - إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نوردها إزاء الأرقام التالية:
- ١ - تقرير أن الصلاة كانت قبل الإسراء والمعراج عبارة عن ركعتين في أول النهار وركعتين في آخره، ثم فرضت كما هي الآن: الظهر أربع ركعات والعصر أربع، والمغرب ثلاث، والعشاء أربع، والصبح ركعتان، ثم قصرت «رخصة» الرباعية إلى ركعتين في السفر سواء أكان مع السفر خوف أم لم يكن.
- ٢ - رؤيا المؤمن صالحة، وتحمل البشوى له وللمن رؤيت له.
- ٣ - بيان صيغة الأذان والإقامة، وفضل عبد الله بن زيد، وعمر بن الخطاب لرؤياهما الأذان في المنام.

٤ - مشروعية مخالفة اليهود والنصارى.

٥ - بيان فضل بلال، وأنه أول مؤذن في الإسلام.

○ وفاة كلثوم بن الهمد، وأسعد بن زرارة رضى الله عنهما:

ومن أحدث هذه السنة المؤلمة المحزنة وفاة كلثوم بن الهمد الرجل الذي أسلم قبل مقدم الرسول ﷺ إلى المدينة. ولما نزل ﷺ مهاجراً من مكة إلى قباء، نزل في منزله فشرفه الله تعالى بنزول صفيه وخيرته من خلقه في منزله ولم يلبث كلثوم بن الهمد إلا قليلاً - وكان رجلاً مسناً - حتى مات، فإلى رحمة الله ورضوانه ابن الهمد.

ومات بعد كلثوم أبوأمامة أسعد بن زرارة أحد النقباء وهو أول من بايع الرسول ﷺ ليلة العقبة الثانية، وكانت وفاته بسبب ذبحة صدرية. ولما مات قال اليهود والمنافقون: لو كان محمد نبياً لما مات صاحبه، فسمع ذلك رسول الله ﷺ فقال: «إني لا أملك لنفسي ولا لصاحبي من الله شيئاً».

وطلب بنو النجار من النبي ﷺ - بعد أن مات أبوأمامة نقيبهم - أن يقيم لهم نقيباً آخر، فقال لهم: «أنتم أخوالي وأنا بما فيكم، وأنا نقيبكم». فكانت هذه منقبة لبني النجار يعتدّون بها على قومهم، وترك النبي ﷺ تعيين أحد منهم كراهية

أن يفضل بعضهم على بعض فخصصهم بفضيلة عامة لهم جميعاً وهي كونه ﷺ نقيباً لهم، وهذا من الحكمة المحمدية والرشد والنصح السياسي. اللهم صل على محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

○ نتائج وعبر:

من نتائج هذه المقطوعة من السيرة العطرة ما يلي:

- ١ - موت فضلاء الرجال يعد رزية تؤلم المؤمنين وتحزنهم.
- ٢ - بيان أن النبي ﷺ لا يملك لنفسه ولا لغيره نفقاً ولا ضرراً إلا ما شاء الله تعالى.
- ٣ - تجلي مظاهر الرشد والحكمة والسياسة المحمدية التي لا يجاري فيها أبداً.

○ أول مولود للمهاجرين بالمدينة:

ومن أحداث هذه السنة الأولى من هجرة الحبيب ﷺ المفروحة ولادة عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما.

فقد جاءت أسماء إلى المدينة مهاجرة ضمن أسرة الصديق - وهي مُمَيِّمٌ^(١) - فما إن نزلت بقباء حتى وضعت عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما فجاءت به إلى رسول الله ﷺ بالمدينة فحنَّكه بأن أخذ ثمرة فمضغها، ثم أدخلها في فم الطفل فكان أول شيء دخل جوفه ريقه رسول الله ﷺ، ودعا له بالبركة وكثير أصحاب رسول الله ﷺ فرحوا بهذا المولود الذي كان أول مولود يولد للمهاجرين في الإسلام كما كان النعمان بن بشير أول مولود وُلد في الإسلام للأنصار.

وبذا أخرج الله ألسنة اليهود؛ إذ ادعوا أن المسلمين قد سحروا، فلذا لم يولد لهم، فأكذبهم الله في دعواهم بولادة عبد الله بن الزبير، وولادة النعمان بن بشير الأنصاري - رضي الله عنهم أجمعين -.

○ نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نذكرها فيما يأتي:

- ١ - بيان أن اليهود من دأبهم ترويض الشائعات الباطلة والمفوضة.
- ٢ - تقرير أن اليهود يتعاطون السحر وهم أعلم به من غيرهم.
- ٣ - فضيلة أسماء بنت الصديق ولدها عبد الله بتحنيك رسول الله ﷺ له.
- ٤ - جواز الفرح بفضل الله والتكبير عند حصول النعمة ورؤية الخير.
- ٥ - معرفة أول مولود ولد في الإسلام للمهاجرين والأنصار. وهما عبد الله والنعمان.

○ بناء النبي ﷺ بأحب نسائه إليه:

ومن أحداث هذه السنة الأولى المفروحة بناء النبي ﷺ بزوجه عائشة بنت أبي بكر الصديق (١) أي مقاربة للولادة.

رضى الله عنهما؛ إذ كان قد عقد عليها ﷺ بمكة قبل الهجرة، وذلك بعد وفاة خديجة رضى الله عنهما وكان عمرها إذا ذاك ست سنوات، وفي شوال من هذه السنة المباركة بنى رسول الله ﷺ بعائشة بدار أبيها بالشُّحْ نهارًا وهي بنت تسع سنوات، وكان بعض الناس يتشاءمون بالبناء بين العيدين، فردت عليهم عائشة بقولها: تزوجني رسول الله في شوال، وبني بي في شوال. فأى نساء رسول الله ﷺ كان أحظى عنده مني؟

وهو كما قالت؛ فقد روى البخاري عن عبد الله بن عمرو بن العاص قوله: سألت رسول الله ﷺ عن أحب نسائه إليه فقال: «عائشة» وعن أحب أصحابه إليه فقال: «أبوها» أي أبوبكر. وفي دخول الحبيب ﷺ على عائشة بالنهار ردُّ على ما اعتاده الناس من الدخول بالليل دون النهار.

○ نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة نتائج وعبرًا نجملها كالآتي:

- ١ - جواز العقد على البنت قبل بلوغها دون الدخول بها.
- ٢ - فضل عائشة على سائر النساء بحب الرسول ﷺ لها أكثر من غيرها.
- ٣ - جواز الدخول على العروس نهارًا، ولا معنى لتخصيص ذلك بالليل.
- ٤ - إبطال وَهْم من توَهَّم شَوْم الزواج والبناء بين العيدين الفطر والأضحى.
- ٥ - فضل أبي بكر الصديق لحب الرسول ﷺ له أكثر من أصحابه.

آخر أحداث هذه السنة سرايا يبعث بها النبي ﷺ

إنه بعد أن أصبحت المدينة - وكأنها دار إسلام محضة على الرغم ممَّن فيها من المشركين، والمنافقين واليهود حيث أصبح للمؤمنين فيها شوكة وقوة لا يستهان بها - أذن الله تعالى للمسلمين بالقتال، وذلك في قوله تعالى من سورة الحج: ﴿أُوذِنَ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ أَنَّهُمْ مُلْحَمُونَ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴿[الحج: ٣٩-٤٠].

وعملًا بهذا الإذن الإلهي أخذ الرسول ﷺ يبعث بالسرايا لتعقب قوافل المشركين التجارية؛ لعله يظفر بأموالهم التي أصبح المسلمون أحقَّ بها وأولى منهم بمثلها، فبعث أول سرية، هي سرية حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ، وعقد له لواء أبيض - وهو أول لواء أو راية عقدت في الإسلام - وبعث معه ثلاثين رجلًا من المسلمين المهاجرين، وذلك ليعترض عبر قريش التجارية المارة بسيف البحر التي كان عليها أبوجهل في ثلثمائة رجل من قريش. ولم يقع بينهم قتال؛ لحجز مجدي بن عمر الجهني بينهم، إذا كان مجدي مواعدًا للفريقين معًا، وكان الذي يحمل لواء حمزة أبو مرثد الغنوي، وكانت هذه السرية في شهر رمضان بعد سبعة أشهر من مهاجر رسول الله ﷺ.

○ نتائج وعبر:

- إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرًا نوجزها كالتالي:
- ١ - بيان تقيد الرسول ﷺ بالإذن من ربه فلا يأتي، ولا يذر غالبًا إلا بإذن من ربه عز وجل.
 - ٢ - بيان أول سرية في الإسلام، وأنها سرية حمزة عم رسول الله ﷺ.
 - ٣ - بيان الكمال المحمدي في إرساله عمه والمهاجرين دون الأنصار لتلقي غير قریش.
 - ٤ - بيان أن أول لواء عقد في الإسلام كان لواء سرية حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه.
- سرية عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم:

في شهر شوال - وهو الشهر الثامن من مهاجر الحبيب ﷺ - عقد لعبيدة ابن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم لواء أبيض، وأمره بالسير إلى بطن رابع من الحجاز، وكان اللواء مع مسطح بن أثانة، فسار في ستين رجلًا ليس بينهم أنصاري قط، ساروا طالبين قافلة للمشركين، أفرادها مائتا رجل، فالتقوا معهم على ماء يقال له: «أخياء» وكان على المشركين عكرمة بن أبي جهل أو مكرز بن حفص، ولم يقع بينهم قتال، إنما تراموا بالسهم، فأصيب سعد بن أبي وقاص بسهم، فكان أول سهم رُمي به في الإسلام. ثم انصرف القوم عن القوم، وفر إلى المسلمين المقداد بن عمرو البهاري، وعتبة بن غزوان ابن جابر المازني وقد كانا مسلمين، وإنما خرجا مع الكفار من أجل أن يهربا إلى المسلمين لمنع المشركين لهما من الهجرة، وحبسهما دونها.

○ نتائج وعبر:

- إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرًا هي كالتالي:
- ١ - من مظاهر الكمال المحمدي أن يرسل عمه حمزة وعبيدة للغزو دون غيرهما من أصحابه الأنصار والمهاجرين، ليضرب المثل في الكمال الخلقي والروحي.
 - ٢ - فضل مسطح بن أثانة حيث قلد اللواء وهو ابن خال أبي بكر الصديق.
 - ٣ - بيان أن أول سهم رُمي به في سبيل الله السهم الذي أصاب سعدًا رضي الله عنه.
- سرية سعد بن أبي وقاص:

وفي ذي القعدة من سنة الهجرة الأولى المباركة، وبعد سرיתי حمزة وعبيدة: عقد لعبيدة سعد بن أبي وقاص لواء أبيض، وأرسله في عشرين رجلًا يمشون على أقدامهم يسرون بالليل ويكنمون بالنهار، وكان يحمل اللواء المقداد بن الأسود رضي الله عنه، وكان أفراد السرية كلهم مهاجرين، ليس بينهم أنصاري، أرسلهم إلى «الخزار» وعهد إليهم ألا يتجاوزوه فساروا ففاتتهم غير المشركين، إذ وصلوا الخزار صبح خامسة، وسبقتهم غير قریش بيوم، فلم يظفروا بها، ولم يقع قتال، وعادوا سالمين غانمين الأجر والمثوبة، دون ما خرجوا له من الظفر بغير المشركين.

○ نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرًا نوجزها فيما يلي:
١ - بيان فضل سعد بن أبي وقاص حيث عقد له النبي ﷺ لواء وأرسله على سرية يقودها إلى جهاد الكفار.

٢ - شرف المقداد بن الأسود حيث حمل راية الجهاد في سبيل الله.

٣ - بيان كمال طاعة أصحاب رسول الله ﷺ، في الالتزام بما يعهد به إليهم.

ظهور العداء الشديد وبداء الصراع الداخلي

إنه ما إن انقضت السنة الأولى من سنَى الهجرة المباركة للحبيب ﷺ ولاح في الأفق ظهور الإسلام، وعزة أهله: حتى نجم النفاق من اليهود والمشركين معًا، وأخذ التحزّب والتكثّل ضدّ الإسلام والمسلمين يلوح في الأفق، وأصبحت المدينة ميدانًا للصراع الداخلي. وها هي ذي قائمة بأسماء منافقي اليهود مقرونة بسوء أفعالهم، وأخرى بأسماء منافقي المشركين مشفوعة كذلك بقبح أعمالهم وسوء سلوكهم.

○ منافقو اليهود:

إن من بين من عرفوا بالتفاق من اليهود بالمدينة - حيث أظهروا الإسلام كيدًا للرسول ﷺ والمسلمين ومكرًا بهم، وهم مصرون على كفرهم ويهوديتهم - عليهم لعائن الله -.

١ - زيد بن اللّصيت، وهو القائل لما ضلّت ناقة النبي ﷺ: يزعم محمد أنه نبي يأتيه خبر السماء^(١) وهو لا يدري أين ناقتة، ولما بلغ هذا القول النبي ﷺ قال: «والله لا أعلم إلا ما علمني الله، وقد دلني عليها فهي في هذا الشعب قد حبستها شجرة بزمامها» فذهب رجال من المسلمين فوجدوها كذلك.

٢ - رافع بن حريملة، وهو الذي قال فيه رسول الله ﷺ لما مات - عليه لعائن الله -: «مات اليوم عظيم من عظماء المنافقين».

٣ - ٤ - رفاعة بن زيد بن التابوت، وسويد بن الحارث: أظهرا الإسلام نفاقًا ومكرًا وخديعة، فوآدّهما بعضُ المسلمين اغترارًا بهم، فأنزل الله تعالى قوله ينهى المسلمين عن موادتهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا يُتَكَّرُ هُزُؤًا وَلَكِبَ لَكُمُ مِنَ الْكِتَابِ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَأَقْبُوا اللَّهَ إِنَّ كُفْرَكُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (المائدة: ٥٧). وكان رفاعة هذا إذا كلّم رسول الله ﷺ لَوَّى لسانه، ويقول: أزعنا سمعك يا محمد حتى نفهمك، ثم طعن في الإسلام وعابه، فأنزل الله تعالى فيه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْفُوا نُصَيْبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَتَشَكَّلُونَ الْفَكْلَةَ وَيُزِيدُونَ أَنَّ تَوَلَّوْا السَّبِيلَ ۖ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَابِكُمْ وَلَكِن يَأْتِيَنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّذِينَ أُولَٰئِكَ﴾ (آل عمران: ٧٥).

(١) حدث هذا في غزوة تبوك.

وَكُنِّي بِاللَّهِ تَصِيرًا ۖ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَنفَعَنَا شَيْءٌ مِّنْكَ وَسَمِعْنَا وَطَعْنَا فِي الْأَرْضِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَمْنٌ لَّنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا [النساء: ٤٤-٤٦] .

٥ - ٦ - ٧ - سعد بن حنيف ونعمان بن أوفى بن عمرو وأخوه عثمان بن أوفى .

٨ - ٩ - سلسلة بن يرهام، وكنانة بن صوريا كل هؤلاء كانوا من أحبار يهود فأسلموا نفاقاً للفس والفتنة والوقية بين المسلمين، فلعة الله عليهم أجمعين .

فهؤلاء تسعة من أحبار اليهود أسلموا ظاهراً وهم كفار باطناً، وكان غرضهم من إسلامهم الدس والوقية بين المسلمين، والفتنة لضعفاء الإيمان، والتعرف على أحوال المسلمين الخفية ليقتفوا في طريق دعوة الإسلام حتى لا تظهر ولا تنتشر حفاظاً على كياناتهم المزعزع وتشبهاً بحلمهم الباطل، وهو إعادة مجد ومملكة بني إسرائيل التي تحكم من النيل إلى الفرات .

○ منافقو المشركين :

لقد كان لمنافقي اليهود أثر كبير على المشركين؛ إذ جُلَّ المنافقين من المشركين كان نفاقهم بسبب منافقي اليهود؛ إذ حسَّنوا لهم ذلك تحت عنوان النصيحة لهم، وإرشادهم إلى السلوك اللائق بهم حفاظاً على وجودهم ومكانتهم بين الناس، ومن بين مَنْ عُرِفَ مَنْ منافقي المشركين هم :

١ - زُوي بن الحارث من بني عمرو بن عوف .

٢ - جُلاس بن سويد من بني حبيب، وكان ممن تخلف عن الرسول ﷺ في غزوة تبوك وهو القائل : لئن كان هذا الرجل - يعني النبي ﷺ - صادقاً لنحن شرٌّ من الحمر . وسمع هذه المقالة الخبيثة ربيبه عمير بن سعد، فقال له : والله يا جلاس إنك لأحب الناس إلي، ولقد قلت مقالة لئن رفعتها عليكم لأفضحتك، ولئن صمتت عليها ليهلكن ديني، وإلحادهما أيسر علي من الأخرى، ثم مشى إلى رسول الله ﷺ فذكر له ما قال جلاس . فحلف جلاس بالله لرسول الله ﷺ لقد كذب علي عمير، وما قلت ما قال عمير بن سعد، فأنزل الله فيه : ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةً الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بِمَا لَزِمُوا وَهُمْ قَوْمٌ يَمَازُونَ وَيَأْتُوا وَمَا يَنْهَوْنَ إِلَّا أَنِ اتَّخَذُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَوْمَئِذٍ هُتُوبًا يَكُ حَرْبًا لَّهُمْ وَإِن يَسْتَوُوا يَحْذَرُوا اللَّهَ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِن دُونِ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [التوبة: ٧٤] .

وقد زُوي أن جلاساً قد تاب، وحسنت توبته حتى عرف منه الخير والإسلام .

٣ - الحارث بن سويد أخو جلاس بن سويد، كان منافقاً فخرج مع المسلمين يوم أحد فقتل المجذَر البلوى، وقيس بن زيد أحد بني ضُبَيْعَة؛ أخذاً بشار له منهما إذ قتل أباه في الجاهلية، ثم التحق بقريش بمكة، ثم بعث إلى أخيه جلاس يطلب التوبة ليرجع إلى قومه بالمدينة فأنزل الله تعالى فيه قوله : ﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرُّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ ﴾

وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٨٦﴾ [ال عمران: ٨٦] .

٤ - نبتل بن الحارث من بني لؤذان بن عمرو بن عوف، هو الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «من أحب أن ينظر إلى شيطان فليُنظر إلى نبتل بن الحارث»، وكان رجلاً جسيماً أذلم^(١) نائر شعر الرأس، أحمر العينين، أسفع^(٢) الخدين، وكان يأتي النبي ﷺ يتحدث إليه فيسمع منه، ثم ينقل حديثه إلى المنافقين، وهو القائل: إني ما محمد أذن من حديثه شيئاً صدق، فأنزل الله تعالى فيه من سورة التوبة: ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَيَوُوءُونَ أَوَّلِيَّاءَهُ هُوَ أَذُنٌ فَلِأُذُنٍ كَثِيرٍ لَكُمْ﴾ [التوبة: ٦١] .

٥ - مربع بن قبيط، هو الذي قال لرسول الله ﷺ حين أجاز في حائطه «بستانه» ورسول الله ﷺ عامداً إلى أحد: لا أحل لك يا محمد - إن كنت نبياً - أن تمر في حائطي، وأخذ حفة من تراب، ثم قال: والله لو أعلم أنني لا أصيب بهذا التراب غيرك لرميتك به، ولما ابتدره الصحابة أن يقتلوه قال رسول الله ﷺ: «دعوه، فهذا الأعمى أعمى القلب أعمى البصيرة» وضربه سعد بن زيد بالقوس فشجّه، أي في رأسه.

٦ - أوس بن قبيط أخو مربع، وهو الذي قال يوم الخندق: يا رسول الله إن بيوتنا عورة^(٣) فأذن فلنرجع إليها، فأنزل الله تعالى فيه قوله: ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [الأحزاب: ١٣] .

٧ - حاطب بن أمية بن رافع الخزرجي، وكان شيخاً كبيراً في الجاهلية له ابن من خيرة المسلمين يقال له: يزيد بن حاطب، أصيب يوم أحد، فنُقِلَ مُثَخَّنًا بجراحاته إلى دار بني ظفر، فاجتمع إليه من رجال المسلمين ونسائهم وهويموت فقالوا له: أبشر يا ابن حاطب بالجنة، فنطق أبوه حاطب المنافق فقال: أجل جنة والله من حرمل غررتم والله هذا المسكين من نفسه.

٨ - بشير بن أبيرق أبو طعمة سارق الدرعين الذي أنزل الله تعالى فيه: ﴿وَلَا تَحْتَوِلْ عَنِ الْيَمِينِ يَحْتَوُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ [النساء: ١٠٧] .

٩ - قزمان حليف لبني أبيرق، والذي قال فيه رسول الله ﷺ: «إنه من أهل النار» وذلك أنه قاتل يوم أحد قتالاً شديداً، وقتل بضعة نفر من المشركين، فأثبتته^(٤) الجراحات فحمل إلى دار بني ظفر، فقال له رجال من المسلمين: أبشر يا قزمان فقد أبليت اليوم، وقد أصابك ما ترى، قال: بئ أبشر؟ فوالله ما قاتلت إلا حمية عن قومي، فلما اشتدت به جراحاته أخذ سهماً من كنانته فقتل به نفسه. فصدق عليه قول الحبيب ﷺ: «إنه من أهل النار».

١٠ - عبد الله بن أبي ابن سلول الخزرجي، وهو رأس المنافقين وإليه يجتمعون. وهو القائل: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، وذلك في غزوة بني المصطلق، وفيه -

(٢) السفعة: حمرة تضرب إلى السواد.

(٤) أي أقعدته عن الحركة لشدتها.

(١) أسود طويل مسترخي الشفتين.

(٣) أي مكشوفة ضائعة ما لها من يحميها.

وفي رهطه - نزلت سورة المنافقون بأسرها، وهم الذين كانوا يدسون إلى بني النضير حين حاصرهم رسول الله ﷺ ويقولون لهم: اثبتوا فوالله: ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَخُرَجْتُمْ مَعَكُمْ وَلَا تُطِيعُ فِكْرُ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَتَّبِعُ الَّذِينَ لَكُمْ يُبِينُونَ﴾ [المعتر: ١١١].

هؤلاء عشرة من منافقي المشركين، الذين كانوا يمالئون اليهود وغيرهم على الإسلام. وقد أسلم من أسلم منهم وحسن إسلامه، ومات على النفاق من مات منهم، بحيث لم يقبض رسول الله ﷺ حتى لم يبق منهم منافق، لا من اليهود ولا من المشركين، إذ اليهود قد أنهى وجودهم على يد رسول الله ﷺ. إنهم كانوا ثلاث طوائف: بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة، أما بنو قينقاع وبنو النضير، فقد أخرجوا من المدينة وأما بنو قريظة فقد أعدموا فيها لخيانتهم وغدرهم، ولم يسلم منهم إلا القليل، ومن أشهر من أسلم من أحبار اليهود وعقلائهم عبد الله بن سلام رضى الله عنه، ومخيريق وقد أسلم يوم أحد، قال فيه رسول الله ﷺ: «مخيريق خير يهود»، وذلك أنه خرج يوم أحد بسلاحه وقال لرهطه: إن مت فمالي لمحمد ﷺ بعد أن وعظ أهله ودعاهم إلى الإسلام، ثم قاتل مع رسول الله ﷺ حتى قتل - فرضي الله عنه وأرضاه -.

○ عدا المعلنون عداهم من اليهود:

إن من ذكرنا من منافقي اليهود قد ادّعوا الإسلام كذباً لأجل الدس والوقعة بين المسلمين. وهناك عدد كبير من أحبار اليهود لم ينافقوا بل أعلنوا عن عدائهم للرسول ﷺ والمسلمين، حملهم على ذلك البغي والحسد للعرب على ما فضلهم الله تعالى من اصطفاء محمد رسولاً منهم إلى الناس كافة.

ولنذكر هنا رؤساءهم من أهل البغي والحسد والضغينة منهم وما كانوا يقولون للرسول ﷺ وأصحابه من سوء القول وقبيحه جداً مرةً وعناداً مرةً أخرى، وتطاولاً واعتزازاً مرةً ثالثة، وعلى سبيل المثال لا الحصر نذكر منهم:

حُبي بن أخطب النضري وكان أخبثهم وأكثرهم عدا للرسول ﷺ والمؤمنين وهو أبو صفية زوج رسول الله ﷺ، وأخواه أبو ياسر بن أخطب وجدي بن أخطب، وسلام بن مشكم، وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، ورافع الأعور الذي قُتل بخيبر، والربيع بن الربيع ابن أبي الحقيق. وعمر بن جحاش. وكعب بن الأشرف - وهو طائي وأمه نضرية -، والحجاج بن عمرو حليف كعب بن الأشرف. وكُرْدَم ابن قيس حليف كعب بن الأشرف وكل هؤلاء نضريون. وعبد الله بن سوريا الأعور، وكان أعلم أحبار اليهود بالحجاز، وهو من بني ثعلبة. ورفاعة بن قيس، وسويد بن الحارث، وفنحاص، وشاس بن عدي، ومالك بن صيف، ورافع بن أبي رافع، ورافع بن حريملة، ومالك بن عوف، وكعب بن راشد، وعَازِرُ وكل هؤلاء

من بني قينقاع، ومنهم عبد الله بن سلام، وقد أسلم وحسن إسلامه، وكان مبشراً بالجنة. والزبير بن باطا وعزال بن شميل، وكعب بن راشد، وهب بن يهودا، أسامة بن حبيب، ورافع بن رميلة، ونافع بن أبي نافع، وعدي بن زيد، وهؤلاء كلهم قرظيون. ولبيد بن الأعصم وهو الذي سحر النبي ﷺ بواسطة بناته وهو من بني زريق، وكنانة ابن صوريا وهو من بني حارثة.

○ نتائج وعبر:

- إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرًا نجملها فيما يأتي:
- ١ - صعوبة موقف الدعوة وتحرج القائمين عليها في هذه الفترة من الهجرة.
 - ٢ - خطر المنافقين أشد من خطر الكافرين الظاهرين.
 - ٣ - معرفة ما ذكر من منافقي كل من اليهود والمشركين.
 - ٤ - مظاهر النبوة المحمدية في عدة مواقف من هذا العرض.
 - ٥ - فضيلة كل من عبد الله بن سلام ومُخَيَّرِيق من يهود المدينة الذين أسلموا وحسن إسلامهم.
 - ٦ - كفر اليهود وحربهم للإسلام وأهله كان نتيجة بغيتهم وحسدهم للعرب على انتقال النبوة إليهم، كما كان خوفًا من أن يحول الإسلام دون عودة مجدهم المتمثل في مملكتهم التي يحملون بها وأنها من النيل إلى الفرات.

جَدَلِيَّاتُ الْيَهُودِ وَمَظَاهِرُ عِنَادِهِمْ

والى جانب ذلك الدس والوقيعة - التي يقوم بها منافقو يهود ممن أسلم من أحبارهم في الظاهر وهو مبطن للكفر والعداء الشديد في الباطن، هناك جماعات أخرى تُصرح بكفرها وحقدتها وعدائها للرسول ﷺ ودينه وأتباعه، وتجادل وتعاند، ولتذكر للعبرة طرقًا من جدالها وعنادها. فهذا رافع بن خريملة - عليه لعائن الله - يقول في جدله الساقط: يا محمد إن كنت رسولاً من الله - كما تقول - فقل لله فليكلمنا حتى نسمع كلامه، فأنزل الله تعالى فيه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشْنَيْتُمْ فَلَوْلَهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ١١٨].

وهذا سلام بن مشكم، ونعمان بن أبي أوفى ومحمود بن دحية وشاس بن قيس ومالك بن الصيف يقولون للرسول ﷺ: كيف ننبئك وقد تركت قبلتنا، وأنت لا تزعم أن عزيرًا ابن الله؟! فأنزل الله ردًا عليهم: ﴿وَقَالَ الْيَهُودُ عِزْرُؤُا ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ الْنَصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَتَلْنَاهُمْ اللَّهُ أَفَلَا يُوَفِّكُون﴾ [التوبة: ٣٠].

وهذا جَبَل بن أبي قشير، وشموبيل بجدان رسول الله ﷺ فيقولان له: يا محمد، أخبرنا متى

تقوم الساعة إن كنت نبيا كما تقول؟ فأنزل الله تعالى ردًا عليهم قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْإِسَاءِ قُلْ إِنَّمَا عَلَّمْتُهَا مِنْ رَبِّي إِنَّمَا يُجِيبُهَا رَبِّي لَا يُجِيبُهَا إِلَّا هُوَ تِلْكَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَعَثَ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكُمْ خَائِفَةٌ عَنِ مَا لَكُمْ عَلَّمْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الاعراف: ١٨٧].

وهذا نعمان أضا، وبحري بن عمرو، وشاس بن عدي أتوا النبي ﷺ يتحدثونه، فكلّموه وكلمهم ﷺ، ودعاهم إلى الله تعالى، وحذرهم نعمته، فقالوا: ما نخوفنا يا محمد، نحن - والله - أبناء الله وأحباؤه؛ فأنزل الله تعالى ردًا عليهم من سورة المائدة قوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوا قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَتَوَفَّي لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [المائدة: ١٨].

وهذا رافع بن حارثة وسلام بن مشكم، ومالك بن الصيف ورافع بن حريمة أتوا النبي ﷺ يجادلونه فقالوا: يا محمد ألسنت تزعّم أنك على ملة إبراهيم ودينه، وتؤمن بما عندنا من التوراة، وتشهد أنها من الله حق؟ قال: «بلى، ولكنكم أحدثتم وجحدتم ما فيها مما أخذ الله عليكم من الميثاق فيها وكنتم منها وأمرتم أن تبيّنوه للناس، فبرئت من إحداثكم». فقالوا معاندين: إنا نأخذ بما في أيدينا، فإننا على الهدى والحق، ولا نؤمن بك ولا نتبعك فأنزل الله تعالى فيهم قوله من سورة المائدة: ﴿قُلْ يَٰأَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُ عَلَىٰ قَوْلِكُمْ فَأَتَىٰ لِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْحَمُوا الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ وَمَا أَنزَلَ إِلَيْكُم مِّن دِينِكُمْ وَلَا تَرِيدُ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أَنزَلَ إِلَيْكُم مِّن دِينِكُمْ طَعْنًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ١٨]. وهذا النحام بن زيد وكردم بن كعب وبحري بن عمرو أتوا النبي ﷺ يجادلونه، فقالوا: يا محمد أما تعلم مع الله إلها غيره؟ فقال رسول الله ﷺ: «الله لا إله إلا هو، بذلك بُعثت، وإلى ذلك أدعو» فأنزل الله تعالى فيهم وفي قولهم: ﴿قُلْ أَنتُمْ أَكْثَرُ ضَلَالَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأَتَذْكُرَكُم بِهِ وَمَنْ بَلَغَ إِلَيْكُمْ فَاسْمَعُوا أَلَمْ يَكُن مَعَهُ اللَّهُ الْهَادِي فَخَرُفَ قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ اللَّهُ وَحْدَهُ وَإِنِّي بِرُبِّكُمْ شَكَّارُونَ﴾ [الزمر: ١٨].

وأتى رهط منهم، فقالوا معاندين مجادلين: هذا الله خلق الخلق، فمن خلق الله؟ فغضب رسول الله ﷺ حتى انتقع^(١) لونه، ثم ساورهم^(٢)؛ غضبًا لربه، فنزل عليه جبريل فسكنه، وقال: خفف عليك يا محمد، وأناه من الله بجواب ما سأله عنه: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَكُن لَّهِ كُفُوًا شَيْءٌ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإعلاص: ١-٤].

○ نتائج وعبر:

- ١ - تقرير أنه كان من اليهود منافقون، ولا عجب؛ فإنهم أهل لكل شر إلا من رحم الله.
- ٢ - بيان ما كان يلاقيه الرسول ﷺ من جدل اليهود وعنادهم في المدينة قبل خروجهم منها.
- ٣ - نزول القرآن بالرة على ما كان اليهود يلقونه من الشبه والحجج الباطلة والمزاعم الكاذبة.

(١) تغرّ لونه.

(٢) واليهم وأراد أن يبطش بهم.

وكاليهود نصارى نجران يجادلون، ويعاندون

وبمناسبة ذكرنا جدال اليهود وعنادهم نذكر جدال النصارى وعنادهم المتمثل في وفد نجران - وإن كان هذا الوفد لم يفد في هذه السنة الأولى من الهجرة - إذ وفد في سنة الوفد وهي سنة تسع من الهجرة .

وكان أفراد هذا الوفد ستين راكباً، من بينهم أربعة عشر راكباً من أشرافهم، والذين يتول أمرهم إليهم من رجال الوفد ثلاثة وهم: العاقب واسمه عبد المسيح، والسيد واسمه الأيهم، وأبو حارثة أسقفهم وهو أحد بني بكر بن وائل، وكانت له منزلة رفيعة عند ملوك الروم؛ لما أبداه من اجتهاد في دينهم، ولما كان عليه من العلم؛ فلذا أمدوه بالمال، فبنوا له الكنائس وبسطوا عليه الكرامات .

ولما وفدوا على رسول الله ﷺ بالمدينة، جلس إمامهم أبو حارثة على بغلته التي يركبها متوجهاً إلى رسول الله ﷺ، وإلى جنبه أخ له يقال له: كرز بن علقمة، فعثرت بغلته، فقال أخوه كرز: أتيس الأبعد - يريد رسول الله ﷺ - فقال له أخوه أبو حارثة: بل أنت تعست . فقال: ولم يا أخي؟ قال: والله للنبى الذي كنا ننتظر . فقال له كرز: ما يمنعك منه - أي من الإيمان به واتباعه - وأنت تعلم هذا؟ قال: ما صنع بنا هؤلاء القوم شرفونا ومولونا وأكرمونا، وقد أبوا إلا خلافه، فلو فعلت نزعوا منا كل ما ترى؛ فأضمرها كرز وأسلم بعد .

وحضرت صلاة العصر - وقد دخلوا مسجد رسول الله ﷺ - فصلوا العصر إلى المشرق، وكان بعض الصحابة أنكر عليهم ذلك، فقال لهم النبي ﷺ: «دعوهم يصلوا إلى المشرق إذ تلك قبلتهم في كنائسهم» .

فكلم رسول الله ﷺ منهم ثلاثة وهم أبو حارثة، والعاقب، والسيد - وهم مع اختلافهم في أمرهم - يقولون في المسيح: هو الله، ويقولون: هو ولد الله، ويقولون: هو ثالث ثلاثة، وهذا قول أهل الملة النصرانية ويحتجون في قولهم: إنه ولد الله؛ لأنه لم يكن له أب يعلم، وقد تكلم في المهد، وهذا لم يصنعه أحد من ولد آدم قبله . ويحتجون في قولهم: إنه ثالث ثلاثة بقول الله تعالى: فعلنا وأمرنا وخلقنا وقضينا، فيقولون لو كان واحداً ما قال إلا: فعلت وقضيت وأمرت وخلقته، ولكنه هو وعيسى ومريم . ويحتجون في قولهم: هو الله بأنه كان يحيى الموتى ويرى الأسقام، ويخبر بالغيوب، ويخلق من الطين كهية الطير فينفخ فيه فيكون طيراً .

ولما كلموا رسول الله ﷺ قال لهم: «أسلموا» فقالوا: قد أسلمنا، فقال لهم النبي ﷺ: «إنكم لم تُسلموا، فأسلموا»، قالوا: بلى قد أسلمنا قبلك . قال: «كذبتكم يمنعكم من الإسلام دعاؤكم لله ولداً، وعبادتكم الصليب، وأكلكم الخنزير» . قالوا: فمن أبوه يا محمد؟ فصمت عنهم رسول الله ﷺ فلم يجيبهم، وأنزل الله تعالى نيفاً وثمانين آية من أول سورة آل عمران في شأن

- ٤ - بيان أن من لم يوحد الله تعالى في ذاته وصفاته وأفعاله وعبادته ، فليس بمسلم .
 ٥ - حبّ المرء للنبي وإلقاه له يحمله على الإصرار على الباطل وإنكار الحق .
 ٦ - مشروعية المبالغة في الإسلام كما كانت في أديان الأنبياء قبله .

الحالة الصحية بدار الهجرة

ولما قدم الحبيب ﷺ وأصحابه المدينة ، وجدوها أسوأ البلاد منأنا وصحة ، كما قالت عائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها وأرضاها - . قالت : لما قدم رسول الله ﷺ المدينة ، قدمها وهي أوبأ أرض الله من الحمى ، فعانى الأصحاب المهاجرون من حمأها ما عانوا ، إلا أن الله تعالى وقى رسول الله ﷺ فلم يمرض بها .

ولنستمع إليها ، وهي تصف الحالة الصحية المتردية بالمدينة فتقول : قدم الرسول ﷺ المدينة ، وهي أوبأ أرض الله من الحمى ، فأصاب أصحابه منها بلاء وسقم ، فصرف الله تعالى ذلك عن نبيه ﷺ ، فكان أبو بكر وعامر بن فهيرة وبلال موليا أبي بكر مع أبي بكر في بيت واحد ، فأصابهم الحمى ، فدخلت عليهم أعودهم - وذلك قبل أن يضرب علينا الحجاب - وبهم ما لا يعلمه إلا الله من شدة الروع^(١) ، فدنوت من أبي بكر فقلت له : كيف أجذك يا أبت ؟ فقال : كُلْ امرئ مَصْبَحٌ في أهله والموت أدنى من شراك نعليه فقلت : والله ما يذري أبي ما يقول ، ثم دنوت إلى عامر بن فهيرة ، فقلت له : كيف تجذك يا عامر ؟ فقال :

لقد وجدت الموت قبل ذوقه إن الجبان حتفه من فوقه
 كل امرئ مجاهد بطوقه^(٢) كالشور يحمي جلده بروقه^(٣)
 فقلت : والله ما يذري عامر ما يقول . وكان بلال إذا تركته الحمى اضطجع بفناء البيت ثم رفع عقيرته^(٤) يقول :

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة
 وهل أردن يوما مياة مجنة
 وبفخ وحولي إذخر وجليل
 وهل يبئون لي شامة^(٥) وطفيل
 والمقصود من إيراد الحالة الصحية بالمدينة - أيام الهجرة إليها - أن نعلم أن الحبيب ﷺ وأصحابه لم يجدوها مفروشة بالرياحين ، ولا سليمة من المنغصات ، والكدورات ، بل فيها المخاوف والشدائد . إنها كيد اليهود ومكرهم ، وخبت المنافقين وكفرهم ، وعداء المشركين وحربهم ، وحتى المناخ مفعم بحمى الملاريا والبلديزم . في هذا الجو القاتم يضطلع الحبيب ﷺ

(١) الروع : شديد الألم والوجع .

(٢) أي بقرنه .

(٣) شامة وطفيل جبلان من جبال مكة .

(٤) أي بظافته وقدرته .

(٥) أي أعلى صوته .

بأعباء دعوته ومهام رسالته، فلا يترك فرصة تضيع بدون إبلاغ دعوته ونشر رسالته. وها هو ذا الآن وقد قضى سنة في دار هجرته، وقد مرت بنا أحداثها، وجلها مؤلمة يستقبل السنة الثانية من سنى هجرته بالإعداد للجهاد والتحرك لقتال من يليه من المشركين عملاً بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ يَكُنْ أَلْفُكُمْ عَلَيْهِمْ وَكُنْ عَلَيْهِمْ أَلْفُكُمْ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ١٢٣] وذلك بعد أمره تعالى بالجهاد في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا جَاهِدُوا الْكَافِرَ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَمِنْهُمْ الْمُضْمِرُونَ﴾ [التوبة: ٧٣].

وبعد الإذن العام بقتال المشركين الظالمين في قوله تعالى: ﴿أُوذِنَ الَّذِينَ يَفْكُلُونَ بَأْنَهُمْ عَلِيمُونَ﴾ [النحل: ٩٩] بعد أن كان محظوراً عليهم قتال الناس مطلقاً وذلك قبل الهجرة؛ ففي السنة الأولى بعث ﷺ ثلاث سرايا تقدم الحديث عنها في أحداث السنة الأولى، وقد وثقت.

وفي هذه السنة الثانية، بلغت غزواته فيها ثماني عشرة غزوة وسرية.

○ وأولاهما:

غزوة الأبواء

كانت هذه الغزاة المسماة بالأبواء، أو «وَدَّان»^(١) لقرب ما بين الأبواء ووَدَّان؛ إذ ما بينهما من مسافة قد لا تزيد علي ستة أميال. وهي أول غزوة غزاها رسول الله ﷺ، وكانت في صفر، وسببها أنه ﷺ بلغه مرور غير لقريش بالأبواء، ووجود بني ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة في المنطقة، فخرج لذلك، بعد أن استخلف على المدينة سعد ابن عبادة رضى الله عنه. ولما وصل إلى ديار بني ضمرة، وادعته هذه القبيلة بواسطة سيدهم وصاحب الأمر فيهم مَخْشِي بن عمرو الضمري. وفاتت غير قريش. فعاد ﷺ ولم يلق كيداً. غير أنه أقام بالأبواء بقية صفر وعاد في ربيع الأول. وكان لواؤه ﷺ في هذه الغزوة أبيض يحمله عمه حمزة رضى الله عنه.

○ وثانيتهما:

غزوة بواط

وبعد عودته ﷺ من غزوة «وَدَّان» أو «الأبواء» في ربيع الأول من هذه السنة الثانية من هجرته المباركة، استخلف على المدينة النبوية السائب بن عثمان بن مظعون أو سعد ابن معاذ رضى الله عنهما، وخرج في نفس شهر ربيع الأول في مائتي راكب يريد غيراً لقريش عليها مائة رجل من بينهم أمية بن خلف، وتعدداً أبعتها يبلغ ألفين وخمسمائة بعير.

فسار ﷺ ولواؤه مع سعد بن أبي وقاص حتى بلغ بواط من ناحية جبل رَضُوى جهة ينبع

(١) ودان: موضع شرق شمال رايح، يبعد عنه بنحو ثلاثين كيلو متراً، والأبواء قرية منه وفيها قبر أمنة.

النخل، فلبث ببواط بقية شهر ربيع الثاني، وعاد في أوائل جمادى الأولى إلى المدينة دار هجرته المباركة، ولم يلق كيداً؛ وذلك لعدم اصطدامه بعير قريش حيث فانت ونجت بتدبير الله عز وجل وإرادته، وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وحسب رسول الله ﷺ وأصحابه أنهم اجتهدوا بأذلين الأسباب، وليس عليهم إلا ذلك، أما بلوغ الأرب والحصول على المطلوب فهو لله عز وجل، وهو يعطي ويمتنع؛ لحكم عالية يجب التسليم له في ذلك والرضا بما قضى.

○ وثالثتها:

غزوة العشيرة^(١)

في آخر جمادى الأولى، وبعد عودته في أول الشهر من غزوة يواط، بلغ النبي ﷺ أن أكثر من غير لقريش - أي قوافل تجارية - ذاهبة إلى الشام، فعزم على السير إليها، لعله يظفر ببعضها. فخرج ﷺ بعد أن استخلف على المدينة أباسلمة بن عبد الأسد، وأعطى اللواء عمه حمزة رضي الله عنه. وسار حتى نزل العشيرة من بطن ينبع، ولم يلق من عيرات قريش ولا عيراً لفواتها، ولكنه ﷺ وادع فيها بني مدلج وحلفاءهم من بني ضمرة، فكان في ذلك خير للإسلام والمسلمين، فأقام بالمنطقة بقية جمادى الأولى، وليالي من جمادى الآخرة، زعاد إلى المدينة، ولم يلق كيداً من أحد، والحمد لله رب العالمين.

○ ورابعتها:

غزوة بدر الأولى^(٢)

إن سبب هذه الغزوة هو أن كرز بن جابر الفهري أغار على سرح المدينة - أي ماشيتها من إبل وغنم وبقر - وذلك بعد عودة النبي ﷺ من غزوة العشيرة ببضعة أيام - من ثلاثة إلى تسعة - . فلما أغار كرز على سرح المدينة، خرج الحبيب ﷺ مع أصحابه في طلبه لافتكاك الماشية منه، فاستخلف ﷺ على المدينة زيد بن حارثة مولاه، وأعطى اللواء علي بن أبي طالب، وسار في طلب كرز حتى بلغ وادياً يقال له: سَفَوَان في ناحية بدر، وفاته كرز فلم يدركه، فسَمِيت هذه الغزوة بغزوة بدر الأولى، إذ انتهى فيها مسير رسول الله ﷺ إلى قرب بدر، ووصفت بالأولى؛ لأن بعدها بدرًا الكبرى التي نصر الله فيها الرسول والمؤمنين على أبي سفيان والمشركين، وهناك بدر الآخرة، فلذا قيل في هذه بدر الأولى.

(١) في لفظ العشيرة خلاف فتصح بالشين والسين، وبالتالي وبدونها وبالمد أيضاً: العشيرة.

(٢) الفرق بين الغزوة والسرية أن الغزوة ما حضرها رسول الله ﷺ، والسرية ما لم يحضرها؛ على هذا اصطلاح جل المؤرخين، وليس بلام.

○ وخاستها:

سرية عبد الله بن جحش إلى نخلة بين مكة والطائف

هذه السرية شاء الله تعالى أن تكون سبباً قويا في غزوة بدر الكبرى، ومقدمة عجيبة لها؛ إذ كانت هذه السرية في رجب من هذه السنة الثانية وكانت غزوة بدر الكبرى في رمضان من هذه السنة نفسها، فما بين سرية ابن جحش وبدر الكبرى إلا شهر شعبان لا غير. فقد أمر النبي ﷺ أباعبيدة عامر بن الجراح أن يتجهز للغزو، فأطاع وتجهز - أي أعد عدة سفر وغزوة - فلما أراد المسير بكى؛ صباية إلى رسول الله ﷺ، أي تألم لفراقه ولم يطقه فبكى حنيئاً وشوقاً، فلما رأى منه ذلك رسول الله ﷺ - وهو الحبيب المحب - تركه وبعث غيره هو عبد الله بن جحش، وبعث معه ثمانية رجال من المهاجرين، وكتب له كتاباً عهد له فيه بأمور، وأمره ألا يقرأه حتى يسير يومين، ثم ينظر فيه، ويمضي لما أمره به. ولا يكره أحدًا من أصحابه، ففعل، ولما سار اليومين، فتح الكتاب ونظر فيه، فإذا فيه الأمر بالنزول بنخلة وهي مكان بين مكة والطائف، يرصد فيه قريشًا ويعلم أخبارها وتحركاتها وتدبيرها العسكرية الحربية. فأعلم عبد الله أصحابه فساروا معه، وكان سعد بن أبي وقاص، وعتبة بن غزوان قد أضلّا بغيرهما لهما كانا يعتقبانه، فتخلفا يطلبانه، فسار عبد الله مع بقية أصحابه حتى نزلوا بنخلة، فمرت غير لقريش تحمل زبيبا وغيره، وفيها عمرو بن الحضرمي، عثمان بن عبد الله بن المغيرة، وأخوه نوفل، والحكم ابن كيسان، فأشرف لهم عكاشة بن محصن - وقد حلق رأسه^(١)، فلما وأوه حالقاً رأسه أمنوا بعد أن خافوهم؛ إذ قالوا: لا بأس هؤلاء عُمَار.

وتشاور أفراد السرية الإسلامية، وكان اليوم هو آخر يوم من رجب، لئن تركناهم هذه الليلة دخلوا الحرم، وامتنعوا منا، ولئن قاتلناهم الليلة قاتلناهم في الشهر الحرام فتردد القوم، ثم تشجّعوا على قتل من يقدر من منهم؛ لأن جرائم المشركين أعظم من القتل في الشهر الحرام، فرمى واقد بن عبد الله التميمي عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله، واستأسر عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان وهرب نوفل فطلبوه فأعجزهم هرباً.

وأقبلوا بالقافلة والأسيرين عائدين إلى المدينة حتى قدموا على رسول الله ﷺ، وذكر بعض آل عبد الله ابن جحش أن عبد الله قال لأصحابه: إن لرسول الله ﷺ الخمس، فعزل له خمس العير، وذلك قبل أن ينزل فرض الخمس، وإنما كان بإلهام من الله تعالى لعبد الله بن جحش صهر رسول الله ﷺ إلا أن النبي ﷺ أنكر عليهم قتالهم في الشهر الحرام، فوقف العير والأسيرين، وأبي أن يأخذ شيئاً من ذلك. فلما فعل هذا رسول الله ﷺ شَقَطَ في أيدي السرية، وظنوا أنهم قد هلكوا وعنفهم المسلمون على صنيعهم هذا، وأذاعت قريش الخبر مُسْتَعَةً أكبر (١) يدخل هذا تحت قاعدة حربية مشهورة وهي «الحرب خدعة».

تشنيع: أن محمدًا وأصحابه استحلوا الشهر الحرام، وسفكوا فيه الدم، وأخذوا الأموال، وأسرروا الرجال، واعتذر من اعتذر لهم بمكة من المؤمنين، وقالوا: إنما أصابوا من أصابوا في أول ليلة من شعبان وليس في رجب الحرام كما أسيح. إذ آخر يوم من رجب جائز أن يكون أول يوم من شعبان.

وكثرت التساؤلات، فأنزل الله تعالى على رسوله ﷺ عَذَرَ أَصْحَابِ السَّيَةِ، مُنْذَرًا بِصَنِيعِ الْمُشْرِكِينَ، فقال تعالى من سورة البقرة: ﴿يَنْتَقِلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ يَتَالِي فِيهِ قُلٌ قِتَالٌ فِيهِ كَثِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ٢١٧].

فقررت الآية الكريمة، أن القتال في الشهر الحرام أمر عظيم، ولكن أعظم منه صد الناس عن الإسلام حتى لا يؤمنوا ويوحدوا فيكملوا ويسعدوا.

وأعظم من القتال في الشهر الحرام أيضًا الكفر بالله تعالى وبرسوله ولقائه.

كما أن الصد عن المسجد الحرام - بمنع المؤمنين من دخوله والتعبد فيه، وإخراج أهله المقيمين فيه بتعذيبهم والتنكيل بهم حتى يضطروا إلى الهجرة منه - أكبر من القتال في الشهر الحرام. وأخيرًا، فإن فتنة المؤمنين عن دينهم باضطهادهم وتعذيبهم أشد ظلمًا وأقبح جرمًا من القتال في الشهر الحرام.

وعندما نزل عذر أصحاب السرية في هذه الآية الكريمة سألوا رسول الله ﷺ قائلين: هل لنا من أجر في قتالنا هذا؟ فأنزل الله تعالى قوله: ﴿إِنَّ الْكُفْرَ أَشَدُّ ظُلْمًا مِنَ الْقِتَالِ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٨].

وانتهت تلك الضجة، وبعثت قريش تطلب فداء أسيرها، وأرجأهم رسول الله ﷺ حتى يرجع سعد ابن أبي وقاص وزميله عتبة بن غزوان؛ إذ تأخرا عن السرية في طلب بغيرهما كما تقدم. ولما وصل سعد وعتبة أمدى^(١) رسول الله ﷺ عثمان بن عبد الله، فلحق بمكة. أما الحكم بن كيسان فقد أسلم وحسن إسلامه، فلم يرد رسول الله ﷺ على المشركين. واستشهد الحكم يوم بئر معونة - فرضي الله عنه وأرضاه -.

وقد سجل هذه السرية الصديق رضي الله عنه في ستة أبيات من الشعر فقال:

تدعون قتلاً في الحرام عظيمة	وأعظم منه لو يرى الرشد راشد
صُدُّوكُم عما يقول محمد	وكفر به واللّه راء وشاهد
وإخراجكم من مسجد الله أهله	لثلا يرى لله في البيت ساجد
فإننا وإن غيرتمونا بقتله	وأرجف بالإسلام باغ وحاسد

(١) أي قبل الفدية فيه.

سقيناً من ابن الحضرمي رماحنا بنخلة لما أوقد الحرب وأقد
دماً وابن عبد الله عثمان بيننا يتنازع غُلٌّ من القد^(١) عاند
○ نتائج وعبر:

- إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نوجزها فيما يلي:
- ١ - بيان ما اضطلع به الحبيب ﷺ من أعباء الجهاد والدعوة؛ إذ ما فرغ من غزوة حتى تهباً لأخرى وأعد لها، فجزاه الله عن الإسلام وأمنته خير ما جرى به نبيا عن أمته.
 - ٢ - بيان الكمال المحمدي في حسن التدبير، وكمال التصرف وعظيم الرشيد في كل أعماله.
 - ٣ - بيان أول غنيمة كانت في الإسلام، وخُصِّست بإلهام من الله تعالى حتى فرض الله تعالى بعد ذلك تخميس الغنائم.
 - ٤ - بيان أول فداء في الإسلام.
 - ٥ - بيان مدى ما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ من حبههم لنبههم حتى إن أبا عبدة لم يستطع أن يفارق الحبيب ﷺ، فرحمه لذلك وأبقاه معه.
 - ٦ - بيان أن سرية عبد الله بن جحش كانت مقدمة لغزوة بدر الكبرى.

غزوة بدر الكبرى^(٢)

- لهذه الغزوة الفاصلة في تاريخ الدعوة الإسلامية، والمُعْتَوُونَ لها في القرآن - بيوم الفرقان - لها خطوات قبل الالتقاء فيه، وله أحداث جسام عنده وبعده، وهذه هي الخطوات التي تمت من الجانبين: الإيمان، والكفري أو التوحيدي، والشركي.
- ١ - قافلة تجارية كبرى لقريش خرجت من الشام يقودها أبوسفيان ورجاله في طريقها إلى مكة المكرمة.
 - ٢ - يصل خبر القافلة إلى النبي ﷺ، فينتدب بعض أصحابه لاعتراضها إذا مرت بالحجاز؛ لعل الله تعالى ينفلحهم إياها - أي يرزقهم ما تحمله من بضائع وسلع نافعة وعظيمة - وهم أحوج ما يكونون إلى ذلك؛ لأن أموالهم تركوها بمكة وفروا بأنفسهم مهاجرين فصادرتها قريش منهم، ولنستمع إلى الرسول ﷺ يقول لهم: «هذه غير قريش فيها أموالهم؛ فاخرجوا إليها لعل الله ينفلحكموها» فحَفَّت بعض، وثقل بعض، لأن الأمر ما كان ملزماً وإنما هو مجرد عرض لا غير. كما أنهم ما كانوا يظنون أن النبي ﷺ سيواجه حرباً ويلقى قتالاً.
 - ٣ - أبوسفيان يدنو من الحجاز بقافلته، وها هو ذا يتحسس الأخبار ويسأل كل من يلقي من

(١) القد بكسر القاف: السير يقد من الجلد، والعائد التبلل بالدم فلا ينقطع.
(٢) بدر: اسم مدينة تبعد عن المدينة النبوية بمائة وخمسين كيلو متراً. وقد كانت قُبْلُ ودائياً به بئر يملكها رجل قال له: بدر، ووقعت غزوة بدر به فسميت غزوة بدر.

الركبان؛ خوفاً من محمد ﷺ وأصحابه أن يعترضوا طريقه، وفعلاً أصاب خبراً من بعض الركبان مفاده أن محمداً ﷺ قد استنفر أصحابه له ولغيره، فقوي بذلك خوف أبي سفيان؛ فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفاري وبعثه إلى مكة ليستنفر قريشاً فيخرجوا لحماية عيرهم التي بها أموالهم.

٤ - في مكة ترى عاتكة بنت عبد المطلب رؤيا أفزعته، وذلك قبل قدوم ضمضم الغفاري مكة بثلاث ليالٍ، فتبعث إلى أخيها العباس رضى الله عنه فتقول له: يا أخي، لقد رأيت الليلة رؤيا أفزعتنى^(١) وتخوفت أن يدخل على قومك شرٌ ومصيبة. فقال لها: وما رأيت؟ قالت: رأيت راکباً أقبل على بعير له حتى وقف بالأبطح، ثم صرخ بأعلى صوته: ألا انفروا يا لغدر لمصارعكم في ثلاث. فرأى الناس قد اجتمعوا إليه، ثم دخل المسجد والناس يتبعونه، فبينما هم حوله، مثل به بعيره على ظهر الكعبة، ثم صرخ بمثلها: ألا انفروا يا لغدر لمصارعكم في ثلاث، ثم مثل به بعيره على رأس جبل أبي قبيس فصرخ بمثلها، ثم أخذ صخرة فأرسلها، فأقبلت تهوي حتى إذا كانت بأسفل الجبل ارفضت^(٢)، فما بقي بيت من بيوت مكة ولا دار من دورها إلا دخلتها منها فلقة^(٣). فقال لها العباس: والله إن هذه لرؤيا فاكتموها ولا تذكرها لأحد. واستكتمته^(٤) إياها إلا أنه قصها على الوليد بن عتبة صديقه واستكتمه إياها، فذكرها الوليد لأبيه؛ ففشت حتى بلغت أبا جهل فغضب لذلك، فلما رأى العباس يطوف بالبيت ناداه: يا أبا الفضل إذا فرغت فأقبل إلينا، فلما جاءه قال له: يا بني عبد المطلب متى حدثت فيكم هذه النبوة؟ قال العباس قلت: وما ذاك؟ قال: تلك الرؤيا التي رأت عاتكة!! قال العباس: فقلت: وما رأت؟ قال: يا بني عبد المطلب أما رضيتم أن يتنبأ رجالكم حتى تتنبأ نساؤكم؟ لقد زعمت عاتكة في رؤياها أنه قال: انفروا في ثلاث، فسنترى هذه الثلاثة: فإن يك حقاً ما تقول فسيكون، وإن تمض الثلاث ولم يكن من ذلك شيء، نكتب عليكم كتاباً أنكم أكذب أهل بيت في العرب. وبعد ثلاث وصل ضمضم بن عمرو الغفاري، ووقف على بعيره ببطن الوادي، وقد حوّل رحله وشق قميصه، وجذع بعيره، وهو يصرخ بأعلى صوته قائلاً: اللطيمة^(٥) اللطيمة، أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه، لا أرى أن تدركوها، الغوث الغوث؛ وتجهزت قريش وهم يقولون: أظن محمد وأصحابه أن نكون كعير ابن الحضرمي، كلا والله ليعلمن غير ذلك. ولما أجمعت قريش المسير ذكرت ما كان بينها وبين بني بكر من حرب فخافت أن تُضرب من خلف، إلا أن أبلis جاءهم في صورة سراقه بن مالك بن جعشم المدلجي، وكان من أشرف بني كنانة فقال لهم: أنا جأؤ لكم فلا تأتیکم كنانة من خلفكم بشيء تكرهونه، فطمأنهم بهذا فمشوا سراعاً.

(١) اشتدت عليّ.

(٢) تفضت.

(٣) قطعة.

(٤) تفضت.

(٥) أي طلبت منه أن يكتمها هو عليها فلا يخبر بها.

(٥) الإبل التي تحمل البزّ والطيب ونحو ذلك من النفائس.

٥ - وخرج النبي ﷺ في ليالي مضت من شهر رمضان في أصحابه، وذلك يوم الاثنين لثمان ليالي خلون من شهر رمضان، واستعمل على المدينة عبد الله بن أم مكتوم إلا أنه رد أبا اليابسة من الروحاء، واستعمله على المدينة، وأعطى اللواء مصعب بن عمير، وكان أمامه ﷺ رايتان سوداوان: العقاب وكانت مع علي بن أبي طالب، والأخرى مع بعض الأنصار، وكان معهم سبعون بعيروا يعتقبونها^(١) وهم ثلثمائة وأربعة عشر رجلاً، وليس معهم إلا فرسان: فرس الزبير بن العوام، وفرس المقداد^(٢) بن عمرو، ثم سلكوا طريق العقيق على فجج الروحاء، ونزل ﷺ ببئر الروحاء، ثم ارتحل منها، فترك طريقاً على يساره، وسلك ذات اليمين، وقطع الوادي إلى مضيق الصفراء، ثم بحث بسبس الجهنني وعدي بن أبي الزغباء إلى بدر يتحسسان له الأخبار عن أبي سفيان وغيره، ثم سار سالكاً ذات اليمين على وادي ظفران، ولما قطعه نزل. وقد أناه ﷺ الخبر عن مسير قريش ليمنعوا غيرهم، فاستشار الناس وأخبرهم عن مسير قريش، فقام أبو بكر فقال وأحسن، ثم قام عمر فقال وأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله امض لما أمرك الله به؛ فنحن معك؛ والله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى: «اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون» ولكن نقول: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد^(٣) لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه. فقال له رسول الله ﷺ خيراً ودعا له به.

ثم قال رسول الله ﷺ: «أشيروا علي أيها الناس» فوقف سعد بن معاذ وقال: والله لكأنك تعيننا يا رسول الله ﷺ قال: «أجل»! فقال سعد: فقد آتانا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهدنا ومواثيقنا؛ فامض يا رسول الله لما أردت ونحن معك، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا أحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً إنا لصبر في الحرب صدق في اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله، فسر الرسول ﷺ لقول سعد ونشطه، فقال: «سيروا وأبشروا، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأنني الآن أنظر إلى مصارع القوم».

وطلب النبي ﷺ من أصحابه أن يشيروا عليه كان يعني به الأنصار، لأن شروط بيعة العقبة التي كانت بينه وبينهم لم تتضمن نصرتهم له خارج المدينة وإنما داخلها فقط، فخاف ألا يقاتلوا معه من خرج لقتاله، فلذا طمأنه سعد بما قال وسر به، وتابع ﷺ سيره تجاه بدر حتى نزل قريباً منها.

○ تدبير حربي:

وركب رسول الله ﷺ وأبو بكر، والأصحاب نزول، ركبا ليمسحا المنطقة التي نزلوا بها تعرفاً

(٢) هو المقداد بن الأسود رضي الله عنه.

(١) يتناوبون الركوب عليها.

(٣) برك الغماد موضع في أقصى اليمن.

إلى ما في المنطقة، وتطلعاً إلى أخبار العدو «المير وقريش» معاً فعثرا على شيخ يقال له: سفيان الضمري، فسأله رسول الله ﷺ عن قريش وعن محمد ﷺ وأصحابه، وماذا يعرف عنهم، فقال الرجل: لا أخبركما حتى تخبراني من أنتم؟ فقال له رسول الله ﷺ: «إن أخبرتنا أخبرناك» - في هذا القول من الحيلة والاحتباس ما فيه - فقال الشيخ: أذاك بذلك؟ فقال النبي ﷺ: «نعم». فقال الشيخ مخبراً: قد بلغني أن محمداً وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا، فإن صدق الذي أخبرني فهم اليوم في مكان كذا وكذا، للمكان الذي نزل به رسول الله ﷺ وأصحابه، وبلغني أن قريشاً خرجوا يوم كذا وكذا، فإن صدقني الذي أخبرني فهم الآن بمكان كذا وكذا إشارة إلى المكان الذي هم الآن به وهو العدو القصوى، ثم قال: وأنتم؟ فقال النبي ﷺ: «نحن من ماء... أي من جنس الماء الذي خلقنا منه لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠] فكانت منه ﷺ توراة حسنة يتطلبها الموقف.

فأخذ الشيخ يرّد كلمة من ماء مختاراً في هذه التسمية، أمن ماء العراق هما أم من ماء كذا. وعاد النبي ﷺ إلى المعسكر الإسلامي.

○ تدبير آخر:

وفي المساء أرسل النبي ﷺ علياً والزبير وسعد بن أبي وقاص في رجال يتحسسون العدو ويتعرفون أخباره، فعثروا على رجلين يستقيان الماء لقريش، فأتوا بهما إلى المعسكر الإسلامي فسألوهما فقالا: نحن سقاء لقريش، فأنكروا عليهما ذلك، واتهموهما بأنهما سقاء للغير لا لقريش رغبة من الأصحاب في العثور على الغير لا على النفي، لأن الغير لا شوكة فيها بخلاف النفي وهم يؤذون غير ذات الشوكة كما قال تعالى: ﴿وَرَادَّ يَدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الظَّالِمَاتِ إِنَّهَا لَكُمْ وَوَدَّ أَنْ تَكُونَ ذَلِكَ النَّفْسُ كَوْنُكُمْ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٧] وسألوهما، فلما أصرّا على ما قالا، ضربوهما فأوجعهما فقالا: إنهما لأبي سفيان وكان النبي ﷺ يصلي - فلما سلم من صلاته قال لهم: «إذا صدقاكم ضربتموهما، وإذا كذباكم تركتموهما. صدقا والله إنهما لقريش. أخبرانا عن قريش» فقالا: هم وراء هذا الكتيب الذي ترى بالعدوة القصوى، فقال رسول الله ﷺ: «كم القوم» فقالا: كثير، قال: «فما عدتهم؟» قالا: لا ندري. فقال: «كم ينحرون كل يوم من الإبل؟» قالا: ما بين التسعة إلى العشرة، فقال ﷺ: «إذا القوم ما بين التسعمائة والألف» ثم قال لهما: «فمن فيهم من أشرف قريش؟» قالا: عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو البخري بن هشام، وحكيم بن حزام، و... و... فذكرنا كمّاً من أشرف قريش. وهنا أقبل رسول الله ﷺ على الناس، وقال: «هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ^(١) كيدها».

ثم سار رسول الله ﷺ مع أصحابه فنزلوا مكاناً قريباً من العدو الدنيا لا ماء فيه، فعطش

(١) الأفلاذ: جمع فلذة أي قطعة.

المعسكر، وأصاب بعضه جنابة بالاحتلام، فلم يجدوا ماءً يغتسلون به، ووسوس الشيطان لبعضهم: كيف تقاتلون غداً وأنتم جُنُب، وكيف تقاتلون ولا ماء عندكم، قد تموتون عطشاً. إلى آخر ما يلقي الشيطان في نفوس الناس، فأكرمهم الله تعالى فأنزل عليهم مطراً، فسقوا واغتسلوا ولبد الرمل ليسهل الكرُّ والفرُّ عليه.

وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿إِذْ يُنَشِّكُكُمْ أَنتَهُ يُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً يَظْهَرُكُمْ بِهِ وَبُذِّبَ عَنْكُمْ رِجَزُ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: ١١].

○ تدبير سابق:

وكان المعسكر الإسلامي قد بعث بسيس بن عمرو وعدي بن الزغباء يتحسَّسان أخبار العدو ويرقبان تحركاته، فنزلا على تلٍّ قريب من ماء، ثم نزلا يسقيان الماء في شي لهما، وعلى الماء رجل يقال له: مجدي بن عمرو الجهني فسمع سيس وعدي صوتَ جاريتين، تقول إحداهما لصاحبتها، إنما تأتي العير غداً أو بعده، فأعمل لهم ثم أقضيك الذي لك، فسمع عدي وصاحبة حديثهما وما دل عليه، فجلسا على بعيرهما، وأتيا رسول الله ﷺ فأخبراه بما سمعا من خير وُروُد العير غداً أو بعد غدٍ. إلا أن أباسفيان لحذرهُ وشدة توقُّعه تقدَّم العير إلى ماء بدر فوصله ووجد مجدياً فسأله قائلاً: هل أحسست أحداً؟ قال: ما رأيت أحداً أنكره، إلا أني رأيت راكبين قد أناخا إلى هذا التلِّ، ثم استقيا في شئ لهما ثم انطلقا، فأتى أبوسفيان مناخهما وأخذ من بعير ناقتهما، ففتَّته فإذا فيه النوى، فقال: هذه والله علائف يثرب^(١)، فرجع إلى العير سريعاً فحولها عن طريقها فأخذ الساحل وترك بدرًا يسارًا، وانطلق مسرعًا وبذلك نجت العير بكل ما فيها.

وأرسل أبوسفيان إلى قريش يخبرهم أن العير قد نجاها الله فارجعوا، فقال أبوجهل: والله لا نرجع حتى نَرِدَ بدرًا - وكانوا بالجحفة - فنقيم عليها ثلاثاً فننحر الجُرُزَ، ونطعم الطعام، ونسقي الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب، وترى مسيرنا وجمعنا فلا يزالون يهابوننا أبداً. وكانت بدر سوقاً سنوية يجتمع فيها الناس، ورفض الأخنس بن شريق الثقفي - وهو حليف بني زهرة - فقال: يا بني زهرة، ارجعوا فإنه لا حاجة لكم بالمسير إلى بدر، إذ نجَّى الله أموالكم وخلَّص صاحبكم - وهو مخزومة بن نوفل، فرجعوا إلى مكة فلم يشهدوا بدرًا، وسارت قريش حتى نزلت بالعدوة القصوى.

○ عودة إلى المعسكر الإسلامي:

ونظر الحباب بن المنذر إلى المكان الذي نزل فيه الرسول ﷺ بأصحابه فرآه غير لائق عسكرياً، فتقدم إلى رسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله! أرايتَ هذا المنزل؟ أمْزَل أنْزَلَكه الله، ليس لنا أن نتقدم ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: «بل هو الرأي والحرب

(١) يثرب: هي المدينة النبوية، سُميت في الجاهلية يثرب باسم رجل يُقال له: يثرب.

المكيدة» فقال: يا رسول الله، فإن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتي تأتي أدنى ماء من القوم فننزله، ثم تُعَوِّر ما وراءه من القَلْب، ثم ينبني عليه حوضًا فتملؤه ماء، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون. فقال رسول الله ﷺ: «لقد أشرت بالرأي» فنهض رسول الله ﷺ بالمسلمين، وسار إلى أدنى ماء من القوم فنزل عليه، ثم أمر بالقلب فَعُوِّرَت وبني حوضًا على القلب الذي نزل عليه فملئوه ماء، ثم قذفوا فيه الأنية.

○ تدبير صالح:

وتقدم سعد بن معاذ إلى رسول الله ﷺ فقال يا نبي الله، ألا نبني لك عريشًا تكون فيه ونعد عندك ركائبك، ثم تلقى عدونا، فإن أعزنا الله، وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك، فلحققت بمن وراءنا، فقد تخلف عنا أقوام - يا نبي الله - ما نحن بأشد لك حياء منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حربًا من تخلفوا عنك، يمتنعك الله بهم بناصحونك ويجاهدون معك، فأثنى عليه رسول الله ﷺ وبُني العريش وجلس فيه رسول الله ﷺ، وكان هذا من سعد تدبيرًا حسنًا.

○ تقارب المعسكرين:

وتحركات قريش نحو الوادي (وادي المعركة) فلما رآها رسول الله ﷺ تنحدر من الكثيب إلى الوادي قال: «اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تُحَادُّكَ، وتكذب رسولك، اللهم فنصرك الذي وعدتني. اللهم أجنهم الغداة» ورأى عتبة بن ربيعة على جمل أحمر فقال: «إن يكن في أحد من القوم خيرٌ فعند صاحب هذا الجمل الأحمر إن يطعموه يرشدوا».

○ في معسكر الكفر:

ولما استقرت قريش في معسكرها، بعثت عمير بن وهب الجمحي يحزر لها أصحاب محمد ﷺ، فأجال فرسه حول المعسكر الإسلامي ثم رجع، فقال لثلاثمائة رجل يزيدون قليلًا أو ينقصون، ولكن أمهلوني حتى أنظر ما إذا كان للقوم كمين أو مدد، وضرب في الوادي حتى أبعد فلم ير شيئًا، فرجع إليهم فقال: ما وجدت شيئًا، ولكن قد رأيت - يا معشر قريش - البلاء (١) تحمل المنايا، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع (٢) قومٌ ليست لهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم، والله ما أرى أن يقتل رجلٌ منهم حتى يقتل رجلًا منكم، فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك؟! قُروا (٣) رأيكم. وكان هذا من عمير - وإن كان نصيحة - مثل الطابور الخامس (٤)

(١) جمع بليّة وهي الدابة والناقة تربط على قبر الميت فلا تغلف ولا تسقى حتى تموت.

(٢) الناقع: الثابت البالغ في الإفناء.

(٣) أي انظروا ما يصلح بكم.

(٤) هو في اصطلاح المعاصرين: بث أفراد في الجيش المعادي يخونونهم ويخذلونهم.

وسيدها والمطاع فيها، هل لك إلى ألا تزال تُذكر فيها بخير إلى آخر الدهر؟ قال: وما ذاك يا حكيم؟ قال: ترجع بالناس، وتحمل أمر حليفك عمرو بن الحضرمي قال: فعلتُ فعلِي عقله^(١) وما أصيب من ماله، فأت ابن الحنظلية - أبا جهل - فإني لا أخشى أن يشجر^(٢) أمر الناس غيره. إلا أن عتبة قام خطيباً فقال: يا معشر قريش، إنكم - والله - ما تصنعون شيئاً بلفائكم محمداً وأصحابه، والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر في وجه الرجل يكره النظر إليه، قَتَلَ ابن عمه أو ابن خاله من عشيرته؛ فارجعوا واخلوا بين محمد وبين سائر العرب، فإن أصابوه فذاك الذي أردتم، وإن كان غير ذلك ألقاكم ولم تعرضوا^(٣) منه ما تريدون.

وأني حكيم أباجهل وأخبره أن عتبة أرسله إليه بكذا وكذا (أي بالعدل عن الحرب والعودة إلى مكة) فقال: انتفخ - والله سخره^(٤)، كلاً والله لا ترجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، وما بعثته ما قال، ولكنه قد رأى أن محمداً وأصحابه أكلة جزور وفيهم ابنه فقد تخوفكم عليه. فلما بلغ عتبة قول أبي جهل (انتفخ والله سحره) قال: سيعلم مصفر^(٥) أميته من انتفخ سخره: أنا أم هو؟

○ في معسكر الإسلام:

وشرع القائد الأعظم الحبيب محمد ﷺ في تعديل صفوف أصحابه، وكان بيده قُدْح^(٦) يعدل به القوم، فمر بسواد بن غزيرة وهو مُسْتَتِيل^(٧) من الصف فطعن في بطنه بالقُدْح وقال: «استو يا سواد» فقال سواد: يا رسول الله أوجعتني - وقد بعثك الله بالحق والعدل - فأقذني من نفسك، فكشف له ﷺ عن بطنه، وقال له: «استقد» فاعتنقه يقبل بطنه، فقال له: «ما حملك على هذا يا سواد؟» قال: يا رسول الله حضر ما ترى، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدِي جلدك، فدعا له رسول الله ﷺ بخير.

وبعد أن عدل رسول الله ﷺ صفوف أصحابه، رجع إلى العريش فدخله معه أبوبكر الصديق ليس معه فيه غيره، وقام الحبيب ﷺ يناشد ربّه ما وعده من النصر ويقول فيما يقول: «اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد بعدها في الأرض»، وجعله يهتف برّبهِ ويقول: «اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم نصرَك»، ويرفع يديه إلى السماء حتى يسقط الرداء عن منكبيه. وجعل أبوبكر رضى الله عنه يلتزمه من ورائه ويسوي عليه رداءه ويقول مشفقاً عليه من كثرة الإبهال: يا

(١) العقل: الدية فمعنى عليّ عقله: عليّ دية. (٢) معنى يشجر: يفرق.

(٣) يريد وجدكم وما نلتموه بمكروه فيصيح عنكم ولا ينقم منكم. هذا الذي ظهر لي في هذه الجملة ولم أعثر على من شرحها.

(٤) أي رثته وهو كناية عن الجبن والخوف.

(٥) يريد به الجبان الذي لا يحضر الحرب ويبقى بين نسائه يتطبيب ويتعطر.

(٦) سهم. (٧) أي متقدم.

رسول الله بعض مُناشدتك ربك، فإنه سَينجز لك ما وعدك. وخفق النبي ﷺ خفقة أي إغفاءة قليلة، ثم انتبه منها فقال: «أبشر يا أبابكر أنك نصر الله، هذا جبريل آخذ بعنان فرسه يقوده، على ثنياه النقع». أي الغبار.

○ التقاء الفريقين :

في صبيحة يوم الجمعة من شهر رمضان من السنة الثانية من الهجرة تلاقى فريق التوحيد مع فريق الشرك، وقد قَلَّلَ الله كلاً من الفريقين في عين الآخر، جاء هذا في قول الله تعالى من سورة الأنفال: ﴿وَإِذْ يُرِيدُكُمْ لِيُذِلَّكُمْ لَئِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْهُ لِيَكُونَكُمْ لَبَاسٌ عَلَيْكُمْ يُخَالِفُ بِهَا اللَّهُ مَلَائِكُ الْمَلَكُوتِ﴾ [الأنفال: ٤٤].

وبدأت المعركة، فرمى المشركون مَهْجَعًا مولى عمر بن الخطاب رضى الله عنهما بسهم فكان أول قتيل من المسلمين في المعركة، ثم رُمي حارثة بن سراقة - أحد بني عدي ابن النجار، وهو يشرب من ماء الحوض بسهم - فأصاب نحره فقتل، وهو الذي جاءت أمه رسول الله ﷺ لما عاد إلى المدينة، وقالت: يا رسول الله، أخبرني عن حارثة، فإن كان في الجنة صبرْتُ، وإلا فليرين الله ما أصنع - تريد من البكاء والنياحة عليه - فقال لها رسول الله ﷺ: «ويحك أهبلت، إنها جنان ثمانٍ، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى». وخرج من معسكر المشركين الأسود بن عبد الأسد المخزومي - وكان رجلاً شرساً سيئ الخلق - فقال أحاهد الله لأشربن من حوضهم أو لأهدمته أو لأموتنّ دونه. فخرج إليه حمزة رضى الله عنه فلما التقيا ضربه حمزة فاطن قدمه^(١) بنصف ساقه - وهو دون الحوض - فوقع على ظهره تشخب رجله دمًا، ثم حبا إلى الحوض حتى اقتحم فيه، يريد أن يبرّ يمينه، واتبعه حمزة فضربه حتى قتله في الحوض، فكان أول قتيل من المشركين في بدر.

○ المباراة قبل الالتحام :

من سنة الحرب عند الأولين أنهم يبدؤون المعركة بالمبارزة بأن يطلب أحد المعسكرين المباراة من الآخر من باب إثارة الحمية وتهيج المقاتلين. وهنا في غزوة بدر، خرج عتبة بن ربيعة بين أخيه شيبه وابنه الوليد بن عتبة بن ربيعة فدعا إلى المباراة فخرج إليه فتية من الأنصار، وهم عوف ومعوذ ابنا عفراء، وعبد الله بن رواحة فسألوهم: من أنتم؟ فقالوا: رهط من الأنصار. قالوا: ما لنا بكم من حاجة، ثم نادى مناديتهم: يا محمد أخرج لنا أكفأنا من قومنا. فقال رسول الله ﷺ: «قم يا عبيدة بن الحارث، وقم يا حمزة، وقم يا علي». فلما قاموا ودنوا منهم قالوا: من أنتم؟ قال عبيدة: عبيدة، وقال حمزة: حمزة، وقال علي: علي. قالوا: نعم أكفأ كرام، فبارز عبيدة عتبة ابن ربيعة وبارز حمزة شيبه بن ربيعة، وبارز علي الوليد بن

(١) أطلنّ قدمه: أي قطعها من نصف ساقها.

عتبة، فأما حمزة فلم يمهل شبة أن قتله، وكذلك علي لم يمهل الوليد أن قتله، واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتين، فأثبت^(١) كلاهما صاحبه، وكثر حمزة وعلي بأسيا فهاهما على عتبة فذقنا^(٢) عليه واحتملا صاحبهما وحازاه إلى معسكرهم.

ثم ظهر النبي ﷺ للناس، فحرضهم على القتال، فقال: «والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة» فقال عمير بن الحُمام أخو بني سلمة - وفي يده تمرات يأكلهن: بخ بخ أفما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء؟ ثم قذف التمرات من يده، وأخذ سيفه، فقاتل القوم حتى قُتل - رضي الله عنه وأرضاه - . ثم تقدم إلى رسول الله ﷺ ابنُ عفرأ - وهو عوف بن الحارث - فقال: يا رسول الله، ما يضحك الرب من عباده؟ قال: «عَمُسُهُ يَدُهُ فِي الْعَدُوِّ حَاسِرًا»، فنزع درعاً كانت عليه فقذفها، ثم أخذ سيفه، فقاتل القوم حتى قُتل - رضي الله عنه وأرضاه - وهنا تقدم الحبيب ﷺ، فأخذ حفنة من الحصباء فاستقبل قريشاً بها، وقال: «شاهت الوجوه» ثم نفحهم^(٣) بها، وأمر أصحابه وقال: «شدوا» وعاد إلى العريش، واقتتل الفريقان وكانت الهزيمة للمشركين، فقتل الله مَنْ قُتل من صناديد قريش وأسر من أسر من أشرفهم، فلما وضع القوم أيديهم يأسرون كان الحبيب محمد ﷺ ساعته في العريش وسعد بن معاذ قائم على باب العريش متوشح السيف في نفر من الأنصار يحرسون رسول الله ﷺ خوفاً عليه من كرة العدو عليه.

○ نهاية سعيدة:

ودرات المعركة وشاركت فيها الملائكة وعلى رأسهم جبريل - عليه وعليهم السلام - وكان عددهم ألف ملك في صورة رجال عليهم عمائم بيض أرسلوها على ظهرهم إذ شوهده بعضهم وأخبر بهم الرسول ﷺ. ومن سورة الأنفال قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَفِثُونَ رَيْكَكُمْ﴾ [الأنفال: ٩] أي تطلبون الغوث منه؛ لأنهم ق ضجوا بالدعاء عند ملاقات المشركين سائلين الله تعالى أن يمددهم بنصرته ﴿فَأَسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَوِّينَ﴾ [الأنفال: ٩]. وفيها أيضاً ﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا اللَّيْلَ ۚ آمَنُوا﴾ [الأنفال: ١٢].

فبعض الملائكة قاتل بالفعل وبعضهم كان يثبت قلوب المؤمنين حتى تصبر على القتال. ولقد انتهت المعركة بنصر حاسم للمسلمين إذ قتل من صناديد قريش سبعون وأسر منهم سبعون. وكان من بين القتلى الطاغية فرعون هذه الأمة أبو جهل، وعتبة بن ربيعة، وولده

(١) يُقال ضربه فأثبته إذا جرحه جرحاً أقعده عن القيام والحركة.

(٢) أي أسرعاً قتله وأنبأ حياته ضرباً بالسيف.

(٣) أي رماهم بها وفي هذه يقول تعالى في سورة الأنفال: ﴿وَمَا رَمَيْكَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكَرَّكَ اللَّهُ رَجَاءً﴾ [الأنفال: ١٧] لأن هذه النفرة بالحصباء نفذت إلى وجوه أكثر المقاتلين فاصابهم بالهزيمة؛ إذ لولا الله تعالى ما كنت تصل حفنة بالحصباء إلى أكثر من واحد أو اثنين من المشركين.

الوليد بن عتبة وأخوه شيبه ابن ربيعة، وحنظلة بن أبي سفيان وعقبة بن أبي معيط، وأبو البختري، وعبيدة بن سعيد بن العاص، ونوفل ابن خويلد، والنضر بن الحارث بن كلفة، والعاص بن هشام وأمّية بن خلف وغيرهم إذ كانوا سبعين قتيلًا.

ومن بين الأسرى: العباس عم النبي ﷺ، وعقيل بن أبي طالب، ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب، وعمرو بن أبي سفيان وأبو العاص بن الربيع زوج زينب بنت رسول الله ﷺ، وأبو عزيز بن عمير أخو مصعب بن عمير، وسهيل بن عمرو أحد ساسة قريش البارزين.

○ آية محمدية:

كانت المعركة دائرة والقتال مستمرًا وسيُفُ عكاشة بن محصن ينقطع من الضرب في يده فكيف يقاتل؟ فأتى الرسول ﷺ وهو في العريش - مركز القيادة - وشكا إليه انقطاع سيفه، فأعطاه النبي ﷺ جذلاً^(١) من حطب، وقال: «قاتل بهذا يا عكاشة» فلما أخذه من يد رسول الله ﷺ هزه في يده، فعاد سيفًا في يده طويل القامة، شديد المتن، أبيض الحديد فقاتل به حتى فتح الله على المسلمين، وكان ذلك السيف يسمى «العون» وما زال مع عكاشة يقاتل به حتى قتل رضى الله عنه في حرب الردة على عهد أبي بكر الصديق. فكان هذا السيف آية النبوة المحمدية القوية.

○ جيف المشركين:

لما خمدت نار المعركة - ودفن المسلمون شهداءهم، وكانوا أربعة^(٢) عشر شهيدًا سُحبت جيفُ المشركين إلى قليب^(٣) كان في ساحة المعركة، فألقوا فيه إلا ما كان من الطاغية أمّية بن خلف، فإنه قد انتفخ في درعه فملاها فذهبوا ليحركوه فتزاييل^(٤) لحمه فتركوه مكانه، وألقوا عليه ما غيبه من التراب والحجارة.

○ توبيخ الحبيب محمد ﷺ لأعدائه:

وفي جوف الليل سُمع النبي ﷺ وهو واقف على القليب - الذي ألقيت فيه جيف المشركين - يناديهم موبخًا لهم مقررًا: «يا أهل القليب بشس عشيرة النبي كنتم لنبيكم. كذبتُموني وصدقني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس، وقاتلتُموني ونصرني الناس، فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقًا؟ فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقًا». فقال له بعض أصحابه: يا رسول الله أتنادي قومًا قد

(١) أي عودًا من حطب.

(٢) هم: عبيد بن الحارث بن عبد المطلب توفي ونحذه على قدم النبي ﷺ ولما فاضت روحه قال: أشهد أنك شهيد. وعمير بن أبي وقاص أخو سعد، وذو الشمالين بن عبد عمرو، وعاتل بن البكير، ومهجع مولى عمر بن الخطاب. وصفوان بن بيضاء. هؤلاء من المهاجرين سنة أنفار. ومن الأنصار: سعد بن خثمة، ومبشر بن عبد المنذر، ويزيد بن الحارث وعمير بن الحمام، ورافع بن المعل، وحارثة بن سراقة، وابنا عفراء وعوف ومعوذ ابنا الحارث - رضي الله عنهم أجمعين -.

(٣) أي انفصل عنه وتساقط.

(٤) البثر لا ماء فيها.

جُيِّفُوا^(١)! فقال لهم: «ما أنتم بأسمع منهم لما أقول لهم، ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوا». وفي هذا يقول حسان في قصيدة سجل فيها غزوة بدر منها قوله:

فدغ عنك التذكرُ كل يوم وردَّ حرارة الصدر الكثيب
وخبِرُ بالذي لا عيب فيه بصدق غير إخبار الكذب
بما صنع المليكُ غداة بدر لنا في المشركين من النصيب
غداة كأن جَمْعَهُم حراة بدت أركائهُ جُنَحَ الغروب
فلاقيناهم يثًا بجَمْعِ كأشد الغاب مُزدانٍ وشيب
أمام مُحمَّد قد وازروه على الأعداء في لَفْحِ الحروب
بأيديهم صوارمُ مرهفات وكل مجرَّب^(٢) خاطي الكُعب
بنو الأوس الغطارف وازرئها بنو النجار في الدِّين الصليب^(٣)
فغادرنا أبا جهل صريحا وعتبة قد تركنا بالجيوب^(٤)
وشيبة قد تركنا في رجال ذوي حسب إذا نُسبوا حسيب
يناديهم رسولُ الله لما قذفناهم كباكبٍ في القلب
ألم تجدوا كلامي كان حقًا وأمر الله يأخذ بالقلوب
فما نطقوا، ولو نطقوا لقالوا: صدقت وكنت ذا رأي مُصيب

○ خلاف الأحية وحسمه:

وأمر القائد الأعظم الحبيب محمد ﷺ - بعد انجلاء الموقف بقتل المشركين وأسرههم - أمر بجمع الغنائم فجمعت، واختلف الأصحاب المجاهدون - رضوان الله عليهم - فيمن هو الأحق بها؟ فقال الجامعون لها: هي لنا، وقال المقاتلون الذين شغلوا عن جمع الغنائم بقتال المشركين وطلبهم: والله لولا نحن ما أصبتموها، إذ نحن الذين شغلنا العدو عنكم حتى أصبتم الذي أصبتم، وقال الذين كانوا يحرسون النبي ﷺ في العريش؛ خشية أن يخالف إليه العدو: والله ما أنتم أحق بها منا، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿يَتْلُوَنَّكَ عَنِ الْآفَاقِ فِي الْأَفَاقِ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١]. وبهذا انتزعها الله من أيديهم حسما للخلاف، ثم أنزل قسمتها في قوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَآبِئِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَرْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْاَلْفَجَمِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال: ٤١]. وبهذا حسم الخلاف وانتهى نهائيا، والحمد لله رب العالمين.

(١) أي صاروا جيِّفاً.

(٢) الشديد من صلابته.

(٣) المكتر الممتلئ.

(٤) الجيوب: وجه الأرض لأنها تجب أي تحفر وتقطع.

○ بشائر النصر :

وعجل الحبيب محمد ﷺ بتبشير المسلمين في المدينة بالنصر الذي تَمَّ، فبعث عبد الله بن رواحة بشيرًا إلى أهل العالية، وبعث زيد بن حارثة إلى أهل السافلة .
قال أسامة بن زيد رضى الله عنه : أتانا الخبر - حين سويتنا التراب على رقية بنت رسول الله ﷺ التي كانت عند عثمان بن عفان رضى الله عنه أنَّ زيد بن حارثة قد قدم، فجئتُ وهو واقف بالمصلَّى قد غشيه الناس وهو يقول : قتل عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبوجهل، وزمعة بن الأسود، وأبوالبختري، وأمّية بن خلف، ونبيه ومثبه ابنا الحجاج، فقلت : يا أبت أحق هذا؟ قال : نعم، والله يا بُني .

○ طلوع البدر :

وطلع الحبيب محمد ﷺ من بدر عائداً إلى المدينة، ومعه الأسارى من المشركين، واحتمل معه الغنائم، وجعل عليها عبد الله بن كعب التجاري وسار ﷺ، حتى إذا خرج من مضيق الصفراء نزل علي كتيب بين المضيق وبين النازية إلي سرحة به، فقسم هناك الغنائم بالسوية على المسلمين، ثم ارتحل حتى إذا كان بالروحاء لقيه المسلمون يهتفون بما فتح الله عليه وعلى من معه بالنصر المبين، وأثناء مسيره - وبالصفرَاء بالضبط - قتل علي بن أبي طالب النضر بن الحارث - أحد الأسرى - كما قُتل عقبة بن أبي معيط قَتَلَهُ عاصم بن ثابت الأنصاري بجزق الطيبة، وثُمَّ لقي رسول الله ﷺ أبوهند حَجَّام الرسول ﷺ، لقيه بحميت^(١) حَيَسًا، فقال فيه رسول الله ﷺ : «إنما هو أبوهند امرؤ من الأنصار فأنكحوه، وأنكحوها إليه»، ففعلوا، وكان أبوهند مولى لقروة بن عمرو البياضي، ثم مضى رسول الله ﷺ في مسيره إلى المدينة فوصلها قبل الأسارى بيوم .

○ أيهما خير؟ القتل أو الفداء :

إنه بعد أن أتمَّ الله نصره لرسوله والمؤمنين - حيث انهزم المشركون وفروا من المعركة لاندنين تاركين وراءهم سبعين جثة ألقيت في القليب وسبعين أسيرًا وُضِعُوا في القيود، وقفل رسول الله ﷺ راجعًا، ونزل منزلاً^(٢)، واستشار أصحابه في الأسرى أَيْقَتُلُونَ أم يَفَادُونَ بما يستعان به على مواصلة الجهاد؟ فقال ﷺ : «إن الله قد أمكنكم منهم، فما تقولون في هؤلاء الأسرى؟» فقام عمر رضى الله عنه فقال : يا رسول الله اضرب أعناقهم، فأعرض عنه النبي ﷺ . ثم عاد ﷺ إلى قوله طالبًا المشورة في الأسرى، فقام أبوبكر رضى الله عنه فقال : يا رسول الله نرى أن تعفو عنهم، وأن تقبل منهم الفداء . فذهب عن وجه النبي ﷺ ما كان فيه من الغم فعفا عنهم وقبل الفداء،

(١) الحميت : الزق من جلد، والحيس السمن يخلط بالتمر والأقط .

(٢) هو الكتيب الذي بين المضيق وبين النازية المتقدم في السياق السابق .

فأنزل الله تعالى من سورة الأنفال: ﴿مَا كَان لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُتْرَكَ فِي الْأَرْضِ يُرِيدُ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٧]. فوافقت الآية عمرَ رضى الله عنه فيما رآه من قتل الأسرى في هذه المعركة. وأنزل الله تعالى عذر نبيه ﷺ وعذر صاحبه أبي بكر الصديق فقال: ﴿مَا كَان لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُتْرَكَ فِي الْأَرْضِ يُرِيدُ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿لَوْلَا كِتَابُ رَبِّكَ لَسَبَّ أَسَفًا لَكُمُ الْمَسْكُونَةُ إِذْ أَخَذْتُم مِّنَ الْأَرْضِ عَرَضًا عَظِيمًا﴾ ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَتَّىٰ تَبْلُغُوا إِلَىٰ الْغَنَائِمِ﴾ [الأنفال: ٦٧-٦٩]. وأنزل في الأسرى قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُلْ لَّن فِي أَيْدِيكُمْ ثَمَرُ الْأَسْرِ إِنْ يَسَلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٠]. فجمعهم بهذا على دفع الفدية وواعده بالمغفرة والرحمة إن هم أسلموا وحسن إسلامهم.

من بين هؤلاء الأسرى العباس بن عبد المطلب عم النبي ﷺ، وعقيل بن أبي طالب وغيرهما. وبهذا كان القتل للأسرى في هذه المعركة البدرية خيراً من المفاداة، لأنها أول معركة انتصر فيها الإسلام. وإن كان المفاداة في غيرها خيراً، وفي كل خير والحمد لله إذ أنزل تعالى بعد هذه الآيات من سورة الأنفال، أنزل سورة القتال، وفيها قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّجَالِ حَتَّىٰ إِذَا أَتَمْتُمُوهُم فَذُرُّوا وَلَا تَمَّاسًا وَلَا يَدًا عَنَّا وَلَا قُلُوبًا مَّعَكُمْ وَلَا يَذَرُوكُم بِالْأَعْيُنِ﴾ [محمد: ٤]. فخير تعالى في هذه الآية الإمام بين المَنِّ مجاناً وبين الفداء بمقابل، وبين القتل، فليُدِّر الإمام مع المصلحة العامة للإسلام والمسلمين، فإن كانت في الفداء قُدِّي وإن كانت في القتل قتل، وإن كانت في المَنِّ مَنٌّ.

○ كرم محمدي:

إنه لعظم كرمه ﷺ ووافر رحمته، لما أعطى الأسارى لأصحابه يأتون بهم إلى المدينة النبوية مفرقين بينهم، قال لهم: «استوصوا بالأسارى خيراً». وها هو ذا أبو عريز بن عمير أخو مصعب بن عمير، وقد أسر يحدث فيقول: مرَّ بي أخي مصعب ورجلٌ من الأنصار بأسيرين، فقال له شدَّ يديك به - أي حافظ عليه - فإن أمه ذات متاع لعلها تقديه منك؟ قال أبو عريز: وكنت في رهط من الأنصار حين أقبلوا بي من بدر، فكانوا إذا قدَّموا غداهم أو عشاءهم خصوني بالخبز وأكلوا التمر؛ لو صية رسول الله ﷺ بنا، فما تقع في يد رجل منهم كسرة خبز إلا نفحني بها، فاستحيي فأردها على أحد، فيردوها علي ما يمسه. فسبحان الله ما أطوع أصحاب رسول الله!! فـﷺ، ما أرحمه!! لقد نالت رحمته أعداءه، ورضي الله عن صحابته الطيِّعين البررة الخيِّرين.

○ صدى هزيمة المشركين في مكة:

ودخل مكة أول داخل من المعركة الحُسَيْنَانُ بن عبد الله الخزاعي، فسأله في لهف: ما وراءك؟ قال: عتبة وشيبة وأبو الحكم وأمّية بن خلف، وزمعة بن الأسود، ونبيه ومُنَبِّه وأبو البُخْتري، فلما أخذ يعدد أشراف قريش، قال صفوان بن أمّية وهو قاعد في الحجر: والله ما يعقل هذا، فأسأله عتي. فقالوا: ما فعل صفوان بن أمّية؟ قال: هو ذاك جالساً في الحجر، وقد

رأيت أباه وأخاه حين قتلا .

ولنستمع إلى أبي رافع مولى رسول الله ﷺ يحدث بنبا هزيمة المشركين فيقول : كنت غلاما للعباس ، وكان أبو لهب قد تخلف عن بدر ، وبعث مكانه العاص بن هشام ، فلما جاءه الخبر أقبل يجزّ رجليه بشراً ، حتي جلس على طنب حجرة زمزم - أي طرفها - فبينما هو جالس إذ قال الناس : هذا أبوسفیان بن الحارث قد قدم ، فما إن رآه حتي قال له : هَلُمَّ إلي ، لعمرى عندك الخير ، فجلس إليه والناس قيام عليه ، فقال له : يا ابن أخي ، أخبرني كيف كان أمر الناس ؟ قال : والله ما هو إلا أن لقينا القومَ فمنحناهم أكتافنا ، يقتلوننا كيف شاءوا ، ويأسروننا كيف شاءوا ، وأيم الله مع ذلك ما لُمْتُ الناس ، لقد لقينا رجالاً بيضاً على خيل بُلّقي بين السماء والأرض ، والله ما تُليق ^(١) شيئاً ولا يقوم لها شيء ، قال أبو رافع : قلت : تلك - والله الملائكة ، فرجع أبو لهب يده فضرب بها وجهي ضربة شديدة ، وثاورته فاحتملني فضرب بي الأرض ، ثم برك علي يضريني ، فقامت أم الفضل إلى عمود من عُمد الحجرة ، فأخذته فضرته به ضربة شقت رأسه ، وقال : أستضعفتُه أن غاب عنه سيده؟ فقام موليا ذليلاً ، فوالله ما عاش بعدها إلا سبع ليال فرماه الله بالعدسة ^(٢) فقتلته .

هذه واحدة من صدى الهزيمة . . .

وأخرى : وهي أن قريشاً لما فوجئت بالكارثة الشديدة ، ناحت نساؤها نوحاً شديداً ، ثم رأوا أن النبي ﷺ وأصحابه إذا علموا ذلك شَمَتُوا بهم ، فصدر أمرٌ بمنع النياحة ، وعدم المطالبة بمفاداة الأسرى خشية أن يغالي محمد وأصحابه في ثمن الفداء .

ومن غريب ما حصل ، أن الأسود بن المطلب قد أصيب له ثلاثة من ولده وهم : زمعة ، وعقيل ، والحارث فأصيب أن يبكي ، وحال دون ذلك قرأُ المنع الذي صدر عن قريش . فبينما هو كذلك إذ سمع نائحة - الليل تنوح ، فقال لـ غلام له اذهب فانظر هل أحلَّ التَّحِبُّ؟ أي هل بكت قريش على قتلاها؟ لعلي أبكي على أبي حكيمة - ولده زَمْعَة - فإن جوفى قد احترق ، فذهب الغلام وعاد فقال له : إن الباكية امرأة تبكي على بغير لها أضلته ، فأنشد هو يقول :

أتبكي أن يضلَّ لها بغير ويمنعها من النوم السُّهودُ ^(٣)
فلا تبكي على بكرٍ ولكن على بدر تقاصرت الجدود
على بدر سراة بني هصيص ومخزوم ورهط أبي الوليد

○ من أصدقاء المعركة وآثارها :

إن لمعركة بدر أصدقاء وآثراً إنا - وإن كنا قد عايشنا المعركة ورأينا أحداثها داخل الساحة

(١) أي ما تبقى شيئاً .

(٢) قرحة قاتلة كالطاعون ، والعياذ بالله تعالى .

(٣) الأرق وعدم النوم فهو بمعنى الشَّهاد .

وخارجها - إلا أن لهذه المعركة التاريخية الفاصلة أصداءً وآثارًا ذات مدًى قريب أو بعيد، فَحَسَنَ رؤية ذلك ومشاهدته. وإزاء النقاط السود نذكر ما يمكن ذكره من ذلك :

○ فداء أبي وداعة:

لقد أسر أبو وداعة السهمي فيمن أسر في المعركة، فلما رآه النبي ﷺ أو سمع به أنه ضمن الأسرى قال - فداء أبي وأمي - : إن له بمكة ابنًا كيسًا تاجرًا ذا مال وكانكم به وقد جاءكم في طلب فداء أبيه. ولما قالت قريش: لا تعجلوا بفداء أسرائكم لا يَأْرَبُ^(١) عليكم محمد وأصحابه، قال المطلب بن أبي وداعة: صدقتم لا تعجلوا، وانسلّ هو ليلاً، فقدم المدينة ففدى والده بأربعة آلاف درهم، وهكذا يفعل الأكياس البررة بأبائهم، وصدق رسول الله ﷺ فيما أخبر به وكانت آية نبوة.

○ سهيل بن عمرو:

قدم مكرز بن حفص المدينة في فداء سهيل بن عمرو، وكان قد أسره مالك بن الدُخْشَم أخو بني سالم بن عوف الأنصاري، فلما خاطبهم مكرز في فداء سهيل بن عمرو قالوا: هات الذي لنا - يريدون من المال - مقابل فداء سهيل. فقال لهم مكرز: اجعلوا رجلي مكان رجله، وخلّوا سبيله حتى يبعث إليكم بفدائه، فخلّوا سبيل سهيل وحبسوا مكرزاً مكانه، وكان سهيل رجلاً أعلم - أي مشقوق الشفة العليا، وكان خطيباً - فقال عمر رضى الله عنه: يا رسول الله، دعني أنزع ثنيتي سهيل بن عمرو فلا يقدم عليك خطيباً أبداً، فقال رسول الله ﷺ: «لا أمثل به؛ فيمثل الله بي وإن كنت نبياً، وإنه عسى أن يقوم مقاماً لا تدمه عليه».

○ أبو العاص بن الربيع:

أبو العاص بن الربيع هو ختن النبي ﷺ إذ هو زوج زينب بنت رسول الله ﷺ زوجه إياها قبل البعثة النبوية برغبة من والدتها خديجة - رضي الله عنهم أجمعين وألحقني بهم أمين - . ولما بُعث النبي أمنت خديجة وكذا بناتها ومنهن زينب، وبقي أبو العاص على شركه، وخرج مع المشركين إلى بدر، فوقع في الأسر، فبعثت زينب في فدائه بمال، وبعثت فيه بقلادة لها كانت خديجة أدخلتها بها على أبي العاص حين بنى بها، فلما رآها رسول الله ﷺ رَقَّ لها رقة شديدة، وقال: «إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها، وتردوا عليها مالها فافعلوا»، فقالوا نعم، يا رسول الله وأطلقوه وردوا عليها الذي لها، وتجلت في هذه آيات الحب الصادق والطاعة الإيمانية، والبشرية المحمدية الطاهرة الرفيعة.

○ هجرة زينب رضي الله عنها:

لما من ﷺ على أبي العاص بدون مقابل كأنه التزم للنبي ﷺ أنْ يَخْلِي سبيل زينب لتلتحق بأبيها^(١) أي لا يقوم عليكم مستعيناً بأموال الفداء.

ﷺ بالمدينة النبوية . من هنا لما وصل أبو العاص بن الربيع إلى مكة بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة ورجلاً من الأنصار إلى مكة ليأتيها بزینب وقال لهما : كونا ببطن يا جج^(١) حتى تمر بكما زينب فنصحبها حتى تأتياني بها ، فخرجا مكانهما وذلك بعد بدر بشهر تقريباً فلما قدم أبو العاص أمرها بالحق بأبيها . وبينما زينب تتجهز للسفر ، لقيتها هند بنت عتبة ، فقالت لها : يا بنت محمد ، ألم يبلغني أنك تريدين اللّٰحق بأبيك؟ فخافتها زينب فقالت لها : ما أردت ذلك ، فقالت لها : أي ابنة عمّي لا تفعلني ، إن كانت لك حاجة بمناخ مما يرق بك في سفرك ، أو بمال تبليغي به إلى أبيك ، فإن عندي حاجتك ، فلا تستحييني مني ، فإنه لا يدخل بين النساء ما بين الرجال . قالت زينب : والله ما أراها قالت ذلك إلا تفعل ، ولكن خفتها فأنكرت أن أكون أريد ذلك .

ولما فرغت زينب من جهازها ، قدم لها حموها^(٢) كنانة بن الربيع بغيراً ، فركبته وأخذ هو قوسه وكنانته ، ثم خرج بها نهاراً يقود بها وهي في هودج لها على البعير ، وسمع بذلك رجال من قريش لحقوا بها فأدركوها بذئ طوي ، فكان أول من سبق إليها فروّعها هبار بن الأسود بن المطلب بن أسد إذ أشار إليها بالرمح فخافت فطرحته ما في بطنها ، وبرك على الأرض حموها ونثر كنانته ، ثم قال لهم : والله لا يدنو مني رجل إلا وضعت فيه سهمي فتراجعوا عنه وانصرفوا ، ثم تقدم نحوه أبوسفيان مفاوضاً له فقال له : إنك لم تُصب ؛ خرجت بالمرأة على رؤوس الناس علانية وقد عرفت مصيبتنا وتكيتنا ، وما دخل علينا من محمد ، فيظن الناس إذا خرجت بابتنته علانية على رؤوس الناس من بين أظهرنا أنّ ذلك عن ذلّ أصابنا عن مصيبتنا التي كانت ، وأن ذلك متا ضعف ووهن ، ولعمري ما لنا بحبسها عن أبيها من حاجة . وما لنا في ذلك من ثورة^(٣) ولكن ارجع بالمرأة حتى إذا هدأت الأصوات وتحدث الناس أن قد رددناها فسلّها سرّاً وألحقها بأبيها ، قال : ففعل ، فأقامت ليالي حتى هدأت الأصوات خرج بها ليلاً حتى أسلمها إلى زيد بن حارثة وصاحبه فقدا بها على رسول الله ، وكان في قصة هجرة زينب عبرة لأولي الألباب .

○ إسلام أبي العاص وكيف كان :

قبيل فتح مكة خرج أبو العاص بن الربيع بعلى زينب بنت رسول الله ﷺ المهاجرة إلى أبيها بالمدينة - خرج تاجرًا إلى الشام ، وكان رجلاً مأموناً يأخذ أموال أرباب الأموال ويتجر فيها ، وعند رجوعه من الشام اعترضته سرية من سرايا رسول الله ﷺ فأخذوا ما معه من أموال ، وهرب فأعجزهم ، ووصل المدينة ليلاً مختفياً فدخل على زينب فاستجار بها فأجارته ، وقد جاء في طلب ماله ، فلما خرج رسول الله ﷺ للصلاة الصبح ، وكبر فيها وكبر الناس معه صرخت زينب من صفّة النساء : أيها الناس ، إني قد أجزت أبا العاص ابن الربيع ، فلما سلم رسول الله ﷺ من الصلاة أقبل

(١) موضع على ثمانية أميال من مكة والميل حوالي كيلو وستمئة متر . (مصححه).

(٢) أخو زوجها .

(٣) أي طلب ثار

على الناس فقال: «أيها الناس هل سمعتم ما سمعتم؟» قالوا: نعم، قال: «أما والذي نفس محمد بيده ما علمت بشيء من ذلك حتى سمعتم ما سمعتم، إنه يجير على المسلمين أديانهم». ثم انصرف رسول الله ﷺ فدخل على ابنته فقال: «أي بُنية أكرمي مثواه، ولا يخلصن إليك؛ فإنك لا تحلين له»^(١).

ثم بعث رسول الله ﷺ إلى أفراد السرية فقال لهم: «إن هذا الرجل منا حيث قد علمتم، وقد أصبتم له مالا، فإن تحسنوا وتردوا عليه الذي له فإننا نحب ذلك، وإن أبيتم فهو فيء الله الذي أفاء عليكم، وأنتم أحق به» فما كان منهم إلا أن ردوا عليه كل ماله حتى إن الرجل يأتي بالشاة والآخر يأتي بالشظاظ^(٢)، حتى ردوا عليه ماله بأشهره، فاحتمله إلى مكة وردّه إلى أهله ثم قال: يا معشر قريش، هل بقي لأحد منكم عندي مال لم يأخذه؟ قالوا: لا، فجزاك الله خيرا؛ فقد وجدناك وفيا كريما، قال: فأننا أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، والله ما منعني من الإسلام عنده إلا تخوف أني إنما أردت أكل أموالكم، فلما أداها الله إليكم، وفرغتم منها أسلمت، ثم خرج حتى قدم على رسول الله ﷺ فرد عليه زينب بعد فترة فرّق الإسلام بينهما لتقدم إسلامها وتأخر إسلامه.

○ مثل رائع يضربه أبو العاص:

إنه لما قدم أبو العاص من الشام ومعه أموال التجارة واعترضته السرية قال له رجالها: هل لك أن تسلم وتأخذ هذه الأموال؛ فإنها أموال المشركين؟ فقال: ينس ما أبداً به إسلامي أن أخون أمانتي، فرفض المقترح، وكان الذي كان... ووصل مكة وأدى أموال الناس وهي أمانات في ذمته، ثم أعلن إسلامه، فكان هذا مثلاً رائعاً في الوفاء يضربه ختن^(٣) الحبيب محمد ﷺ أبو العاص بن الربيع فرضي الله عنه، وأرضاه، وجعل الجنة مأواناً ومأواه آمين.

○ إسلام شيطان:

كان بمكة رجل يدعى عمير بن وهب يمثل الشيطان في كيدته وخيئه؛ آذى المؤمنين في مكة آذى كبيراً وكثيراً. وُصف بأنه شيطان من شياطين قريش، جلس يوماً يتحدث مع صفوان بن أمية بعد مصاب أهل بدر، فذكر أصحاب القليب فقال صفوان: والله ما في العيش بعدهم خير، فقال عمير: صدقت والله، ثم قال: أما والله لولا دين علي ليس له عندي قضاء، وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدي لركبت إلى محمد حتى أقتله؛ فإن لي قلوبهم علّة؛ ابني وهيب أسير في أيديهم، فاغتنمها صفوان، وقال: علي دينك، أنا أقضيه عنك، وعيالك مع عيالي، أراسيهم ما بقوا لا يسعني شيء ويعجز عنهم. فقال له عمير: فاكتم شأننا وشأنك، قال صفوان: أفعل.

(٢) خشبة صغيرة عفاة تدخل في عروتي الجوالق.

(١) أي بوطه وجماع.

(٣) الختن: الصهر.

فأمر عمير بسيفه، فُشِّجَ له وُسْمٌ^(١) ثم انطلق حتى أتى المدينة. فبينما عمر بن الخطاب في نفر من المسلمين يتحدثون عن يوم بدر، إذ نظر عمر إلى عمير بن وهب حين أتاخ على باب المسجد متوشحاً بالسيف، فقال: هذا الكلب عدو الله عمير بن وهب، والله ما جاء إلا لشرٍّ، ثم دخل عمر على رسول الله ﷺ، فقال يا نبي الله، هذا عدو الله عمير بن وهب قد جاء متوشحاً سيفه. فقال رسول الله ﷺ: «أَدْخِلْهُ عَلَيَّ» فأخذ عمر بحمالة سيفه في عنقه ولَبَّيه بها، وقال لرجال من الأنصار: ادخلوا على رسول الله ﷺ فاجلسوا عنده، واحذروا عليه من الخبيث؛ فإنه غير مأمون، ثم دخل به على رسول الله ﷺ، فلما رآه رسول الله ﷺ - وعمرُ أخذُ بحمالة سيفه في عنقه - قال: «أَرْسَلَهُ يَا عُمَرُ، اذْنُ يَا عَمِيرُ» فدنا وقال: اتعموا صباحاً - وكانت هذه تحية الجاهلية - فقال رسول الله ﷺ: «قد أكرمنا بتحية خير من تحيتك يا عمير: بالسلام، تحية أهل الجنة» فقال عمير أما والله يا محمد إن كنت بها لحديث عهد. قال: «فما جاء بك يا عمير؟» قال: جئتُ لهذا الأسير الذي بين أيديكم - يعني ولده وهيباً - فأحسنوا به، قال الحبيب محمد ﷺ: «فما بال السيف في عنقك؟» قال: قبحها الله من سيف، وهل أغنيتُ عتاً شيئاً؟ قال: «اضدقني الذي جئتُ له؟» قال: ما جئتُ إلا لذلك، قال النبي ﷺ: «بل قعدت مع صفوان بن أمية في الحجر، فذكرتما أصحاب القليب من قريش ثم قلت: لولا دَيْنُ علي، وعيال عندي لخرجتُ حتى أقتل محمداً، فتحمل لك صفوان دينك، وعيالك على أن تقتلني له، والله حائل بينك وبين ذلك». قال عمير: أشهد أنك رسول الله، قد كنتُ يا رسول الله نكذبك بما كنتُ تأتينا به من خبر السماء، وما ينزل عليك من الوحي، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان، فوالله إني لأعلم أنه ما أتاك به إلا الله. فالحمد لله الذي هداني للإسلام، وساقني هذا المساق، ثم شهد شهادة الحق، فقال رسول الله ﷺ: «فقهوا أخاكم في دينه وأقرئوه القرآن وأطلقوا له أسيرَه» ففعلوا، وعاد عمير إلى مكة وقام بالدعوة إلى الإسلام بنفس القوة التي كان يدعو بها ضد الإسلام وأوذي كثيراً في ذلك، وقد دخل بدعوته في الإسلام خلقٌ كثيرٌ.

وهكذا بعد ما كان عمير بن وهب شيطاناً، أسلم فأصبح داعية إسلامية، وهدى الله على يديه خلقاً كثيراً. وهنا تتجلى آية النبوة المحمدية الإيمانية وهي أن من يهد الله فلا مضل له، ومن يضل فلا هادي له.

○ شرف أهل بدر:

أهل بدر هم المؤمنون الذين خرجوا من المدينة مع النبي ﷺ لاعتراض عير قريش القادمة من الشام. ثم لما نجحت العير تصدروا لقتال كفار قريش في وادي بدر، وكانوا ثلثمائة وأربعة عشر رجلاً على عدة قوم طالوت، هؤلاء هم أهل بدر الفائزون بأكبر فضل، وأعظم شرف؛ تدل لذلك

(١) يُقال: سَمَّ السلاح سقاء السم بطريقة معروفة عندهم.

الأخبار النبوية الآتية:

١ - قوله ﷺ: «لأم حارثة الشهيد الأنصاري، وقد سألته قائلة: يا رسول الله! قد عرفت منزلة حارثة مني، فإن يك في الجنة أصبر وأحتسب، وإن تكن الأخرى، فَلْيَرِّينِ الله ما أصنع - تعني من البكاء والنوح - فقال رسول الله ﷺ: «ويحك أوهبلت؟ أو جنة واحدة؟! إنها جنان كثيرة، وإنه في جنة الفردوس».

فهذا الخير - وإن كان في شهداء بدر - فإنه دال على فضل أهل بدر من استشهد منهم ومن لم يستشهد.

٢ - قوله ﷺ: «لن يدخل النار رجلٌ شهد بدرًا أو الحديبية» رواه أحمد على شرط مسلم، فهذا الحديث صريح في بيان فضل أهل بدر والحديبية.

٣ - روى البخاري أن جبريل أتى النبي ﷺ فقال له: ما تعدون أهل بدر فيكم؟ قال: «من أفضل المسلمين» - أو كلمة نحوها - قال (أي جبريل): وكذلك مَنْ شهد بدرًا من الملائكة.

٤ - رواية الشيخين في حاطب بن أبي بلتعة، وقد كتب كتابًا إلى أهل مكة قبيل تحرك الجيش الإسلامي لفتح مكة، فقال عمر: ائذن لي يا رسول الله أضرب عنقه، فقال له النبي ﷺ: «قد شهد بدرًا، وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة، أو قد غفرت لكم» فدمعت عيننا عمر رضى الله عنه وقال: الله ورسوله أعلم.

هذا بيان شرف أهل بدر وفضلهم ولا يسعنا نحن إلا أن نترضى عنهم ونسأل الله تعالى أن يجعلنا معهم بفضل منه ورحمة؛ إنه برّ رحيم، وجواد كريم.

○ نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرًا نجمها في الآتي:

١ - العمل بمشروعية: جزاء السيئة سيئة مثلها؛ إذ قرش طردت المؤمنين وصادرت أموالهم، فاعتراض غيرها لأخذ ما معها من أموال كان عدلاً لا ظلم فيه.

٢ - الأخذ بمبدأ الدفاع عن النفس؛ عملاً بقول الله تعالى: ﴿أُوذِّنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ يَأْتِيهِمْ ظُلُمًا وَلَئِنْ أَلَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَبِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩].

٣ - لا إثم ولا عقاب على ترك المندوب من الأقوال والأعمال؛ إذ لم يعتب على الذين لم يخرجوا إلى غزوة بدر لكون الطلب كان ندبًا لا وجوبًا.

٤ - مشروعية الشورى وإنها من الواجبات الضرورية في كل ما يهم أمر المسلمين؛ لاستشارة رسول الله ﷺ أصحابه في أمر قتال المشركين في بدر.

٥ - وجوب مراعاة المهرود والموائيق والالتزام بها، تجلّى هذا في طلب النبي ﷺ بيان موقف الأنصار من القتال معه فيما لو حدث قتال بعد نجاة العير.

- ٦ - بيان فضل أبي بكر وعمر والمقداد بن عمرو وسعد بن معاذ، تجلى ذلك في كلماتهم التي قالوها للرسول ﷺ عند طلبه المشورة من أفراد أصحابه حيث قرأت بذلك عيننا النبي ﷺ.
- ٧ - بيان أن من ضروريات الحرب بثّ العيون للتعرف على تحركات العدو وعلى أماكن وجوده وتقدير قواته وحزرها، ومعرفة مدى ما تقدر عليه.
- ٨ - مشروعية استعمال الرموز والمعاريف والتورية في الكلام في حالة الحرب والتعمية على العدو، وقطع الطرق عليه، والحيلولة بينه وبين المرافق التي قد ينتفع بها في شن غاراته والزحف بقواته.
- ٩ - مشروعية الضرب الخفيف الذي لا يكسر عضوًا ولا يشين جراحة؛ من أجل استنطاق أفراد العدو للحاجة إلى ذلك، وحرمة التنكيل وشدة التعذيب.
- ١٠ - ضرورة استعمال الرأي والمكيدة في الحرب.
- ١١ - آية انقلاب العصا سيفًا صارمًا - في يد عكاشة بن محصن قاتل به طوال حياته: من أعظم آيات النبوة المحمدية.
- ١٢ - آية حفنة الحصا التي رمى بها النبي ﷺ فأصابته جيتًا بكامله فخيّلته، وأصابته بالتمزق والهزيمة من آيات النبوة المحمدية.
- ١٣ - تقرير مبدأ: لا موالاة بين الكافر والمؤمن؛ إذ قاتل الرجل ولده، وقاتل أباه، وقاتل ابن عمه في معركة بدر.
- ١٤ - قتال الملائكة في معركة بدر، ورؤية بعضهم وظهور آثارهم: آية النبوة المحمدية.
- ١٥ - خذلان الشيطان إخوانه من المشركين؛ إذ فر هاربًا لما رأى الملائكة في ساحة المعركة بعد أن أجارهم ودخل المعركة معهم.
- ١٦ - بيان هلاك المستهزئين مصداقًا لقول الله تعالى لرسوله وهو في مكة: ﴿إِنَّا كُنَّا لَنُحِبُّكَ الْكَافِرِينَ﴾ [الحجر: ٩٥]. إذ هلك بالمعركة جُلُهم كأبي جهل وعتبة وأمّية والوليد وعقبة بن أبي معيط.
- ١٧ - وجوب رد الخلاف إلى الله والرسول في كل ما يشجر بين المسلم والمسلم؛ إذ الخلاف الذي تم في شأن الغنائم رُدَّ إلى الله والرسول، وقضى الله تعالى فيه بما هو العدل والخير.
- ١٨ - مشروعية فداء الأسرى، أو قتلهم، أو المن عليهم إذ رد هذا إلى الإمام يحكم بما فيه خير للإسلام والمسلمين.
- ١٩ - موافقة عمر رضي الله عنه ربه في أسرى بدر، إذ كان قتلهم أولى من فدايتهم.
- ٢٠ - تجلي الرحمة المحمدية في وصيته ﷺ بالأسرى خيرًا وبيان مدى طاعة أصحابه له ﷺ.

- ٢١ - تقرير مبدأ الجوار في الإسلام وأن المسلمين يجبر عليهم أذناهم والمرأة في الجوار كالرجل سواء .
- ٢٢ - بيان ما كان عليه العرب في الجاهلية من بعض الكمالات كالأمانة والنجدة والعفة .
- ٢٣ - آية النبوة المحمدية في إخباره ﷺ عمير بما قاله في الجحجر مع صفوان وليس معهما أحد إلا الله .
- ٢٤ - بيان تاريخ غزوة بدر، وأنها في رمضان من السنة الثانية من الهجرة .

أهم ما وقع من أحداث في السنة الثانية

من هجرة الحبيب محمد ﷺ

- لقد تمت أحداث في السنة الثانية كالسنة الأولى من الهجرة، تسجيلها مهم في الناحية التاريخية لاسيما في قضايا النسخ التي يتوقف الحكم بها على معرفة تاريخ وقوعها .
- وهذه أهم الأحداث التي وقعت في هذه السنة الهجرية المباركة :
- وفاة عثمان بن مظعون أخي النبي ﷺ من الرضاع، وقد دفن بالقيع ووضع النبي ﷺ حجرًا على قبره وقال : «أعلم به قبر أخي»، وكانت وفاته في ذي الحجة .
 - تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة الشريفة .
 - فرض صيام رمضان ونسخ صيام عاشوراء، فنسخ وجوب صيام عاشوراء وبقي استحبابه ثابتًا بالسنة النبوية الصحيحة، وأن صيامه يكفر ذنوب سنة ماضية .
 - مشروعية صلاة العيد، وزكاة الفطر وأنها من سنن الإسلام الواجبة .
 - فريضة الزكاة وبيان أنصبتها وشروطها .
 - بيان المعاقل وجعلها في كتاب معلقًا بقراب سيف النبي ﷺ .
 - وفاة رقية بنت رسول الله ﷺ .
 - زواج عثمان بن عفان الخليفة الراشد بأُم كلثوم بنت رسول الله ﷺ بعد وفاة أختها رقية - رضي الله عنهما وأرضاهما- .
 - وصول زينب بنت رسول الله ﷺ مهاجرة من مكة إلى المدينة النبوية .
 - إسلام أبي العاص بن الربيع رضي الله عنه، وردُّ الرسول ﷺ عليه زوجته زينب .
 - تزوج علي رضي الله عنه بفاطمة بنت رسول الله ﷺ .
 - أول صلاة عيد وأضحيتها كانت في هذه السنة؛ إذ صلى بهم الرسول ﷺ وضحي، وضحي أصحابه من أهل اليسار معه .
 - آية نبوة الحبيب محمد ﷺ؛ إذ قال : «ألا أخبركم بأشقى الناس رجلين؟» قالوا: بلى يا رسول الله قال : «أحيمر ثمود عافر النافر، والذي يضربك يا علي على هذه - ووضع يده على

○ وسابعتها :

غزوة بني قينقاع

فما كان من الحبيب محمد ﷺ إلا أن جمعهم في سوق بني قينقاع، وقال لهم في جملة ما قال: «احذروا ما نزل بقريش وأسلموا؛ فإنكم قد عرفتم أنني نبي مرسل» فقالوا - في وقاحة - يا محمد! لا يغررك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فاصبت منهم فرصة، إنا - والله - لنن حاربنا لتعلمن أننا نحن الناس، ونزل رؤا على مقاتلتهم وتهديدهم من سورة آل عمران قوله تعالى: **قُلْ لِلَّهِ كُفْرًا سَنَكُفِّرُ وَنُعْذِرُكَ لِأَنْ جَاءَهُمْ مِنَ الْيَوْمِ ۖ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي يَسْتَيْتِ الْقَتْلَ ۚ إِنَّهُ يُعْذِرُكَ عَنْ سَفَرِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَخْبَرَهُ كَافِرًا بِرَسُولِهِمْ يَتْلُوهُمْ فَيُدْنِ عَلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَمِيِّ ۚ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بَهْزِمِهِم مِّنْ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ** [آل عمران: ١٢-١٣] فأمر تعالى رسوله أن يخبرهم بهزمهمم الآتية لا محالة - وقد كانت - وأن مردهم إلى جهنم، وذكرهم بهزيمة المشركين أوليائهم على كثرتهم وشدة قوتهم .

ومضت أيام قلائل، وجاءت امرأة مسلمة يجلب لها فباعته بالسوق، ومالت إلى صانع يهودي لتشتري منه مصاعاً، فجلست - وحوله يهود فعاثوا عليها لستر وجهها - وطالبوها بكشف وجهها، فابت ذلك حفاظاً على عقبتها، وصيانة لشرفها، من أن تبدل وجهها ينظر إليها غير محارمها، فما كان من أحد أولئك اليهود - عليهم لعائن الله - إلا أن غافلها، وربط طرف درعها من أسفل بطرف خمارها، فلما قامت انكشفت عورتها فصاحت واكشفتها، فسمعها رجل مسلم، فهَبَّ إليها فرأى ما بها؛ فغضب اليهودي ضربة قتله بها. وقام يهود فاشتدوا على المسلم فقتلوه فمات شهيداً - رضي الله عنه وأرضاه - وهَبَّ رجال من المسلمين للحادث فاقتتلوا مع اليهود، وبهذا نقض يهود بني تينقاع عهدهم، وطرخوا معاهدتهم. فنزلوا حصونهم فتحصنوا بها

فغزاهم رسول الله ﷺ، وحاصرهم نصف شهر حتى نزلوا من حصونهم على حكمه ﷺ، فكتفوا - أي رُبطوا بحبال في أيديهم وأرجلهم - لقتلهم بموجب بنود المعاهدة المعقودة بينهم وبين رسول الله ﷺ. وقبل تنفيذ الحكم فيهم توسط في خلاصهم والعفو عنهم حليفهم عبد الله بن أبي كبير المنافقين، فأتى الرسول ﷺ وكلمه فيهم، وقال: إنهم موالي؛ فغضب الرسول ﷺ وانتهر ابن أبي، وقال له: «وبحك أرسِلني» إذ قد أخذ المنافقُ برذائه ﷺ والرسولُ معرض عنه غضبان، فقال المنافق: لا أرسلك حتى تُحسن إلى موالي، وهم أربعمائة حاسر - أي بدون دروع -، وثلاثمائة دارع، قد منعوني من الأحمر والأسود تحصدهم في غداة واحدة، وإني والله لأخشى الداوثر، فقال النبي ﷺ: «هم لك خلوهم» لعنهم الله ولعنه معهم. وأنزل الله تعالى فيه - لعنه الله - قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَّةَ يَتَّبِعُ أَوْلِيَائِهِمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَإِنَّهُمْ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ ﴿٥٠﴾ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْتَعِزُّونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَحْنُ أَنْصَارُكَ دَارِءٌ قَمَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ تَدِيرِينَ ﴿٥١﴾. وجاء عبادة ابن الصامت - وكان مرتبطاً بحلف مع يهود بني قينقاع - فقال: يا رسول الله أتولى الله ورسوله والمؤمنين، وأبرأ من حلف هؤلاء الكفار ولايتهم، فكان معنيا بقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ ﴿٥٢﴾ ويقولونه تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ رِزْقَ اللَّهِ وَهُوَ الْغَلِيلُ﴾ ﴿٥٣﴾.

ولما أطلقهم رسول الله ﷺ بشفاعة ابن أبي، خرج بهم عبادة بن الصامت إلى أن وصل بهم ذُبَابًا^(١)، ثم ساروا وحدهم إلى أذرعات من الشام، ولم يلبثوا إلا قليلاً حتى هلكوا. ولما خرج رسول الله ﷺ لغزوهم في حصونهم ولَّى عَلَى المدينة أباالبابة الأنصاري، وأعطى لواءه حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه.

ولما أجلى بنوقينقاع، قسم رسول الله ﷺ أموالهم بين أصحابه، وأخذ خمس الغنيمة لينفقه فيما أمر الله تعالى أن ينفقه فيه حيث نزلت سورة الأنفال، وفيها قول الله تعالى: ﴿وَأَتْلَوْا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَآلِ بْنِ النَّبِيِّ﴾ ﴿٤١﴾. وأخيراً هل كانت هذه الغزوة في صفر أو في شوال؟ الراجح، أنها كانت في شوال عقب غزوة بدر مباشرة، فهي من أحداث السنة الثانية لا من الثالثة.

(١) ذباب وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرًا نذكرها فيما يلي:

- ١ - تسجيل خيانة اليهود وغدرهم وانعدام وفائهم بأي التزام يدعونه.
- ٢ - تقرير: أن الحجاب هو ستر وجو المرأة عن الرجال الأجانب.

^(٢) اسم موضع معروف، به جبل يُقال له: ذباب، وهو قرب المدينة النبوية، ويُضَمّ الذال منه ويكسر.

- ٣ - بيان فضل المؤمن الذي غضب لله ، فقتل اليهودي الساخر من المؤمنة فقتل شهيداً رضى الله عنه .
 - ٤ - تسجيل الكرم المحمدي في أعظم صورة وأعلى مثال ، وذلك بين ظاهر في قوله شفاعة ابن أبي وعفوه عن الخائنين الغدر - عليهم لعائن الله - .
 - ٥ - فضيلة عبادة بن الصامت الذي تبرأ من اليهود وأعلن ولاءه لله ولرسوله وللمؤمنين .
 - ٦ - نزول آية آل عمران في الرد على تبجح اليهود وتهديدهم للرسول ﷺ والمؤمنين .
 - ٧ - نزول آية المائدة في الرد والتنديد بابن أبي - عليه لعائن الله - لنفاقه وكفره .
- وثامنتها :

غزوة الكدر

بعد عودة الحبيب محمد ﷺ من غزوة بدر وإجلاء بني قينقاع من اليهود - لغدرهم وخيانتهم - بلغه أن بني سليم قد تجمعوا للحرب رسول الله ﷺ على ماء لهم يقال له : «الكدر» فسار إليهم ﷺ بعد أن استخلف على المدينة ابن أم مكتوم رضى الله عنه فواصل سيره طالباً جموع بني سليم التي تجمعت لحربه ﷺ حتى بلغ ماءهم «الكدر» فلم يجد عنده أحداً ، وإنما وجد نَعَمًا ورعاء ، فساق ذلك وعاد به إلى المدينة النبوية ، ولم يلقَ بالكدر كيداً . والحمد لله ، وبعد أيام أرسل غالب بن عبد الله الليثي في سرية إلى بني سليم وغطفان فقتلوا فيهم وغنموا النعم ، واستشهد من المسلمين ثلاثة نفر - رحمهم الله تعالى ورضي عنهم - .

○ نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرًا نجملها في الآتي :

- ١ - تقرير مبدأ محاربة من يحارب ومسالمة من يسالم .
- ٢ - مشروعية الاستخلاف عند غيبة الحاكم العام .
- ٣ - جليلة الغنائم ، وهي من خصائص هذه الأمة .

○ وتاسعتها :

غزوة السوق

إنه بعد هزيمة قريش في معركة بدر وما أصاب رجالها من قتل وأسر : ألى^(١) أبوسفیان بن حرب ألا يمس رأسه ماء من جنابة - أي لا يطأ نساءه - حتى يغزو محمدًا ﷺ ويشفي صدره بقتل أصحابه أو أسرهم ، ولما لم يجد طريقاً إلى ذلك ، وطالت به مدة حلفه ، أراد أن يتحلل من يمينه فانتدب مائتي راكب من قريش وخرج يقودهم إلى المدينة لغزوها ، فوصلها ليلاً ، فترك رجاله

(١) حَلَفَ .

خارجها، وأتى حُبي بن أخطب النضري اليهودي ففرع عليه الباب فلم يفتح له، تَحَوُّقًا منه، فأتى سلام بن مشكم - وهو سيد بني النضير وصاحب خزانة أموالهم - فاستأذنه فأذن له ودخل وأطعمه وسقاه وبطن له من خبر الناس - أي أطلعه على ما يجري في المدينة من أمور هامة ثم خرج من عنده ليلاً، فأتى رجاله فأمر عددًا أن يدخلوا المدينة وأن يحرقوا بعض نخليلها، فأتوا ناحية العريض شرق المدينة وحرقوا أصوارًا من النخل - أي مجموعات من النخل - ووجدوا فلاحًا وحليفًا له فقتلوهما، وانصرفوا راجعين إلى مكة، وما إن وصل الخبر إلى النبي ﷺ حتى خرج في أصحابه طلبًا لأبي سفيان ورجاله ففانوه هاربين، وكان معهم سويق - هو زادهم في غزورتهم - فألقوه في الأرض؛ ليتخففوا منه وهم هاربون، فوجده النبي ﷺ وأصحابه فأخذوه، وبذلك سميت هذه الغزوة بغزوة السويق، ورجع رسول الله ﷺ، والمؤمنون معه ولم يلقوا كيدًا. فسأل بعضهم رسول الله ﷺ: أتطمع أن تكون لنا هذه الغزوة؟ قال ﷺ: «نعم». ولأبي سفيان أبيات شعرية قالها وهو يتزود لغزو المدينة، يحسن ذكرها لأنها سجلت مجمل أحداث هذه الغارة على المدينة النبوية، إذ قال فيها:

كُروا على يشرب^(١) وجمعهم فإن ما جمعا لملك نُفِلُ
إن يك يوم القليب كان لهم فإن ما بعده كان لكم دُؤْلُ
ليست^(٢) لا أقرب النساء ولا يمسُّ رأسي وجلدي الغُسلُ
حتى تُبَيروا^(٣) قبائل الأوس وال خررج إن الفؤاد يشتعِلُ

○ نتائج وعبر :

- إن لهذه المقطوعة من السيرة المعطرة نتائج وعبرًا نجملها فيما يلي :
- ١- بيان أن المشركين من العرب كانوا يغتسلون من الجنابة، وهي مكربة فيهم من بقايا دين إسماعيل وإبراهيم، ومن ذلك الختان فقد كانوا يختنون .
 - ٢- بيان أن مشركي العرب كانوا يؤمنون بالله ويحلفون ويبرون أيمانهم .
 - ٣- بيان أن الخروج للجهاد بنته يحصل به الأجر، ولو لم يقاتل .

(٢) حلفت .

(١) المدينة النبوية .

(٣) حُلِكُوا وتبيدوا .

أحداث السنة الثالثة من هجرة الحبيب محمد ﷺ

○ أولى غزوات السنة الثالثة :

غزوة ذي أَمَر

ودخلت السنة الثالثة - بعد انقضاء الثانية بما فيها من أحداث جسام وأمور عظام - وها هي ذي السنة الثالثة تفتتح بغزوة ذي أَمَر .

وذلك أن النبي ﷺ بلغه أن جمعًا من غطفان من بني ثعلبة بن محارب، قد تجمعوا عند ماء يقال له : «ذو أَمَر» من أرض نجد؛ ليحاربوه ﷺ فسار إليهم في أربع مائة وخمسين رجلًا، وكان ذلك يوم الخميس لاثنتي عشرة ليلة خَلَّت من شهر ربيع الأول من سنة ثلاث من الهجرة . واستخلف ﷺ على المدينة عثمان بن عفان رضي الله عنه وسار حتى بلغ ماء «أمر» فعسكر حوله، وقد هرب الأعراب الذين تجمعوا لحربه ﷺ، والتحقوا براءوس الجبال وكان قد نزل عليهم مطر غزيرٌ بَلَّ الثياب، حتى إن النبي ﷺ لما ابتلت ثيابه الطاهرة جلس تحت شجرة، ونشر ثيابه لتبيس من الليل، فرآه المشركون المعتصمون براءوس الجبال خاليًا وحده، فنزل رجل منهم يقال له : غُورث، أو دُعُثور بن الحارث نزل بإيعاز من إخوانه المشركين، وكان أشجعهم وأقدرهم على القتال، ومشى حتى وقف على رسول الله ﷺ، وقد سلَّ سيفه وقال : يا محمد، مَنْ يَمْنَعُكَ اليومَ مَتًى . وَهَمْ يَضْرِبُ رسول الله ﷺ فقال له النبي ﷺ : «الله» . فوقع السيف من يده، فأخذه رسول الله وقال لدُعُثور : «مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟» فقال : لا أحد، وأنا أشهد أنه لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، والله لا أَكْثُرُ عليك جمعًا أبدًا، فأعطاه رسول الله ﷺ سيفه فرجع إلى قومه، فقالوا له : ويلك ما لك؟ فقال لهم : نظرت إلى رجل طويل، فدفع في صدري فوقعت لظهري، فعرفت أنه ملك، وشهدت أن محمدًا رسول الله، ووالله لا أَكْثُرُ عليه جمعًا وجعل يدعو قومه إلى الإسلام، ونزل في هذه الحادثة وفي نظائرها قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا يَمُنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ لَا يَمْلِكُونَ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة: ١١] (١) .

وعاد ﷺ مع أصحابه ولم يلقوا - والحمد لله - كيدًا .

○ نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرًا نوجزها فيما يأتي :

١ - مشروعية محاربة من يحارب ومسالمة من يسالم .

(١) إن هذه الآية . وإن نزلت في حادثة مشابهة في الحديبية - فإنه لا مانع من القول بنزولها في هذه الحادثة إذ يقال استشهدًا للتوافق بين الحادثتين .

- ٢- مشروعية الخروج إلى العدو وتبعه؛ إرهاباً له .
 - ٣- ظهور آية من آيات النبوة المحمدية، وذلك بسقوط السيف من يد دشور، وإعلان إسلامه، وتمهده بألا يكثر جمعاً ضد رسول الله ﷺ لما شاهد من آية نبوته ﷺ .
 - ٤- تجلّي الرحمة المحمدية في العفو عمّن أراد قتله بعد التمكن منه .
 - ٥- بيان حسن عاقبة العفو بعد القدرة على المؤاخاة .
- وثاني الغزوات :

غزوة الفرع من بحران

يُخْران معدن^(١) بالحجاز ناحية الفرع تجمع بنو سليم لقتال النبي ﷺ . وعلم ﷺ بتجمعهم لحربه، فانتدب أصحابه، وخرج إليهم في ثلثمائة رجل بعد أن استخلف على المدينة ابن أم مكتوم رضي الله عنه، وسار إليهم، فلما علموا بمسيره إليهم تفرقوا، وكان هذا مصداق قوله ﷺ: «نُصِرْتُ بالرعب مسيرة شهر» فرجع ﷺ مع أصحابه ولم يلقوا - والحمد لله - كيّداً - وكانت مدة الغياب عن المدينة عشرة أيام .

○ نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نذكرها فيما يلي :

- ١- مظاهر العزم والحزم لدى الحبيب محمد ﷺ .
 - ٢- آية النبوة المحمدية في انهزام المشركين بمجرد تحركه ﷺ نحوهم .
 - ٣- فضيلة ابن أم مكتوم لاستخلاف رسول الله ﷺ له غير مرة إماماً وحاكماً .
 - ٤- جواز تولية الأعمى - إذا كان ذا أهلية للولاية من الإيمان والعلم والتقوى .
- أولى السرايا :

سرية زيد بن حارثة إلى القردة

لما هُزمت قريش في بدر، وعرفت أنها غير قادرة على حماية قوافلها التجارية عبر طريق قوافلها القديم، والذي كان يمر قريباً من المدينة إلى مكة: غيّرت طريقها الأول، وصارت تسلك طريق العراق إلى الشام، وبلغ^(٢) ذلك رسول الله ﷺ كما بلغه أن عيراً لقريش تحمل كميات هائلة من الفضة، وأنها سلكت طرق العراق، انتدب لها سريته من أصحابه بقيادة زيد بن حارثة حبّ الحبيب ﷺ ومولاه، فسار زيد مع أفراد سريته حتى انتهوا إلى ماء يقال له: «القردة»^(٣) وعليه

(١) هو المهد الذي به معدن الذهب اليوم.

(٢) سبب علم الرسول ﷺ بهذه العير: أن نعيم بن مسعود أتى المدينة، وجالس كنانة بن الحقيق وعدداً من اليهود، وشربوا وسكروا، فأخبر نعيم بالقافلة - وهو سكران فوصل الخبر إلى النبي ﷺ.

(٣) القردة: اختلف في ضبط هذه الكلمة، هل هي بالفاء أو القاف؟ هل هي ساكنة الوسط أو متحركة؟

غير قريش، فهرب أهل القافلة، وهم أبو سفيان بن حرب وصفوان بن أمية وآخرون، وغنم زيد مع رجاله القافلة بما فيها، وأسروا معها الدليل وهو فرات بن حبان من بني بكر بن وائل استأجره أبو سفيان ليدلهم على مسالك الطريق الجديد لقوافلهم .
ولما وصل زيد سلم الغنائم إلى النبي ﷺ، ومنها الأسير فرات بن حبان الوائلي . وأسلم فرات وحسن إسلامه، وقسم الرسول ﷺ الغنائم بعد أن حَمَسَهَا، فكان الخمس عشرين ألف درهم .

وقال في هذه الغزوة المظفرة حسانُ شعراً هذه أبياتٌ منه :
دُعُوا فلجات^(١) الشام قد حال دونها جلاذ^(٢) كأفواه المخاص^(٣) الأوارك
بأيدي رجال هاجروا نحو ربهم وأنصاره حقاً وأيدي الملائك
إذ سلكت للخور من بطن عالٍ فقولوا لها: ليس الطريق هنالك
○ نتائج وعبر :

- إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نوجزها فيما يأتي :
- ١- بيان مدى أثر هزيمة قريش في بدر حتى أصبحت في رعب وخوف لا نظير لهما .
 - ٢- فضيلة زيد بن حارثة لاختياره لهذه السرية المظفرة قائداً ناجحاً .
 - ٣- مشروعية تخميس الغنائم وتنفيذ ذلك .
 - ٤- بيان أن النبي ﷺ كثيراً ما كان يكلف المهاجرين دون الأنصار في شأن الغزو والحرب خارج المدينة نظراً إلى بنود بيعة العقبة .
- وثاني السرايا :

سرية محمد بن مسلمة لقتل كعب اليهودي

لما انهزمت قريش في بدر، وجاء البشيران من قبل رسول الله ﷺ زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة فيشرا بنصر المسلمين وهزيمة المشركين في بدر، وبلغ ذلك كعب بن الأشرف الطائي الأصل، واليهودي العقيدة ابن النضرية اليهودية، لما بلغه ذلك قال: والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم - يعني أمية بن خلف، وأبا جهل، وعتبة بن ربيعة - لبطن الأرض خير من ظهرها، وكثر عن نابه كالكلب العقور، وأخذ يسب النبي ﷺ، ويشيب^(٤) بنساء المسلمين، ثم ذهب إلى قريش يستعدي رجالها على حرب النبي ﷺ فاستضافوه واجتمعوا عليه، وهو يسب النبي ﷺ

والراجع التسكين .

- (١) جمع فلجة: وهي العين الجارية .
(٢) الجلاذ الإبل الغزيرة اللبن والغلاظ الأجسام .
(٣) المخاص: الإبل الخوامل ؛ والأوارك الإبل ترعى شجر الأراك .
(٤) تشيب بالمرأة إذا ذكر حامنها، وما أرادته من اللهبها .

والمسلمين، وسألوه عن دينهم فقال: إن دينكم خير من دين محمد ﷺ وكذب اللعين وعش . فنزل فيه قرآن من سورة النساء وهو قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقْلَمُوا وَيَقُولُونَ لِّلَّذِينَ آمَنُوا سِيلًا﴾ [النساء: ٥١] .

ولما عاد إلى المدينة، وأوحى الله تعالى إلى رسوله بما قاله كعب وما فعله وما عزم عليه، الأمر الذي استوجب قتله، بنقضه العهد وتآليه الأعداء على المسلمين، قال الرسول ﷺ لبعض أصحابه: «من لي بآبن الأشرف؟» فقال محمد بن مسلمة أخو بني عبد الأشهل: أنا لك به يا رسول الله، أنا أقتله، قال: «فافعل إن قدرت على ذلك». فقال: يا رسول الله، إنه لا بد لنا من أن نقول، قال: «قولوا ما بدا لكم، فأنتم في حل من ذلك»، فاجتمع على قتله محمد بن مسلمة وسيلكان بن سلامة وهو أخو كعب من الرضاعة، وعبد بن بشر، والحارث بن أوس، وأبو عبس بن جبر أحد بني حارثة، وساروا نحوه، ولما كانوا بمقرب من قصره قدموا سيلكان بن سلامة أبا نائلة أمامهم، فذهب فأتى كعباً في قصره، فجلس إليه ساعة، وتحدث معه، وتناشدا الشعر، وكان كل منهما يقول الشعر . ثم قال سيلكان: ويحك يا ابن الأشرف، إني قد جئت لحاجة أريد ذكرها لك، فاكتم عني، قال: أفعل؛ قال: كان قدوم هذا الرجل علينا بلاء، عادتنا العرب ورمثنا عن قوس واحدة، وقطعت عنا السبل حتى ضاع العيال، وجهدت الأنفس، قال كعب: أنا ابن الأشرف، أما والله لقد كنت أخبرك - يا ابن سلامة - أن الأمر يصير إلى ما تقول، قال سيلكان: إني أردت أن تبعنا طعاماً، ونرهنك ونوثق لك، قال كعب: أترهوني أبناءكم؟ قال سيلكان: لقد أردت أن تفضحننا، إن لي أصحاباً على مثل رأيي، وقد أردت أن آتيك بهم، فتبيهم وتحسن في ذلك، نرهنك من الحلقة ما فيه وفاء، وأراد سيلكان أن يعمي عليه فلا ينكر السلاح إذا جاءوا به، فقال لكعب: إن في الحلقة - السلاح - لوفاء، ورجع سيلكان إلى أصحابه فأخبرهم خبره، أمرهم أن يأخذوا السلاح، ثم ينطلقوا، فيجتمعوا إليه، فاجتمعوا إليه، عند رسول الله ﷺ فخرج معهم إلى بقيع الغرقد، ثم وجههم قائلاً: «اللهم أعنهم» ثم رجع ﷺ، ومضوا هم حتى انتهوا إلى حصن كعب، فهتف به أبو نائلة سيلكان فنزل في ملحفته، - وهو حديث عهد بعرس - فأمسكت به امرأته وهو خارج، فقالت له: إنك امرؤ محارب، فكيف تنزل في هذه الساعة؟ فقال لها: إنه أبو نائلة، لو وجدني نائماً لما أيقظني . فقالت له: والله إني لأعرف في صوته الشر، فلم يلتفت كعب إلى قولها . ونزل وتحدث مع أبي نائلة ساعة، ثم قال له أبو نائلة: هل لك يا ابن الأشرف أن تتماشى إلى شعب^(١) المعجوز فنتحدث بقية ليلتنا هذه؟ قال: إن شئتم فخرجوا يتماشون، فمشوا ساعة ثم إن أبا نائلة أدخل يده في فود^(٢) رأس كعب ثم شد يده، فقال: ما رأيت كالليلة طبيباً أعطر قط، ثم مشى ساعة، ثم عاد لمثلها حتى اطمأن كعب، ثم عاد لمثلها حتى

(١) خارج المدينة.

(٢) الفود: جانب الرأس مما يلي الأذن.

اطمان كعب، ثم مشى ساعة، ثم عاد لمثلها وأخذ بفود رأسه، وقال: اضربوا عدو الله، فضربوه فاختلفت عليه أسيافهم فلم تُغن شيئا، قال أبو نائلة: وذكرْتُ مغولا^(١) في سيفي حين رأيْتُ أسيافا لا تغني شيئا، فأخذته فوضعت في ثُنْتِه^(٢)، وقد صاح عدو الله صيحة ما بقي حصن إلا وقد أوقدت عليه نارًا، فوقع عدو الله على الأرض هالكا. فغادرناه صريحا، ومضينا، وكان قد جرح الحارث، أصابته سيوفنا، فحملناه - ومعه نزييف من جرحه - حتى انتهينا إلى المدينة، فوجدنا النبي ﷺ فسلمنا عليه فخرج إلينا فأخبرناه بقتل عدو الله، وتفل على جُرح صاحبنا فشفاه الله تعالى فعدنا إلى بيوتنا فأصبحنا، وأصبح كل يهودي خائفا على نفسه.

○ نتائج وعبر :

- ١- إن لهذه المقطوعة من السير العطرة نتائج وعبرًا نجم لها في الآتي :
- ١- مشروعية الاحتيال على قتل مَنْ وَجَبَ قَتْلُهُ لغدره وخيائته بتأليب الكفار على المؤمنين .
- ٢- جواز استعمال المعارض والتوريات للتوصل إلى إحقاق حق، وإبطال باطل .
- ٣- آية نبوة الحبيب محمد ﷺ إذ شفا الله الجريح ذا النزييف الخطير بريقته الطيبة الطاهرة .
- ٤- فضيلة محمد بن سلمة رضي الله عنه بقتله كعب الطاغية - عليه لعائن الله - .
- ٥- بيان أثر قتل كعب، إذ أصبح كل يهودي خائفا على نفسه لا يطمئن على حياته .

○ وثالث الغزوات :

غزوة احد

○ عوامل هذه الغزوة القاسية الشديدة :

إن لهذه الغزوة عوامل وأسبابا ظاهرة، منها: أن قريشا وقد أصيبت في صناديدها الذين ألقوا في القليب قلب بدر العام الماضي سنة اثنتين من الهجرة المباركة، فقد قام رجال منها بالدعوة إلى الحرب للأخذ بالثأر من محمد ﷺ وأصحابه، ومن دعاة الحرب عبد الله بن أبي ربيعة، وعكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية وغيرهم كثير. فأتوا أبا سفيان بن حرب وطلبوا إليه أن يُنمّع أصحاب أموال العير - التي نجت - أن يجعلوها في حرب تشن على محمد وأصحابه، ولا يأخذوا منها شيئا. واستجابوا للطلب، وفيهم نزل قوله تعالى من سورة الأنفال: ﴿لَئِنْ أَكَلْتُمْ كَفُورًا يُؤْتُونَكُمْ أََمْْرًا لَّهُمْ لِيَسُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَيُضِلُّوْهُنَّ ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُوا وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦] هذا سبب، وآخر: هو أن الذين تخلفوا عن بدر من المهاجرين والأنصار، كانوا يسألون الله تعالى أن يتيح لهم فرصة قتال المشركين كالتي أتاحت لأهل بدر ليُزَوِّا الله تعالى ما يفعلون بالمشركين من القتل لهم والفتك بهم إيمانا واحتسابا؛ ليعوضوا ما فاتهم من الأجر والغنيمة يوم بدر. هذان عاملان ظاهران لغزوة احد، وهناك عوامل خفية قوية

(٢) الثنة: الموقع ما بين السرة والعانة من الإنسان.

(١) المغول: السكين يكون في السوط.

ذُكرت في قوله تعالى من سورة آل عمران: ﴿وَيَلِكُ الْآيَاتُ نَدَاؤُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ وَلِيَمِيزَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٤١-١٤٢﴾ [آل عمران: ١٤١-١٤٢].

وفي شوال من السنة الثالثة من الهجرة المباركة خرجت قريش برجالها ونسائها وأحبابها وبكل من قدرت على تأليه والإتيان به من بني كنانة وأهل تهامة، وسارت بقيادة أبي سفيان بن حرب زعيمها بعد هلاك أبي جهل، حتى نزلت على شفير وادي قناة المقابل للمدينة النبوية، وبلغ النبي ﷺ الخبر فاستشار أصحابه يوم الجمعة في الخروج إلى المشركين لقتالهم خارج المدينة، أو البقاء في المدينة، وقتالهم داخلها، ورجح لهم القتال داخلها وأراهم أنه أقرب إلى النصر على المشركين من قتالهم خارجها، وقص عليهم رؤيا رآها، وهي أنه رأى بقرة تُذبح، ورأى في ذباب سيفه ثُلُمًا، وأنه رأى أنه أدخل يده في درع حصينة، وأزَلَّها المدينة، ومع هذا أصرَّ أكثر الأصحاب على القتال خارج المدينة، فنزل الرسول ﷺ على ما رآه لما رآوه ما دام الله تعالى لم يُوحِ في ذلك إليه بشيء.

ودخل ﷺ بيته فلبس درعه ووضع لأمته على رأسه وخرج إليهم، فما إن رآوه حتى ندموا ورأوا أنهم قد أكرهوه على الخروج ظاهر المدينة، فندموا ندمًا شديدًا، وحاولوا أن يُسْنُوهُ عن عزمه، وقالوا: يا رسول الله أقم؛ فالرأي ما رأيت، وكان الذين أصرُّوا على الخروج هم الذين تخلفوا عن بدر. فقال لهم: «ما ينبغي لبي أن يضع لأمته بعد ما لبسها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه. وقد دعوتكم إلى هذا - عدم الخروج - فأبيتُم إلا الخروج، فعليكم بتقوى الله، والصبر عند البأس إذا لقيتم العدو، وانظروا ماذا أمركم الله به فافعلوه».

واستخلف رسول الله ﷺ على المدينة ابن أم مكتوم، وخرج في ألف مقاتل، وسلك بمن معه من المؤمنين على البدائع في حرة بني حارثة، ودليله في هذا أبو خيثمة أخو بني حارثة، ومروا بحائط لمربع ابن قبيط، وكان منافقًا؛ فلما سمع حسَّ رسول الله ﷺ والمسلمين رفع حفة من تراب، وقال: والله، لو أعلم ألا أصيب بها غيرك يا محمد لضربت بها وجهك، فبدره سعد بن زيد بضربة شخَّ بها رأسه، وابتدره رجال ليقتلوه، فقال لهم رسول الله ﷺ: «دعوه لا تقتلوه؛ فإنه أعمى القلب أعمى البصر».

وساروا حتى إذا كانوا بالشوط بين المدينة وأُخذ، انخزل عنهم عبد الله بن أبي بلثه الناس، وكان - لعنه الله - رآيه عدم الخروج مثل رأى رسول الله ﷺ فلذا قال هنا: أطاعهم وعصاني، ما ندري علام تقتل أنفسنا ههنا أيها الناس؟! وتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام والد جابر - يقول لهم: يا قوم أذكركم الله ألا تخذلوا قومكم ونيبكم، فقالوا: لو نعلم أنكم تقتلون ما أسلمناكم، ولكننا لا نرى أن يكون قتال. فلما استعصوا وأبوا إلا الانصراف قال لهم ﷺ: «أَبْعَدُكُمْ اللَّهُ -

أعداء الله- فسيفني الله عنكم نبيّه». وفيهم نزل قول الله تعالى من سورة آل عمران: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَمَالَوْا قَتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ أَذِقُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ إِنَّا لَأَنبِئَنَّكُمْ هُمْ لَيَكْفُرُنَّ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ يَقُولُونَ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ (آل عمران: ١٦٧) .
ولما هموا بالانصراف، قال بعض المسلمين: هيا نقاتلهم، وقال آخرون: ذرهم يعودوا إلى ديارهم . فنزل فيهم قول الله تعالى من سورة النساء: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي اللَّتَائِفِ يَتَرْتَابُونَ وَلَهُ أَزْكَهُمْ بِمَا كَسَبُوا﴾ (النساء: ٨٨) .

وهنا اضطرب المؤمنون - وهم بنو سلمة وبنو حارثة - بالفشل إلا أن الله ثبتهم، فثبتوا مع رسول الله ﷺ وفيهم نزل قوله تعالى من سورة آل عمران: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (آل عمران: ١٢٢) .

وسار رسول الله ﷺ ومن معه من المؤمنين، وكانوا سبعمائة رجل بينهم فارسان لا غير: رسول الله ﷺ وآخر^(١)، ساروا حتى نزلوا بالشعب من أُحُد، وجعل ظهره بجبل أُحُد، وقال: «لا يقاتلن أحد حتى أمره بالقتال» .

واستعرض الحبيب محمد ﷺ جيشه، فرد عبد الله بن عمر وأسامه بن زيد وزيد بن ثابت والبراء بن عازب في فتيان لم يبلغوا سن التكليف، وأجاز سمرة بن جندب ورافع بن خديج، وقد بلغا الخامسة عشرة وكانا قويين، وتعبأت قريش وذلك صبيحة يوم السبت، وكان جيش قريش ثلاثة آلاف مقاتل بينهم مائتا فارس، فجعلوا خالد بن الوليد على ميمنة الخيل، وعكرمة بن أبي جهل على مسيرتها .

وهنا قال رسول الله ﷺ: «من يأخذ هذا السيف بحقه؟» فقام إليه رجال، فأمسكه عنهم، حتى قام إليه أبو دجانة سمالك بن خرشة أخو بني ساعدة فقال: وما حقه يا رسول الله؟ قال: «أن تضرب به العدو حتى ينحني» قال: أنا أخذه يا رسول الله بحقه، فأعطاه إياه، وكان أبو دجانة شجاعاً يخالل عند الحرب وله عصاة حمراء فلفها على رأسه ومشى يخالل بين الصفوف، فقال رسول الله ﷺ حين رآه يتبختر في مشيته بين الصفوف: «إنها لمشيئة يبغيضها الله إلا في مثل هذا الموطن» .

هذا هو الموقف في معسكر التوحيد قبل الهجوم، أما معسكر الشرك فإن أبا سفيان بعد ترتيب الصفوف قام - يخاطب بني عبد الدار- فقال: يا بني عبد الدار، قد وليتم لواءنا يوم بدر فأصابنا ما قد رأيتم، وإنما يؤتى الناس من قبل راياتهم؛ إذا زالت زالوا، فلما أن تكفونا لواءنا، وإمّا أن تخلوا بيننا وبينه فتكفيكموه، فهتفوا به وتوعدوه، وقالوا: نحن نسلم إليك لواءنا؟ ستعلم غداً إذا التقينا كيف نصنع؟! .

(١) قال في الفتحة: لأبي بردة.

وهذا الذي أراده أبو سفيان بن حرب، وهو تحميسهم للقتال واستعدادهم له وشدتهم فيه . ولما التقى الجمعان، وتقابل الرجال، قامت هند امرأة أبي سفيان تحرض على القتال في نسوة معها يضربن بالدَفِّ خلف الرجال؛ تحريضاً لهم على القتال، وهذه بعض الأبيات التي كن ينشدنها للتحريض :

وَيْهًا بِنِي عَبْدِ الدَّارِ وَيَهًا حِمَاةَ الْأَدْبَارِ
ضُرِبَا بِكُلِّ بَتَّارٍ نَحْنُ بَنَاتُ طَارِقِ
إِنْ تَقْبَلُوا نُعَانِقُ وَنَفْرُشُ النِّمَارِقِ
أَوْ تَدْبِرُوا نَفَارِقُ فِرَاقِ غَيْرِ وَامِقِ

○ ونعود إلى معسكر التوحيد والإيمان :

أخذ أبو دجانة السيف، ولف العصاة على رأسه - علامة الموت - ورمى بنفسه في المعركة، وهو يقول :

أنا الذي عاهدني خليلي ونحن بالسفح لدى النخيل
ألا أقوم الدهر في الكَيْوَل^(١) أضرب بسيف الله والرسول
فجعل لا يلقى أحداً إلا قتله، ورأى أبو دجانة مقاتلاً من المشركين يخمش^(٢) الناس خمشاً شديداً، فقصده، فلما حمل عليه السيف ولول فإذا به امرأة هي هند، فأكرم سيف رسول الله ﷺ أن يضرب به امرأة .

ودارت رحي المعركة، واستعرت نارها وتأجج لهبها، وكان حمزة فيها أسداً يهد الرجال هدأً، وكان وراءه وحشي غلام جُبَّير بن مطعم يترصده؛ إذ أوعز إليه سيده بأنه إذا قتل حمزة يعتقه، وكان وحشي بارعاً في الضرب بالرماح، ضربته لا تكاد تخطئ؛ وكانت هند موتورة بموت أبيها بيدر، كلما مرت فيه تقول له : يا أباد سُمَّة، استشف؛ تحرضه على قتل حمزة رضي الله عنه، فقال وحشي : ما زلت أتبع حمزة وهو كالجمال الأورق إذ تقدمني إليه سباع بن عبد العزى، فقال له حمزة : هلم يا ابن مقطعة البطور^(٣) فضربه ضربة ما أخطأت رأسه فقتله، ثم هزرت حربتي - حتى إذا رضيت منها دفعتها عليه فوقعت في ثُنته^(٤) حتى خرجت من بين رجله فأقبل نحوي ومُلِب فوقع فأمهله حتى مات فجئت فأخذت حربتي، ثم تنخيت إلى المعسكر، ولم تكن لي في شيء حاجة غيره .

وكان النبي ﷺ قد أعطى اللواء مصعب بن عمير رضي الله عنه، وقتل مصعب، فأعطاه علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وتقدم عليّ باللواء، وهو يقول : أنا أبو القصم، فناداه أبو (١) الكَيْوَل : آخر صفوف الحرب .
(٢) أي كانت تخنن النبات، فتقطع البظرة الناتئة في الحيا، أي الفرج .
(٣) أي توقد نار الحماس في نفوسهم، وتزيد في غضبهم .
(٤) الثنة : ما بين السرة والعانة .

سعد بن أبي طلحة - وهو صاحب لواء المشركين - قائلاً: هل لك يا أبا القصم في البراز من حاجة؟ قال علي: نعم فبرزنا بين الصفين فاختلفا ضربتين فضربه علي فصرعه، ثم انصرف عنه ولم يجهز عليه، فقيل له: أفلا أجهزت عليه؟ قال: إنه استقبلني بعورته، فَعَطَفْتَنِي عليه الرحم وعرفت أن الله قد قتله .

والتقى - والمعركة دائرة - حنظلة بن أبي عامر بأبي سفيان بن حرب، فلما علا حنظلة بالسيف رآه شداد بن الأوس فضربه - أي شداد الكافر - فقتله . فقال رسول الله ﷺ: «إن صاحبكم لَنَفْسِلَه الملائكة، فاسألوا أهله ما شأنه؟» فسئلت امرأته، فقالت: إنه كان ليلة عرسه، فسمع الهاتف بالجهاد فخرج، ولم يغتسل؛ فلذا غسلته الملائكة، وأنزل الله تعالى نصره على المسلمين وصدقهم وعده، فحسوه بالسيف حساً حتى كشفوهم عن المعسكر، وكانت الهزيمة لا شك فيها، حتى قال الزبير بن العوام رضي الله عنه: والله لقد رأيتني أنظر إلى خَدَم^(١) هند وصواحبها وهن مشمرات هوارب . وفي هذا يقول الله تعالى من سورة آل عمران: ﴿سَكُنْ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَرَأَيْتَ إِمَّا أَنْشُرَكُمَا بِأَلْفِهِمَا لَمْ يَشْرِكْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ الْكَافِرُ وَيَنْسَ مَتَوَى الظَّالِمِينَ ۖ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ ۖ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرْسَلَكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥١-١٥٢] .

ولما رأى الرماة انكشاف المشركين والمؤمنين يسلبون ويجمعون الغنائم، مالوا على المعسكر وكشفوا ظهور المؤمنين لخييل المشركين فكانت الهزيمة، وصرخ صارخ أن محمداً قد قُتل، وأصاب المؤمنين كرب عظيم ذهلت فيه العقول، وخلص العدو إلى الرسول ﷺ فرماه ابن قميتة - أقماه الله - بحجر فكسر أنفه ورباعيته وشح في وجهه، وتفرق عنه أصحابه إلا قليلاً وأصعدوا في الأرض حتى إن منهم من وصل إلى المدينة، وفي هذا يقول تعالى من سورة آل عمران: ﴿حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرْسَلَكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٢-١٥٣] .

○ سبب الهزيمة :

وسبب هذه الهزيمة المريعة - بعد ذلك النصر العظيم - هو أنَّ الرُّماة الذين كانوا خمسين رامياً، قد وضعهم الرسول ﷺ على جبل الرماة وأمر عليهم عبد الله بن جبير وقال لهم موصياً إياهم في شخص أميرهم: «انفع عنا الخيل بالنبل، لا يأتوننا من خلفنا، واثبت مكانك إن كانت لنا أو علينا» . هؤلاء الرماة - لما نصر الله المسلمين في أول النهار وانهزم المشركون أمامهم وأكبَّ المؤمنون

(١) جمع خدمة وهي الخلخال في الرُّجل .

على جمع الغنائم وحياسة الأموال ، ونساء المشركين مشعرات عن سوقهن هاربات ولواؤهن على الأرض لم يحمله أحد حتى جاءت امرأة من قريش فرغته - لما رأى الرماة هذا الواقع ثبت بعضهم في أماكنهم وهم القليل ونزل البعض الأكثر متعللين بهزيمة المشركين ، وأخذوا في نهب الأموال وجمع الغنائم كغيرهم .

ولما رأى خالد بن الوليد - وهو على خيل المشركين - لما رأى خلو الجبل من الرماة وضعف المقاومة منه ، كثر عليهم بخيله ، فاحتل الجبل وقتل من فيه ، وأصلوا المسلمين نار سهامهم ، فمزقوهم بها تمزيقاً ، وعاد المشركون الفارون إلى المعركة ووقع المسلمون بين نارين هما كفكي المقارض ، فكانت الهزيمة ، وأصيب الرسول ﷺ بما أصيب به ، وصرخ الشيطان قائلاً إن محمداً قد مات ، وألقى رجال سلاحهم من أيديهم وبقوا واقفين حيارى مذهوشين ، منهم عمر وطلحة فأتاهم أنس بن النضر - عم أنس بن مالك - فقال لهم : ما يحبسكم ؟ قالوا : قتل محمد ﷺ . قال : فما تصنعون بالحياة بعده ؟ موتوا على ما مات عليه ، ثم استقبل المشركين ، فقاتل حتى قُتل فوجد به أكثر من سبعين ضربة وطلعة ولم يعرفه إلا أخته عرفته ببنائه . وبلغ الكرب المعسكر الإيماني حتى قال من قال : ليت لنا من يأتي عبد الله بن أبي بن سلول ليأخذ لنا أماناً من أبي سفيان قبل أن يقتلونا؟ فقال لهم أنس بن النضر ؟ يا قوم إن كان محمد قد قتل ، فإن رب محمد لم يُقتل ، فقاتلوا على ما مات عليه محمد ﷺ ، اللهم إني أعتذر إليك مما يقول هؤلاء ، وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء ثم قاتل حتى قُتل - رضي الله عنه وأرضاه - .

وكان أول من عرف أن الرسول حيٌّ - لم يقتل - كعب بن مالك ، فنادى بأعلى صوته : يا معشر المسلمين أبشروا ، هذا رسول الله ﷺ لم يقتل ، والرسول ﷺ ينادي : «إني عباد الله !! إني عباد الله!! وثاب إليه رجال وقاتلوا دونه ، وأبلى في هذا أبو طلحة وأبو دجاجة البلاء الحسن ، وتقدموا نحو الشَّعب وهم يدفعون ويقاتلون حتى وصلا إليه ، وما إن أسند رسول الله ﷺ على الشعب حتى جاء أبي بن خلف يصرخ : لا نجوئُ إن نجا - أي محمد ﷺ - وهو يتقدم نحو النبي فتناول الرسول ﷺ حربة من يد أحد أصحابه وطعنه بها في ترقوته فخار كما يخور الثور فسحبوه كالثور المذبوح ، ومات بها في طريقه إلى مكة يسرف إلى جهنم وبئس المهاد .

وارتفع الحبيب محمد ﷺ إلى الصخرة - حيث يوجد بعض أصحابه - فسُرَّ لذلك ، وجاء أبو سفيان يحاول الوصول إلى أصحاب الصخرة في سفح أحد فردوه خاسئاً خائباً وأخذ النعاسُ الأصحاب ، فذهب بذلك الخوف عنهم وسكنت نفوسهم ، وفي هذا يقول تعالى من سورة آل عمران : ﴿ فَأَنبِئْكُمْ عَمَّا يُعْزِلُ كَيْلًا تَحْزِنُوا عَلٰى مَا فَتَنَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنَةً مَّا سَأَلْتُم بِهَا بِرَبِّكُمْ ۝ ﴾ [آل عمران: ١٥٣-١٥٤] .

وانتهت المعركة وكانت درساً قاسياً للمسلمين ، ومثلت هند بنت عتبة امرأة أبي سفيان

بالقتلى، ففقطعت الأذان والأنوف والمذاكير، وبقرت بطن حمزة رضي الله عنه ولاكت كبده لتأكل منها، فلم تقدر عليها، فرمتها وذهبت.

وأتى أبو سفيان فوقف تحت الصخرة وقال: أفي القوم محمد؟ ثلاثاً، فقال رسول الله ﷺ: «لا تجيبوه» ثم قال: أفي القوم ابن أبي قحافة؟ ثلاثاً، ثم قال: في القوم ابن الخطاب؟ ثلاثاً، ثم التفت إلى من معه فقال: أما هؤلاء فقد قتلوا، فقال عمر: كذبت يا عدو الله، قد أبقي الله لك ما يحزنك. فقال: أغل هبل، فقال رسول الله ﷺ: «أجيبوه، قولوا الله أعلى وأجل». فقال أبو سفيان: إنما لنا العزى ولا عزى لكم، فقال رسول الله ﷺ: «قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم» فقال أبو سفيان: أنشدك الله يا عمر، أقتلنا محمدًا؟ قال عمر: لا وإنه لسمع كلامك فقال: أنت أصدق من ابن قميئة^(١). ثم قال هذا بيوم بدر، والحرب سجال. أما إنكم ستجدون في قتلاكم مثلاً، والله ما رضيئ ولا سخطت، ولا نهيت ولا أمرت. ثم انصرف ومن معه وقال: إن موعدهم العام المقبل.

ثم بعث رسول الله ﷺ عليًا في أثرهم وقال له: «انظر، فإن جنبا الخيل، وامتنطوا الإبل فإنهم يريدون مكة، وإن ركبو الخيل فإنهم يريدون المدينة، فوالذي نفسي بيده لئن أرادوها لأناجزنهم» فخرج علي في أثرهم فوجدهم قد جنبا الخيل وامتنطوا الإبل، فرجع يصيح ما استطاع أن يكتهم الخبر - وقد أير أن يكتهم - من شدة الفرح.

وأمر الرسول ﷺ من ينظر في القتلى، فرأى سعد بن الربيع الأنصاري وبه زمق، فقال سعد للذي رآه: أبلغ رسول الله ﷺ مني السلام، وقل له: جزاك الله خير ما جزى نبيًا عن أمته، وبلغ قومي السلام، وقل لهم: لا عذر لكم عند الله إن خلص إلى رسول الله ﷺ أذى وفيكم عين تطرف، ثم مات إلى رضوان الله؛ فرحمك الله يا سعد بن الربيع ورضي عنك.

ووجد حمزة رضي الله عنه ببطن الوادي قد بقر بطنه عن كبده ومثل به، فقال النبي ﷺ حين رآه: «لولا أن تحزن صفة أو تكون سئة، لتركته حتى يكون في أجواف السباع وحواصل الطير، ولئن أظهرني الله تعالى على قريش لأمثلن بثلاثين رجلاً منهم» وقال المسلمون: لنمثلن بهم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦]، فعفا رسول الله ﷺ وصحبه ونهى ﷺ عن المثلة، وهم رجال بحمل قتلاهم ليدفونهم بالمدينة فأمر رسول الله ﷺ بدفنهم حيث صرعوا وأمر أن يدفن الاثنان والثلاثة في القبر الواحد، وأن يقدم إلى القبلة أكثرهم قرآناً، وصلى عليهم فكان كلما أتى بشهيد جعل حمزة معه وصلى عليهما.

(١) إذ زعم أنه قتل محمدًا وهو الذي أصاب وجه رسول الله ﷺ بحجر فكسر أنفه ورباعيته وشج وجهه، فصلى الله وسلم على عمه، ولعن الله ابن قميئة وأقماءه وأخزاه في نار جهنم.

ونزل في قبر حمزة أبو بكر وعمر و الزبير وجلس الرسول ﷺ على حافة القبر ، وأمر ﷺ أن يدفن عمرو ابن الجموح وعبد الله بن عمر بن حرام في قبر واحد .
وانصرف الحبيب ﷺ مع أصحابه عائدين إلى المدينة فدخلوها مساء يوم السبت يوم المعركة الخالدة معركة أحد التي نزل فيها جزء كبير من سورة آل عمران .

مواقف (في أحد) ومواقف

○ مواقف مشرفة :

وباستعراض سريع لمعركة أحد تتجلى لنا مواقف مختلفة : منها المشرف ، ومنها المخزي .
ومن المواقف المشرفة ما يلي :

■ **موقف أبو طلحة الأنصاري** ، إذ وقف موقفًا لا يزال يذكر له ما بقي الإسلام والمسلمون .
قال أنس رضي الله عنه : لما كان يوم أحد ، انهزم الناس عن النبي ﷺ وأبو طلحة بين يدي رسول الله ﷺ مُجَوَّب^(١) عليه بِجَحْفَةٍ له ، وكان أبو طلحة راميًا ، كسر يوم أحد قوسين أو ثلاثة ، فإذا مَرَّ الرجل بجعبة من النبل يقول له : انثرها لأبي طلحة ، ويُشرف النبي ﷺ على القوم ، فيقول له أبو طلحة : بأبي أنت وأمي لا تُشرف ، يصيبك سهم من سهام القوم ، نحري دون نحرك .
فرضي الله عنه أبي طلحة وأرضاه وجعل الجنة مأواه اللهم بحبنا فيك لهم فاجمعنا بهم .

■ **موقف عائشة بنت أبي بكر وأم سليم الأنصارية** ، قال أنس : لقد رأيت عائشة بنت أبي بكر وأم سليم وإنهما لمشترتان عن خدم سوقهما تنقزان^(٢) بالقرب تفرغانها في أفواه القوم مرات عديدة ، فما أشرف هذا الموقف وما أشرف صاحبيته - رضي الله عنهما وأرضاهما - .

■ **موقف طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه** بينما رسول الله ﷺ في الشَّعْبِ - ومعه نفر من أصحابه - إذ علت عالية من قريش الجبل ، ونهض رسول الله ﷺ إلى الصخرة من الجبل ليعلوها ، وكان قد بَدَنَ وظاهر بين درعين ، فلما ذهب لينهض لم يستطع ، فجلس تحته طلحة فنهض به حتى استوى عليها ، فقال ﷺ : «أوجب طلحة حين صنع برسول الله ما صنع» !

■ **موقف الحبيب محمد ﷺ** - ومواقفه كلها مشرفة - لما أسند ﷺ في الشعب أدركه أبي بن خلف على جواد له يزعم أنه يقتل عليه محمدًا ، تقدم نحو رسول الله ﷺ وهو يقول : لا نجوئ إن نجا ، فلما اقترب منه تنازل رسول الله ﷺ الحربة من يد الحارث بن الصَّمَّة ، فلما أخذها انتفض بها انتفاضة تطايروا عنه تطاير الشعر عن ظهر البعير ، ثم استقبله فطعن بها طعنة أصابت نحرة فوق عن فرسه فحمل إلى قريش وهو يخور كالثور ويقول : قتلني - والله - محمدٌ ، فمات في الطريق عند سرف .

(١) أي : مُكَبِّ عليه عُيُط به ؛ يقيه من رمية العدو أن تصيبه .

(٢) أي : تقفزان بسرعة .

«موقف أنس بن النضر الأنصاري أنه لما صاح أذب العقبة الشيطان قائلاً: إن محمداً قد مات، وانجفل الأبطال ووقفوا عن القتال حيارى مشدوهين ومدهوشين، صاح فيهم أنس قائلاً: ما يَحْبُسُكُمْ عن القتال؟ قالوا: قد قتل النبي ﷺ فقال لهم: ما تصنعون بالحياة بعده؟ موتوا على ما مات عليه. يا قوم إن كان محمد قد قتل فإن رب محمد لم يقتل، فقاتلوا على ما قتل عليه محمد، اللهم إني أعتذر إليك مما يقول هؤلاء وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء.

«موقف الحبيب محمد ﷺ - وحياته كلها مواقف شرف وكمال - ولكن نذكر ما نذكر للمناسبة ولإثارة كوامن الحب في النفس بالذكر. إنه ﷺ بعد تلك الجراحات المؤلمة، أخذ ﷺ شيئاً فجعل ينشف الدم عنه ويقول: «كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم (بالدم) وهو يدعوهم إلى ربهم» فأوحى إليه: «لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ» [آل عمران: ١٢٨] فقال: «اللهم اغفر لقومي؛ فإنهم لا يعلمون».

«موقف فاطمة بنت محمد ﷺ: إنه لما جرح والدها ﷺ أخذ عليّ يأتي بالماء، وفاطمة تغسل جراحات الحبيب والدها محمد ﷺ. ولما رأت الدم لم يرقأ بالغسل، جاءت بحصير فأحرقتة وضمدت بالرماد الحار جراحات أبيها ﷺ فرقأ الدم ولم يسئل. إن هذا الموقف للزهراء بنت الحبيب محمد ﷺ يسمو كل موقف.

«موقف عبد الله بن عمرو بن حرام: إنه لما انهزل انخذه ابن أبي بلث الجيش وانصرف عائداً هو ومن معه إلى المدينة: استقبلهم عبد الله وقال: تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا. قالوا: لو نعلم قتالاً لاتبعناكم. فأنزل الله تعالى فيه قرآناً يقرأ إلى يوم الدين.

«موقف حنظلة غسيل الملائكة، إنه تزوج ويات عريساً ليلته، فأيقظه صوت الجهاد، ولم يفتسل بعد فقام فلبس درعه وحمل سلاحه ولحق بالمعركة، وهي دائرة فخاضها خوض الأبطال قاتل حتى استشهد - وهو جنب - فغسلته الملائكة، وأخبر بذلك رسول الله ﷺ وقال: «سلوا امرأته» فسألوها فأخبرت أنه خرج من عندها جنباً ولحق بالجهاد لما سمع صوته، فكان موقفاً مشرفاً لحنظلة، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

«موقف أم عمارة نسبية، أنها خرجت أول النهار تنظر ما يصنع الناس ومعها سقاء فيه ماء فانتهدت إلى رسول الله ﷺ وهو في أصحابه - والدولة والربح للمسلمين - فلما انهزم المسلمون انحازت إلى رسول الله ﷺ، وباشرت القتال تذب بالسيف عن رسول الله ﷺ وترمي عن القوس حتى خلصت الجراحات إليها. بهذا حدث رضي الله عنها فكان موقفاً مشرفاً لها رضي الله عنها

○ مواقف مخزية :

كانت تلك مواقف مشرفة لأهلها ولمحبيهم معهم. وهذه مواقف مخزية لأهلها ولمحبيهم معهم أيضاً، وأول هذه المواقف المخزية :

«موقف عبد الله بن أبي بن سلول - رأس المنافقين بالمدينة - أنه ما إن خرج الجيش الإسلامي من المدينة في طريقه إلى أحد - وهو يشكك في صحة الجهاد وجدوى هذا الخروج - حتى استجاب له ثلثمائة رجل من المنافقين وضعاف الإيمان، ورجعوا من الطريق، فخذلوا رسول الله ﷺ والمؤمنين الصادقين . فكان هذا موقفًا شرًّا موقف وأخزاه لابن أبي ومن والاه .

«موقف مريع بن قبيط الأعمى - عليه لعائن الله - . إنه لما مرَّ ببستانه الجيش الإسلامي بقيادة رسول الله ﷺ وسمع بحس الجيش، وعرف أن محمدًا هو قائده ﷺ، رفع حفنة من تراب وحصى، وقال: والله، لو أعلم ألا أصيب بها غيرك يا محمد لضربتُ بها وجهك، وقال: إن كنتَ رسولاً فإني لا أحل لك أن تدخل حائطي «بستاني» . فكان موقف هذا المنافق الأعمى القلب والبصر أخزى موقف وأقبحه على الإطلاق .

«موقف أبي عامر، الذي لقبه الرسول ﷺ بالفاسق بدلاً عن الراهب الذي كان يعرف به في الجاهلية قبل الإسلام، إنه وقف - لعنه الله - بين الصفين صبيحة يوم أحد، ونادى قومه وتعرف إليهم وحرّضهم على قتال رسول الله ﷺ والمؤمنين، فوقف موقفًا مخزياً، ولذا أجابه رجال من الأنصار بقولهم: لا أنعم الله بك عينا يا فاسق، فقال - لعنه الله - : لقد أصاب قومي بعدي شر، وقاتل مع المشركين قتالاً شديداً، فكان بش الموقف وموقف هذا الفاسق لا ينسى له الدهر كله .

«موقف هند بنت عتبة امرأة أبي سفيان: إنها باغرائها على قتل حمزة رضي الله عنه وبإثارتها الحماس في جيش المشركين وتمثيلها بقتلى المسلمين، وبقهرها بطعن حمزة وأكلها كبده - وإن لم تبتلعها لعدم قدرتها عليها - بهذا قد وقفت شرًّا موقف وأخزاه ولولا أن منَّ الله عليها بالإسلام لكانت مع أبي بن خلف وأبي جهل في جهنم، ولكن رحمها الله، فأسلمت وحسن إسلامها ونسب لها موقفها هذا؛ لأن الإسلام حَبَّ ما قبله .

○ نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرًا نجلها إزاء الأرقام التالية :

١- صدق رؤيا النبي ﷺ إذ رأى في منامة ثلماً في سيفه، فأوَّله بموت بعض آل بيته، فمات حمزة رضي الله عنه، وعبد الله بن جحش ابن عمته .

٢- ردُّ عين قتادة بعد أن تدلت على وجنته، فأصبحت أحسنَ منها قبل إصابتها وتدلُّها بعد خروجها، فكانت آية نبوة محمد ﷺ .

٣- قُتِلَ النبي ﷺ أبي بن خلف كان قد أخبر به في مكة قبل الهجرة وتم كما أخبر فكان آية النبوة المحمدية، ولم يُقتل النبي ﷺ أحداً سواه، وشرُّ الخلق من قتلته نبي - كما أخبر بذلك الرسول ﷺ .

٤- تقرير مبدأ الشورى، إذ استشار ﷺ أصحابه في قتال المشركين خارج المدينة أو داخلها،

وأخذ برأي الأغلبية، وسجل حكمة انتفع بها كل من أخذ بها من مؤمن وكافر وهي قوله: «ما كان لنبي أن يضع لأمته على رأسه، ثم يضعها قبل أن يحكم الله بينه وبين عدوه». إنها آية العزم ومظهر الحزم والصدق.

٥- بيان شجاعة الرسول ﷺ القلبية والعقلية، تجلت في مواقف عديدة له ﷺ منها: أنه لم يثن عزيمته رجوع ابن أبي بلثل الجيش. وثباته ﷺ في المعركة بعد أن فرَّ الكثير من أصحابه، وانتفاضته، وهو مثقل بجراحاته وطعنه أبي بن خلف طعنةً خار لها كالثور وسقط منها كالجبل ومات في طريقه.

٦- بيان كمال قيادته العسكرية. ويتجلى ذلك بوضوح في اختياره مكان المعركة وزمانها، وفي وضعه الرماة على جبل الرماة، ووصيته لهم بعدم مغادرة أماكنهم مهما كانت الحال ولو رأوا الموت يتخطف إخوانهم في المعركة ويدل على هذا أن الهزيمة النكراء التي أصابت الأصحاب كانت نتيجة تخلي الرماة عن مراكزهم كما مر في عرض المعركة وتسجيل أحداثها. وفي إرساله علياً رضي الله عنه يتتبع آثار الغزاة للتعرف على وجهتهم إلى المدينة أو إلى مكة ليتحرك بحسب ما يتطلبه الموقف.

٧- مظاهر رحمة الحبيب ﷺ حيث تجلت في عفوه عن الأعمى الذي سبه ونال منه حتى همَّ أصحابه بقتله فأبى عليهم وقال: «دعوه فإنه أعمى القلب أعمى البصر» وفي قوله - وهو يجفف الدم السائل من وجهه الكريم الشريف -: «اللهم اغفر لقومي، فإنهم لا يعلمون» وفي بكائه على عمه عندما وُضع بين يديه ليصلى عليه حتى أغمى عليه من شدة الوجد والبكاء.

٨- مظاهر صبره ﷺ، وقد تجلّى صبره بوضوح في عدم جزعه لما أصابه وأصاب أصحابه. وآلام وأحزان، ومن فوات النصر الذي قاربه في أول النهار وخسره في آخره حيث انقلب إلى هزيمة مرّة وانكسار خطير.

٩- بيان الآثار السنية لتقديم الرأي على قول الرسول ﷺ، إذ كان من عوامل الهزيمة إصرار الصحابة على رأيهم في القتال خارج المدينة، في الوقت الذي كان الرسول ﷺ يرى عدم الخروج حتى ألجئوه إلى إذرأعه ولباس لأمته، ثم ندموا فلم ينفعهم ندم.

١٠- بيان أن الرغبة في الدنيا وطلبها بمعصية الله والرسول هي سبب كل بلاء ومحنة تصيب المسلمين في كل زمان ومكان.

١١- بيان صدق وعد الله للمؤمنين بالنصر، إذ ظهر ذلك في أول النهار. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ آلَ فِثْيَةَ وَأَخَذُوا عَصَافَكُمْ فِي ذَلِكَ يَوْمٍ﴾ [ال عمران: ١٥٢].

١٢- بيان عقوبة الله تعالى للمؤمنين لما عصوه بترك الرماة لمراكزهم الدفاعية وطلبهم للغنمة. ولما تساءلوا عن سبب هزيمتهم أجابهم تعالى بقوله: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ [ال عمران: ١٦٥].

وهو ظاهر قوله تعالى: ﴿إِذْ تَحْسَبُوهُمْ بَادِيَةً حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَكُنْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّا بَعْدَ مَا أَرْسَلَكُمْ مَّا تُحِبُّونَ﴾ [ال عمران: ١٥٢].

أي: من النصر ﴿وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ مَرَكَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [ال عمران: ١٥٢].

○ ورابع الغزوات:

غزوة حمراء الأسد

إن من مظاهر الكمال المحمدي في كل جوانب الحياة العسكرية والمدنية على حد سواء خروجه صبيحة الأحد لإرهاب الأعداء في الداخل والخارج؛ إنه بعد الهزيمة النكراء التي أصابت المسلمين يوم السبت ما راع الناس إلا ومؤذن رسول الله ﷺ يؤذن بالخروج لملاحقة أبي سفيان بن حرب وجيشه، وقال: لا يخرج معنا إلا من حضر معركة أحد أمس، فخرج المؤمنون ومن بينهم أخوان جريحان، فكان خفيف الجرح يحمل أخاه، فإذا تعب وضعه يمشي ساعة حتى وصلا معسكر رسول الله ﷺ على ثمانية أميال من المدينة حيث عسكر بحمراء الأسد . واستأذن جابر رسول الله ﷺ في الخروج فأذن له بعد أن عرف عذره، وهو أن والده الشهيد عبد الله بن عمرو بن حرام لم يأذن له في الخروج إلى أحد وأوصاه بأخواته السبع إذ لم تطلب نفس عبد الله أن يترك سبع بنات ليس معهن رجل .

وما زال النبي ﷺ بحمراء الأسد حتى مرّ به معبد الخزاعي، وخزاعة مسلمها ومشركها كانت عيبة نصح رسول الله ﷺ - أي موضع سرّة وثقته لا تخفي عليه شيئاً من الناس في تهامة، فقال معبد - وهو يومئذ مشرك - : يا محمد، أما والله لقد عزّ علينا ما أصابك، ولَوَدِدْنَا أَنَّ اللَّهَ عَافَاكَ فِيهِمْ، ثم خرج حتى لقي أبا سفيان ومَنْ معه بالروحاء، وقد أجمعوا الرجعة إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، إذ قالوا: أصبنا منهم ما أصبنا فكيف نرجع قبل أن نستأصلهم ؟

فلما رأى أبو سفيان معبدًا قال له: ما وراءك يا معبد ؟ قال: خرج محمد وأصحابه يطلبونكم في جمع لم أر مثله أبدًا، فقال أبو سفيان ويحك ما تقول ؟ قال: والله ما أرى أن ترحل حتى أرى نواصي الخيل . فقال أبو سفيان: فوالله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصل بقيّتهم . قال معبد: إني أنهارك عن ذلك، والله لقد حملني ما رأيت على أن قلتُ فيهم أبياتًا من الشعر . قال أبو سفيان: وما قلت ؟ قال: قلت:

كادت تُهَدِّ من الأصوات راحلتي إذ سالت الأرض بالجُرْد الأبابيل
تَزْدَى^(١) بأسدٍ كرام لا تَنَابِلَة^(٢) عند اللقاء ولا ميل^(٣) معازيل

(١) تردى: تسرع.

(٢) تنابله: غير قصار.

(٣) جمع أنيل وهو الذي لا رمح له ولا ترس.

فظللت عَدُوًّا أَطْن الأَرْض مائتة لَمَّا سَمَوْا برئيس غير مَخْذُول
فَقُلْتُ ويل ابن حرب من لقائكم إِذَا تَغَطَّمْتُ^(١) البطحاء بالخيل
إني نذير لأهل البَشَل^(٢) صاحبة لكل ذي إزبة منهم ومعقول
من جيش أحمد ولا وخش^(٣) تنابلة وليس يوصف ما أُنْذِرُ بالقليل
فأوقع هذا الشعر في نفس أبي سفيان هزيمة، وذكر كذلك رأي صفوان بن أمية إذ سبق أن كَفَّه
عن الرجوع إلى المدينة عندما عزم على الرجوع، وقال له: لا تفعل؛ فإن القوم حَرَنُوا^(٤)، وإني
أخشى أن يكون لهم قتال غير الذي كان، فارجعوا، فارجعوا، ولذا أمر بالرحيل والعودة إلى مكة،
وأثناء ذلك مرَّ ركب من بني عبد القيس، فقال لهم: أين تريدون؟ قالوا: نريد المدينة، قال: ولم؟
قالوا: نريد الميرة، قال: فهل أنتم مبلَّغون عني محمدًا رسالة أرسلكم بها، وأحمل لكم هذه غداً
زبيباً بعكاظ؟ إذا وافيتموه فأخبروه أنا قد أجمعنا السير إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم، وكان
هذا مجرد مناورة من أبي سفيان يريد بها تغطية هزيمته لما سمع من معبد. ولما وصلت القافلة إلى
رسول الله ﷺ وبلغوه رسالة أبي سفيان: قال: «حسبي الله ونعم الوكيل» وفي هذا نزل قول الله
تعالى من سورة آل عمران: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَبَّوْاْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا
وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣] وقال ﷺ: «حسبنا الله ونعم الوكيل، قالها إبراهيم
حين ألقي في النار».

وأقام الرسول ﷺ بحمراء الأسد أربعة أيام: الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء، ثم قفل راجعاً
إلى المدينة، فظفر في طريقه بمعاوية بن المغيرة بن أبي العاص، وبأبي عزة الجمحي وقد تخلف
عن المشركين نائماً، وكان أبو عزة قد أسر في بدر واسترحم الرسول ﷺ فرحمه فَمَنَّ عليه،
وعاهده ألا يقف موقفاً ضده، وخان وجاء مع المشركين إلى أحد، فلذا أمر الرسول ﷺ بقتله،
فقتل، وقال ﷺ: «لا يُلْدَغُ المؤمن من جُحُرِ مَرَّتَيْنِ» وأما معاوية فهو الذي مثل بحمزة في أحد،
فقطع أنفه، فقد ضل الطريق فأتى دار عثمان وقد استشفع بعثمان، فقبل النبي ﷺ شفاعته فيه على
أنه لو وجده بعد ثلاثة أيام ليقنته، فجهزه عثمان لقرابته، وقال له: ارتحل فارتحل فأخطأ الطريق
وكان النبي ﷺ قد ارتحل من حمراء الأسد، وقال لأصحابه: «إن معاوية أصبح قريباً ولم يبعد
فاطلبوه» فطلبه زيد بن حارثة وعمار بن ياسر فوجداه فقتلاه.
وعاد الرسول ﷺ ولم يلق كيداً. وأرهب بذلك العدو المنافق في الداخل والمشركون في
الخارج ف ﷺ ما أعظم حكمته وجل سياسته وأكمل صبره!!

(١) تغطمت: اهتزت له.

(٣) الوخش: أراذل الناس.

(٢) البسل: قريش.

(٤) حرنوا: اشتد غضبهم.

○ نتائج وعبر :

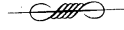
إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرًا نوجزها في الآتي :

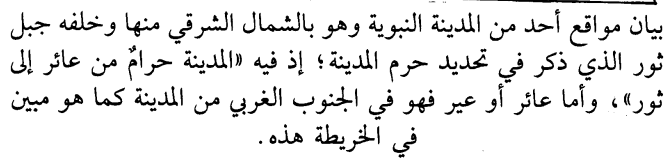
- ١- بيان مظاهر الكمال المحمدي من شجاعة وصبر وتحمل وحسن سياسة ، وكمال تدبير .
- ٢- بيان فضل أصحاب رسول الله ﷺ ، وما كانوا عليه من طاعة وصبر وتحمل واستجابة لله والرسول .
- ٣- تأثير الدعاية في نفوس غير الصابرين ، ولذا كان خطر الدعاية عظيمًا ووجب اتقاؤه .
- ٤- تقرير مبدأ : المؤمن لا يلدغ من جُحر واحد مرتين .
- ٥- مشروعية الشفاعة في غير الحدود الشرعية .

○ أهم ما وقع من أحداث في السنة الثالثة من هجرة الحبيب محمد ﷺ :

إن أهم ما وقع في هذه السنة الثالثة من سنوات الهجرة المباركة من أحداث ذات خطر وشأن، يمكن ذكره إزاء النقاط التالية :

- قتل كعب بن الأشرف الذي بسط يده ولسانه لرسول الله ﷺ والمؤمنين يؤذيهم ويكيد لهم ويؤلب المشركين واليهود عليهم ، قتله محمد بن مسلمة الأنصاري رضي الله عنه .
- وقوع غزوة أحد ، واستشهاد قرابة سبعين رجلًا مسلمًا فيها ، ونحو من ثلاثين مشركًا ومن بين الشهداء أربعة مهاجرين ، وهم : حمزة بن عبد المطلب ، ومصعب بن عمير ، وعبد الله بن جحش ، وشماس بن عثمان ، ومن بين الأنصار : أنس بن النضر ، وسعد بن الربيع وعمرو بن الجموح ، وعبد الله بن عمرو بن حرام ، ومن مسلمي اليهود مخيريق رضي الله عنه .
- غزوة حمراء الأسد في اليوم الثاني بعد أحد .
- غزوة ذي أمر ، وهو ماء بنجد لغطفان .
- سريه زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ .
- ولادة الحسن بن علي رضي الله عنه ، وحمل فاطمة بالحسين بعد خمسين يومًا من ولادتها
- حمل جميلة بنت عبد الله بن أبي عبد الله بن حنظلة غسيل الملائكة وذلك في شوال ليلة أحد .





بيان مواقع أحد من المدينة النبوية وهو بالشمال الشرقي منها وخلفه جبل ثور الذي ذكر في تحديد حرم المدينة؛ إذ فيه «المدينة حرام» من عائر إلى ثور»، وأما عائر أو غير فهو في الجنوب الغربي من المدينة كما هو مبين في الخريطة هذه.

أحداث السنة الرابعة من هجرة الحبيب محمد ﷺ

ودخلت السنة الرابعة من سنوات الهجرة المباركة وأول أحداثها

حَدَّث الرَّجِيع^(١)

في هذه السنة، قدم نفر من عَصَل والقارة على رسول الله ﷺ بالمدينة، وذكروا له أن فيهم إسلامًا، وأن لهم رغبة في أن يبعث معهم نفرًا يفقهونهم في الدين، فبعث ﷺ معهم ستة نفر: هم مرثد بن أبي مرثد الغنوي، وخالد بن البَكَيْر الليثي، وعاصم بن ثابت الأوسي، وخبيب بن عدى، وزيد بن الدثنة البياضي، وعبد الله بن طارق حليف بني ظفر، وأمر عليهم ﷺ مرثد بن أبي مرثد الغنوي، وساروا حتى إذا بلغوا الرجيع غدر بهم النفر الذين طلبوهم من رسول الله ﷺ ليفقهوهم في الدين حيث استصرخوا عليهم حيًا من هذيل يقال لهم: بنو لحيان، فجاءوهم في مائة رجل، فلجأ المسلمون إلى جبل حيث لا طاقة لهم يقتال مائة رجل وهم ستة رجال لا غير، فاستنزلوهم بعهد قطعه لهم بأنهم لا يمسونهم بسوء، فقال عاصم: والله لا أنزل على عهد كافر، اللهم خير نبيك عتًا، وقتلهم هو ومرثد وخالد بن البكير، نزل بن الدثنة وخبيب، وعبد الله بن طارق فأوثقوهم، فقال عبد الله: هذا أول الغدر فقتلوه فألحقوه برفيقه وانطلقوا بابن الدثنة وخبيب فباعوهما بمكة فاشترى خبيب بنو الحارث، وكان خبيب هو الذي قتل الحارث يوم بدر، فاشتروه ليقتلوه بالحارث، فسجنوه في بيت معاوية مولاة جُحَيَّر بن أبي إهاب، فبينما هو عندها وقد استعار منها موسى ليستجد بها حتى إذا قُتل يكون نظيفًا من شعر عاتته؛ إذ جاء صبي يدب إليه، فجلس على فخذه، وهو يستجد والموسى في يده فلما رآته المرأة صاحت، فقال لها: أتخشين أن أقتله؟ إن الغدر ليس من شأننا، فكانت المرأة تقول بعد ذلك: ما رأيت أسيرًا خيرًا من خبيب؛ لقد رأيت - وما بمكة ثمرة - وإن في يده لِقَطْفًا من عنب يأكله، ما كان إلا رزقًا رزقه الله خبيبًا.

ولما خرجوا به من الحرم إلى الحل ليقتلوه، قال: ذروني أصِل ركَعتين، فتركوه فصلاهما؛ فكانت سنة القتل؛ إذ علم بذلك رسول الله ﷺ وأقره عليها، وصلاها غير واحد من المؤمنين. ثم قال لهم: لولا أن تقولوا جزع من الموت لزدت أو طوئتهما، ثم أنشأ يقول:

ولست أبالي حين أقتل مسلماً على أي جنب كان في الله مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ يبارك على أوصال شلو^(٢) ممزَع

ودعا ربه قائلاً: اللهم أخصهم عددًا، واقتلهم بددًا، ولا تُبَيِّ منهم أحدًا.

ثم صَلَّبُوهُ وقام إليه عتبة بن الحارث ليقتله، وقال له: أترضى أن يكون محمد مكانك

(١) الرجيع: ماء لهذيل بناحية الحجاز يقع قريبًا مما بين مكة وعسفان.

(٢) الشلو والجمع أشلاء: عضو الإنسان بعد التفرق والتمزق، والممزع المهزق.

وأطلقك؟ فقال: والله لا أرضى أن أطلق ويُسَاك محمدٌ بشوكة!! وقتله فمات إلى رحمة الله ورضوانه.

وأما عاصم، فإنيهم بعثوا من يأتهم برأسه ليبيعهوه من سلافة بنت سعد؛ إذ كانت نذرت أن تشرب الخمر في رأس عاصم يوم قُتلَ ابنها في أحد، فجاء النحل، فمَنع من أراد أن يأخذه؛ فتركوه حتى الليل، فجاء سيلٌ فجرفه ولم يُعثر عليه؛ استجابة الله تعالى لعاصم، إذ كان قد عاهد الله تعالى ألا يمس مشركاً ولا يمس مشرك، فمَنعه الله في مماته كما منعه في حياته.

وأما ابن الدثنة، فإن صفوان بن أمية بعث به مع غلامه نسطاس إلى التنعيم ليقتله بأبيه، إذ كان قتل يوم بدر وألقي في القليب، فلما وصل به هناك إلى الحل ساومه قائلاً: أنشدك الله، أتحب أن محمداً مكانك تُضرب عنقه وأنت في أهلك؟ قال: ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه، تصيبه شوكة تؤذيه وأنا جالس في أهلي!! فقال أبو سفيان - وكان حضر الإعدام مع رجال من قريش - : ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً، ثم قتله نسطاس فانتقل إلى رحاب رحمت الله تعالى وسوم رضوانه فهنيئاً له.

ومن كرامات خبيب رضي الله عنه أن سعيد بن عامر - وكان ممن حضر قتل خبيب - كان كلما ذُكر قُتل خبيب بقلبه أو لسانه أخذته غشية، وبلغ ذلك عمرَ رضي الله عنه فسأل سعيداً فقال: نعم ما ذكرت خبيباً إلا غشي عليّ؛ فزادته عند عمر خيراً.

○ نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نوجزها كالتالي:

- ١- الغدر والخيانة وصف لازم في الغالب لأهل الكفر والشرك.
- ٢- بيان كرامة خبيب - التي أكرمها الله تعالى بها، وهي أكله قُطِفَ العنب في غير إبطانه وغير مكانه، والغشية التي تصيب سعيداً عند ذكره.
- ٣- مشروعية الصلاة عند القتل، وأن خبيباً هو الذي سَنَّها وأقره رسول الله ﷺ عليها.
- ٤- بيان فضل ابن الدثنة في رضاه بالموت ولا يُصاب رسول الله ﷺ بشوكة تؤذيه.
- ٥- تقرير أن أصحاب رسول الله ﷺ يحبونه ﷺ أشد من حُبهم لأنفسهم، وذلك واجبه وواجب كل مؤمن ومؤمنة في الحياة.

○ وثاني أحداثها:

حَدَّث بئر معونة الجلل

وفي هذه السنة الرابعة من هجرة الحبيب ﷺ، حدث أفضح حادث، ذلك هو حادث بئر معونة الذي ذهب ضحيته سبعون صحابياً من خيرة الأصحاب؛ نتيجة الغدر والخيانة. وذلك أن أبا براء عامر بن مالك المعروف بملاعب الأستة، قدم على رسول الله ﷺ بالمدينة،

فعرض عليه النبي ﷺ الإسلام ودعاه إليه، فلم يُسلم، ولم يبعد عن الإسلام، وقال: يا محمد لو بعثت رجلاً من أصحابك إلى أهل نجد، فدعوه إلى أمرك رجوت أن يستجيبوا لك، فقال رسول الله ﷺ: «إني أخشى عليهم أهل نجد»، قال أبو براء: أنا جار لهم فابعثهم فليدعوا الناس إلى أمرك، فبعث رسول الله ﷺ سبعين رجلاً من خيرة الأصحاب، منهم المنذر بن عمرو، والحارث بن الصّمة، وحرام بن ملحان، وعامر ابن فهيرة مولى الصديق، وعروة بن أسماء بن الصلت، ونافع بن بديل بن ورقاء، فساروا حتى نزلوا بئر معونة - وهي بين أرض بني عامر وحرّة بني سليم - ولما نزلوها بعثوا حراماً بن ملحان بكتاب رسول الله ﷺ إلى عدو الله عامر بن الطفيل فلما أتاه لم ينظر فيه - أي في الكتاب - حتى عدا على حرام فقتله ثم استصرخ عليهم بني عامر قومه فأبوا أن يجيبوه إلى ما دعاهم إليه، وقالوا: لن نخفر أبا براء وقد عقد لهم عقداً وجواراً، فاستصرخ عليهم قبائل من بني سليم من غصية ورغل ودكوان، فأجابوه إلى ذلك حتى غشوا القوم فأحاطوا بهم في رحالهم، فلما رأوهم أخذوا سيوفهم ثم قاتلوا حتى قتلوا عن آخرهم - رحمهم الله أجمعين -، اللهم إلا ما كان من كعب بن زيد فإنهم تركوه بين القتلى وفيه رمق من حياة، فعاش حتى قُتل يوم الخندق شهيداً - فرضي الله عنهم أجمعين -.

وكان عمرو بن أمية الضمري المضري، والمنذر بن محمد بن عقبة الأنصاري في سرح لقومهما، فرأوا الطير تحوم على قتلى المؤمنين، فقالوا: والله إن لهذه الطير لثأناً، فأقبلا نحوها لينظرا، فإذا القوم في دمائهم، والحيل التي قتلتهم واقفة، فقال الأنصاري لعمرو: ما ترى؟ قال: نرى أن نلحق برسول الله ﷺ فنخبره الخبر، فقال الأنصاري: لكني ما كنت لأرغب بنفسني عن موطن قُتل فيه المنذر بن عمرو وما كنت لتخبرني عنه الرجال، ثم قاتل القوم حتى قُتل، وأخذوا عمراً أسيراً فلما أخبرهم أنه من مضر تركوه، وجزّ ناصيته عدو الله عامر بن الطفيل وأعتقه عن رقية زعم أنها كانت على أمه.

وسار عمرو حتى إذا كان بالقرقرة أقبل رجلان من بني عامر حتى نزلا بظل هو فيه فسألهما: ممن أنتما. فقالا: من بني عامر، فأمهلهما حتى ناما، ثم قتلها أخذاً بثأر شهداء بئر معونة الذين قتلوا باستصراخ عامر بن الطفيل العامري عليهم - ولم يعلم بالعقد والجوار الذي لهما من رسول الله ﷺ، فلما قدم على رسول الله ﷺ أخبره بما فعل، قال له: «لقد قتلت قَتِيلَيْن لأديئهما»!!

وآلم رسول الله ﷺ الخبر وحزن لذلك، وقال: «هذا عمل أبي براء فقد كنت لهذا كارهاً متخوفاً»، وبلغ هذا أبا براء فشق عليه وآلمه، كما بلغ بنيته تحريض حسان له على قتل عامر بن الطفيل، فقام إليه ربيعة فطعنه فقتله إلى جهنم وبئس المهاد.

وهذه أبيات حسان في تحريض بني أبي البراء على قتل ابن الطفيل - لعنه الله تعالى :

بني أم البنين ألم يرغكم وأنتم من ذوائب أهل نجد
تهكم عامر بأبي براء ليخفره وما خطأ كعمد
ألا أبلغ ربيعة ذا المساعي فما أحدث في الحدثان بعدي
أبوك أبو الحروب أبو براء وخالك ماجد حكم بن سعد

○ نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرًا نذكرها إزاء الأرقام الآتية:

- ١- بيان أن الغيب استأثر الله تعالى به، إذ لو كان النبي يعلم الغيب بدون إعلام الله تعالى له لما أرسل شهداء بئر معونة.
 - ٢- بيان ما بآء به عدو الله عامر بن الطفيل من خزي الدنيا وعذاب الآخرة.
 - ٣- فضيلة المنذر بن محمد بن عقبة الأنصاري، إذ قاتل وحده؛ طلبًا للشهادة ففاز بها.
 - ٤- بيان ما بآء به عصية ورعل وذكوان من غضب الله تعالى وعذابه.
 - ٥- مشروعية القنوت في الصلاة للدعاء على الظلمة، ولرفع البلاء النازل على المؤمنين.
 - ٦- فضل شهداء كل من الرجيع وبئر معونة، إذ ذهبوا ضحية الغدر والخيانة لنزول قرآن فيهم هذا نصه: «بلغوا قومنا عثًا، أنا قد لقينا ربنا فرضي عنا ورضينا عنه» ثم نُسخ.
- وثالث أحداثها:

سرية عمرو بن أمية الضمري إلى مكة لقتل أبي سفيان

ما زال أبو سفيان يتحسّر على فوته قتل النبي ﷺ، حيث خاب أمله في ذلك بعد غزوة أحد التي كلفته أموالًا طائلة وأتعبًا شديدة رجاء أن يثار لقتلاه في بدر من محمد ﷺ، الذي قتل رجاله و أسر أعدادًا منهم في بدر.

ومن هنا، فكر في خطة خسيصة، وهي إرسال من يقاتل محمدًا ﷺ، إذ قال بين رجاله: ما أحد يقاتل محمدًا؟ فإنه يمشي في الأسواق؛ فندرك ثأرنا منه، فأناه رجل من العرب، فدخل عليه منزله وقال له: إن أنت وفيتني خرجتُ إليه حتى أغتاله، فإني هاؤ بالطريق خربت معي خنجر مثل خافية^(١) النسر، فقال له أبو سفيان: أنت صاحبنا، وأعطاه بغيرًا، ونفقة، وقال له: اطو أمرك، فإني لا آمن أن يسمع هذا أحد فينميه إلى محمد، فقال الأعرابي: لا يعلمه أحد، فخرج ليلاً فوصل المدينة في ستة أيام، فعقل راحلته بحمي بني عبد الأشهل، ثم أقبل قاصدًا رسول الله ﷺ، فوجده بين أصحابه يحدثهم في مسجده، فلما دخل المسجد رآه الرسول ﷺ، فقال: «إن هذا الرجل يريد غدرك، والله حائل بينه وبين ما يريد». فوقف وقال: أياكم ابن عبد المطلب؟ فقال له الرسول ﷺ: «أنا ابن عبد المطلب» فذهب ينحني على رسول الله ﷺ كأنه^(١) الخافية والجمع خواف: ريشة من أربع ريشات، إذا ضم الطائر جناحه خفيت.

يسأله فجزبه أسيد بن حضير وقال: تَنَحَّ عن رسول الله ﷺ، وجذبه بداخل إزاره، فإذا الخنجر فقال يا رسول الله: هذا غادر، فأدق في يد الأعرابي، وقال: دمي دمي يا محمد، وأخذه أسيد يلبيه، فقال له النبي ﷺ: «اصدقني ما أنت وما أقدمك؟ فإن صدقتني نفعتك الصدق، فإن كذبتني فقد أطلعت على ما هممت به». قال الأعرابي: فانا آمن؟ قال: «وأنت آمن» فأخبره بخبر أبي سفيان بن حرب، وما جعل له. فأمر به النبي ﷺ فحُبس عند أسيد بن حضير، ثم دعا به من الغد، فقال: «قد أمنتك؛ فاذهب حيث شئت، أو خير لك من ذلك». قال: وما هو؟ فقال: «أن تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله». فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله، والله يا محمد، ما كنت أفرق^(١) من الرجال، فما هو إلا أن رأيتك فذهب عقلي، وضعفت، ثم اطلعت على ما هممت به، فما سَبَقْتُ به الركبان ولم يُطلع عليه أحد؛ فعرفت أنك ممنوع، وأنت في حق، وأن حزب أبي سفيان حزب شيطان. فجعل النبي ﷺ يبتسم، وأقام أيامًا، ثم استأذن النبي ﷺ فخرج من عنده ولم يُسمع له بذكر.

ولما حدث هذا الذي حدث من أبي سفيان من إرساله من يغتال رسول الله ﷺ بعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمري مع رجل من الأنصار إلى مكة وأمرهما بقتل أبي سفيان بن حرب.

قال عمرو: فخرجت أنا ومعني بعير والرجل صاحبي علة^(٢) فكنت أحمله على بعيري حتى جئنا بطن ياجع فعقلنا بعيرنا بالشعب، وقلت لصاحبي: انطلق بنا إلى أبي سفيان لتقتله، فإن خشيت شيئًا فالحق بالبعير فاركه والحق برسول الله ﷺ وأخبره الخبر وَخَلَّ عَنِّي، قال عمرو: فدخلنا مكة ومعني خنجر قد أعددت إن عاقني إنسان ضربته به.

فقال لي صاحبي: هل لك أن نبدأ فنطوف ونُصلي ركعتين؟ فقلت له: إن أهل مكة يرشون أفئنتهم بالماء مساء؛ ويجلسون فيها، وأنا أعرف بهم، قال: فمشينا حتى أتينا البيت، فطفنا به وصلينا، ثم خرجنا، فمررنا بمجلس لهم فعرقني بعضهم، فصرخ بأعلى صوته: هذا عمرو بن أمية، فثار أهل مكة إلينا، وقالوا: ما جاء إلا لشر، فقلت لصاحبي: أن جاء هذا الذي كنت أحذر، أما أبو سفيان فليس إليه سبيل، فأنج بنفسك، فخرجنا نشتد حتى صعدنا الجبل، فدخلنا غارًا بنتا فيه ليلتنا؛ نتظر أن يسكن الطلب، فوالله إنا لفيه إذ أقبل عثمان بن ملاك التيمي يتخيل بفرس له، فقام على باب الغار، فخرجت إليه فضرته بالخنجر، فصاح صيحة أسمع أهل مكة، فأقبل إليه ورجعت إلى مكاني، فوجدوه وبه رمق فقالوا: من ضريك؟ قال: عمرو بن أمية، ثم مات ولم يقدر يُخبرهم بمكاني، وشغلهم قتل صاحبهم عن طلبي فاحتملوه، ومكثنا في الغار يومين حتى سكن عنا الطلب، ثم خرجنا إلى التنعيم، فإذا بخشبة خبيب، وحوله حرس،

(١) أي ما كنت أخاف.

(٢) أي جعله كالضرة له يقاسمه المركب وغيره.

فصعدت خشبته احتملته على ظهري، فمشيت به نحو أربعين خطوة، فعلموا به فطرحته، واشتدوا في أثري، فأخذت الطريق فأعيوا ورجعوا، وانطلق صاحبي فركب البعير وأتى النبي ﷺ فأخبره، وأما خبيب فلم يُر بعد ذلك، وكان الأرض قد ابتلعتة. وسرت حتى دخلت غارًا ومعني قوسي وأسهمي، فبينما أنا فيه إذ دخل عليّ رجل من بني الدليل أعور يسوق غنمًا، فقال: من الرجل؟ قلت: من بني الدئل فاضطجع معي ورفع عقيرته يتغني ويقول:

ولست بمسلم ما دمت حيا ولست أدين دين المسلمين
ثم نام فقتلته، ثم سرت فإذا رجلان بعثتهما قريش يتحسان أمر النبي ﷺ فرميت أحدهما بسهم فقتلته، وأستأسرت الآخر، فقدمت به على النبي ﷺ وأخبرته الخبر فضحك ودعا لي بخير.

○ نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرًا نجلها إزاء الأرقام التالية:

١- مشروعية المعاملة بالمثل: وهي في كتاب الله تعالى إذ قال تعالى: ﴿وَلَا يَغْنَابُ الْغَنَابُ مَا غَنَابُكُمْ وَلَا يَغْنَابُكُمْ لَكُمْ خَيْرٌ لِّلْمَكِينِينَ﴾ [النحل: ١٢٦] إذ أبو سفيان هو الذي بدأ فبعث من يغتال رسول الله ﷺ، ولذا بعث رسول الله ﷺ من يقتل أبا سفيان.

٢- تقرير القضاء والقدر، إذ أبو سفيان قضى الله تعالى أن يسلم ويصبح في عداد المسلمين بل في عداد الأصحاب - رضوان الله عليهم - فلذا لم يتأثّ لعمرو بن أمية قتله.

٣- بيان شجاعة وبطولة عمرو بن أمية حتى لكانها نادرة في الناس، وفوزه بدعاء الرسول ﷺ له بالخير.

٤- بيان تأثير الدعاية في عقول الناس، وإلا فكيف يتغنى الراعي الدثلي بكونه غير مسلم وأنه لا يدين المسلمين؟

٥- بيان مدى ما بذلته قريش من حرب الإسلام وإطفاء نوره، ولم تقدر، والحمد لله.

○ وأولى غزواتها:

غزوة بني النضير

بنو النضير إحدى ثلاث طوائف، كانت تسكن حوالي المدينة من اليهود، وقد وادعهم الرسول ﷺ يوم قدم المدينة مهاجرًا، وكتب لهم بذلك كتابًا فنقضت بنو قينقاع عهدها أول ما نقض، وذلك في السنة الثانية وبعد غزوة بدر مباشرة - كما تقدم استعراضه في أحداث السنة الثانية - فأجلاهم الرسول ﷺ ولم يقتلهم، إذ قبل فيهم شفاعة حليفهم عبد الله بن أبي فخرجوا من المدينة ونزلوا أذرعات بالشام وهلكوا بها. وها هم أولاء بنو النضير ينقضون عهدهم اليوم بتأمرهم على قتل النبي بصورة مكشوفة واضحة.

إنه بعد انتهاء وقعة أحد المؤلّمة، جاء أبو براء العامري زائرًا المدينة فلاقى رسول الله ﷺ

فعرض عليه الإسلام فلم يسلم ولم يرفض، وقال للرسول ﷺ: لو تبعته إلى ديارنا بعثنا من صالحه رجالك يدعون إلى أمرك، فإني أرجو أن يجابوا لذلك، فأبدى النبي ﷺ تخوفاً على أصحابه، فوعده أبو براء بأنه سيكون جازاً حتى لا يمسوا بسوء، وبعث النبي ﷺ سبعين رجلاً من خيرة الأصحاب. وحدثت واقعة بئر معونة، واستشهد فيها كافة الأصحاب. وإن عمرو بن أمية لما وقع في أسر عامر بن الطفيل أعتقه وعاد عمرو إلى المدينة، وفي طريقه لقي رجلين من بني عامر فقتلتهما؛ ثأراً لشهداء بئر معونة، وكان القتيلان معاهدين للنبي ﷺ ولم يعلم بذلك عمرو، وأخبر النبي ﷺ بالحادث فقال النبي ﷺ: «لأدينهما»، وفعلاً جاء ذوهما يطالبون بدينتهما. وكانت معاهدة اليهود تقضي بأن يدي كل من الطرفين ما لزمه من دية شرعية، فخرج النبي ﷺ مع أبي بكر وعمر وعليّ إليهم - أي إلى بني النضير - يطالبهم بالإسهام في دية العامريين بموجب المعاهدة، فانتهى إلى ديارهم وذكر لهم ما جاءهم من أجله، فأبدوا ارتياحاً واستعداداً وأنزلوه مع أصحابه منزلاً حسناً في ظل جدار من بيت أحدهم. وأظهروا أنهم يسعون في تحقيق طلبه، وإذا بهم متآمرون على قتله؛ إذ قالوا: إنها فرصة قد لا تتاح لكم، فتخلصوا من الرجل بقتله، وعينوا لذلك عمرو بن جحاش، فقال أنا لذلك، فقالوا: نطلع على السطح ونلقي عليه رchy من فوقه نقتله بها، وأنكر عليهم سلام بن مشكم عملهم، وقال: لا تفعلوا، لكنهم أجمعوا على أن ينفذوا خطتهم القذرة هذه، وقبل أن يفعلوا بدقائق أوحى الله تعالى إلى رسوله ﷺ بما هموا به من قتله، فقام على الفور كأنه يقضي حاجة ودخل المدينة، ولما استبطأ أصحابه قاموا ولحقوا به فأخبرهم بمؤامرة اليهود، وأن خبر السماء قد سبقهم وكان آية المائدة نزلت في هذه الحادثة هي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا يَضْمَتَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَن يَسْطُوعُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾ [المائدة: ١١] ولهذه الحادثة أشباه، وتلى الآية عند كل واحدة منها تذكيراً بنعمة الله وفضله على المؤمنين ليشكروا بالصبر والطاعة.

وبعث إليهم ﷺ محمد بن مسلمة يأمرهم بالخروج من جواره ويلده لنقضهم العهد الذي بينهم وبينه، فبعث إليهم المنافقون - وعلى رأسهم ابن أبي كبير المنافقين - يشجعونهم على البقاء وعدم الجلاء وفي ذلك يقول تعالى من سورة الحشر: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَثُوا يُقُولُونَ لِأَخِيهِمْ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ [الحشر: ١١] في عدة آيات إلى قوله تعالى: ﴿كَتَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاتُوا وَيَالَ أَمْهِمُ وَلَمْ عَدَاكَ إِلِيمُ﴾ [الحشر: ١٥] وهم بنو قينقاع أهلكهم الله.

ولما لم ينصاعوا للأمر بالجلاء، لتشجيع المنافقين لهم - أعلن القائد الأعظم الحبيب محمد ﷺ الحرب عليهم فولى على المدينة ابن أم مكتوم، وخرج إليهم برجاله، فحاصروهم قرابة نصف شهر، وأثناء ذلك هددهم بإحراق نخلهم وقطعه وفعلاً أحرق بعض المؤمنين طرفاً وقطعوا بعضاً، وتألّم لذلك بعض المسلمين لا سيما لما قال اليهود للرسول ﷺ: عَهْدُنَا بِكَ تَنْهَى عَنِ الْفَسَادِ

وتعيب صاحبه، فكيف تأذن بإحراق النخيل؟ ونزل في ذلك قوله تعالى في سورة الحشر: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْسَةٍ أَوْ نَكَبْتُمْ عَلَيْهَا قَائِمَةً عَلَى أُمُودِهَا فَإِنِ ابْنَى إِلَهُ وَلِيُخْرِىَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الحشر: ١٥].

ونزل اليهود أخيراً على حكم الرسول ﷺ منصاعين لأمره، وهو أن يخرجوا من المدينة حاملين أموالهم على إبلهم، ما عدا الحلقة «السلاح» حتى لا يحاربوا بها مرة أخرى، فأخذوا أموالهم الصامته والناطقة حتى إن أحدهم يهدم سقف بيته ويحمل بعض أخشابه، أو يهدئ نجف الباب ليأخذ الباب، وفي هذا يقول تعالى: ﴿يَخْرُجُونَ بِيُوْهُمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا بِتَأْوِيلِ الْإِنصَارِ ۖ وَتُؤَلَّى أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ الْجَلَآءَ لِمَدِيْنِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ۖ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقَرُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٢-٤].

وأجلى بنو النضير عن المدينة، ولم يسلم منهم إلا رجلان، هما يامين بن عمير، وأبو سعيد بن وهب فأحرزا أموالهما. لما مر اليهود بخيبر، نزل بها سلام بن أبي الحقيق، وكنانة بن الربيع، وحبي بن أخطب، فاستقبلهم يهود خيبر بالطبول، والمزامير، والغناء بزهاء وفخر كأنهم أبطال فاتحون، وما هم إلا خونة ناكثون مهزومون.

وقسم الحبيب ﷺ أموال بني النضير بين المهاجرين لا غير إذ هم أصحاب الحاجة حتى إنهم عالة على الأنصار. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن أموال بني النضير لم تكن غنائم أحرزت بالقتال، وإنما كانت فيئا أفاءها الله على رسوله بدون سفر ولا قتال. وفي هذا يقول تعالى من سورة الحشر: ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۖ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِلَّذِينَ آمَنُوا وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَى لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾ [الحشر: ٦-٧].

إلا أنه ﷺ قد شكأ إليه أبو دجانة، وسهل بن حنيف حاجة فأعطاهما خاصة دون بقية الأنصار - رضوان الله عليهم أجمعين -.

○ نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرًا نوجزها فيما يلي:

- ١- تقرير مبدأ أن نقض المعاهدة إعلان للحرب.
- ٢- بيان الكمال المحمدي في الوفاء بالعهود والالتزام التام بالمعاهدات.
- ٣- بيان سجية من سجايا اليهود، وهي نقض المعاهدات، وكذا الحال بالنسبة إلى الكفار إذا رأوا حاجتهم في النقض نقضوا؛ لكفرهم بالله ولقائه.
- ٤- قد تقتضي الضرورة هدم الجسور وبعض الدور وقطع الأشجار للضرورة.
- ٥- بيان أن الفيء خلاف الغنيمة صورة وحكمًا.
- ٦- ولوع اليهود بالمزامير والطبول والأغاني وحفلات الرقص والمجون في كل زمان.

٧- بيان أن سورة الحشر جُلِّها نزل في يهود بني النضير .

عبرة خاصة

عبر لو كان هناك من يعتبر؛ أنه لما أخرج بنو النضير من ديارهم وتركوها خرابًا، مرّ بها عمرو بن سُدَى، وكان متألّها في بني قريظة لا يفارق الكنيسة، فرأى خرابها وفقدان أهلها، بعدما كانوا يعمرونها، ولهم فيها طيب عيش وهدوء نفس وراحة بال، فأتى بوق الكنيسة، فنفخ فيه، فاجتمع رجال بني قريظة، فذكرهم بحال بني النضير وحال بني قينقاع من قبلهم وما حل بهم من ذل وهوان وخسران، وقرّره بما يعرفون من التوراة، وهو أن محمدًا هو النبي الخاتم، وأنه رسول الله ﷺ حقًا وصدقًا، وأن النجاة في اتباعه والخسران في حربه والكفر به ومعاداته، فأقروا لما أكثر عليهم من الحجج والشواهد والبراهين، فقال له كعب بن أسد القرظي: ما يمنعك يا أبا عبد الرحمن من اتباعه؟ قال: أنت يا كعب قال كعب: قَلِمَ - والتوراة - ما حُلَّت بينك وبينه قط؟ قال الزبير بن باطا: بل أنت صاحب عهدنا وعقدنا فإن اتبعته اتبعناه، وإن أبيت أبينا، فأقبل عمرو بن سُدَى على كعب فذكر ما تفاولا في ذلك إلى أن قال عمرو: ما عندي في أمره إلا ما قلت: ما تطيب نفسي أن أصير تابعًا !! .

وهكذا يحمل الكبيرُ صاحبه على جحود الحق وإنكاره وإن خسر نفسه وأهله في الدنيا والآخرة، وهو الخسران المبين .

○ وثاني غزواتها:

غزوة ذات الرقاع

ذُكر في سبب هذه الغزوة أن بني محارب وبني ثعلبة من غطفان، قد جمعوا الجموعَ وأجمعوا أمرهم على حرب رسول الله ﷺ، فبلغ ذلك رسولَ الله ﷺ، فخرج إليهم في أربعمائة، واستخلف على المدينة أبا ذر الغفاري، أو عثمان بن عفان رضي الله عنهما وسار إليهم وهم بديار نجد فنزل - نخلًا - وهو موضع من نجد في أرض غطفان .

ولما علم بمسيره من أجمعوا أمرهم على قتاله: تفرقوا ولحقوا براءوس الجبال فلم يكن قتال، وسميت هذه الغزوة بذات الرقاع؛ لأنهم كانوا يتعقبون البعير كل ستة ببعير، وكان الفصل صيفًا ولم يطبقوا الحر، فكانوا يُلْفُونَ الخرق على أرجلهم فسميت ذات الرقاع .

○ وحدث في هذه الغزوة ما يلي:

١- أن النبي ﷺ لما بات برجاله بات في مضيق «ثغيب بين جبيلين» وجعل على الحراسة مهاجرًا وهو عمار بن ياسر، وأنصارياً وهو عباد بن بشر، فخير أحدهما الآخر في حراسة أول الليل، أو آخره، فاختار الأنصاري أول الليل، فحرس ثم قام يصلي ويقرأ في سورة الكهف فجاء

أحد القناصة من العدو ، فرماه بسهم فنزعه وواصل صلاته ، ثم رمه بآخر فنزعه ، وواصل صلاته ثم رماه بثالث فاستيقظ صاحبه ، فرأى الدم يسيل منه فسأله فأخبره فقال : لم لا توقظني ؟ فقال : إني كنت في سورة أفرؤها فلم أحب أن أقطعها حتى أكملها ، فلما تابع عليّ الرمي ركعت فأذنتك ، وإيم الله لولا أن أضيع ثغراً أمرني رسول الله ﷺ بحفظه لقطع نفسي قبل أن أقطعها أو أنفيدها . أي : أتمها قراءة .

٢- أن غورث الغطفاني قال لرجاله : ألا أقتل لكم محمداً؟ قالوا : بلى ، وكيف تقتله ؟ قال : أفنتك به ، وأخذ يتتبع جيش الإسلام ، فلما نزلوا في وادٍ كثير الأشجار ، وتفرقوا فيه للاستراحة تحت ظلال أشجاره ، وكان النبي ﷺ قد جلس تحت ظل الشجرة وعلّق سيفه بها ، فجاء غورث الغطفاني في استخفاء وختل حتى أخذ السيف وأصلته ، وقال للرسول ﷺ : من يمتنع اليوم مني يا محمد ؟ فنظر إليه رسول الله ﷺ وقال : «الله» . فانهار الرجل وسقط السيف من يده ، فأخذه رسول الله ﷺ ، وقال له : «من يمتنع مني اليوم» ؟ قال : لا أحد ، وجلس بين يدي رسول الله ﷺ وعاهده على ألا يحارب ضده ، ورجع إلى قومه فأخبرهم فأسلم كثيرٌ على خبر هذه الحادثة .

٣- أن جمل جابر بن عبد الله قد انقطع وأصبح لا يقدر على المشي إلا بصعوبة ، فمرّ به الحبيب محمد ﷺ وهو واقف ، والجمل حاسر بارك ، فقال له : «ناولني سوطه» فناوله إياه ، فضرب به الجمل ؛ فقام وسار حتى كاد يسبق غيره .

ومن باب المطاوعة قال ﷺ لجابر : «أتبيعني يا جابر» ؟ قال : بل أهبة لك يا رسول الله قال : «لا ، بل يغبني» فساومه شيئاً حتى بلغ الثمن المطلوب فباعه إياه ، واشترط جابر حملانه إلى المدينة ، فقبل النبي ﷺ الشرط . ولما وصلوا إلى المدينة جاء جابر بالجمل فأناخه على مقربة من بيوت النبي ، وقال لبعضهم : أخبر النبي ﷺ بأن جابراً جاء بالجمل فأخبره ، فقال ﷺ لعمّار : «أعط هذه الدراهم لجابر ، وقل له يأخذ جملة ؛ فإنه لا حاجة لي به» . فأخذ جابر الجمل وثنمه شاكرًا لله ولرسوله فضلها .

○ نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرًا نجملها في الآتي :

- ١- بيان مصداق قوله ﷺ : «نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مسيرة شهر» .
- ٢- مشروعية اتخاذ الحرس عند الخوف .
- ٣- بيان كمال عباد بن بشر الأنصاري في خشوعه في صلاته وتدبره كلام الله تعالى .
- ٤- آية النبوة المحمدية تتجلى في انهيار غورث وسقوط السيف من يده .
- ٥- بيان الكرم المحمدي المتجلي في إعطاء جابر الجمل والثمن معاً .
- ٦- آية النبوة المحمدية في جمل جابر الذي أصابه الكلل والإعياء حتى انقطع ، ثم عاد خيرًا

مما كان ببركة ضربه له ورغبته في عودة صحته وسلامته .

○ وثالث الغزوات :

غزوة السويق أو بدر الأخرى

سبب هذه الغزوة : أن أبا سفيان بن حرب لما كان عائداً من غزوة أحد قال للنبي ﷺ وأصحابه : موعدنا بدرًا عامًا قبالاً ، فقال النبي ﷺ لأصحابه : «قولوا له : نعم» فقالوا : نعم إن موعدنا معك العام القابل ، فلما آن أوان الموعد ، استخلف النبي ﷺ على المدينة عبد الله بن رواحة ، أو عبد الله بن عبد الله بن أبي ابن سلول ، وخرج في ألف وخمسمائة مقاتل ، وسار حتى وصل بدرًا ، وكان بهما سوق كبيرة تقام سنويًا ولذا واعد أبو سفيان فيها النبي ﷺ وأصحابه ، فباع النبي ﷺ وأصحابه واشتروا فربحوا ضعف رأس المال إذ ربح الدرهم درهمين ، وعادوا لم يمسهم سوء ، إذ أبو سفيان لما خرج برجال ووصل إلى قريب من عسفان رأى أنه لا فائدة من الحرب وخاف الهزيمة فخطب في رجاله فقال : إن هذا العام عام جذب ، ولا يصلح لكم إلا عام خصب ؛ فلذا أرى أن تعودوا ، فأكلوا أزوادهم وكانت سويقًا ورجعوا ، فقال أهل مكة يُنحون عليهم باللائمة : كأنكم ما خرجتم للقتال ، وإنما خرجتم لأكل السويق ، فسميت هذه الغزوة أيضًا بغزوة السويق .

وقال في هذه الغزوة كعب بن مالك شعراً ، منه قوله :

وعدنا أبا سفيان بدرًا فلم نجد	لميعاده صدقًا وما كان وافيًا
فأنقسم لو وافيتنا فلقيننا	لأبنت ذميمًا وافقدت المواليا
تركنا به أوصال عتبة وابنه	وعمرًا أبا جهل تركناه ثاويًا
عصيت رسول الله أف لدينكم	وأمركم السيء الذي كان غاويًا
فلنني إن عثفتُموني لقائل	فدنى لرسول الله أهلى وماليا
أطعنا فلم تغدله فينا بغيره	شهابًا لنا في ظلمة الليل هاديا

○ نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرًا هي الآتية :

١- بيان الوفاء المحمدي الدال على الشجاعة النادرة ؛ إذ لم يرهب أبا سفيان كما رهب هو وولى من الطريق خائفًا .

٢- مشروعية البيع والشراء في كل فرصة تسنح حتى في الجهاد والحج .

٣- بيان مصداق حديث : «نصرت بالرعب مسيرة شهر» ؛ لانهزام جيش أبي سفيان قبل الالتقاء بأرض الموعد وهي بدر .

٤- تفسير قول الله تعالى : ﴿الَّذِينَ كَانَتْ لَهُمْ أُلُوسٌ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَبَّوْهُمُ فَآخَسُوهُمْ فَزَادَهُمُ إِيْمَانًا﴾

وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ ديارِهِمْ وَأَتَوْا بِمَوَدَّةٍ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُ دُورُ فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ [آل عمران: ١٧٣-١٧٤] .

أهم ما وقع من أحداث في هذه السنة الرابعة

من هجرة الحبيب محمد ﷺ

تمت في هذه السنة - وهي الرابعة من الهجرة - أحداث يحسن ذكرها مجملتها؛ للتاريخ والعبرة إزاء النقاط السوداء الآتية:

- وفاة أبي سلمة عبد الله بن عبد الأسد المخزومي ابن عمه رسول الله ﷺ برة بنت عبد المطلب .
- وفاة عبد الله بن عثمان بن عفان وهو ابن رقية بنت رسول الله ﷺ، وله من العمر ست سنين .
- ولادة الحسين بن علي رضي الله عنه وسبط النبي ﷺ لأنه ابن بنته فاطمة الزهراء رضي الله عنها .
- زواج النبي ﷺ بزَيْنَب بنت خزيمة بن الحارث الهلالية والملقبة بأم المساكين .
- تزوج الحبيب محمد ﷺ بأم سلمة بعد وفاة زوجها أبي سلمة وانقضاء عدتها منه .
- أمر النبي ﷺ زيد بن ثابت الشاب الأنصاري أن يتعلم كتابة اليهود فتعلمها في نصف شهر .

أحداث السنة الخامسة

ودخلت السنة الخامسة من هجرة الحبيب محمد ﷺ، وكان أول أحداثها:

غزوة دومة الجندل

بلغ النبي ﷺ أن جمعًا من المشركين بدومة الجندل - وهي قرية تبعد عن المدينة بمسافة خمس عشرة ليلة، وعن دمشق بنحو من خمس ليال - فهي إلى الشام أقرب - وإن كانت من أعمال المدينة النبوية - يتلصصون، ويؤذون المارة، فأراد النبي ﷺ أن يؤدبهم من جهة؛ تخليصًا للبلاد من ظلمهم ومن جهة أخرى ليرعب الروم، وكل من في المنطقة حتى لا يفكروا في حربه ﷺ، ومن جهة ثالثة ينشر دعوة الله تعالى ويبلغها إلى سكان تلك الديار . فاستخلف على المدينة سباع بن عُرْفُطَة الغفري، وخرج في ألف مقاتل وانتهى إلى تلك البلاد، ولم يجد بها أحدًا، إذ رعبوا وتفرقوا بمجرد أن علموا أن محمدًا قد خرج إليهم .

وأقام ﷺ بالمنطقة كذا يومًا، أرسل فيها السرايا هنا وهناك، ولم يعثروا إلا على المواشي من إبل وغنم، فساقوا منها ما شاء الله، وعاد الحبيب محمد ﷺ إلى المدينة، ولم يلق كيدًا والحمد لله أولاً وآخرًا .

○ نتائج وعبر:

- إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرًا نوجزها فيما يلي:
- ١- بيان ما كان من الفوضى في تلك الديار قبل الإسلام بدليل وجود عصابات تلتصص فتؤذي المارة وتسلب أموالهم.
 - ٢- بيان ما أوتي ﷺ من كمال السياسة وحُسنها، إذ خروجه إلى دومة الجندل حقق عدة أهداف شريفة: منها إرعاب الروم، ورفع الظلم، والدعوة إلى الإسلام.
 - ٣- بيان مصداق قوله ﷺ: «نصرت بالرعب مسيرة شهر»، إذ بمجرد أن علم الظلمة بخروج النبي ﷺ إليهم حتى تفرقوا منهزمين والمسافة مسافة شهر.
 - ٤- مشروعية أخذ الغنائم في الإسلام وحليتها لهذه الأمة المجاهدة، المقيمة للعدل، الناشرة للهدى والخير بين من تظلمهم تحت راية الإسلام.
- وثاني أحداثها:

غزوة الخندق أو الأحزاب

هذه الغزوة نزلت في بيان أحداثها الجسام سبع عشرة آية من سورة الأحزاب، وهذه عناصر تكوينها متسلسلة فهُمُّهَا والانتفاع بعبرها.

○ أ - سبب وقوعها:

إن السبب الأقوى والمباشر لحدوث هذه الغزوة، هو أن رؤساء بني النضير الذين نزلوا بخيبر يوم جلائهم، واحتفل بهم يهود خيبر، وأقاموا لهم الأفراح يوم استقبالهم - كما تقدم بيانه في استعراض غزوة بني النضير من السنة الرابعة من هجرة الحبيب محمد ﷺ هؤلاء الرؤساء، وهم حبي بن أخطب، وعبد الله بن سلام بن أبي الحقيق، وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، وغيرهم رأوا أن يثاروا لما أصابهم من الذل والهوان، وينتقموا من الرسول ﷺ والمؤمنين، فخرجوا إلى مكة لتأليب قريش، وتحزيب الأحزاب لقتال النبي ﷺ والقضاء عليه، فوجدوا قريشًا مستعدة لذلك من أجل الهزائم التي لحقتها في غير ميدان وساحة قتال، وضللتها هؤلاء اليهود؛ إذ قالوا لها إنها علي حق، وأن دينها خير من دين محمد، وأنها أهدى منه سبيلًا في حياتها الدينية والاجتماعية والسياسية. وفي هذا نزل قول الله تعالى من سورة النساء: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكَفَّةِ يُؤْمِنُونَ بِالْجَنَّةِ وَالْجَنَّةُ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ أَكْفَرُوا مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ مَآ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَاتُ أَنذَارًا ۚ﴾ [النساء: ٥١-٥٢].

فخرجوا من عند قريش وتركوها تُعَدُّ العدة وتجمع الرجال من قبائلها على اختلافهم مُجمعة الخروج إلى المدينة لحرب محمد ﷺ، واستتصاه.

وذهب أولئك الرؤساء في الشر إلى قبائل غطفان يؤلبونهم على حرب محمد ﷺ فاستجابوا لهم لظلمة نفوسهم، ولقوة تأثير كلام اليهود فيهم، وخرجت قبائل غطفان بزعامة عيينة بن حصن، وكل قبيلة معها سيدها: فمع بني فزارة عيينة، ومع مرة الحارث بن عوف المزي، ومع أشجع مُسْعِر بن ربيعة الأشجعي.

وخرجت قريش بقيادة أبي سفيان بن حرب، وواصل كل سيرة، فنزلت قريش بمجمع الأسياح قريباً من دومة الجرف والغبية، وكان أفراد معسكرهم عشرة آلاف مقاتل من أحابيشهم، ومن تبعهم من كنانة وتهامة. ونزلت قبائل غطفان شرق المدينة إلى جنب أحد الشرقي. وفي هذا يقول تعالى من سورة الأحزاب: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ يَمَّا تَمْلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٩].

○ ب - الخندق إجراء وقائي:

وكان النبي ﷺ قد سمع بتحركات اليهود وتحزيبهم الأحزاب لقتاله - فداء أبي وأمي - فاستشار رجاله. فاقترح سلمان الفارسي حفر خندق حول جبل سلع تكون ظهور المسلمين إلى جبل سلع، ووجههم إلى الخندق، فيمنعون كل مقتحم للخندق يريد الوصول إليهم. وأن يوضع النساء والأطفال في حصون المدينة وأطامها، فاجتمعت الكلمة على حفر الخندق، وأخذ المسلمون يحفرون ومعهم نبيهم ﷺ يحفر معهم. وقد وُزِعَ الحفر عليهم، فجعل لكل عشرة أنفار أربعين ذراعاً. واشتغلت الفئوس والمساحي في الحفر، والرجال في نقل التراب وإبعاده، وكان بين الذين ينقلون التراب الحبيب ﷺ، حتى علا جلدته الطيب الطاهر، وكان ذلك منه ﷺ تشجيعاً لهم على العمل ومواصلته، حتى إنه كان إذا تقاولوا يقول معهم: فقد كانوا يرتجزون برجل من المسلمين يقال له جُعِيلُ وسماء النبي ﷺ عَمْرًا فيقولون:

سماء من بعد جعيل عَمْرًا فيقول ﷺ: «عَمْرًا»

وإذا قالوا: وكان للبائس يوماً ظهراً. يقول هو ﷺ «ظَهْرًا»

ولما رأى ﷺ ما بهم من التعب والجوع قال: «اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة؛ فاغفر للأنصار والمهاجرة».

فقالوا هم مُجِيبين له:

نحن الذين بايعوا محمداً على الجهاد ما بقينا أبداً
وكان ﷺ ينقل التراب معهم ويردد قول عبد الله بن رواحة:

والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكيناً علينا وكُتِبَتِ الأقدام إن لا قيـنا
إن الألى قد بَغَرُوا عَلَيْنَا إذا أرادوا فتنـة أبـينا

○ ج - آيات تظهر أثناء الحفر وبعده:

وتجلت أثناء حفر الخندق آية من آيات النبوة المحمدية وذلك أن كُذِّبَ قد اشتدت عليهم وهم يحفرون فشكوها إلى رسول الله ﷺ فقال: «أنا نازل» - أي إليها داخل الخندق - ثم قام وبطنه معصوب بحجر - إذ ليثوا ثلاثة أيام لا يذوقون طعاماً - فأخذ النبي ﷺ المعول، فضرب الكدبة المستعصاة، فعادت كثيرًا أهيل. هذه آية ظاهرة.

وأخرى: قال جابر بن عبد الله، قلت: يا رسول الله، ائذن لي إلى البيت فأذن لي فأتيته امرأتني فقلت لها: إني رأيت برسول الله ﷺ شيئاً، ما كان في ذلك صبر، فهل عندك شيء؟ قلت: عندي شعير وعناق «جدي صغير» قال: فذبحت العناق وطحنت الشعري حتى جعلنا اللحم في البرمة، ثم جثت النبي ﷺ، والعجيبُ قد انكسر^(١) والبرمة بين الأثافي^(٢) كادت تنضج، فقلت: طعم لي، فقم أنت يا رسول الله ورجل أو رجلان، قال: «كم هو؟» فذكرته له، فقال: «كثير طيب، قل لها: لا تنزع البرمة ولا الخبز من التنور حتى آتي»، فقال: «قوموا» فقام المهاجرون والأنصار ومن معهم قالت: هل سألك؟ قلت: نعم، فقال: «ادخلوا ولا تضاعفوا» فجعل ﷺ يكسر الخبز ويغرف من البرمة حتى شبعوا وبقي بقيّة فقال لي: «كلي هذا وأهلدي؛ فإن الناس أصابتهم مجاعة».

وثالثة: قال سلمان رضي الله عنه: ضربت في ناحية من الخندق، فغلظت عليّ صخرة - ورسول الله ﷺ قريب مني - فلما رأني أضرب ورأى شدة المكان عليّ - نزل فأخذ المعول من يدي، فضرب به ضربة لمعت تحت المعول برقة، ثم ضرب به ضربة أخرى فلمعت تحته برقة أخرى، ثم ضرب به الثالثة فلمعت برقة أخرى. قال سلمان: فقلت: بأبي أنت وأمي، ما هذا الذي رأيت لمع تحت المعول وأنت تضرب؟ قال: «أوقد رأيت ذلك يا سلمان؟» قلت: نعم قال: «أما الأولى، فإن الله فتح عليّ باب اليمن، وأما الثانية فإن الله فتح عليّ باب الشام والمغرب، وأما الثالثة فإن الله فتح عليّ بها المشرق».

○ د - موقف مخز للمنافقين:

لما شرع الرسول ﷺ والمؤمنون في حفر الخندق، كان المؤمنون يواصلون العمل، وإن كانت لأحدهم حاجة ضرورية استأذن رسول الله ﷺ فأذن له فيذهب إلى أهله فيقضى حاجته ويعود، أما المنافقون فإن أحدهم يُؤزّي بقليل من العمل، ثم يذهب إلى أهله بدون إذن ولا استئذان في خفاء، فأنزل الله تعالى فيهم قوله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُم لِيَؤَادَّ فَلَاحِدَ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣] ^(٣).

(١) أي صار كسرة بمعنى نضج.

(٢) الأثافي جمع أثفة: حجر يوضع فوقه القدر.

(٣) مستترين بشيء عند الهرب من العمل حتى لا يُرَوَّأ.

وصف الله تعالى في كتابه، إذ قال من سورة الأحزاب: ﴿إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ [الأحزاب: ١٠] أي قريظة من فوق الجنوب الغربي، وقريش وغطفان من أسفل إذ هم من الشمال الغربي والشرقي، ﴿وَلَا رَأَيْتُ الْفُتُوحَ إِلَّا لَكُمْ﴾ [الأحزاب: ١٠] أي من شدة الخوف - ﴿وَنَظُنُّ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ [الأحزاب: ١٠] أي المختلفة، وهذه حال المنافقين وضعفة الإيمان، أما المؤمنون الصادقون فهم كما قال تعالى فيهم: ﴿هَٰذَا لَكُمْ إِلَهُكُمُ الْحَقُّ الَّذِي تَدْعُونَ لَدُونَهُ لَقَدْ بَدَّلَ الْبَيْتَ عَنْ مَوَاقِدِ اللَّهِ عَن يَمِينِهِ وَحَدَّثَكُمْ هَٰذَا الْبَيْتَ كَذِبًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ١١-١٢] إذ قال معتب بن قشير: كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأخذنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط!! وقال أوس بن قبيط: يا رسول الله إن بيوتنا عورة من العدو، أي مكشوفة له فأذن لنا أن نخرج - أي من المعسكر - فترجع إلى ديارنا، وهو ومن ماله من قومه المعنئون يقول الله تعالى: ﴿يَأْتِيهِمْ لَيْلٌ مِّنَ اللَّيْلِ لَمْ يَرَوْا شَيْئًا وَهُمْ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْهُ لَئِنْ أَقْبَلُوا لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَئِنْ أَعْرَضُوا لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَئِنْ أَعْرَضُوا لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَئِنْ أَعْرَضُوا لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ [الأحزاب: ١٣] في آيات كثيرة تكشف غوارهم وتظهر نفاقهم.

○ ز - رحمة نبوية تتجلى في عرض صالح:

ولما رأى الحبيب محمد ﷺ صعوبة الموقف وشدة البلاء، وما أصاب المسلمين من مخاوف: بعث إلى عيينة بن حصن، وإلى الحارث بن عوف - وهما قائدا غطفان - يعرض عليهما صلحا، وهو أن يعطيهم ثلث ثمار المدينة على أن يرجعوا بمن معهم من قومهم، وتم الصلح حتى كتبت الوثيقة إلا أنها لم يشهد عليها بعد، وقبل التوقيع النهائي بعث رسول الله ﷺ إلى السعدين فذكر لهما، واستشارهما فيه فقالا له: يا رسول الله أمر تحبه فنصنعه أم شيء تصنعه لنا؟ قال: «بل شيء أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلا لأنني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة وكالبوكم^(١) من كل جانب، فأردت أن أكسر عنكم شوكتهم لأمر ما». فقال سعد بن معاذ: يا رسول الله، قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله، وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قرى، أو بيعا، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه، نعطيهم أموالنا؟ والله ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم. فقال رسول الله ﷺ: «فأنت وذاك»، فتناول سعد بن معاذ الصحيفة «الوثيقة» فمحا ما فيها من الكتابة، ثم قال: ليجهروا علينا.

○ ح - بداية المعركة:

ووقف الرسول ﷺ والمؤمنون وجهًا لوجه أمام العدو، وتحركت خيل من قريش على رأسها عمرو بن عبد ود، فمروا بخيمات بني كنانة، فقالوا لهم: تهينوا يا بني كنانة للحرب، فستعلمون من الفرسا اليوم!! ثم أقبلوا تُسرع بهم خيولهم حتى وقفوا على الخندق فلما رأوه قالوا: والله إن^(١) أي اشتدوا عليكم.

هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدُها، ثم قصدوا مكاناً ضيقاً من الخندق فضربوا خيلهم فاقتحمت منه، فجالت بهم بين السبخة وسَلَع، وما إن رآهم المسلمون حتى خرج علي بن أبي طالب في نفر معه من المسلمين ووقفوا بينهم وبين الثغرة التي دخلوا منها بخيلهم، لما رأوا ذلك أقبلوا مسرعين نحو الثغرة التي أخذت منهم فوقفوا دونها، وقال عمرو بن ود: مَنْ يبارز؟ فبرز له علي بن أبي طالب رضي الله عنه وقال: له: يا عمرو إنك قد كنت عاهدت الله تعالى ألا يدعوك رجل من قريش إلى خلتين إلا أخذتهما منه، قال له: أجل! فقال علي: إني أدعوك إلى الله وإلى رسوله وإلى الإسلام فقال: لا حاجة لي بذلك، قال علي: فإني أدعوك إلى النزال، فقال له: لم يا ابن أخي؟! فوالله ما أحب أن أقتلك، فقال علي: لكنني - والله - أحب أن أقتلك، فحَمَى عمرو عند ذلك، فنزل عن فرسه وعقره وضرب وجهه، ثم أقبل على علي يُنازله، فتنازلا وتجاولا، فقتل علي عمراً، ولما رأت خيل المشركين ذلك فزّت هاربة مقتحمة الخندق. ولم يقدرُوا بعد هذه الجولة أن يقتحموا الخندق لا رجالاً ولا فرساناً، وإنما هي الاقتناص والرماية حتى إن ابن العرقة رمى سعد بن معاذ بسهم وقال: خُذْها وأنا ابن العرقة^(١) فقال له سعد: عرق وجهك في النار، وكان سعد قد أصيب في أكتفله، وقُلَّ مَنْ ينجو من الموت من أصيب إصابته، ولذا دعا فقال اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئاً فأبقني لها؛ فإنه لا قوم أحب إليّ أن أجاهدهم من قوم آذوا رسولك وكذبوه وأخرجوه. اللهم إن كنت قد وضعت الحرب بيننا وبينهم، فاجعله لي شهادة، ولا تُؤمّنني حتى تُفَرِّع عيني من بني قريظة. وعظم البلاء وفزع الحبيب ﷺ إلى ربه يدعوه ويسأله النصر له والهزيمة لأعدائه فقال: «اللهم مُنْزِلِ الْكِتَابِ، سَرِيعِ الْحِسَابِ، اهْزِمِ الْأَحْزَابِ، اللَّهُمَّ اهْزِمِهِمْ وَزَلِزْلِهِمْ»، وقال له بعض أصحابه: يا رسول الله هل من شيء نقوله؟ فقد بلغت القلوب الحناجر، فقال: «نعم، قولوا: اللهم اسنُرْ عوراتنا وآمن رُوَعاتنا» وقد حالت المواجهة للعدو دون صلاة العصر حتى غربت الشمس فصلّى بعد ذلك ودعا على المشركين فقال: «ملأ الله بيوتهم وقبورهم ناراً كما شغلونا عن الصلاة الوسطى»؛ صلاة العصر. وحصل هذا عدة مرات، وذلك لأن صلاة الخوف لم ينزل القرآن بها بَعْدُ، وإلا لصلوا على أي حال ولا يؤخرونها عن وقتها.

واستجاب الله دعوة رسوله وعباده المؤمنين، فساق إلى رسوله نعيم بن مسعود الغطفاني - بعد أن هداه إلى الإسلام فأسلم - وأتى النبي ﷺ يقول له: يا رسول الله، إني قد أسلمتُ، وإن قومي لم يعلموا بإسلامي، فمرّني بما شئت، فقال له رسول الله ﷺ: «إنما أنت فينا رجل واحد، فخذل عنا إن استطعت، فإن الحرب خدعة»، وخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بني قريظة - كان لهم نديماً في الجاهلية - فقال: يا بني قريظة قد عرفتم وذي إيتاكم، وخاصة ما بيني وبينكم، قالوا:

(١) هي قلابة بنت سعيد تكنى أم فاطمة، وهي جدة خديجة أي أم أمها هالة، وقيل لها: العرقة لطيب عرقها.

صدقت، لست عندنا بمتهم. فقال لهم: إن قريشاً وغطفان ليسوا كأنتم، البلدُ ببلدكم، فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم لا تقدرون على أن تحوّلوا منه إلى غيره، وإن قريشاً وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه، وقد ظاهرتموهم عليه، وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره، فليسوا كأنتم، فإن رأوها نهزة^(١) أصابوها، كان غير ذلك لحقوا ببلادهم، وخلّوا بينكم وبين الرجل ببلدكم ولا طاقة لكم به إن خلا بكم، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهناً من أشرفهم يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمداً حتى تنجزوه، فقالوا له: لقد أشرت بالرأي. ثم خرج من عندهم حتى أتى قريشاً فقال لأبي سفيان بن حرب ومن معه من رجال قريش: قد عرفتم ودي لكم وفراقي محمداً، وإنه قد بلغني أمرٌ قد رأيت عليّ حقاً أن أبلغكموه؛ نصحاً لكم فاكتموه عني، فقالوا نفعل. فقال: تعلموا أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد وقد أرسلوا إليه: إنا قد ندمنا على ما فعلنا، فهل يرضيك أن نأخذ من القبيلتين من قريش وغطفان رجالاً من أشرفهم فنعطيكهم فتضرب أعناقهم، ثم نكون معك على من بقي منهم حتى نستأصلهم؟ فأرسل إليهم: أن نعم، فإن بعث إليكم يهود يلتمسون منكم رهناً من رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلاً واحداً.

ثم خرج حتى أتى غطفان: فقال: يا معشر غطفان، إنكم أهلي وعشيرتي وأحب الناس إليّ، ولا أراكم تتهموني، قالوا: صدقت ما أنت عندنا بمتهم، قال: فاكتموا عني، قالوا: نفعل، فما أمرُك؟ فقال لهم ما قال لقريش وحذرهم ما حذرهم.

وكان من تدبير الله تعالى لرسوله والمؤمنين - ليخرجهم من محنتهم - أن أرسل أبو سفيان ورجالاً من غطفان إلى بني قريظة في ليلة سبت يقولون لهم: إنا لسنا بدار مقام، قد هلك الخفّ والحافر، فأعدوا للقتال حتى تنجز محمداً، ونفرغ مما بيننا وبينه، فأرسلوا إليهم: أنّ اليوم يوم السبت، وهو يوم لا نعمل فيه شيئاً، وقد كان أحدث فيها بعضنا حديثاً فأصابهم ما لم يخف عليكم، ولسنا مع ذلك بالذين نقتل معكم محمداً حتى تعطوا رهناً من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا حتى تنجز محمداً، فإننا نخشى إن ضررناكم^(٢) الحرب، واشتد عليكم القتال أن تسمروا^(٣) إلى بلادكم وتتركونا والرجل في بلادنا ولا طاقة لنا به. فلما رجعت الرسل إلى قريش وغطفان بما قالت بنو قريظة، قالوا: والله إن الذي حدثكم به نعيم بن مسعود لحقّ فأرسلوا إلى بني قريظة: إنا والله لا ندفع إليكم رجلاً واحداً من رجالنا، فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا، فقالت بنو قريظة حين انتهت إليهم الرسل بهذا: إن الذي ذكر نعيم لحق ما يريد القوم إلا أن يقاتلوا فإن رأوا فرصة انتهزوها، وإن كان غير ذلك انشَمَرُوا إلى بلادهم وخلّوا بينكم وبين الرجل في بلادكم،

(١) نهزة: أي فرصة انتهزوها.

(٢) نالتكم الحرب بأضرارها كتابة عما تلحق بهم من موت وهزيمة.

(٣) تنقبضوا وتسرعوا إلى بلادكم.

فأرسلوا إلى قريش وإلى غطفان: إنا والله لا نقاتل معكم محمداً حتى تعطونا رهناً فأبوا عليهم، وخذّل الله تعالى بينهم، فلم يعزموا على القتال، وأرسل الله عز وجل عليهم الريح في ليلة شاتية باردة شديدة البرد، فجعلت تكفأ قدورهم وتقتلع خيامهم، وما أطاقوا المقام؛ فقرروا العودة فوراً إلى بلادهم، وارتحلوا عاندين لم ينالوا خيراً، وكفى الله رسولهُ والمؤمنين قتالهم، وكان الله قوياً عزيزاً. وأنزل في ذلك قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا يَمَنَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَكُمْ جُنُودُ فَارِسَکَا عَاتِيَةً رِيحًا وَجُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ يَمَّا تَمَلُّونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٩] وقوله: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَظِيمِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْفِتْنَالُ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: ٢٥].

ولنستمع الآن إلى حذيفة بن اليمان رضي الله عنه يحدثنا عن مشاهدته لمعسكر أبي سفيان في تلك الليلة الباردة وهو يعلن الرحيل بسرعة.

قال رضي الله عنه وقد قال له رجل من أهل الكوفة: يا أبا عبد الله، أرايتم رسول الله ﷺ وَصَحْبَهُمْ؟ قال: نعم يا ابن أخي، قال: فكيف كنتم تصنعون؟ قال: والله لقد كنا نهجد، فقال السائل لحذيفة: والله لو أدركناه ما تركناه يمشي على الأرض، ولحملناه على أعناقنا. فقال حذيفة: يا ابن أخي والله لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ بالخندق وصلى رسول الله ﷺ هُوًّا (١) من الليل ثم التفت إلينا فقال: «مَنْ رَجُلٌ يَقُومُ فَيَنْظُرُ لَنَا مَا فَعَلَ الْقَوْمُ ثُمَّ يَرْجِعُ؟» - فشرط له رسول الله ﷺ الرجعة - «أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَكُونَ رَفِيقِي فِي الْجَنَّةِ». فما قام رجل من القوم من شدة الخوف وشدة الجوع وشدة البرد، فلما لم يَقُمْ أَحَدٌ دَعَانِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فلم يكن لي بدٌّ من القيام حين دَعَانِي. فقال: «يا حذيفة اذهب فادخل في القوم فانظر ما يصنعون ولا تُخَدِّثَنَّ شَيْئًا حَتَّى تَأْتِيَنَا» قال: فذهبت فدخلت في القوم، الريحُ وجنودُ الله «الملائكة» تفعل بهم ما تفعل، ولا تَقَرَّ نَارًا وَلَا قُدْرًا وَلَا بِنَاءً، فقام أبو سفيان فقال: يا معشر قريش لينظر امرؤُ مَنْ جَلِيسُهُ؟ قال: حذيفة فأخذتُ بيد الرجل الذي إلى جنبي، فقلت: من أنت؟ قال: فلان بن فلان، ثم قام أبو سفيان فقال: يا معشر قريش، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام، لقد هلك الكراع والخف، وأخلفتنا بنو قريظة وَبَلَّغْنَا عَنْهُمْ مَا نَكْرَهُ، ولقينا من شدة الريح ما ترون، ما تظمنن لنا قَدْرًا وَلَا قُومًا لَنَا نَارَ، وَلَا يَسْتَمْسِكُ لَنَا بِنَاءٌ؛ فارتحلوا إني مرتحل، ثم قام إلى جملة وهو معقول فجلس عليه ثم ضربه فوثب به على ثلاث، فوالله ما أطلق عقاله إلا وهو قائم، ولو لا عهد رسول الله ﷺ إِلَيَّ: «لَا تُحَدِّثَنَّ شَيْئًا حَتَّى تَأْتِيَنِي» ثم شئت لقتلته بسهم، قال: فرجعت إلى رسول الله ﷺ وهو قائم يصلي في مرط (٢) لبعض نسائه. فلما رأيته أدخلني إلى رجله وطرح عليَّ طرف المرط، ثم رجع وسجد وإني لفيه، فلما سلم أخبرته الخبر. وسمعت غطفان بما فعلت قريش فأنسحروا راجعين إلى بلادهم.

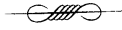
(٢) كساء.

(١) هُوًّا: أي قطعة من الليل.

وهناك قال الحبيب ﷺ: «الآن نغزوهم ولا يغزوننا»، وحقاً لم تَفَرُّ بعدها قريشُ النبي الحبيب ﷺ حتى غزاها في عقر دارهم ودخل مكة عليهم. ولما أصبح رسول الله ﷺ من تلك الليلة، عاد إلى المدينة وعاد أصحابه، والحمد لله.

○ نتائج وعبر:

- ١- إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرًا نجملها إزاء الأرقام التالية:
- ١- مُوقِدُ نار حرب غزوة الخندق هم رؤساء يهود بني النضير: حبي بن أخطب وسلام بن مشكم وكنانة بن الربيع. وما زال اليهود يوقدون نيران الحرب إلى اليوم.
- ٢- بيان خيانة وغدر عيينة بن حصن الغطفاني، إذ وادعه الرسول ﷺ واقتطع له أرضاً وغدر.
- ٣- فضل سلمان الفارسي في إرشاده المؤمنين إلى حفر الخندق، وقول الرسول ﷺ فيه: «سلمانُ منا آل البيت» لما تنازعه كلُّ من المهاجرين والأنصار.
- ٤- تجلي آيات النبوة المحمدية عند حفر الخندق في ثلاثة مواطن وهي تفتت الصخرة حتى كانت كتيلاً مهياً، وما أعلنه عند كل بارقة برقت إذ كان ما أخير به كما أخبر. وإطعام المئات بصاع شعير وجدي من الماعز
- ٥- بيان أن هذه الغزوة كانت تمحيصاً للمؤمنين، وكشفاً لعوار المنافقين.
- ٦- تجلي الرحمة المحمدية في سعيه ﷺ للصالح مع العدو الغازي ليخفف به على المؤمنين.
- ٧- جلال موقف سعد بن معاذ في رفضه الاتفاقية؛ إيماناً وتوكلاً وصبراً وصدقاً.
- ٨- ظهور بطولة علي بن أبي طالب في منازلته عمرو بن ود، وقتله إياه في جولات محدودة.
- ٩- عظم مصاب المسلمين في سعد بن معاذ وهو القاتل عند قدومه على المعركة:
- لبث قليلاً يدرك الهيجا جَمَل لا بأس بالموت إذا حان الأجل
- ١٠- استجابة الله تعالى دعاء رسوله والمؤمنين.
- ١١- عظم دور نُعيم بن مسعود في تخذيل كل من اليهود والمشركين.
- ١٢- تقرير حقيقة سياسية رشيدة، وهي عدم الأخذ بنصائح العدو مهما كان صادقاً ووجوب التحذر منها، تجلّت هذه الحقيقة في دور نُعيم الذي قام به في تخذيل العدو في قالب نصائح لا نظير لها.
- ١٣- فضل حذيفة بن اليمان لاختيار الرسول ﷺ له وبعثه لاستطلاع حال العدو، وفوزه بمرافقة الحبيب ﷺ في الجنة.
- ١٤- تفسير آيات الأحزاب الواردة في غزوة الأحزاب وفي نحو من سبع عشرة آية.



○ وثالث أحداثها:

غزوة بني قريظة

بنو قريظة إحدى طوائف اليهود الثلاث الذين كانوا يسكنون حول المدينة النبوية ووادعهم رسول الله ﷺ ونقضوا عهدهم واحدة بعد واحدة، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿أَوْصَلُوا عَهْدَكُمْ بِمَا بَيْنَكُمُ فَإِنْ بَرَأْتُمْ إِلَى الْيَهُودِ فَإِنَّكُمْ يَوْمَئِذٍ يَكُونُونَ لِمَسِيحٍ﴾ [البقرة: ١٠٠] فاليهود إلى اليوم لا يفون بعهد ولا يلتزمون بميثاق، فكان النكث والغدر وصفاً لازماً لهم - إلا ما شاء الله منهم.

فبنو قريظة، نقضوا عهدهم وانضموا إلى معسكر المشركين المحاصرين للمدينة الذين جاءوا لاستئصال الرسول والمؤمنين - خيب الله مساعيهم - فهذا وجب قتالهم وتعين قتلهم أو إجلاؤهم عن البلاد وإخراجهم منها.

كان هذا سبب غزوة بني قريظة، وهو نقضهم للمعاهدة، وانضمامهم إلى المشركين الغزاة الظالمين المعتدين.

(ب) بداية غزوهم:

لما عاد الرسول ﷺ والمؤمنون من الخندق - وذلك يوم الأربعاء من أواخر شهر ذي القعدة من سنة خمس من الهجرة - ودخلوا المدينة، فلما كان وقت الظهر أتى جبريل عليه السلام معتجراً^(١) بعمامة من إستبرق على بغلة عليها رحالة^(٢)، عليها قطيفة من ديباج فقال: «أو قد وضعت السلاح يا رسول الله؟» قال: «نعم»، فقال جبريل: «فما وضعت الملائكة السلاح بعد، وما رجعت الآن إلا من طلب القوم. إن الله عز وجل يأمرك يا محمد بالمسير إلى بني قريظة، فإني عامد إليهم فمزلول بهم».

واستجاب الرسول الحبيب ﷺ أمر ربه تعالى فعين على المدينة ابن أم مكتوم، وأمر ابن عمه على بن أبي طالب أن يتقدم برايته إلى بني قريظة بجس نبضهم، ومعرفة أحوالهم، وما هم عليه. وأذن مؤذن رسول الله ﷺ في الناس أن احضروا فوراً إلى النبي ﷺ فحضروا، فأمرهم بالمسير إلى بني قريظة، وقال لهم: «لا يصلين أحدكم العصر إلا في بني قريظة». وخف الناس وخرجوا، وحانت صلاة العصر، فمنهم من صلاها في طريقه متأولاً قول الرسول ﷺ، ومنهم من لم يصلها حتى دخل الليل عملاً بظاهر النص: «لا يصلين أحدكم العصر إلا في بني قريظة»، ولم يعب النبي ﷺ على من صلى ولا من أخر، إذ الكل عامل بطاعته ﷺ.

وخرج الحبيب ﷺ مع أصحابه، فإذا بعلى رضى الله عنه عائد من بني قريظة، وقال للرسول ﷺ: لا عليك ألا تدنوا من هؤلاء الأخباث، فقال الرسول ﷺ: «لم؟ أظنك سمع منهم لي أذى؟»

(١) الاعتجار بالعمامة: ألا يُجعل شيء منها تحت اللحية.

(٢) الرحالة: السرج.

قال: نعم. قال: «لو رأوني لم يقولوا من ذلك شيئاً»، وكانوا قد نالوا من الرسول شيئاً لما دنا منهم على مخاطبتهم. وسار الحبيب ﷺ حتى وصل إلى ديارهم ودنا من حصونهم ناداهم قائلاً: «يا إخوان القردة، هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمه» قالوا يا أبا القاسم ما كنت جهولاً.

وأثناء مسيره ﷺ إلى بني قريظة مر بنفر من أصحابه فسألهم: «هل مر بكم أحد؟» قالوا: يا رسول الله مر بنا دحية بن خليفة الكلبي على بغلة بيضاء، عليها رحالة، عليها قطيفة ديباج، فقال رسول الله ﷺ: «ذلك جبريل بعث إلى بني قريظة يزلزل بهم حصونهم ويقذف الرعب في قلوبهم». ونزل الحبيب ﷺ وأصحابه على بئر من آبار بني قريظة يقال له: «أنا» أو «أني» ولما تلاحق المسلمون حاصرهم ﷺ، وطلب منهم النزول، فأبوا أن ينزلوا. وفي هذه الأثناء - وعندما جهدهم الحصار وأيقنوا أن النبي ﷺ لا يفلتهم - قام فيهم كعب بن أسد أحد أشرافهم، وهو صاحب الحل والعقد بينهم فقال لهم: يا معشر يهود قد نزل بكم من الأمر ما ترون، وإني عارض عليكم خلا لا ثلاثاً، فخذوا أيها شئتم، قالوا: وما هي؟ قال: نتابع هذا الرجل ونصدق، فوالله لقد تبين لكم أنه لنبي مرسل، وأنه الذي تجدونه في كتابكم، فتأمنون على دماءكم، وأموالكم وأبنائكم ونسائكم، قالوا: لا نفارق حكم التوراة أبداً، ولا نستبدل به غيره. قال: فإذا أبيتم هذه فهل فلنقتل أبناءنا ونساءنا ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالاً مصلتين السيوف لم نترك وراءنا ثقلًا حتى يحكم الله بيننا وبين محمد فإن نهلك، نهلك ولم نترك وراءنا نسلًا نخشى عليه، وإن يظهر فلعمري لنجدن النساء والأبناء قالوا: نقتل هؤلاء المساكين فما خير العيش بعدهم؟ قال: فإن أبيتم على هذه فإن الليلة ليلة سبت، وإنه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد آمنونا فيها، فانزلوا لعلنا نصيب من أصحابه غرة، قالوا: نفس سبتنا علينا^(١) ونحدث فيه ما لم يحدث من كان قبلنا إلا من قد علمت، فأصابهم ما لم يخف عليك من المسخ؟. وهنا قال كعب: ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة واحدة من الدهر حازماً.

○ عرض مرفوض:

ولما اشتدت حيرتهم، وعظمت مخاوفهم أنزلوا رجلاً منهم هو شاس بن قيس ليفاوض رسول الله ﷺ في شأنهم، فنزل وكلم رسول الله ﷺ وعرض عليه أن يعاملهم معاملة بني النضير بحيث يخرجون بأموالهم ونسائهم وأولادهم ويتركون السلاح، فأبى ذلك رسول الله ﷺ، فقال شاس: تحقن دماءنا وتعطينا النساء والذرية ولا تأخذ من أموالنا شيئاً؟ فأبى ﷺ إلا أن ينزلوا على حكمه، فعاد شاس فأخبرهم بنتيجة المفاوضات وأنها في غير صالحهم.

○ وآخر مقبول:

ولما رفض رسول الله ﷺ مقترحهم، فبعثوا إليه يطلبون أن يبعث إليهم أبا لبابة ليستشيروه في

(١) إشارة إلى الذين اعتدوا في السبت بالصيد فمسخوا قردة.

موضوع النزول على حكم رسول الله ﷺ ، وكان أبو لبابة أوسيا - وقريظة كانت حلفاء الأوس - فبعث إليهم النبي ﷺ أبا لبابة فدخل عليهم حصنهم ، فما إن راوه حتى قام إليه الرجال وجيش النساء والصبيان بالبكاء ، فرق لهم أبو لبابة ، فقالوا له : يا أبا لبابة ، أنزل على حكم محمد؟ قال : نعم ، وأشار بيده إلى حلقه أي إنه الذبيح .
○ عشرة كريم أقالها جل جلاله :

وخرج أبو لبابة من عندهم وهو يقول : والله ما زالت قدماي من مكانهما حتى عرفت أنني قد خنت الله ورسوله ، ولذا انطلق على وجهه ، ولم يأت رسول الله ﷺ حتى ربط نفسه في سارية المسجد ، وقال : لا أبرح مكاني هذا حتى يتوب الله علي مما صنعت وعاهد الله ألا يظأ بني قريظة أبداً ، ولا يرى في بلد خان فيه الله ورسوله أبداً ، وكانت آية الأنفال تعنيه وهي قوله تعالى : ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْزَنُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَحْزَنُوا أَمْتَنَ عَلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ تَقْلُمُونَ﴾ (الأنفال: ٢٧) . ولما بلغ النبي ﷺ خبره - وكان قد استبطأ فلم يأت - قال : «أما إنه لو جاءني لاستغفرت له ، فأما إذ قد فعل ما فعل ، فما أنا بالذي أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه» . وقضى أبو لبابة كذا يوماً مربوطاً ، تأتي امرأته وقت الصلاة فتطلقه ، فإذا صلى ارتبط .

في سحر الليلة السادسة من ارتباطه سمعت أم سلمة النبي ﷺ يضحك فقالت له : مم تضحك يا رسول الله؟ أضحك الله سنك قال : «تيب على أبي لبابة» قالت : ألا أبشره يا رسول الله؟ - وكان الحجاب لم يضرب بعد على نساء النبي والمؤمنين - قال : «بلى» فقامت على باب حجرتها وقالت : يا أبا لبابة ، أبشر فقد تاب الله عليك ، فثار الناس إليه ليطلقوه قال : لا والله ، حتى يكون الرسول ﷺ هو الذي يطلقني بيده ، فلما مر عليه الرسول ﷺ خارجاً إلى صلاة الصبح أطلقه .
○ في ليلة نزول قريظة :

وفي ليلة نزول قريظة على حكم رسول الله ﷺ أكرم الله أربعة أنفار من اليهود فأسلموا ، ثلاثة منهم ليسوا من بني قريظة والرابع قرطي ، فغير القرطيين هم : ثعلبة بن سعية ، وأسيد بن سعية ، وأسد بن عبيد وهم من بني هذيل فليسوا قرطيين ولا نضريين والقرطي هو عمرو بن سعدى القرطي ، فإنه أبى أن يدخل مع قريظة في غدرها لرسول الله ﷺ ، وقال لا أغدر محمدًا أبداً ، ومر في الليل بحرس رسول الله ﷺ الذي عليه محمد بن مسلمة ، فعرفه محمد بن مسلمة ، وقال : اللهم لا تحرمني إقالة عثرات الكرام ، وخلي سبيله ، فذهب على وجهه حتى أتى مسجد الرسول ﷺ فبات به تلك الليلة . ثم ذهب فلم يدر أين توجه من الأرض إلى يومنا هذا . ولما ذكر لرسول الله ﷺ قال : «ذاك رجل نجاه الله بوفائه» .

○ نزول بني قريظة على حكم رسول الله ﷺ :

ولما أصبح الصباح وأعلن عن نزول بني قريظة على حكم رسول الله ﷺ ، وتوافد رجال

الأوس على رسول الله ﷺ، وقالوا: يا رسول الله، إنهم موالي لنا دون الخزرج، وقد فعلت في موالي إخواننا بالأوس ما قد علمت - وهو أنه قد وهب بني قينقاع لابن أبي الخزرجي لما ألح عليه في ذلك شافعاً فيهم بوصفهم مواليه - أي أحلاف الخزرج - فقال لهم ﷺ: «ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم؟» قالوا: بلى، قال ﷺ: «فذلك إلى سعد بن معاذ».

○ من المستشفى إلى المحكمة:

لقد أصيب سعد في الخندق بسهم في أكحله ودعا ربه لا يتوفاه حتى يريه نعمة في بني قريظة الخونة الغادرين، ولما هزم الله المشركين، وارتحلوا، وعاد النبي ﷺ والمؤمنون إلى المدينة، وضع الرسول ﷺ سعد بن معاذ في خيمة رفيعة الأسلمية في مسجد رسول الله ﷺ التي اتخذتها مثل المستشفى تعالج فيها الجرحى من فقراء المسلمين وضعفائهم، محتسبة ذلك عند الله ترضو ثوابه يوم القيامة، وأمر النبي ﷺ بوضع سعد في خيمة رفيعة من أجل أن يقرب منه ليعوده من قريب.

ولما حكمه ﷺ في بني قريظة، أتاها قومه من الأوس فحملوه على حمار قد وطئوا له بوسادة من آدم، ثم أقبلوا معه إلى رسول الله ﷺ وهم يقولون: يا أبا عمرو أحسن في مواليك، فإنما ولاك رسول الله ﷺ ذلك لتحسن فيهم فلما أكثروا عليه قال: لقد آن لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم. وهنا فهم القوم أن سعداً سوف لا يرحمهم، ولما وصل سعد، قال رسول الله ﷺ: «قوموا إلى سيدكم» فقاموا إليه وأنزلوه عن الدابة وقالوا له: يا أبا عمرو إن رسول الله ﷺ قد ولاك أمر مواليك لتحكم فيهم، فقال لهم سعد: عليكم بذلك عقد الله وميثاقه أن الحكم فيهم ما حكمت؟ قالوا: نعم: وعلى من ههنا؟ - يشير على الناحية التي فيها رسول ﷺ جالس، وهو معرض عن رسول الله ﷺ إجلالاً له وتوقيراً - فقال رسول الله ﷺ: «نعم» قال سعد: فإني أحكم فيهم أن تقتل الرجال، وتقسم الأموال، وتسبى الذراري والنساء. فقال رسول الله ﷺ: «حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة»^(١).

○ كيف نزل القرطيون من حصونهم:

إنه لما صدر حكم الله تعالى على لسان سعد بن معاذ في بني قريظة، ورضي الحكم رسول الله ﷺ والمؤمنون ووافقوا عليه مجتمعين، كان القرطيون ساعته في حصونهم، وقد أبوا أن ينزلوا على حكم سعد، فصاح على بن أبي طالب قائلاً: يا كتية الإيمان - وتقدم هو والزبير بن العوام - وقال: والله لأذوقن ما ذاق حمزة أو لأقتحنن حصنهم، فصاح اليهود وقالوا: يا محمد ننزل على حكم سعد بن معاذ، ونزلوا فاقبتدوا إلى المدينة وحبسوا في دار بنت الحارث - امرأة من بني النجار يقال لها: نسيبة بنت الحارث.

(١) جمع رقيق. والمراد: السموات السبع، لأنه رقة فوق أخرى.

○ تنفيذ الحكم

ثم خرج الحبيب محمد ﷺ إلى سوق المدينة وأمر بحفر أخاديد فيها، ثم أمر أن يؤتى بهم أرسالاً، فتضرب أعناقهم ويلقون في تلك الأخاديد، وكانوا قرابة سبعمائة الرجل من بينهم كعب بن أسد رئيسهم، وعدو الله حبي بن أخطب النضري محزب الأحزاب لحرب رسول الله ﷺ والمؤمنين، وقد قالوا لكعب - وهم يساقون أرسالاً إلى رسول الله ﷺ - إلى أين يذهب بنا يا كعب؟ فقال لهم: أفي كل موطن لا تعقلون؟ ألا ترون الداعي لا ينزع، وأنه من ذهب به منكم لا يرجع؟ هو والله القتل، وأخيراً جيء بعدوا الله حبي بن أخطب - عليه حلة فقاحية^(١) قد شقها من كل جهاتها حتى لا ينتفع بها المسلمون، جيء به مجموعة يده إلى عنقه، فلما نظر إلى رسول الله ﷺ قال: أما والله ما لمت نفسي في عداوتك، ولكنه من يخذل الله يخذل، ثم أقبل على الناس، وقال: أيها الناس، إنه لا بأس بأمر الله، كتاب وقدر، وملحمة كتبها الله على بني إسرائيل، ثم جلس، فضربت عنقه.

○ القرظية العجب:

لقد أعدم كل من أنبت الشعر واحتلم من ذكران بني قريظة إلا رفاعة فقد استوهبته سلمى بنت قيس - أم المنذر النجارية - النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله - بأبي أنت وأمي - هب لي رفاعة، فإنه قد زعم أنه سيصلى ويأكل لحم الجمل، فوهبه لها فاستحيته، أما نسأؤهم فلم يقتل منهم إلا امرأة واحدة قتلت بجناية ارتكبتها^(٢). وكانت المرأة عجباً في حياتها، ولنترك لأم المؤمنين عائشة تحدثنا عنها.

حدث عروة بن الزبير عن خالته رضى الله عنهما قال: إنها قالت: لم يقتل من نساء بني قريظة إلا امرأة واحدة، إنها والله لعندي تتحدث معي وتضحك وتتقلب ظهرًا لبطن من الضحك، ورسول الله ﷺ يقتل رجالها في السوق، إذ هتف هاتف باسمها: أين فلانة؟ قالت: أنا والله، فقلت لها: ويلك مالك؟ قالت: أقتل. قلت: ولم؟ قالت: يحدث أحدثته، فانطلق بها فضرب عنقها. فكانت عائشة تقول: والله ما أنسى عجباً منها طيب نفسها وكثرة ضحكها، وقد عرفت أنها تقتل.

وقرظي أعجب:

هذا القرظي الأعجب حالا من القرظية العجب، هو الزبير^(٣) بن باطا أحد أعيان بني قريظة. وكان هذا الزبير قد من على ثابت بن قيس بن شماس في الجاهلية، وذلك في حرب بعث، إذ قد جز ناصيته وخلق سبيله، فجاء ثابت - وهو شيخ كبير - فقال: يا أبا عبد الرحمن هل تعرفني؟

(١) موشاة بالحمرة كالورد.

(٢) كانت قد طرحت الرِّحَا على خلاد بن سويد فقتلته.

(٣) الزبير بفتح الزاي بخلاف الزبير بن العوام فبضم الزاي.

قال: وهل يجهل مثلي مثلك؟ قال: إني أردت أن أجزيك بيدك عندي، قال الزبير: إن الكريم يجزي الكريم.

ثم أتى ثابت النبي ﷺ فقال يا رسول الله، إنه قد كان للزبير بن باطا على منة، قد أحببت أن أجزيه بها، فهب لي دمه. فقال رسول الله ﷺ: «هو لك» فأتاه فقال له: إن رسول الله ﷺ قد وهب لي دمك فهو لك، فقال الزبير: شيخ كبير لا أهل له ولا ولد فما يصنع بالحياة؟ فأتى ثابت رسول الله ﷺ فقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله هب لي امرأته وولده قال: «هما لك» فأتاه فقال له: قد وهب لي رسول الله ﷺ أهلك وولدك فهما لك، فقال: أهل بيت في الحجاز لا مال لهم، فما بقاؤهم على ذلك؟ فأتى ثابت رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، ماله، قال: «هما لك» فأتاه ثابت فقال قد أعطاني رسول الله ﷺ مالك فهما لك، قال أي ثابت: ما فعل الذي كأن وجهه مرأة صينية يترأى فيها عذارى الحي كعب بن أسد؟ قال: قتل. قال: فما فعل سيد الحاضر والبادي حيي بن أخطب؟ قال: قتل، قال: فما فعل مقدمتنا إذا شددنا، وحاميتنا إذا فررنا، عزال بن سموءل؟ قال: قتل، قال: فما فعل المجلسان؟ يعني بني كعب بن قريظة، وبني عمرو بن قريظة؟ قال: ذهبوا قتلوا، قال: فإني أسلك يا ثابت، بيدي عندك إلا ألحققتني بالقوم، فوالله ما في العيش بعد هؤلاء من خير. فما أنا بصابر لله فتلة^(١) دلو ناضح حتى ألقى الأعبة، فقدمه ثابت فضرب عنقه.

ولما بلغ أبا بكر الصديق قوله: «ألقى الأعبة» قال: يلقاهاهم والله في نار جهنم خالداً فيها مخلداً.

○ أموال بني قريظة:

بناء على حكم سعد بن معاذ الذي وافق فيه حكم الله تعالى، ورضيه رسوله محمد ﷺ فإن أموال بني قريظة - كنسائهم وذرياتهم - تقسم على المسلمين، فلذا قسمها رسول الله ﷺ فأعطى للفارس ثلاثة أسهم وللراجل سهماً - بعد أخذ الخمس الذي هو لله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل - وعلى هذه السنة مضت في الإسلام قسمة الغنائم إلا أن بعض أئمة الفقه يرى أن الفارس يعطى سهمين والراجل يعطى سهمًا واحدًا.

ثم بعث رسول الله ﷺ سعد بن زيد الأنصاري - أخا بني عبد الأشهل - بسبايا من سببايا بني قريظة إلى نجد فباعهم، واشترى بثمنهم خيلاً وسلاحاً للمسلمين.

○ ربحانة الحبيب ﷺ:

ربحانة: امرأة من بني عمرو بن قريظة، اصطفاها رسول الله ﷺ قبل قسمة السبايا وعرض عليها الزواج بها ويضرب عليها الحجاب فأبت، وقالت: يا رسول الله، اتركني في ملكك فهو

(١) إفراغه دلو أي زمن ما يفرغ دلو ماء، كناية عن أقصر زمن.

أخف على عليك، فتركها، وعرض عليها الإسلام فأبّت إلا اليهودية، فعزلها ووجد في نفسه لذلك من أمرها، فبينما هو مع أصحابه، إذ سمع وقع نعلين خلفه فقال: «إن هذا لثعلبة بن سعية يشترني بإسلام ريحانة». فجاء فقال: يا رسول الله قد أسلمت ريحانة، فسرّه ذلك من أمرها فكانت عنده ﷺ حتى توفي وهي في ملكه رضي الله عنها.

○ وفاة سعد بن معاذ رضي الله عنه:

بعد أن حكم سعد بن معاذ في بني قريظة بحكمه الذي وافق حكم الله ورسوله عادوا به إلى خيمة رفيدة بالمسجد النبوي، تعالجه وتشرف عليه رفيدة.

ولما فرغ رسول الله ﷺ من بني قريظة - حيث تم قتل رجالهم وقسمة أموالهم ونسائهم وذرائعهم، وفي ذات ليلة انفجر عرق سعد الذي كان قد رقاً حتى أقر الله تعالى عينه بهلاك بني قريظة - كما سأل ربه ذلك - فأتى النبي ﷺ جبريل وقال له: يا محمد من هذا الميت الذي فتحت له أبواب السماء واهتز له العرش؟ فقام ﷺ سريماً يجر رداءه إلى سعد، ولحق به أبو بكر وعمر، فوجده قد مات شهيداً متأثراً بجرحه الذي أصيب به في الخندق يوم أتى الخندق وهو ينشد:

لبث قليلاً يدرك الهيجا جمل لا بأس بالموت إذا حان الأجل

قالت عائشة رضي الله عنها: سمعت بكاء أبي بكر وعمر على سعد، إلا أن النبي ﷺ كان لا يبكي على أحد، ولكن إذا اشتد وجده^(١) أخذ بلحيته ﷺ.

○ نتائج وعبر:

- إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نجملها فيما يأتي:
- ١- بيان وبال عاقبة الغدر والخيانة وأنه عائد على صاحبهما، وفي القرآن الكريم: ﴿فَمَنْ ثَمَّ فَأَمَّا بَنُكُّ عَلَى نَفْسِهِ﴾ [الفتح: ١٠٠]. ﴿وَلَا يَحِيقُ النُّكْرُ الشَّيْءُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [ناظر: ٤٣].
 - ٢- بيان فضل الله تعالى على أبي لبابة في قبول توبته، وفضل أبي لبابة في صدق لجنه إلى تعالى.
 - ٣- بيان أن في الوفاء النجاة، وأن الصدق منجاة.
 - ٤- بيان فضل رفيدة الأسلمية في بنائها خيمة تعالج فيها الجرحى، كأنها بنت مصحة اليوم وتعالج فيها بنفسها فضربت المثل في ذلك.
 - ٥- بعض الأفراد من البشر أمرهم عجب كالقرظية القتيلة والزيبر بن باطا.
 - ٦- تجليات الكرم والحلم والحزم المحمدي في غزوة بني قريظة، يرى ذلك كل من استعرض أحداث هذه الغزوة.

(١) الوجد بفتح الواو: الحزن والألم النفسي، وبالضم: اليسار والسعة في الرزق.

○ أهمّ ما وقع من أحداث في السنة الخامسة

○ من هجرة الحبيب ﷺ

إن ما اشتملت عليه السنة الخامسة من هجرة النبي ﷺ من أحداث ذات شأن يمكن الوقوف عليه إزاء النقاط الآتية :

- غزوة دومة الجندل .
- غزوة الخندق، وما تجلت فيها من آيات النبوة المحمدية، وما لاقى فيها المسلمون من بلاء .
- غزوة بني قريظة وهلاكهم، بموت رجالهم وسبي نساءهم وأولادهم نتيجة غدرهم وخيانتهم .
- وفاة سعد بن معاذ رضي الله عنه .
- زواج الرسول ﷺ بزينب بنت جحش بنت عمته بعد طلاق زيد مولاه لها .
- فرضية الحجاب صبيحة عرس زينب الذي تولى الله تعالى عقد نكاحها - رضي الله عنها وأرضاها - ثمرة طاعتها لله ورسوله .
- إبطال عادة التبني نهائياً بتزوج الرسول ﷺ بزينب امرأة زيد بن حارثة الذي كان قد تبناه النبي ﷺ في مكة أيام العمل بهذه البدعة .

أحداث السنة السادسة من هجرة الحبيب ﷺ

ودخلت السنة السادسة من هجرة النبي المباركة وكان أول أحداثها :

غزوة بني لحيان

في جمادى الأولى من هذه السنة السادسة من هجرته (فداء أبي وأمي ونفسي) رأى ﷺ أن يطالب بدم أصحاب الرجيع الذين غدر بهم رجال لحيان وقتلوهم هم : خبيب وأصحابه رضي الله عنهم فانتدب مائتين من أصحابه، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم، وأظهر أنه يريد الشام - هي تورية فقط والحرب خدعة - فخرج برجاله عن الطريق المؤدى إلى ديار بني لحيان، فغوى على الأعداء، ثم عاد إلى الطريق القاصد، وذلك من أجل أن يصيب من القوم غرة، وواصل سيره وأغده وبسرعة هائلة حتى نزل على غران وهي منازل بني لحيان، وگران هذا واد بين أمج وعسفان ممتد إلى بلد يقال له : ساية، فلما علموا بطلبه لهم حذروا فتمنعوا في رءوس الجبال، فلما نزل بديارهم ولم يلقهم - لتحصنهم برءوس الجبال - رأى أن يهرب قريشاً فيشعروهم بقدمه إلى قرب ديارهم طلباً للغادرين من بني لحيان، ليكون ذلك ذا وقع في نفوسهم، وقد سبق له ﷺ أن صرح فقال : «اليوم نغزوهم ولا يغزوننا» قالها بعد خيبة قريش في الخندق، فسار ﷺ برجاله وهم مائتا

راكب كما تقدم حتى هبط عسفان، ثم بعث فوارس من رجاله على رأسهم أبو بكر الصديق حتى بلغوا كراع^(١) الغميم، ثم كر وراح ﷺ راجعاً وهو يقول: «آيئون تائبون إن شاء الله لرينا حامدون». أعوذ بالله من وعاء السفر، وكآبة المنقلب وسوء المنظر في الأهل والمال». وقال في هذه الغزوة كعب بن مالك شعراً هو:

لو أن بني لحيان كانوا تناظروا^(٢) لقوا عصباً^(٣) في دارهم ذات مصدق
لقوا سرعانا^(٤) يملأ السرب^(٥) روعه أمام طحون^(٦) كالمجرة فيلق
ولكنهم كانوا وياراً^(٧) تتبعت شعاب حجاز غير ذي متنفق^(٨)

○ نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نوردها كالتالي:

- ١- مشروعية المعاقبة بالمثل بقتال وقتل من خان وغدر.
- ٢- مشروعية التورية والتعمية على العدو ليصاب من غرة.
- ٣- مشروعية إرهاب العدو بالنزول بساحته وإظهار القوة له.
- ٤- مشروعية قول: «آيئون تائبون لرينا حامدون» عند العودة من السفر الصالح.
- ٥- مشروعية التعوذ بالله من وعاء السفر وكآبة المنقلب وسوء المنظر في الأهل والمال.

○ وثاني أحداثها:

غزوة ذي قرد

○ سبب هذه الغزوة:

إن لهذه الغزوة - كما لغيرها - سبباً اقتضاها، وهو أن عيينة بن حصن الفزاري وهو ذاك الذي قاد قبائل غطفان لحرب الرسول ﷺ بالمدينة مع الأحزاب، هذا العدو الحاقداً أغار في خيل له من رجاله على سرح المدينة وهي لقاح للنبي ﷺ تبلغ عشرين لقحة^(٩) وهي الإبل ذوات الألبان، فاستاقوا الإبل وقتلوا الراعي وأخذوا امرأته.

○ أول من علم بالغارة:

وكان أول من علم بهذه الغارة سلمة بن الأكوع السلمي رضى الله عنه إذ خرج يريد الغابة فلما علا ثنية الوداع شاهد خيل عيينة من بعد فعلا على جبل سلع وصاح: واصبحاه واصبحاه وهي

- (١) موضع بالحجاز بين مكة والمدينة وهو إلى مكة أقرب.
- (٢) بمعنى انتظروا.
- (٣) جمع عصب أي الجماعة.
- (٤) السرعان أول القوم.
- (٥) النفس.
- (٦) الكتيبة تطحن كل ما تمر به.
- (٧) جمع وبرة: دوية.
- (٨) أي لا نفق فيه يخرج منه.
- (٩) اللقحة: الناقة الحلوب الغزيرة اللبن، وهي يسكون القاف بعد اللام المفتوحة.

صبيحة الإنذار في ذلك الزمن، ثم جرى وراء الخيل الغازية يطاردها ويرميهم بالنبل وهم يخلون عن اللقاح ويلقون برماحهم وبعض أمتعتهم تخفّفًا حتى افتل منهم أكثر اللقاح وتركها وراءه وما زال يطاردهم حتى وصلت خيل النبي ﷺ، إذ كان أول من أتى إلى رسول الله ﷺ بعد صبيحة سلمة من الفرسان المقداد بن عمرو الكندي، ثم تتابعوا، وقال الرسول ﷺ لأول مرة: «يا خيل الله اركبي».

واستخلف النبي ﷺ على المدينة ابن أم مكتوم وسار بالناس، وقدم الخيل وأمر عليهم سعد بن زيد، وقال له: اخرج في طلب القوم حتى ألحقك في الناس، وسارت الخيل فكان أول فارس وصل إلى المغيرين هو محرز بن فضلة الملقب بالأخرم. فلما انتهى إلى العدو قال لهم: قفوا معشر بني اللكيعة حتى يلحق بكم من وراءكم من المهاجرين والأنصار، فحمل عليه رجل من العدو فقتله، وجال الفرس في الميدان، ولم يقدر عليه، وعاد إلى المدينة حتى وقف على آرية. وتلاحقت الخيل فقتل أبو قتادة رجلاً من المغيرين يقال له: حبيب بن عبيدة وغطاه برده، وتقدم يطارد القوم. فلما وصل الناس إليه وظنوا أن القتيل أبو قتادة لوجود برده على القتيل استرجعوا أي قالوا: إنا لله وإنا إليه راجعون، فقال لهم رسول الله ﷺ: «ليس بأبي قتادة، ولكنه قتيل أبي قتادة وضع عليه برده ليعرف أنه قتيله»، وأدرك عكاشة بن محصن أوباراً وابنه عمرو بن أوبار وهما على بعير واحد فقتلتهما معاً.

وسار رسول الله ﷺ والناس معه حتى نزلوا بجبل بذي قردة، وتلاحق به الناس فأقام بهم يوماً وليلة، وقال له سلمة بن الأكوع الذي كان يرمي القوم ويقول:

خذها وأنا ابن الأكوع اليوم الرضع
قال: يا رسول الله، لو سرحني في مائة رجل لاستنقذت بقية السرح، وأخذت بأعناق القوم.
فقال له رسول الله ﷺ: «إنهم الآن ليغبقون»^(١) في غطفان» بمعنى إنك لا تدريهم لأنهم وصلوا إلى ديارهم وهم يتناولون طعام العشاء. ونحّر لهم رسول الله ﷺ بعيرين طعموهما، ثم ارتحلوا إلى المدينة النبوية، وجاءت امرأة الغفاري الذي قتل يوم ساق رجال عبيدة اللقاح، وقتلوا زوجها فأخبرت النبي ﷺ أنها نذرت أن تنحر الناقة التي تكرّبها إن نجاها الله تعالى عليها، فقال رسول الله ﷺ - وقد تبسم -: «بئس ما جزيتها أن حملك الله عليها ونجاك بها، ثم تنحرينها: إنه لا نذر في معصية الله ولا فيما لا تملكين، إنما هي ناقة من إبلي، فارجمي إلى أهلك على بركة الله».

○ نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة نتائج وعبرًا نجملها مع الأرقام الآتية:

١- بيان تسمية هذه الغزوة بغزوة ذي قرد، وذلك لأن الماء الذي نزل به رسول الله ﷺ يقال له: ماء ذو قرد.

(١) أي يسقون اللبن بالعشي، ويقال لهذا المشروب في هذا الوقت: الغَبَق.

٢- بيان فضل سلمة بن الأكوع وأبي قتادة لقول الرسول ﷺ: «خير فرساننا أبو قتادة وخير رجالنا سلمة بن الأكوع».

٣- تأكيد عداوة عبيدة بن حصن وبيان خيئه.

٤- تقرير بطولة سلمة بن الأكوع وشجاعته.

٥- بطلان نذر المعصية، ونذر ما لا يملك.

٦- حلم الرسول ﷺ وكرمه وحسن سياسته، وكمال أدبه ﷺ.

غزوة بني المصطلق من خزاعة أو المريسي

○ سبب وقوع هذه الغزوة:

لهذه الغزوة سبب كثيرها من الغزوات، وهو أن النبي ﷺ بلغه أن بني المصطلق من خزاعة قد تجمعوا بقيادة الحارث بن أبي ضرار والد جويرية زوج النبي ﷺ، وذلك بماء يقال له: المريسي بناحية قديد، وكذا سميت الغزوة بغزوة بني المصطلق أو المريسي فاستعمل النبي ﷺ على المدينة أبا ذر الغفاري، وخرج إليهم رسول الله ﷺ في جمع من المهاجرين والأنصار، ونزلهم بالمريسي فهزم الله المشركين، وقتل من قتل منهم، وأصاب رسول الله ﷺ سبايا كثيرة فقسمها بين المسلمين، ومن بين السبايا جويرية أم المؤمنين رضى الله عنها، وقد وقعت في سهم ثابت بن قيس بن شماس أو في سهم ابن عم له.

○ جويرية تكاتب مالكة:

ولما وقعت جويرية - وهي بنت سيد الحي الحارث بن أبي ضرار - طلبت من مالكة ثابت بن قيس أن يكاتبها لتحرر، وأتت النبي ﷺ تستعينه في كتابتها فقال لها: «هل لك في خير من ذلك؟» قالت: وما هو يا رسول الله؟ قال: «أقضي^(١) عنك كتابك وأتزوجك» قالت: نعم يا رسول الله ففعل أي تزوجها بعد سداد كتابتها، وسمع المسلمون بتزوج رسول الله ﷺ بها فقالوا: أصهار رسول الله، أي فكيف نملكهم؟ فاعتقوا ما لديهم من سبايا بني المصطلق، فانتعق أكثر من مائة بيت من أهل بني المصطلق، فكانت عائشة رضى الله عنها أم المؤمنين تقول: ما أعلم امرأة كانت أعظم بركة على قومها منها.

○ فتنة أرادها ابن أبي، ولكن الله سلم:

وما زال المسلمون معسكرين على المريسي وإذ بصارخين أحدهما يقول: يا للأنصار والآخر يقول: يا للمهاجرين ففرغ الناس وإذا بجهجاه الغفاري - وهو أجير لعمر بن الخطاب رضى الله عنه - وسانان الجهني حليف الخزرج يقتتلان على الماء، فصرخ كل واحد بأحلافه، فغضب لذلك رئيس المنافقين عبد الله بن أبي ابن سلول، وعنده رهط من قومه من بينهم زيد بن أرقم - وهو

(١) أقضى عنك: أي أسدد ثمن المكاتب الذي عليكم لملكك وهو ثابت بن قيس.

غلام حدث السن - فقال ابن أبي: أوقد فعلوها!! قد كاثرونا في بلادنا. أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، ثم أقبل على رهطة وقال لهم: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم ووالله لو أمسكنم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غيركم. ولما سمع زيد مقالة ابن أبي هذه مشى إلى رسول الله ﷺ وأخبره بما قال ابن أبي وكان عنده عمر بن الخطاب - فقال: يا رسول الله مر به عباد بن بشر فيقتله، فقال رسول الله ﷺ: «كيف إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه!! ولكن أذن بالرحيل» فارتحل في ساعة لم يكن يرتحل فيها ليقطع ما الناس فيه - أي من التفكير في الفتنة - وهذا من الهدى النبوي الذي لا يجارى فيه، ولا يلحق به ﷺ وآله.

وجاء أسيد بن حضير فسلم على النبي ﷺ وقال: يا نبي الله لقد رحت في ساعة لم تكن تزوح فيها!! فقال له ﷺ: «أما بلغك ما قال عبد الله بن أبي؟» قال: وماذا قال؟ قال: «زعم إن رجع إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل» قال أسيد: فأنت والله تخرجه إن شئت، فإنك العزيز وهو الذليل، ثم قال: يا رسول الله، أرفق به، فوالله لقد من الله بك وإن قومه لينظموه له الخرز ليتوجوه، فإنه يرى أنك قد استلبته ملكاً.

وسمع ابن أبي بالخبر، فجاء يركض إلى رسول الله ﷺ ويحلف بالله ما قلت ما قال زيد ولا تكلمت به، ولما كان ابن أبي شريفاً في قومه، قالوا: يا رسول الله عسى أن يكون الغلام قد أخطأ، وأنزل الله سورة المنافقين: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ﴾ [المنافقون: ١] إلخ...

○ موقف متحفظ:

وبلغ عبد الله بن عبد الله بن أبي - وهو شاب صالح أحد الذين كانوا يكتبون الوحي لرسول الله - بلغه ما كان من أمر أبيه فأتى النبي ﷺ، وقال: يا رسول الله، بلغني أنك تريد قتل^(١) أبي، فإن كنت فاعلاً فمرني به، فأنا أحمل إليك رأسه، إني أخشى أن تأمر غيري بقتله فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل أبي يمشى بين الناس فأقتله، فأقتل مؤمناً بكافر فأدخل النار. فأجابه الرسول ﷺ قائلاً: «بل نرفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا» فكان بعد ذلك إذا أحدث حدثاً عاتبه قومه وعنفوه وتوعده.

○ أي الأمرين خير؟

لما علم النبي ﷺ لما أصبح عليه قوم ابن أبي بعد الذي حدث، وهو أنهم أصبحوا إذا أحدث حدثاً سيئاً عاتبوه وعنفوه وتوعده، وكفوا بذلك رسول الله ﷺ وأصحابه، قال ﷺ لعمر بن الخطاب: «كيف ترى ذلك يا عمر؟ أما والله لو قتلته يوم أمرتني بقتله لأرعدت^(٢) له أناف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته» فقال عمر: أمر رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمري.

(١) أي: إن ارتحلت عائداً إلى المدينة. (٢) أي أخذتها الحمية وغضبت لذلك.

○ لا عجب في غدر الكافر:

إنه لا ينبغي أن يتعجب من غدر الكافر، لأن ظلمة الكفر عندما تغطي القلب تحجب عنه كل معنى للخير والفضيلة والمعروف، فيصبح لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكراً. وهذا مقيس بن صباية الليثي كان قد قتل أخوه هشام بن صباية في هذه الغزوة، ضربه رجل من الأنصار رهط عبادة بن الصامت بسهم في المعركة خطأ فمات، فجاء مقيس اليوم يدعي الإسلام ويطلب بدم أخيه هشام بن صباية الليثي فأعطاه الرسول ﷺ دية أخيه، وأقام قليلاً عند رسول الله ﷺ، ثم عدا على قاتل أخيه فقتله، ثم خرج إلى مكة مرتدًا وهو يقول: حللت بها نذري وأدركت ثؤرتي^(١) وكنت إلى الأصنام أول راجع في ثلاثة أبيات المذكور ثالثها.

○ حادث الإفك:

عند عودة النبي ﷺ وأصحابه من غزوة بني المصطلق وقريبًا من المدينة نزل الرسول ﷺ منزلاً ثم ارتحل، وحدث في ذلك ما حدث، ولنترك لأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها صاحبة القصة تحدثنا عنها بالتفصيل كما روى ذلك أصحاب السنن وأهل التفسير.

قالت رضي الله عنها: كان النبي ﷺ إذا أراد سفراً أفرغ بين نسائه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه، فلما كان غزوة بني المصطلق، أفرغ بين نسائه، فخرج سهمي فخرج بي معه، وكان النساء إذ ذاك يأكلن العلق^(٢) لم يهجهن^(٣) اللحم فيثقلن. وكنت إذا وصل بعيري جلست في هودجي، ثم يأتي القوم الذين يرحلون بعيري، فيحملون الهودج وأنا فيه فيضعونه على ظهر بعيري، ثم يأخذون به أس البعير ويسرون. قالت: فلما قفل رسول الله ﷺ من سفره ذلك - وكان قريباً من المدينة - أت بمنزل بعض الليل، ثم ارتحل هو والناس، وكنت قد خرجت لبعض حاجتي - وفي عنقي عقد لي من جزع^(٤) ظفار، انسل من عنقي ولا أدري، فلما رجعت التمسست العقد فلم أجده، فرجعت إلى المكان الذي كنت فيه ألتمسه فوجدته، وجاء القوم الذين يرحلون بعيري فأخذوا الهودج - وهم يظنون أنني فيه - فاحتملوه على عاداتهم وانطلقوا، ورجعت إلى المعسكر، وما فيه داع ولا مجيب - أي ما فيه أحد - فتلففت بجلبابي واضطجعت إذ مر بي صفوان بن المعطل السلمي - وكان تخلف عن المعسكر لحاجته، فلم يبت مع الناس - فلما رأى سوادني أقبل حتى وقف علي فعرفني - وكان رأيي قبل أن يضرب الحجاب - فلما رأيي استرجع،

(١) بمعنى الثأر، ومقيس هذا أحد أربعة رجال أباح رسول الله ﷺ دماءهم وقال اقتلوهم ولو وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة؛ لأنهم مرتدون ومن بدل دينه يقتل كفراً.

(٢) الملق: جمع علق: ما يكتفى به من العيش.

(٣) أي لم يسمن لقله اللحم في أجسامهن لقله الأكل.

(٤) الجزع: الخرز، وظفار مدينة في جنوب اليمن نسب إليها الخرز.

وقال: ما خلفك؟ فما كلمته، ثم قرب البعير وقال: اركبي، فركبت وأخذ برأس البعير مسرعاً. فلما نزل الناس واطمأنوا طلع الرجل يقودني، فقال أهل الإفك في ما قالوا، فارتج المعسكر ولم أعلم بشيء من ذلك، ثم قدمنا المدينة فاشتكت شكوى شديدة، وقد انتهى الحديث إلى رسول الله ﷺ وإلى أبي ولا يذكرا لي منه شيئاً إلا أنني أنكرت من رسول الله ﷺ بعض لطفه، فكان إذا دخل علي - وأمي تمرضني - قال: «كيف تيكمن؟» لا يزيد علي ذلك، فوجدت في نفسي مما رأيت من جفائه، فاستأذنته في الانتقال إلى أمي لتمرضني، فأذن لي، وانتقلت ولا أعلم بشيء مما كان حتى نقيت^(١) من وجعي بعد بضع وعشرين ليلة. قالت رضى الله عنها: وكنا عرباً لا نتخذ في بيوتنا هذا الكنف، نعافها ونكرها، إنما كان النساء يخرجن كل ليلة، فخرجت ليلة لبعض حاجتي ومعى أم مسطح بنت أبي رهم ابن المطلب، وكانت أمها خالة أبي بكر الصديق، فوالله إنها لتمشي، إذ عثرت في مرطها، فقالت: تعس مسطح، فقلت لها: لعمر الله بش ما قلت لرجل من المهاجرين قد شهد بدرًا. قالت: أو ما بلغك الخبر؟ قلت: وما الخبر؟ فأخبرتني بالذي كان، فوالله ما قدرت على أن أقضي حاجتي، فرجعت، فما زلت أبكي حتى ظننت أن البكاء سيصعد كبدي، وقلت لأمي تحدث الناس بما تحدثوا ولا تذكرين لي من ذلك شيئاً؟ فقالت لي: يا بنية خفني عليك، فوالله قل ما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها لها ضرائر إلا أكثرن وكثر الناس عليها. قالت: وقد قام رسول الله ﷺ فخطبهم ولا أعلم بذلك، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أيها الناس ما بال رجال يؤذونني في أهلي، ويقولون عليهم غير الحق، والله ما علمت عليهم إلا خيراً، ويقولون ذلك لرجل والله ما علمت منه إلا خيراً، ولا يدخل بيتاً من بيوتي إلا وهو معي». قالت: وكان كبير ذلك عند عبد الله بن أبي بن سلول في رجال من الخزرج مع الذي قال مسطح وحمنة بنت جحش، وذلك أن أختها زينب بنت جحش كانت عند رسول الله ﷺ، ولم تكن امرأة من نسائه تناصيني^(٢) في المنزل عنده غيرها، فأما زينب فعصمها الله فلم تقل إلا خيراً، وأما حمنة فأشاعت تضارني لأختها، فشقيت بذلك.

وتكلم أناس في المسجد حتى كادت تكون فتنة، ونزل رسول الله ﷺ فدخل علي فدعا علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد، فاستشارهما في الأمر، فقال علي رضى الله عنه: سل الجارية وهي بريرة، فسألها وضربها علي فحلفت وما زالت تحلف أنها ما تعلم عن عائشة إلا خيراً، وأنها ما كانت تعيب عليها شيئاً إلا أنها كانت - أي بريرة - تعجن العجينة، وتامر عائشة بحفظها فنتام عنها فتأتي الشاة فتأكلها.

ثم دخل علي رسول الله ﷺ وعندي أبواي وامرأة من الأنصار وأنا أبكي وهي تبكي، فجلس،

(١) قتلت للشفاء.

(٢) أي تساميني وتريد أن تكون في منزلي عند رسول الله ﷺ.

فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال: «يا عائشة» وذكرت كلامًا وكيف كانت حالها إذ ذاك حتى قالت: فقلت كما قال أبو يوسف: «فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ» [يوسف: ١٨]، ثم قالت: فوالله ما برح رسول الله ﷺ مجلسه حتى تغشاه من الله ما كان يتغشاه فَنَسَجِي بِثوبه ووضعت وسادة من آدم^(١) تحت رأسه.

فأما أنا حين رأيت من ذلك ما رأيت، فوالله ما فزعت وما باليت قد عرفت أنني بريئة، وأن الله غير ظالمي، وأما أبواي فولذي نفس عائشة بيده ما سري عن رسول الله ﷺ حتى ظننت لتخرجن أنفسهما فرقًا^(٢) من أن يأتي من الله تحقيق ما قال الناس.

قالت: ثم سري عن رسول الله ﷺ فجلس، وإنه ليتحدر من وجهه مثل الجمان في يوم شات، فجعل يمسح العرق عن وجهه ويقول: «أبشري يا عائشة قد أنزل الله براءتك» قالت: قلت: الحمد لله، ثم خرج إلى الناس فخطبهم وتلا عليهم ما أنزل الله عز وجل من القرآن في ذلك، ثم أمر بمسطح بن أثانة وحسان بن ثابت وحمنة بنت جحش - وكانوا ممن أفصح بالفاحشة فضربوا حدهم.

وروي أنها لما نزلت براءتها، قال لها أبواها^(٣): احمدي رسول الله ﷺ، قالت: لا أحمد إلا الله الذي برأني، فقال رسول الله ﷺ: «لقد عرفت الحق لأهله».

○ نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرًا نجملها كالآتي:

- ١- في تزوج رسول الله ﷺ بجويرية بنت الحارث سيد بني المصطلق مبدأ: (أنزلوا القوم منازلهم) إذ تزوجه ﷺ بها كان إكرامًا لها ولأبيها لشرفهما عند قومهما.
- ٢- بيان بركة جويرية إذ بزواجها انتعق أكثر من مائة بيت من قومها.
- ٣- بيان نفاق وخبث ومكر ابن أبي (عليه لعائن الله تعالى)، وما أراده من الفتنة.
- ٤- تجلي الحكمة المحمدية والسياسة الرشيدة في إخماد نار الفتنة وقطع دابر الشر بالرحيل بالقوم وعدم الإذن في قتل ابن أبي بعد أن استوجب القتل بقوله: ما زال ابن أبي كبشة يعيث في البلاد فسادًا، وهي كلمة صاحبها مرتد قطعًا، إلا أن ابن سلول كافر ما آمن حتى يقال: ارتد.
- ٥- مشروعية القرع، والأخذ بها بدل مجرد التخيير لما فيها من تطيب النفوس.
- ٦- مشروعية أخذ المجاهد امرأته معه للمجاهد إذا كانت الظروف مواتية لذلك.
- ٧- بيان أن الحبيب ﷺ ما كان يعلم الغيب حتى يعلمه الله تعالى، فكيف إذا غيره ممن يدعون علم الغيب والمكاشفة، تغريرًا بالمسلمين وتضليلًا لهم لاستغلالهم؟!!

(١) أي من جلد.

(٢) أي خوفًا.

(٣) أبو بكر وأم رومان، وأم رومان كنيتهما وإلا فاسمها زينب رضي الله عنها.

- ٨- بيان ما تعرضت له أم المؤمنين من البلاء، وصبرها عليه حتى كشف الله غمها وفرج كربها، وهكذا يتحقق مصداق قول الرسول ﷺ: «أشدكم بلاء الأنبياء ثم الأئمة فالأمة».
- ٩- بيان براءة أم المؤمنين، ولذا من شك في براءتها بعد نزول القرآن بذلك فقد كفر، إما أن يرجع الإسلام وإلا فهو كافر من أهل النار.
- ١٠- بيان إقامة حد القذف على من قذف مؤمناً أو مؤمنة بفاحشة إذ أقيم الحد على مسطح وحسان وحمنة فطهرهم الله تعالى بذلك، ولم يبق الحد على ابن أبي، لأنه كافر لا تطهره الحدود.
- ١١- استجابة أبي بكر لربه في قوله: ﴿وَلْيَعْلَمُوا وَيَتَمَنَّهُوا﴾ [نور: ٢٢] إذ كان قد منع ابن خالته مسطحاً ما كان يقدمه له من طعام وكساء لما تورط في قذف أم المؤمنين، ثم كفر أبو بكر عن يمينه ورد إلى مسطح ما كان يجريه عليه من النفقة بوصفه ابن خالته، وهو مهاجر فقير.
- ١٢- حرمة قذف المحصنات المؤمنات وكذا المحصنين المؤمنين، وأنه من كبائر الذنوب وموجب للحد، وهو ثمانون جلدة.
- ١٣- تجلى^(١) الكمال المحمدي، في عدة مواقف من هذه الغزوة بما فيه من حادثة الإفك من ذلك: حلمه وأمانته، صبره وكرمه، حسن تدبيره لأمره وأمر أصحابه، استشارته لأفراد آل بيته فيما يتعلق بهم دون غيرهم.
- ورابع أحداثها:

عمرة الحديبية وبيعة الرضوان والصلح فيها

في ذي القعدة من سنة ست من الهجرة المباركة، عزم الحبيب ﷺ على زيارة البيت الحرام، فانتدب المؤمنين من حوله للخروج معه لأداء نسك العمرة في الشهر الحرام، فخفف ناس، ونقل آخرون، وجل من ثقل كان من الأعراب النازلين حول المدينة.

وأحرم ﷺ وأحرم من معه ملبيين بالعمرة، وساروا في طريقهم إلى مكة، وبلغ قريشاً خروج النبي ﷺ وأصحابه، وكانوا ألفاً وأربعمائة رجل، وساقوا معهم الهدى وكان قرابة سبعين بعيراً، وبذلك كان واضحاً أنه ﷺ لا يريد حرباً، وإنما يريد - قطعاً - الاعتمار لا غير.

ولما وصل النبي ﷺ عسفان، لقيه بشر بن سفيان الكعبي فقال له: إن قريشاً قد سمعت بمسيرك فخرجوا معهم العوذ^(٢) المطافيل، قد لبسوا جلود النمار، وقد نزلوا بذي طوى، يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبداً، وهذا خالد بن الوليد في خيلهم.

ولما سمع رسول الله ﷺ قول بشر، قال: «يا ويح قريش، قد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو

(١) تجلى: ظهر، والتجلى: الظهور.

(٢) العوذ: جمع عائد وهي الناقة الحديث التاج، والمطافيل: الإبل مع أولادها.

خلوا بيني وبين سائر الناس فإن أصابوني كان الذي أردوا، وإن أظهرني الله دخلوا في الإسلام وافرين، والله لا أزال أجاهدكم على الذي بعثني الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة»^(١). ثم عدل عن الطريق التي هم بها، فتيامن وسلك الطريق التي تهبط على الحديبية، وفجأة بركت ناقته به، فقال الناس خلأت، فقال: «ما خلأت»^(٢)، وما هو لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل أي عن مكة. ثم قال: «لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألوني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها» ولما اجتازوا المضائق بين الجبال الوعرة وانتهوا إلى وادٍ من أودية المنطقة، قال لهم: «قولوا نستغفر الله ونتوب إليه» فقالوا ذلك، فقال: «والله إنها للحطة»^(٣) التي عرضت على بني إسرائيل فلم يقولوها، وقال: «انزلوا» فقبل: يا رسول الله ما بالوادي ماءً ننزل عليه، فأخرجهم ﷺ سهماً من كنانته وأعطاه رجلاً من أصحابه، فنزل به في قليب من تلك القُلب الموجودة بالوادي فغرز فيه، فجاش بالماء حتى ضرب الناس عنه بعطن^(٤) - أي نزلوا حوله - يسقون ويشربون ويتوضئون كأنهم نزلوا حول نهر ماء.

ولما رأت خيل قريش عدول النبي ﷺ عن الطريق إليهم عادوا إلى مكة.

○ وفد خزاعة:

ولما استقر النبي ﷺ في المنزل الذي نزل به جاءه وفد من خزاعة برئاسة بديل بن ورقاء الخزاعي، فكلّموه وسألوه عن السبب الذي جاء به، فأخبرهم بأنه يأت يريد حرباً، وإنما جاء زائراً للبيت ومعظماً لحرمة، ثم قال لهم نحواً مما قال لبشر بن سفيان، وعاد الوفد إلى قريش كوسيط فقال لقريش: يا معشر قريش، إنكم تعجلون على محمد، إن محمداً لم يأت لقتال، وإنما جاء زائراً هذا البيت، فاتهموهم وجيهوهم^(٥)، وقالوا: وإن كان جاء لا يريد قتالاً فوالله لا يدخلها علينا عنوة أبداً، ولا نتحدث بذلك عنا العرب.

○ سفارة قريش:

وبعثت قريش سفيرها مكرز بن حفص بن الأخيف، ولما وصل رآه النبي ﷺ وهو يتقدم نحوه - حتى قال: «هذا رجل غادر» ولما انتهى إلى رسول الله ﷺ وكلّمه قال له نحواً مما قال لبديل بن ورقاء وأصحابه، فرجع السفير الغادر فبلغ قريشاً ما سمعه من رسول الله ﷺ، فبعثت سفيراً آخر هو الحليس بن علقمة سيد الأحابيش، ولما وصل ورآه النبي ﷺ قال: «إن هذا من قوم يتألهون»^(٦) فابعثوا الهدى في وجهه حتى يراه فلما رأى الهدى سيل عليه من عرض الوادي في قلاته، وقد أكل أوباره من طول الحبس في محله، رجع إلى قريش ولم يصل إلى رسول الله ﷺ إعظاماً لما رأى، فقال لهم ما رأي، فقالوا: اجلس إنما أنت أعرابي لا علم لك!!

(١) صفحة العنق كناية عن الموت.

(٢) بركت.

(٣) إحطط عنا خطايانا.

(٤) العطن: مبرك الإبل والجمع معاطن.

(٥) أي بالمكره.

(٦) أي يتعبدون.

○ غصبة صادقة:

ولما قالت له قريش ما قالت من اتهمه بالجهل قال لهم في غضب: يا معشر قريش والله ما على هذا حالكم ولا على هذا عاقدتكم، أیصد عن بيت الله من جاء معظماً له؟! والذي نفس الحليس بيده لتخلن بين محمد وبين ما جاء له أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد. فلما رأت قريش الجدل من الحليس، والغضب لله قالت: مه^(١)، كف عنا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به، يريدون تحقيق بعض الأهداف أو اشتراط بعض الشروط دفعا للمعرة عنهم في نظرهم.

○ سفير ثالث:

وبعثت قريش بعروة بن مسعود الثقفي، فما لبث أن جاء فقال لهم: يا معشر قريش إني قد رأيت ما يلقي منكم من تبعثونه إلى محمد إذا جاءكم من التعنيف وسوء اللفظ، وقد عرفتم أنكم والد، وأنى ولد، وقد سمعت بالذي نابكم، فجمعت من أطاعني من قومي، ثم جئتم حتى آسيتكم بنفسي، قالوا: صدقت ما أنت عندنا بمتهم، فخرج حتى أتى النبي ﷺ فجلس بين يديه، ثم قال يا محمد أجمعت أوشاب^(٢) الناس، ثم جئت بهم إلى بيضتك لتفضها^(٣) بهم، إنها قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل، قد لبسوا جلود النمر، يعاهدون الله لا تدخلها عليهم عنوة أبداً، وإيم الله لكأنني بهؤلاء قد انكشفوا عنك غداً - وأبو بكر الصديق خلف رسول الله ﷺ قاعد فقال: امصص بظر^(٤) اللات أنحن نكشف عنه؟ قال: من هذا يا محمد؟ قال: «هذا ابن أبي قحافة» قال: أما والله لولا يد كانت لك عندي لكفأتك بها، ولكن هذه بها، ثم جعل يتناول لحية رسول الله ﷺ وهو يكلمه - والمغيرة بن شعبة واقف على رأس رسول الله ﷺ في الحديد - فجعل يقرع يده إذا تناول لحية رسول الله ﷺ ويقول: اكفف يدك عن وجه رسول الله ﷺ قبل ألا تصل إليك، فيقول عروة: ويحك، ما أظفلك وأغلظك!! فتبسم رسول الله ﷺ فقال عروة: من هذا يا محمد؟ قال: «هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة» قال: أي غدر، وهل غسلت سوءتك إلا بالأمس؟! وكلمه رسول الله ﷺ بما كلم به من قبله، وأنه لم يأت لحرب وإنما للمعرة فقط.

○ عودة السفير:

وعاد سفير المشركين عروة بن مسعود الثقفي بعد أن رأى بأم عينيه ما يصنع أصحاب النبي ﷺ بنبيهم من التقدير والتعظيم، رأى أنه لا يتوضأ ﷺ إلا ابتدروا وضوءه، ولا ييمض بصاقاً إلا ابتدروه، ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه. فعاد إلى قريش ليقول لهم: يا معشر قريش إني قد

(١) اسم فعل بمعنى اسكت.

(٢) أخلطهم وكذا الأوباش بمعنى واحد.

(٣) أي لتكسرهما بهم، كناية عن دخول مكة بالقوة إهانة لأصحابها.

(٤) البظر شيء كحلمة الثدي، وهذا كناية عن تبشيره من عدم نصرة النبي ﷺ إذ مصه لثدي اللات لا لبن فيه فهو آيس من الانتفاع به.

جئت كسرى في ملكه، وقيصر في ملكه، والنجاشي في ملكه، إني والله ما رأيت ملكاً في قوم قط مثل محمد في أصحابه وقد رأيت قوماً لا يسلمونه لشيء أبداً فَرُّوا رأيكم!!

○ سفير النبي ﷺ :

ولما لم تنتج سفارات قريش شيئاً يذكر، أرسل النبي ﷺ خراش بن أمية الخزاعي إلى قريش بمكة وحمله على بعير له يقال له: الثعلب، ليبليغ أشرافهم عنه ما جاء له، فعقروا به جمل رسول الله ﷺ وأرادوا قتله، فمنعته الأحابيش فخلوا سبيله حتى أتى رسول الله ﷺ.

○ إساءة وإحسان :

لما فعلت قريش ما فعلت بسفير رسول الله ﷺ إليها حيث عقرت بعيره، وأرادت قتله، ولم تقبل منه قولاً ولا رأياً، وعاد إلى النبي ﷺ هارباً بنفسه. في هذه الأثناء تبعث قريش بأربعين مجرمًا من مجرميها يرمون معسكر رسول الله ﷺ بالحجارة والنبل، لعلهم يصيبون بعضاً من أصحاب رسول الله ﷺ فناهضهم بعض أفراد المعسكر المحمدي فألقوا القبض عليهم وأتوا بهم أحياء أذلاء للنبي ﷺ فعفا عنهم وخلي سبيلهم، فتحقق وصفه في التوراة وأنه لا يدفع السيئة بالسيئة ولكن يعفو ويصفح ﷺ، وهكذا يتجلى الإحسان المحمدي، وتتكشف إساءة المشركين.

○ سفارة أعظم :

ولم يكل الحبيب ﷺ ولم يعمل في سبيل تحقيق السلم، وإخماد نار الحرب التي يشعلها الكافرون، فيدعوا عمر بن الخطاب سفيراً إلى قريش مرة ثانية - إذ سبق له أن أرسل خراش بن أمية الخزاعي - فيعتذر عمر لعدم قدرته على هذه المهمة فيقول: يا رسول الله إني أخاف قريشاً على نفسي، إذ ليس بمكة من بني عدي بن كعب أحد يمنعني، وقد عرفت قريش عداوتي إياها، وغلظي عليها - واقترح عمر على رسول الله ﷺ أن يرسل بدله عثمان بن عفان - : ولكنني أدلك على رجل أعز مني، عثمان بن عفان، فدعا رسول الله ﷺ عثمان بن عفان فبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب وإنما جاء زائراً لهذا البيت ومعظماً لحرمة.

ويمشي عثمان سفيراً لرسول الله ﷺ إلى مكة، وما إن دخل مكة حتى تلقاه أبا بن سعيد بن العاص فحمله بين يديه إعظاماً له لقربته، وأجاره حتى يبلغ رسالة رسول الله ﷺ، فانطلق به إلى أبي سفيان وأشراف قريش، فبلغهم ما أرسل به وأذنوا له بالطواف بالبيت، إكراماً له، فأبى وقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ. واحتبسته^(١) قريش عندها. إلا أنه قد أشيع أن قريشاً قتلت عثمان سفير رسول الله ﷺ إليها.

(١) لم أعر على سبب هذا الحبس في قول أحد، والظاهر أنه مجرد حبس ليقتضى أياماً بينهم لا أنهم حبسوه منعاً له من الرجوع إلى المعسكر الإسلامي.

○ بيعة الرضوان :

إنه بمجرد أن أشيع أن عثمان قد قتل، قام رسول الله ﷺ في أصحابه معلناً عزمه على قتال المشركين فقال: «لا نبرح حتى نناجز القوم»، ودعا ﷺ الناس إلى البيعة، وبايعهم تحت شجرة على ألا يفروا عند لقاء العدو، فكانت هذه بيعة الرضوان، ونزل فيها قول الله تعالى من سورة الفتح: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

ولم يتخلف أحد عن هذه البيعة إلا الجد بين قيس أخو بني سلمة قال فيه جابر بن عبد الله: لكانني أنظر إليه لأصقاً بإبط ناقتة قد ضباً^(١) إليها يستتر بها من الناس. وكان أول من بايع في هذه البيعة أبو سنان الأسدي أخو عكاشة بن محصن، وبايع رسول الله ﷺ لعثمان، فضرب بإحدى يديه على الأخرى وقال: هذه لعثمان.

وبعد قليل من الوقت، تبين أن عثمان لم يقتل، وأن ما ذكر عنه باطل، إذ جاء بعد الفراغ من البيعة بقليل، والحمد لله.

○ سفارة وهدنة :

ولما علمت قريش بالبيعة على قتالها، خفت فأرسلت سفيرها سهيل به عمرو تطالب بالصلح إذ قالت له: انت محمداً فصالحه، ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا، حفاظاً لماء وجهها، إذ قالوا: فوالله لا نتحدث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوة أبداً، وأتى السفير النبي ﷺ فما إن رآه مقبلاً نحوه حتى قال: «قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل» وانتهى سهيل إلى رسول الله ﷺ، وتكلم فأطال الكلام، وتراجعا ثم جرى بينهما الصلح ولم يبق إلا كتابة الوثيقة بالصلح الذي أنتج الهدنة المباركة.

○ عمر ينكر :

لما تمت المفاوضات وانتهت بالصلح - وعمر يسمع - أتى أبا بكر فقال: يا أبا بكر، أليس برسول الله؟ - أي محمد ﷺ - قال: بلى، أولسنا بالمسلمين؟ قال: بلى، أوليسوا بالمشركين؟ قال: بلى، قال: فعلام نعطي الدنيا^(٢) في ديننا؟ فقال أبو بكر: الزم غرزه^(٣) فإني أشهد أنه رسول الله، فقال عمر وأنا أشهد أنه رسول الله، ثم أتى رسول الله ﷺ وقال له نفس القول الذي قاله لأبي بكر، فقال رسول الله ﷺ: «أنا عبد الله ورسوله، لن أخالف أمره، ولن يضيعني».

(١) ضباً إليها: لصق بها واستتر.

(٢) الذل والأمر الخسيس.

(٣) أي الزم أمره ولا تخالفه، والغرز من الرُّخْلِي كالركاب من السرج.

○ توبة عمر :

روى أن عمر رضي الله عنه قال : ما زلت أتصدق وأصوم وأصلي وأعتق من الذي صنعت يومئذ مخافة كلامي الذي تكلمت به ، حتى رجوت أن يكون خيراً .

○ كتابة وثيقة الصلح ونصها :

ودعا رسول الله ﷺ على بن أبي طالب رضي الله عنه ليكتب وثيقة الصلح ، وقال : « اكتب بسم الله الرحمن الرحيم » فقال سهيل ممثلاً قريش وسفيرها : لا أعرف هذا ، ولكن اكتب « باسمك اللهم » فقال رسول الله ﷺ : « اكتب باسمك اللهم » فكتبها ، ثم قال : « اكتب ، هذا ما صالح عليه محمد رسول الله ﷺ سهيل بن عمرو » فقال سهيل : لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك . فقال رسول الله ﷺ : « اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو ، اصطلحنا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين ، يأمن فيها الناس ، ويكف بعضهم عن بعض : على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه ^(١) رده عليهم ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه . وأن بيننا عيبة ^(٢) مكفوفة ، وأنه لا إسلا ولا إغلال ، وأن من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدها دخل فيه » وفعلاً توثبت خراعة فقالوا : نحن في عقد محمد وعهده ، وتوثب بنو بكر فقالوا : نحن في عقد قريش وعهدهم . (وأنتك ترجع عنا عامك هذا فلا تدخل علينا مكة ، وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك تدخلها بأصحابك فأقمتم بها ثلاثاً معك سلاح الركب : السيوف في القرب لا تدخلها بغيرها) ، وشهد على الوثيقة عدد من المسلمين وآخر من المشركين ، وأصبحت سارية المفعول .

○ أبو جندل يستصرخ :

ما زالت الوثيقة لم يجف حبرها حتى جاء أبو جندل - ابن السفير المشرك سهيل بن عمرو - يرسف في الحديد هارباً من المشركين فقام إليه أبوه فضربه في وجهه ، وقال : يا محمد ، قد تمت القضية بيني وبينك قبل أن يجيء هذا ؟ قال : « صدقت » ، فجعل ينتهره ويجره ليرده إلى قريش ، وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته : يا معشر المسلمين أورد إلى المشركين كي يقتلوني في ديني ، فاعتم لذلك المسلمون وكربوا ، وزادهم أسى وحزناً فقال الرسول ﷺ : « يا أبا جندل ، اصبر

(١) هذه الفقرة من المعاهدة التي أثارت حفيظة عمر ، كما أن رفض سهيل « بسم الله الرحمن الرحيم » و « محمد رسول الله » مما أثار نفوس المسلمين وآلمهم أشد الألم هو مؤلم حقاً ولكن طاعة الله والرسول أولى والعاقبة الحسنى في ذلك .

(٢) يريد أن صدورنا منطوية على ما فيها ، فلا نبدي عداوة ولا نظهر مدة الهدنة . لا إسلا ولا إغلال أي لا سرقة خفية ولا خيانة .

واحتسب، إن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، إنا عقدنا بيننا وبينهم صلحاً وأعطيناكم على ذلك وأعطونا عهد الله وإنا لا نغدر بهم».

○ التحلل من الإحرام:

ولما فرغ الحبيب ﷺ من أمر المصالحة، وكان من بنود وثيقة الصلح أن يعود محمد رسول الله ﷺ وأصحابه إلى المدينة على أن يعتصموا من العام القابل، من هنا أمر الناس بالتحلل من الإحرام ليعودوا إلى المدينة، فكبر عليهم ذلك ولم يفعلوا، فدخل على أم سلمة رضي الله عنه فقالت له: انحر هديك وتحلل، فسوف يفعلون ما تفعل، وكانت رضي الله عنه سديدة الرأي، فنحر النبي ﷺ هديه وحلق رأسه، وتحلل من إحرامه، فما إن رآه أصحابه حتى فعلوا فحلق بعض وقصر بعض، فقال ﷺ: «يرحم الله المحلقين» قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال: «يرحم الله المحلقين» قالوا: والمقصرين يا رسول الله قال: «يرحم الله المحلقين» وفي الرابعة قال: «والمقصرين» ويسألونه قائلين لم ظهرت الترحيم للمحلقين - أي قوبته - أي دون المقصرين؟ قال: «لم يشكوا».

وقفل رسول الله ﷺ عائداً إلى المدينة مع أصحابه، وأثناء مسيره نزلت عليه سورة الفتح ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ [الفتح: ١] إلى آخر السورة، وقد اشتملت على جل أحداث غزوة الحديبية مما تم فيها وما لحق بها من فتح خبير وفوز المؤمنين بغنائم خبير، والبشارة بعمرة القضاء وتمامها على الوجه الأكمل بعد عام واحد من تلك الأيام، وبذلك صدق الله رسوله رؤياه المبشرة له وللمؤمنين بدخولهم مكة آمنين غير خائفين.

○ آثار المصالحة:

ومن آثار المصالحة، أن أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط قد هاجرت إلى المدينة بعد عقد الهدنة بأيام هاربة من دار الكفر إلى دار الإسلام، فلحق أخوها عمارة والوليد يطالبان بها بموجب عقد الهدنة، ولما كانت نصوص الهدنة تتعلق بالرجال دون النساء لأن النساء لا يحاربن أبى رسول الله ﷺ أن يردّها إليهما، وأنزل الله تعالى في ذلك قرآناً، هو قوله تعالى من سورة الممتحنة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِالْإِيمَانِ فَإِنَّ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا يَحُمِلُونَ إِلَيْكُمُ الْكُفَّارَ لَا مِنْ جِلٍّ لَكُمْ وَلَا هُمْ يَحْمِلُونَ لَكُمْ﴾ [الممتحنة: ١٠].

ومن آثار المصالحة أيضاً: أن أبا بصير هرب من مكة، فبعثت قريش في طلبه رجلين، فطالبها رسول الله ﷺ به فأعطاهما إياه بموجب بنود الاتفاق وقال له: «يا أبا بصير: إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت، ولا يصلح لنا في ديننا الغدر، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، فانطلق إلى قومك» فقال: يا رسول الله أتردني إلى المشركين يفتنونني في ديني؟!.

فقال: «يا أبا بصير، انطلق إلى قومك» إلى قوله: «مخرجاً» فانطلق أبو بصير مع الرجلين حتى نزلوا ذا الحليفة للاستراحة، فنظر أبو بصير إلى سيف المشرك وقال له: أتأذن لي أن أنظر إليه؟ قال نعم. فأخذه واستله من قرابه، ثم ضرب به المشرك فقتله، وهرب الثاني فلحق برسول الله ﷺ وأخبره بالحادث، وجاء أبو بصير متوشحاً بالسيف، وقال: يا رسول الله وقّتْ ذمتك وأدى الله عنك، أسلمتني بيد القوم وأدى الله عنك، وقد امتنعت بدينني أن أفتن فيه، أو يبعث بي، فقال رسول الله ﷺ: «ويل أمه، مسعر حرب لو كان معه رجال» ثم خرج أبو بصير فارّاً حتى أتى العيص من ساحل البحر طريق قوافل قريش إلى الشام، وسمع به آخرون في مكة فهاجروا إليه، فكونوا بذلك جيشاً مسلماً، وأذاق قريشاً الأمرين بأخذ قوافلهم وقتل رجالهم فما كان إلا أن كتبوا إلى رسول الله ﷺ يطلبون إليه ويسألونه بالرحم إلا آواهم وردهم إليه، فأواهم رسول الله ﷺ وردهم إلى المدينة، وهذا من الفرج والمخرج الذي بشر به رسول الله ﷺ أبا بصير وأبا جندل قبله، فكان والحمد لله.

○ نتائج وعبر:

- ١- إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نبينها كالآتي:
- ١- وجوب الاعتناء وحرمة البيت الحرام وتعظيمه.
- ٢- بيان العزم المحمدي الذي لا يهن، المتجلي في قوله: «والله لا أزال أجاهدكم على الذي بعثني الله به حتى يظهره الله، أو تنفرد هذه السالفة».
- ٣- كلمة التوبة هي: نستغفر الله ونتوب إليه.
- ٤- آية النبوة المحمدية المتجلية في جيشان الماء في البئر التي أدخل فيها سهم النبي ﷺ.
- ٥- بيان كمال الحليس سيد الأحابيش في سفارته فقد كان لغضبه المشرف أثر طيب.
- ٦- بيان مدى إجلال الصحابة للنبي ﷺ، الأمر الذي أدهش سفير المشركين عروة بن مسعود، فحذر لذلك قريشاً وقال: رُؤا رأيكم!
- ٧- تجلّى الكمال المحمدي في عفوه عن الأربعين مجرمات الذي ألقي القبض عليهم حول المعسكر، وهم يرمونه بالحجارة والنبل أيضاً، وهو موقف مشرف كان له أثر طيب في اتفاقية الهدنة المباركة.
- ٨- بيان فضيلة عثمان في كونه لم يرض أن يطوف بالبيت دون رسول الله ﷺ، وفي بيعة الرسول له وهو غائب.
- ٩- بيان فضل أهل بيعة الرضوان؛ إذ هم في الدرجة الثانية بعد أهل بدر، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُوكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

- ١٠- بيان فضل عمر بن الخطاب المتجلي في توبته الطويلة الأمد من أجل كلماته التي قالها - وهي حق - إلا أنها اصطفت بصيغة شبه المعارضة في قضية عامة .
- ١١- من الحكمة أن يتنازل المرء عن أشياء لا تضر بأصل قضيته لتحقيق أشياء أعظم منها .
- ١٢- فضل علي (في كتابته الوثيقة وعدم اعتراضه على ما اعترض عليه فيها غيره من الأصحاب .
- ١٣- وجوب الوفاء بالعهد وحرمة الغدر والخيانة .
- ١٤- وجوب الهدى على من أحصر عن إتمام الحج أو العمرة ، وبعد نحر الهدى يتحلل بحلق أو تقصير .
- ١٥- بيان حكم المهاجرات من النساء المؤمنات وأنهن لا يرجعن إلى دار الكفر بعد خروجهن منها .

○ وخامس أحداثها :

مجموعة السرايا الآتية

- أ- سرية عكاشة بن محصن : وكانت في ربيع أول من هذه السنة ، فقد خرج في أربعين رجلاً ، فعلم بهم من خرجوا لهم فهربوا ، فطلبوهم هنا وهناك فلم يعثروا عليهم إلا أنهم عثروا على ماتني بعير فساقوها إلى المدينة وعادوا سالمين . والحمد لله .
- ب- سرية محمد بن مسلمة : إلى بني ثعلبة بن سعد وكانوا عشرة فوارس ، فكمن العدو لهم وبيتوهم ، فلما ناموا قتلوهم عن آخرهم إلا أمير السرية محمد بن مسلمة فقد نجا وهو جريح - رضي الله عنهم أجمعين - .
- ج- سرية أبي عبيدة : عامر بن الجراح إلى ذي القصة ، وكان أفراد السرية أربعين رجلاً ، ولما علم المشركون بخروج السرية إليهم هربوا ، وصلت السرية إلى مائهم فلم تجد أحداً إلا رجلاً واحداً ونعماً فساقوا النعم ، وأسلم الرجل فتركه النبي ﷺ .
- د- سرية زيد بن حارثة : بالحموم فأصاب امرأة من مزينة ، اسمها حليلة ، فدلتهم على محلّة من محال بني سليم ، فأصابوا نعماً وشاء وأسروا . وكان بين الأسرى زوج حليلة التي دلتهم على محلّة العدو ، فوهبه رسول الله ﷺ لزوجته حليلة وأطلقها .
- هـ- سرية زيد بن حارثة : أيضاً إلى العيص ، وفيها أخذت الأموال التي كانت مع أبي العاص بن الربيع ، واستجار أبو العاص بزينب فأجارته كما تقدم ، وردت إليه أمواله كلها حتى الشظاظ .
- و- سرية زيد : وأيضاً إلى بني ثعلبة بالطرف على رأس خمسة عشر رجلاً فهربوا منه ، وأصاب من نعمهم عشرين بعيراً وغادوا سالمين .

ز- سرايا زيد: من غير ما ذكر وهي ثلاث: سرية إلى حسمى، وثانية إلى وادي القرى وثالثة إلى أم قرفة.

ح- سرية كرز بن جابر: الفهري إلى العربيين الذين قتلوا راعي رسول الله ﷺ واستاقوا الإبل، بعثه رسول الله ﷺ في عشرين فارساً، وقد استردوا الإبل وجاءوا بالعربيين - وهم الذين قتلوا بالحرّة - وتركوا بها أياماً لأنهم أسلموا ثم ارتدوا وساقوا إبل الصدقة وفيهم نزلت آية: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أَنَّهُ يَتَوَلَّوهُمْ فِي الْأَرْضِ فَنَسُوا أَن يُقَاتِلُوا أَوْ يُصَلِّوا﴾ [النساء: ٨٣]. وفعل بهم رسول الله ﷺ ذلك حكماً بقضاء الله تعالى فيهم.

مكاتبة الرسول ﷺ الملوك والرؤساء

وفي هذه السنة السادسة من الهجرة، وبعد عقد الصلح مع قريش، كاتب الرسول ﷺ الملوك والرؤساء يدعوهم إلى الإسلام الدين الحق الذي أرسل به لهداية الناس كل الناس أبيضهم وأصفرهم إلى ما يكملهم عقولاً وأخلاقاً ويسعدهم أجساماً وأرواحاً في الحياتين: الدنيا والآخرة.

فبعث ﷺ الرسل تحمل كتبه القيمة الكريمة إلى كل من كسرى ملك الفرس، وقيصصر ملك الروم، والنجاشي ملك الحبشة، والمقوقس ملك مصر. وأرسل شجاع بن وهب إلى الحارث بن أبي شمر الغساني، وأرسل سليل بن عمرو العامري إلى هوزة بن علي الحنفي، وأرسل العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوى أخي عبد القيس.

○ أسماء حاملي كتبه إلى الملوك:

- دحية بن خليفة الكلبي إلى قيصر ملك الروم.
- حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس ملك مصر.
- عبد الله بن حذافة إلى كسرى ملك الفرس.
- عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي ملك الحبشة.

نماذج من كتبه ﷺ

○ أ- كتابه إلى كسرى:

«إلى كسرى ملك فارس: بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتبع الهدى وأمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله. وأدعوك بدعاية الله، فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين. فأسلم تسلم، فإن أبيت فإن إثم المجوس عليك».

الله

رسول

محمد

صورة الخاتم النبوي

ولما بلغ كسرى غضب وقال هَجِرًا ومزق الكتاب، ولما بلغ ذلك رسول الله ﷺ دعا عليه بأن يعزق الله ملكه واستجاب الله له ومزق ملكه .

○ ب- كتابه ﷺ إلى قيصر :

بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم . سلام على من اتبع الهدى أسلم تسلم يؤتك الله أجره مرتين فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين ﴿قُلْ يَٰأَهْلَ الْكِتَابِ تَمَازُوا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَّاهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْإِسْلَامُ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَعُولُوا أَشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤] .

الله

رسول

محمد

صورة الخاتم النبوي

○ ج- كتابه ﷺ إلى المقوقس :

«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط . سلام على من اتبع الهدى . أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجره مرتين، فإن توليت فإنما عليك إثم أهل القبط ﴿قُلْ يَٰأَهْلَ الْكِتَابِ تَمَازُوا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَّاهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْإِسْلَامُ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَعُولُوا أَشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤] .

الله

رسول

محمد

صورة الخاتم النبوي

○ د- كتابه إلى ملك الحبشة :

بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله ﷺ إلى النجاشي عظيم الحبشة، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة، فحملت بعيسى من روحه ونفخه، كما خلق آدم بيده، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والموالة على طاعته وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني، فإني رسول الله وإني أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل، وقد بلغت ونصحت، فاقبل نصيحتي، والسلام على من اتبع الهدى.

الله

رسول

محمد

صورة الخاتم النبوي

○ ه- كتابه إلى الحارث الغساني بالشام :

«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبي شمر : سلام على من اتبع الهدى، وأمن به وصدق، وإني أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له يبقى لك ملكك».

الله

رسول

محمد

صورة الخاتم النبوي

○ و- كتابه إلى ملك عمان :

«بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن عبد الله إلى جيفر وعباد^(١) ابني الجلندي سلام على من اتبع الهدى أما بعد فإني أدعوكما بدعاية الإسلام، أسلما تسلما، فإني رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين، فإنكما إن أقررتما بالإسلام وليتكما وإن أبيتما أن تقررا بالإسلام فإن ملككما زائل؛ خيل تحل ساحتكما وتظهر نبوءتي على ملككما».

(١) في سيرة ابن هشام عباد بالياء ولعله بالياء كما كتبناها. وعباد وأخوه جيفر هما من الأزد، وهما ملكان على عذب عمان.

الله

رسول

محمد

صورة الخاتم النبوي

○ ز- كتابه ﷺ إلى هودة صاحب اليمامة :

«بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله ﷺ إلى هودة بن علي : سلام على من اتبع الهدى واعلم أن ديني سيظهر إلى منتهى الخف والحافر فأسلم تسلم وأجعل لك ما تحت يدك» .

الله

رسول

محمد

صورة الخاتم النبوي

○ ح- كتابه ﷺ إلى المنذر حاكم البحرين :

«بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله ﷺ إلى المنذر بن ساوي ، سلام عليك ، فإني أحمد الله إليك . الله الذي لا إله إلا هو ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . أما بعد فإني أذكرك الله عز وجل ، فإن من ينصح إنما ينصح لنفسه ، وإنه من يطع رسلي ويتبع أمرهم فقد أطاعني ، ومن نصح لهم فقد نصح لي ، وإن رسلي قد أثنوا عليك خيراً ، وإني قد شفعتك في قومك فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه ، وعفوت عن أهل الذنوب فاقبل منهم ، وإنك مهما تصلح فلم نغزلك عن عملك ، ومن أقام على يهودية أو مجوسية فعليه الجزية» .

الله

رسول

محمد

صورة الخاتم النبوي

○ نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نوجزها في التالي :

١- لما كان كسرى مجوسياً غير كتابي ، قدم رسول الله ﷺ اسم كسرى على اسم الله تعالى ؛ وقايةً ، كما فعل سليمان - عليه السلام - إذ كتب : ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِشَرِّ اللَّهِ الْخَاسِرِ﴾

[النمل: ٣٠] . فكتاب الرسول ﷺ إلى كسرى قال فيه : «إلى كسرى ملك فارس بسم الله الرحمن الرحيم» فقدم اسم كسرى وقاية لاسم الله تعالى . ولما كان الملوك الآخرون أهل كتاب قدم اسم الله تعالى لأنهم يؤمنون بالله ويعظمونه .

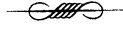
٢- تنوعت عبارات كتبه ﷺ بحسب مقام وحال من كتب إليهم ، وهذا من الحكمة التي هو أستاذها بلا منازع . قال تعالى : ﴿وَيَمْلُكُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [البقرة: ١٢٩] .

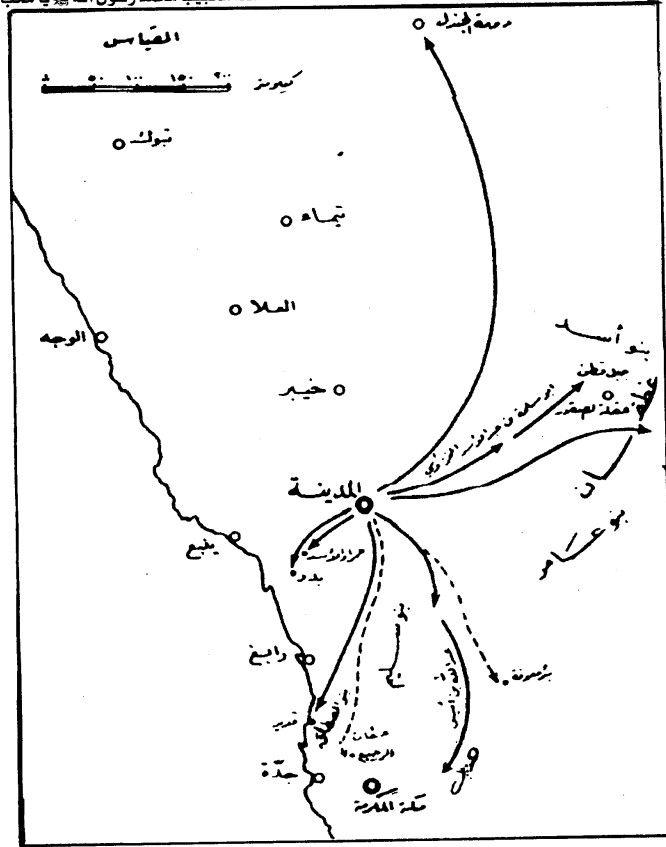
٣- سلك عليه الصلاة والسلام في كتبه مسلك : أنزلوا القوم منازلهم ، ولكل مقام مقال .

٤- إقراره عليه الصلاة والسلام لمن كتب لهم - إن أسلموا - على ملكهم تابع من سياسة رشيدة لا يجارى فيها ﷺ .

٥- استعمل كلمة : «يؤتك الله أجرًا مرتين» في كتبه إلى أهل الكتاب أخذًا من قول الله تعالى في خطاب أهل الكتاب : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ [العنكب: ٢٨] أي يعطيكم نصيبين من الأجر ؛ الأول لإيمانهم برسولهم الأول ، والثاني لإيمانهم بمحمد ﷺ .

٦- جعله ﷺ اسم الله أعلى في الخاتم ، واسمه الأدنى : فيه من تعظيم الله وإعظام اسمه ما لا يقادر قدره ، فصلى الله عليه وآله وصحبه وسلم تسليمًا .





بيان مواقع غزوات الشمال: خيبر ودومة الجندل وتبوك

أحداث السنة السابعة

من هجرة الحبيب ﷺ

ودخلت السنة السابعة من هجرة النبي ﷺ وكان أول أحداثها:

غزوة خيبر

خيبر مركز تجمع كبير لأعداء الإسلام والمسلمين؛ إذ عصابات الشر اليهودية كانت قد تجمعت فيها، إن حرب الأحزاب كانت خيبر هي الرأس المفكر فيها، والطاقة الدافعة لها، ولذا تعين غزوها وتطهيرها من عصابات الشر بها.

ففي السنة السابعة - في أواخر المحرم منها - غزا رسول الله ﷺ خيبر، فاستخلف على المدينة سباع بن عرفة الغطفاني - وقيل: نميلة بن عبد الله الليثي - وخرج في ألف وأربعمائة مقاتل، من بينهم مائتا فارس، وسار بجيشه المظفر ماراً على عضر «جبل» حيث بنى له فيه مسجداً، ثم على الصهباء حتى نزل بالرجيع - وهو واد كبير يقال له: الرجيع، فنزل بينهم وبين غطفان ليحول بينهم وبين أن يمدوا أهل خيبر، إذ كانوا على وفاق معهم في حرب الرسول ﷺ.

ومن آيات النبوة المحمدية أنه ﷺ في مسيره قال لعامر بن الأكوع - عم سلمة بن عمرو بن الأكوع - : «خذ لنا من هنالك^(١) احد^(٢) لنا» فنزل وحدهم يقول:

والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينه علينا وثبت الأقدام إن لاقينا

فقال رسول الله ﷺ : «رحمك» فقال عمر : هلا أمتعتنا به يا رسول الله، وكان إذا قالها لرجل مات. فكانت نعتاً منه ﷺ لعامر، وكانت آية نبوته ﷺ.

وفعلاً فقد خاض المعارك ورجع عليه سيفه فكلمه^(٣) كلما شديداً، فمات متأثراً، بذلك، فقال بعض : إنما قتله سلاحه، فعلم الرسول ﷺ بذلك فقال : «إنه لشهيد» وصلى عليه فصلى عليه المسلمون.

وسار رسول الله ﷺ بالجيش حتى أشرف على خيبر، وقال لأصحابه : «قفوا» فوقفوا ودعا قائلاً : «اللهم رب السموات وما أظللن، ورب الأرضين وما أقللن، ورب الشياطين وما أضللن، ورب الرياح وما أذرين، نسألك خير هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها، ونعوذ بك من هذه القرية، وشر أهلها، وشر ما فيها» ثم قال : «أقدموا باسم الله»^(٤).

(١) جمع هنة، وهو لفظ يكتن به عن شيء لا يعرف اسمه، والمراد بها هنا أخبارك وأمورك في أسفارك.

(٢) أي أنشد الشعر على الإبل تحذوها به لتسير مسرعة.

(٣) جرحه، والكلم الجرح.

(٤) يشرع هذا الدعاء عند دخول أي بلد من البلاد.

ونزل ﷺ بأصحابه خيبر ليلاً، ولم يعلم أهلها بنزوله، فلما أصبحوا وخرجوا بمساحيقهم إلى أعمالهم الفلاحية ورأوا الرسول ﷺ وجيشه قالوا: محمد والخميس، محمد والخميس^(١)، وعادوا إلى حصونهم فدخلوها، فقال النبي ﷺ: «الله أكبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين». وأخذ يحاصرهم في حصونهم ويأخذ أموالهم خارجها، ثم أخذ يفتح الحصون حصناً بعد حصن، وكان أول حصن افتتحه حصن ناعم، وعنده قُتِلَ محمود بن مسلمة أخو محمد بن مسلمة، إذ لقي عليه رحن فقتله. ثم افتتح القموص حصن بني أبي الحقيق، وأصاب منهم سبايا من بينهم صفية بنت حيي بن أخطب النضري، وكانت عند كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، فاصطفأها رسول الله ﷺ لنفسه، ولم يعلم بذلك دحية^(٢)، فسأله إياها فأعلمه أنه اصطفأها لنفسه، وأعطاه ابنتي عمها، وكثر السبي في أيدي المسلمين.

○ خطبة تشريع حكيم:

ولما كثر السبي بأيدي المسلمين مع جواز التسري بالسبايا وكانوا قد أكلوا لحوم الحمر الأهلية لتوفرها في خيبر وعدم الحاجة إليها، خطب فيهم رسول الله ﷺ فضمن خطبته قواعد تشريعية تتعلق بالسبي وغيره. قال ابن إسحاق ابن حنش الصنعاني: غزونا مع رويغ بن ثابت الأنصاري المغرب، فافتتح قرية من قرى المغرب يقال لها: جرزة^(٣)، فقام فينا خطيباً فقال: يا أيها الناس، لا أقول فيكم إلا ما سمعت من رسول الله ﷺ يقول فينا يوم خيبر فقال: «لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسقي ماء زرع غيره -يعني إتيان الحبالى من السبايا- ولا يحل لمؤمن يؤمن بالله واليوم الآخر أن يصيب امرأة من السبي حتى يستبرئها، ولا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يركب دابة من فيء المسلمين حتى إذا أعجمها^(٤) ردها فيه، ولا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يلبس ثوباً من فيء المسلمين حتى إذا أخلقه^(٥) رده فيه». ونادى منادي رسول الله ﷺ: إن الله ورسوله ينهيانكم عن لحوم الحمر الأهلية؛ فإنها رجس.

○ دعوة نبوية مستجابة:

أثناء قتال الرسول ﷺ لليهود خيبر وفتح حصونهم، أتاه بنو سهم من أسلم وقالوا: يا رسول الله لقد جهدنا وما بأيدينا من شيء فلم يجدوا عند رسول الله ﷺ ما يعطيهم إياه، فقال داعياً: «اللهم إنك قد عرفت حالهم، وأن ليست بهم قوة، وأن ليس بيدي شيء أعطيهم إياه؛ فافتح عليهم أعظم حصونها عندهم غناء وأكثرها طعاماً وودكاً» فغدا الناس للقتال، ففتح الله

(١) الخميس الجيش الكبير.

(٢) لأنها كانت قد وقعت في سهمه عند القسمة، فلذا أعطاه الرسول عوصاً منها.

(٣) مدينة في الجنوب التونسي اليوم.

(٤) أهزلها وأضعفها.

(٥) أبلاه ومزقه.

حصن الصعب بن معاذ، وما بخير حصن أكثر طعاماً وودكاً منه .

○ آخر حصن يفتح :

واصل الحبيب ﷺ فتح حصون خيبر حصناً بعد حصن ، وانتهى إلى آخر حصن ، وهو الوطيح والسّلاليم فحاصروهم بضع عشرة ليلة ، وأثناء ذلك كانت مبارزات منها مبارزة مرحب اليهودي ، إذ خرج من الحصن وقد جمع سلاحه وهو يرتجز ويقول :

قد علمت خيبر أنني مرحب شاكبي ^(١) السلاح بطل مجرب
أطعن أحياناً وحيناً أضرب إذا الليوث أقبلت تحزّب ^(٢)
إن حملي للحمى لا يقرب يحجم عن صولتي المجرب
فرد عليه علي بن أبي طالب قائلاً :

أنا الذي سمّنتني أمي حيدره كليث غابات شديد القسوره
أكيلكم بالصاع كيل السندره ^(٣)

وقال : من يبارز؟

فقال رسول الله ﷺ : « من لهذا؟ » فقال محمد بن مسلمة : أنا له يا رسول الله ، أنا والله الموتور الشائر ، قتل أخي بالأمس ، فقال : « فقم إليه ، اللهم أعنه عليه » فتصاولا فترة ، ثم أمكن الله منه ، فقتله محمد بن مسلمة استجابة الله دعوة نبيه ﷺ ، ثم خرج بعد مرحب أخوه ياسر وهو يقول : من يبارز؟ فقال الزبير بن العوام : أنا لك ، فقالت أمه صفية : لا يا رسول الله ؛ يقتل ابني ، فقال لها : « بل ابنك يقتله إن شاء الله » فالتقيا فقتل الزبير ياسر اليهودي ، وبعد المباراة اقتتل الناس وكانت الراية عند أبي بكر وشعارهم يومئذ : يا منصور أمت أمت ، فقاتل قتلاً شديداً ، ثم وجع فأخذها عمر فقاتل قتلاً شديداً هو أشد من الأول ، ثم وجع ، فأخبر رسول الله ﷺ فقال : « أما والله لأعطينها غداً رجلاً يحب الله ورسوله ، ويحب الله ورسوله ، يفتح الله على يديه ليس بفرار » فدعا رسول الله ﷺ علياً رضي الله عنه وهو أرمد فتفل في عينيه ، ثم قال : « خذ هذه الراية فامض بها ولا تلتفت حتى يفتح الله عليك » فخرج يهول بها حتى ركز الراية في رضم من حجارة تحت الحصن ، فاطلع عليه يهودي من رأس الحصن ، فقال : من أنت؟ قال : أنا علي بن أبي طالب ، قال : علوتكم وما أنزل على موسى ، فما رجع حتى فتح الله على يديه ، ودخل المسلمون المدينة . وبذلك انتهى فتح خيبر ، وأصبحت دار إسلام إلى اليوم ، والحمد لله رب العالمين .

(٢) أي مغضبة .

(١) حاد السلاح .

(٣) السندرة : شجرة يصنع منها مكاييل عظام .

○ مواقف يحسن أن تذكر، وهي:

١- لقد كان خروج النبي ﷺ إلى خيبر بإذن الله تعالى؛ إذ وعد الله عز وجل المؤمنين غنائم خيبر عند رجوعهم من الحديبية في قوله من سورة الفتح: ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ [الفتح: ٢٠] وهي صلح الحديبية، والغنائم الكثيرة هي أموال خيبر.

٢- كان عدد من استشهد في غزوة خيبر من المسلمين خمسة عشر رجلاً.

٣- لما لم يبق لليهود من حصن إلا الوطيح والسلالم - وقد فتحا عنوة - سألوا رسول الله ﷺ أن يسيرهم في الأرض ويحقق دماءهم، ويتركوا له الأموال ففعل، ثم صالحهم على أن يبقوا على مزارعهم ونخيلهم على أن لهم الشطر وللرسول والمؤمنين الشطر، وأنه متى أراد إخراجهم أخرجهم، فوافقوا على ذلك وأبقاهم.

٤- بعد سقوط خيبر في يد المسلمين لم يقتل النبي ﷺ إلا ابني أبي الحقيق لنكثهم وخيانتهم، وكان أحدهما زوج صفية بنت حيي، فأمر بلالاً أن يذهب بصفية إلى رحله مع بعض نساء السبي، فمر بهن على القتلى، فبكين، فعتب رسول الله ﷺ على بلال، وقال: «أنزعت الرحمة من قلبك يا بلال؟» وعرض رسول الله ﷺ على صفية الإسلام فأسلمت وتزوجها، وجعل مهرها عتقها، وبني بها في طريق عودته إلى المدينة، وأولم عليها وليمة فاخرة، ونظر الرسول ﷺ إليها فرأى في وجهها خضرة إثر ضربة، فسألها، فقالت: كنت قد رأيت في منامي القمر زال من مكانه وسقط في حجري، فقصصتها على زوجي ابن أبي الحقيق، فلطم وجهي، وقال: تتمنين هذا الملك بالمدينة، وأنا - والله - ما كنت أذكر من ذلك شيئاً.

٥- قسم النبي ﷺ خيبر بعد فتحها على ستة وثلاثين سهماً، فكان لرسول الله ﷺ والمسلمين نصفها، والنصف الباقي لمن نزل له من الوفود، ونواب المسلمين.

٦- سمت النبي ﷺ زينب بنت الحارث - امرأة سلام بن مشكم اليهودي - إذ أهدت للرسول ﷺ شاة مصلية فيها سم، فأكل منها بشر بن البراء فمات، وسأل النبي ﷺ المرأة: «لم فعلت هذا؟» قالت: أردت إن كنت ملكاً استرحنا منك، وإن كنت نبياً لم يضرك؛ فعفا عنها فأسلمت، وقيل لما مات بشر قتلت به.

٧- وصول جعفر بن أبي طالب وأصحابه - معهم الأشعريون - خيبر بعد فتحها، فأسهم لهم رسول الله ﷺ، وما أسهم لأحد غاب عن خيبر إلا هم، لأنهم أدركوه فيها. وروي أن النبي ﷺ قبل جبهة جعفر، وقال: «والله ما أدري بأيهما أفرح، بفتح خيبر أم بقدم جعفر؟».

٨- لما كان النبي ﷺ محاصراً لبعض حصون خيبر، أتاه راع أسود، فقال: يا رسول الله اعرض علي الإسلام فعرض عليه الإسلام فأسلم، ثم قال: يا رسول الله، إني كنت أجيئاً لصاحب هذه الغنم - وهي أمانة عندي - فكيف أصنع بها؟ قال: «اضرب في وجهها؛ فإنها سترجع

إلى ربها» فأخذ الأسود حفنة من الحصى ورمى بها في وجهها، وقال: ارجعي لصاحبك، فرجعت كأن سائناً يسوقها حتى دخلت الحصن، وتقدم الراعي إلى الحصن ليقاتل، فأصابه حجر فمات، فسجى بثوب، وأعرض عنه النبي ﷺ فقليل له: لم أعرضت عنه يا رسول الله؟ قال: «إن معه الآن زوجتيه من الحور العين».

٩- لما سمع أهل فداء بفتح خيبر، نزل بهم الرعب، فبعثوا إلى رسول الله ﷺ يصلحونه على النصف من فداء فصالحهم على ذلك، وكان ذلك لرسول الله ﷺ وحده لأنه فيء أفاءه الله عليه، إذ لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب، وإنما بعث إليهم من خيبر محيصة يدعوهم إلى الإسلام فصالحوا، وكان رئيسهم يوشع بن نون اليهودي.

○ نتائج وعبر:

- ١- إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نوجزها فيما يلي:
- ١- جواز الحذاء والأناشيد الحسنة الخالية من السوء والبذاءة.
- ٢- بيان آية النبوة المحمدية في نعي عامر بن الأكوع قبل استشهاده ودخوله المعركة.
- ٣- استحباب قول: اللهم رب السموات السبع وما أظللن، ورب الأرضين وما أظللن، ورب الرياح وما ذرين، ورب الشياطين وما أضللن، نسألك من خير هذا البلد... إلخ.
- ٤- حرمة الغلول، أي الأخذ من الغنائم قبل قسمتها.
- ٥- حرمة وطء المسبية قبل استيرائها.
- ٦- بيان فضل علي بن أبي طالب، وما فاز به من حب الله ورسوله.
- ٧- بيان صدق وعد الله تعالى في غنائم خيبر، إذ وعد المؤمنين بها، فأنجزها لهم، وله الحمد والمنة.
- ٨- فضل صفة أم المؤمنين - رضي الله عنها وأرضاها -.
- ٩- مشروعية تقبيل جبهة الإنسان إن كان أهلاً لذلك لصالحه أو قربه.
- ١٠- في مصالحة أهل فداء قبل غزوهم تقرير معنى حديث: «نصرت بالرعب مسيرة شهر».

○ وثاني أحداثها:

غزوة وادي القرى

وبعد الفراغ من غزوة خيبر ومصالحة أهل فداء برئاسة يوشع بن نون على النصف من أموالهم، وإقرارهم على العمل فيها كإقرار أهل خيبر: قصد ﷺ وادي القرى ليفتحها، فحاصرها عدة ليالٍ وافتتحها عنوة، وأثناء الحصار قتل مولا مدغم الذي أهده إياه رفاعة بن زيد الجذامي، أصابه سهم غرب^(١) فقتله، وقال بعض المسلمين: هنيئاً له الجنة، فقال رسول الله ﷺ: «كلا سهم غرب: هو الذي لا يعلم من رماه أو من أين أتاه.

والذي نفس محمد بيده إن شملته الآن لتشتعل ناراً» وكان قد غلبها في فيء المسلمين يوم خيبر، وهنا سمعه رجل، فجاء فقال: يا رسول الله أصبت شراكين لتعلن لي كنت أخذتهما، فقال له رسول الله ﷺ: «يعد لك مثلهما من نار».

وترك النبي ﷺ النخل والأرض في أيدي أهلها، وعاملهم معاملة أهل خيبر وفدك، سواء بسواء وبقي الأمر في خيبر وفدك ووادي القرى كما تركه رسول الله ﷺ إلى عهد عمر ثم نفذ عمر وصية رسول الله ﷺ وهي قوله: «لا يجتمع دينان في الجزيرة» فأجلى اليهود من الجزيرة إلى خارجها. وطهرت قبة الإسلام من رجس المشركين وكفر الكافرين من سائر الناس.

○ نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً هي كالتالي:

- ١- مشروعية مواصلة الغزو والفتح حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله.
- ٢- حرمة الغلول من الغنيمة ولو كان المأخوذ شراك نعل.
- ٣- لا يصح الجزم لأحد بأنه في الجنة أو في النار، لكن يرجى للمحسن، ويخاف على المسيء من المسلمين.
- ٤- جواز الحلف بدون طلب واستحلاف، وذلك لتأكيد الكلام وتقويته لفائدة المتكلم أو السامع.

ما تم من أمور هامة عند العودة من غزوة خيبر

لقد تمت أمور ذات بال - والحبيب ﷺ في طريقه إلى المدينة من غزوة خيبر ووادي القرى - ومن تلك الأمور الهامة ذات البال والشأن ما يلي:

أ- بناء النبي ﷺ على صفية بنت حيي رضي الله عنها، وكانت أم سليم بنت ملحان أم أنس بن مالك هي التي أصلحتها وجمعتها له ﷺ، وبات في قبة له، وبات أبو أيوب الأنصاري خالد بن زيد متوشحاً سيفه يحرس رسول الله ﷺ، وهو معرس بصفية النضرية أم المؤمنين - رضي الله عنها وأرضاها -.

ب- نام ﷺ مع أصحابه بالطريق وقال: «من رجل يحفظ عنا الفجر لعلنا ننام؟» فقال بلال: أنا يا رسول الله أحفظ عليك، ونام رسول الله ﷺ ونام الناس، وقام بلال يصلي، فصلّى ما شاء أن يصلي، ثم استند إلى بعيده واستقبل الفجر يرمقه، فغلبته عينه فنام، فلم يوقظهم إلا مس الشمس، وكان الرسول ﷺ أول أصحابه هب من نومه، فقال: ماذا صنعت بنا يا بلال؟ قال: يا رسول الله أخذ بنفسي الذي أخذ بنفسك، قال: «صدقت» ثم اقتاد رسول الله ﷺ بعيده غير كثير، ثم أناخ فتوضأ وتوضأ الناس، ثم أمر بلالاً فأذن وصلوا سنة الفجر، ثم أقام بلال الصلاة فصلوا صلاة الصبح، ثم أقبل ﷺ على الناس فقال: «إذا نسيتم الصلاة فصلوها إذا ذكرتموها، فإن الله تبارك وتعالى يقول:

﴿وَأَقِمَّ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤].

ج - رَضِيَ النَّبِيُّ ﷺ للنساء من الغنيمة ولم يضرب لهن بسهم، إذ كان قد حضر خيبر عدة نسوة من بني غفار جئن النبي ﷺ عند خروجه إلى خيبر، فقلن له: يا رسول الله، قد أردنا أن نخرج معك إلى وجهك، هذا - أي إلى خيبر - فنداوي الجرحى ونعين المسلمين بما استطعنا، فقال ﷺ: «على بركة الله» وحدثت إحدى هؤلاء النسوة فقالت: فخرجنا معه وكنت جارية حديثة، فأردفني رسول الله ﷺ على حقيبة رحله. قالت: فوالله لنزل رسول الله ﷺ ونزلت عن حقيبة الرُّحْل، وإذا بها دمٌ مني وكان أول حيضة حضتها فتقبضت إلى الناقة واستحييت، فلما رأى رسول الله ما بي ورأي الدم قال: «مالك؟ لعلك نفست» قالت: قلت: نعم، قال: «فأصلحي من نفسك، ثم خذي إناء من ماء فاطرحي فيه ملحاً، ثم اغسلي به ما أصاب الحقيبة من الدم، ثم عودي لمركبك» قالت: فلما فتح رسول الله ﷺ خيبراً رضح لنا من الفيء، ولم يسهم، وأعطاني هذه القلادة التي في عنقي؛ فوالله لا تفارقني أبداً.

د - احتال ونجح، ذلك هو الحجاج بن علاط السُّلَمي، فقد كان من ذوي المال واليسار في مكة، وأسلم في خيبر ولم يعلم المشركون بإسلامه، فاستأذن الرسول ﷺ أن يذهب إلى مكة قبل وصول الخبر إليها بفتح النبي ﷺ وأصحابه لخيبر، فأذن له، واستأذنه أن يقول ما يقول فأذن له، وكان أهل مكة يتطلعون إلى أخبار النبي ﷺ، وأكثرهم يرغب في هزيمة النبي ﷺ وأن يقتل هو وأصحابه، فخرج الحجاج يريد مكة واستحث الخطى وأغذ السير، فوصل مكة فأشاع أن محمداً قد انهزم، وأن اليهود قد عزموا على أن يأتوا به إلى مكة ليقتل بها، فطار المشركون بالفرح وحزن العباس وألمه الخير، فاتصل بالحجاج سرّاً، فأطلعه إنما أراد بهذا أن يجمع أمواله ويخرج بها، لأن قريشاً لو تعلم بإسلامه لما سمحت له بإخراج درهم واحد وجمع أمواله وقال: إنه يريد أن يأتي خيبراً ليشتري من فيء محمد وأصحابه قبل أن يسبق التجار إلى ذلك، وعند انصرافه من مكة قال للعباس: إذا مضى علي ثلاث فأعلن الحقيقة، وهي انتصار محمد ﷺ وأصحابه على اليهود وفتح خيبر بكل ما فيها. وفعلاً في اليوم الثالث لبس العباس حُلَّةً وتخلّق أي تطيب وأخذ عصاً ثم خرج حتى أتى الكعبة فطاف بها فلما رآوه قالوا يا أبا الفضل هذا والله التجلّد لحرّ المصيبة قال: كلا والله الذي حلفتكم به، لقد فتح محمد خيبراً وترك عروساً على بنت ملكهم، وأحرز أموالهم وما فيها وأصبح له ولأصحابه، قالوا: من جاءك بهذا الخبر؟ قال: الذي جاءكم بما جاءكم به، ولقد دخل عليكم مسلماً فأخذ ماله وانطلق؛ ليلحق بمحمد ﷺ وأصحابه فيكون معه. قالوا: يا لعباد الله!! انفلت عدو الله!! ولم ينشوا أن جاءهم الخبر بذلك.

○ وثالث أحداثها:

سبع سرايا تبعث إلى أنحاء مختلفة

إنه بعد أن عاد ﷺ إلى المدينة ظافراً منتصراً في أواخر ربيع الثاني: أخذ يبعث السرايا سرية بعد أخرى، لإبلاغ دعوة الله، وتفتيت قوى الشر، والضرب على أيدي الظالمين فكانت أول سرية بعثها:

سرية أبي بكر الصديق

فقد بعث ﷺ أبا بكر الصديق -ومعه سلمة بن الأكوع- إلى نجد حيث بنو فزارة، فغزوا وأسروا من العدو ما شاء الله تعالى، ووقع في الأسر جارية حسناء كانت في سهم سلمة، فاستوهبها منه رسول الله ﷺ، وفادى بها أسرى من المسلمين كانوا بمكة موثقين.

○ وثاني سرية:

سرية عمر بن الخطاب

إذ بعث به ﷺ في ثلاثين رجلاً إلى ثربة من أرض هوازن، وكان دليله من بني هلال، فكانوا يسرون الليل، ويكمنون النهار، فبلغ هوازن فهربوا ووصلت السرية إلى ديارهم فلم يلقوا منهم أحداً فانصرفوا راجعين المدينة، ولم يلقوا كيداً.

○ وثالث سرية:

سرية بشير بن سعد الأنصاري

إذ بعث به ﷺ في ثلاثين رجلاً إلى بني مرة بمنطقة فذك، فاستاقوا نَعَمَهُمْ؛ فقاتلوهم، فقتلوا عامة أفراد السرية، وصبر بشير يقاتل وحده قتال الأبطال حتى جاء جنُّ الظلام، فلجأ إلى فذك وحده، فبات عند يهودي من أهلها، ثم كر عائداً إلى المدينة، وما شاء الله كان ولا قوة إلا بالله.

○ ورابع سرية:

سرية غالب الكلبي

وبعث رسول الله ﷺ سرية غالب بن عبد الله الكلبي إلى الحرقات من جهينة، فصبحوهم فهزموهم، وكان في السرية أسامة بن زيد بن حارثة، ففرَّ رجل من القوم، فلحقه هو ورجل من الأنصار فأدركه أسامة، فقال الرجل^(١): لا إله إلا الله، فكف الأنصاري عنه وطعنه أسامةً بحربه فقتله، فلما قدموا إلى المدينة أخبر بذلك رسول الله ﷺ فقال له: «يا أسامة أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله؟» فقال أسامة: إنما كان متعوذاً^(٢)، فما زال الرسول يكررها حتى قال أسامة: تمتُّيتُ أني

(١) مرداس بن نهيك.

(٢) أي بقوله لا إله إلا الله ليحفظ نفسه من القتل.

لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم . وهذا الحادثة ينظر إليها من خلال قوله الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا صَرَّفْنَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَبَائِلَكُمْ وَلَا تَقُولُوا يَمَنَ الْفَقْرُ إِلَيْكُمْ فَكَلَّمْنَا لَسْتُ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرْصَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (النساء: ٩٤) . فإنها تدل على نوع الحادث .
○ وخامس السرايا :

سرية بشير^(١) بن سعد الأنصاري

وبعث رسول الله ﷺ بشير بن سعد الأنصاري في ثلاثمائة رجل إلى اليمن من أرض غطفان ، وذلك من أجل جمع من المشركين تجمعوا للإغارة على المدينة النبوية بإغراء وإمداد عينية بن حصن الطاغية الظالم ، فساروا إليهم يمشون الليل ويكمنون النهار ، وبلغ ذلك الجمع مسير بشير بن سعد الأنصاري ، فهربوا فأصاب بشير وأصحابه نعمة كثيرة وأسروا منهم رجلين قدموا بهما إلى النبي ﷺ فأسلما وحسن إسلامهما .
○ وسادس السرايا :

سرية عبد الله بن رواحة

وبلغ رسول الله ﷺ أن يسير بن رزام اليهودي يجمع غطفان ليغزوهم ، فبعث عبد الله بن رواحة في ثلاثين راكباً ، من بينهم عبد الله بن أنيس ، فأتوه بخيبر فقالوا له : إن رسول الله ﷺ أرسلنا إليك ليستعملك على خيبر ، حتى تبعهم في ثلاثين رجلاً مع كل رجل رديف من المسلمين ، فلما بلغوا قرقرة نيار - وهي من خيبر على ستة أميال - ندم اليهودي ، فاهوى بيده إلى السيف ليضرب عبد الله بن أنيس ، ففطن له عبد الله فزجر بعيره ثم اقتحم عن بعيره يسرق القوم ، حتى إذا استمكن من يسير اليهودي ضرب رجله فقطعها ، فاقتمح يسير - وفي يده مخراش من شوحط - فضرب به وجه عبد الله بن أنيس فشجه ، فانكفأ كل رجل من المسلمين على رديفه فقتله غير رجل واحد من اليهود أعجزهم هرباً ولم يضرب من المسلمين أحداً .
فقدموا على رسول الله ﷺ ، فبصق في شجة عبد الله فلم تقح ولم تؤذه حتى مات رضى الله عنه .
○ وسابع السرايا :

سرية عبد الله بن حذافة

وبعث رسول الله ﷺ عبد الله بن حذافة على رأس سرية ، وأمر أفراد السرية أن يسمعوا لعبد الله وأن يطيعوا ، وسار حتى إذا كان في بعض الطريق نزل منزلاً وطلب من أفراد السرية شيئاً فأغضبوه ، وهنا قال لهم : اجمعوا لي حطباً فجمعوا ، فقال لهم : أوقدوا ناراً ، فأوقدوا ، ثم
^(١) هو والد النعمان بن بشير الصحابي الجليل .

قال لهم: ألم يأمركم رسول الله ﷺ أن تسمعوا لي وتطيعوا؟ قالوا: بلى قال: فادخلوها، فنظر بعضهم إلى بعض، وقالوا: إنما فررنا إلى رسول الله من النار، وعندها سكن غضبه وطففت النار فلما قدموا على النبي ﷺ ذكروا له ذلك، فقال: «لو دخلوها ما خرجوا منها، إنما الطاعة في المعروف».

○ نتائج وعبر:

- ١ - إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرًا نوجزها كالآتي:
- ١ - بيان قوة وصحة العزم المحمدي وعظم صبره على الجهاد إبلاغًا لدعوة ربه عز وجل.
- ٢ - مظاهر الحكمة المحمدية حيث تجلّت في مواطن كثيرة.
- ٣ - لا ينقص من قيمة السرية ولا من أجرها إذا فرّ العدو ولم يتمكنوا منه، أو حصلوا منه على طائل.
- ٤ - مشروعية مفاداة الأسرى.
- ٥ - لا يحل قتل من شهد أن لا إله إلا الله محمدًا رسول الله ولواتهم بالتقية تخلصًا من القتل.
- ٦ - بيان بركة ريقه النبي ﷺ إذ شفى الله شجرة عبد الله بن أنيس.
- ٧ - وجوب طاعة أولي الأمر في المعروف دون المنكر.
- ٨ - بيان أن المعصية لله والرسول إن كانت من كبائر الذنوب موجبة لدخول النار إلا أن يغفرها الله تعالى.

○ ورابع أحداثها:

عمرة القضاء

إنه بموجب صلح الحديبية الذي تم في السنة الفارطة، خرج رسول الله ﷺ ومعه أصحابه - رضوان الله عليهم - بعد أن استعمل على المدينة عوف بن الأضيظ الدثلي، وكان عدد المسلمين ألفين ما عدا النساء والصبيان، ومن بين أفراد هذا العدد من صُدّ عن العمرة في السنة الماضية، وذلك في شهر ذي القعدة من سنة سبع بناءً على بنود الاتفاقية القاضية بأن يرجع أصحابه من الحديبية فلا يدخلون مكة ولا يعتصمون على أن يعودوا في السنة القابلة فتَحَلَّى لهم مكة ثلاثة أيام يعتصمون ثم يعودون لا يمسه ساء، وتُسَمَّى هذه العمرة: عمرة القضاء، أو عمرة الصلح أيضًا.

ولما قارب الرسول ﷺ دخول مكة، أخلت قريش له مكة، فلزموا بيوتهم وأنديتهم ودخل رسول الله ﷺ راکبًا على ناقته - وخطأها بيد عبد الله بن رواحة - وهو ينشد ويقول:

خَلُّوا بني الكُفَّار عن سبيله
خَلُّوا فكلُّ الخير في رسوله

يا ربّ إني مؤمن بقبيله أعرف حق الله في قبوله وتحدث المشركون فيما بينهم وقالوا: إن محمداً وأصحابه في عسرة جهد وشدة، وزين لهم الشيطان ذلك في نفوسهم حتى هموا بالانقضاء عليهم، وعلم ذلك رسول الله ﷺ فلما دخل ﷺ اضطجع واضطجع أصحابه وقال لهم: «رحم الله امرأة أراهم اليوم من نفسه قوة». ثم استلموا الركن وهرولوا في الطواف ثلاثة أشواط فرأت فريش بأمر عينها مظاهر القوة، فذهب وسواؤها من نفسها. وبقي الاضطجاع والهرولة سنة، ترمز إلى ما ينبغي أن يكون عليه المسلمون دائماً وهو القوة؛ لإحقاق الحق وإبطال الباطل.

○ زواج الحبيب ﷺ:

وأثناء إقامته ﷺ بمكة تزوج ميمونة بنت الحارث أخت أم الفضل التي تحت العباس رضى الله عنه، وقد وكلت زوج أختها العباس، فتولى عقد نكاحها وأصبحت ميمونة أم المؤمنين، والحمد لله رب العالمين.

وفي اليوم الثالث بعثت فريش رجلاً حويطب بن عبد العزى ومعه نفر يطلبون من الرسول ﷺ أن يخرج بنهاية الثالث؛ تنفيذاً للاتفاقية، فقالوا له: إذا انقضى أجلك فاخرج عنا.

○ الكرم المحمدي:

ولما أبلغ حويطب رسول الله ﷺ أمر فريش بالخروج، قال لهم: «وما عليكم لو تركتموني فأعرست بين أظهركم وصنعنا لكم طعاماً فحضرتموه؟» فقالوا: لا حاجة لنا في طعامك، فاخرج عنا، فخرج ﷺ وترك أبارافع موله لأجل ميمونة، فإذا فرغ من جهازها أتاه بها وهو في «سرف» فبنى بها هناك، ثم انصرف ﷺ عائداً إلى المدينة في أول الحجة وتولى الحج هذا العام المشركون ونزل في عمرة القضاء قرآن هو قوله تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَّقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الْرُّبِّيَّ بِالْحَقِّ لَتَنْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ مَكَاءَ اللَّهُ عَالِمِينَ كَيْفَ يَكُونُ رُؤُوسُكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [التح: ٢٧]. ومصدق ذلك فيما يلي:

- ١ - فتح خيبر وهو فتح قريب، والفتح البعيد هو فتح مكة العام القابل سنة ثمان من الهجرة، لأن كلمة «فتحاً قريباً» تشير إلى فتح بعيد يأتي بعد القريب.
- ٢ - دخولهم مكة في عمرة القضاء آمنين غير خائفين.
- ٣ - إذ بعد الفراغ من طوافهم وسعيهم، منهم من حلق ومنهم من قصر، فكان هذا تأويل رؤيا الرسول ﷺ التي رآها قبيل الحديبية.

○ نتائج وعبر:

- إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً هي كالآتي:
- ١ - مشروعية قضاء العبادة إذا فاتت لأسباب قاهرة حالت دون أدائها.

- ٢ - جواز الاعتمار في الأشهر الحرم، وقد كان أهل الجاهلية يكرهونه.
 - ٣ - مشروعية سنة الاضطباع والهرولة في طواف القدوم للعمرة أو الحج.
 - ٤ - بيان العلة في سنة الاضطباع والهرولة في الأشواط الثلاثة الأولى، وهي إظهار القوة، وأن المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف.
 - ٥ - مشروعية الزواج في دار الحرب للقادر عليه.
 - ٦ - نظرًا إلى الخلاف في هل تزوج الرسول ﷺ ميمونة وهو مُحْرِم وبنى بها وهو حلال؟ فإني أرى الخروج من الخلاف يكون بارتقاء أن النبي ﷺ خطب ميمونة وعقد عليها بمكة بعد تحلله من إحرامه في أول يوم دخل مكة، ثم أمر مولاه أن يلحقه بها بعد تجهيزها في «سرف» فبنى بها هنالك؛ فلم يخطبها ولم يعقد عليها ولم يبين بها وهو محرم أبدًا.
 - ٧ - لطيفة في أن آخر من تزوج الرسول ﷺ من نسائه من ميمونة، وآخر من مات من نسائه بعده ميمونة. وأنها وبنى بها بسرف، وماتت ودفنت بسرف، فمكأن عرسها هو مكان دفنها، فرضي الله عنها وأرضاها وجعل الجنة مأواها.
- وخامس أحداثها:

سرية ابن أبي العوجاء

ولما رجع ﷺ من عمرة القضاء - وذلك في شهر ذي الحجة - بعث سرية عليها ابن أبي العوجاء السلمي في خمسين فارسًا، بعثهم إلى بني سليم، وكان لهم عَيْن^(١)، فذهب إليهم فأخبرهم بقدوم السرية عليهم لدعوتهم إلى الإسلام فتهيئوا للقتال، ودفع دعوة الإسلام، فلما انتهى إليهم رجال السرية ودعواهم إلى الإسلام رشقوهم بالنبل ولم يسمعوا قولهم، وقالوا: لا حاجة لنا إلى ما دعوتهم إليه، فرموهم ساعة، وجعلت الأمداد تتلاحق، وتجدق به من كل جانب، وقاتل أفراد السرية قتالًا شديدًا حتى قتل عامتهم وأصيب أميرهم بجروح كثيرة إلا أنه تحامل حتى وصل المدينة مع مَنْ بقى معه من المسلمين.

○ نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرًا هي:

- ١ - وجوب الدعوة إلى الله تعالى والتحمل والصبر في سبيلها.
- ٢ - خطر العيون والجواسيس أيام الحروب، وجوب الحذر منهم.
- ٣ - بيان شجاعة أصحاب الرسول ﷺ وسائر أهل الإيمان وعظيم صبرهم وتحملهم.

(١) جاسوس.

أهم أحداث هذه السنة غير الغزوات والسرايا

من أهم الأحداث والوقائع عدا الغزوات والسرايا التي كانت في سنة سبع من الهجرة ما يلي:

- ١ - رد النبي ﷺ ابنته زينب علي زوجها أبي العاص بن الربيع .
- ٢ - زواجه ﷺ بعمونة بنت الحارث الهلالية .
- ٣ - قدوم حاطب بن أبي بلتعة من عند المقوقس ملك الأقباط بمصر ومعه مارية القبطية أم إبراهيم بن النبي ﷺ ، وسيرين ، وقد أسلمتا في طريقهما إلى المدينة .
- ٤ - قضاء الرسول ﷺ وأصحابه عمرتهم التي مُنِعوا من إتمامها سنة ست من الهجرة .

أحداث السنة الثامنة من هجرة الحبيب ﷺ

ودخلت السنة الثامنة من هجرة النبي ﷺ وكان أول أحداثها:

سرية غالب

وبعث رسول الله ﷺ غالب بن عبد الله الليثي الكلبي إلى بني المُلَوِّح ، فلقية في مسيره الحارث بن البرصاء الليثي فأخذه أسيرًا ، فقال : إنما جئت لأسلم . فقال له غالب : إن كنت صادقًا فلن يضرَّك رباط ليلة ، وإن كنت كاذبًا استوثقنا منك . ووكل به بعض أصحابه ، وقال له إن نازعك فخذ رأسه ، وأمره بالمقام إلى أن يعود ، ثم ساروا حتى أتوا بطن الكديد فنزلوا بعد العصر ، وأرسلوا جندب بن مكيث الجهني ربيعة^(١) لهم ، قال : فقصدت تلاً هناك يطلعني على الحاضر ، فانبطحت عليه ، فرأني رجل منبطحاً ، فأخذ قوسه وسهمين ، فرماني بأحدهما فوضعه في جنبي ، فنزعته ولم أتحرك ، ثم رماني بالسهم الثاني فوضعه في رأس منكمبي ، فنزعته ولم أتحرك ، فقال الرامي : أما والله لقد خالطه سهماي ، ولو كان ربيعة لتحرك ، فأمهلناهم حتى راحت مواشيهم واحتلبوا ، فشئت عليهم الغارة ، فقتلنا منهم واستقنا منهم النعم ، ورجعنا سراعاً ، وأتى صريخ القوم فجاءنا ما لا قبل لنا به حتى إذا لم يكن بيننا إلا بطن الوادي من قديد ، بعث الله من حيث شاء سبحانه ما رأينا قبل ذلك مطراً مثله ، فجاء الوادي بما لا يقدر أحد أن يجوزه ، فلقد رأيتهم ينظرون إلينا ما يقدر أحد أن يتقدم .

وكان شعارنا في هذه السرية : أمت أمت ، وكنا بضعة عشر رجلاً .

○ نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرًا نجملها في الآتي :

- ١ - بيان إنفاذ الرسول ﷺ أمر ربه عز وجل في إبلاغ دعوته بلا كلل ولا ملل ولا فتور .
- ٢ - بيان الصبر والتحمل في ذات الله عز وجل وأنه شعار المؤمنين الصادقين .

(١) الربيعة : الطليعة من الجيش .

٣ - مشروعية الغزو في سبيل الله ليُعَبَّدَ الله وحده، فيكمل الناس ويسعدوا على عبادته تعالى .

٤ - بيان إكرام الله تعالى لأوليائه بإنجائهم بالمطر والسيول وبما شاء من أسباب .
○ وثاني أحداثها :

سرية شجاع

وبعث ﷺ شجاع بن وهب إلى بني عامر في أربعة عشر رجلاً، فأصابوا نعمًا، فكان سهم كل واحد منهم خمسة عشر بعيرًا .
○ وثالث أحداثها :

سرية عمرو بن كعب

وبعث ﷺ عمرو بن كعب الغفاري إلى ذات الأطلاق في خمسة عشر رجلاً، فوجد بها جمعًا كثيرًا فدعاهم إلى الإسلام فأبوا أن يجيبوا، وقتلوا أصحاب عمرو ولم ينج إلا هو، وكانت ذات الأطلاق هذه من ناحية الشام - وهم من قضاة - ورئيسهم يقال له سدوس .
○ ورابع أحداثها :

إسلام كل من: خالد، وعمرو، وعثمان

إن في إسلام كل من خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن أبي طلحة العبدي نصرًا كبيرًا، وفتحًا عظيمًا للدعوة الإسلامية؛ ولذا كان إسلامهم حدثًا هامًا في تاريخ الدعوة، وقد تأخر إسلامهم إلى صفر من هذه السنة الثامنة .
وهذا بيان كيفية إسلامهم، يقول عمرو: لما انصرفنا عن الخندق، قلت لأصحابي: إنني أرى أمر محمد يعلو علوًا منكرًا، وإنني قد رأيت أن الحق بالنجاشي، فإن ظهر على قومنا كنا عند النجاشي، وإن ظهر قومنا على محمد فنحن من قد عرفوا . فقالوا له: إن هذا الرأي، قال: فجمعنا له، أي للنجاشي أذمًا كثيرًا هدية، وخرجنا إلى النجاشي، فإذا لعنده إذ وصل عمر بن أمية الضمري رسولاً من النبي ﷺ في أمر جعفر وأصحابه، فدخلت على النجاشي، وطلبته منه أن يسلم إلي عمرو بن أمية؛ لأقتله؛ تقريبًا إلى قريش بمكة، فلما سمع النجاشي كلامي غضب وضرب أنفه ضربة ظننت أنه قد كسره - أي النجاشي - فخفته، ثم قلت: والله لو ظننت أنك تكره هذا ما سألتك، قال: أنسألتني أن أعطيك رسول رجل يأتيه التاموس الأكبر الذي كان يأتي لموسى لتقتله؟ قلت: أيها الملك، أكذلك هو؟ قال: ويحك يا عمرو!! أطعه وأتبعه؛ فإنه والله لعلى الحق، وليظهرن على من خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنده، فقلت: فبايعيني له على الإسلام، فبسط يده فبايعته، ثم خرجت إلى أصحابي وكنتمهم إسلامي، وخرجت عائدًا إلى

رسول الله ﷺ.

ولقيني خالد بن الوليد - وذلك قبل الفتح، وهو مقبل من مكة - فقلت: إلى أين يا أباسليمان، قال: والله لقد استقام المنسم^(١) إن الرجل لنبي أذهب - والله - أسليم، فحسنى متى؟؟ فقلت: ما جئت إلا للإسلام، فقدمنا على النبي ﷺ، فتقدم خالد بن الوليد فأسلم، ثم دنوت فأسلمت، وتقدم عثمان فأسلم.

○ نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرًا نجملها في الآتي:

- ١ - بيان فضل العلم الشرعي، فإن النجاشي آمن بالنبي ﷺ لما له من علم بذلك.
- ٢ - بيان تدبير الله في خلقه، وذلك واضح في تأخر إسلام خالد وعمرو وعثمان بن أبي طلحة من كمال عقولهم وذكائهم، وعظم دهائهم.
- ٣ - سماحة الإسلام إذ احتضن الثلاثة مع ما قاموا به ضده وما تصرفوا ضد أهله ومن مبادئه «التوبة تجب ما كان قبلها».

○ وخامس أحداثها:

سرية ذات السلاسل

وبعث الحبيب ﷺ عمرو بن العاص إلى أرض بلي وعذرة يدعون الناس إلى الإسلام، وكانت أم عمرو من بلي فتألفهم بذلك رسول الله ﷺ، فسار عمرو حتي وصل ماء جذام المسمى بالسلاسل، وبه سميت هذه الغزوة «غزوة ذات السلاسل» فلما كان به خاف، فبعث إلى النبي ﷺ يستمده فبعث إليه أباعبيدة بن الجراح في جماعة من المهاجرين والأنصار فيهم أبو بكر وعمر، وقال الحبيب ﷺ لأبي عبيدة: «لا تختلفا» - أي أنت وأمير السرية عمرو بن العاص - فخرج أبو عبيدة ومن معه، فلما قدموا على عمرو، قال عمرو: يا أباعبيدة، إنما جئت مدداً إلي، فقال أبو عبيدة: يا عمرو إن رسول الله ﷺ قال: «لا تختلفا» فإن عصيتني أطعتك، قال: فأنا أمير عليك قال: «نك، فصلى عمرو بالناس وبالمدة الذي بعث به رسول الله ﷺ. بلغ عدد أفراد السرية نحواً من خمسمائة رجل فضربوا في المنطقة شرقاً وغرباً ودوخوا من فيها. وفي هذه السرية احتلم عمرو فلم يغتسل؛ خوفاً من الموت لشدة البرد، وإنما استنجد وتوضأ وتيمم وصلى، ولما سألوا رسول الله ﷺ عن ذلك سكت فأقر عمرًا على فعله.



(١) أي: تبين الطريق ووضح.

○ وسادة أحداثها:

سرية عمرو بن العاص

وبعث ﷺ عمرو بن العاص إلى جيفر وعباد ابني الجُلندي بَعْمَان، فأَمَنَّا وصدقًا، وأُخذ الجزية من المجوس القاطنين بعمان.

○ وسابعة أحداثها:

سرية الخبيط^(١)

وفي هذه السنة الثامنة من الهجرة، بعث رسول الله ﷺ سرية، جعل عليها أبا عبيدة ابن الجراح، وعدد أفرادها ثلثمائة مقاتل، وزودهم رسول الله ﷺ بجراب من الثمر ووجههم نحو ساحل البحر، وتَقَدَّ جرابُ الثمر حتى كانوا يعطون منه ثمرة تمر، وقال أحدهم: قلت في نفسي: ماذا تُغني هذه الثمرة؟ ولما فقدتها عرفت قيمتها يومئذٍ، وجاعوا حتى كانوا يضربون ورق الشجر، فيسقط فيجمعونه ويبلونه بالماء يأكلونه؛ ولذا سميت هذه السرية: سرية الخبيط، ولما قربوا من البحر، لآخ لهم شيء كأنه كثيب رمل، فدنوا منه وإذا هو دابة من دواب البحر ميتة يقال لها: العنبر، فأكلنا منه نحوًا من نصف شهر حتى سمئًا، وكنا نغترف من عينها الدهن بالمغراف، ونصبنا ضلعين من أضلاعها، فكانت الراحلة تدخل تحتها ولا تمسها، وتزودنا من لحمها. ولما وصلنا إلى المدينة وذكرنا ذلك لرسول الله ﷺ قال: «هو رزق أخرجه الله لكم، فهل معكم شيء من لحمه تطعمونا؟» فأرسلنا إلى رسول الله ﷺ منه شيئًا فأكله.

○ نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرًا نوجزها كالتالي:

- ١ - مواصلة الدعوة إلى الله تعالى وإبلاغ رسالته ﷺ إلى كافة الناس لإصلاحهم وإسعادهم في الدنيا والآخرة.
- ٢ - بيان صبر الصحابة وتحملهم الشدائد في ذات الله تعالى ما كانوا به مضرب المثل.
- ٣ - بيان إكرام الله تعالى لأصحاب رسوله بأن ساق لهم العنبر، فأكلوا نصف شهر منه.
- ٤ - جواز أكل ميتة البحر.
- ٥ - بيان تطييب رسول الله ﷺ لخواطر أصحابه وتركية نفوسهم، وذلك بأكله من لحم الحوت الميت. وهو القائل في البحر: «هو الطهور ماؤه الحل ميتة».

(١) ورق الشجر يخبث بالخبيط.

○ وثامنة أحداثها:

سرية أبي قتادة

وفي شعبان من هذه السنة، وجه رسول الله ﷺ أبا قتادة ومعه عبد الله بن أبي حذرد - في رجال - إلى الغابة، حيث بلغ رسول الله ﷺ أن رفاعه بن قيس قد جمع جموعاً ونزل الغابة يريد حرب رسول الله ﷺ. ولما بلغوا من الحاضر^(١) مع غروب الشمس، كمن كل واحد منهم في ناحية، وكان لقوم رفاعه راع فأبطأ عنهم، فخرج رفاعه بن قيس في طلبه معه سلاحه، قال عبد الله بن أبي حذرد: فرمته بسهم فأصبت فؤاده فلم يتكلم، فأخذت رأسه ثم شددت في ناحية العسكر، وكبرث وكبر أصحابي، فوالله ما كان إلا النجاء أي هرب أهل الحاضر طالبين النجاة لأنفسهم، فأخذوا نساءهم وأولادهم وما خف عليهم من أموالهم، واستقنا الإبل الكثيرة والغنم، فحجنا بها رسول الله ﷺ ورأس رفاعه، قال عبد الله: فأعطاني رسول الله ﷺ من تلك الإبل ثلاثة عشر بعيراً وعدل بعير، وعدل البعير بعشر من الغنم.

○ وتسعة أحداثها:

سرية أبي قتادة إلى إضم

وفي هذه السنة أيضاً أغزى رسول الله ﷺ إلى «إضم» ومعه محلم بن جثامة، فمر عليهم عامر ابن الأضيظ الأشجعي على بعير له ومعه متاعه، فسلم عليهم بشحية الإسلام، فأمسكوا عنه، وحمل عليه محلم بن جثامة فقتله وأخذ بعيره ومتاعه، ولما قدموا على رسول الله ﷺ وأخبروه الخبر، نزل قوله تعالى من سورة النساء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ آفَقَ إِلَيْكُمْ أَسْأَلُكُمْ لَسْتُ مُؤْمِنًا تَبَيَّنُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا قَوْلَهُ اللَّهُ مَكَانُهُ كَثِيرٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ بَدَّلَكُمْ فَعَلَكُمْ فَأُولَئِكَ سَابِقُوا إِلَى اللَّهِ كَذَلِكَ يَتَبَيَّنُ لَكُمْ أَنْكُمْ أَنْتُمْ عَلَى اللَّهِ حَكِيمُونَ﴾ [النساء: ٩٤].

○ وعاشرة أحداثها:

غزوة مؤتة

هذه إحدى الغزوات العظيمة في الغزو الإسلامي: وكانت في جمادى الأولى من سنة ثمان، فقد حدد الرسول ﷺ غزواتها ومكانها، وعين أمراءها: فعين زيد بن حارثة مولاه أميراً عليها، فإن أصيب فجعفر ابن أبي طالب، فإن أصيب فعبد الله بن رواحة. وكان عدد أفراد هذه السرية ثلاثة آلاف مقاتل، ولما عين الحبيب ﷺ زيداً أميراً، وجد جعفر في نفسه وقال يا رسول الله: ما كنت أذهب أن تستعمل علي زيداً؛ فقال له رسول الله ﷺ: (١) الحاضر: سكان الحاضرة أي المدينة أو القرية، والمراد هنا منازل القوم التي حضروا فيها.

«منض؛ فإنك لا تدري أي ذلك خير» وعندها بكى الناس وقالوا: هلا متعتنا بهم يا رسول الله، وكان إذا قال: «فلان أصيب فلان فلامير فلان» أصيب كل من ذكره.

وتجهز الناس وودعهم رسول الله ﷺ الناس، ولما ودع عبد الله بن رواحة بكى فقال له الناس: ما يبكيك؟ فقال: ما بي حب الدنيا ولا صباية بكم ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقرأ آية وهي: ﴿وَلَنْ يَنْفَكُوا إِلَّا وَأَرِيدُهَا كَأَنَّ عَلَى رَيْكَ حَتًّا مَقْصِيًّا﴾ [مرهم: ٧١]. فلست أدري، كيف لي بالصدر بعد الورد. فقال المسلمون: صحبكم الله وردكم إلينا صالحين. ولما تهيأ القوم للخروج، أتى عبد الله رسول الله ﷺ فودعه ثم قال:

أنت الرسول فمن يحزم نوافله^(١) والوجه منه: فقد أزرى^(٢) به القدر فشببت الله ما آتاك من حسن في المرسلين ونصراً كالثي نصروا إنني تفرست فيك الخير نافلة فراسة خالفت فيها الذي نظروا ثم خرجوا وساروا حتى نزلوا معان من أرض الشام، فبلغ الناس أن هرقل قد نزل مأب من أرض البلقاء في مائة ألف من الروم، ومائة ألف من العرب المنتصرة من لخم وجذام والفين وبلى. فأقام المسلمون بمعان ليلتين ينظرون أمرهم وقالوا: نكتب إلى رسول الله ﷺ نخبره الخبر، وننتظر أمره، فجمعهم عبد الله بن رواحة، وقال: يا قوم، والله إن الذي تكرهون للذي خرجتم تطلبون: إنه الشهادة، وما نقاتل بعدد ولا قوة، ولا نقاتلهم إلا بهذا الدين، فانطلقوا فما هي إلا إحدى الحسينين، فقال الناس: صدق والله، وساروا فتلقاهم جموع الروم والعرب بقرية من البلقاء يقال لها: مشارف، وانحاز المسلمون إلى قرية يقال لها: مؤتة، فالتقى الناس عندها وكان على ميمنة المسلمين قطبة بن قتادة العذري، وعلى ميسرتهم عبادة بن مالك الأنصاري، فاقتتلوا قتالاً شديداً، فقاتل زيد براءة رسول الله ﷺ حتى شاط في رماح القوم أي مات، ثم أخذها جعفر بن أبي طالب فقاتل بها، وهو يقول:

يا حبذا الجنة واقترايها طيبة وبارداً شرائبها
والروم روم قد دنا عذابها علي إذ لاقيتها ضرائبها
ثم عقر فرسه وهو أول فرس عقر في الإسلام، وقاتل حتى قطعت يده اليمنى، فأخذ الراية باليسرى، وقاتل حتى قطعت يده اليسرى، فاحتضن الراية بعضديه حتى قُتل، فوجد به بضع وثمانون رمية وضربة، وطعنة في جوار الله تعالى ورضوانه، وأخذ الراية عبد الله ابن رواحة، ثم تقدم فتردد بعض التردد ثم قال يخاطب نفسه:

أقسمت يا نفس لتنزلنني طائعة أو لتكرهني
إذ أجلب الناس وشدوا الرنه مالي أراك تكرهين الجنة؟!

(١) نوافله: عطاياه وهباته.

(٢) أي قصر به.

قد طال ما كنت مطمئنه هل أنت إلا نطفة في شنه
ثم نزل على فرسه، فجاء ابن عم له بعرق لحم، فقال: شد بهذا صُلبك فقد لقيت ما لقيت! ثم
فأخذه فانتهم منه نهسة، ثم سمع الحطمة في ناحية العسكر فقال لنفسه: وأنت في الدنيا!! ثم
ألقاه وأخذ سيفه وتقدم فقاتل حتى قتل، (فإلى رحمة الله ورضوانه) واشتد عليهم الأمر، وكان
قطبة قد قُتل قبل ذلك قتله مالك بن زافلة قائد العرب المتحصرة. ثم أخذ الراية ثابت بن أرقم أخو
بني العجلان، وقال: يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم، قالوا: أنت، قال: ما أنا
بفاعل، فاصطاح الناس على خالد بن الوليد، فلما أخذ الراية دافع القوم وحاشى بهم ثم انحاز،
وانحيز عنه حتى انصرف الناس، ثم أقبل بهم قافلاً في طريقه إلى المدينة النبوية.

○ إخبار النبي ﷺ بالواقعة:

وبالمدينة يخبر الحبيب ﷺ بجريان المعركة بالتفصيل كأنه يشاهدها عن كعب، فيقول - بعد أن
رقى المنبر ونادى بالصلاة جامعة: «باب خير، باب خير، باب خير. أخبركم عن جيشكم هذا
الغازي، إنهم لقوا العدو، فقتل زيد شهيداً فاستغفر له، ثم أخذ اللواء جعفر فسد على القوم حتى
قتل شهيداً فاستغفر له، ثم أخذ اللواء عبد الله بن رواحة». وصمت حتى تغيرت وجوه الأنصار،
وظنوا أنه قد كان من عبد الله ما يكرهون ثم قال ﷺ: «فقاتل القوم حتى قتل شهيداً» ثم قال: «لقد
رفعوا إلى الجنة على سُرور من ذهب فرأيت في سرير ابن رواحة ازوراراً عن سريرتي صاحبيه،
فقلت: غم هذا؟ فقيل: مضياً، وتردد بعض التردد، ثم مضى». ولما قتل ابن رواحة أخذ الراية
ثابت بن أرقم الأنصاري، وقال: يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم فاصطلحوا على
خالد بن الوليد، فقال رسول الله ﷺ: «ثم أخذ الراية سيف من سيوف الله خالد بن الوليد فعاذ
بالناس» فمن يومئذ سمي خالد سيف الله. وقال رسول الله ﷺ: «مر بي جعفر البارحة في نفر من
الملائكة له جناحان مختضب القوادم بالدم».

○ امرأة جعفر تحدث:

وقالت أسماء بنت عميس زوج جعفر الطيار بن أبي طالب رضى الله عنهما: أتاني النبي ﷺ
وقد فرغت من اشتغالي وغسلت أولاد جعفر، ودهنتهم، فأخذهم وشمهم، ودمعت عيناه فقلت:
يا رسول الله أبلغك عن جعفر شي؟ قال: «نعم أصيب هذا اليوم» ثم عاد إلى أهله، فأمرهم أن
يصنعوا لآل جعفر طعاماً - فهو أول ما عُيِل في دين الإسلام. ولما رجع الجيش ودنا من المدينة
لقيهم رسول الله ﷺ فأخذ عبد الله بن جعفر فحملة بين يديه، فجعل الناس يحثون التراب على
الجيش ويقولون: «يا فراراً يا فرار»، ويقول الرسول ﷺ: «ليسوا بالفرار ولكنهم الكَرَارُ إن
شاء الله».

○ نتائج وعبر :

- إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرًا نذكرها فيما يلي :
- ١ - فضيلة الأمراء الثلاثة : زيد ، وجعفر ، وابن رواحة .
 - ٢ - مشروعية توديع المسافرين إلى سفر صالح كالجهاد والحج ونحوهما .
 - ٣ - بيان حقيقة كُشِفَ عنها ابنُ رواحة ، وهي أن المسلمين لا يقاتلون بعدد ولا قوة ، وإنما يقاتلون بالدين ، فإن كانوا صالحين مستقيمين انتصروا ، وإلا انكسروا .
 - ٤ - مشروعية مخاطبة النفس وترويضها على الطاعات .
 - ٥ - آيات النبوة المحمدية تتجلى في إخبار النبي ﷺ أهل المدينة بسير المعركة ووصفه لها ، كأنه يديرها ويشاهد سير القتال فيها ، ولم يخطئ في شيء منها ولو قل ، ولم يكن يومئذ أخبار سلكية ولا سلكية ولا عرض تلفاز ولا فيديو ، فكان إخباره أعظم آية على أنه رسول الله ﷺ يتلقى الوحي من الله عز وجل .
 - ٦ - بيان فضل خالد ، وسبب تلقيه بسيف الله .
 - ٧ - بيان تألم رسول الله ﷺ لموت الأمراء ، وخاصة جعفر بن أبي طالب - رضي الله عنهم أجمعين - .
 - ٨ - مشروعية صنع الطعام لأهل الميت لانشغالهم بالمصيبة وحزنهم على فقيدهم ، وأن أول طعام صُنِع لهذا الغرض هو ما صنعه الرسول ﷺ لآل جعفر فكان سُنَّة قولية عملية .
 - ٩ - مشروعية حمل الطفل الصغير وشمه وتقبيله ؛ رحمةً به وشفقةً عليه .
- وحادي عشر أحداثها :

غزوة الفتح : فتح مكة

○ أسباب هذه الغزوة :

لقد ورد في اتفاقية الحديبية أن «خزاعة» دخلت في عقد الرسول ﷺ «وبكر» دخلت في عقد قريش ، وشاء الله عز وجل أن رجلاً من خزاعة سمع رجلاً من بكر ينشد شعراً في هجاء النبي ﷺ فضربه فشجّه ، فهاج الشر بينهم ، وثار «بكر» على «خزاعة» حتى يبتوهم بالوتير ، وأعانت قريش بني بكر بالسلح والرداب ، وقاتل معهم جماعة من قريش مختلفين ، منهم صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو ، فانهازت خزاعة إلى الحرم لاثلة به إلا أن بكرًا لم تحترم الحرم وقاتلت خزاعة به وقتلت منهم .

وبهذا كانت قريش قد نقضت العهد الذي بينهم وبين رسول الله ﷺ ؛ إذ أعانت بني بكر على خزاعة أحلاف النبي ﷺ . وعندئذ خرج عمرو بن سالم الخزاعي حتى قدم على رسول الله ﷺ

المدينة فوقف عليه، ثم قال: منشداً قصيدة مطلعها:

اللهم إني ناشدُ محمداً حلف^(١) أبيه وأبينا الأئندا
فوالداً كنا وكنت ولداً تمت أسلمنا فلم ننزع يدا
إلى أن قال:

هم يبيتونا بالوتير هُجداً فقتلونا ركعاً وسُجداً
فقال رسول الله ﷺ: «قد نُصرت يا عمرو بن سالم» وجاء بديل بن ورقاء في نفر من خزاعة إلى النبي ﷺ، فوافقه يفتسل فنادوه فقال: «يا لبيكم» وخرج إليهم فأخبروه الخبر، ثم انصرفوا راجعين إلى مكة، أي أعلموه بالذي جرى من نقض قريش عهدها. وكان النبي ﷺ قد قال لأصحابه: «كأنني بأبي سفيان قد جاء ليجد الهدنة خوفاً ويزيد في المدة» ومضى بديل في طريقه، وإذا بأبي سفيان في عسفان في طريقه إلى المدينة وصدقت فراسة الحبيب ﷺ فقال أبو سفيان لبديل: من أين أقبلت؟ قال: من خزاعة في الساحل وبطن هذا الوادي، قال: أو ما أتيت محمداً؟ قال: لا، فقال أبو سفيان لأصحابه - لما راح بديل - : انظروا بعن ناقته، فإن جاء المدينة لقد علف النواء، فنظروا بعن الناقة فرأوا فيه النوى. وواصل أبو سفيان سيره حتى أتى المدينة، فدخل على ابنته أم حبيبة زوج النبي ﷺ، فلما أراد أن يجلس على فراش النبي ﷺ طَوَّته عنه، فقال أرغبت به عتي أم رغبت بي عنه؟ فقالت: هو فراش رسول ﷺ وأنت مشرك نجس. فلم أحب أن تجلس عليه، فقال: لقد أصابك بعدي شرٌّ! ثم خرج حتى أتى النبي ﷺ فكلمه، فلم يرد عليه شيئاً، ثم أتى أبا بكر فكلمه ليكلّم له رسول الله ﷺ فقال: ما أنا بفاعل، ثم أتى عمر فكلمه فقال: ما أنا بشافع لكم إلى رسول الله ﷺ، والله لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به. ثم خرج حتى أتى علياً فكلمه في ذلك، فقال له: والله لقد عزم رسول الله ﷺ على أمر لا نستطيع أن نكلمه فيه. فنادى فاطمة قائلاً: يا بنت محمد، هل لك أن تأمري ابنك هذا - يشير إلى الحسن وهو يومها غلام - أن يجير بين الناس فيكون سيد العرب؟ فقالت: ما بلغ ابني أن يجير بين الناس، وما يجير على رسول الله أحد. ثم التفت إلى علي، وقال: أرى الأمور قد اشتدت علي فانصحتني، قال: إنك سيد كنانة فقم فأجر بين الناس، والتحق بأرضك.

فقام أبو سفيان في المسجد، وقال: أيها الناس قد أجرت بين الناس ثم ركب بعيره وقدم مكة وأخبر قريشاً بما جرى له وما أشار به علي عليه، فقالوا: والله ما زاد على أن سخر منك!!
○ التجهيز والإعداد لفتح مكة:

وعزم النبي ﷺ على غزو قريش لفتح مكة لنقض قريش المعاهدة نقضاً واضحاً صريحاً، فتجهز

(١) يذكر بحلف قديم كان بين عبد المطلب وخزاعة.

وأمر أصحابه بذلك، وقال: «اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نيفتها في بلادها». ولما علم حاطب ابن أبي بلتعة بعزم الرسول ﷺ على المسير إلى قريش، وذكر أهله وولده بمكة، وأن لا ولي له بها يدفعون عن أهله وولده، وعلم أن الله ناصر رسوله، فكتب كتاباً إلى قريش، يعلمهم بما عز عليه الرسول ﷺ، وبعث بالكتاب مع امرأة من مزينة اسمها: كنود، تحمله وتركب راحلتها وتسير، وسبقها الوحي الإلهي إلى رسول الله ﷺ، فأرسل النبي ﷺ علي بن أبي طالب والزبير بن العوام لافتكك الكتاب منها قبل وصولها مكة، فخرجا في طلبها، فأدركاها وأخذا الكتاب منها، وهذه من استجابة الله تعالى دعوة رسوله ﷺ، إذ قال: «اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش» وأحضر حاطباً وقال: «ما حملك على هذا؟» فقال: والله إني لمؤمن بالله ورسوله، وما بدلت ولا غيرت، ولكن لي بين أظهرهم أهل وولد، وليس لي عشيرة فصنعتهم عليهم. فقال عمر: دعني يا رسول الله أضرب عنقه؛ فإنه قد نافق. فقال رسول الله ﷺ: «وما يدريك يا عمر، لعل الله قد أطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم» وأنزل الله تعالى في حاطب فاتحة سورة الممتحنة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَجِدُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تَلْقَوُاهُم بِاللَّوْءِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ حَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِ وَيَمَنَةٍ مَرَضَاتٍ يُسِرُّونَ إِلَيْكُمْ بِالْمُؤَدَّةِ﴾ إلى قوله: ﴿فَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ﴾ [الممتحنة: ١].

○ المسير إلى مكة:

واستخلف النبي ﷺ على المدينة أبا رهم كلثوم بن حصن الغفاري، وخرج في عشرة آلاف مقاتل، وذلك لعشر ماضين من رمضان. وأثناء مسيره أدركه عبيدة بن حصن والأقرع بن حابس كما لقيه العباس ابن عبد المطلب بذي الحليفة مهاجراً، فأمره أن يرسل رخله إلى المدينة ويعود معه، ففعل، وقال له: «أنت آخر المهاجرين وأنا آخر الأنبياء»، وصام ﷺ وصام أصحابه حتى بلغ ما بين عسفان وأمع فأفطروا، ولقيه في الطريق وهو نازل بنيق العقاب أبوسفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وعبد الله بن أبي أمية، فالتمسا الدخول عليه ﷺ فكلمته أم سلمة في شأنهما، فقال: «لا حاجة لي بهما، أما ابن عمي فقد هتك عرضي، وأما ابن عمتي، فهو الذي قال بمكة ما قال^(١)»، فلما سمعا ذلك - وكان مع أبي سفيان ولد له يقال له: جعفر، فقال أبوسفيان: والله ليأذنين لي، أو لأخذن بيد ابني هذا، ثم لنذهبن في الأرض حتى نموت عطشاً وجوعاً، فرق لهما رسول الله ﷺ فأدخلهما إليه فأسلما، وأنشد أبوسفيان في إسلامه واعتذاره قوله:

لعمرك إني يوم أحمل رايةً لتغلب خيل اللات خيل محمد
لكالمذليح الحيران أظلم ليلاً فهذا أواني حين أغدي فأهتدي

(١) قال: لن نؤمن لك حتى ترقى في السماء، ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه.

وهادٍ هداني غير نفسي ودلّني على الله من طرّده كلّ مطرد
 ○ يمر الظهران :

ونزل الحبيب الأحبُّ والقائد الأعظم ﷺ بِمَرِّ الظهران غير بعيد من مكة، ونزل معه جيشه المظفر المقدر بعشرة آلاف مقاتل جلّهم من المهاجرين والأنصار وباقيهم من جهينة، وغفارة، ومزينة، وسليم، وتميم، وأسد، وقيس.

ونظر العباس إلى قوة الجيش وقال: يا هلاك قريش، والله إن باغتها رسول الله ﷺ في بلادها فدخلها عنوة، إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر، ثم جلس على بغلة النبي ﷺ، وقال أخرج؛ لعليّ أرى خطّابًا أو رجلًا يدخل مكة لحاجة فيخبرهم بمكان رسول الله ﷺ فيأتونه ويستأمنوه، وخرج يطوف في الأراك، وإذا به يسمع صوت أبي سفيان وحكيم بن حزام ويُدبِل بن ورقاء الخزاعي، خرجوا يتحسسون الأخبار ويرقبون الأمور. ورأوا نيران المعسكر تشتعل ليلاً تضيء الساحة كلّها، وهي آلاف النيران فقال أبو سفيان: ما رأيت نيرانًا أكثر من هذه، فقال بدليل: هذا نيران خزاعة، فقال أبو سفيان: خزاعة أذلّ من ذلك أو أقل، فقال العباس: يا أبا حنظلة «كنية أبي سفيان» فقال: أبو الفضل؟ قلت: نعم، قال: لبيك فذاك أبي وأمي ما وراءك؟ قال: هذا رسول الله ﷺ في المسلمين أتوكم في عشرة آلاف. قال: ما تأمرني؟ قلت: تركب معي فاستأمن لك رسول الله ﷺ، فوالله لئن ظفرك بك ليضربن عنقك، قال العباس: فركب معي فخرجت أركض به نحو رسول الله ﷺ على بلغة رسول الله، حتى مررنا بنار عمر بن الخطاب فقال: أبو سفيان - أي هذا أبو سفيان - الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد، ثم اشتد نحو رسول الله ﷺ، وركضت البغلة فسبقت عمر، ودخل عمر على رسول الله ﷺ فأخبره وقال: دعني أضرب عنقه، فقلت: يا رسول الله إني قد أجرته، ثم أخذت برأس رسول الله ﷺ وقلت: لا ينجيه اليوم أحد دوني، فلما أكثر عمر فيه قلت: مهلاً يا عمر، فوالله ما تصنع هذا إلا أنه من بني عبد مناف، ولو كان من بني عدي ما قلت هذه المقالة، فقال: مهلاً يا عباس فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحبّ إلي من إسلام الخطاب لو أسلم، فقال رسول الله ﷺ: «أذهب فقد أمتناه حتى تغدو علي به الغداة» فرجعت به إلى منزلي وغدوت به على رسول الله ﷺ. فلما رآه قال: «ويحك يا أباسفيان ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله؟» قال: بلى بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لو كان مع الله غيره لقد أغنى عني شيئًا، فقال: «ويحك ألم يأن لك أن تعلم أنني رسول الله؟» فقال: بأبي أنت وأمي أما هذه ففي النفس منها شيء؟ قال العباس: فقلت له: ويحك تشهد بشهادة الحق قبل أن تُضرب عنقك، قال: فتشهد وأسلم معه حكيم بن حزام ويُدبِل بن ورقاء.

○ استعراض القوة للإرهاب :

وأمر الحبيب ﷺ العباس أن يذهب بأبي سفيان فيحبسه في طريق مرور الجيش الإسلامي؛ ليرى بأم عينيه قوة الإسلام والمسلمين، قال ﷺ: «أذهب بأبي سفيان فأحبسه عند خطم^(١) الجبل بمضيق الوادي حتى تمر عليه جنود الله» قال العباس: فقلت: يا رسول الله إنه يحب الفخر فأجعل له شيئاً يكون في قومه فقال: «فليدخل مكة وليقل: من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن دخل دار حكيم بن حزام فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن». قال العباس فخرجت فحبسته، أي أوقفته عند خطم الجبل، فمرت عليه القبائل فيقول: من هؤلاء؟ فأقول: أسلم، فيقول: من هؤلاء؟ فأقول: جهينة، فيقول: مالي ولجهينة؟ حتى مر رسول الله ﷺ في كتبتيه الخضراء^(٢) مع المهاجرين والأنصار في الحديد لا يرى منهم إلا الحديد، فقال: من هؤلاء؟ فقلت: هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار، فقال: لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً!! فقلت: ويحك إنها النبوة فقال: نعم إذن. فقلت: الحق بقومك سريعاً فحذرهم. فخرج حتى أتى مكة ومعه حكيم ابن حزام، فصرخ في المسجد: يا معشر قريش هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به. فقالوا: فمه^(٣) قال: من دخل داري فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن. ثم قال: يا معشر قريش أسلموا تسلموا فأقبلت امرأته هند، فأخذت بلحيته وقالت: يا آل غالب اقتلوا هذا الشيخ الأحمق. فقال: أرسلي لحيتي، وأقسم لئن لم تُسلي لي لتضربن عُقْلِي، ادخلي بيتك، فتركته وذُفِبَتْ.

○ دخول القوات إلى مكة :

ومشى رسول الله ﷺ حتى وصل ذا طوى، وقف على راحلته معتجراً بشقة بُرْدِ حبرة حمراء، وفرَّقَ جيشه، فأمر الزبير بن العوام أن يدخل في بعض الناس من كدي^(٤)، وأمر سعد بن عباد أن يدخل في بعض الناس من كداء «المعلاة» وسمع سعد بن عباد يقول: اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة، فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله اسمع ما قال سعد بن عباد، ما نأمن أن يكون له في قريش صولة، فقال رسول الله ﷺ لعلي بن أبي طالب: «أدركه فخذ الراية منه، فكن أنت الذي تدخل بها» وأمر خالدًا أن يدخل من اللبظ أسفل مكة في بعض الناس، وكان خالد على المجنبه اليثني، كما أن الزبير على المجنبه اليسرى، وأقبل أبو عبيدة بن الجراح بالصف من المسلمين ينصب لمكة بين يدي رسول الله ﷺ، وإنه ﷺ لتواضعه لربه لما رأى من إكرام الله تعالى له تكاد لحيته تمس واسطة الرحل؛ تواضعاً لله تعالى - فلم يدخل دخول الظلمة الفاتحين -

(١) خطم الجبل هو أنفه الخارج منه.
(٢) لكثرة الحديد وظهوره فيها قيل فيها: الخضراء.
(٣) فمه: «ما» الاستهامية حذفت منها الألف وزيدت فيها هاء السكت، أي فما الذي تريد أن نصنع؟
(٤) اسم جبل بمكة.

يكاد يطير بهم الزهو والخيلاء والكبر والصلف .

وقد أوصى أمراءه ألا يقتلوا إلا مَنْ قاتلهم، وكان صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو قد جمعوا ناسًا بالخدمة ليقاتلوا، فلما وصلهم المسلمون بقيادة خالد بن الوليد ناووشهم شيئًا من القتال، فقتل من المشركين نحوًا من ثلاثة عشر رجلًا، ثم انهزموا، وقتل من المسلمين كرز بن جابر وخبيش بن خالد بن ربيعة بسبب سلوكهما طريقًا غير طريق خالد الذي سلكه .

○ من القبة إلى المسجد :

وكان قد ضربت للحبيب ﷺ قبة بالحجون، وها هو ذا ﷺ يخرج منها في طريقه إلى المسجد الحرام وإلى جنبه الصديق يحادثه وهو يقرأ سورة «الفتح» حتى بلغ البيت فطاف سبعا على راحلته، واستلم الحجر الأسود بمحجن كان بيده، وكان حول البيت ثلثمائة وستون صنمًا، فجعل يطعن بعود في يده وهي تتساقط وهو يقول : «جاء الحق وزهق الباطل، وما يبدئ الباطل وما يعيد» .

وأمر بالصور والتماثيل التي داخل البيت، فأخرجت وزُميت هي وسائر الأصنام خارج المسجد الحرام، ودخل ﷺ الكعبة، وصلي فيها، وكبر في سائر نواحيها، ثم خرج فجلس في المسجد الحرام كالبدن في حالته والعيون إليه شاخصة والقلوب واجفة .

○ مظاهر الكرم المحمدي :

ثم قام ﷺ على باب الكعبة، وقال : «لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده» .

ألا كل دم أو مائه أو مال يدعى، فهو تحت قدمي هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج .
ألا وقتيل الخطأ - شبه العمد بالسوط والعصا - ففيه الدية مغلظة : مائة من الإبل، أو أربعون منها في بطون أولادها .

يا معشر قريش ! إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء . الناس من آدم، وآدم من تراب ، ثم تلا قوله تعالى : ﴿يَتْلُو آدَامُ لِقَا خَلْقَكَ مِنْ ذَكْرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعْرًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣] . ثم قال : «يا معشر قريش ما ترون أبي فاعل بكم؟» قالوا : خيرًا، أخ كريم وابن أخ كريم قال : «اذهبوا فأنتم الطلقاء» فعفا عنهم بعد أن أمكنه الله تعالى منهم، فضرب بذلك المثل في العفو والصفح عن الجناة بعد القدرة عليهم والتمكن منهم .

○ المجرمون الثمانية :

لم يشمل ذلك العفو العام ثمانية مجرمين وأربع نسوة مجرمات .

○ فالرجال الثمانية هم :

عكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية بن خلف، وعبد الله بن سعد بن أبي السرح، وعبد الله بن خطل، والحويرث بن نقيذ بن وهب، ومقيس بن صبابه، وعبد الله بن الزبيري، وهبار بن الأسود. إذ كان هؤلاء أشدّ عداوة وأذى لرسول الله ﷺ من غيرهم، ولذا أمر بقتلهم قبل توبتهم. وقد تاب وأسلم وحسن إسلامه كل من عكرمة، وصفوان، وعبد الله بن سعد بن أبي السرح، وعبد الله بن الزبيري وقتل الأربعة الباقون كفرًا (فإلى جهنم وبئس القرار). وقال عبد الله بن الزبيري لما أسلم - شعرًا يعتذر فيه :

يا رسول الملّيك إن لسانِي راتقٌ ما فتقْتُ إذ أنا بُورُ
إذ أباري الشيطانَ في سَنّي الغي وَمَنْ مَالٌ مِيلُهُ مَشْبورُ
أَمِنَ اللّحمُ والعظامُ لرَبّي ثم قلبي الشهيد أنت النذير
وأما النسوة : فهن هند بنت عتبة، وسارة مولاة عمرو بن عبد المطلب، وقَتينا عبد الله بن خطل، فأسلمت هند وحسن إسلامها كذا إحدى القَتَينِ والاثنان الآخران قتلنا كافرتين فإلى غضب الله وأليم عذابه.

○ البيعة على الإسلام :

ثم جلس رسول الله ﷺ على الصفا للبيعة، وعمر بن الخطاب تحته، وتقدم الرجال يبايعون رسول الله ﷺ على الإسلام، فكان يبايعهم على السمع والطاعة لله ولرسوله فيما استطاعوا. ولما فرغ من بيعة الرجال، جاءت النساء للبيعة، وكانت بينهن هند بنت عتبة منكرة؛ لما صنهاج بحمزة رضى الله عنه، فقال لهن : «تبايعيني على ألا تشركن بالله شيئًا» قالت هند : إنك والله لتأخذ علينا ما لا تأخذه علي الرجال فسؤتيكه قال : «ولا تسرقن» قالت : والله إن كنت لأصيب من مال أبي سفيان الهنة^(١) والهنة، فقال أبو سفيان وكان حاضرًا : أما ما مضى فأنت منه في حلّ، فقال رسول الله ﷺ : «أهتد؟» قالت : أنا هند فأعف عما سلف عفا الله عنك، قال : «ولا تزنين» قالت : وهل تزني الحرة؟ قال : «ولا تقتلن أولادكن» قالت : ربيناهم صغارًا، وقتلتهم يوم بدر كيارًا، فأنت وهم أعلم، فضحك عمر. قال : «ولا تأتين بيهتان تفترينه بين أيديكن وأرجلكن» قالت : والله إن إتيان البيهتان لقبيح، ولبعض التجاوز أمثل. قال : «ولا تعصين في معروف» قالت : ما جلسنا هذا المجلس ونحن نريد أن نعصيك، فقال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب : «بايعهن؟» واستغفر لهن رسول الله ﷺ ؛ إذ كان ﷺ لا يمس النساء ولا يصفح امرأة ولا تمسه امرأة إلا امرأة أحلها الله له، أو ذات محرم منه.

(١) الشيء الصغير الذي لا يعرف له اسم.

○ الإنسان قبل الإيمان :

ولما فرغ رسول الله ﷺ من بيعة الرجال وبيعة النساء، كان قد آن أوان الظهر، فأمر بلالاً أن يطلع على سطح البيت الحرام ويؤذن، وقريش فوق الجبال وسطوح البيوت، فمنهم من يطلب الأمان، ومنهم من أمّن، فلما أخذ بلال في الأذان وقال: أشهد أن محمداً رسول الله، قالت جويرية بنت أبي جهل: لقد أكرم الله أبي حين لم يشهد نهيق بلال فوق الكعبة، وقالت: لقد رفع الله ذكر محمد، وأما نحن فنستصلي، ولكن لا نحب من قتل الأحبة، وقال خالد بن أسد: لقد أكرم الله أبي فلم ير هذا اليوم، وقال الحارث بن هشام ليتني مت قبل هذا اليوم، وقال غيرهم مثل قولهم، ولكنهم أسلموا وحسن إسلامهم، فأشرقت نفوسهم بنور الإيمان وذهبت ظلمة الكفر والجهل التي من جزائها قالوا ما قالوا من كلمات الكفر التي يرضى المؤمن أن يصطب ويقطع ولا يرضى أن يقولها أبداً.

○ ذكريات فيها عبر وعظات :

أ - قالت أم هانئ بنت أبي طالب و: لما نزل رسول الله ﷺ بأعلى مكة فرأى إلي رجلان من أحماني من بني مخزوم، وكانت أم هانئ عند هبيرة بن أبي وهب المخزومي، قالت: فدخل علي أخي علي بن أبي طالب، وقال: والله لأقتلنهما، فأغلقت عليهما باب بيتي، ثم جئت رسول الله ﷺ وهو بأعلى مكة، فوجدته يقتسل من جفنة وإن فيها لأثر العجين وفاطمة بنته تستره بثوبه، فلما اغتسل أخذ ثوبه فتوشح به، ثم صلى ثماني ركعات من الضحى، ثم انصرف إلي فقال: «مرحباً وأهلاً يا أم هانئ ما جاء بك؟» فأخبرته خبر الرجلين وخبر علي فقال: «أجزنا من أجرته وأمثا من أمنت فلا يقتلنهما».

ب - لما طاف ﷺ بالبيت، دعا عثمان بن طلحة بن أبي طلحة، فأخذ منه مفتاح الكعبة فدخل فيها وصلى، وأخرج منها بعض الصور والتماثيل، فقام إليه علي بن أبي طالب - ومفتاح الكعبة بيده - فقال: يا رسول الله اجمع لنا الحجابة مع السقاية، صلى الله عليك. فقال رسول الله ﷺ: «أين عثمان بن طلحة؟» فدُعي له، فقال: «هاك مفتاحك يا عثمان؛ اليوم يوم بزوفا».

ج - لما كان الحبيب ﷺ يطوف بالبيت يوم الفتح، كان فضالة بن عмир بن الملوخ فكر في قتل النبي ﷺ وهو يطوف، فلما دنا من الرسول ﷺ قال الرسول ﷺ: «أفضالة؟» قال: نعم، فضالة يا رسول الله: قال: «ماذا كنت تحدث به نفسك؟» قال: لا شيء كنت أذكر الله، قال: فضحك النبي ﷺ ثم قال: «استغفر الله» ثم وضع يده على صدره فسكن قلبه، فكان فضالة يقول: والله ما رفع يده عن صدري حتى ما من خلق الله شيء أحب إلي منه. قال فضالة: فرجعت إلى أهلي فمررت بامرأة كنت أتحدث إليها، فقالت: هلّم إلى الحديث، فقلت: لا، وانبعث أقول: قالت: هلّم إلى الحديث، فقلت: لا يأسى عليك الله والإسلام

لو ما رأيته محمداً وقبيله بالفتح يوم تكسر الأصنام
لرأيت دين الله أضحى بئناً والشرك يغشى وجهه الإظلام
د - لما دخل رسول الله ﷺ المسجد يوم الفتح - وذلك يوم عشرين من رمضان أتى أبو بكر
بوالده أبي قحافة يقوده، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «هلا تركت الشيخ في بيته حتى أكون أنا
أتيه فيه!!»، قال أبو بكر: يا رسول الله هو أحق أن يمشي إليك من أن تمشي إليه أنت، فأجلسه
النبي ﷺ بين يديه، ثم مسح صدره ثم قال: «أسلم» فأسلم، وقال لأبي بكر: «غيروا هذا من
شعره وجنبوه السواد»، وكان شعر أبي قحافة أبيض، كان رأسه ثغامة^(١).

○ نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرًا نذكرها فيما يلي:

- ١ - بيان عاقبة نكث العهود وأنها وخيمة للغاية، إذ قرش نكثت عهدا فحلت بها الهزيمة وخسرت كيانه الذي كانت تدافع عنه وتحميه.
- ٢ - تجلي النبوة المحمدية في العلم بالمرأة حامله خطاب ابن أبي بلتعة إذ أخبر عنها، وعن المكان الذي انتهت إليه في سيرها، وهو روضة خاخ.
- ٣ - فضيلة إقالة عشرة الكرام، وفضل أهل بدر، تجلي ذلك في العفو عن حاطب بعد عتابه.
- ٤ - مشروعية السفر في رمضان وجواز الفطر والصيام فيه على حد سواء.
- ٥ - مشروعية التعمية على العدو حتى يباغت قبل أن يكون قد جمع قواه، فتسرع إليه الهزيمة وتقل الضحايا والأموال من الجانبين حقًا للدماء البشرية.
- ٦ - بيان الكمال المحمدي في قيادة الجيوش وتحقيق الانتصارات الباهرة.
- ٧ - مشروعية إرهاب العدو بإظهار القوة له، وفي القرآن: ﴿وَمِنْ رِبَاطِ الْعَصَلِ تَهَيَّئْكَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكَ﴾ [الأنفال: ٦٠].
- ٨ - مشروعية إنزال الناس منازلهم، تجلي هذا في إعطاء الرسول ﷺ أبا سفيان كلمات يقولهن، فيكون ذلك فخراً له واعتزازاً، هو من يدخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن دخل داره وأغلق بابها فهو آمن ينادي بها بأعلى صوته.
- ٩ - بيان تواضع الرسول ﷺ لربه شكراً له على آلائه وإنعامه عليه، إذ دخل مكة وهو متطامن حتى إن لحيته لتمسّ رحل ناقته تواضعاً لله وخشوعاً؛ فلم يدخل - وهو الظافر المنتصر - دخول الظلمة الجبارين السفاكي الدماء البطاشين بالأبرياء والضعفاء.
- ١٠ - بيان العفو المحمدي الكبير، إذ عفا عن قرش العدو الألد، ولم يقتل منهم سوى أربعة رجال وامرأتين إذ رفضوا الإسلام.

(١) واحدة الثغام: نبات جبلي أشد ما يكون بياضاً إذا أهل.

- ١١ - بيان الكمال المحمدي في عدله ووفائه، تجلى ذلك في ردّ مفتاح الكعبة لعثمان بن أبي طلحة ولم يغطه من طلبه منه، وهو علي بن أبي طالب صهره الكريم.
 - ١٢ - مشروعية كسر الأصنام والصور والتماثيل وإبعادها من المساجد بيوت الله تعالى.
 - ١٣ - تقرير مبدأ الجوار في الإسلام لقوله ﷺ: «أَجَزْنَا من أجرت وأثْنَا من أمنت يا أم هانئ».
 - ١٤ - وجوب البيعة على الإسلام، وهي الطاعة لله ورسوله وأولي الأمر في المعروف وما يستطاع.
 - ١٥ - آية النبوة تتجلى في علمه ﷺ بما أضمره الرجل من اغتيال الرسول ﷺ وهو يطوف.
 - ١٦ - احترام الرسول ﷺ لأسرة الصديق وتكريمه لها، والإكبار من شأنها إذ هي الأسرة الوحيدة التي أسلم كافة أفرادها: آباء وأمّهات وبنين وبنات.
 - ١٧ - مشروعية صبغ الشعر بغير السواد سواء أكان شعر لحية أم رأس.
- وثاني عشر أحداثها:

غزوة خالد بنى جذيمة

ولما فتح الله تعالى على رسوله مكة، بعث رسول الله ﷺ بعض السرايا حول مكة يدعون الناس إلى الإسلام، ولم يأمرهم بالقتال، وبعث خالد بن الوليد على رأس سرية داعياً ولم يأمره بالقتال، فنزل على الغميصاء «ماء من مياه جذيمة» وكانت جذيمة أصابت في الجاهلية عوف بن عبدعوف أباعبد الرحمن ابن عوف والفاكه بن المغيرة عم خالد بن الوليد، كانا أقبلتا تاجرين من اليمن فأخذت ما معهما وقتلتها. فلما نزل خالد بسريته ذلك الماء أخذ بنو جذيمة السلاح، فقال لهم خالد ضعوا السلاح، فإن الناس قد أسلموا فوضعوا السلاح، فأمر بهم خالد فكتفوا ثم عرضوا على السيف فقتل منهم من قتل.

ولما انتهى الخبر إلى النبي ﷺ رفع يديه إلى السماء وقال: «اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد» ثم أرسل علي بن أبي طالب ومعه مال، وأمره أن ينظر في أمرهم فَوَدَى^(١) لهم الدماء والأموال حتى إنه ليدي ميلغة^(٢) الكلاب، وبقي معه من المال فضلة، فقال لهم: هل بقي لكم مال أو دم لم يود؟ فقالوا: لا، فقال: إني أعطيتكم هذه البقية احتياطاً لرسول الله ﷺ. ففعل، ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره فقال: «أصبحت وأحسن».

واعترض خالد بعد أن دار بينه وبين عبد الرحمن بن عوف كلاماً.. وكان أمر الله قدراً مقدوراً! فقد رأى هذا الحديث رسول الله ﷺ في رؤيا رآها قال: «رأيت كأنني لقمتُ من حيس فتلذذْتُ طعمها، فاعترض في حلقي منها شيء حين ابتلعته، فأدخل علي يده فتزعه»، فقال أبو بكر

(١) دفع لهم ديات أنفسهم، وغرم لهم أموالهم.

(٢) إثناء من خشب تشرب فيه الكلاب.

الصدّيق رضي الله عنه يا رسول الله! هذه سرية من سراياك تبعثها فيأتيك منها بعض ما تحب، ويكون في بعضها اعتراض فتبثت عليا فيسهله.

○ نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرًا نوجزها في الأرقام التالية:

- ١ - وجوب مواصلة الدعوة إلى الإسلام بعد الفتح كما هي قبله.
- ٢ - بيان خطأ خالد في اجتهاده فيما أقدم عليه، ولما كان متأولاً عفا عنه ولم يؤاخذ.
- ٣ - بيان أن رؤيا الأنبياء حق، ومعرفة الصدّيق بتأويل الرؤيا.
- ٤ - بيان فوز علي بقول الرسول ﷺ: «أصبحت وأحسن».

حدثان هامان عقيب الفتح

○ الأول: إسلام عباس بن مرداس:

كان لوالد عباس بن مرداس وثنٌ يعبدّه يسمى صَمَار^(١). فلما حضره مرداس قال لولده عباس: أي بُني أعبدُ صمار، فإنه يتفعلك ويضرك. فبينما عباس يومًا عند صمار إذ سمع من جوف صمار مناديا يقول:

قُلْ لِلْقَبَائِلِ مِنْ سَلِيمٍ كُلِّهَا أَوْدَى^(٢) صَمَار، وعاش أهلُ المسجد
إن الذي ورث النبوة والهدى بعد ابنِ مريم من قريش مُهْتَدِي
أودى صمار وكان يُغَيِّدُ مرة قبل الكتاب إلى النبي محمد
فمزق عباسُ صمار، ولمق بالنبي محمد ﷺ فأسلم وحسن إسلامه.

○ والثاني: هدم خالد للعزى:

وفي الخمس الأواخر من شهر رمضان - والنبي ﷺ بمكة - بعث ﷺ خالد بن الوليد إلى العزى ليهدمها - وهي عبارة عن بيت له سِدَنَةٌ، تعظمه قريش وكنانة ومضر وهو بنتخله: مكان بين مكة والطائف - لما سمع سادن العزى بمقدم خالد إليها ليهدمها علق بها سيفه وقال يخاطبها:

أيا عَزَّ شدي شدة لا شَوَى لها على خالد ألقى القنّاعَ وشُمُري
فلما انتهى إليها خالد جعل السادن يقول: أعزّي بعضَ غضباتك، فخرجت امرأة سوداء حبشية عريانة مولولة، فقتلها خالد وكسر الصنم وهدم البيت الذي كان فيه، ثم رجع إلى النبي ﷺ فأخبره بالذي صنع، فقال ﷺ: «تلك العزى لا تعبدُ أبدًا»

وهدم عمرو بن العاص سواعًا - وكان برهاط لهذيل - فلما كسر عمرو الصنم أسلم سادته، وهدم سعد بن زيد الأشهلي مائة بالمشلل.

(١) صمار على وزن حذام وقطام مبنًى على الكسر

(٢) هلك.

○ وثالث عشر أحداثها :

غزوة هوازن

وانسلخ شهر رمضان بانتهاء فتح مكة المكرمة، وما زال الرسول ﷺ بها، حتى بلغه أن هوازن لما سمعت بفتح مكة، جمعها ملاك بن عوف النصرى من بني نصر بن معاوية بن بكر، وكانوا خائفين من أن يغزوهم رسول الله ﷺ بعد فتح مكة . وقالوا: لا مانع له من غزونا، فمن الرأي أن نغزوه قبل أن يغزونا، واجتمع إليه ثقيف يقودها قارب بن الأسود بن مسعود سيد الأحلاف وذو الخمار سبيط بن الحارث، وأخوه الأحمر بن الحارث سيد بني مالك، ولم يحضرها من قيس عيلان إلا نصر وجشم وسعد بن بكر، وناس من بني هلال، ولم يحضرها كعب ولا كلاب وفي جشم دريد بن الصمة شيخ كُيس ذو رأي .

○ رأي صائب لم يقبل :

فلما أجمع مالك بن عوف المسير إلى حرب رسول الله ﷺ جمع مع الرجال المقاتلين النساء والأطفال والأموال، ولما نزلوا أوطاس قال دريد بن الصمة: بأي وإأتتم؟ قالوا: بأوطاس، قال: يثم مجال الخيل لا حزن ضرر، ولا سهل دهن، ما لي أسمع رغاء البعير، ونهاق الحمير وبعار الشاء، وبكاء الصغير؟ قالوا: ساق مالك مع الناس ذلك، فقال: يا مالك، إن هذا اليوم له ما بعده، ما حملك على ما صنعت؟ قال: سقتهم مع الناس ليقاتل كل إنسان عن حريمه وماله . فقال دريد: راعي ضأن والله، هل يؤد المنهزم شيء؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل سيفه ورمحه، وإن كانت عليك فضحت في أهلك ومالك، ثم قال، ما فعلت كعب وكلات؟ قالوا: لم يشهدا أحداً منهم، قال: غاب الجد والحد، لو كان يوم علاء ورفعة لم تغب عنه كعب ولا كلاب، ووددت لو أنكم فعلتم ما فعلنا، ثم قال: يا مالك، ارفع من معك إلى عليا بلادهم، ثم التئ الصبيان^(١) على متون الخيل فإن كانت لك لحق بك من وراءك، وإن كانت عليك كنت قد أحرزت أهلك ومالك .

فقال مالك: والله لا أفعل ذلك، إنك قد كبرت وكبر علمك، والله لتطعنني يا معشر هوازن، أو لأتكنن على هذا السيف حتى يخرج من ظهري، ولم يقبل رأي دريد . ثم قال مالك: أيها الناس إذا رأيتم القوم فاكسروا جفون سيوفكم، وشدوا عليهم شدة رجل واحد .

○ عيون ترى الملائكة :

وبعث مالك عيوناً له يأتون بالخبر، فرجعوا إليه، وقد تفرقت أوصالهم وذهبت عقولهم فقال: ما شأنكم؟ قالوا: رأينا رجالاً بيضاً على خيل بلق، فوالله ما تماسكتنا أن حل بنا ما ترى، ولم ينه

(١) جمع صابئ: المائل إلى دين غير دين أبياته يريد بذلك المسلمين .

ذلك عن وجهه، ولم يثنه عن عزمه على قتال رسول الله ﷺ والمسلمين. والرجال الذين رأتهم العيون هم الملائكة، إذ قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ جُبُودًا لَّهِ تَرَوُهَا﴾ [التوبة: ٢٦]، أي لم يرها أصحاب رسول الله ﷺ وهم يحضرون المعركة.

○ خروج رسول الله ﷺ إلى هوازن :

ولما بلغ رسول الله ﷺ ما أجمعت عليه هوازن من حربته والتصدي له، إذ كان قد أرسل عبد الله بن أبي حذرد الأسلمي إلى هوازن لينظر ما هم عليه، فذهب عبد الله ودخل بينهم وهم لا يعلمون به، وتعرف إلى كل ما قاموا به وأجمعوا عليه، وأتى النبي ﷺ فأخبره خبرهم. فأجمع الرسول ﷺ المسير إليهم، وبلغه أن صفوان بن أمية عنده أدوع وسلاح - وكان لم يسلم بعد - فاستعار منه مائة درع بما يصلحها من السلاح، واستخلف على مكة عتاب بن أسيد وخرج في اثني عشر ألفاً، ألفان من مسلمة الفتح وعشرة آلاف من الجيش الفاتح، ولما ساروا قال قائل: لن نغلب اليوم من قلة. وفي هذا يقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا﴾ [التوبة: ٢٥].

○ طلب جاهلي مرفوض :

وأثناء مسير الجيش إلى حنين، مروا بشجرة من السدر خضراء كبيرة، فنادى رجال من مسلمة الفتح: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما للمشركين ذات أنواط - وهي شجرة كبيرة يزورونها كل سنة ويقيمون عندها يوماً وليلة ويلقون بها أسلحتهم تبركاً ويذبحون عندها - فلما سمع رسول الله ﷺ طلبهم قال: «الله أكبر، قلتهم والذي نفس محمد بيده كما قال قوم موسى: ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمُ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَبْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٨]، ثم قال: «إنها السُّنَنُ لشركين سَنَّ من كان قبلكم» ورفض طلبهم الجاهلي، ولم يعنفهم لأنهم حديثو عهد بالجاهلية، وساروا حتى استقبلوا وادي حنين فأنحدروا فيه - وهو وادٍ أجوف^(١) حطوط^(٢) - انحدرًا وهم في عماية^(٣) الصبح، وكان المشركون قد سبقوهم إلى الوادي فكمتموا لهم في شعابه وأحنائه^(٤) ومضايقه، وقد أجمعوا وتهيثوا وأعدوا، فما راع المسلمين إلا الكتائب قد شدوا عليهم شدة رجل واحد وانشمر^(٥) الناس راجعين لا يلوي أحد على أحد، وانحاز رسول الله ﷺ ذات اليمين، ثم قال: «أيها الناس هلموا إلى أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله» قالها ثلاثاً، ثم احتملت الإبل بعضها على بعض في معترك عجيب إلا أنه قد بقي مع رسول الله ﷺ نفر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته، ومنهم أبو بكر وعمر وعلي والعباس وابنه الفضل، وأبو سفيان بن الحارث،

(١) منحدر.

(٢) جوانبه.

(٣) متسع.

(٤) ظلالة قبل أن يتبين.

(٥) انفضوا وانهمزوا.

وربيعة بن الحارث، وأيمن بن أم أيمن وأسامة بن زيد .
وكان في مقدمة هوازن رجل على جمل أحمر بيده راية سوداء، إذا أدرك طعن برمحه، وإذا فاته الناس رفع رايته على رمحه لمن وراءه فاتبعوه، فتصدى له علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقتله وأراح الناس منه .
○ شماتة ذوي الضغائن :

ولما رأى مرضى النفوس - ممن ما زالت عداوة الإسلام كامنة في نفوسهم ممن أسلم من أيام قلائل - لما رأوا هزيمة المسلمين لم يتمالكوا حتى قالوا الهُجر، فقال أبو سفيان بن حرب : لن تنتهي هزيمتهم دون البحر، وإن الألام معه في كنانته، وصرخ جبلة بن الحنبل قائلاً: ألا بطل السحر، فقال له صفوان بن أمية - وهو مشرك بعد، إذ ما زال في المدة التي أعطاه الرسول إياها ينظر في أمر نفسه إما أن يسلم أو يهاجر أو يعدم - قال أخيه جبلة : اسكت : فُضَّ الله فاك، فوالله لأن يربني رجل من قريش أحب إلي من أن يربني رجل من هوازن، وقال شببة بن عثمان : اليوم أدرك ثاري من محمد، وكان أبوه قد قتل بأحد مشركا، وفعلأ أراد أن يقتل رسول الله ﷺ فلما أقبل عليه، تغشى فواده شيء فلم يقدر على ما عزم عليه .

ودارت المعركة : وكان العباس مع النبي ﷺ أخذًا بحكمة يغلته «الدلدل»، وهو عليها، وكان العباس جسيما شديد الصوت فقال له النبي ﷺ : «يا عباس اصرخ يا معشر الأنصار، يا أصحاب الشجرة» ففعل فأجابوه : لبيك لبيك حتى إن الرجل يريد لأن يثني بغيره فلا يقدر، فيأخذ سلاحه ثم ينزل عنه، ويؤم^(١) الصوت، فاجتمع على رسول الله ﷺ مائة رجل فاستقبل بهم القوم وقتلهم وهو يقول :

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب
«الآن حمي الوطيس»^(٢)، واقتتل الناس قتالاً شديداً وقال ﷺ لبغلته الدلدل : «ألبدي دلدل» فوضعت بطنها على الأرض، وأخذ حفنة من تراب، فرمى بها في وجه المشركين فكانت الهزيمة، فما رجع الناس ممن فروا بعيداً إلا والأسارى في الجبال عند رسول الله ﷺ، وأنشدت امرأة مسلمة قائلة :

غلبت خيل الله خيل اللات وخيله أحق بالشبات
ولما انهزمت هوازن قتل من ثقيف وبني مالك سبعون رجلاً . فأما الأحلاف من ثقيف فلم يقتل منهم غير رجلين : لأنهم أسرعوا الهرب فنجوا وقصد بعض المشركين الطائف ومعهم مالك رئيس حربهم، واتبعهم خيل رسول الله ﷺ فقتلت بعضهم، وكان بعض المشركين بأوطاس، فأرسل

(١) أي يستقبله .

(٢) هذه الجملة أول من قالها رسول الله ﷺ .

إليهم رسول الله ﷺ أبا عامر الأشعري في رجال، أرسلهم إلى المنهزمين المتوجهين إلى أوطاس فناوشوه بالقتال، فَرَّيَ أبو عامر بسهم فقتل فأخذ الراية أبو موسى الأشعري - وهو ابن عمه - فقاتلهم حتى فتح الله على يديه فهزمهم وظفر المسلمون بالغنائم والسبايا، فساقوا في السَّيِّئِ الشِّيماء بنت الحارث بن عبد العزى، فقالت لهم: والله إنني لأخت صاحبكم من الرضاعة، فلم يصدقوها حتى أتوا بها النبي ﷺ فقالت له: إنني أختك قال: «وما علامة ذلك؟» فقالت: عضة عضفتها في ظهري وأنا متوركتك، فعرفها وبسط لها رداءه وأجلسها عليه وخيرها فقال: «إن أحببت فعندي مكرمة محبة، وإن أحببت أن أمتعك وترجعي إلى قومك» قال: بل تمتعني وتردني إلى قومي، ففعل ﷺ، وأمر ﷺ بالسبايا والأموال فجُمِعت إلى الجعرانة، وجعل عليها بُدِيل بن ورقاء الخزاعي، واستشهد بحنين أيمن بن عبيدة وزيد بن زعدة بن الأسود بن عبد المطلب وغيرهما.

○ أنباء ذات خطر متفرقة :

وحدثت خلال غزوة هوازن أمور ذات بال إلا أنها متفرقة نذكرها هنا إتماماً للفائدة وهي :

○ (أ) أمر أم سليم :

وهو أن النبي ﷺ التفت فرأى أم سليم بنت ملحان - وكانت مع زوجها أبي طلحة - وهي حازمة وسطها ببردها، وإنها لحامل بعبد الله بن أبي طلحة، ومعها جمل أبي طلحة وقد خشيت أن يعزها - أي يغلبها الجمل - فأدنت رأسه منها فادخلت يدها في خزامتها^(١) مع الخطام فقال لها رسول الله ﷺ: «أم سليم؟» قالت: نعم بأبي أنت وأمي يا رسول الله أقتل هؤلاء الذين ينهزمون عنك كما تقتل الذين يقاتلونك؛ فإنهم لذلك أهل. فقال رسول الله ﷺ: «أو يكفي الله يا أم سليم؟» وكان معها خنجر، فقال لها أبو طلحة: ما هذا الخنجر معك يا أم سليم؟ قالت: خنجر أخذته إن دنا مني أحد من المشركين بعجته^(٢) به، قال أبو طلحة: ألا تسمع يا رسول الله ما تقول أم سليم الرَّميصاء؟!

○ (ب) أمر أبي قتادة عجب :

إنه قال: رأيت يوم حنين رجلين يقتتلان مسلماً وكافراً، وإذا رجل مشرك يريد أن يعين صاحبه المشرك على المسلم، فأتيته فضربت يده فقطعتها واعتنقني بيده الأخرى فوالله ما أرسلني حتى وجدت الدم فكاد يقتلني لولا أن الدم نزفه فسقط فضربته وأجهضني عنه القتال - أي شغلني عنه فلم أسلبه - ومر به رجل من أهل مكة فسلبه، فلما وضعت الحرب أوزارها وفرغنا من القوم قال قتلْتُ قتيلاً فأجهضني عنه القتال، فما أدري من استلبه؟ فقال رجل من أهل مكة: صدق يا

(١) حلقة من شعر تجعل في أنف البعير.

(٢) شققت بطنه.

رسول الله، وسَلَبَ ذلك القتيل عندي فأرضيه^(١) عني من سلبه، فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: لا، والله لا يرضيه منه، تعمد إلى أسد من أسد الله يقاتل على دين الله تقاسمه سلبه ١٩ اردد عليه سلب قتيله . فقال رسول الله ﷺ: «صدق اردد عليه» . فقال أبو قتادة: فأخذته منه فبعته، فاشتريت بثمنه مخرقاً^(٢) فإنه لأول مال اعتقدته^(٣) .
○ (ج) وأمر دريد بن الصمة أعجب :

وذلك أن ربيع بن ربيع أدرك دريد بن الصمة - وهو على راحلته - فأخذ بخطام الراحلة يقودها، يظن أن عليها امرأة، فأناخ الراحلة فإذا بالراكب رجل كبير السن أعمى، والربيع بن ربيع لا يعرفه فسأله من أنت ؟ فقال : دريد وماذا تريد مني؟ قال : أقتلك، قال : ومن أنت ؟ قال : أنا ربيع بن ربيع السلمي، ثم ضربه بسيفه فلم يُغن شيئاً، فقال له : بشس ما سلحتك به أمك، خذ سيفي هذا من مؤخر الرحل، ثم اضرب به، وارفع عن العظام، واخفض عن الدماغ، فإني كنت كذلك أضرب الرجال، ثم إذا أتيت أمك فأخبرها أنك قتلت دريد بن الصمة، فرتب والله يوم قد منعت فيه نساءك، فلما رجع وأخبر أمه بقتله إياه قالت : أما والله لقد أعنت أمهات لك ثلاثاً .
○ نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً هي كالآتي :

- ١- تقرير مبدأ حكيم، وهو أن الرأي الصائب السديد من ذي الخبرة والتجربة يقدم على الشجاعة مهما كانت، وحتى عن القوة مهما عظمت .
- ٢- آية النبوة المحمدية تتجلى فيما شاهده عيون المشركين من الملائكة عليهم السلام .
- ٣- مشروعية استعمال العيون «الجواسيس» في الحروب لمعرفة قوة العدو، وما عزم عليه .
- ٤- حرمة الإعجاب بالنفس أو العمل أو القوة؛ إذ ترتب على ذلك هزيمة المؤمنين في أول لقاءهم لعدوهم .
- ٥- وجوب الحذر من التبرك غير الشرعي، فإنه يؤدي إلى الشرك بالله تعالى .
- ٦- بيان الفرق بين من رسخ الإيمان في قلبه، وبين من لم يرسخ، فإن الأخير سرعان ما يظهر جهله وظلمه .
- ٧- مشروعية إكرام الإخوة من الرضاعة .
- ٨- بيان فضل أم سليم امرأة أبي طلحة لمواقفها المشرفة .
- ٩- بيان حصافة رأي دريد بن الصمة وشجاعته الفذة - وهو على جاهليته - فكيف لو آمن وأسلم !! .

(٢) المخرف عدد من النخيل لا يتجاوز العشرة .

(١) بأن يعطيه بعضاً ويبقي بعضاً .

(٣) أي ملكته بعقد شرعي .

○ ورابع عشر أحداثها :

حصار الطائف

إنه بعد الفتح، والنصر على هوازن وثقيف بحنين^(١) وأوطاس، وقد لاذت ثقيف ومن معها بالطائف، حيث تحصنوا به وجمعوا فيه ما يحتاجون إلى أن طال الحصار بهم تبعهم رسول الله ﷺ وأصحابه فحاصروهم بمدينة الطائف الحصينة، واستعمل في فك الحصار دباباً ومنجنيقاً بإشارة سلمان الفارسي، ومع هذا فلم يتيسر فتح الطائف؛ لأن المشركين استعملوا سلك الحديد المحمأة وضربوا بها الدباب، فخرج منها رجالها وتعرضوا لنبل المشركين الذي صبوه عليهم من الحصون كالمطر، فقتل من المسلمين رجالاً، وأمر النبي ﷺ بقطع أعقابهم لعلمهم يفكون الحصار فلم يُجد ذلك فيهم .

وأثناء الحصار، نزل بعض الرقيق من الحصون، فأعتقهم النبي ﷺ منهم أبو بكر بكرة نفع بن الحارث بن كلدة، وكُتبي بأبي بكر بكرة لنزوله من الحصن ببكرة، وطالت مدة الحصار، فاستشار النبي ﷺ بعض رجاله من ذوي الرأي فقال نوفل بن معاوية الدؤلي: يا رسول الله هم كتعلب في جحر إن أقمت عليه أخذته، وإن تركته لم يضر، فأذن بالرحيل بعدما أقام بضعة وعشرين يوماً . ولما كان ﷺ سائراً إلى الطائف وانتهى إلى نجرة الرغاء، أمر بقتل رجل من بني ليث، قصاصاً لأنه قتل رجلاً من هذيل، فكان أول دم أقيد به في الإسلام . ولما رجع الناس قال رجل من المسلمين: يا رسول الله ! ادعُ على ثقيف، فقال: «اللهم اهد ثقيفاً واثب بهم» .

واستشهد من المسلمين بالطائف اثنا عشر رجلاً، سبعة من قريش وخمسة من الأنصار، من بينهم عبد الله بن أبي بكر الصديق، مات بالمدينة متأثراً بجراحاته وذلك بعد وفاة النبي ﷺ .

○ أحداث يحسن ذكرها :

وتخلل حصار الطائف أحداث تُجمل ذكرها فيما يلي :

١- أن النبي ﷺ قال لأبي بكر - وهو محاصر الطائف - : «إني رأيت أني أهديت لي قعبة مملوءة زبداً، فنقرها ديك فهزأ ما فيها» فقال أبو بكر : ما أظن أنك تدرك منهم يومك هذا ما تريد، فقال رسول الله ﷺ : «وأنا لا أرى ذلك» .

٢- لما أسلمت الطائف، طالب أهل العبيد - الذين نزلوا من الحصن على رسول الله ﷺ أيام الحصار فأعتقهم - طالبوا بردهم إلى سيادتهم، أبى ذلك رسول الله ﷺ وقال : «أولئك عتقاء الله» .

٣- لما حاصر النبي ﷺ ثقيفاً ضربت له قبتان إحداهما لزوجته أم سلمة رضي الله عنها والثانية

(١) واد وكذا أوطاس واد أيضاً .

للأخرى، وكان ﷺ يصلي بين القبتين، فلما أسلمت ثقيف بنى على مصلى رسول الله ﷺ عمرو بن أمية ابن وهب مسجدًا، ولعله هو مسجد ابن عباس اليوم .
○ نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة المعطرة نتائج وعبرًا نجلها في الآتي :

- ١- بيان مدى ما كان عليه رسول الله ﷺ من الحزم والعزم في إنفاذ أمر الله تعالى .
 - ٢- مشروعية استشارة ذوي الرأي، وعدم الاستبداد بالرأي مع وجود ذوي الرأي السديد .
 - ٣- مشروعية استعمال أحدث الأسلحة وأجداها في الحرب لإحقاق الحق وإبطال الباطل، بألا تكون فتنة ويُعبد الله وحده لا شريك له .
 - ٤- مشروعية إقامة الحدود في غير دار الإسلام إذا كان هناك أمن وعدم خوف .
 - ٥- استجابة دعوة الرسول ﷺ وهي آية من آيات نبوته، إذ هدى الله ثقيفًا وأتى بهم .
 - ٦- مشروعية قص الرؤيا على العبد الصالح، ومشروعية تأويلها .
 - ٧- بيان فضيلة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وبيان مدى ما كان يُلْقَى من الرسول ﷺ من التقدير والاحترام .
- وخامس عشر أحداثها :

قسمة غنائم حنين

ولما رحل ﷺ من الطائف أتى الجعرانة - حيث إن المال والسبي محبوسان بها - وقبل الشروع في قسمة الغنائم، جاء وفد هوازن يعلن إسلامه، ويطلب سبيه وأمواله، فقالوا: يا رسول الله إنا أصل وعشيرة وقد أصابنا من البلاء ما لا يخفى عليك؛ فامنن علينا من الله عليك، وقام زهير المكنى بأبي صرد^(١) فقال: يا رسول الله إنما في الحظائر عمالك وخالاتك وحواضنك اللاتي كنَّ يَكْفُلُنَّكَ، ولو أننا مَلَحْنَا - أي أَرْضَعْنَا - للحارث بن أبي شمر، أو للنعمان بن المنذر، ثم نزل منا مثل الذي نزلت به، رجونا عطفه وعائدته علينا، وأنت خير المكفولين وأنشد يقول:

امنن علينا رسول الله في كرم فلإنك المرء نرجوه ونُدْخِرُ
امنن على نسوة قد عاقها قدر مُمَزَّقٌ شملها في دهرها غيرُ

وعندئذٍ خيرهم رسول الله ﷺ بين نسايتهم وأبنائهم، وأموالهم فاخترأوا نساءهم وأبنائهم فقال ﷺ: «أما ما كان لي ولبنني عبد المطلب فهو لكم»، ثم قال: «فإذا صليت بالناس فقولوا: إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين، وبالمسلمين إلى رسول الله في أبنائنا ونسائنا فسأعطيكُم وأسال فيكم» .

(١) من بني سعد بن بكر الذين أَرْضَعُوا رسول الله ﷺ .

فلما صلى الظهر بالناس، فعلوا ما أمرهم، فقال رسول الله ﷺ: «ما كان لي لبني عبد المطلب فهو لكم»، وقال المهاجرون والأنصار: وما كان لنا فهو لرسول الله .
وقال الأقرع بن حابس: ما كان لي ولبني تميم فلا، وقال عبيدة بن حصن ما كان لي ولفزارة فلا، وقال عباس بن مرداس: ما كان لي ولسليم فلا، فقال بنو سليم: ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ . فقال عباس: وهتموني!!
فقال رسول الله ﷺ: «من تمسك بحقه من السبي، فله بكل إنسان ست فرائض من أول فيء نصيبه . فردوا على الناس أبناءهم ونساءهم» .
○ وغاب مالك :

وسأل رسول الله ﷺ عن مالك بن عوف قائد الحرب الخاسرة، فقيل: إنه بالطائف فقال: «أخبروه أنه إذا أتاني مسلماً رددت عليه أهله وماله» فأخبروه فجاء سيراً، فأسلم وحسن إسلامه، فأعطاه رسول الله ﷺ أهله وماله، ومائة بعير واستعمله على قومه، وعلى من أسلم من تلك القبائل، وكان له عمل مشكور حيث ضيق على المشركين بالإغارة عليهم حتى أسلموا، وقال شعراً يمدح فيه رسول الله ﷺ هذا نصه :

ما إن رأيت ولا سمعتُ بمثله في الناس كلهم بمثل محمد
أوفي وأعطى للجزيل إذا اجتدي ومتى تشأ بخبرك عماً في غد
وإذا الكتيبة عزدت أنيابها بالسُّهري^(١) وضرب كل مهتد
فكانه ليث على أشباله وسط الهبأة^(٢) خادر^(٣) في مُرصد
○ مطالبة النبي الكريم :

ولما رد النبي ﷺ السبايا، ركب على بعيره فاتبعه الناس يقولون: يا رسول الله! انقسم علينا الفيء حتى اضطروه إلى شجرة من شدة الزحام عليه، فلصق رداؤه بأغصان شجرة، فقال: «ردوا على ردائي أيها الناس، فوالله لو كان لي عدد شجر تهامة نَعَمَ، لقسمته عليكم، ثم لا تجدوني بخيلاً ولا جباناً ولا كذاباً» ثم رفع وبرة من سنام بعير وقال: «ليس لي من فينكم ولا هذه الوبرة إلا الخمس، وهو مردود عليكم» .

ثم أعطى المؤلف قلوبهم - وهم أشراف الناس - يتألفهم على الإسلام، فأعطى أبا سفيان بن حرب ومعاوية ابنه، وأعطى حكيم بن حزام، والعلاء بن جارية الثقفي، والحرث بن هشام وصفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزى، وعبيدة بن حصن، والأقرع بن حابس، ومالك بن عوف التُّضري، أعطى كل واحد منهم مائة بعير، وأعطى دون المائة رجالاً

(١) الرُّمَح.

(٢) الغبار.

(٣) الخادر: الأسد في عرينه.

آخرين، أعطى عباس بن مرداس أباعر، فسخطها، فزاده حتى رضي .
○ من لا يعطى: خير ممن يعطى :

ولما شاهد العطاء رجل قال يا رسول الله أعطيت عيينة والأقرع وتركت جعيل بن سُراقَة فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لجعيل خير من طلّاع^(١) الأرض رجالاً كلهم مثل عيينة والأقرع، ولكني أتألفهم، وولت جعيلاً إلى إسلامه» .
○ موجدة الأنصار :

لما أعطى رسول الله ﷺ، ما أعطى من أموال لقبائل قريش وهوازن وتميم، ولم يُعطِ- الأنصار شيئاً، وجدوا في أنفسهم حتى قال قائل منهم: لَقِيَ رسول الله قَوْمَهُ !! وأخبر سعد بن عبادَةَ رسول الله ﷺ بذلك فقال له: «فأين أنت يا سعد؟ قال: أنا من قومي، قال: «فاجمع قومك لي» فجمعهم، فأتاهم رسول الله ﷺ فقال: «ما حديثٌ بلغني عنكم؟ ألم أتكم ضُلَّالاً فهداكم الله بي؟ وفقرء، فأغناكم الله بي؟ وأعداء فألف الله بين قلوبكم بي؟» قالوا: بلى يا رسول الله، ولله ولرسوله المنُّ والفضلُ . فقال: «ألا تُجيبونني؟» قالوا: بماذا نجيبك؟ فقال: «والله لو شئتم لقلتم فصدقتم: أتيتنا مَكْذِبًا فصدّقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريدًا فأوينّاك وعائلاً فواسينّاك، أو جُدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لَمَاعَةٍ^(٢) من الدنيا، تألفتُ بها قومًا ليسلموا، وولتكم إلى إسلامكم، والذي نفسي بيده، لولا الهجرة لكننتُ امرأةً من الأنصار، ولو سلك الناس شعبًا وسلكت الأنصار شعبًا: لسلكْتُ شعب الأنصار، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار» فَبَكَى القوم حتى أخضلوا^(٣) لحاهم بالدموع، وقالوا: رضينا برسول الله قِسْمًا وحظًا وتفرقوا فعادوا إلى رحالهم .
○ واعتمر الحبيب ﷺ :

وكان شهر ذو القعدة قد دخل، فأحرم رسول الله ﷺ والمسلمون معه من الجعرانة، وأمر ببقايا الفِئَةِ فُسِّقَتْ إلى مجنّة، فحبست بها - وهي بناحية مَرَّ الظهران - ودخل مكة مليّياً بعمره، فطاف وسعى وحلق وتحلل، واستخلف على مكة عتاب بن أسيد وجعل له راتباً هو درهم كل يوم، وخلف معه معاذ ابن جبل يعلم الناس الدين ويفقههم فيه، وخطب عتابُ الناس في مكة، فقال: أيها الناسُ أجاع الله كبدَ مَنْ جاع على درهم، فقد رزقني رسولُ الله ﷺ درهماً كل يوم؛ فليست بي حاجة إلى أحد . وعاد الحبيب بأصحابه من المهاجرين والأنصار إلى المدينة، فوصلها لَيْسَتْ لِيَالٍ بَقِيْنَ مِنْ ذِي الْقَعْدَةِ .

(١) طلّاع الأرض: ما يملؤها حتى يطلع فوقها ويزيد.
(٢) بقلة خضراء شبه بها زهرة الدنيا وتعيمها بجامع المنظر وسرعة الزوال.
(٢) أخضلوا لحاهم أي بلّوها من الدموع.

وبقي أهل الطائف على شركهم إلى شهر رمضان من سنة تسع من هجرة الحبيب ﷺ .
○ نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرًا هي الآتية :

- ١- لحسن القول وطيب الكلام أثرٌ في نفس من قيل فيه كسنة عامة قلما تتخلف .
- ٢- تقرير مبدأ من طالب بمكرمة ، فليكن البادي بها ، فإنه يُعطاهَا .
- ٣- بيان جفاء وغلظة بعض الأعراب ؛ لبعدهم عن الحضارة فلم يترَوّضوا .
- ٤- بيان الكمال المحمدي في خلقه ومروءته ، فهي بذلك مضرب المثل ، وفي القرآن الكريم : ﴿وَأِنَّكَ لَكَلِّمٌ خُلَاقٍ عَظِيمٍ﴾ [الفلم : ٤] .
- ٥- مظاهر الكمال المحمدي في حسن السياسة والتدبير ، الأمر الذي لا يجارى فيه قط .
- ٦- فضل جعيل - رضي الله عنه وأرضاه - وهنيئًا له بما أولاه الله وشرفه به رسول الله .
- ٧- فضيلة الأنصار ، وبيان ما حباهم الله به من حب الحبيب ﷺ ، ودعائه لهم ولأبنائهم وأبناء أبنائهم ، وهم أهل القرون الثلاثة المفضلة أي الصحابة والتابعون وتابعو التابعين ، وتابعوهم إلى ثلاثة قرون .
- ٨- مشروعية الاعتمار في الشهر الحرام ، وبيان أن الجعراة ليست من الحرم .
- ٩- مشروعية كفالة رزق العامل للدولة .
- ١٠- مشروعية تولية الولاة ، وتعيين المعلمين والمفقهين للناس في دينهم .

أهم أحداث سنة ثمان من هجرة الحبيب ﷺ

- من أبرز الأحداث التاريخية في سنة ثمان - غير السرايا والغزوات - ما يلي إزاء النقاط .
- تزوج الرسول ﷺ بفاطمة بنت الضحاك الكلابية ، واستعادت من الرسول ﷺ ففارقها فورًا .
 - ولد إبراهيم ابن النبي ﷺ من جاريته مارية القبطية ، ودفع إلى أم بردة بنت الأنصارية فكانت مرضعته - عليه السلام - .
 - بعث الرسول ﷺ إلى ذات أطلاح من الشام إلى نفر من قضاة ، يدعوهم إلى الإسلام ، ومعه خمسة عشر رجلًا ، فدعاهم إلى الإسلام فلم يجيبوه ، وقتلوا المسلمين إلا أميرهم كعبًا فإنه نجا وعاد إلى المدينة .
 - بعث النبي ﷺ عيينة بن حصن إلى بني العنبر من تميم ، فأغار عليهم وسبوا منهم نساء ، وكان على عائشة رضي الله عنها عثق رقبة من ولد إسماعيل نذرتها نذرًا فقال لها رسول الله ﷺ : «هذا سبي بني العنبر يقدم علينا فتعطيك إنسانًا تُعْتَقِيْنَهُ» فجاءت وأعطاه فاعتقته ، ودل هذا على أن بني تميم من ولد إسماعيل .
 - بعث الرسول ﷺ جرير بن عبد الله البجلي في مائة وخمسين رجلًا إلى ذي الخلصة - وهي

بيت لختعم وبجيلة فيها نُصِبَ بعد، يقال له: الكعبة اليمانية، فأتاها فحرقها بالنار وكسرها، ولما بلغ الخبر النبي ﷺ بارك على خيل أحمرس ورجالها خمس مرات .

ودخلت السنة التاسعة من هجرة الحبيب ﷺ

○ وكان أول أحداثها:

إسلام كعب بن زهير بن أبي سلمى

وإن كعب بن زهير كان شاعراً كآبيه زهير بن أبي سلمى - صاحب المعلّقة - كان كعب قد هجا النبي ﷺ فكتب إليه أخوه بجير - وقد أسلم وحسن إسلامه - كتب إليه يخبره: بأن النبي ﷺ قد أمر بقتل كل من هجوه وأذوه من الشعراء، إلا أنه من جاء مُسْلِماً تائباً يعفو عنه ويسامحه، وعليه فأنصح لك أن تأتي النبي ﷺ بالمدينة وتُسَلِّمَ وتُتَنَجِّسَ، وإلا فأتُجَّ بنفسك حيث تجد مكاناً للنجاة، وأن من بقي من الشعراء في قريش ابن الزبيري، وهبيرة بن أبي وهب، وقد هربوا في كل وجه لكن كعباً لم يأخذ بنصيحة أخيه وقال:

ألا أبلغا عني بُجَيْرًا رسالةً فهل لك فيما قلت ويحك هل لك
فبين لنا إن كنت لست بفاعل على أي شئ غير ذلك دلوكا
على خُلُقِي لم تُلَفْ أُمًّا ولا أباً عليه ولم تدرك عليه أُمًّا لكَا
فإن أنت لم تفعل فلست بآسف ولا قاتل إما عثرت: لَعَا لكَا
سقاك بها المأمون كَأَسَا رويّة فأنهلك المأمون منها وعَلَا

ولما بلغ بُجَيْرًا ما قاله كعب، أخبر به رسول الله ﷺ فغضب ﷺ، وأهدر دمه، فكتب بذلك بجير إلى كعب، وقال: إذا أتاك كتابي هذا فأسلم، وأقبل على رسول الله ﷺ فإنه لا يأخذ مع الإسلام بما كان قبله، فأسلم كعب وجاء حتى أناخ راحلته بباب المسجد - ورسول الله ﷺ مع أصحابه - قال كعب: فعرفته بالصفة، فتخطيت الناس إليه فأسلمتُ وقلت: الأمان يا رسول الله. هذا مقام العائذ بك قال: «من أنت؟» فقلت: كعب بن زهير قال: «الذي يقول» ثم التفت إلى أبي بكر فقال: «كيف قال؟» فأنشده أبو بكر الأبيات التي أولها:

ألا أبلغا عني بُجَيْرًا رسالةً

فقال كعب ما هكذا قلت يا رسول الله: إنما قلت:

سقاك أبو بكر بكأس رويّة فأنهلك المأمون منها وعَلَا

فقال رسول الله ﷺ: «مأمونٌ والله» فتجهمت الأنصار وأغلظت له القول، ولانت له قريش وأحبت إسلامه، فأنشد رسول الله ﷺ قصيدته التي أولها:

بانت سعادٌ فقلبي اليوم متبول ^(١) متيمٌ إثرها لم يُفدَ مكبول ^(٢)

(١) متبول: أسقمه الحب.

(٢) مكبول: مقيد.

فلما أنهى إلى قوله :

وقال كل خليل كنت آمله لا ألهيئك إني عثك مشغول
نبئت أن رسول الله أوعدني والعفو عند رسول الله مأمول
في فثية من قریش قال قائلهم ببطن مكة لما أسلموا زولوا
زالوا فما زال أنكاس^(١) ولا كشف^(٢) عند اللقاء ولا ميل^(٣) معاذيل^(٤)
لا يقع الطعن إلا في نحورهم وما لهم عن حياض الموت تهليل^(٥)
ونظر رسول الله ﷺ إلى قریش فأوما إليهم أن اسمعوا حتى قال :
يمشون مشي الجمال الزهر^(٦) يعصمه ضرب إذا عرّد السود التنابيل^(٧)
يعرّض بالأنصار لغلظتهم التي كانت عليه، فأنكرت قریش قوله، قالوا: لم تمدحنا إذا
هجرتهم، ولم يقبلوا ذلك منه، وعظم على الأنصار هجوه فشكوه، فقال يمدحهم .
من سرّه كرم الحياة فلا يزل في مقب^(٨) من صالحی الأنصار
الباذلين نفوسهم ودماءهم يوم الهياج وسطرة الجبار
يتطهرون كأنه نسك لهم بدماء من قتلوا من الكفار
في أبيات كثيرة، وعندها كساه النبي ﷺ بردة كانت عليه .
ولما كان زمن معاوية، بعث إليه يطلب شراءها منه فأبى، وقال: ما كنت لأوثر بثوب
رسول الله ﷺ أحداً، فلما مات كعب اشتراها معاوية من أولاده بعشرين ألف درهم، وبقيت تلك
البردة زمناً يتوارثها الخلفاء، ولعلها الآن في متحف الآثار بتركيا .

○ نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرًا نجملها كالآتي :

- ١- حب المدح وكرهية الذم فطري في الإنسان، فهو كما قيل :
يهوى الشناء مبرّر ومقصر حب الشناء طبيعة الإنسان
- ٢- ذكاء كعب يتجلى في إسلامه وإتيانه النبي ﷺ ومعرفته بالصفة بدون سؤال عنه، وفي سرعة
بدايته حيث يمدح ويعرّض ويغضب في الجلسة الواحدة .
- ٣- مشروعية مدح الرسول ﷺ وفضيلته إذا خلا من العلو المحرم الذي نهى عنه ﷺ .
- ٤- بيان تنافس الصحابة - ومن بعدهم - في الآثار المحمدية، وحق لهم ذلك حتى إن البردة
اشترت بعشرين ألف درهم .

(٢) جمع أكشف: الذي لا ترس له .

(١) جمع نكس: الرجل الضعيف .

(٤) تهليل بمعنى تأخر .

(٣) جمع أميل الذي لا سيف له .

(٦) جمع تنبال وهو القصير . وعرّد بمعنى فرّ وهرب .

(٥) الزهر: البيض .

(٧) جماعة الخيل .

٥- تجلي الكرم المحمدي في عفوهِ عن كعب وكسوته برَدَّتْهُ بعد إهداره دَمَهُ .
○ وثاني أحداثها :

غزوة تبوك

غزوة تبوك ^(١) تعتبر من أعظم مغايري الحبيب ﷺ، وذلك لصعوبة الظروف الذي وقعت فيه، إذ هو ظرف جديد ومجاعة وشدة حرٍّ، ويُعدُّ مكاناً وشقَّةً، وكثرة عدو وقوة، ولم يكن هناك نفير عام في غزوة غير هذه، ولم يكن الرسول - القائد الأعظم ﷺ - ليحدد اتجاهه في غزوة من الغزوات إلا في هذه .

كل هذا - وغيره - جعل غزوة تبوك من أعظم الغزوات، ويدل على ذلك ويشهد له الآيات العديدة من سورة التوبة كقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الْبُيُوتُ مَسْكُوتًا إِذَا قِيلَ لَهُمُ انْزِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ انْقَلَبُوا إِلَى الْأَرْضِ﴾ [التوبة: ٣٨] في آيات عديدة، وآخر تلك الآيات قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١٢٠] وسمي جيشها بجيش العسرة إذ بلغت العسرة يومها أشدها .

○ أسباب هذه الغزوة :

إن السبب الرئيسي في هذه الغزوة الصعبة، أن النبي ﷺ بلغه أن هرقل ملك الروم، ومن معه من العرب المُتَنَصِّرة من قبائل لخم وجذام، قد أجمعوا المسير إلى الحجاز لحرب محمد ﷺ والمسلمين؛ مبادرة منهم له حتى لا يكون هو الذي يغزوه بعد أن ذاقوا مرارة غزوة مؤتة التي جلبوا لها مائتي ألف مقاتل، ولم يتمكنوا من إبادة ثلاث آلاف مقاتل لا غير، بل ولا حتى هزيمتهم، والحمد لله .

○ التعبئة العامة

وأعلن الحبيب ﷺ لأول مرة عن قصده، فلم يُؤَزَّ ولم يُعَمَّ - كما كان قبل يُؤَزِّي ويعمِّي علم العدو - بل أمر الناس بالجهاز، فأعلمهم أنه يريد غزو الروم وأعلن التعبئة العامة . وتجهز أقوا وتبسطاً آخرون، فأنزل الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الْبُيُوتُ مَسْكُوتًا إِذَا قِيلَ لَهُمُ انْزِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ انْقَلَبُوا إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْهُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [التوبة: ٣٨-٣٩] إلى قوله تعالى: ﴿انْزِلُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٤١] .

(١) تبوك: اسم عين يُقال لها: تبوك.

○ جمع المال لخوض المعركة :

ولما كان المال ضرورياً للتجهيز الكامل من رجال وسلاح وكراع، أمر الحبيب القائد الأعظم ﷺ بجمع الأموال، وتسايق الصالحون في هذا الميدان فأنفق أبو بكر الصديق كل ما يملك، وأنفق عمر بن الخطاب نصف ما يملك، وأنفق عثمان نفقة قال فيها رسول الله ﷺ : «اللهم ارض عن عثمان؛ فإنني عنه راض» إنه جهز جيش العسرة وحده - أو كاد - إذ أنفق ألف دينار وألف بعير . وحمل رجال من أهل اليسار والغنى واحتسبوا أجرهم على الله تعالى .
○ اعتذار كاذب :

وجه النبي ﷺ الدعوة - رسمياً - إلى الجد بن قيس - لضلوعه في النفاق - فقال : «يا جدّ، هل لك في جلاء بني الأصفر؟» . فقال : يا رسول الله ! أو تأذن لي ولا تفتني فوالله لقد عرف قومي أنه ما من رجل أشدّ عجباً بالنساء مني، وإنني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر ألا أصبر . فأعرض عنه النبي ﷺ وقال : «قد أذنت لك» وفيه نزل قوله تعالى من سورة التوبة : ﴿وَيَنْهَئُهُم مِّنْ يَّكُونُوا أَقْدَنَ لِّي وَلَا تَغِيْبُ آلَا فِي الْيَتْسُو سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٤٩] فقوله تعالى : ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٤٩] تلويح بكفرهم، وذلك لرغبتهم بأنفسهم عن نفس رسول الله ﷺ .

○ اعتذار مردود :

وجاء نفر من غفار - وهم أعراب في البادية حول المدينة - يعتذرون عن التخلّف، فلم يعذرهم رسول الله ﷺ ولم يأذن لهم في التخلّف . وقعد كبار المنافقين عن الاعتذار، وعن الخروج مع رسول الله ﷺ والمؤمنين، وفي هؤلاء وأولئك نزل قوله تعالى : ﴿وَجَاءَ الْمَعْرُوفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ يَذُدُّنَ كُمُ وَقَدْ آذَنَ إِلَهُكُمْ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٩٠] .
○ تخلف من غير شك :

وقد تخلف أناس عن الخروج إلى تبوك - لا رغبة بأنفسهم عن نفس رسول الله ﷺ - ولكن غلبتهم نفوسهم؛ لصعوبة الظروف، لا سيما وقد آن الرطب وظلال الأشجار في آخر الصيف . فاعتذروا بعد عودة الرسول ﷺ، وقبل عذرهم وتاب الله عليهم . وأرجأ توبة ثلاثة منهم امتحاناً لهم؛ لأنهم من كبار الصحابة وخيرتهم هم : كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية، حتى ذاقوا مرارة المقاطعة التي أعلنها رسول الله ﷺ، فمحصوا حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وضائق عليهم أنفسهم، وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه، ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم .
○ البكاءون :

إنهم سبعة رجال من أهل الإيمان الصادق والإسلام الحسن، كانوا أهل حاجة وفقير، فلم

يجدوا زادا ولا راحلة، وعز عليهم التخلف، فأتوا رسول الله ﷺ يبيكون وقالوا: احملنا يا رسول الله، فكيف نتخلف؟! فلم يجد رسول الله ﷺ ما يحملهم عليه، فرجعوا إلى بيوتهم يبيكون، فكانت أعينهم تفيض من الدمع حزنا، وفيهم نزل قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُخْسِرِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴿التوبة: ٩١-٩٢﴾ .

○ مسيرة الحبيب ﷺ :

واستخلف رسول الله ﷺ على المدينة سبع بن عُرْفُطَة، وعلى أهله علي بن أبي طالب، وأرجف المنافقون، وقالوا: ما خلف عليًا إلا استنقلا له، فسمع ذلك علي فليق برسول الله ﷺ حاملا سلاحه، وأخبره بما قال المنافقون، فقال: «كذبوا وإنما خلفتك لما ورائي فارجم فاخلفني في أهلي وأهلك، أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟ إلا أنه لا نبي بعدي» فرجع علي، وسار رسول الله ﷺ في طريقه إلا جلاذ بني الأصفر.

○ المشبطلون :

وقبل مسير الحبيب ﷺ بلغه أن جماعة من المنافقين يجلسون في بيت أحدهم - وهو سويلم اليهودي - يشبطلون الناس عن الخروج مع رسول الله ﷺ، ويقولون: لا تنفروا في الحر؛ تزهيدا في الجهاد، وتشكيكا في الحق، وإرجافا برسول الله ﷺ فأنزل فيهم قوله: ﴿وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ (التوبة: ٨١) وأمر الرسول ﷺ طلحة بن عبيد الله في نفر من أصحابه أن يحرق عليهم بيت سويلم ففعل طلحة، فاقتحم الضحاك بن خليفة من ظهر البيت فانكسرت رجله، واقتحم أصحابه فأفلتوا، وفي هذا يقول الضحاك :

كادت - وبيت الله - نار محمد يشيط بها الضحاك وابن أبيرق
وطلت. وقد طبقت كبس^(١) سويلم أنوء على رجلي كسيرا ومرفقي
سلام عليكم لا أعود لمثلها أخاف ومن تشمل به النار يحرق .

○ أبو خيثمة يفوز :

وتأخر عن المسيرة أبو خيثمة، وكان له زوجتان وجاءهما يوما فوجد كل واحدة منهما قد رشت بالماء عريشها وبردت الماء له، وصنعت الطعام، فلما رأى ذلك أبو خيثمة قال على الفور: أياكون رسول الله ﷺ في الحر والريح، وأبو خيثمة في الظل والماء البارد مقيما ما هذا بالثَّغَف - أي بالإنصاف - والله ما أحل عريشا منهما حتى ألحق برسول الله ﷺ فهيا زاده وخرج إلى ناضحه «جمله» فركبه، وجرى وراء رسول الله ﷺ فأدركه في تبوك، ورآه الناس من بعيد، فقالوا: يا

(١) الكبس: البيت الصغير، وطبقت بمعنى علوت.

رسول الله راکبٌ مقبلٌ، فقال رسول الله ﷺ: «كن أبا خيثمة» فقالوا: هو والله أبو خيثمة، وأتى رسول الله ﷺ وأخبره بخبره، فدعا له ففاض بدعوة الحبيب ﷺ وقال أبو خيثمة في قصته هذه شعراً هذا نصه:

ولما رأيت الناس في الدين نافقوا أتيت التي كانت أعفً وأكرما
وباعثُ باليمن يدي لمحمد فلم أكتسبُ إثماً ولم أغش مخزماً
تركْتُ خصيماً في العرش وحرمة^(١) صفايا^(٢) كراما بُسرُها قد تحمَّما^(٣)
وكنْتُ إذا شك المنافق أسَمَحْتُ^(٤) إلى الدين نفسي شطره حيث يَمَّا
○ من أعلام النبوة:

ولما مر النبي ﷺ بالجَنَر - وهي ديار ثمود وهو في طريقه إلى تبرك - نزل بها واستقى الناس من بئرها، فلما زاحوا قال رسول الله ﷺ: «لا تشربوا من مائها شيئاً ولا تتوضئوا منه للصلاة، وما كان من عجين عجنتموه فاعلفوه الإبل، ولا تأكلوا منه شيئاً، ولا يخرجن أحدٌ منكم الليل إلا ومعه صاحب له» ففعل الناس ما أمرهم به رسول الله ﷺ إلا أنَّ رجلين من بني ساعدة خرج أحدهما لحاجته مخالفاً أمر رسول الله ﷺ بعدم الخروج وحده، فخنق في طريقه، وخرج الآخر في طلب بعير له مخالفاً أمر رسول الله ﷺ فاحتلمته الريح حتى طرحته في جبال طيئ، فأخبر بذلك رسول الله ﷺ فقال: «الم أنهلكم أن يخرج منك أحد إلا ومعه صاحبه» ثم دعا للذي أصيب بخنق الجن فشفاه، وأما الآخر - الذي وقع في جبال طيئ - فإن طيئاً أهدته لرسول الله ﷺ بعد عودته للمدينة . فكانت هذه آية من آيات النبوة المحمدية .

وأخرى فقد كان رجل من المنافقين - معروفاً بالنفاق - يسير مع رسول الله ﷺ حيث سار، ولما مرَّ رسول الله ﷺ بديار ثمود، غطى وجهه بثوبه واستحث السَّير، وقال لأصحابه: «لا تدخلوا بيوت الذين ظلموا إلا وأنتم باكون؛ خوفاً أن يصيبكم مثل ما أصابهم» .

وأصبح الناس ولا ماء معهم فشكوا ذلك لرسول الله ﷺ فدعاه ربه، فأرسل الله سبحانه فأمطرت حتى ارتوى الناس، وأخذوا حاجتهم من الماء: فكانت آية من آيات النبوة، وقيل لذلك المنافق: ويحك! هل بعد هذا شيء؟ أي من الشك في نبوة محمد ﷺ فقال: سحابة مارة!

وثالثة: ونزل الرسول ﷺ والمؤمنون منزلاً، فضلت راحلة النبي ﷺ فخرج أصحابه يطلبونها، وعند رسول الله ﷺ رجل من أصحابه يقال: عمارة بن حزم وكان عقيبياً^(٥) بدرئياً، وكان في رحله زيد بن اللُصيت القينقاعي، - وكان منافقاً - فقال وهو في رحل عمارة، وعمارة عند رسول الله ﷺ: أليس محمد يزعم أنه نبي ويُخبركم عن خبر السماء وهو لا يدري أين ناقتة؟

(١) جماعه النخل .

(٢) جمع صفي، كثير الحمل .

(٣) اسودَّ

(٤) انقادت .

(٥) أي من أهل بيعة العقبة .

فقال النبي ﷺ وعمارة عنده: «إن رجلاً - يعني ابن اللصيت المنافق - قال هذا محمد يخبركم أنه نبي ويزعم أنه يخبركم بأمر السماء وهو لا يدري أين ناقتة؟ وإني والله ما أعلم إلا ما علمني الله، وقد دلني الله عليها، وهي في هذا الوادي في شَيْبٍ كذا وكذا؛ قد حستها شجرة يزمامها فانطلقوا حتى تأتوني بها» فذهبوا فجاءوا بها، فكانت آية من آيات النبوة المحمدية.

ورجع عمارة من عند رسول الله ﷺ إلى رحله فقال: والله لمحب من شيء حدثنا رسول الله ﷺ أنفاً عن مقالة قاتل أخبره الله عنه بكذا وكذا - للذي قال زيد بن اللصيت - فقال رجل ممن كان في رحل عمارة ولم يحضر رسول الله ﷺ: قال زيد - والله - هذه المقالة قبل أن تأتي، فأقبل عمارة على زيد يجار عنقه - أي يطعن بيده في عنقه - ويقول: إليّ عباد الله - إن في رحلي لداهية، وما أشعر!! اخرج أي عدو الله من رحلي، فلا تصحبني.

ورابعة: ويمضي رسول الله ﷺ في مسيره إلى تبوك، ويتخلف عنه الرجل فيخبر بذلك فيقول: «دعوه، فإن يك فيه خير، فسيلحقه الله تعالى بكم، وإن يك غير ذلك، فقد أراحكم الله منه» وتلوم أبو ذر على بعيده - أي تمهل وتمكث - فلما أبطا عليه أخذ متاعه فحمله على ظهره، ونزل رسول الله ﷺ في بعض منازلهم، فنظر ناظر من المسلمين فقال: يا رسول الله! إن رجلاً يحشي على الطريق وحده، فقال رسول الله ﷺ: «كن»^(١) «أبا ذر» فلما تأمله القوم قالوا: يا رسول الله إنه هو والله أبو ذر، فقال رسول الله ﷺ: «رحم الله أبا ذر يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده».

وتمضي الأيام والأعوام، وينفي أبو ذر إلى الريدة، ويحضره الموت هناك وليس معه إلا امرأته وغلّامه، وقيل موته أوصاها إذا مات أن يغسله ويكفّنه ويضعه على الطريق، وأول ركب يمر عليكم فقولوا: هذا أبو ذر صاحب رسول الله ﷺ فأعينونا على دفنه، وفعلوا فعلاً به ذلك، وجاء عبد الله بن مسعود في رهط من أهل العراق عُمار، فلم يُرْغهم إلا والجنّاة على قارعة الطريق كادت الإبل تطوّها، وقام إليهم الغلام، فقال: هذا أبو ذر صاحب رسول الله ﷺ فأعينونا على دفنه، فاستهل عبد الله بن مسعود بيكي، ويقول: صدق رسول الله ﷺ: تمشي وحدك، وتموت وحدك، وتبعث وحدك، ثم نزل هو وأصحابه فواروه التراب، فكانت آية من آيات النبوة المحمدية.

وخامسة: بواد المُشَقَّق في طريق تبوك ماء يخرج من وَشَلٍ^(٢) قدر ما يُزوى الراكب والراكبين والثلاثة، فقال رسول الله ﷺ: «من سبقنا إلى ذلك الوادي فلا يستقي منه شيئاً حتى نأتيه» إلا أن منافقين سبقوا إليه، فاستنقوا ما فيه، فلما أتاه رسول الله ﷺ، وقف عليه فلم ير فيه شيئاً من الماء

(١) كن: كذا لفظ الأمر، ومعناه الدعاء، أي اسألوا أن يكون أبا ذر.

(٢) الوشل صخرة في جبل أو واد يقطر منها الماء قليلاً قليلاً.

قال: «من سبقنا إليه؟» قيل له: يا رسول الله فلان وفلان، فقال: «أولم أنهبهم أن يستقوا منه شيئاً حتى آتاهم فلعنهم ﷺ ودعا عليهم، ثم نزل فوضع يده تحت الوشل، فجعل يصب في يده ما شاء أن يصب، ثم نضح به ومسحه بيده، ودعا ﷺ بما شاء الله أن يدعو به، فأنخرق من الماء - كما يقول من سمعه - ما إذا له حسن كحسن الصواعق، فشرب الناس، واستقوا حاجتهم منه، فكانت هذه آية من آيات النبوة المحمدية .

○ المقام المبارك :

وانتهى مسير الحبيب ﷺ بنزوله بتبوك، وأقام بها بضعة عشرة ليلة إلى عشرين وكان يقصر الصلاة، ويجمع الظهر مع العصر، والمغرب مع العشاء؛ تخفيفاً على أصحابه، وحتى لا يوقعهم في حرج أو مشقة، ولم يتم الصلاة خلال هذه المدة؛ لأنه لم تحدد مدة إقامته وإنما ينتظر الأمر من ربه تعالى، إذا أمره بالإقامة أقام وإذا أمره بالمسير سار. وقد استشار أصحابه في التقدم إلى الشام والمسير إلى بلاد الروم، فقال له عمر: إذا كنت أمرت بالمسير فسّر، فقال ﷺ: «لو أمرت ما استشرتكم فيه» فقال عمر: يا رسول الله! إن للروم جمعاً كثيرة وليس بها أحد من أهل الإسلام، وقد دنوت منهم وأفزعتهم دونك، لو رجعت هذه السنة حتى ترى أو يحدث الله لك في ذلك أمراً، فأنصرف رسول الله ﷺ عائداً إلى المدينة، ولم يلقَ كيلاً فقد نصره الله بالرعب مسيرة شهر فلم يخرج إليه الروم، ولم يقربوا من ساحته، خوفاً وفزعاً منه ﷺ بعد أن عزموا على حربه وغزوه في عقر داره .

○ خطبة نبوية جامعة :

ولما أصبح رسول الله ﷺ بتبوك، خطب خطبة عظيمة جامعة، هذا نصّها :
حمد الله تعالى، وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: «أما بعد، فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأوثق الغرى كلمة^(١) التقوى، وخير الملل ملة^(٢) إبراهيم وخير السنن سنة محمد ﷺ وأشرف الحديث ذكر الله، وأحسن القصص القرآن، وخير الأمور عَوَازُهَا^(٣)، وشر الأمور محدثاتها، وأحسن الهدى هدى الأنبياء، وأشرف الموت قتل الشهداء، وأعمى العمى الضلالة بعد الهدى، وخير الأعمال ما نفع، وخير الهدى ما اتبع، وشرّ العمى عمى القلب، واليد العليا^(٤) خير من اليد السفلى، وما قلّ وكفى خير مما كثر وألهى، وشرّ المعذرة حين يحضر الموت، وشرّ الندامة يوم القيامة، ومن الناس من لا يأتي الجمعة لا دبراً، ومنهم من لا يذكر الله إلا هجراً، ومن أعظم

(١) هي لا إله إلا الله محمد رسول الله.

(٢) هي أن يعبد الله وحده بما شرع، ولا يشرك في عبادته أحداً.

(٣) أي الفرائض لخديث «ما تقرب إلى عبدي بشيء أحب إلى مما افترضت عليه»

(٤) أي صاحب اليد العليا وهو المتصدق خير من صاحب اليد السفلى وهو المتصدق عليه.

الخطايا اللسان الكذب، وخير الغنى غنى النفس، وخير الزاد التقوى، ورأس الحكمة مخافة الله، وخير ما وَقَرَ في القلب اليقين، والارتياح: من الكفر، والنيابة: من عمل الجاهلية، والغلول: من حر جهنم، والشكر كَيَّ من النار، والشعر من إبليس، والخمر جماع الإثم، وشر المال مال اليتيم، والسعيد من عُظَّ بغيره، والشقي من شقي في بطن أمه، وإنما يصير أحدكم إلى موضع أربعة أذرع، والأمر إلى آخره، وملاك العمل خواتمه، وشر الروايا روايا الكذب، وكل ما هو آت قريب، وسبابة المسلم فسوق، وقتاله كفر، وأكل لحمه^(١) من معصية الله، وحرمة ماله كحرمة دمه، وَمَنْ يَتَأَلَّ على الله يكذبه، ومن يَغْفِرُ يغفر له، ومن يعفُ الله عنه، ومن يكظم الغيظ يأجره الله، ومن يصبر على الرزية يعوضه الله، ومن يبتغِ السمعة يُسَمِّعَ الله به، ومن يتصبر يغفر الله له، ومن يعص الله يعذب. ثم استغفر ثلاثاً .

○ إيجابيات نبوية :

وأثناء إقامته ﷺ بتبوك، اتخذ خطوات إيجابية عظيمة وموفقة، ولله الحمد وهي :

(أ) إتيانه ببحثه بن رؤية صاحب أهلة ومصالحته على جزية، مقدارها ثلثمائة دينار، وكتب له بذلك كتاباً هذا نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم

«هذه أمانة من الله ومحمد النبي رسول الله ليبحثه بن رؤية، وأهل أهلة، سفنهم وسياراتهم في البر والبحر: لهم ذمة الله وذمة محمد النبي، ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن، وأهل البحر فمن أحدث منهم حدثاً فإنه لا يجوز ماله دون نفسه، وإنه طيب لمن أخذه من الناس، وإنه لا يحل أن يمتعوا ماء يردونه، ولا طريقاً يريدونه من يز أو بحر» .

(ب) أتاه أهل جزباء وأذرح - وهما بلدان بالشام بينهما مسيرة ثلاثة أيام - فأعطوه الجزية، وكتب لهم بذلك كتاباً هذا نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم

«هذا كتاب محمد النبي لأهل أذرح وجرباء، إنهم آمنون بأمان الله وأمان محمد النبي، وإن عليهم مائة دينار في كل رجب وافية طيبة، والله كفيل بالنصح والإحسان للمسلمين» .

(ج) بعث ﷺ خالد بن الوليد في أربعمائة وعشرين رجلاً إلى أكيدر بن عبد الملك الكندي، وكان ملكاً في دومة الجندل التي هي حصن وقرى من قربات وادي القرى، وحصنها يقال له: مارد، وهو حصن أكيدر الخاص به، وقال خالد لرسول الله ﷺ: كيف لي به في وسط بلاد كلب وأنمار وأنا في أناس قليل؟ فقال رسول الله ﷺ «ستلقاه يصيد الوحش - أو قال البقر - فتأخذه»

(١) أي بالعينة .

فخرج خالد ومن معه فلما بلغوا قريباً من حصنه، وكانت ليلة مقمرة صائفة، وأكيدر على سطح له في الحصن ومعه امرأته، فبات البقر يحك بقرونه باب الحصن، وأشرفت امرأته على باب الحصن فقالت: ما رأيت كالي ليلة، فمن يترك هذه الليلة؟ قال: لا أحد، فنزل فأمر بفرسه فأسرج له، وركب معه نفر من أهل بيته، ومعه أخوه حسان، فخرجوا من حصنهم بمطاردهم، فلما خرجوا تلقى خيل رسول الله ﷺ فاستأسر أكيدر، وامتنع حسان، فقاتل فقتل، وهرب من كان معه ودخلوا الحصن، وكان على أكيدر قباه مخوص بالذهب، فاستلبه خالد منه، وبعث به إلى رسول الله ﷺ قبل قدومه به عليه، قال أنس: رأيت قباه أكيدر حين قدم به على رسول الله ﷺ فجعل المسلمون يلمسونه ويعجبون منه، فقال رسول الله ﷺ: «أتمجبون من هذا؟ لمناديل سعد بن معاذ في الجنة خير من هذا».

ثم إن خالدًا قدم بأكيدر إلى رسول الله ﷺ بالمدينة فحقن دمه، وصالحه على الجزية، فرجع إلى قريته وبقي بها، وكان نصرانيًا فلم يسلم، وقتل كافرًا حيث حاصره خالد على عهد أبي بكر الصديق لتفضيه العهد، فهلك كافرًا مشركًا.

○ حدث هام :

لا شك أن أحداثًا كثيرة وقعت في ذهاب الحبيب ﷺ إلى تبوك وفي مجيئه منها، وقد ذكرنا طرفًا منها للملظة والاعتبار، وهذا حدث هام وقع في طريق العودة: إنها مؤامرة دنية قام بها أدنياء سفلة منافقون، إنهم اثنا عشر منافقًا من شر المنافقين، تواطئوا على قتل رسول الله ﷺ، وذلك بأن يضايقوه في عقبة في الطريق حتى يسقط عن راحلته فيهلك، وفعلوا لما وصل إلى العقبة - وكان حذيفة بن اليمان أخذًا بخطام ناقتهم ﷺ؛ وعمار بن ياسر يسوقها - وإذا بأثنى عشر راكبًا قد اعترضوا ناقة رسول الله ﷺ؛ قال حذيفة رضي الله عنه فأنبهت رسول الله ﷺ، فصرخ فيهم، فلما مدبرين، وفيهم نزل قول الله تعالى من سورة التوبة: ﴿وَقَوْمًا يَمُوتُ يَمُوتُ يَمُوتُ﴾ [التوبة: ٧٤] ودعا عليهم رسول الله ﷺ فأصابتهُم الدُّبيلة^(١) وهي خُراج يخرج في الظهر، فيظهر على القلب فيهلك صاحبه ولا ينجو أبدًا.

○ يا ليتني كنت صاحب الحفرة:

إن صاحب هذه الأمانة، هو عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وصاحب الحفرة هو عبد الله ذو البجادين، ذلك المؤمن الذي كان يتازع في إيمانه، ويأبى عليه قومه الإسلام حتى اضطروه إلى أن يهاجر ويترك أهله وقومه في بجاد - وهو ثوب غليظ كالكساء - ولما وصل المدينة وقارب أن يرى رسول الله ﷺ قسم بجاده قسمين فاتزر بنصفه وارتنى بنصفه الآخر فقبل له: ذو البجادين، قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قمت من جوف الليل، وأنا مع رسول الله ﷺ في غزوة

(١) ويرى الدبلة، والدبلة اليوم خاتم العرس، ولذا يكره استعماله؛ للاسم ولأنه من عادات النصارى.

تبوك، فرأيت شعلة من نار ناحية المعسكر، فاتبعتها فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر، وإذا عبد الله ذو البجادين المزنّي قد مات، وإذ هم قد حفروا له، ورسولُ الله ﷺ في حفرتِه، وأبو بكر وعمر يُدليّانه إليه، وهو يقول: «أذنبا إليّ أخاكما» فدلياهُ إليه، فلما هياهُ لشقّه قال: «اللهم إني أُمسيتُ راضياً عنه فأرضْ عنه». قال عبد الله بن مسعود فقلت: يا ليتني كنت صاحب الحفرة!!

○ مسجد الضرار:

مسجد الضرار . عبارة عن وُكُورِ مؤامرات أُقيمَ لمناوأة رسول الله ﷺ والمسلمين بالمدينة بناء اثنا عشر رجلاً من كبار المنافقين، ولما فرغوا منه، أتوا النبي ﷺ وهو يتجهز لغزوة تبوك، وطلبوا إليه أن يأتيهم ويصليَ لهم فيه ليأخذ الصبغة الشرعية - وإنهم لكاذبون - إلا أن الرسول ﷺ اعتذر لهم بقوله: «إني على جناح سفر، وحال شغل» أو كما قال: «ولو قدمنا إن شاء الله لأتيناكم فصلينا لكم فيه».

ولما غزا رسول الله ﷺ تبوك وعاد ووصل إلى ذي أوان ونزل بها - وهي على ساعة من المدينة - أتاه خبر المسجد، إذ نزل فيه قرآن وهو قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَافًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِصْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ (التوبة: ١٠٧) . فدعا ﷺ اثنين من أصحابه هما: مالك بن الدُخشم أخو بني سالم بن عوف، ومعن بن عدي أخو بني العجلان . فقال: «انطلقا إلى هذا المسجد، الظالم أهله، فاهدماه وحرقاه» . ففعلّا أتياه فهدماه وحرقاه، وتفرق أهله عنه وتركوه للنار تلتهمه .

○ عود مبارك واستقبال حافل:

ولما دنا رسول الله ﷺ من المدينة عائداً من تبوك، خرج أهل المدينة لاستقباله، والجواري ينشدن:

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكرُ علينا ما دعا لله داع
هنا قال رسول الله ﷺ: «إن بالمدينة رجالاً، ما يبرئتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم؛ حبسهم العذر» قالوا: يا رسول الله وهم بالمدينة قال: «نعم، وهم بالمدينة» .

○ الرهط المتخلف:

ولما دخل رسول الله ﷺ المدينة - وذلك في رمضان - وأعلام النصر عالية خفاقة وسُرُّ المؤمنون والمؤمنات بعودة الحبيب سالماً منتصراً ظافراً، أتى المسجد فصلى ركعتين . وجاء المخلفون من المنافقين يحلفون ويعتذرون طالبين الصفح والعفو فعفا عنهم، وصفح، لكن الله عز وجل لم يعذرهم، وكذا رسوله ﷺ إذ لا عذر لهم ولم يقعد بهم إلا نفاقهم وسوء ظنهم، وفيهم نزل قول الله تعالى من سورة التوبة: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ

لَكُمْ ﴿التوبة: ٩٤﴾ [أي لن نصدقكم] يَخْلِفُونَ لَكُمْ لِرَضَا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرَضَوْا عَنْهُمْ فَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْكَافِينَ ﴿التوبة: ٩٦﴾.

وهذا، وهناك ثلاثة من صالحى المؤمنين تخلفوا عن المسير مع رسول الله ﷺ - لا شكاً ولا نفاقاً - ولكن كسلاً وتسويفاً، وهم: كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية رضي الله عنهم، أعلن الرسول الحبيب ﷺ مقاطعتهم وهجرانهم حتى ينزل الله حكمه فيهم بتعذيبه، أو بالتوبة عليهم، وفيهم نزل قوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجْتُ مُزَيْنًا لَأَنَّ اللَّهَ إِنَّمَا يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ وَإِنَّمَا يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٦].

ودامت مقاطعتهم وهجر الناس لهم مدة خمسين يوماً، ثم تاب الله عليهم، وأنزل في توبتهم قوله: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى الَّذِينَ وَاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْأَضْحَارِ الَّذِينَ أَجْمَعُوا فِي سَاعَةِ الْبَيْتِ مِنْ بَيْتِ مَا كَادَ يَنْفَعُ قُلُوبَ قَوْمٍ يَنْفَعُهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُمْ يَخِفُّونَ رُءُوفَ رَبِّهِمْ ﴿١١٧﴾ وَلَقَدْ أَتَيْنَا الْبَيْتَ خَلِفًا حَتَّى إِذَا صَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَصَافَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ لَيْلٍ إِلَّا إِلَى اللَّهِ تَابَ عَلَيْهِمْ يَسْتُوِيُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٧-١١٨].

○ نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نجمها في الآتي :

- ١- مشروعية إعلان التعبئة العامة والنفير التام، ولا يحل يومئذ لأحد التخلف إلا أن يكون من أهل الأعذار، أو يتخلف بإذن الإمام الخاص .
- ٢- مشروعية افتتاح كتابات عامة لجمع المال للجهاد في سبيل الله تعالى .
- ٣- قد يقصر المجتهد، ويتأخر المتقدم كما قيل : لكل جواد كبوة، ولكن سيف نبوة .
- ٤- بيان رفع الحرج عن ذوي الأعذار، كالعمى والعرج والمرض والعجز المالي .
- ٥- من آيات الإيمان ومظاهره لدى المؤمنين : البكاء الصادق عن العجز عن السير .
- ٦- بيان أن المشيطين عن الجهاد والمرجعين بين صفوف المؤمنين لم يكونوا مؤمنين .
- ٧- بيان فضيلة أبي خيثمة، وأبي ذر، وذو البجادين، وعبد الله بن مسعود - رضي الله عنهم أجمعين

- ٨- بيان خمس آيات للنبوة المحمدية وأعلام لها .
- ٩- حرمة الضحك وعدم البكاء - أو التباكي - عند المرور بديار المعذبين .
- ١٠- مشروعية قصر الصلاة في السفر، وجواز الجمع فيه .
- ١١- مشروعية عقد الإمام الصلح مع المشركين إذا دعت الضرورة إلى ذلك .
- ١٢- بيان بطولة خالد بن الوليد وشدة بأسه في الحرب .
- ١٣- بيان فضيلة علي وأبي بكر وعمر - رضي الله عنهم أجمعين - .

○ وثالث أحداثها :

غزوة طيئ وإسلام عدي

وبعث رسول الله ﷺ عليًا في مائة وخمسين رجلًا، من بينهم خمسون فارسًا، بعث بهم إلى ديار طيئ، حيث يوجد بها صنم يقال له : (الفلس) وكان معهم راية سوداء ولواء أبيض انتهوا إلى طيئ شنوا الغارة على ملحة آل حاتم الطائي، فتمكنوا من هدم الصنم، ومن أخذ سبي وشاء ونعم، وكان من بين السبي فاطمة أخت عدي بن حاتم الطائي . أما عدي أخوها، فقد فرَّ إلى الشام بمجرد أن سمع ببعث السرية إلى دياره، وكان على الصنم سيفان يقال لأحدهما : مخذم، وللآخر : رسوب، فأخذهما علي رضي الله عنه كما وجد في خزانة عدي ثلاثة أسياف وثلاثة أدرع، واستعمل علي السبي أبا قتادة، وعلى الأموال عبد الله بن عتيك، وقسم الغنائم في الطريق، وعزل الصفي لرسول الله ﷺ، ووصل ببنت حاتم إلى رسول الله ﷺ بالمدينة النبوية، وكان من أمرها ما حدث به أخوها عدي، فلنستمع إليه :

قال عدي - وهو يقص قصة إسلامه - : جاء خيل رسول الله ﷺ - يعني سرية علي - فأخذوا أختي وناسًا، فأتوا بهم رسول الله ﷺ، فقالت أختي : يا رسول الله ! هلك الوالد، وغاب الوافد؛ فامتن عليَّ منَّ الله عليك! فقال : «ومن وافدك؟» قالت : عدي بن حاتم، قال : «الذي فرَّ من الله ورسوله» فَمَرَّ عليها، وإلى جانبها رجل قائم - وهو علي بن أبي طالب - قال : سلبه حملاتنا، فسألته، فأمر لها به وكساها وأعطاه نفقة، قال عدي : وكنت ملك طيئ أخذ منهم المرباع^(١)، وأنا نصراني، فلما قدمت خيل رسول الله ﷺ هربت إلى الشام من الإسلام، وقلت : أكون عند أهل ديني، فبينما أنا بالشام، إذ جاءت أختي وأخذت تلومني على تركها وهربي بأهلي دونها، ثم قالت لي : أرى أن نلتحق بمحمد سريعًا فإن كان نبيًا كان للسابق فضله، وإن كان ملكًا كنت في عزٍّ وأنت أنت، قال عدي بن حاتم : فقدمتُ على رسول الله ﷺ، فسلمت عليه وعرفته نفسي، فانطلق بي إلى بيته، فلقيته امرأة ضعيفة فاستوقفتني، فوقف لها طويلًا فكلمته في حاجتها، فقلت : ما هذا بملك، فقال لي : «يا عدي، إنك تأخذ المرباع وهو لا يحل في دينك، ولعلك إنما يمنعك من الإسلام ما ترى من حاجتنا وكثرة عدونا، والله ليفيضُ المالَ فيهم حتى لا يوجد من يأخذه، والله لتسمعن بالمرأة تسير من القادسية على بعيرها حتى تزور هذا البيت لا تخاف إلا الله، والله لتسمعن بالقصور البيض من بابل وقد فتحت» قال : فأسلمت، فقد رأيت القصور البيض وقد فتحت، ورأيت المرأة تخرج إلى البيت لا تخاف إلا الله، والله لتكونن الثالثة، أي ليفيضُ المال حتى لا يقبله أحد .

(١) المرباع: ربع الغنمة الذي كان يأخذه الرئيس في الجاهلية.

قال عدي بن حاتم: ودخلت عليه ﷺ وهو يقرأ هذه الآية من سورة التوبة: ﴿اتَّخَذُوا أَحِبَّائَهُمْ زُرْعَتَهُمْ أَرْبَابًا مِمَّنْ دُونِ اللَّهِ﴾ (التوبة: ٣١). فقلت: إنهم لم يعبدوهم قال: «بلى، إنهم حرّموا عليهم الحلال وأحلّوا لهم الحرام فاتبعوهم في ذلك، فتلك عبادتهم إياهم».

○ نتائج وعبر:

- إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرًا تذكّر إزاء الأرقام الآتية:
- ١- مشروعية هدم الأصنام وغزو أهلها ليدخلوا في الإسلام ليكملوا ويسعدوا.
 - ٢- بيان جهل المشركين وضلالهم في تعليقهم السلاح على أصنامهم لتدفع به عن نفسها.
 - ٣- بيان الكرم المحمدي، وتقرير مبدأ «أكرموا عزيز قوم ذل».
 - ٤- آية النبوة المحمدية المتجلية في تحقيق ما أخبر به من الغيب.
 - ٥- بيان أن طاعة العلماء والحكام في تحریم ما أحل الله وتحليل ما حرم، هي عبادة لهم إن كان ذلك بغير إكراه.
- ورابع أحداثها:

قدوم عروة بن مسعود الثقفي على رسول الله ﷺ

عروة بن مسعود من عظماء رجالات ثقيف، وهو الذي عناء المشركون في مكة بقولهم: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (الزخرف: ٣١)، الذي حكاه القرآن عنهم في سورة الزخرف.

والرجل الثاني هلك بيد، وهو أبو جهل الذي يكنونه بأبي الحكم ويسمونه عمرو بن هشام.

وقد عروة بن مسعود على رسول الله ﷺ في هذه السنة سنة تسع، وقد مسلّمًا وذلك بعد أن رأى قريشًا قد دخلت في الإسلام بعد فتح وهزيمة هوازن ثقيف، وكان رجلاً عاقلاً فهداه الله إلى الإسلام، فلما أتى النبي ﷺ وأسلم، قال للنبي ﷺ: «إنهم قاتلوك» فقال عروة: «إني أحب إليهم من أبكارهم، ورجا أن يوافقوه - لمنزلته فيهم - فلما رجع إلى الطائف ديار قومهم، صعد إلى عليّة له وأشرف منها عليهم، وأظهر الإسلام ودعاهم إليه فرموه بالنبل فأصابه سهم فقتله، وقبل وفاته قيل له: ما ترى في دمك؟ قال: كرامة أكرمني الله بها، وشهادة ساقها إلى، ليس في إلا ما في الشهداء الذين قتلوا في سبيل الله مع رسول الله ﷺ؛ فادفونوني معهم، فلما مات متأثراً بجراحاته دفنوه معهم رضى الله عنه.

ولما بلغ الخبر النبي ﷺ قال فيه: «إن مثله في قومه كمثّل صاحب «يس» في قومه، إذ دعاهم إلى خير فقتلوه».

○ نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرًا نذكرها كالآتي:

- ١ - بيان عَلم من أعلام النبوة المحمدية في إخباره عروة بأن قومه قاتلوه، فكان كما أخبر .
 - ٢ - بيان فضل الدعوة إلى الله تعالى وما تتطلبه من أذى، وما يلزم صاحبها من الصبر والتحمل .
 - ٣ - بيان فضل عروة بن مسعود رضى الله عنه إذ ألحقه الرسول ﷺ بصاحب يس وهو حبيب بن النجار - عليه السلام - .
- وخامس أحداثها:

قدوم وفد ثقيف

وبعد قدوم الحبيب ﷺ وفي رمضان، قدم وفد ثقيف على رسول الله ﷺ، وقد سبق أن النبي ﷺ لما كان محاصرًا لهم قيل له: ادع الله عليهم يا رسول الله، فقال: «اللهم اهد ثقيفًا وأت بهم» هذا سبب لقدومهم، وآخر: هو أنهم رأوا أن من يحيط بهم من العرب قد نصبوا لهم القتال وشنوا عليهم الغارات، وكان أشدهم في ذلك مالك بن عوف النضري، فلا يخرج منهم مال إلا نهب ولا إنسان إلا أخذ، فلما رأوا عجزهم اجتمعوا وأرسلوا عبدياليل بن عمر بن عمير والحكم بن عمرو بن وهب وشرحبيل بن غيلان، - وهؤلاء من الأحلاف - وأرسلوا من بني مالك عثمان بن أبي العاص وأوس بن عوف وثمير بن خرشة، فخرجوا حتى قدموا على رسول الله ﷺ فأنزلهم في قبة في المسجد، فكان خالد بن سعيد بن العاص يمشي بينهم وبين رسول الله ﷺ، وكان رسول الله ﷺ يرسل إليهم ما يأكلون مع خالد، وكانوا لا يأكلون طعامًا حتى يأكل خالد منه حتى أسلموا.

○ شروط مرفوضة:

- واشترط رجال وفد ثقيف لإسلامهم شروطًا هي كالتالي
- ١ - ألا يهدم النبي ﷺ طاغيتهم - وهي اللات - إلا بعد ثلاث سنوات، فأبى عليهم ذلك ﷺ، وكان قصدهم من هذا الشرط حتى يسلموا إذا هي تركت من سخط سفهائهم ونسائهم، وتنازلوا إلى شهر واحد، فلم يقبل منهم ولو ساعة من نهار.
 - ٢ - أن يعفيهم من الصلاة ككل فأبى وقال: «لا خير في دين لا صلاة فيه»، فقالوا: نصلي ولكن لا نُجتي - أي لا نركع - بل نخر من القيام إلى السجود فقال ﷺ: «لا خير في صلاة لا ركوع فيها» أو كما قال ﷺ.
- ولما أسلموا أمر عليهم عثمان بن عمرو بن أبي العاص وكان أصغرهم سنًا لما رأى من حرصه على الإسلام والتفقه في الدين، ثم رجعوا إلى بلادهم، وأرسل ﷺ معهم المغيرة بن شعبة وأباسفيان بن حرب لهدم الطاغية، فتقدم المغيرة فهدهما، وقام قومه من بني متعب دونه؛ خوفًا أن يرمى بسهم كما رمي عروة ابن مسعود من قبل، ولما أخذ في هدمها خرج نساء ثقيف

حُسْرًا^(١) يبكين، وأخذ حليها.

○ قضاء ديون من مال الطاغية:

كان للطاغية مال كثير مُودع فيها، فلما هدمها المغيرة وأبوسفیان بأمر رسول الله ﷺ وأخذوا مالها، اتصل برسول الله ﷺ أبو مُلَيْح بن عروة بن مسعود وطلب منه أن يقضي دينًا كان على والده عروة من مال الطاغية، فأجابه الرسول ﷺ لذلك، وعندها قال قارب بن الأسود: وعن الأسود يا رسول الله فاقضو - وعروة والأسود أخوان شقيقان - فقال رسول الله ﷺ: «إن الأسود مات مشركًا» فقال قارب: يا رسول الله لكن تصل مسلمًا ذا قرابة - يعني نفسه - إنما الدين علي، وأنا مُطالِب به، فأمر رسول الله ﷺ أباسفيان أن يقضي دين عروة والأسود معًا من مال الطاغية، ففعل.

○ عهد لابن أبي العاص:

لما أسلم وفد الطائف وأمر عليهم عثمان بن أبي العاص لصفات كمال فيه، كتب لهم بذلك كتابًا. ومن جملة ما ورد فيه قوله ﷺ: «يا عثمان تجاوز في الصلاة واقدر الناس بأضعفهم؛ فإن فيهم الكبير والصغير وذا الحاجة».

○ نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرًا نوجزها كالآتي:

- ١ - بيان آية نبوية، وهي استجابة دعوته ﷺ في ثقيف؛ إذ هداهم الله وأتى بهم.
- ٢ - بيان احترام النبي ﷺ للوفود وإكرامهم قبل أن يتبين إصرارهم على شركهم وكفرهم.
- ٣ - مشروعية إبطال كل شرط يتنافى مع مراد الله تعالى وشرعه بين خلقه، وهكذا كل شرط يحل حرامًا أو يحرم حلالًا، فهو شرط باطل في أي عقد أو اتفاقية.
- ٤ - بيان أعظم أركان الدين بعد التوحيد وهو الصلاة، وأعظم أركانها الركوع والسجود.
- ٥ - بيان ضعف النساء العقلي، وبيان مدى تعلقهن بالشرك وأسبابه لجهلهن وضعفهن.
- ٦ - مشروعية قضاء الديون من بيت مال المسلمين إذا رأى الإمام ذلك.

○ وسادس أحداثها:

قدوم الوفود على الحبيب ﷺ

إن الوفود التي بدأت في هذه السنة التاسعة تتوافد على رسول الله ﷺ في دار نبوته المدينة الطيبة الطاهرة تعلن عن ولائها لله ورسوله وعن رضاها بالإسلام ودخولها فيه: وفود كثيرة، ذكر منها كل مؤرخ للإسلام طرقًا مما تهيأ له ولم يأت عليها أحدٌ كلُّها؛ وذلك لكثرتها.

(١) أي حاسرات الرؤوس ليس عليهن غطاء.

والسبب الظاهر لهذا الحدث الكبير - الذي هو كثرة الوفود في هذه السنة بالذات - هو دخول قريش زعيمة العرب في الإسلام، ففتح مكة ثم الطائف وغزو الروم في تبوك لم يبق لأحد التنكير في غلبة صاحب الرسالة والانتصار عليه بحال من الأحوال.

فلهذا أخذت وفود القبائل العربية تتوافد من اليمن والشمال والشرق والغرب، وقد أخبر تعالى بهذا في قوله: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّكَ تَوَّابٌ ﴿٣﴾﴾ [النصر: ١-٣].

فقوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ﴾ [النصر: ١] هو الانتصارات التي تحققت لرسول الله ﷺ في بدر وحمرات الأسد والأحزاب والحديبية وخيبر وغيرها، والفتح هو فتح مكة والطائف، والطائف - وإن لم تفتح عنوة - فقد جاء وفد لها وسلم زمام قيادتها للقائد الأعظم الحبيب محمد ﷺ فهو فتح وأي فتح؟

وقوله تعالى: ﴿يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ [النصر: ٢]، يعني الوفود في هذه السنة.

وها هي ذي أهم الوفود، مع ذكر بعض مميزاتها وأحداثها:

١ - وفد بني أسد وكانوا أقوياء أشداء، يسكنون شمال شرق الحجاز، وعدد رجال هذا الوفد عشرة، وقالوا لما وفدوا على رسول الله: أتيناك قبل أن ترسل إلينا رسولاً، يمتنون بهذا على رسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمُ بَلَى اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْتُكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْ صِدْقِي﴾ [الحجرات: ١٧].

وسألوا رسول الله ﷺ عن العيافة^(١)، والكهانة، وضرب الحصى، فنهاهم عن ذلك.

٢ - وفد بلقي: وقد نزلوا على أحد البَلَوِيِّين بالمدينة، وهو زُوَيْفَع بن ثابت البلوي، فلما رآهم قال: الحمد لله الذي هداكم إلى الإسلام، فكل من مات على غير الإسلام فهو في النار.

وقبل أن يودعوا رسول الله ﷺ قال له أبو الضَّبْيَب شيخ الوفد: يا رسول الله! إني رجل في رغبة من الضيافة، فهل لي في ذلك أجر؟ قال: «نعم، وكل معروف صنعتته إلى غني أو فقير فهو صدقة» وقال الرجل: يا رسول الله ﷺ كم وقت الضيافة؟ قال: «ثلاثة أيام، ما كان بعد ذلك فصدقة ولا يحل للضيف أن يقيم عندك حتى يعرجك».

ثم ودعوا رسول الله ﷺ بعد أن أجازهم^(٢).

٣ - وفد تميم: وقد كان عدد أفرادهم يزيد على عشرة الأنفار وكلهم من أشراف بني تميم، وعلى رأسهم عطار بن حاجب بن زرارة بن عُدَس التميمي، ومن بينهم الأقرع بن حابس والحجاب والزُّبَيْرَان بن بدر بن يزيد أحد بن دارم بن مالك، وعيينة بن حصن، وقد كان عيينة والأقرع

(١) العيافة: زجر الطير والتفاؤل بأسمائها وأصواتها ومزجها.

(٢) أي: أعطاهم جوائز من مال أو متاع إكراماً لهم.

شهدا مع النبي ﷺ فتح مكة وحنينا والطائف .

○ جفاء هذا الوفد وسوء أدبه :

ودخلوا المسجد النبوي ونادوا رسول الله ﷺ من وراء حجراته : بلفظ الجفاء وسوء الأدب قائلين : يا محمد يا محمد، اخرج إلينا؛ فأذوا بذلك رسول الله ﷺ بصياحهم ورفع أصواتهم، فخرج إليهم فقالوا: يا محمد جئناك نفاخر بك؛ فأذن لشاعرنا وخطيبنا، قال رسول الله ﷺ: «قد أذننت لخطيبكم فليقل» فقام رئيس الوفد عطاردة بن حاجب فقال: الحمد لله الذي له علينا الفضل والمن وهو أهلنا، الذي جعلنا ملوكًا وهب لنا أموالًا عظيمة، نفعل فيها المعروف، وجعلنا أعز أهل المشرق، وأكثره عددًا، وأيسره عُدَّةً، فمن مثلنا في الناس؟ ألسنا رءوس الناس وأولى فضلهم؟ فمن فاخرنا فليعد ما عدنا، وإنا لو نشاء لأكثرنا الكلام ولكننا نحيا من الإكثار فيما أعطانا، وإنا نُعرف بذلك، أقول هذا لأن تأتوا بمثل قولنا، وأمر أفضل من أمرنا، ثم جلس؛ ثم قال رسول الله ﷺ لثابت بن قيس: «أجب الرجل» فقام ثابت فقال:

الحمد لله الذي له ما في السموات والأرض خلقه، قضى فيهن أُمرة، ووسع كرسيه علمه، ولم يك شيء قط إلا من فضله، ثم كان من قدرته أن جعلنا ملوكًا واصطفى من خير خلقه رسولاً، أكرمهم نسباً وأصدقهم حديثاً، وأفضلهم حسباً، فأنزل عليه كتابه وأتمنه على خلقه؛ فكان خيرة الله تعالى من العالمين، ثم دعا الناس إلى الإيمان، فأمن به المهاجرون من قومه وذوي رحمته، أكرم الناس نسباً وأحسن الناس وجوهاً، وخير الناس فعلاً، ثم كان أول الخلق استجابة له حين دعاه نحن، فنحن أنصار الله ووزراء رسوله، نقاتل الناس حتى يؤمنوا، فمن آمن بالله ورسوله منعه ماله ودمه، ومن كفر جاهلنا في الله أبداً وكان قتله علينا يسيراً . والسلام عليكم .

ثم قالوا: يا رسول الله! ائذن لشاعرنا، فأذن له فقام - وهو الزبير بن بدر - فقال:

نحن الكرام فلا حي يعادلنا منا الملوك وفينا تنصب البيع^(١) في ثمانية أبيات .

وكان حسان بن ثابت غائباً فدعاه الرسول ﷺ ليحيب شاعرهم فحضر وأجاب قائلاً:

إن الذوائب من فُهر وإخوتهم قد بينوا سُنناً للناس تتبّع قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم أو حالوا النفع في أشياعهم نفعوا في ثلاثة عشر بيتاً .

ومما لا شك فيه أن فرقاً كبيراً بين خطيب المشركين وشاعرهم، وبين خطيب المسلمين وشاعرهم؛ إذ شتان ما بين من في قلبه ظلمة الشرك والكفر، ومن في قلبه نور الإيمان وحكمة الإسلام والإحسان، لذا لما فرغ حسان قال الأقرع بن حابس: إن هذا الرجل لمؤتى^(٢) له؛

(١) البيع: جمع بعة مواضع الصلاة . (٢) أي لموفق .

خطيبهم أخطب من خطيبنا، وشاعرهم أشعر من شاعرنا، ثم أسلموا وفيهم نزل قول الله تعالى من سورة الحجرات: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ مُبَادِلُكُمْ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (الحجرات: ٤-٥).

٤ - وقدم وفد عبد القيس : وهي قبيلة كبيرة ينسبون إلى عبد القيس بن أفضى بن دغيم بن جديلة ابن أسد بن ربيعة بن نزار . وفدوا على رسول الله ﷺ فقال لهم : «من القوم؟» قالوا : من ربيعة ، قال : «مرحبًا بالوفد غير خزايا ولا ندامى» ؛ فقالوا : يا رسول الله ! إن بيننا وبينك هذا الحي من كفار مُضَرٍ ، وإننا لا نصل إليك إلا في الشهر الحرام ، فمُرنا بأمرٍ نُصَلُّ ، نأخذ به ومن وراءنا ، وتدخل به الجنة ، فقال : «أمركم بأربعٍ وأنهاركم عن أربعٍ ، أمركم بالإيمان بالله وحده ، أتدرون ما الإيمان بالله؟ : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ﷺ ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وأن تعطوا من المغنم الخمس ، وأنهاركم عن أربع : الدُّبَاءُ والحَنْتُمُ^(١) والنفير والمزقت : فاحفظوه ادعوا إليهن من وراءكم» ثم قال رسول الله ﷺ لأشجع عبد القيس : «إن فيك غصلتين يجبهما الله : الحلم والأناة» .

٥ - وقدم وفد بني حنيفة : ومن بينهم مسيلمة الكذاب على رسول الله ﷺ إلا أن مسيلمة خلفوه في رحالهم ، فلم يشرف بمقابلة رسول الله ﷺ إلا أنهم أسلموا وأمر لهم بجواز، وذكره له ، فأمر له بمثل ما أمر لهم ، ثم انصرفوا وأعطوا مسيلمة الذي أعطاه رسول الله ﷺ . فلما قدم اليمامة ارتد عدوًا لله ، وأدعى النبوة وتنبأ كذبًا ، وأخذ يسجع ويقول - مضاهيا بقوله القرآن : لقد أنعم الله على الجبلى ، أخرج منها نسمة تسعى ، من بين شغاف وحشا . ووضع عنهم الصلاة ، وأباح لهم الخمر والزنا إلى آخر هرائه القفین . وبعث إليه رسول الله ﷺ بكتاب جاء فيه : «بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله ﷺ إلى مسيلمة الكذاب . سلام على من اتبع الهدى . أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين» ردًا على كتابه الذي بعث به إلى رسول الله ﷺ ونصه : من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله أما بعد فإني قد أشركتكم في الأمر ، وليس قريش قومًا يعدلون .

٦ - وقدم وفد رسل ملوك جُنَير : وهم الحارث بن عبدكُلال ، ونعيم بن عبدكُلال ، والنعمان قَبِيلَ ذِي رُغَيْنَ ، ومعافر وهمدان يبلغونه إسلام أقوامهم ، وكان رسولهم إليه ﷺ هو مالك بن مرة الراهوي ، بعث به زرة ذو يزن إليه ﷺ فكتب إليهم كتابًا هذا نصه :

«بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله النبي إلى الحارث بن كُلال وإلى نعيم بن عبدكُلال وإلى الثُعمان قَبِيلَ ذِي رُغَيْنَ ، ومعافر وهمدان . أما بعد ذلكم ، فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو . أما بعد فإنه قد وقع بنا رسولكم منقلبًا من أرض الروم فلقينا بالمدينة فبلغ ما

(١) الحنتم : كل أسود أو أخضر .

أرسلتم به، وخير ما قلتم، وأنبأنا بإسلامكم وقتلكم المشركين، وأن الله قد هداكم بهداه إن أصلحتهم أطعمتم الله ورسوله وأقيمتم الصلاة وآتيتهم الزكاة وأعطيتهم من الغنائم خمس الله وسهم نبيه وصفيه، وما كتب على المؤمنين من الصدقة». وبين لهم صدقة الزرع والإبل والبقر والغنم. ثم قال: «فمن زاد فهو خير له، ومن أدى ذلك وأشهد على إسلامه وظاهر المؤمنين على المشركين، فإنه من المؤمنين له ما لهم، وعليه ما عليهم، ومن كان على يهوديته أو نصرانيته فإنه لا يرد عنها، وعليه الجزية على كل حال مذكراً كان أو أنثى، حرّاً أو عبداً دينار واف من قيمة المعافر^(١) أو عوضه ثياباً فمن أدى ذلك إلى رسول الله فإن له ذمّة الله وذمّة رسوله، ومن منعه فإنه عدو لله ورسوله».

٧ - وقدم وفد بنهراء: من اليمن الجنوبي، وكان مكوناً من ثلاثة عشر رجلاً، ونزلوا على المقداد بن عمرو، وأقاموا بالمدينة أياماً تعلموا فيها الفرائض، وواجبات الإسلام ثم ودّعوا رسول الله ﷺ، وأمر لهم كثيرهم بجوائز فأخذوها وانصرفوا إلى ديارهم.

٨ - وقدم وفد غزرة: وكانوا اثني عشر رجلاً منهم حمزة بن النعمان، ولما شرفوا بالمشول بين يدي رسول الله ﷺ سألهم قائلاً: «من القوم؟» فقال مُتَكَلِّمُهُمْ: ممن لا تنكر نحن بنو عذرة إخوة قصي لأمه، نحن الذين عَصَدُوا قُصَيًّا وَأَزَاحُوا مِنْ بَطْنِ مَكَّةِ خِزَاعَةَ وَبَنِي بَكْرٍ، وَلَنَا قَرَابَاتٌ وَأَرْحَامٌ، فقال رسول الله ﷺ: «مرحباً بكم وأهلاً، ما أعرفني بكم» فأسلموا وبشروهم رسول الله ﷺ بفتح الشام وهرب هرقل إلى ممتنع من بلاده. ونهاهم عن سؤال الكهنة، وعن الذبائح التي كانوا يذبحونها، وأخبرهم أن ليس عليهم إلا الأضحية، ثم أجازهم رسول الله ﷺ وانصرفوا إلى بلادهم.

٩ - وقدم وفد ذي مرة: وكان مكوناً من ثلاثة عشر رجلاً، ورئيس الوفد الحارث بن عوف، فسألهم رسول الله ﷺ قائلاً: «كيف البلاد؟» قالوا والله إننا لمستنون^(٢) فادع الله تعالى لنا، فقال الحبيب ﷺ: «اللهم اسقهم الغيث»، ثم أقاموا أياماً، وأجيزوا بجوائز رسول الله ﷺ، ثم عادوا إلى بلادهم فوجدوها قد أمطرت في ذلك اليوم الذي دعا لهم فيه رسول الله ﷺ.

١٠ - وقدم وفد سعد بن بكر: وكان رئيسهم ضمام بن ثعلبة، فتقدم فسأل رسول الله ﷺ أسئلة انتظمت قواعد الدين وكثيراً من الواجبات والمحرمات فأسلم، ولما قفل راجعاً إلى قومه - ليبلغهم دعوة الله تعالى - قال رسول الله ﷺ: «لئن صدق ذو العقيصتين^(٣) دخل الجنة»، فلما قدم على قومه اجتمعوا إليه فكان أول ما تكلم به قوله: بشت اللات والعزى، فقالوا محذرين له: اتق البرص والجذام والجنون أي أن تصيبك من أجل ذمك للات والعزى - وهما إلهان عندهم -

(١) المعافر: ثياب من ثياب اليمن.

(٢) غديرين من الشعر لأنه كان أشعر أي كثير الشعر.

(٣) أصابتهم سنة الجذب والقحط.

فقال ضمام: ويحكم إنهما لا يضران ولا ينفعان، وإن الله قد بعث محمدًا رسولاً، وأنزل عليه كتاباً، وقد استنقذكم به مما كنتم فيه، وأظهر لهم إسلامه، فما أمسى في ذلك اليوم رجل مشرك، ولا امرأة مشركة، فما سُمع بوفاد قوم كان أبوك ولا أفضل من ضمام بن ثعلبة.

١١ - وقدم وفد الأزدي: قال سُويد بن الحارث الأزدي: وفدتُ سابع سبعة من قومي على رسول الله ﷺ، فلما دخلنا عليه وكلمناه، فأعجب ما رأى من سُنَّتينا وزينا قال: «ما أنتم؟» قلنا: مؤمنون، فتبسّم رسول الله ﷺ وقال: «إن لكل قول حقيقة فما حقيقة قولكم وإيمانكم؟» قلنا: خمس عشرة خصلة؛ خمس منها أمرتُنا بها رسلك أن تؤمن بها، وخمس أمرتُنا أن نعمل بها، خمس تخلقتُنا بها في الجاهلية، فنحن عليها إلا أن تكره منها شيئاً، فقال رسول الله ﷺ: «ما الخمسة التي أمرتكم بها رسلي أن تؤمنوا بها؟» قلنا: أمرتُنا أن تؤمن بالله وملأته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت. قال: «وما الخمسة التي أمرتكم أن تعملوا بها؟» قلنا: أمرتُنا أن نقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله، ونقيم الصلاة، ونؤتي الزكاة، ونصوم رمضان، ونحج البيت من استطاع إليه سبيلاً، فقال: «وما الخمسة التي تخلقتُم بها في الجاهلية؟» قالوا: الشكر عند الرخاء، والصبر عند البلاء، والرضا بمُرّ القضاء، والصدق في مواطن اللقاء، وترك الشمانية بالأعداء، فقال رسول الله ﷺ: «حكمااء علماء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء» ثم قال: «وأنا أزيدكم خمساً فيتم لكم عشرون خصلة: إن كنتم كما تقولون، فلا تجمعوا ما لا تأكلون، ولا تبنيوا ما لا تسكنون، ولا تنافسوا في شيء أنتم عنه غداً تزولون، واتقوا الذي إليه ترجعون، وعليه تعرضون، وارغبوا فيما عليه تقدمون وفيه تخلصون»، وانصرف القوم من عند رسول الله ﷺ وحفظوا وصيته وعملوا بها.

٢١ - وقدم وفد طيئ: وقدم على رسول الله ﷺ وفد طيئ وعلى رأسهم زيد الخيل، فلما انتهوا إلى رسول الله ﷺ كلموه، وعرض عليهم الإسلام فأسلموا وحسن إسلامهم، وقال رسول الله ﷺ: «ما دُكر لي رجل من العرب يفضّل ثم جاءني إلا رأيتُه دون ما يقال فيه إلا زيد الخيل، فإنه لم يبلغ كل ما كان فيه»، ثم سمّاه زيد الخير، وقطع له قيداً^(١) وأرضين معه، وكتب له بذلك كتاباً فخرج من عند رسول الله ﷺ راجعاً إلى قومه فقال رسول الله ﷺ: «إن ينجُ زيد من حمى المدينة»، فإنه قال^(٢). . . قال وقد سماها رسول الله ﷺ غير الحمى وغير أم خَلْدَم، فلم يشبته. فلما انتهى من بلد نجد إلى ماء من مياهه يقال له: فردة، أصابته الحمى بها فمات، ولما عمدت امرأته إلى ما كان معه من كتبه التي قَطَعَ له رسولُ الله ﷺ فحرقتها بالنار.

(١) اسم مكان شرقيّ سلمى أحد جيلي طيء.

(٢) أي: لم يكتب الراوي لعدم معرفة اللفظ، ولعله أم كُلبَة.

○ عبر ونتائج:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرًا نجملها في الآتي:

وفد بني أسد: حرمة العيافة، والكهانة وضرب الحصى.

وفد بلي: من مات على غير دين الإسلام فهو في النار.

فضل الضيافة وأنها ثلاثة أيام، وكل معروف صدقة.

وفد تميم: الإسلام يعلو ولا يعلى عليه.

وفد عبد القيس: الإيمان اعتقاد وقول وعمل، وفضل الحلم والأناة.

وفد بني حنيفة: بيان ردة مسيلمة الكذاب، وادعائه الكاذب في النبوة.

وفد رسل ملوك جُمُير: بيان أصول الدين، وحكم الجزية، وممن تؤخذ وبيان مقدارها.

مشروعية قول: مرحبًا وأهلاً.

وفد عذرة: بيان آية النبوة المحمدية، إذ أخبره بغيب فكان كما أخبر ﷺ. ليس على المسلم ذبائح تذبح إلا الأضحية.

وفد ذي مرة: فيه بيان آية النبوة، إذ دعا لهم رسول الله ﷺ بالغيث، فسقوا في نفس اليوم.

وفد سعد بن بكر: فيه بيان كرامة ضمام وفضله إذ أسلمت قبيلته كلها بدعوته.

وفد الأزد: فيه بيان أن لكل قول حقيقة، وبيان عشرين خصلة، هي جماع الخير كله.

وفد طئ: فضل زيد الخيل وفوزه برضا رسول الله ﷺ عنه وتعديل اسمه بزيد الخير.

○ وسابع أحداثها:

حج أبي بكر الصديق بالناس

وفي أواخر شهر ذي القعدة من هذه السنة سنة تسع خرج أبو بكر الصديق بإذن رسول الله ﷺ أميرًا على الحج، ومعه عشرون بدنة لرسول الله ﷺ وله هو خمسون بدنة، وكان في ثلثمائة رجل من أهل المدينة، فلما كان بذي الحليفة «أبار علي» على سبعة أميال من المدينة، أرسل رسول الله ﷺ في أثره علي بن أبي طالب، وأمره بقراءة سورة «براءة» على المشركين، فعاد أبو بكر إلى رسول الله ﷺ بالمدينة، وقال: يا رسول الله! أنزل في شيء؟ قال: «لا ولكن لا يبلغ عني إلا أنا أو رجل مني، ألا ترضى يا أبا بكر أنك كنت معي في الغار، وصاحبي على الحوض؟» قال: بلى يا رسول الله، فسار أبو بكر أميرًا على الموسم، فأقام الناس الحج، وحجت العرب والكفار على عادتهم في الجاهلية. وعلي رضى الله عنه يؤذن ببراءة، فنادى يوم الأضحية قائلاً: لا يحجّ بعد العام مشرك، ولا يطوفنّ بالبيت عريان، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فأجله إلى مدته. ورجع المشركون، فلأَمَّ بعضهم بعضًا، وقالوا: ما تصنعون، وقد أسلمت قريش! فأسلموا.

○ نتائج وعبر :

- إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرًا نوجزها فيما يلي :
- ١ - فرض الحج يسقط بالعجز ، وهو على التراخي لا على الفور ، إذ لم يحج مع أبي بكر سوى ثلثمائة رجل ، مع وفرة الرجال والنساء بالمدينة يومئذ .
 - ٢ - مشروعية تعيين أمير للحج .
 - ٣ - فضيلة كل من أبي بكر وعلي رضي الله عنهما .
 - ٤ - مشروعية سوق الهدي ، وإرساله مع تخلف المهدي عن الحج .
 - ٥ - حرمة دخول الحرم على المشركين والكافرين ، وجوب ستر العورة في الطواف .
 - ٦ - شرف مركز قريش بين العرب ، إذ العربُ تبعَ لها .

أهم أحداث السنة التاسعة من هجرة الحبيب ﷺ

- لقد وقعت في هذه السنة أحداث تاريخية هامة يحسن ذكرُ طرف منها إزاء النقاط الآتية :
- بعث الرسول ﷺ جرير بن عبد الله البجلي إلى ذي الخلصة ، فهدمها .
 - فيها توفي إبراهيم ابن الرسول ﷺ وهو ابن ثمانية عشر شهرًا ، ودفن بالقيع .
 - فيها طلع جبريل على النبي ﷺ والناسُ حوله في المسجد في صورة رجل ، وسأل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان ، وعن أمارات الساعة .
 - فيها بعث النبي ﷺ المصدقين^(١) إلى كافة أنحاء البلاد التي أسلم أهلها .
 - فيها توفيت أم كلثوم بنت رسول الله ﷺ ، وغسلتها أسماء بنت عميس وصفية بنت عبد المطلب .
 - فيها توفي رأس النفاق عبد الله بن أبي بن سلول ، وصلى عليه الرسول ﷺ ، ثم نهاه الله عن الصلاة على المنافقين مطلقًا بقوله : ﴿لَا صَلَّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ بَعْدَ إِذَا كَانَ عَلَى قَبْرِهِ﴾ [البقرة: ٨٤]
 - فيها توفي النجاشي وصلى عليه الرسول والمؤمنون بالمدينة صلاة الغائب (رحمه الله رحمة واسعة) .

ودخلت السنة العاشرة من هجرة الحبيب ﷺ

○ وكان من أول أحداثها :

بعث النبي ﷺ خالد بن الوليد إلى بني الحارث بن كعب بـ «نجران»

- في هذه السنة العاشرة ، بعث النبي ﷺ خالد بن الوليد على رأس سرية ، بعثه إلى بني الحارث بن كعب بنجران ، وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام ثلاثًا فإن أجابوا أقام فيهم وعلمهم
- (١) جياة الزكوات .

شرائع الإسلام، وإن لم يفعلوا قاتلهم.
فخرج رضى الله عنه إليهم منفذاً لأمر رسول الله ﷺ، ودعاهم إلى الإسلام فأجابوا وأسلموا فأقام فيهم يعلمهم، وكتبَ إلى رسول الله ﷺ كتاباً يعلمه فيه بإسلامهم.
ولما قضى فترة تعليمهم، عاد إلى المدينة ومعه وفد منهم، من بين أفراد قيس بن الحصين بن يزيد بن قينان، يزيد بن عبد المدان وغيرهما، فقدموا على رسول الله ﷺ، ثم عادوا إلى ديارهم، وأرسل إليهم رسول الله ﷺ عمرو بن حزم يعلمهم شرائع الإسلام، ويأخذ صدقاتهم «زكواتهم» وكتب معه كتاباً، وتوفى رسول الله ﷺ وعمرو ابن حزم على نجران.
○ نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً هي كالآتي:

- ١ - وجوب الدعوة إلى الإسلام.
- ٢ - وجوب تعليم من دخل في الإسلام شرائع الإسلام.
- ٣ - وجوب نصب الولاة في البلد الذي يدخل في الإسلام أو ذمة المسلمين.

وصول وفد نصارى نجران إلى الحبيب ﷺ

وفي هذه السنة العاشرة، وصل وفد نجران، على رأس الوفد العاقب والسيد، يريدون مباهلة رسول الله ﷺ ليهلك من لم يكن على الحق في دعواه، إذ هم يدعون أن عيسى - عليه السلام - ابن الله - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً - وأن المسيحية دين الله. والرسول محمد ﷺ يقول: عيسى عبد الله ورسوله، والدين عند الله الإسلام.
وفعلاً خرج رسول الله ﷺ ومعه علي وفاطمة والحسن والحسين فلما رأوهم خافوا، وقالوا: هذه الوجوه، لو أقسمت على الله أن يزيل الجبال لأزالها، ولم يباهلوه، وصالحوه على ألفي حلة ثمن كل حلة أربعون درهماً، وعلى أن يضيفوا رسل الرسول ﷺ، وجعل لهم ذمة الله تعالى وعهده أن لا يفتنوا في دينهم ولا يعشروا، وشرط عليهم ألا يأكلوا الربا ولا يتعاملوا به. وفيهم نزل نيف وثمانون آية من سورة آل عمران، وفيها آية المباهلة، وبيان حقيقة عيسى وأنه عبد الله ورسوله، ولم يكن ابن الله، ولا بإله مع الله؛ إذ قص عليهم نشأة عيسى ابتداءً من جدته حنة إلى ولادة مريم له صلى الله عليه وعلى نبينا وسلم تسليمًا كثيرًا.
○ نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نوجزها فيما يلي:

- ١ - هروب نصارى نجران من المباهلة: دليل على نبوة محمد ﷺ، وصحة دينه الإسلام، وبطلان المسيحية والرومية عيسى - عليه السلام -.
- ٢ - مشروعية إقرار أهل الكتاب على دينهم - وإن كان باطلاً - لنسخه بالإسلام.

٣ - حرمة أكل الربا والتعامل به حتى على أهل الذمة من يهود ونصارى .
○ وثالث أحداثها :

قدوم وفود عديدة على الرسول ﷺ

والسنة العاشرة كالتاسعة، كانت سنة وفود أيضًا، وما هي ذي قائمة بأسماء تلك الوفود، وبعض أحوالها:

١ - وفد سَلَمَان : في شوال، وكانوا ستة عشر نفرًا، وعلى رأسهم حبيب السلمي، فأسلموا، وشكروا إلى رسول الله ﷺ جذب بلادهم وقحطها، فدعا لهم رسول الله ﷺ، ثم أمر لهم بجوائز فأخذوها وودعوا الحبيب ﷺ ورجعوا إلى بلادهم فوجدوها قد أمطرت في نفس الوقت الذي دعا لهم فيه، وفي نفس الساعة بالضبط، فكانت آية نبوته ﷺ .

٢ - وفد غَتَان : في رمضان من هذه السنة .

٣ - وفد عامر : في شهر رمضان منها أيضًا .

٤ - وفد الأزد : وكان يتألف من بضعة عشر رجلًا، على رأسهم صرد بن عبد الله، فأسلموا وأمر النبي ﷺ صردًا على من أسلم من قومه، وأمره أن يجاهد المشركين بمن معه من المسلمين . فسار صرد الأمير إلى مدينة جرش - وفيها قبائل من اليمن فيهم خثعم - فحاصروهم قريبًا من شهر، فامتنعوا منه، فرجع حتى كان بجبل يقال له : كشر، فظن أهل جرش أنه منهزم؛ فخرجوا في طلبه فأدركوه، فقطف عليهم فقاتلهم قتالًا شديدًا، وقد كان أهل جرش قد بعثوا رجلين منهم إلى رسول الله ﷺ ينظران حاله، فبينما هما عنده إذ قال : «بأي بلاد الله كشر؟ وإن بدن الله لتنحر عنده الآن» فقال لهما أبو بكر أو عثمان : ويحكما، إنه ينعي لكما قومكما، فسألاه أن يدعو الله يرفع عنهم، ففعل فقال : «اللهم ارفع عنهم» فخرجوا من عنده إلى قومهما، فوجداهم قد أصيبوا ذلك اليوم في تلك الساعة التي ذكر فيها رسول الله ﷺ حالهم، وخرج وفد جرش إلى رسول الله ﷺ فأسلموا .

٥ - وفد مراد : مع فروة بن مُسَيْك المرادي على رسول الله ﷺ مفارقًا لملوك كَثْدَة، وقد كان قبيل الإسلام بين مراد وهمدان وقَعَة^(١) ظفرت فيها همدان وأكثروا القتل في مراد، وكان يقال لذلك اليوم : يوم الرذم^(٢)، وكان رئيس همدان الأجدع بن مالك، وفي ذلك يقول فروة :

فإن نَغْلِبَ فغَلَابُون قَدْماً وإن نهزم فغير مهزومينا
وما إن طُبْنَا جِبْنَ وَلَكِنْ منايانا ودولة آخرينا
كذلك الدهر دولته سَجَالٌ تكثرُ صروفه حينًا فحينًا
فبينما ما يسرُّ به ويرضى ولو لبسَتْ غضارته^(٣) سنيينا

(١) معركة حرب .

(٢) موضع .

(٣) طرواته ونعمته .

إذ انقلببت به كُرَات دُفِرَ
ومن يغبط بريب الدهر منهم
فلو خلد الملوك إِذَا خَلَدْنَا
فَأَقْنِي ذَاكُم سروات^(٢) قوم
ولما توجه فروة إلى رسول الله ﷺ قال:

لما رأيت ملوك كندة أعرضت
قُرْبِيَتْ راحلتي أؤم محمدًا
فلما وصل إلى رسول الله ﷺ سأله قائلاً: «هل ساءك ما أصاب قومك يوم الرذم؟» قال: يا رسول الله! مَنْ ذا يصيب قومَه مثلُ ما أصاب قومي يوم الرذم ولا يسوؤه ذلك؟ فقال رسول الله ﷺ له: «أما إن ذلك لا يزيد قومك في الإسلام إلا خيرًا» واستعمله رسول الله ﷺ على مراد وزُيِّدَ وَمَذْجَجَ كلها، وبعث معه خالد بن سعيد بن العاص على الصدقة فكان معه في بلاده حتى توفي رسول الله ﷺ.

٦ - إرسال فروة بن عمرو الجذامي: رسولاً إلى رسول الله ﷺ يعلمه بإسلامه، وبعث معه بغلة بيضاء أهداها إلى رسول الله ﷺ، وكان فروة عاملاً للروم على من يليهم من العرب، وكان منزله بُمعان في أرض الشام، ولما بلغ الروم إسلامه، طلبوه فأسروه وحبسوه ليقتلوه، فلما اجتمعت الروم لصلبه على ماء لهم يقال له: «عَفْرَى» بفلسطين قال:

ألا هل أتى سلمى بأن خليلها
على ناقة لم يلقي الفحل أمها
فلما قدموه ليصلبوه قال:

بلغ سراة المسلمين بآتني
ثم ضربوا عنقه وصلبوه، فمات شهيداً من أجل إسلامه لله وجهه وقلبه.

٧ - قدوم وفد زبيد: على رسول الله ﷺ برئاسة عمرو بن مَعْدِيكَرِبَ وكان النبي ﷺ قد استعمل على زُبيد ومراد فروة بن مسيك في هذه السنة، وذلك قبل قدوم عمرو عليه، فلما عاد عمرو من عند رسول الله ﷺ إلى بلاده أقام في بني زُبيد، فلما توفي رسول الله ﷺ ارتد عمرو، وقال حين ارتد:

وجدنا مُلْكَ فروة شَرَّ مُلْكٍ
حمارًا سَاف^(٤) مِثْخَرَه بِثَقْرِ^(٥)

(١) استحسنت حالهم.

(٢) أشرافهم.

(٣) عرق مستيقظ في الفخذ وهو مقصور نسا، ومد للوزن لا غير.

(٤) ساف أي شَمَّ.

(٥) الثفر من البهائم كالرحم من النساء.

- وكننت إذا رأيت أبا عمير ترى الجولاء^(١) من حَبِثٍ وَعَذْرٍ
- ٨ - قدوم وفد عبد القيس: على رسول الله ﷺ، وفيهم الجارود بن عمرو، وكان نصرانيا فأسلم هو ومن معه، وكان الجارود حسن الكلام، نهى قومه عن الردة بعد موت الرسول ﷺ، ولما ارتدوا مع الغرور المنذر بن النعمان، وقد كان النبي ﷺ بعث العلاء بن الحضرمي قبل فتح مكة بعثه إلى المنذر بن ساوى العبيدي فأسلم وحسن إسلامه، ثم هلك بعد وفاة النبي ﷺ وقبل ردة أهل البحرين، والعلاء يومها أمير على البحرين من قبل رسول الله ﷺ.
- ٩ - قدوم وفد كندة: برئاسة الأشعث بن قيس - وكانوا ستين راكباً - فقال الأشعث: نحن بنوأكمل المرار وأنت ابن أكل المرار، فقال النبي ﷺ: «نحن بنوالنضر بن كنانة لا نقفوا أمنا، ولا نتقي من أبينا»، فقال الأشعث: والله لا أسمع رجلاً يقولها إلا ضربته ثمانين، ولما دخلوا على رسول الله ﷺ كانوا قد رجلوا جُمُعَهُمْ^(٢) وتكحلوا، عليهم جُبَبُ^(٣) الحبرة وقد كففوها بالحرير، فقال لهم رسول الله ﷺ: «ألم تسلموا؟» قالوا: بلى، قال: «فما بال هذا الحرير في أعناقكم؟ فشقوقه منها والقوه».
- ١٠ - قدوم وفد محارب.
- ١١ - قدوم وفد عبد غنيس.
- ١٢ - قدوم وفد صدف: وَأَقْوَا رسول الله ﷺ في حجة الوداع.
- ١٣ - قدوم وفد الرهاويين: وهم بطن من مذحج.
- ١٤ - قدوم وفد خولان: وكانوا عشرة أنفار.
- ١٥ - قدوم وفد بني عامر: بن صَغَصَةَ فيهم عامر بن الطفيل وأريد بن قيس وجبار بن سُلمى بن مالك بن جعفر، وكان عامر يريد الغدر برسول الله ﷺ فقال له قومه: إن الناس قد أسلموا فأسلم، فقال: لا أتبع عَقِبَ هذا الفتى، ثم قال لأريد: إذا قدمنا عليه، فإني شاغله عنك، فَأَغْلَهُ بالسيف مِنْ خَلْفِهِ.
- فلما قدموا، جعل عامر يكلم النبي ﷺ؛ يشغله ليفتك به أريد، فلم يفعل أريد شيئاً، فقال عامر للنبي ﷺ: لأملأنها عليك خيلاً ورجالاً، فلما ولى قال رسول الله ﷺ: «اللهم اكفني عامراً»، فلما خرجوا، قال عامر لأريد: لِمَ لَمْ تقتله؟ قال: كلما هممتُ بقتله دخلت بيني وبينه حتى ما أرى غيرك، أفأضربك بالسيف؟ ورجعوا، فلما كانا ببعض الطريق أرسل الله تعالى على عامر بن الطفيل الطاعون فقتله وإنه لفي بيت امرأة سلولية. فمات وجعل يقول: يا بني عامر أغدَّة كغدَّة البعير وموت في بيت سلولية؟!، وأرسل الله على أريد صاعقة فأحرقتة، وكان أريد بن قيس أخا
- (١) الجولاء: جلدة ماؤها أخضر تخرج من الولد شبه المهجو بها دناءة وقذارة.
- (٢) جمع جبة: الشعر في مقدمة الرأس.
- (٣) جمع جبة: من الثياب معروفة تصنع في اليمن.

للبيد بن ربيعة لأمه .

○ نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة المعطرة نتائج وعبرًا نجملها كالآتي :

- ١ - من آيات النبوة المحمدية استجابة دعائه ﷺ في موطنين مرتين .
- ٢ - حرمة لبس الحرير على الرجال ووجوب سرعة الامتثال لأمر الله ورسوله .
- ٣ - آية النبوة المحمدية في نزول الصاعقة بأربد، والطاعون بآبن الطفيل (لعنة الله عليه) .

○ ورابع أحداثها :

إرسال النبي ﷺ عليا إلى اليمن، وإسلام همدان

وفي هذه السنة العاشرة من هجرة الحبيب ﷺ، بعث النبي ﷺ علي بن أبي طالب إلى اليمن، وقد كان أرسل فيها خالد بن الوليد إليهم يدعوهم إلى الإسلام فلم يجيبوه، فأرسل عليا وأمره أن يفعل^(١) خالداً أو من شاء من أصحابه ففعل، وقرأ علي كتاب رسول الله ﷺ على أهل اليمن، فأسلمت همدان كلها في يوم واحد، فكتب بذلك إلى رسول الله ﷺ فقال: «السلام على همدان»، ثم تتابع أهل اليمن على الإسلام وكتب بذلك إلى رسول الله ﷺ فسجد شكراً لله تعالى.

○ نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة المعطرة نتائج وعبرًا هي الآتية :

- ١ - فضيلة همدان؛ إذ أسلموا في يوم واحد، وسلم عليهم رسول الله ﷺ ثلاثاً .
- ٢ - مشروعية سجود الشكر عند حصول النعمة .
- ٣ - فضيلة علي بن أبي طالب إذ هدى الله على يديه ما لم يهْدِ على يد خالد - رضي الله عنهما معاً

○ وخامس أحداثها :

بعث النبي ﷺ أمراء على الصدقات

إن شأن الزكاة في الدولة الإسلامية عظيم، فهي - من جهة - حدّ فاصل بين الكفر والإيمان، ومن جهة أخرى، فإن مصالح الدولة والأمة قائمة على المال، والزكاة هي المورد الثابت لذلك، فمن هنا كان النبي ﷺ يختار الأكفاء لهذه المهمة .
وها هي ذي قائمة بأسماء المصدقين - أي جباة الزكاة وجامعيها - وسميت الزكاة صدقة، فإنها تدل على صدق إيمان مؤديها - :

(١) أي يأمره بالرجوع إلى المدينة .

- ١ - المهاجر بن أمية بن المغيرة، بعثه إلى صنعاء فخرج عليه العنسي وهو بها.
- ٢ - زياد بن لبيد الأنصاري بعثه إلى حضرموت.
- ٣ - عدي بن حاتم الطائي، بعثه إلى طيء، وأسد.
- ٤ - مالك بن نويرة بعثه إلى بني حنظلة.
- ٥ - الزبرقان بن بدر.
- بعثهما إلى بني سعد بن زيد مناة بن تميم.
- ٦ - قيس بن عاصم.
- ٧ - العلاء بن الحضرمي بعثه إلى البحرين.
- ٨ - علي بن أبي طالب بعثه إلى نجران ليجمع الزكاة والجزية من نصارى نجران، واستخلف رضى الله عنه على الجيش الذي كان معه رجلاً من أصحابه وسبقهم إلى النبي ﷺ بمكة حاجاً حجة الوداع، فعمد الرجل المستخلف - إلى الجيش فكساهم كل رجل حلة من البر^(١) الذي مع علي، فلما دنا الجيش خرج علي ليلتقاهاهم، فرأى عليهم الحلل فنزعها عنهم، فشكا الجيش إلى رسول الله ﷺ فقام النبي ﷺ خطيباً فقال: «أيها الناس، لا تشكوا إلي علياً، فوالله إنه لأخشن في ذات الله أو في سبيل الله من أن يشكى».

○ نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نوجزها كالآتي:

- ١ - أهمية الزكاة وجبايتها والتأثير عليها في الإسلام ودولته الرشيدة.
- ٢ - مشروعية أخذ الجزية على أهل الكتاب.
- ٣ - مشروعية المبادرة إلى تغيير المنكر، إذ نزع علي ما كان قد كساه خليفته أفراد الجيش بدون إذن الأمير.
- ٤ - فضل علي؛ إذ أخذ النبي ﷺ أنه أخشن في ذات الله أو سبيله من أن يشكى، وتقبل الشكوى فيه.

○ وسادس أحداثها:

حجة الوداع والبلاغ

هذا الحدث ذو أهمية كبرى؛ لما بين الحبيب ﷺ في حجته هذه من شرائع وأحكام وآداب، وسميت حجة الوداع؛ لأن قوله ﷺ فيها: «لعلني لا ألقاكم بعد عامي هذا» كان مشعراً بالوداع، وكذلك كان، إذ لم يعش بعدها ﷺ إلا بضعة شهور وتوفاه الله عز وجل، وتسمى أيضاً حجة

(١) الثياب من الكتان.

البلاغ؛ لأن الرسول بلغ الكثير من الأحكام: إنه لما دخل شهر ذي القعدة أخذ رسول الله ﷺ يتجهز وأمر الناس بالجهاز كذلك، معلناً لهم أنه يريد الحج، ولما بقي خمس ليالٍ من شهر ذي القعدة، استعمل ﷺ على المدينة أبادجانة أو سبع بن عُرْفَةَ الغفاري، وخرج، وخرج المسلمون معه وهو لا يريد إلا الحج، فلما كان بوادي العقيق على سبعة أميال من المدينة، نزل عليه جبريل - عليه السلام - بالسلام من رب العالمين فقال له: «إن ربك يقرئك السلام ويقول لك: إنك بالوادي المبارك؛ ففضل فيه وقل عمرة في حجة» وَخَيَّرَ أصحابه بين الأفراد والتمتع والقران، فمنهم من أهل بحج، ومنهم من أهل بعمرة، ومنهم من أهل بحج وعمرة، وساروا حتى إذا بلغوا «سرف» حيث جاءت عائشة والعادة الشهرية، فبكت وطأناها الحبيب ﷺ بقوله: «هذا شيء كتبه الله على بنات آدم، فافعلي يا عائشة كل ما يفعله الحاج إلا أنك لا تطوفين بالبيت حتى تطهري»، ثم أمر من لم ينسج الهدى أن يجعل حجه عمرة تخفيفاً عليهم ورحمة بهم وبمن يأتي بعدهم.

ولما دخل مكة طاف بالبيت وسعى، ولم يتحلل لسوقه الهدى، وبقي بعض أصحابه، مفردين - وليس معهم هدي - فلم يتحللوا فأمرهم بالتحلل، وقال مُرَغَّبًا لهم: «لو استقبلت من أمري ما استدبرت لما سقت الهدى، ولجعلتها عمرة» فحلوا من إحرامهم، وسألوه: هل هذا لعامنا هذا خاصة - أي التحلل بالعمرة - فقال: «لا بل لأبد الأبد»، أي يجوز لأي مسلم يأتي مفردًا بالحج وليس معه هدي أن يفسخ الحج إلى عمرة.

ومكثوا بمكة مُجَلِّين حتى يوم التروية، فأحرموا بالحج، وخرجوا إلى منى وباتوا بها وبعد صلاة الصبح من يوم عرفة (تاسع الحجة) خرجوا إلى عرفة وعلم أثناء ذلك الناس مَنَاسِكُهُمْ وَسُنَنَ حَجَّتِهِمْ، وخطب خطبة بعرفة لم يسمع مثلها في طولها، ولما اشتملت عليه من الشرائع والهدى. وهذه جل فقراتها، فلنقرأ وليؤقت عند كل جملة منها؛ فإنها كواكب هدى تضيء للمسلم الدجى. فقد حمد الله تعالى وأثنى عليه بما هو أهله، وقال:

«أيها الناس! اسمعوا قولي: فإني لا أدري لعملي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبدًا. أيها الناس! إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة، يومكم هذا وحرمة شهركم هذا، وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، وقد بلغت. فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها، وإن كل ربًا موضوع، ولكن لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون قضى الله أنه لا ربا، وإن ربا العباس بن عبد المطلب موضوع كله. وإن كل دم كان في الجاهلية موضوع، وإن أول دماءكم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، وكان مسترضعاً في بني ليث، فقتلته هذيل، فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية. أما بعد؛ أيها الناس! فإن الشيطان قد يش أن يعبد بإرضكم هذه أبدًا، ولكن إن يطع فيما سوى

ذلك فقد رضى به مما تحقرون من أعمالكم فاحذروه على دينكم . أيها الناس ! إن التسيء زيادة في الكفر ، يضل به الذين كفروا ، يحلونه عامًا ويحرمونه عامًا ، ليواطئوا عدة ما حرم الله ، فيحلوا ما حرم الله ، ويحرموا ما أحل الله . وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرًا ، منها أربعة حرم ، ثلاثة متواليه ، ورجب مضر^(١) الذي بين جمادى وشعبان .

أما بعد أيها الناس ! فإن لكم على نسايتكم حقًا ، ولهن عليكم حقًا ، لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحدًا تكرهونه ، وعليهن ألا يأتين بفاحشة مبينة ، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع ، وتضربوهن ضربًا غير مبرح^(٢) فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف . واستوصوا بالنساء خيرًا ؛ فإنهن عندكم عوان ، لا يملكن لأنفسهن شيئًا ، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمات الله ، فاعقلوا أيها الناس قولي ، فإنني قد بلغت . وتركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدًا ، أمرًا بينًا : كتاب الله وسنة نبيه . أيها الناس ! اسمعوا قولي واعقلوه ، تغلثن أن كل مسلم أئح للمسلم ، أن المسلم إن أخوة ، فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه ، فلا تظلمن أنفسكم ، اللهم هل بلغت ؟!!!!

فقال الناس : اللهم ، نعم . فقال رسول الله ﷺ : «اللهم فاشهد» .
«أيها الناس ! إن الله قد أدى إلى كل ذي حق حقه ، وإنه لا تجوز وصية لوارث ، والولد للفراش وللعاهر الحجر» ، ومن ادعى إلى غير أبيه أو تولى غير مواليه ، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل منه صرف ولا عدل» .

وإنه ﷺ بعد أن زالت الشمس وصلى بالناس وخطبهم ، أتى جبل عرفة فوقف في صفحه وقال : «وقفت ههنا ، وعرفة كلها موقف» ، ولما غربت الشمس ، ركب إلى مزدلفة ، فوصلها بعد العشاء جمعًا ، وبات بها ، ولما طلع الفجر ، صلى الصبح ، ووقف على جبل قزح وقال : «وقفت ههنا ، ومزدلفة كلها موقف» ، ولما أسفر جدًا أتى الجمرة فرماها ، ثم المنحرف فنحر ثم قال : «نحرت ههنا ومنى كلها منحر» ، ثم أفاض من يومه وعاد إلى منى ، فبات بها ثلاث ليال يرمي الجمرات الثلاث بعد زوال كل يوم ، يبدأ بالصغرى ، ويختم بالكبرى وخطب أيام منى وعلم كل ما الأمة في حاجة إليه إلى يوم الدين ، ولذا كانت هذه الحجة تسمى حجة الوداع ؛ لأنه ﷺ ودع أمته فيها إذ لم يحج بعدها ، فصلى الله عليه وسلم يوم ولد ، ويوم دعا وجاهد ، ويوم حج واعتمر ، ويوم ودع ، ويوم مات ، فالتحق بالرفيق الأعلى في جنة عرضها السموات والأرض .

(١) قيل إنما قال ذلك ، لأن ربيعة كانت تحرم رمضان وتسميه رجبًا فينبئ ﷺ أنه رجب مضر لا رجب ربيعة .
(٢) أي غير شديد فلا يكسر عضوًا ولا يشين جراحة .

○ نتائج وعبر :

- إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرًا نسجلها إزاء الأرقام الآتية :
- ١ - وقوْعُ حجة الوداع - بعد تطهير الحرم من الشرك والمشركين - دالٌّ على حصاد جهاد دام نيفًا وعشرين سنة ، وفي هذا عبرة لمن يعتبر .
 - ٢ - بيان أن وادي العقيق مبارك ، وأنه ميثاق أهل المدينة ؛ إذ ذو الحليفة على شاطئه الأيمن .
 - ٣ - مشروعية الإهلال بأي نسك من الأنساك الثلاثة : الأفراد ، والتمتع ، والقرآن .
 - ٤ - بيان أن الحائض لا يمنعها الحيض من الإحرام ، إذ تفعل كما يفعل الحاج إلا أنها لا تطوف حتى تطهر وتغتسل .
 - ٥ - من مظاهر الرحمة المحمدية الإذن بفسخ الحج إلى عمرة ؛ تيسيرًا وتسهيلًا على الأمة .
 - ٦ - مشروعية الحرص على مخالفة اليهود والنصارى والمشركين ؛ إذ كان المشركون يعدون الاعتماد في أشهر الحج من أفجر الفجور ، وكانوا يقولون : إذ برأ الدبر ، وعفا الأثر ، وانسلخ صفر ، حلت العمرة لمن اعتمر ، فلذا أمر النبي ﷺ أصحابه بالتحلل والاعتماد ، ولما تردد أصحابه في ذلك غضب حتى أذعنوا لأمره وتحللوا رضى الله عنهما .
 - ٧ - بيان باقي المناسك عمليًا ؛ إذ كان يقول : «حجوا كما رأيتموني أحج» .
 - ٨ - الإعلان عن حقوق المسلم ، وأنه محرم الدم والمال والعرض .
 - ٩ - الإعلان عن تحريم الظلم والربا ، وكل عادات الجاهلية .
 - ١٠ - الإعلان عن حقوق النساء ، والأمر بالاعتراف بها وأدائها ، وكذا حقوق الزوج على زوجته .
 - ١١ - تحريم الوصية للوارث ، وتقرير قانون التوارث كما في القرآن الكريم .
 - ٢١ - حرمة التبني والانتساب إلى غير الموالى .
 - ٣١ - تقرير أن الولد ينسب إلى مَنْ وُلِدَ على فراشه ، وأن العاهر لا حق له فيه ، وإنما له الرجم بالحجارة إذا اعترف بالزنا .

ودخلت السنة الحادية عشرة من هجرة الحبيب ﷺ

○ وكان أول أحداثها :

بعث جيش أسامة إلى الشام

إن آخر بعث في الجهاد المحمدي ، هو بعث أسامة بن زيد الجبّ بن الجبّ رضى الله عنهما . ففي المحرم - وبعد العودة من حجة الوداع - رأى النبي ﷺ أن يبعث بعثًا إلى الشام ، وأن يكون أسامة بن زيد - الشاب الذي لم يتجاوز من العمر ثماني عشرة سنة - هو قائد هذا الجيش ،

الذي عقد لواءه رسول الله ﷺ، وأمره أن يوطئ الخيل تخوفاً للبقاء، والداروم من أرض فلسطين. وتكلم بعض طاعناً في أسامة؛ لصغر سنه، فأجابهم رسول الله ﷺ بقوله: «إن تطعنوا في إمارة أسامة فقد طعنتم في إمارة أبيه من قبل»، وذلك لكون كل من زيد وأسماء ولده مولى وليس بسيد.

وتجهز الناس للخروج، وفي هذا الجيش كبار المهاجرين والأنصار كأبي بكر وعمر وغيرها، وبينما الناس في التجهيز والإعداد للخروج إذا برسول الله ﷺ يتدنه مرضه الذي قبض فيه. فوقف الجيش في انتظار شفاء الحبيب ﷺ، ولم يمض إلا أسبوع واحد ويقبض رسول الله ﷺ، ويلتحق بالرفيق الأعلى، ويبقى جيش أسامة في انتظار ما يحدث بخصوصه، ولي أمر المسلمين أبوبكر، وأنفذ جيش أسامة كما أراد رسول الله ﷺ وأحب، وذلك نزول من الصديق على رغبة الحبيب ﷺ في تنفيذ ما يحب، فرضي الله عن أبي بكر ما أرضاه وأوفاه؛ فاللهم اجعل الجنة مأوانا ومأواه.

○ نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نوجزها في الآتي:

- ١ - بيان مواصلة الرسول ﷺ الجهاد حتى آخر يوم من حياته.
- ٢ - جواز إسناد قيادة الجيوش إلى الشباب الكفاء المقتدر، إذا كان في قيادته ذوق الرأي والمشورة من كبار السن من كهول وشيوخ.
- ٣ - بيان أن الطبع البشري لم يتبدل؛ فقد طعن في إمارة أسامة وإمارة أبيه وفي حضرة الرسول ﷺ.
- ٤ - بيان كمال أبي بكر الصديق، وصادق وده وعظيم طاعته لرسول الله ﷺ حياً وميتاً؛ وذلك بإنفاذه جيش أسامة وفي أصعب الظروف وأشدّها حلوكة.

خاتمة الجهاد المحمدي ببيان عدد غزواته ﷺ وسراياه

لقد غزا ﷺ ستاً أو سبعمائة وعشرين غزوة في خلال سنوات هجرته العشر. باشر القتال بنفسه في تسع غزوات منها، وهي: بدر الكبرى، وأحد، والخندق، وقريظة، والمصطلق، وخيبر، والفتح، وحنين، والطائف. وباقي الغزوات أعدها وحضرها إلا أنه لم يباشر القتال فيها بنفسه، وإنما بواسطة أصحابه - رضوان الله عليهم - وهي: وذان وهي الأبواء، ثم بواط، ثم العُشيرة، ثم بدر الأولى، ثم غزوة بني سليم، ثم غزوة السويق، ثم غزوة غطفان، ثم غزوة نجران بالحجاز، ثم حمراء الأسد، ثم بني النضير، ثم ذات الرقاع، ثم بدر الآخرة، ثم غزوة دومة الجندل، ثم غزوة بني لحيان ثم غزوة ذي قرد.

وأما سراياه ﷺ فقد بلغت نحواً من خمس وثلاثين سريةً وبعثاً. وقد مرت هذه السرايا

والبعث، وتلك الغزوات مفصلة واحدة بعد أخرى في سنوات الهجرة العشر المباركة، والحمد لله أولاً وآخراً.

○ وآخر أحداثها وأجلها:

مرض الحبيب ﷺ ووفاته

○ بداية مرضه ﷺ:

في أوائل شهر ربيع الأول، وفي يوم الأربعاء بالذات بدأ وجع الحبيب ﷺ، فأصابه صداع وحُمى. وقبل هذه البداية المؤلمة ببعض الأيام، خطب ﷺ الناس فتعى إليهم أنفسهم وهم لا يشعرون، إذ صعد المنبر، فحمد الله تعالى وأثنى عليه بما هو أهله وقال: «إن الله خير عبداً بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ذلك العبد ما عند الله»، فبكى أبو بكر، فعجب الناس من بكائه. بكى لأنه فهم أن المخير هو رسول الله ﷺ، وقال ﷺ: «إن من أمرئ الناس علي في صحبته وماله: أبابكر، ولو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبابكر خليلاً، ولكن أخوة الإسلام ومودته، لا يقيئن في المسجد باب إلا سدّ إلا باب أبي بكر».

وفي جوف الليل، يوقظ رسول الله ﷺ مولاه أبا مويبة ويقول: «يا أبا مويبة، إني قد أمرت أن أستغفر لأهل هذا البقيع؛ فانطلق معي»، فلما وقف بين أظهرهم قال: «السلام عليكم يا أهل المقابر ليهنتكم ما أصبحتم فيه بما أصبح الناس فيه. أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم، يتبع أولها آخرها. الآخرة شر من الأولى». ثم أقبل على أبي مويبة وقال: «يا أبا مويبة، إني قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها، ثم الجنة فعُخِرت بين ذلك وبين لقاء ربي والجنة»، فقال له أبا مويبة: بأبي أنت وأمي، فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها والجنة، فقال: «لا والله يا أبا مويبة، لقد اخترت لقاء ربي والجنة». ثم استغفر ﷺ لأهل البقيع ثم انصرف. فبدأ برسول الله ﷺ وجعه الذي قبض فيه، إذ دخل على عائشة بعد رجوعه من البقيع فوجدتها تشكو صداعاً وتقول: واراأساء! فقال: «بل أنا والله يا عائشة واراأساء!!» ثم قال لها: «وما ضرك لو متّ قبلي فقمّت إليك وكفنتك، وصليت عليك ودفنتك» فقالت عائشة: والله لكأنني بك لو قد فعلت ذلك، لقد رجعت إلى بيتي فأعرست فيه ببعض نساءك. قالت عائشة و: فتبسم رسول الله ﷺ وتأمّ به وجعه، وهو يدور على نسائه حتى استعز به - وهو في بيت ميمونة - فدعا نساء فاستأذنهن أن يمرض في بيتي، فأذن له.

○ في بيت عائشة:

وبعد أن أذن له أمهات المؤمنين في أن يمرض في بيت عائشة و خرج ﷺ يمشي بين رجلين من أهله، هما: العباس وعلي، وهو عاصب رأسه، تخط قدماء حتى دخل بيت عائشة و، ثم حُمى ﷺ واشتد به الرجوع، فقال: «هريقوا علي سبع قرب من ماء؛ حتى أخرج إلى الناس فأعهد

إليهم»، قالت عائشة: فأقعدها في مخضب لحفصة بنت عمر، ثم صب عليه الماء حتى طفق يقول: حسبكم حسبكم!! ثم خرج إلى الناس، فصلى بهم وخطبهم، ثم ازداد مرضه فقال: «مروا أبابكر فليصل بالناس» فقالت عائشة: إن أبابكر إذا قام مقامك لا يسمع الناس من البكاء فمروا عمر، فليصل بالناس، وكررت عليه عائشة القول؛ فكرر الإجابة حتى قالت عائشة لحفصة: قولي له: إن أبابكر إذا قام مقامك لم يسمع الناس من البكاء فمروا عمر، فليصل بالناس، فقالت له فقال ﷺ: «مَهْ، إنكن لأنتن صواحب يوسف، مروا أبابكر فليصل بالناس»، فقام أبوبكر يصلي بالناس، ووجد النبي ﷺ من نفسه خفة، فخرج بين رجلين: العباس وعلي، لصلاة الظهر، فلما رآه أبوبكر ذهب ليتأخر، فأوماً إليه: ألا يتأخر، وقال للرجلين: «اجلساني إلى جنبه» فأجلساه إلى جنب أبي بكر، أبوبكر يصلي - وهو قائم - بصلاة رسول الله ﷺ وهو قاعد، والناس يصلون بصلاة أبي بكر.

وفي مرضه هذا قال لعائشة: «ما زلت أجد ألم الطعام»^(١) الذي أكلت بخير، فهذا أوان وجدت انقطاع أبهري من ذلك السم.

ولما كان يوم الخميس - وقبل وفاته ﷺ بأربع ليالٍ - اجتمع عنده ناس من أصحابه فقال: «اثنوني بكتيف»^(٢) ودواة، أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده أبداً. فتنازعوا عنده وأخذوا يردون عليه، فقال: «دعوني فالذي أنا فيه خير مما تدعونني إليه» وأوصاهم بثلاث: فقال: «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب، وأجيزوا الوفود بنحو ما كنت أجيزهم»، وسكت عن الثالثة.

ولما كان يوم الاثنين الذي قبض فيه ﷺ - والناس في صلاة الصبح وأبوبكر يصلي بالناس - لم يفجأهم إلا رسول الله ﷺ يكشف ستر حجرة عائشة، فينظر إليهم وهم صفوف في الصلاة. تبسم يضحك، فنكص أبوبكر على عقبه؛ ليصل الصف، وظن أن رسول الله ﷺ يريد أن يخرج إلى الصلاة، وهم الناس أن يفتنوا في صلاتهم فرحاً برسول الله ﷺ، فأشار إليهم بيده أن أتمرو صلاتكم، ثم دخل الحجرة وأرخى الستار، وانصرف الناس وهم يرون أن النبي ﷺ قد أفاق من وجعه، فرجع أبوبكر إلى أهله بالسُّنْح. ودخل عبد الرحمن بن أبي بكر - وفي يده سواك - وأنا مسندة رسول الله ﷺ إلى صدره فرأيت ينظر إليه، وعرفت أنه يحب السواك فقلت آخذه لك؟ فأشار أن نعم، فتناولته فاشتد عليه، فقلت أليته لك؟ فأشار برأسه أن نعم، فليتنه بأمره فاستن به، وهو مستند إلى صدره، وبين يديه ركوة ماء فجعل يدخل يده في الماء فيمسح بها وجهه ويقول: «لا إله إلا الله، إن للموت لسكرات» وآخر كلمة قالها^(٣): «اللهم الرفيق الأعلى».

(١) يعني الشاة المسمومة التي قدمت له بخير وأكل منها فلم تضره في ذلك الوقت. واستمر الداء كامناً حتى ظهر في هذه الأيام، وقد مات أحد أصحابه لما أكل منها كما تقدم في فتح خير، والأبهر عرق في الإنسان إذا انقطع هلك صاحبه.

(٢) عظم الكتيف يكتب عليه.

(٣) أخرجاه في الصحيحين.

ومن سفهي وحداثة سني أن رسول الله ﷺ قد قبض في جثري، ثم وضعت رأسه على وسادة، وقمتُ التدم^(١) مع النساء وأضربت وجهي. وكانت تقول: وإن من نعم الله علي أن رسول الله ﷺ توفي في بيتي، وفي يومي، وبين سحري^(٢) ونخري، وأن الله جمع بين ريفي وريقه؛ أن لينت له السواك فاستاك به. وتوفي رسول الله ﷺ يوم الاثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول من السنة الحادية عشرة من الهجرة المباركة، وفي مثل الوقت الذي دخل في المدينة. فيوم الاثنين الثاني عشر من شهر ربيع، ولدت فيه، وأوحى إليه فيه، ووصل دار الهجرة فيه، وتوفي فيه، ولذا كان يصومه ﷺ ويقول: «يوم الاثنين ولدت فيه وأوحى إلي فيه».

○ اشتداد الكرب وكمال الصديق:

وما إن علم الناس بوفاة الرسول ﷺ حتى طاشت عقولهم، وعمتهم الحيرة، وأقعدتهم الدهشة، وأظلمت الحياة في وجوههم حتى إن عمر - على جلالة - قام يحلف للناس بأن الرسول ما مات، حتى جاء أبو بكر من السنج، فدخل على رسول الله ﷺ فوجده مسجى في ثوب حيرة، فكشف عن وجهه وقبلة وبكى، ثم قال: بأبي أنت وأمي طبت حيا وميتا، والذي نفسي بيده، لا يذيقك الله الموتين أبدا، ثم خرج وعمر يكلم الناس، فقال: اجلس يا عمر، فأبى أن يجلس، فأقبل عليه الناس وتركوا عمر. فحمد الله تعالى وأثنى عليه، وقال: أما بعد، فمن كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، وقال عز وجل: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَلَهُمْ يَئُوسٌ﴾ (الزمر: ٣٠)، وقال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ نَمَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ (العمران: ١٤٤)، فنشج الناس يبكون، قال ابن عباس: والله لكان الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر، فتلقاها الناس منه كلهم، فما أسمع بشراً من الناس إلا يتلوها.

○ غسل الحبيب، وكفنه، ودفنه:

ولما فرغ الصديق، وفرغ الأصحاب من البيعة، وبويع لأبي بكر الصديق بالخلافة لرسول الله ﷺ على أمته، أقبلوا على تجهيز الحبيب ﷺ، فتولى غسله آل البيت وهم: علي بن أبي طالب، والعباس بن عبد المطلب، والفضل وقثم ابنا العباس، وأسامة بن زيد وشقران مولى رسول الله ﷺ، وكان العباس وولدها يقلبانه، وأسامة وشقران يصبان الماء، وعلي يغسله بيده فوق ثيابه، فلم يقض بيده إلى جسده الطاهر قط، فلم ير من رسول الله ﷺ ما يرى من الميت، وكان علي يغسله ويقول: بأبي أنت وأمي، ما أطيبك حيا وميتا، وكفن رسول الله ﷺ في ثلاثة أثواب، ثوبين صحرابين وبُرْد حِرَّة أدرج فيها إدراجا.

(١) تلطم خدّها من شدة الواقعة.

(٢) أي ورأسه ﷺ بين ثغرة نحرها، وهو سحرها، ونهاية حلقها وهي منتهى الذقن.

ومن آيات نبوته ﷺ، أنهم اختلفوا، هل يغسلونه كما يغسل الرجال بأن يجرد من ثوبه؟ فأخذهم النوم وهم كذلك، وإذا بهاتف يقول: غسلوا رسول الله ﷺ وعليه ثيابه، ففعلوا، ولما أرادوا دفنه اختلفوا في موضع دفنه، فجاء أبوبكر رضى الله عنه وقال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما قبض نبي إلا دفن حيث قبض». فزفع فراشه ﷺ وحفر في موضعه، وذلك بأن حفر له أبوطلبة الأنصاري لحداً، ثم دخل الناس أرسالاً يصلون عليه فرادى: الرجال، ثم النساء، ثم الصبيان، ثم العبيد، ولما فرغوا من الصلاة عليه دفن ﷺ وذلك ليلة الأربعاء، وكان الذي نزل في قبره علي بن أبي طالب، والفضل وقثم ابنا العباس وشقران، وأثناء ذلك قال أوس بن حولى الأنصاري لعلي: أنشدك الله وحظنا من رسول الله ﷺ، أي أن تأذن لي في النزول إلى قبر رسول الله ﷺ، فأذن له بالنزول في القبر معهم فنزل، وسوا عليه التراب ورفعوه مقدار شبر عن الأرض.

وقبض رسول الله ﷺ، وعمره ثلاث وستون سنة، ولم يخلف من متاع الدنيا ديناراً ولا درهماً، بل مات ودرعه مرهونة في كذا صاعاً من شعير، فصلى الله عليه وسلم يوم وُلِدَ، ويوم مات، ويوم بيعت حيا.

○ بكاء ودموع على فراق الحبيب ﷺ

لا أحب أن أثير شجون المؤمنين والمؤمنات، ولا أن أهيج نفسي بالبكاء الذي لا يجدي، بلى يجدي إذ يطفى نار أحشاء تلتهب، ولكن كيف أوصل الحديث والقلب جريح، والعين تذرف والدمع منهمر، فلذا نكتفي بتسجيل دالية حسان بن ثابت شاعر رسول الله ﷺ، فإنها تعبر عن حزن وآلم ودموع كل مؤمن ومؤمنة في هذه الحياة.

قال - رضى الله عنه وأرضاه -:

بطيبة رنم للرسول ومعهده	منيرٌ وقد تعفوا الرسوم وتهمد
ولا تمحى الآيات من دار حرمة	بها منير الهادي الذي كان يصعد
وواضح آثار وياقي معالم	وزرع له فيه مصلى ومسجد
بها حجرات كان ينزل وسطها	من الله نور يستضاء ويوقد
معارف لم تطمس على العهد أيها	أناها البلى فالآي منها تجدد
عرفت بها رسم الرسول وعهده	وقبيرا بها وراه الشرب ملحد
ظللت بها أبكي الرسول فأسعدت	عيون ومثلاها من الجفن تسعد
تذكرن آلاء الرسول وما أرى	لها مخصيا نفسي فننسى تبدل
مفجعة قد شقها فقد أحمد	فظللت لآلاء الرسول تعدد
وما بلغت من كل أمر عشييره	ولكن لنفسي بعد ما قد توجد

أطالت وقوفًا تذرف العين جهدهما
 فيورك يا قبر الرسول وبوركث
 وبورك لحده منك ضمّن طيبًا
 تهيل عليه التراب أيدٍ وأعين
 لقد غعبوا حلما وعلما ورحمة
 وارحوا بحزن ليس فيهم نبهم
 يبكّون من تبكي السموات يومه
 وهل عدلت يوما رزية هالك
 تقطع فيه منزل الوحي عنهم
 يدل على الرحمن من يقتدي به
 إمام لهم يهديهم الحق جاهدا
 عفو عن الزلات يقبل عذرهم
 وإن ناب أمر يقوموا بحمله
 فيبناهم في نعمة الله بينهم
 عزيز عليه أن يجوروا عن الهدى
 عطوف عليهم لا يثنّي جناحه
 فيبناهم في ذلك الثور إذ غدا
 فأصبح محمودا إلى الله راجعا
 وأمست بلاد الحرم وحشا بقاعها
 إلى أن قال:

فيكي رسول الله يا عين عبدة
 ومالك لا تبكين ذا النعمة التي
 فجودي عليه بالدموع وأغولي
 وما فقد الماضون مثل محمد
 إلى أن قال:

أقول ولا يلقي لقولي عائب
 وليس هوائي نازعا عن ثنائه
 مع المصطفى أرجو بذاك جواره

على طلل القبر الذي فيه أحمد
 بلاد ثوى فيها الرشيد المسد
 عليه بناء من صفيح منضد
 عليه وقد غارت بذلك أسعد
 عشية علوه آثرى لا يوسد
 وقد هن منهم ظهور وأعضد
 ومن قد بكته الأرض فالتاس أكمد
 رزية يوم مات فيه محمد؟!
 وقد كان ذا نور يغور وينجد
 وينقذ من هول الخزايا ويرشد
 معلّم صدق إن يطيعوه يسعدوا
 وإن يحسنوا، فالله بالخير أجود
 فمن عنده تيسير ما يتشدد
 دليل به نهج الطريقة يقصد
 حريص على أن يستقيموا ويهتدوا
 إلى كنف يحنو عليهم ويمهد
 إلى نورهم سهم من الموت مقصد
 يبيّنه حق المرسلات ويحمد
 لغيبه ما كانت من الوحي تعهد

ولا أعرفك - الدهر - دمعك يجمد
 على الناس منها سابغ يتغمد؟!
 لفقدي الذي لا مثله الدهر يوجد
 ولا مثله حتى القيامة يفقد

من الناس إلا عازب العقل مبعد
 لعلي به في جنة الخلد أخلد
 وفي نيل ذاك اليوم أسمى وأجد

الذات المحمدية

إن الحبيب - صلوات الله وسلامه عليه - بشر، إلا أنه أكمل البشر وأفضلهم، وواهب كماله وفضله هو الله جل جلاله، وتعالى جده، وعظم سلطانه.

ومن هنا، كان الكمال المحمدي - ذاتاً وصفات - عطاء إلهياً لا يسامى رسول الله ﷺ فيه، ولا يقوى القلم على رسم حقيقته، ولم يخطئ من قال في هذا الشأن:

وما مقلوا صفاتك للناس إلا كما مثل النجوم المساء

وقد وصف الحبيب محمدًا ﷺ بعض من أصحابه ومواليه وآل بيته، وكل واصف لم يغد الحقيقة، بل لم ينته إليها، وذلك لعجزه وعدم قدرته على رسم الصورة الحقّة للذات المحمدية.

وبناء على هذا الذي قلنا، فإننا نكتفي بوضع رسم أمام القارئ كان قد رسمه أعلم أصحابه به، والصقهم بجناحه؛ لأنه فرع دوحته، وبعل ابنته، وأبو حسني؛ هو علي بن أبي طالب - رضي الله عنه وأرضاه - إذ يقول:

الرسم الكريم لمحمد الحبيب ﷺ

كان رسول الله ﷺ ليس بالطويل ولا القصير، فخم الرأس والليحية، شثن^(١) الكفين والقدمين، ضخم الكراديس^(٢)، مشرباً وجهه حمرة، طويل المسربة^(٣)، إذا مشى تكفأ تكفؤاً، كأنما ينحط من صبب^(٤)، لم أر قبله ولا بعده مثله، وكان أدعج^(٥) العينين، سبط الشعر، سهل الخدين، ذا وفرة، كأن عنقه أبريق فضة. وإذا التفت: التفت جميعاً، كأن العرق في وجهه اللؤلؤ الرطب؛ لطيب عرقه وريحه وخاتم النبوة بين كتفيه، وهو بضعة لحم ناشزة^(٦) حولها شعر طيب جميل.

كانت تلك صورة رسول الله ﷺ رسمها أبلغ أصحابه بياناً وأفصحهم لساناً، ومن أصدقهم لهجة، وأكثرهم تحرياً للحقيقة والصواب، فلو أراد المصورون اليوم - وقد لعنهم الله على لسان رسوله - لو أرادوا أن يرسموا صورة لمثل رسول الله ﷺ والله ما قدرُوا ولو اجتمعوا لذلك، ولكانوا كاذبين، وملعون من كذب على رسول الله ﷺ فيما تخيلوه ورسموه. وبلغني - وأنا أكتب هذه الرسالة في السيرة المحمدية العطرة - أن منظمة ما في بلد ما، رسمت صورة في شكل لتمثال وقالوا: هذا محمد ﷺ، فكرر عليها رجال سفارة خادم الحرمين الشريفين، فهدموها وحطموها فجزأهم الله خير الجزاء، حفظ الله خادم الحرمين وحكومته التي تذب عن الإسلام، وتدفع عن حرمان شرائعه أصولاً وفروعاً آمين.

(١) أي ممتلئ لحم الكفين والقدمين.
(٢) ألواح الأكتاف.
(٣) شعر الصدر.
(٤) أسود العينين.
(٥) أي مرتفعة.
(٦) أي الانحدار.

أسماء الذات المحمدية

إن لكل ذات اسماً - أو أسماء - تُعرف بها من بين سائر الذوات، وهذا أمر مقرر في جميع الشرائع، ومستقر في النفوس، وملازم للفطرة، ومقبول لدى العقول، ويقدر شرف الذات وسموها وكمالها تكثر أسماؤها وصفاتها، حتى تجل عن الحصر؛ فإن لله تعالى مائة اسم إلا اسماً، وقد ذكرت في القرآن متفرقة وذكرت في السنة مجملة.

وأما الحبيب ﷺ فإن له خمسة أسماء، وليس هذا لغيره من سائر إخوانه الأنبياء فضلاً عما دونهم، وقد جاء ذكر أسمائه الخمسة في حديث مالك في موطنه وهي: محمد، وأحمد، والمقفي، والعاقب، والحاشر.

وأما صفاته ﷺ مثل نبي الرحمة، ونبي الملحمة، ونبي التوبة، فهي كثيرة جداً يطول ذكرها، وقد كتب قدر منها في الجدار القبلي لمسجده ﷺ. وما كان ينبغي أن تكتب أسماؤه وصفاته على الجدران والحيطان، وإنما على ألواح الذهب، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

ماله علاقة بالذات المحمدية كالزوجات والأولاد والموالي والممتلكات له كالمراكب وأنواع السلاح

○ (١) أزواجه ﷺ:

أجمل ابن الكلبي - كما ذكر ذلك ابن الأثير - القول في زوجات الرسول ﷺ فقال: تزوج النبي ﷺ خمس عشرة امرأة، ودخل بثلاث عشرة منهن، وجمع بين إحدى عشرة منهن، وتوفي عن تسع منهن - رضي الله عنهن -.

وتفصيل ذلك كالآتي

تزوج رسول الله ﷺ أول من تزوج خديجة بنت خويلد، وكانت قبلُ تحت عتيق ابن عائذ بن عبد الله بن مخزوم، فمات عنها وتزوجها بعده أبوهاالة بن زراراة بن النُبَّاش التميمي، فولدت له هند بن أبي هالة، ثم مات عنها فتزوجها رسول الله ﷺ وهي أم أولاده كافة إلا إبراهيم فإنه من مارية القبطية جاريتها، التي أهداها إياه الملك المقوقس ملك القبط، وهو بالمدينة النبوية.

ثم تزوج عائشة بنت أبي بكر الصديق، وكانت صغيرة السن، فلم يكن^(١) بها حتى هاجر إلى المدينة المنورة وهاجرت أسرتها الكريمة. ثم تزوج ﷺ بمكة سودة بنت زمعة وهي ثيب؛ إذ كانت تحت السكران بن عمرو أخي سهيل بن عمرو، وكان قد هاجر إلى الحبشة فتنصر ومات بها كافراً، فزوجه بها والدها زمعة بن قيس، وخطبتها له خولة بنت حكيم امرأة عثمان بن مظعون، فدخل بها بمكة وأصدقها أربع مائة درهم.

(١) بنى بها ﷺ وعمرها تسع سنين، ومات عنها وعمرها ثماني عشرة سنة.

ثم تزوج حفصة بنت عمر بن الخطاب، وكانت قبله تحت خُنَيْس بن حذافة السهمي وأمهرها ﷺ أربعمئة درهم، ثم تزوج أم سلمة بنت أبي أمية المخزومية، وكانت عند أبي سلمة بن عبد الأسد شهيد أحد رضى الله عنه. ثم تزوج زينب بنت خزيمة أم المساكين، وكانت عند الطفيل بن الحارث بن عبد المطلب، وماتت عند رسول الله ﷺ ولم يمض في حياته من نسله ﷺ إلا هي وخديجة قبلها. ثم تزوج جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار الخزاعية من بني المصطلق، وكانت عند مالك بن صفوان المصطلق، ولم تلد له شيئاً، ثم تزوج أم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب، وكانت عند عبيد الله بن جحش وهو من مهاجرة الحبشة وتنصر ومات بها، فأرسل النبي ﷺ إلى النجاشي فخطبها عليه وتزوجها وهي بالحبشة، وتولى عقد نكاحها خالد بن سعيد بن العاص، ودفع مهرها النجاشي، وكان أربعمئة دينار. واسم أم حبيبة رُمْلَة. ثم تزوج زينب بنت جحش، وكانت عند زيد ابن حارثة مولا، فزوجه الله تعالى بها، وبعث في ذلك جبريل، فكانت تفخر على نساء رسول الله ﷺ وتقول: أنا أكرمهن وليا وسفيراً، وهي أول من توفى من زوجات الرسول ﷺ بعد وفاته، فقد توفيت في خلافة عمر - رضي الله عنهما وأرضاهما -، ثم تزوج صفية بنت حيي بن أخطب النضرية وكانت قبله عند سلام بن مشكم فمات عنها، وخلفه عليها كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، فقتل في خيبر، ثم اعتقها رسول الله ﷺ وتزوجها؛ لأنها كانت من سبني خيبر، ثم تزوج ميمونة بنت الحارث الهلالية، وكانت قبله تحت عمير بن عمرو الثقفي، ثم تزوجها بعد عمير أبوزهير بن عبد العزى ثم تزوجها رسول الله ﷺ بعده، وهي خالة عبد الله بن عباس رضى الله عنهما تزوجها رسول الله ﷺ في عمرة القضاء، عقد عليها بمكة بعد التحلل من العمرة، وبنى بها بسرف كما تقدم بيانه في عمرة القضاء. ثم تزوج شراف بنت خليفة الكلبي، وتوفيت قبل أن يبنى بها وهي أخت دحية بن خليفة الكلبي رضى الله عنه. ثم تزوج امرأة من بني كلاب وتوفيت قبل البناء بها، ثم تزوج الشَّيْبَة بنت عمرو الغفارية، فلما مات ابنه إبراهيم قالت: لو كان نبيا ما مات ولده، فطلقها، ثم تزوج عربة بنت جابر الكلابية، فلما قدمت عليه ﷺ استعاذت بالله منه، ففارقها وقال: «مَنْعَ عَائِدَ اللَّهِ». ثم تزوج العالية بنت ظبيان فبنى بها، ثم فارقها وردّها إلى أهلها لعلّة كانت بها.

المذكورات هن النسوة اللاتي تزوجهن رسول الله ﷺ ذكرناهن تفصيلاً لا إجمالاً. وأما السَّراري^(١) فلم يكن له ﷺ سوى مارية بنت شمعون القبطية وريحانة بنت زيد القرظية أو النضرية.

ومما ينبغي أن يقال هنا ويعلم، أن النبي ﷺ لم يتزوج بكراً قط إلا عائشة، وكان زواجه بها إكراماً لوالدها الصديق الوفي والأخ الصادق الأخوة، الذي آزره منذ اللحظات الأولى في دعوته

(١) جمع سُرّة: الجارية ينسرى بها مالكها، وإن ولدت تكون أم ولد؛ فلا يحل بيعها كمارية أم إبراهيم.

وحمل رسالته . وبهذا يتبين بوضوح لذوي العقول والبصائر أن النبي ﷺ لم يتزوج امرأة من نساؤه الثلاث عشرة اللائي بنى بهنّ لمجرد الرغبة في الاتصال الجنسي ، وإنما كان لأهداف سامية وغايات شريفة لم يسّم إليها غير الحبيب محمد ﷺ . فقد تزوج خديجة بعد رغبتها في الزواج منه لتكون قاعدة دعوته ، وأمانة سرّه ، ومأوى نفسه عند اشتداد الخوف به وحلوة الأيام والليالي عليه . وتزوج أم حبيبة وأم سلمة وسودة وميمونة وأم المساكين وهن أرامل مرمولات ؛ إيواء لهنّ لما فقدن أزواجهنّ ، ولما أصابهنّ من عذاب واضطهاد في ذات الله تعالى .

وزوجه ربّه تبارك وتعالى زينب بنت جحش وهو كارهٌ لذلك تخاشى من أن يقول الناس : محمد تزوج امرأة زيد الذي تبناه . وتزوج حفصة بنت عمر الثيب ؛ إكراماً لعمر وتحقيقاً لرغبته في أن تكون بنته في بيت النبوة الطاهر وتصبح حفصة بنت عمر من أمهات المؤمنين . وإذا لم يكرم رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب من أصحابه فمن يكرم إذا؟

وتزوج صفية وجويرية مسحاً لدموعهما وإذهاباً لحزنهما لموت زوجيهما في معركة قتال دارت بين رسول الله ﷺ وبين رجالهما .

وهكذا ما تزوج رسول الله ﷺ لغير الله ، ولا بدون إذن من الله ورضاء . ألا قاتل الله الطاعنين في الكمال المحمدي ، وقطع ألسنة الجاهلين ببغاوات أعداء الإسلام من يهود ونصارى ومجوس ومشركين الذين يهرفون بما لا يعرفون .

○ (ب) أولاده ﷺ :

إن النبي ﷺ مثله مثل غيره من أنبياء الله ورسله إذ كانت لهم أزواج وكان له أولاد من بنين وبنات وهذا من الكمال لا من النقصان قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَكَلَّمْنَا لَهُمْ أَرْوَاحًا وَنُزُلًا ﴾ [الرعد: ٣٨] ، وقال تعالى في خطابه إياه ﷺ : ﴿ قُلْ هَدَيْتُهُمْ أَتَقْوُونَ ﴾ (١) [الأنعام: ٩٠] . ومن هنا تزوج رسول الله ﷺ ما سبق بيانه من النساء اللائي شرفهنّ الله تعالى بصحبة نبيه وخليفه محمد ﷺ إلا أنه لم ينجب من نساؤه إلا اثنتان ، هما خديجة بنت خويلد الأسدية القرشية ، ومارية بنت شمعون القبطية المصرية ، فخديجة أنجبت من الذكور : القاسم ، وعبد الله ، والطيب أو الطاهر ، وماتوا صغاراً لم يبلغ الحدث منهم أحدٌ ، وماتوا ودفنوا بمكة قبل الهجرة ، وأنجبت من الإناث زينب ، ورقية ، وأم كلثوم ، وفاطمة ، وكلهن كبرن وتزوجن . فزينب تزوجت من أبي العاص بن الربيع ، ورقية وأم كلثوم تزوجهن عثمان بن عفان واحدة بعد واحدة ، وتوفاهن الله تعالى عنده ، وفاطمة تزوجها علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأنجبت الحسن والحسين وهما أصل الأشراف في العالم الإسلامي إلى اليوم وبعد اليوم إذ بارك الله تعالى في نسلهما كرامة الله لآل البيت .

(١) «لقد» زيدت فيه هاء السكت .

ومارية القبطية أنجبت إبراهيم، ومات وهو رضيع لم يقطع بعد، ودفن بالقيع كما دفنت كل من أم كلثوم ورقية بالقيع، وكذا فاطمة و. هؤلاء هم أبناء النبي ﷺ وبناته - فعلى جميعهم السلام - .

○ (ج) موالى الحبيب ﷺ :

إن المراد من الموالى، أولئك الأرقاء الذين أعتقهم رسول الله ﷺ وشرفوا بخدمته يومًا من الدهر، وهذه قائمة بأسمائهم:

■ زيد بن حارثة الكلبي وولده أسامة بن زيد، وهما الحبّ وابن الحبّ رضى الله عنهما .
■ ثوبان، ويكنى بأبي عبد الله أصابه من السّراة، سكن حمص بعد وفاة رسول الله ﷺ ومات بها .

■ شقران، واسمه صالح، قيل : إنه من الحبشة وقيل : من الفرس، وغالب الظن أنه من الفرس الذين كانوا يسكنون اليمن من بقايا الجيوش التي دخلت اليمن من الفرس في الجاهلية قبل الإسلام كما تقدم بيانه في هذه الرسالة .

■ أبرافع، واسمه إبراهيم القبطي كان لآل العباس فأسلم، ووهبه العباس لرسول الله ﷺ فأعتقه وزوجه فأنجب أولادًا وكان ينحت القداح، وكان كاتبًا، واستكتبه علي رضى الله عنهما .
■ سلمان الفارسي الأصبهاني كان مملوكًا في آخر أيامه قبل الإسلام لليهودي، فكانت اليهودي، وأعانه رسول الله ﷺ حتى عُتِق .

■ سفينة^(١) وكان لأم سلمة فأعتقته، واشترطت عليه خدمة رسول الله ﷺ مدة حياته، فقبل بالشرط ونفّذه، فخدم رسول الله ﷺ وشرف بذلك ويا ليتني كنت أنا وأمي وأولادي خدمًا لرسول الله ﷺ مدة حياته .

■ أنسَة ويكنى أبا مشرح وهو من مولدي السراة، وكان يأذن^(٢) على رسول الله ﷺ إذا جلس، توفي في حياة أبي بكر رضى الله عنه .

■ أبوكبشة، واسمه سليم، اشتراه الرسول ﷺ وأعتقه، وشهد بدرًا والمشاهد كلها توفي يوم استخلف عمر رضى الله عنه .

■ زُوَيْفَع، ويكنى أبا مويهبة كان من مولدي مزينة، اشتراه النبي ﷺ وأعتقه .

■ رباح الأسود، وكان يأذن على رسول الله ﷺ في المجلس، وهو الذي أخذ الإذن لعمر حتى دخل على رسول الله ﷺ أيام آلى من نسائه .

(١) يسمى سفينة ؛ لأنه كان في سفر، فكان الرجل إذا أعيأ يرمي عليه درعه أو سيفه، فيحمل ذلك فقال له رسول الله ﷺ : «أنت سفينة» فلقب بسفينة .

(٢) بمعنى يستأذن في الدخول لمن أراد أن يدخل على رسول الله ﷺ، وفي الكلام لمن أراد أن يكلمه ﷺ .

- فضالة اليماني نزل الشام .
- مدغم، قُتل بوادي القرى بسهم عائر، أي بسهم لا يعرف من رماه به .
- أبوضميرة، قيل : كان من الفرس، أصابه رسول الله ﷺ في بعض الوقائع وأعتقه .
- يسار، وكان نوبيا، أصابه رسول الله ﷺ في بعض غزواته فأعتقه، وهو الذي قتله العرنيون الذين أغاروا على إلقاء النبي ﷺ .
- مهران مولاة حَدَّثَ عن النبي ﷺ .
- حنين مولى رسول الله ﷺ، وهو جد إبراهيم بن عبد الله بن حنين كان يخدم رسول الله ﷺ ويوضئه، ثم وهبه رسول الله ﷺ لعمة العباس فأعتقه .
- زيد أبويسار روائي حديث^(١) : «من قال : أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه غُفر له، وإن كان فر من الزحف» .
- كركرة، كان على ثقل النبي ﷺ في بعض غزواته، ومات وهو غالٍ عباءة فقال النبي ﷺ : «هو في النار» .

- كيسان روائي حديث : «إنا أهل بيت نُهينا أن نأكل الصدقة» . رواه البغوي .
- أبوبكرة نويغ الثقفي، تدلى ببكرة من حصن الطائف، فأعتقه رسول الله ﷺ مع أعبد كانوا معه، وطالب أهل الطائف بهم بعد إسلامهم، فلم يردهم رسول الله ﷺ إليهم وقال : «هم عتقاء الله» .

○ (د) إماء رسول الله ﷺ :

- وكان للحبيب ﷺ إماء كثيرات منهن :
- بركة أم أيمن وأم أسامة بن زيد، فازت بحضانة النبي ﷺ مع والدته آمنة، كان قد زارها أبوبكر وعمر بعد وفاة رسول الله ﷺ فبكت أمامهما فقالا لها : أما تعلمين أن ما عند الله خير لرسول الله ﷺ ؟ فقالت : بلى ولكنني أبكي؛ لأن الوحي قد انقطع من السماء، فجعلتا يبكيان - رضي الله عنهن أجمعين .
- خولة خادمة^(٢) رسول الله ﷺ .
- رَضْوَى بنت كعب .
- ريحانة بنت شمعون القرظية أو النضرية .
- سانية مولاة رسول الله ﷺ .
- سلمى أم رافع امرأة أبي رافع .

(١) رواه أبو داود، والترمذي ووصفه بالغرابة .

(٢) ويقال : خادم وهو أفصح، وخادمة أقرب إلى فهم الناس اليوم .

- ميمونة بنت سعد، روى عنها أصحاب السنة.
- عنقودة أم مليح الحبشية جارية عائشة كان اسمها عنبّة، فسمّاها رسول الله عنقودة.
- أم عياش، بعثها رسول الله ﷺ مع ابنته تخدمها حين زوّجها عثمان رضى الله عنه.
- ميمونة بنت أبي عسيب، رواية حديث: «ضعي يدك اليمنى على فؤادك فامسحيه وقولي: باسم الله، اللهم داوني بدأوتك، واشفني بشفائك، وأغنني بفضلك عمن سواك» حيث طلبت دعوة من رسول الله ﷺ يسكن بها قلبها وتطمئن بها نفسها، فقال لها رسول الله ﷺ: «قولي» الحديث...

هؤلاء موالیه، وهم خدمه، أما موالیه وخدمه من الأحرار^(١) فأفضل الصحابة كأبي بكر الصديق فقد خدمه واعتزّ بخدمته، فلذا من خدمه من أصحابه لا يقلون عن عدد الموالی من خدمه بل هم أكثر^(٢). فَصَلِّ اللهم على نبيك وصفيك وخيرتك من خلقك محمد وعلى آله وصحبه وموالیه ومن آمن به واهتدى بهداه إلى يوم الدين.

○ هـ) كتابه ﷺ:

إن من صفات الكمال المحمدي، الأثية؛ إذ بها نُوت في الكتب الأولى ومعناها: أنه لا يقرأ في كتاب ولا يكتبه، إذ لو كان كذلك لارتاب المبطلون، فكانت الأمية صفة كمال له دون غيره من سائر الناس.

ومن هنا كان لا بد من كُتّاب يكتبون له ﷺ الوحي النازل إليه من ربّه تعالى، وغير الوحي مما لا بد من كتابته، كالوثائق والعهود السياسية وكمراسلة الملوك والرؤساء، لإبلاغ دعوة الله عز وجل. وللحبيب ﷺ كتاب كثيرون هذا طرف منهم:

- أبو بكر الصديق.
- عمر بن الخطاب.
- عثمان بن عفان.
- علي بن أبي طالب.
- خالد بن سعيد.
- أبان بن سعيد.
- العلاء بن الحضرمي.
- أبي بن كعب وهو أول من كتب له بالمدينة.

(١) من أشهر من خدم رسول الله ﷺ من الأحرار أنس بن مالك الأنصاري، قال خدمت رسول الله ﷺ عشر سنوات، ما قال لي في شيء فعلته لم فعلته؟ ولا في شيء تركته لم تركته؟ وذلك لكمال خلقه ﷺ.

(٢) اختلف في عدد الصحابة وهم ما بين الستين ألفاً إلى مائة وعشرين ألفاً.

- زيد بن ثابت، وقد أمره أن يتعلم العبرانية^(١) فتعلمها قراءة وكتابة في نصف شهر لا غير.
 - عبد الله بن سعد بن أبي السرح، ثم ارتد وعاد إلى الإسلام يوم الفتح وحسن إسلامه.
 - حنظلة الأسدي.
 - الزبير بن العوام حواري رسول الله ﷺ وابن عمته.
 - خالد بن الوليد المخزومي صاحب المواقف البطولية في الجهاد.
 - ثابت بن قيس بن شماس.
 - عامر بن فهيرة مولى أبي بكر الصديق رضي الله عنه.
 - عبد الله بن أرقم بن أبي الأرقم المخزومي.
 - عبد الله بن زيد بن عبدربه صاحب رؤيا الأذان.
 - محمد بن سلمة الأنصاري.
 - معاوية بن أبي سفيان، وكان يكتب بين يدي رسول الله ﷺ.
 - المغيرة بن شعبه الثقفي راوي حديث المسح على الخفين.
- (و) أسماء خيله ﷺ:

إن تسمية الدواب من إنسان وحيوان وغيرهما أمر مقرر في الشرع والعقل، إذ لا تعرف الذات إلا بسمه أي بعلامة تدل عليها، ومن ذلك تسمية الأشياء.

وللحبيب ﷺ خيل يركبها للجهاد عليه لا للفخر والمباهاة؛ إذ ذلك شأن أبناء الدنيا. وأما الحبيب ﷺ فقد كان أرقى البشر فكراً وأرجحهم عقلاً، وأصفاهم ذهنًا، وأطهرهم روحًا وأزكاهم^(٢) نفسًا، فكيف يكون للدنيا ابنًا وهي بثست الأم؟! ومن خيول النبي ﷺ التي عرفت بأسمائها ما يلي:

- السَّكْبُ، وهو أول فرس ملكه، وغزا غزوة أحد عليه، وسُمِّي بالسكب لأنه كثير الجري.
- مُلاح.
- المُرْتَجَز.
- اللحيث، أهداه إليه ربيع بن أبي البراء.
- الظَّرْب، أهداه إليه فروة بن عمرو الجذامي.
- الورد، أهداه إليه تميم الداري، فوهبه ﷺ لعمر بن الخطاب رضي الله عنه.
- اللزاز، أهداه إليه المقوقس كما أهدى إليه مارية والبيغلة «الدُّلْدُل».

(١) لغة اليهود الدينية والسياسية.

(٢) لا فرق بين الروح والنفس إلا تلوين العبارة للبيان.

○ (ز) أسماء بغال الحبيب ﷺ :

لقد كان للنبي ﷺ بغلتان : الأولى «الذَّلْدَل» . وهي بغلة بيضاء . أهداها إليه المقوقس ملك القبط ، وهي أول بغلة رؤيت في الإسلام . والثانية «فضة» أهداها إليه فروة بن عمرو ، فوهبها ﷺ إلى أبي بكر الصديق ، وكان له حمار واحد يقال له يعفور أو عفير ، أهداه إليه المقوقس ملك القبط .

○ (ح) أسماء إبله ولقاحه ومناحه ﷺ :

أما الركائب من الإبل ، فلم يكن له ﷺ من الإبل سوى القصوى ، ويقال لها : العضباء ، والجذعى أيضًا أخذها من أبي بكر بأربعمائة درهم . وهاجر عليها من مكة إلى المدينة ، وبقيت معه مدة طويلة . وأما اللقاح ، فكان له عشرون لقحة ترعى بالغابة ، وهي التي أغار عليها العرنيون ، ومنهن : الحسناء ، والسمراء ، والعريس والسعدية ، والبغوم^(١) ، واليسيرة ، والربا ، ومهرة ، والشقراء كان يأتي لبنها أهله كل ليلة .

وأما المناحي^(٢) فقد كان له ﷺ سبع منائح من الغنم ، وهي : عجوة ، وزمزم ، وسقيا ، وبركة ، وورسة ، وأطلال ، وأطراف . كما كان له سبع أعنز كان يرعاهن أيمن بن أم أيمن مولاة رسول الله ﷺ .

○ (ط) أسماء سلاح الحبيب ﷺ :

من أشهر سلاحه ﷺ سيفه «ذوالفقار» الذي غنمه يوم بدر ، وكان لمثبه بن الحجاج ، وغنم من بني قتيقاع ثلاثة أسياف ، هي : القلعي ، والبتار ، والحتف ، وكان له سيف يدعى المخدّم وآخر يسمى رسوب ، وكان له بمكة سيفان ، قدم بهما المدينة وحمل أحدهما معه إلى بدر وهو القضب .

وأما الرماح والقسى ، فقد كان له ﷺ ثلاثة رماح ، . وثلاث قسي إحداها تسمى الروحاء ، والثانية البيضاء ، والثالثة الصفراء .

وأما الدروع فقد كان له ثلاثة دروع ، الأولى تسمى الفضة غنمها من بني قتيقاع ، والثانية تسمى ذات الفضول ، كانت عليه يوم أحد من الفضة ، والثالثة الصعدية . وكان له ثُرُوس واحد فيه تمثال رأس كبش فكرهه لذلك ، فأصبح وقد أذهب الله تعالى عنه ، وكان له قضيب يسمى الممشوق .

هذا ، ويقول الإمام ابن كثير - رحمه الله تعالى - : نظرًا إلى ما صح من قول علي وخبر الصحابة أن النبي ﷺ مات ولم يترك دينارًا ولا درهمًا ، وأن درعه مرهونة في ثلاثين صاعًا من شعير أن جميع ما ذكر من العبيد والإماء والحيوان والسلاح قد أنجز التصديق به قبل موته ، وهو كذلك ، وكيف وقد قال : «إنا معاشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه صدقة» .

(١) البغام : صوت الإبل . (٢) جمع منيحة : الشاة تعطى لأجل لبنها .

الخصائص الحمديّة

إن للحبيب ﷺ خصائص اختصه الله تعالى بها؛ لكماله الذاتي والروحي لم تكن لغيره من أفراد أمته. وهذا طرف منها:

١ - النبوة: فليس لأحد بعده أن يدعيها، أو أن تكون له بحال؛ لأن الله تعالى ختم نبوته سائر النبوات، وبرسالته سائر الرسالات قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ رَسُولُ اللَّهِ وَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٥٠]، فمن ادعى النبوة معه كمسيلة الكذاب أو بعده فهو كاذب كافر يستتاب فإن تاب وإلا قتل كفراً.

٢ - الوحي: فليس لأحد بعده أو معه أن يدعي أنه أوحى إليه بكذا أو يوحى إليه في كذا لا يقظة ولا مناماً، لا بإلقاء في الروح، ولا بهتاف ملك فضلاً عن رؤية الملك والتلقي عنه، وذلك لانقطاع الوحي بموت النبي ﷺ، ولكمال الشريعة وتمامها، وعدم حاجتها إلى إكمال أو إتمام، فمن ادعى الوحي - وإن قل - فهو كافر يعامل معاملة مدعي النبوة.

٣ - نوم العيينين دون القلب: فهذا من خصائصه ﷺ؛ إذ هو الذي تنام عينه ولا ينام قلبه، خصوصية أخير بها له ﷺ فلم تكن لغيره، فمن ادعاها فهو كاذب مفتر لا تقبل منه دعواه.

٤ - إباحة الله تعالى له نكاح أكثر من أربع زوجات: وعدم إباحة ذلك لغيره من سائر رجال أمته؛ إذ قال: ﴿إِنَّا أَسْلَمْنَا لَكَ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ أَتَيْتَ أَجْرَهُمْ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ [الأحزاب: ٥٠]، وكان تحته تسع نسوة يوم نزلت هذه الآية. هذا له، ولأمنه قال تعالى: ﴿فَأَنكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَتَى وَكُنْتُمْ رِجَالًا﴾ [النساء: ٣٠] فلم يحل لهم أكثر من أربع، فكانت الزيادة على الأربع من خصائص النبي ﷺ.

٥ - وصال الصيام: إذ من خصائصه ﷺ مواصلة الصوم، فيصوم يومين متتاليين لا يفطر إلا في نهاية اليوم الثاني، ولم يؤذّن لأحد من أمته في ذلك، وقد قيل له في ذلك فقال: «إني لست كأحدكم، إني أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني» رواه الشيخان. والإطعام والسقي هنا معنويان على حد قوله في المريض: «لا تكروها مرضاكم على الطعام والشراب، فإن الله يطعمهم ويسقيهم».

٦ - حرمة أكل الصدقة: ويشاركه في هذه الخصوصية آل بيته دون سائر أفراد أمته؛ فإنه يحل لأي فقير ومحتاج أن يأكل الصدقة ويطلبها إن احتاج إليها إلا رسول الله ﷺ وآل بيته.

٧ - قيام الليل: فإنه ﷺ كان يقوم الليل على سبيل الوجوب؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوَّلَ لَيْلٍ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [المزمل: ١٢]. وقوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء: ٧٩]. بخلاف أفراد أمته، فقيام الليل ليس واجباً على أحد منهم، وإنما يقومونه تطوعاً ونافلة لا غير.

٨ - عدم إرثه ﷺ: فما تركه كان صدقة، فلم ترث فاطمة نصفها، ولا أزواجه أمهات المؤمنين تُمْنُهُنَّ، ولا العباس العاصب ما أبقت الفرائض، بل قال ﷺ: «إنا معاشر الأنبياء لا نورث، ما

تركناه صدقة، وقوله تعالى: ﴿وَوَيْتَ سُلَيْمَنُ دَاوُدَ﴾ [النمل: ١٦] . فليس المراد منه إرث المال بل النبوة والملك؛ إذ لا يخبر تعالى - في مقام الإنعام والتكريم - بأن ولدًا وورث والدًا فيما ترك من مال إن هذا أمر معلوم بين سائر الناس، ولا فضل فيه لأحد على آخر .

٩ - هبة النكاح : وهي من خصائصه ﷺ فأيا امرأة وهبت نفسها للنبي ﷺ له أن يتزوجها بدون مهر يقدمه لها، ولم يكن هذا لأحد من أفراد أمته قط، إذ لا بد للنكاح من مهر معجلًا أو مؤجلًا، إلا ما كان لرسول الله ﷺ لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الْمُؤْمِنَةُ إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب: ٥٠] . ومن لم تهب له نفسها، فعليه أن يدفع لها مهرًا، وقد أمهر الكثير من نسائه أربعمائة درهم .

١٠ - حرمة نكاح نسائه بعده : وليس هذا لأحد سواء قال تعالى: ﴿الَّذِي أَوْلَىٰ الْأَمْثَلِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَرْوَاحُهُمْ أَمْثَلُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦] . فلا يحل لمؤمن أن يتزوج امرأة من نساء النبي اللاتي توفى عنهن، بخلاف أفراد أمته من علماء وصلحاء - وكلهم أولياء، فلا يحل لأحدهم أن يمنع امرأته من الزواج بعده إلا أن تشاء هي ذلك، فلها ما شاءت ما شاء الله تعالى لها ذلك .

المعجزات الحمديّة

إن المراد من المعجزات : ما يعجز البشر عن الإتيان بمثله، فيكون ما يأتي به النبي مُعْجَزًا لغيره من سائر الناس، بحيث لم يقدرُوا عليه أفرادًا أو جماعات، لأنه خارج عن طوق البشر واستطاعتهم، إن قُرِنَ بالتحدي كان المعجزة الخاصة بالأنبياء، وإن لم يقرن بتحدٍ فهو كرامة يكرم الله تعالى بها من يشاء من أوليائه وصالحي عبادِهِ، إذ الفرق بين المعجزة والكرامة : أن المعجزة تكون مقرونة بالتحدي غالبًا، والكرامة خالية من ذلك؛ لأن المعجزة قائمة مقام قول الله تعالى: «صدقوا النبي فيما يخبر به عني»، فالمعجزة مثبتة للنبوة مُقررة لها؛ إذ بها يعرف النبي الحق من المدعي الكاذب .

ولفظ المعجزة غير وارد في القرآن الكريم، وإنما الوارد لفظ «الآية»؛ لأن الأصل في «الآية» العلامة الدالة على الشيء، إذ يقول الإنسان لأخيه: فلان يقول لك: أعطني كذا أو كذا، فيقول له: ما آية ذلك؟ أي ما علامته أنه قال: أعطه كذا وكذا؟ فيريه خاتمه، أو كتابه، أو سيفه، أو أي شيء خاص به فيكون ذلك آية وعلامة على صدق ما ادعاه وطالب به .
ومن القول الشائع عند الناس قولهم: «لا نبي إلا بالمعجزات، ولا ولي إلا بالكرامات» وهو قول في - الجملة - صحيح .

هذا، وللحبيب محمد ﷺ معجزات أكرمها الله بها، وصدق رسالته بمثلها بلغت ألف المعجزة، هكذا قرر أهل العلم إن لم تكن أكثر من ذلك وها نحن أولاء نورد ما يحضرنا منها:

○ وأولى تلك المعجزات أو الآيات :

القرآن الكريم

لأنه كلام الله تعالى أوحاه إليه ، فدل ذلك على نبوته ، وصدقه في رسالته ؛ لأن القرآن الكريم معجز بحروفه وكلماته وتراكيبه ، ومعانيه ، وأخبار الغيوب التي وردت فيه ، فكانت كما أخبر ، كما هو معجز بالأحكام الشرعية والقضايا العقلية التي لا قبل للبشر بمثلها ، مع التحدي القائم إلى اليوم بأن يأتي الإنس أو الجن - متعاونين - بمثله قال تعالى موحيه ومنزله : ﴿قُلْ لِّيِ أَجْتَعِبَ الْإِنْسَ وَالْجِنَّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بِهِمْ عِلْمٌ بِمَا يُغْشَى الْعَرْبِ أَرْبَابَ الْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ وَالْبَيَانِ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلَهُ مَا اسْتَطَاعُوا قَالَ تَعَالَى : ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُوَرٍ مِثْلِهِ مَفْرُودَاتٍ﴾ [هود: ١٣] وتحداهم بسورة واحدة من مثله فقال : ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُوَرٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [فجر: ٢٣-٢٤] نفيا لقدرتهم على الإتيان بسورة مثل القرآن في مستقبل الأيام ، وقد مضى حتى الآن ألف وأربعمائة واثنان وعشرون سنة ، ولم يستطع الكافرون أن يأتوا بسورة من مثله .

وبهذا كان القرآن معجزة خالدة باقية ببقاء هذه الحياة ، ولذا سيخلد الإسلام ويبقى إلى نهاية الحياة ، لأن معجزته باقية كذلك .

○ وثانية المعجزات :

انشقاق القمر

فقد روى أحمد ، والبخاري ومسلم في صحيحهما ، أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية ، فأراهم القمر شقين . قال مطعم : انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فصار فرقتين ، فرقة على هذا الجبل ، وفرقة على هذا الجبل ، فقالوا : سحرنا محمد ، وأنزل الله تعالى مصداق ذلك وهو قوله تعالى : ﴿افْتَرَيْنَا السَّاعَةَ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [زلزال: ١٠-١١] .

○ وثالثة المعجزات :

نزول المطر بدعائه

لقد أمحلت البلاد ، وأصابها قحط شديد ، فدخل^(١) رجل المسجد - ورسول الله ﷺ قائم على المنبر يخطب - فاستقبل الرجل النبي ﷺ وقال : يا رسول الله ! هلكت الأموال ، وانقطعت السبل ، فادع الله لنا يغثنا ، فرفع رسول الله ﷺ يديه فقال : «اللهم اسقنا ، اللهم اسقنا ، اللهم

(١) رواه البخاري وغيره .

اسقنا» قال أنس: والله ما في السماء من سحاب ولا قزعة ولا شيء، وما بيننا وبين سُلْع^(١) من بيت ولا دار، فطلعت من ورائه سحابة مثل الترس، فلما توسطت السماء انتشرت، ثم أمطرت، والله ما رأينا الشمس سائاً. ثم دخل رجلٌ من ذلك الباب في الجمعة المقبلة - ورسول الله ﷺ قائم يخطب - فاستقبله الرجل، وقال: يا رسول الله! هلكت الأموال، وانقطعت السبل، ادع الله يمسكها، فرفع رسول الله ﷺ يديه، وقال: اللهم حوالينا ولا علينا، اللهم على الآكام^(٢) والظراب وبطون الأودية ومنابت الشجر». قال أنس: فانقطعت وخرجنا نمشي في الشمس.

فهذه المعجزة - وهي نزول المطر بدعائه ﷺ - قد تكررت مرات عديدة، وهي معجزة سماوية كانشقاق القمر لا دخل لغير القدرة الإلهية فيها، وهي آية نبوته ﷺ وكثرة تكرار هذه الآية كانوا يرددون قول أبي طالب:

وأبيض^(٣) يستسقى الغمام بوجهه شمال اليتامى عصمة للأرامل
○ ورواية المعجزات:

نبوع الماء من بين أصابعه ﷺ

ومن معجزات الحبيب ﷺ الدالة على نبوته وصدق رسالته: نبوع الماء من بين أصابعه الشريفة، فقد قال أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ: رأيت رسول الله ﷺ وحانت صلاة العصر، والشمس الناسُ الوُضوء^(٤)، فلم يجدوه، فأتى رسول الله ﷺ بوضوء، فوضع رسول الله ﷺ يده في ذلك الإناء، وأمر الناس أن يتوضؤوا منه، فرأيت الماء ينبع من بين أصابعه، فتوضأ الناس حتى يتوضؤوا من عند آخرهم. قال قتادة: قلت لأنس: كم كنتم؟ قال زهاء ثلثمائة رجل.

فهذه معجزة ظاهرة؛ إذ ليس في طوق البشر أن يأتوا بمثله؛ إذ لم يخبر سنة الله في الكون أن الماء ينبع من بين أصابع الإنسان مهما كان إلا أن تكون آية تدل على صدق نبوة من ادعاه، فقد كانت هذه آية نبوته ﷺ، إذ وقعت في سوق المدينة العاصمة وحضرها وشهدها قرابة ثلثمائة الرجل من أصدق الرجال وأذكاهم، وأنقاهم.

○ وخامسة المعجزات:

فيضان ماء بئر الحديبية^(٥)

ومن معجزاته ﷺ أنه لما كان بالحديبية - هو وأصحابه - سنة ست من الهجرة وكان الحديبية

(١) جبل داخل المدينة النبوية اليوم.

(٢) جمع أكمة: تل صغير أو كدية من تراب.

(٣) أي رسول الله ﷺ.

(٤) الوضوء بفتح الواو الماء يتوضأ به.

(٥) مكان يبعد عن مكة بنحو عشرين ميلاً.

بشر ماء فنزحها أصحابه بالسقي منها حتى لم يَبْقَ فيها ما يملأ كأس ماء، وكانوا ألفاً وأربعمائة رجل، وخافوا العطش، فشكوا ذلك إليه ﷺ فجاء يجلس على حافة البئر، فدعا بماء، فجاء به إليه فتمضمض منه، ومَجَّ ما تمضمض به في البئر فما هي إلا لحظات، وإذا البئر فيها الماء، فأخذوا يسقون فسقوا وملتوا أوانيهم وأدوات حمل الماء عندهم وهم - كما تقدم - ألف وأربعمائة رجل، وهم أهل بيعة الرضوان الذين رضي الله عنهم، وأنزل فيهم قوله تعالى من سورة الفتح: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨]. ففيضان الماء من بئر جافة لا ماء بها حتى سقي منها أهلها معسكر بكامله لم يكن إلا آية نبوية صادقة، تنطق قائلة: أَنْ صَدَّقُوا مُحَمَّدًا فِيمَا جَاءَكُمْ بِهِ وَدَعَاكُمْ إِلَيْهِ؛ فَإِنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَيْكُمْ حَقًّا وَصِدْقًا.

○ وسادة المعجزات: -

قدح لبن روى فقائمًا من الناس ببركته ﷺ

روى البخاري - رحمه الله تعالى - في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه القصة التالية: قال: والله، إن كنت لأعتمد بكبدي على الأرض من الجوع، وإن كنت لأشدُّ الحجر على بطني من الجوع، ولقد قعدتُ يومًا على طريقهم الذي يخرجون منه، فمرَّ أبو بكر فسألته عن آية من كتاب الله عز جل ما سألته إلا ليستبيني^(١) فلم يفعل، فمر عمر رضي الله عنه فسألته عن آية من كتاب الله تعالى ما سألته إلا ليستبيني. فلم يفعل، فمر أبو القاسم ﷺ فعرف ما في وجهي، وما في نفسي فقال: «أباهريه» قلت له: لبيك يا رسول الله ﷺ فقال: «الحق» واستأذنت فأذن لي، فوجدت لبنًا في قدح، قال: «من أين لكم هذا اللبن؟» فقالوا: أهدها لنا فلان - أو آل فلان - قال: «أباهر»، قلت: لبيك يا رسول الله، قال: «انطلق إلى أهل الصدقة فادعهم لي» قال - أي أبو هريرة -: «وأهل الصدقة أضياف الإسلام لم يأتوا إلى أهل، ولا مال؛ إذا جاءت رسول الله ﷺ هدية أصاب منها وبعث إليهم منها، وإذا جاءت الصدقة أرسل بها إليهم، ولم يصب منها». قال أبو هريرة: وأحزنتني ذلك؛ وكنت أرجو أن أصيب من اللبن شربة أتقوى بها بقية يومي وليلتي، وقلت: أنا الرسول!! فإذا جاء القوم كنت أنا الذي أعطيهم، وقلت: ما يبقى لي من هذا اللبن؟ ولم يكن من طاعة الله ورسوله بدُّ فأنطلقت فدعوتهم فأقبلوا واستأذنوا فأذن لهم فأخذوا مجالسهم من البيت ثم قال: «يا أباهريه خذ فاعطهم» فأخذت القدح، فجعلت أعطيهم فأخذ الرجل القدح فيشرب حتى يروى، ثم يرد القدح حتى أتيت على آخرهم ودفعته إلى رسول الله ﷺ فأخذ القدح فوضعه في يده وبقي فيه فضلة، ثم رفع رأسه ونظر إلي وابتسم، وقال: «أباهريه»، فقلت: لبيك رسول الله، قال: «بقيت أنا وأنت» فقلت: صدقت يا رسول الله. قال: «فاعد فاشرب» قال: (١) يستبيني: يطلب مني أن أتبعه.

فقدت فشربت، ثم قال لي: «اشرب» فشربت فما زال يقول لي: «اشرب»، فأشرب حتى قلت: لا، والذي بعثك بالحق ما أجد له في مسلكتك، قال: «ناولني القدح» فرددته إليه فشرب من الفضلة.

وهكذا تتجلي هذه المعجزة - وهي آية النبوة المحمدية؛ إذ قدحُ لبن لا يروى ولا يشبع جماعة من الناس - كلهم جياعٌ - بحال من الأحوال، فكيف أرواهم وأشبعهم؟ إنها المعجزة النبوية! وآية أخرى للكمال المحمدي أن يكون ﷺ هو آخر من يشرب من ذلك القدح الذي شرب منه جماعة من الناس.

وهنا يقال: ما بال الذين يتقززون من شرب السور ويرفضونه في كبرياء - وخوف أيضًا - أن يصابوا بمرض من ذلك؟ أين هم من هذا الكمال المحمدي؟ إنهم بعيدون كل البعد، ذاهبون في أودية الأوهام حيث لا يسمعون ولا يبصرون.

○ وسابعة المعجزات:

امتلاء عكة سمن بعد فراغها

روى الحافظ أبو يعلى عن أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ أنه قال: كانت لأمي أم سليم شاة، فجمعت من سمنها في عكة، فملأت العكة، ثم بعثت بها ربيبة فقالت: يا ربيبة أبلغني هذه العكة رسول الله ﷺ ياتدم بها، فانطلقت بها ربيبة حتى أتت رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله هذه عكة سمن بعثت بها إليك أم سليم قال: «أفرغوا لها عكتها». فأفرغت العكة ودفعت إليها قالت: فانطلقت بها، وجئت - وأم سليم ليست في البيت - فعلقت العكة على وتد، فجاءت أم سليم فرأت العكة ممثلة تقطر، فقالت: يا ربيبة أليس أمرتك أن تنطلقي بها إلى رسول الله ﷺ؟ فقالت: بلى قد فعلت، فإن لم تصدقيني فانطلقني فسلي رسول الله ﷺ، فانطلقت ومعها ربيبة، فقالت يا رسول الله! إني بعثت معها إليك بعكة من سمن قال: «قد فعلت قد جاءت» قالت: والذي بعثك بالحق، ودين الحق: إنها لممتلئة تقطر سمنًا. قال أنس: فقال رسول الله ﷺ: «يا أم سليم أتعجبين إن كان الله أطعمك كما أطعم نبيه، كلي وأطعمي» قالت: فجئت إلى البيت، فقسمت في قعب لنا، كذا أو كذا وتركت فيها ما اتدمننا به شهرًا أو شهرين.

فهذه إحدى المعجزات المحمدية؛ إذ ليس مما جرت به سنة الله في الخلق أن يمتلئ الإناء سمنًا بعد إفراغه منه، ويرى ذلك رأي العين ويتنفع به.

○ وثامنة المعجزات:

الطعام القليل يشبع العدد الكثير

روى البخاري عن أنس بن مالك رضى الله عنه قوله: قال أبوظلمة لأم سليم: لقد سمعتُ صوت رسول الله ﷺ ضعيفًا أعرف فيه الجوع، فهل عندك من شيء؟ قالت: نعم، فأخرجت

أقرصاً من شعير، ثم أخرجت خمراً لها فلفت الخبز ببعضه، ثم دسته تحت يدي ولائتي ببعضه، ثم أرسلتني إلى رسول الله ﷺ، قال: فذهبت فوجدت رسول الله ﷺ في المسجد ومعه الناس، فقامت عليهم، فقال رسول الله ﷺ: «أرسلك أبوطلحة؟» فقلت: نعم، قال: «بطعام؟» قلت: نعم، فقال رسول الله ﷺ لمن معه: «قوموا» فانطلق، وانطلقت بين أيديهم حتى جئت أبوطلحة فأخبرته فقال أبوطلحة: يا أم سليم قد جاء رسول الله ﷺ والناس ليس عندنا ما نطعمهم فقلت: الله ورسوله أعلم. فانطلق أبوطلحة حتى لقي رسول الله ﷺ، فأقبل رسول الله ﷺ وأبوطلحة معه، فقال رسول الله ﷺ: «هلم يا أم سليم ما عندك؟» فأنت بذلك الخبز، فأمر به رسول الله ﷺ ففتت، وعصرت أم سليم عكة فأدمته، ثم قال رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقول، ثم قال: «أئذن لعشرة» فأذن لهم فأكلوا حتى شبعوا، ثم خرجوا، ثم قال: «أئذن لعشرة» فأذن لهم فأكلوا حتى شبعوا، ثم خرجوا، ثم قال: «أئذن لعشرة» فأكل القوم كلهم، والقوم سبعون أو ثمانون رجلاً.

أليست هذه من أعظم المعجزات؟ بلى وربّي إنها لمن أعظم المعجزات؛ إن أقرصاً عدة حملها غلام تحت إبطه يطعم منها ثمانون رجلاً، ويشبع كل واحد منهم شيئاً لا مزيد عليه، إن لم تكن هذه معجزة فما هي المعجزات إذاً يا ترى؟

○ وبإسعة المعجزات:

تكاثر الطعام

إن معجزة تكثير الطعام والشراب قد تكررت فبلغت عشرات المرات، وفي ظروف مختلفة، ومناسبات عديدة، منها ما تقدم، ومنها هذه. فقد قال أبو هريرة رضي الله عنه: كنا مع رسول الله ﷺ في غزوة غزاها - وهي غزوة تبوك - فأرمل^(١) فيها المسلمون، واحتاجوا إلى الطعام فاستأذنوا رسول الله ﷺ في نحر الإبل، فأذن لهم، فبلغ ذلك عمر رضي الله عنه فجاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! إيلهم تحملهم وتبلغهم عدوهم ينحرونها؟ ادع يا رسول الله بغيرات^(٢) الزاد، فادع الله عز وجل فيها بالبركة، قال: «أجل» فدعا بغيرات الزاد، فجاء الناس بما بقي معهم، فجمعت ثم دعا الله عز وجل فيها بالبركة ودعاهم بأوعيتهم فملئوها وفضل كثير، فقال رسول الله ﷺ عند ذلك: «أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أني عبد الله ورسوله، ومن لقي الله عز وجل بها غير شاك دخل الجنة».

فهذه معجزات ظاهرة في تكثير الطعام القليل حتى أصبح كثيراً وهي - كما قدمنا - واحدة من عشرات المعجزات في تكثير الطعام والشراب.

(٢) غبرات الزاد: بقايا.

(١) نفذ زادهم واحتاجوا إلى الطعام.

○ وعاشرة المعجزات:

توفية دين جابر الذي استغرق كل ماله

فقد روى البخاري - رحمه الله تعالى - في دلائل النبوة المحمدية قصة جابر الآتية:
فقال: حدثنا أبو نعيم - وساق السند إلى جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام رضى الله عنهما فقال: إن أبي توفي وعليه دين، فأثيت النبي ﷺ فقلت: إن أبي ترك دينًا، وليس عندي إلا ما يخرج نخله، ولا يبلغ ما يخرج سنين ما عليه، فانطلق معي لكيلا يفحش علي الغرماء، فمشى حول بيدي^(١) من بيادر التمر فدعا، ثم آخر، ثم جلس عليه فقال: «انزعوه» فأوفاهم الذي لهم، وبقي مثل ما أعطاهم، وهكذا بعد أن كان الدين قد استغرق كل التمر ولسنين عدة أيضًا، وبقي التمر الموجود كل الديون، وبقي التمر في البيادر مثل ما سددت به الديون الكثيرة، وذلك ببركة وجود الرسول ﷺ بين البيادر ودعائه بالبركة فيها، فباركها الله عز وجل فوقت الديون وزادت. فكانت آية النبوة والمعجزة الظاهرة التي يبعث بها الأنبياء، ويكرم الله تعالى بها الأولياء متى شاء وهو على كل شيء قدير.

○ وحادية عشر المعجزات:

انقياد الشجر له ﷺ

روى مسلم بسنده عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال: سرنا مع النبي ﷺ حتى نزلنا واديا أفيح^(٢)، فذهب رسول الله ﷺ يقضي حاجته، فأثبته بإداة فيها ماء، فنظر فلم ير شيئًا يستتر به، وإذا شجرتان بشاطئ الوادي فانطلق إلى إحدهما، فأخذ ببعض من أغصانها وقال: «انقادي علي بإذن الله» فانقادت معه كالبعير المخشوش^(٣) الذي يصانع قائده حتى أتى الشجرة الأخرى فأخذ بعضًا من أغصانها وقال: «انقادي علي بإذن الله» فانقادت معه كالبعير المخشوش الذي يصانع قائده حتى إذا كان بالمنتصف فيما بينهما لأم بينهما - أي جمعهما - وقال: «الشفما علي بإذن الله» فالتأمتا، قال جابر: فخرجت أحضر^(٤)؛ مخافة أن يحس بقربي منه فيبعد، فجلست أحدث نفسي، فحانت مني التفاتة، فإذا أنا برسول الله ﷺ مقبل، وإذا الشجرتان قد افتترقا، وقامت كل واحدة منهما على ساق؛ إلى آخر الحديث...
فهذه إحدى المعجزات الخارقة للعادة التي لا تكون إلا لنبي من الأنبياء - عليهم السلام -؛ إذ كون الشجرة تستجيب وتنقاد مطيعة لأمر رسول الله ﷺ، هو أمر خارق للعادة لم تجر به سنن الله تعالى في الكون، وبذا كانت معجزة للحبيب ﷺ.

(١) الموضع الذي يجمع فيه التمر.

(٢) أي واسعًا رحبًا.

(٣) الذي جعل في أنفه الخشاش، وهو العود يعمل في عظم أنف الجمل لينقاد.

(٤) أي أغدو بشدة.

○ وثانية عشرة المعجزات :

حنين الجذع شوقاً إليه ﷺ

فقد روى أحمد - رحمه الله - عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : كان رسول الله ﷺ يخطب إلى جذع نخلة، فقالت امرأة من الأنصار - وكان لها غلام نجار - : يا رسول الله ! إن لي غلاماً نجاراً، أفأمره أن يتخذ لك منبراً تخطب عليه؟ قال : «بلى»، فاتخذ له منبراً، فلما كان يوم الجمعة خطب ﷺ على المنبر، فأَنَّ الجذعُ الذي كان يقوم عليه كما يثن الصبي، فقال النبي ﷺ : «إن هذا بكى لما فقد من الذكر». وفي رواية البخاري : فصاحت النخلة «جذع النخلة» صياح الصبي، ثم نزل ﷺ فضمه إليه، يثنُّ أنين الصبي الذي يسكن، قال : «كانت تبكي» النخلة على ما كانت تسمع من الذكر عندها. فحنين الجذع شوقاً إلى سماع الذكر وتألماً لفراق الحبيب الذي كان يخطب إليه واقفاً عليه - وهو جماد لا روح له ولا عقل في ظاهر الأمر، وحسب علم الناس بالجمادات - آية من أعظم الآيات الدالة على نبوة الحبيب ﷺ وصدق رسالته وهي معجزة كبرى على مثلها آمن البشر لعجزهم على الإتيان بمثلها.

○ وثالثة عشرة المعجزات :

تسبيح الحصى في يديه وسلام الشجر عليه

روى الحافظ أبو بكر البيهقي - رحمه الله تعالى - عن سويد بن يزيد السلمي قال : سمعت أباذر الغفاري رضى الله عنه يقول : لا أذكر عثمان إلا بخير بعد شيء رأيته، وبَيِّنَ ذلك الخبر الذي رآه فقال : كنت رجلاً أتبع خلوات رسول الله ﷺ، فرأيت يوماً جالساً وحده، فاغتنمت خلوته، فجلست حتى جلست إليه، فجاء أبو بكر فسلم عليه، ثم جلس عن يمين رسول الله ﷺ فجاء عمر فسلم وجلس عن يمين أبي بكر، ثم جاء عثمان فسلم ثم جلس عن يمين عمر، وبين يدي رسول الله ﷺ سبع حصيات، فأخذهن في كفه، فسبحن حتى سمعت لهن حنيناً كحنين النخل^(١) ثم وضعهن فخرسن - أي سكتن - ثم أخذهن فوضعهن في كف أبي بكر، فسبحن حتى سمعت لهن حنيناً كحنين النخل، ثم وضعهن فخرسن، ثم تناولهن فوضعهن في يد عمر فسبحن حتى سمعت لهن حنيناً كحنين النخل، ثم وضعهن فخرسن، ثم تناولهن فوضعهن في يد عثمان فسبحن حتى سمعت لهن حنيناً كحنين النخل، ثم وضعهن فخرسن، فقال النبي ﷺ : «هذه خلافة النبوة». فهذه المعجزة ذات شطرين، الأول : تسبيح الحصى في أيدي الراشدين، والثاني : الخلافة فعلاً قد انحصرت في الصديق والفاروق وذوي النورين، ثم اضطربت.

(١) أي جذع النخل الذي حنَّ حزناً على فراق الرسول ﷺ والذكر الذي يسمعه من الرسول وهو يخطب فوقه.

○ ورابعة عشر المعجزات:

سلام الحجر عليه ﷺ

فقد روى مسلم بسنده عن جابر بن سُمرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم علي قبل أن أبعث، إني لأعرفه الآن»، فسلام الحجر - وهو جماد - أمر خارق للعادة، معجزة للبشر أن يأتوا بمثله، فلذا هو آية النبوة المحمدية ومعجزة من معجزات الحبيب ﷺ.

○ وخامسة عشرة المعجزات:

سجود البعير له ﷺ وشكواه إليه

روى النسائي وأحمد بسنديهما عن أنس بن مالك رضى الله عنه: كان أهل بيت من الأنصار لهم جمل يستنون^(١) عليه، وأنه استصعب عليهم، فمتنعهم ظهره، وأن الأنصار جاءوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا: إنه كان لنا جمل نسني عليه، وإنه استصعب علينا ومنعنا ظهره^(٢)، وقد عطش الزرع والنخل، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «قوموا» فقاموا فدخبل الحائط^(٣). والجمل في ناحية، فمشى النبي ﷺ نحوه، فقال الأنصار: إنه صار مثل الكلب^(٤)، وإننا نخاف عليك صولته، فقال: «ليس علي منه بأس»، فلما نظر الجمل إلى رسول الله ﷺ أقبل نحوه حتى خر ساجداً بين يديه، فأخذ رسول الله ﷺ بناصيته أذل ما كانت قط حتى أدخله في العمل. فقال له أصحابه: يا رسول الله! هذه بهيمة لا تعقل تسجد لك، ونحن أحق أن نسجد لك، فقال: «لا يصلح لبشر أن يسجد لبشر، ولو صلح لبشر أن يسجد لبشر لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها».

كما روى مسلم أن النبي ﷺ دخل يوماً مع بعض أصحابه حائطاً من حيطان الأنصار، فإذا جمل قد أناه فجر جر وذرفت عيناه، فمسح رسول الله ﷺ سراته وذفراه فمسكن، فقال ﷺ: «مَنْ صاحبُ الجمل؟» فجاء فتى من الأنصار، قال: هو لي يا رسول الله. فقال له ﷺ: «أما تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكها الله لك إنه شكاً إلي أنك تجيئه وتدنيه» أي تواصل العمل عليه بدون انقطاع. أليست هذه آية من آيات النبوة ومعجزة من عظيم معجزاتها؟ بلى. ولذا كان الكفر بنبوة محمد ﷺ من أفحش الكفر وأسوئه، ولا يكون إلا من جهل كامل، أو حسد قاتل، أو خوف فوات منافع مادية طائلة، كما كان شأن الجهال من الأمم والشعوب وحسد اليهود، وخوف رجال الكنيسة من زوال سلطانهم الروحي، وما يترتب عليه من فقدانهم المال والرئاسة الروحية على الشعوب المسيحية.

(١) يستخرجون الماء من البئر بالسنى عليه.

(٢) أي منعهم من استخدامه في السنى عليه.

(٣) البستان وقيل فيه: حائط، لأنه محاط بالجدران. (٤) أي الذي به داء الكلب.

○ وسادة عشرة المعجزات :

شهادة الذئب برسالة ﷺ

فقد روى أحمد - رحمه الله تعالى - في مسنده عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال :
عَدَا الذئب على شاة فأخذها، فطليها الراعي فانتزعها منه، فأقعى الذئب على ذنبه فقال : ألا
تنقي الله، تنزع مني رزقاً ساقه الله إلي، فقال : يا عجيبي !! ذئب يكلمني كلام الإنس ! فقال
الذئب : ألا أخبرك بأعجب من ذلك ؟ محمد بشرٌ يخبر الناس بأنباء ما قد سبق، قال : فأقبل الراعي
يسوق غنمه حتى دخل المدينة فزواها إلى زاوية من زواياها، ثم أتى رسول الله ﷺ فأخبره، فأمر
النبي ﷺ فتُودي «الصلاة جامعة»، ثم خرج فقال للراعي : أخبرهم، فأخبرهم، فقال رسول الله
ﷺ : «صدق والذي نفس محمد بيده، لا تقوم الساعة حتى يكلم السباع الإنس، ويكلم الرجل
عذبة سوطه، وشراك نعله، ويخبره فخذ بهما أحدث أهله بعده» .

فهذه آية من آيات النبوة المحمدية، ومعجزة من معجزاته بكلا شطريها : الأول : الذي فيه كلام
الذئب للراعي، والثاني : الذي في إخبار بغيب لم يكن فكان اليوم، فعذبة السوط ظاهرة في تلفون
الشرط، وتكليم الفخذ وشراك النعل ظاهرة كذلك في آلات التسجيل الصغيرة التي يستعملها
رجال المخابرات بمهارة خاصة .

○ وسابعة عشرة المعجزات :

توقير الوحش له ﷺ واحترامه

فقد روى أحمد بسنده عن مجاهد قال : قالت عائشة و : كان لآل رسول الله ﷺ وَحْشٌ ^(١)،
فإذا خرج رسول الله ﷺ لعب واشتد وأقبل وأدبر، فإذا أحس برسول الله ﷺ قد دخل ربض فلم
يترمم - أي لم يتحرك - ما دام رسول الله ﷺ في البيت كراهية أن يؤذيه (بحركاته) .
فكون الحيوان الوحشي يسكن فلا يتحرك مدة ما هو ﷺ في البيت، وإذا خرج لعب فأقبل
وأدبر - كعادة الحيوان في ذلك - آية من آيات النبوة المحمدية ومعجزة؛ إذ مثل هذا لا يقع لغير
النبي ﷺ . وإن قال قائل : إن الإنسان في إماكنه تربية الحيوان على سلوك معين، قلنا : هناك فرق
بين التربية وبين عدمها، فالرسول ﷺ ما كان ربى هذا الحيوان ولا كان له به أدنى صلة، وإنما
الحيوان ألهم احترام النبي ﷺ وتوقيره، فكان إذا أحس بدخول الرسول البيت : سكن وريض
وترك الترمم، وإذا خرج ﷺ من البيت لعب فأقبل وأدبر حسب فطرته التي فطره الله تعالى
عليها، فكان سلوكه الخاص آية من آيات النبوة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى
التحية والتسليم .

(١) حيوان بري غير مستأنس .

○ وثامنة عشرة المعجزات:

احترام الأسد لمولاه ﷺ

فقد روى عبد الرزاق صاحب المصنف، أن سفينة مولى رسول الله ﷺ أخطأ الجيش بأرض الروم، أو أسر في أرض الروم، فانطلق هارباً يلتمس الجيش، فإذا هو بأسد فقال له: يا أبا الحارث «كنية الأسد» إني مولى رسول الله ﷺ كان من أمري كيت وكيت، فأقبل الأسد يبصبه حتى قام إلى جنبه، كلما سمع صوته أهوى إليه، ثم قام يمشي إلى جنبه فلم يزل كذلك حتى أبلغه الجيش، ثم همهم ساعة، قال: فرأيت أنه يودع، ثم رجع عني وتركني. فهذه وإن كانت كرامة لسفينة مولى رسول الله، فإنها معجزة نبوية؛ إذ الأسد الآن جانبه ورق لسفينة وماشاه حتى وصل به إلى الجيش بعد أن قال له: يا أبا الحارث إني فلان مولى رسول الله ﷺ، فكان ما فعله الأسد من احترام سفينة من أجل رسول الله ﷺ، فلذا عدت هذه من المعجزات المحمدية.

○ وتسعة عشرة المعجزات:

نطق الغزالة ووافؤها له ﷺ

فقد روى أبو نعيم الأصبهاني في كتابه «دلائل النبوة» قصة الغزالة هذه، فقال: عن ثابت البناني عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: مرَّ النبي ﷺ على قوم قد اصطادوا طليعة، فشدها على عمود فسقاط، فقالت: يا رسول الله إني أخذت ولي خشفان^(١)، فاستأذن لي أرضعهما وأعود إليهم، فقال النبي ﷺ: «أين صاحب هذا؟» فقال القوم: نحن يا رسول الله، قال: «خلوا عنها حتى تأتي خشفيهما ترضعهما وترجع إليكم» فقالوا: مَنْ لنا بذلك؟ قال: «أنا»، فأطلقوها فذهبت فأرضعت خشفيهما ثم رجعت إليهم، فأوقوها فَمَرَّ بهم رسول الله ﷺ فقال: «أين صاحب هذه؟» فقالوا: هذا يا رسول الله، فقال: «تبيعنوهما؟» فقالوا: هي لك يا رسول الله، فقال: فخلوا عنها؛ فأطلقوها فذهبت.

فنطق الغزالة ووافائها له ﷺ آية من آيات النبوة المحمدية ومعجزة من معجزاته الموجبة للإيمان به وطاعته ومحبه ﷺ.

○ المعجزة الموفية عشرين:

خروج الجن من الصبي بدعائه ﷺ

فقد قال أحمد - رحمه الله تعالى - وساق سنده إلى ابن عباس رضى الله عنهما قال: إن امرأة جاءت بولدها إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله! إن به لَمَأً، وإنه يأخذه عند طعامنا فيفسد (١) الخشف ولد الغزال الصغير.

علينا طعائنا، قال: فمسح رسول الله ﷺ صدره ودعا له، فَتَعَّ (١) نَعَّةً، فخرج منه مثلُ الجرو الأسود يسعى.

فهذه إحدى الآيات النبوية، إذ بمسحه ﷺ بيده على صدر الصبي المصاب والدعاء له: خرج الجنُّ منه، وشفي فلم يَرِ بأسًا بعد ذلك.

○ المعجزة الحادية والعشرون:

شفاء الضير بدعائه ﷺ

فقد روى أحمد بسنده عن عثمان بن حنيف: أن رجلاً غريباً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! ادع الله أن يعافيني فقال: «إن شئتَ أخرتُ ذلك فهو أفضل لآخرتك، وإن شئتَ دعوتُ لك» قال: لا، بل ادع الله لي، قال: فأمره أن يتوضأ ويصلي ركعتين، وأن يدعو بهذا الدعاء: «اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة، يا محمد إني أتوجه بك في حاجتي هذا فتقضي، اللهم شَفِّعه في» ففعل الرجل فبرأ.

فشفاه هذا الضير بعودة بصره إليه، بسؤال الله تعالى له، وبما علّمه من صلاة ودعاء آية من آيات النبوة المحمدية، ومعجزة من معجزاته ﷺ وآله وصحبه وسلم.

○ المعجزة الثانية والعشرون:

شفاء علي رضي الله عنه بتفاله ﷺ

ففي الصحيح قال ﷺ في غزوة خيبر: «لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، يفتح الله على يده»، فلما أصبحوا نادى علياً فقالوا: مريض يا رسول الله يشكو عينيه. فقال: «اتنوني به» فأتى به، فنفت في عينه بقليل من ريقه ﷺ فبرأ لَنَزَرَه ولم يمرض بعينه بعد قط.

فكانت آية من آيات النبوة المحمدية، ومعجزة من معجزاته الدالة على نبوته وصدق رسالته ﷺ وآله وصحبه وسلم تسليماً.

○ المعجزة الثالثة والعشرون:

ردّ عين قتادة بعد تدليها

إذ في أخذ أصيب قتادة بن النعمان في عينه حتى سقطت وتدلّت على وجنته (٢) فردها ﷺ بيده الشريفة فبرئت على الفور، وكانت أحسن منها قبل.

فهذه معجزة، إذ ليس في استطاعة أي طبيب أو غيره أن يرد عيناً سقطت بضربة حتى تدلت على الوجنة فتبرأ لتوها، وتكون أحسن منها قبل إصابتها وسقوطها.

(١) تَعَّ قاء أو سعل مرة واحدة.

(٢) الوجنة: أعلى الخد وهما وجنتان يعنى ويسرى.

○ المعجزة الرابعة والعشرون:

شفاء الصبي بفضل سورة

روى ابن أبي شيبة أن امرأة من خثعم أتت النبي ﷺ بصبي به بلاء لا يتكلم . فأتى النبي ﷺ فمضمض فاه، وغسل يديه، ثم أعطاه إياه وأمرها بسقيه ومسحه به، ففعلت فبرئ الولد وعقل عقلاً يفضل به عقول الناس، فهذه آية من آيات النبوة المحمدية ومعجزة ظاهرة التي لا يقدر عليها البشر .

○ المعجزة الخامسة والعشرون:

تحول جذل^(١) الحطب سيقاً

لقد انكسر سيف عكاشة بن محصن يوم بدر فأعطاه النبي ﷺ جذل حطب فقال له : «اضرب به» فانقلب في يده سيقاً صارماً طويلاً أبيض شديد المتن، فقاتل به، ثم لم يزل عنده يشهد به الموافق إلى أن استشهد عكاشة في قتال أهل الردة . فكانت هذه آية من آيات النبوة المحمدية، ومعجزة خارقة للعادة مقررة لنبوته ورسالته ﷺ وآله وصحبه وسلم .

○ المعجزة السادسة والعشرون:

صدق إخباره بالغيب ﷺ

فقد روى أبو داود بسنده عن أم ورقة بنت نوفل، أن الرسول الله ﷺ لما غزا بدرًا قالت له : يا رسول الله ! ائذن لي في الغزو معك أمرض مرضاكم، لعل الله يرزقني بالشهادة، فقال لها : «قري في بيتك، فإن الله يرزقك الشهادة»، فكانت تسمي الشهيدة، وكانت قد قرأت القرآن، فاستأذنت النبي ﷺ أن تتخذ في بيتها مؤذناً يؤذن لها، وكانت قد دبرت غلاماً لها وجارية، فقاما إليها بالليل فغماها في قطيفة لها حتى ماتت، وذهبا فأصبح عمر فطلبهما فجيء بهما فصلبهما عمر رضى الله عنه فكان أول من صلب بالمدينة .

فهذا إخبار بغيب فكان كما أخبر ﷺ فكان آية نبوته ﷺ ومعجزة من معجزاته فصلى الله عليه وآله وصحبه وسلم تسليمًا .

ومن آيات النبوة والمعجزات المحمدية صدق أخباره الغيبية الآتية :

أول خير : قوله ﷺ في الحسن رضي الله عنه : «إن ابني هذا سيد وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين» . فكان الأمر كما أخبر ﷺ فقد أصلح به بين من كان مع الحسن وبين من كان مع معاوية - رضي الله عنهم أجمعين - .

(١) الجذل : عود غليظ من أصل الشجرة والحطب : ما ييس من أغصان الشجر .

وثاني خبر: قوله ﷺ: «اثبت^(١) أحد فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان»، فكان كما أخبر ﷺ، فمات أبو بكر بمرض أصابه، وقتل عمر في المحراب شهيداً، وقتل عثمان في داره شهيداً - فرضي الله عنهم أجمعين -.

وثالث خبر: قوله ﷺ لسراقة بن مالك - وقد خرج في ملاحقته ﷺ يوم هجرته حيث أعطت قريش جوائز لمن يأتيها بمحمد ﷺ - قال له وقد ساخت قوائم فرسه في الأرض مرتين قال له: «كيف بك إذا ألست سواري كسرى». فلما أتى بهما عمر رضي الله عنه ألبسهما إياه، وقال: «الحمد لله الذي سلبهما كسرى وألبسهما سراقة»، فهذا غيب محض، وقد تم كما أخبر به ﷺ، فكان آية نبوته ومعجزتها الذي لا يقدر عليه أحد من عباد الله إلا نبي أوتي المعجزات.

ورابع خبر: قوله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان دعواهما واحدة» وقد وقع هذا كما أخبر، فقد اقتتل علي ومعاوية رضي الله عنهما بجيشهما في صفين، ودعواهما واحدة. فكان ما أخبر به ﷺ كما أخبر فهي آية نبوته ﷺ ومعجزته التي على مثلها آمن البشر.

وخامس خبر: قوله ﷺ: «إن هذا قبر أبي رغال، وإن معه غصناً من ذهب» فحفروه فوجدوه كما أخبر ﷺ. وذلك حين كان ذاهباً إلى الطائف، فكان هذا الخبر آية نبوته ﷺ، ومعجزة من معجزاته الدالة على نبوته.

وسادس خبر: قوله ﷺ لخباب بن الأرت - وقد جاء يشكو إليه ما يلقي المؤمنون من كفار قريش ويطلب منه أن يستنصر الله تعالى لهم - قال له، وقد احمر وجهه ﷺ أو تغير لونه: «لقد كان من قبلكم تحفر له الحفرة ويحجاء بالمنشار فيوضع على رأسه، فيشق نصفين ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمن الله هذا الأمر، حتى يسير الراكب ما بين صنعاء إلى حضرموت ما يخشى إلا الله والذئب على غنمه»، وقد تم هذا كما أخبر ﷺ، فكان آية نبوته ومعجزاتها التي لا يقدر عليها أحد إلا الله جل جلاله، وعظم سلطانه.

وسابع خبر: قوله ﷺ: «منعت العراق درهمها وقفيزها، ومنعت الشام مدها ودينارها، ومنعت مصر أردبها ودينارها، وعدتم من حيث بدأتم».

فهذا الخبر قد وقع كما أخبر النبي ﷺ، فقد منعت العراق، ومنعت الشام ومنعت مصر ما كانوا يؤدونه إلى أهل الحجاز من خراج وغيره، وعاد أهل الحجاز كما بدءوا فمسهم الجوع، ونالهم التعب بعد ما أصابهم من رغد العيش وسعة الرزق. فكانت هذه آية النبوة المحمدية ومعجزة على مثلها آمن البشر.

وثامن خبر: قوله ﷺ: «الخلافة بعدي ثلاثون سنة، ثم يؤتى الله ملكه من يشاء». فهذا الخبر من أنباء الغيب، إذا كانت خلافة أبي بكر سنتين وأربعة أشهر إلا عشر ليال، وكانت خلافة عمر

(١) لأنهم لما صعدوا عليه رجف بهم.

عشر سنين وستة أشهر وأربعة أيام ، وخلافة عثمان اثنتي عشرة سنة إلا اثني عشر يومًا ، وكانت خلافة على خمس سنوات إلا شهرين وتكمل الثلاثين كان بخلافة الحسن بن علي رضي الله عنه ، إذا كانت نحوًا من ستة أشهر ، ثم نزل عليها لمعاوية عام أربعين من الهجرة . ومصدق هذا في قوله ﷺ : «إن ابني هذا سيد ، وسيصلح الله به بين فئتين» . فهذان الخبران من دلائل نبوته ﷺ .

وتاسع خبر : قوله ﷺ في عثمان رضي الله عنه : «افتح له وبشره بالجنة على بلوى نصيبه» . وذلك في الحديث الصحيح ونصه : إن النبي ﷺ دخل حائطًا «بستانًا» فدلى رجله في القف^(١) فقال أبو موسى وكان معه : لأكونن اليوم بواب رسول الله ﷺ ، فجلست خلف الباب فجاء رجل فقال : افتح ، فقلت : من أنت ؟ قال : أبو بكر ، فأخبرت رسول الله ﷺ ، فقال : «افتح له وبشره بالجنة» ثم جاء عمر ، فقال كذلك ، ثم جاء عثمان فقال : «أئذن له وبشره بالجنة على بلوى نصيبه» . فهذا الخبر من أنباء الغيب الدالة على نبوته ﷺ .

وعاشر خبر : قوله ﷺ لفاطمة رضي الله عنها : «إن جبريل كان يعارضني القرآن في كل عام مرة ، وإنه عارضني العام مرتين ، وما أرى ذلك إلا لاقتراب أجلي» . فبكت ثم سارها فأخبرها بأنها سيدة نساء أهل الجنة ، وأنها أول أهله لحوقًا به . فكان كما أخبر إذ ماتت بعده بستة أشهر ، ولم يمت قبلها من آل البيت أحد ، فكان هذا الخبر آية نبوته ﷺ .

وحادي عشر خبر : قوله ﷺ لنسائه : «كيف بإحداكن تنبح عليها كلاب الحوآب» . وكان ذلك كما أخبر ، فقد خرجت عائشة رضي الله عنها تريد الصلح بين علي ومعاوية رضي الله عنهما في وقعة الجمل ، فلما بلغت مياه بني عامر ليلاً نبحت الكلاب ، فقالت رضي الله عنها : أي ماء هذا ؟ فقالوا : ماء الحوآب ، فقالت : ما أظنني إلا راجعة . فقال بعض من كان معها : بل تقدمين ، فيراك المسلمون فيصلح الله ذات بينهم . قالت : إن رسول الله ﷺ قال لنا ذات يوم : «كيف بإحداكن تنبح عليها كلاب الحوآب» . فهذا الخبر الصادق قد وقع كما أخبر به قبل وقعه بكذا سنة ، فكان كما أخبر فهو إذا آية النبوة ، ومعجزة الحبيب صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم تسليمًا .

وثاني عشر خبر : قوله ﷺ في حديث أحمد عن عمار بن ياسر قال : قال رسول الله ﷺ لعلي حين ولي غزوة العشيرة : «يا أبا تراب ألا أحدثك بأشقى الناس رجلين ؟» قلنا : بلى يا رسول الله قال : «أحيمر ثمود الذي عقر الناقة والذي يضربك يا علي على هذه - يعني قرنه - حتى يبيل - أي بالدم - هذه» أي لحيته . فكان كما أخبر ، ﷺ فقد ضرب عبد الرحمن بن ملجم أحد الخوارج عليا بالكوفة ، فقتله على نحو ما أخبر به ﷺ فكان هذا من دلائل نبوته ﷺ ، ومن معجزاته التي رافقت حياته ﷺ .

(١) القف : الدكة تجعل حول البئر يجلس عليها وتدلي الأرجل في الماء المستخرج من البئر .

وثالث عشر خبر: قوله ﷺ: «سيكون في هذه الأمة بعث إلى السند والهند»، فكان كما أخبر ﷺ، فقد حدث أبو هريرة رضي الله عنه فقال: حدثني خليلي الصادق المصدق رسول الله ﷺ قال: «يكون في هذه الأمة بعث إلى السند والهند»، فإن أدركته فاستشهدت فذاك، وإن أنا رجعت فأنا أبو هريرة المحدث قد أعتقني من النار. فهذا الخبر الصادق قد وقع كما أخبر ﷺ فقد غزا المسلمون الهند أيام معاوية سنة أربع وأربعين ثم توالى الغزو والفتح كما أخبر ﷺ. فكان آية النبوة المحمدية والمعجزة الدالة على صدق الحبيب ﷺ في نبوته ورسالته.

ورابع عشر خبر: قوله ﷺ في سهيل بن عمرو: «عسى أن يقوم مقاماً يسرك يا عمر» وذلك يوم صلح الحديبية حيث غضب عمر رضي الله عنه من تعنت سهيل، وكان ممثلاً لقريش يومئذ فقال له ﷺ: «عسى أن يقوم مقاماً يسرك يا عمر» وكان الأمر كما أخبر ﷺ، إذ مات الرسول ﷺ واضطربت البلاد ونجم الكفر، ووقف سهيل بن عمرو رضي الله عنه بباب الكعبة بمكة، فخطب فثبت أهل مكة وقوى بصائرهم فحفظهم الله من الردة بسببه، وهو موقف سر عمر والمؤمنين. وكان آية نبوته ﷺ، ومعجزة من معجزاته.

وخامس عشر خبر: قوله ﷺ: «ستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة في الجنة» وسئل عنها فقال: «هم الذين يكونون على ما أنا عليه اليوم وأصحابي». وقال: «إنها ستكون أنماط»^(١) ويغدو أحدهم في حلة ويروح في أخرى، وتوضع بين يديه صحيفة^(٢) وترفع أخرى ويسترون بيوتهم كما تستر الكعبة ثم قال آخر الحديث: وأنتم اليوم خير منكم يومئذ، وأنهم إذا مشوا المطيطاء^(٣) وخدمتهم بنات فارس والروم رد الله بأسهم بينهم وسلط شرارهم على خيارهم.

فهذا القول النبوي الشريف، الجزء الأول منه كما أخبر، حيث بلغت فرق هذه الأمة ثلاثاً وسبعين فرقة كما أخبر. فكان آية النبوة المحمدية والجزء الثاني - وهو قوله: إنها ستكون - وإن ضعف سنده فقد صح واقعا - فقد بسط الله الرزق على أمة الإسلام بعد وفاة نبيه ﷺ، فكانوا كما وصف في كثير من البلاد والأوقات، وقد حدث ما في الخبر من وعيد إذ جعل تعالى بأسهم بينهم وسلط عليهم شرارهم في أكثر من زمان ومكان، والله المستعان.

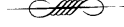
كانت تلك أربعين معجزة للحبيب ﷺ، وقد تقدم في ثنايا سيرته العطرة عشرات الآيات والمعجزات، ولقد صدق من قال: إن المعجزات المحمدية قد بلغت ألف معجزة. والمراد من إيرادها تقوية إيمان المؤمنين، ودعوة غيرهم إلى الإيمان به ﷺ نبياً ورسولاً، تجب متابعتة وتتحت طاعته، وتلزم محبته من أجل النجاة من الخسران، والفوز بالمغفرة والرضوان، في دار

(١) الأنماط: جمع نمط البسط والفرش النفيسة.

(٢) أي صحيفة الطعام.

(٣) أي التبختر في المشي.

السلام مع مواكب النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، إذ قال تعالى ، وقوله الحق من سورة النساء من كتابه الكريم : ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالضَّالِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ٥٥﴾ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنْ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٥٦﴾ [النساء: ٦٩-٧٠] .



الأخلاق الحممدية التي فيها أسوة للمؤمنين

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ لَمَلَكٌ خَفِيٌّ عَظِيمٌ﴾ [الغلم:٤].
وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب:٢١].
فقلوه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ لَمَلَكٌ خَفِيٌّ عَظِيمٌ﴾ [الغلم:٤] شهادة من الله تعالى له ﷺ بأنه على أكمل الأخلاق وأتمها وأرفعها وأفضلها، بحيث لا يداني فيها بحال من الأحوال.
وشاهد آخر في قوله: «أدبني ربي فأحسن تأديبي».

وفى قوله: «بعثت لأتمم صالح الأخلاق».
وفى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب:٢١]. إعلام من الله تعالى لعباده المؤمنين بما أوجب عليهم من الاقتداء برسوله الذي كمله خلقاً وشرفه أصلاً ومحتدًا، ورفع منزلة وقدرًا، حتى لا تأنف النفوس في اتباعه والاقتداء به في كل ما هو في استطاعتها التحلي به، والتقرب إلى ربها عز وجل باتباعه والاقتداء به فيه.

ومن هنا كان الكمال المحمدي ضربين: ضرباً لم تشرع الأسوة فيه لعجز المرء عن كسب مثله، وذلك كشرف الأصل، وجمال الذات، وعلو القدر، والاصطفاء للرسالة، وتلقي الوحي الإلهي، وضرباً مأموراً بالاقتداء به فيه، والمنافسة في تحصيل أكبر قدر منه والمسابقة إليه، والجد في الطلب للظفر به والحصول عليه. وهو ما سنذكر جملاً صالحة منه، سائلين الله تعالى أن يرزقنا التحلي به، والحياة والموت عليه، اللهم آمين.

الآداب الحممدية

لقد كان ﷺ يتجمل بالآداب التالية ويتحلى بها، وهي:
أولاً: غض الطرف فلا يتبع نظره الأشياء، وكان جُل نظره الملاحظة، فلا يحملق إذا نظر، ونظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء.
ثانياً: إذا مشى مع أصحابه يسوقهم أمامه فلا يتقدمهم، ويبدأ من لقيه بالسلام.
ثالثاً: إذا تكلم يتكلم بجوامع الكلم. كلامه فصل، لا فضول ولا تقصير، أى على قدر الحاجة، فلا زيادة عليها ولا نقصان عنها، وهذا من الحكمة وكان يقول: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه» ويقول: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت». ويبدأ كلامه ويختتمه بأشداقه من أجل أن يسمع محدثه ويفهمه لا يتكلم في غير حاجة، طويل السكوت.
رابعاً: متواصل الأحزان، دائم الفكر، ليست له راحة، دمت الخلق، ليس بالجافي ولا المهين، يعظم النعمة وإن دقت، لا يذم منها شيئاً ولا يمدحه.
خامساً: لا تغضب الدنيا وما كان لها، فإذا تعرض للحق لم يعرفه أحد، ولم يقم لغضبه شيء

حتى ينتصر له ، ولا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها .
سادساً : إذا غضب أعرض وأشاح ، وإذا فرح غضى طرفه ، جل ضحكه التيسم ، ويفتر عن مثل حب الغمام .
سابعاً : إذا تكلم تكلم ثلاثاً ، وإذا سلم سلم ثلاثاً ، وإذا استأذن استأذن ثلاثاً ، وذلك ليعقل عنه ويفهم مراده من كلامه نظراً إلى ما وجب عليه البلاغ .
ثامناً : كان يشارك أصحابه في مباح أحاديثهم ، إذا ذكروا الدنيا ذكرها معهم ، وإذا ذكروا الآخرة ذكرها معهم ، وإذا ذكروا طعاماً أو شرباً ذكره معهم .
تاسعاً : كان إذا جلس نصب إحدى ركبتيه واحتبى بيديه ، وإذا جلس للأكل نصب رجله اليمنى وجلس على اليسرى .
عاشراً : كان لا يعيب طعاماً يقدم إليه أبداً ، وإنما إذا أعجبه أكل منه ، وإن لم يعجبه تركه . هذه الآداب مجتمعة كلها يمكن الاقتداء به فيها ، وهو غاية الطلب ، وبغية أولي الأرب .

الأخلاق الحميدة

إن لذوى الأخلاق الفاضلة منزلة عالية . ففي الحديث الصحيح : «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم أخلاقاً» . «إن من أحبكم إلى وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة : أحاسنكم أخلاقاً» . وسئل ﷺ عن البر ، فقال : «حسن الخلق» وسئل عن أى الأعمال أفضل فقال : «حسن الخلق» .
ومن هنا كان اكتساب الأخلاق الفاضلة خيراً من اكتساب الذهب والفضة ، والأموال الطائلة . والطريق إلى ذلك هو الانتساب بالنبي الحبيب ﷺ ، إذ هو الأعلى في باب الأخلاق . ولذا إذا إيرادنا للأخلاق الحميدة في آخر هذا الكتاب من باب حمل المسلم على اكتساب تلك الأخلاق الحميدة الفاضلة ، ودفعاً له على التجميل والتحلي بها ، ليكمل بها ويفضل ويشرف عليها ، بما أن عرف صاحبها ، وعرف كمالاته الذاتية والروحية ، وقوى إيمانه به نبياً ورسولاً تجب طاعته ومتابعته وتعظيمه ومحبته وتوقيره .
وهذه نماذج من تلك الأخلاق فلننظر إليها ، ولنوطن النفس على اكتسابها والتخلق الصادق بها .

الكرم الحمدي

إن الكرم الحمدي كان مضرب الأمثال ، وقد كان ﷺ لا يرد سائلاً وهو واجد ما يعطيه . فقد سأله رجل حلة كان يلبسها ، فدخل بيته فخلعها ، ثم خرج بها في يده وأعطاه إياها . ففي صحيح البخاري ومسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما : «ما سئل رسول الله ﷺ شيئاً قط ، فقال : لا . وقال أنس بن مالك - رضي الله عنه : ما سئل رسول الله ﷺ شيئاً على الإسلام إلا أعطاه ،

سأله رجل فأعطاه غنماً بين جبلين، فأتى الرجل قومه فقال لهم: يا قوم أسلموا فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخاف الفاقة. إن كان الرجل ليجيء إلى رسول الله ﷺ ما يريد إلا الدنيا، فما يمسي حتى يكون دينه أحب إليه وأعز من الدنيا وما فيها. وحسبنا في الاستدلال على كرم رسول الله ﷺ حديث عن ابن عباس رضي الله عنه وقد سئل عن جود الرسول ﷺ وكرمه فقال: كان رسول الله أجود الناس وكان أجود ما يكون في شهر رمضان حين يلقاه جبريل بالوحي فيدارسه القرآن، فرسول الله أجود بالخير من الريح المرسلة، بمعنى أن عطاءه دائم لا يتقطع ببسر وسهولة، وما هي ذي أمثلة لجوده وكرمه ﷺ:

■ حملت إليه تسعون ألف درهم فوضعت على حصير، ثم قام إليها يقسمها فما رد سائلاً حتى فرغ منها.

■ أعطى العباس رضي الله عنه من الذهب ما لم يطق حمله.

■ أعطى معوذ بن عفراء ملء كفه حلطاً وذهباً لما جاءه بهدية من رطب وقثاء.

■ جاءه رجل فسأله فقال: «ما عندي شيء ولكن ابتع^(١) علي فإذا جاءنا شيء قضينا» وكيف لا يكون الحبيب ﷺ أكرم الناس وأجودهم على الإطلاق، وهو القائل: «ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان يقول أحدهما: اللهم أعط متفقاً خلفاً ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً». والقائل أيضاً: يقول الله تعالى: «ابن آدم أنفق أنفق عليك». وقد نزل عليه قول ربه: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبا: ٣٩].

الحلم الحمدي

إن الحلم - وهو ضبط النفس حتى لا يظهر منها ما يكره، قولاً كان أو فعلاً عند الغضب، وما يشبهه هيجانه من قول شيء أو فعل غير محمود - هذا الحلم كان فيه الحبيب ﷺ مضرب المثل. والأحداث التالية شواهد لحلمه - فداء أبي وأمي - ﷺ، وذلك لتربية الله تعالى له، وإفاضته الكمالات على روحه ﷺ:

■ لما شجعت وجنتاه وكسرت رباعيته ودخل المغفر في رأسه ﷺ يوم أحد قال: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون». فهذا منتهى الحلم والصفح والعفو والصبر منه ﷺ.

■ لما قال له ذو الخويصرة: اعدل، فإن هذه قسمة ما أريد بها وجه الله، حلم عليه وقال له: «ويحك فمن يعدل إن لم أعدل»، ولم ينتقم منه ولم يأذن لأحد من أصحابه بذلك.

■ لما جذبته الأعرابي بردائه جذبة شديدة حتى أثرت في صفحة عنقه ﷺ وقال: احمل لي على بعيري هذين من مال الله الذي عندك، فإنك لا تحمل لي من مالك ومال أبيك، حلم عليه ﷺ ولم يزد أن قال: «المال مال الله وأنا عبده، ويقاد منك يا أعرابي ما فعلت بي» فقال الأعرابي: لا،

(١) اتبع بمعنى اشترى ما تحتاجه على حسابي وأنا أسدده عنك إن شاء الله تعالى.

فقال النبي ﷺ: «لم؟» قال: لأنك لا تكافؤ السيئة بالسيئة، فضحك ﷺ، ثم أمر أن يحمل له على بعير شعير وعلى آخر تمر، فأى حلم وأى كمال هذا يا عباد الله؟؟.

■ لم يثبت أنه ﷺ انتصر لنفسه من مظلمة ظلمها قط، ولا ضرب خادماً ولا امرأة قط. بهذا أخبرت عائشة رضي الله عنها فقالت: ما رأيت رسول الله ﷺ منتصراً من مظلمة ظلماً قط، ما لم تكن حرمة من محارم الله. وما ضرب بيده شيئاً قط إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما ضرب خادماً قط ولا امرأة.

■ وجاءه زيد بن سعة - أحد أعيان اليهود بالمدينة - جاءه بتقاضاه ديناً له على النبي ﷺ فجذب ثوبه عن منكبه وأخذ بمجامع ثيابه وقال مغلفاً القول: إنكم يا بني عبد المطلب مطل، فانتهره عمر وشدد له في القول، والنبي ﷺ يتنسم، وقال ﷺ: «أنا وهو كنا إلى غير هذا أحوج منك يا عمر، تأمرني بحسن القضاء وتأمره بحسن التقاضي»، ثم قال: «لقد بقي من أجله ثلاث» وأمر عمر أن يقضيه ماله ويزيده عشرين صاعاً لما روعه، فكان هذا سبب إسلامه فأسلم، وكان قبل ذلك يقول: ما بقي من علامات النبوة شيء إلا عرفته في محمد ﷺ إلا اثنتين لم أخبرهما: يسبق حلمه جهله ولا تزيده شدة الجهل إلا حلماً فاخبره بهذه الحادثة فوجده كما وصف. هذه قطرة من بحر الحلم المحمدي تذهب ظمناً أراد أن يتحلى بالحلم يتجمل به.

العفو المحمدي

إن العفو هو ترك المؤاخذة عند القدرة على الأخذ من المسيء المبطل، وهو من خلال الكمال، وصفات الجمال الخلقى، أمر الله تعالى به رسول الله في قوله من سورة الأعراف: ﴿عَفُوًّا وَالْمَوْءِذِينَ بِأَلْمِزٍ وَأَقْرَبَ عَنِ الْكِبَالِ﴾ [الأعراف: ١٩٩]. وسأل جبريل عن معنى هذه الآية فقال له: «حتى أسأل العلیم الحکیم»، ثم أتاه فقال: «يا محمد إن الله يأمرك أن تصل من قطعك^(١)، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك». وامثل رسول الله ﷺ أمر ربه، فكان مضرب المثل في الخصال الثلاث في صلة من قطعه، وإعطاء من حرمه، والعفو عمن ظلمه، وفي الأمثلة الآتية شاهد ذلك ودليله.

■ قالت عائشة رضي الله عنها: «ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه^(٢) إلا أن تنتهك حرمة الله تعالى فينتقم لله بها».

■ تصدى له غورث بن الحارث ليفتك به ﷺ، ورسول الله ﷺ مطروح تحت شجرة وحده قائلاً، وأصحابه قائلون كذلك، وذلك في غزاة، فلم ينتبه رسول الله ﷺ إلا وغورث قائم على

(١) هو تفسير الآية التي سأل جبريل عن معناها.

(٢) هو معنى أن يعفو عمن ظلمه.

رأسه، والسيف مصلت في يده، وقال: من يمنعك مني؟ فقال ﷺ: «الله». فسقط السيف من يد غورث، فأخذه النبي ﷺ وقال: «من يمنعك؟» قال غورث: كن خير آخذ، فتركه وعفا عنه، فعاد إلى قومه فقال: جئتكم من عند خير الناس فهكذا كان العفو المحمدي.

■ لما دخل المسجد الحرام صبيحة الفتح، ووجد رجالاً قريش جالسين مطأئين الرءوس ينتظرون حكم رسول الله ﷺ الفاتح فيهم فقال: «يا معشر قريش ما تظنون أني فاعل بكم؟» قالوا: أخ كريم وابن أخ كريم، قال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»، فعفا عنهم بعد ما ارتكبوا من الجرائم ضده وضد أصحابه ما لا يقادر قدره، ولا يحصى عده، ومع هذا فقد عفا عنهم ولم يعنف، ولم يضرب ولم يقتل، فصلى الله عليه وآله وصحبه وسلم.

■ سحره لبيد بن الأعصم اليهودي - وقد نزل الوحي بذلك - فعفا عنه، ولم يؤاخذه بل لم يثبت أنه لأمه أو عاتبه مجرد لوم أو عتاب، فضلاً عن المؤاخذه والعقاب. فكان موقفه هذا مظهرًا من مظاهر العفو المحمدي في أجلى صورته، وأبهى مظاهره فصلى الله عليه وسلم ما عفا عاف وأخذ مؤاخذه إلى يوم الدين.

■ تأمر عليه المنافقون - وهو في طريق عودته من تبوك إلى المدينة - تأمروا عليه ليقتلوه، وعلم بهم، وقبل له فيهم، فعفا عنهم وقال: «لا يتحدث أن محمداً يقتل أصحابه».

■ جاءه رجل يريد قتله، فاكشف أمره، وظهرت حاله، فقال له أصحابه: إن هذا جاء يريد قتلك، فاضطرب الرجل من شدة الخوف وفزع، فقال له: «لن تراخ، لن تراخ ولو أردت ذلك - أي قتلي - لم تسلط علي»، لأن الله أعلمه بعصمته له من الناس، فعفا عنه ﷺ وقد أراد قتله، فلم يؤاخذه بل لم يعاقبه، فصلى الله عليه وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

الشجاعة الحممية

إن الشجاعة خلق فاضل، ووصف كريم، وخلة شريفة، لا سيما إذا كانت في العقل كما هي في القلب، وكان صاحبها من أهل الإيمان والعلم، والشجاعة في القلب عدم الخوف مما يخف عادة، والإقدام على دفع ما يخاف منه بقوة وحزم، وفي العقل المضاء فيما هو الرأي وعدم النظر إلى عاقبة الأمر متى ظهر أنه الحق والمعروف. وقد كان الحبيب محمد ﷺ أشجع إنسان على الإطلاق، فلم تكتحل عين الوجود بمثله ﷺ، ومن أدلة ذلك تكليف الله تعالى له بأن يقاتل وحده في قوله من سورة النساء: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ٨٤].

ومن أدلة شجاعته ﷺ ومظاهرها ما يلي:

■ شهادة الشجعان الأبطال له بذلك، فقد قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكان من أبطال الرجال وشجعانهم - بلا مرأ - قال: كنا إذا حمى البأس واحمرت الحديق^(١) نتقى

(١) جمع حدقة: ما تحت الأجنان وذلك من شدة الغضب.

برسول الله ﷺ . أى تنقي الضرب والطعان .

■ موقفه البطولي المارق للعادة في أحد، حيث فر الكماة ووجم الأبطال، وذهل عن أنفسهم الشجعان، ووقف محمد رسول الله ﷺ كالجبل الأشم حتى لاذ به أصحابه والتفوا حوله، وقاتلوا حتى انجلت المعركة بعد قتال مرير وهزيمة نكراء حلت بالقوم، لمخالفة أمره ﷺ .

■ في حنين حيث انهزم أصحابه، وفر رجاله لصعوبة مواجهة العدو، من جراء الكمائن التي نصبها وأوقعهم فيها وهم لا يدرون، بقي وحده ﷺ في الميدان يطاول ويصاول وهو على بغلته يقول:

أنا النسي لا كذب أنا ابن عبد المطلب
وما زال في المعركة وهو يقول: «إلى عباد الله !! إلى عباد الله» حتى فاء أصحابه إليه، وعادوا الكرة على العدو، فهزموه في ساعة . وما كانت هزيمتهم أول مرة إلا من ذنب ارتكبه بعضهم وهو قوله: لن نغلب اليوم من قلة، إذ هذا القول كان عجباً والعجب حرم وقد ذكرهم تعالى به في كتابه إذ قال تعالى من سورة التوبة: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أُنْزِلَتْكُمْ كُرُوتُكُمْ لَمْ تُقِنْ عُنُتَكُمْ شَيْئًا﴾ [التوبة: ٢٥] .

■ في أحد - والمعركة دائرة - رأى أبي بن خلف - لعنه الله - رأى النبي ﷺ فصاح أين محمد؟ لا نجوت إن نجا، وتقدم على فرسه نحو رسول الله ﷺ فاعترضه رجال المسلمين فقال ﷺ: «خلوا طريقه»، وتناول الحربة من يد الحارث بن الصمة، وانتفض انتفاضة تطاير عنه أصحابه تطاير الوبر من ظهر البعير إذا انتفض واستقبله بطعنة نجلاء في عنقه تدأدأ^(١) منها عن فرسه مراراً وهو يقول: قتلتني محمد، فمات منها بسرف، وهو عائد إلى مكة مع جيش المشركين .

■ فزع أهل المدينة ليلة، فانطلق ناس قبل الصوت، فتلقاهم رسول الله ﷺ راجعاً قد سبقهم إلى الصوت، واستبرأ^(٢) الخبر على فرس لأبي طلحة عري، والسيف في عنقه وهو يقول: «لن تراعوا» في هذه يقول أنس بن مالك: كان النبي ﷺ أحسن الناس وأجود الناس وأشجع الناس، قص هذه القصة .

■ شهادة عمران بن حصين رضي الله عنه إذ قال وهو صادق: ما لقي رسول الله ﷺ كتيبة إلا كان أول من يضرب .

كانت تلك شواهد شجاعته القلبية . أما شجاعته العقلية فنكتفي فيها بشاهد واحد، فإنه يكفي عن ألف شاهد ويزيد، وهو موقفه من تعنت سهيل بن عمرو وهو يملئ وثيقة صلح الحديبية، إذ تنازل ﷺ عن كلمة «باسم الله» إلى «باسمك اللهم» وعن كلمة «محمد رسول الله» إلى كلمة

(١) تزعزع بشدة.

(٢) يقال: استبرأ الخير، إذا طلبه حتى وقف على حقيقته .

«محمد بن عبد الله» وقد استشاط أصحابه غيظًا، وبلغ الغضب حدًا لا مزيد عليه، وهو صابر ثابت حتى انتهت، وكانت بعد أيام فتحا مبيتًا، فضرب ﷺ بذلك المثل الأعلى في الشجاعتين القلبية، والعقلية، مع بعد النظر وأصالة الرأي وإصابته، فصلى الله عليه وسلم ما بقي شجاعة أو جبن في العالمين.

الصبر الحمدي

إن الصبر، وهو حبس النفس على طاعة الله تعالى حتى لا تفارقها، وعن معصية الله تعالى حتى لا تقربها، وعلى قضاء الله تعالى لا تجزع له، ولا تسخط عليه هذا هو الصبر في مواطنه الثلاثة. وهو خلق من أشرف الأخلاق وأسمائها، هو خلق مكتسب، يحمل العاقل عليه نفسه ويروضها شيئًا فشيئًا، حتى يصبح ملكة لها ثابتة عفوا بدون طلب.

يدل على ذلك أمره تعالى رسوله في غير موطن من كتابه العزيز، وذلك كقوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحزاب: ٢٥]. وقوله: ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧]. وقوله في أمر كافة المؤمنين به: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [ال عمران: ٢٠٠].

وقد صبر رسول الله ﷺ وصابر طيلة عهد إبلاغ رسالته الذي دام ثلاثًا وعشرين سنة، فلم يجزع يوما، ولم يتخل عن دعوته وإبلاغ رسالته حتى بلغ بها الآفاق التي شاء الله تعالى أن تبلغها، وباستعراضنا المواقف التالية تتجلى لنا حقيقة الصبر الحمدي الذي هو فيه أسوة كل مؤمن ومؤمنة في معترك هذه الحياة.

■ صبره ﷺ على أذى قريش طيلة ما هو بين ظهرائها بمكة، فقد ضربوه، وألقوا سلى الجزور على ظهره، وحاصروه ثلاث سنوات مع بني هاشم في شعب أبي طالب، وحكموا عليه بالإعدام، وبعثوا رجالهم لتنفيذه فيه إلا أن الله سلمه وعصم دمه. كل هذا لم يردعه عن دعوته، ولم يثن عزمه عن بيانها وعرضها على القريب والبعيد.

■ صبره عام الحزن، حيث ماتت خديجة الزوجة الحنون، ومات العم الحاني الحامي المدافع أبو طالب. فلم تفت هذه الرزايا من عزمه، ولم توهن من قدرته، إذ قابل ذلك بصبر لم يعرف له في تاريخ الأبطال مثل ولا نظير.

■ صبره في كافة حروبه: في بدر، وفي أحد وفي الخندق، وفي الفتح، وفي حنين وفي الطائف، وفي تبوك، فلم يجبن ولم ينهزم، ولم يفشل، ولم يكل ولم يعمل حتى خاض حروبًا عدة وقاد سرايا عديدة، فقد عاش من غزوة إلى أخرى طيلة عشر سنوات فأى صبر أعظم من هذا الصبر؟

■ صبره على تأمر اليهود عليه بالمدينة وتحزيبهم الأحزاب لحربه والقضاء عليه، وعلى دعوته.

■ صبره على الجوع الشديد، فقد مات ﷺ ولم يشبع من خبز شعير مرتين في يوم واحد قط .
■ لقد صبر ﷺ على كل ذلك فلم يهن ولم تضعف همته، ولم تمس كرامته ولم يدنس عرضه، ولو أودى غيره بمعشار ما أودى أو أصابه من البلى والرزايا دون ما أصابه لتخلي عن دعوته، وهرب من مسؤوليته، ووجد في نفسه مبرراً لذلك، ولكن الله عصمه فصبره وجبره، وحماه وقواه ليبلغ عنه رسالته، ويجعله آية للناس في صبره وحكمته وعفوه وكرمه وشجاعته وفي سائر أخلاقه، فﷺ تسليماً كثيراً.

العدل المحمدي

إن العدل خلاف الجور، أمر الله تعالى به في القول والحكم فقال تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام: ١٥٢] . وقال: ﴿وَإِذَا حُكِمَ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨] . وعلى العدل قام أمر السماء والأرض. ومن هنا كيف لا يكون رسول الله ﷺ عادلاً وهو القائل: «ثلاثة إجلالهم من إجلال الله تعالى»، وذكر من بينهم الإمام العادل، وقال: «إن المقسطين على منابر من نور يوم القيامة»، وبين أنهم الذين يعدلون في حكمهم وما ولوا. ولذا كان ﷺ عادلاً في قوله وفعله وحكمه، لا يجور ولا يحيف، وكان العدل من أخلاقه وأوصافه اللازمة له، فقد عرف به في الجاهلية قبل الإسلام. وهذه مواقف له ﷺ يتجلى فيها هذا الخلق النبوي الكريم وهي:

تحكيم قريش له في موضع الحجر الأسود بعد خلاف شديد بينهم كاد يفضي بهم إلى الاقتتال. فقالوا - بتوفيق من الله تعالى - نحكم أول قادم علينا غداً، فكان ﷺ أول قادم، فقالوا هذا الأمين هذا الحكم، رضينا به فحكم بأن يوضع الحجر في ثوب وتأخذ كل قبيلة بطرف، ثم أخذ الحجر بيديه ووضعه في مكان من جدار البيت، فحكم فعدل، وكان مظهرًا من مظاهر عدله ﷺ .

■ لما سرت المخزومية، وشق على المسلمين إقامة الحد عليها فتقطع يدها فتوسطوا له بحبه وابن حبه أسامة بن زيد فرفع إليه القضية، فقال: «أفي حد من حدود الله تشفع يا أسامة؟ والله لو سرت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها»، فكان هذا مظهرًا عظيمًا للعدل المحمدي.

■ وكانت تحته تسع نسوة، وكان يعدل و«سرتي العدل لم يعجزوا إلى ربه» وهو مشفق خائف فيقول: «اللهم هذا قسبي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك».

■ وقوله للأعرابي الذي قال له: اعدل، فإن هذه قسمة ما أريد بها وجه الله: «ويحك فمن يعدل إن لم أعدل، خبت وخسرت إن لم أعدل».

■ في الطعام والشراب كان يقول: «ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه، يحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإن كان ولابد فاعلاً، فثلث للطعام، وثلث للشراب، وثلث للنفس». وكان ﷺ يقسم وقته ثلاثة أجزاء: جزء لربه تعالى، وجزء لأهله، وجزء لنفسه، يقسم الجزء الذي لنفسه بينه وبين الناس، فكان يستعين بالخاصة على العامة، ويقول: «أبلغوا حاجة من لا يستطيع

إبلاغي، فإنه من أبلغ حاجة من لا يستطيع إبلاغها، آمنه الله يوم الفرع الأكبر. وكان الحسن يقول: كان رسول الله ﷺ لا يأخذ أحداً يقرئ^(١) أحد، ولا يصدق أحداً على أحد. وهكذا يتجلى خلق العدل في الحبيب ﷺ بصورة واضحة، يدعو كل مؤمن إلى التخلق به اتساعاً به ﷺ، وهو أسوة كل مؤمن ومؤمنة في هذه الحياة.

الزهد الحمدي

إن المراد بالزهد الزهد في الدنيا، وذلك بالرغبة عنها، وعدم الرغبة فيها، وذلك بطلبها طلباً لا يشق، ولا يحول دون أداء واجب، وسد باب الطمع في الإكثار منها والتزيد من متاعها، وهو ما زاد على قدر الحاجة، وقد كان ﷺ يقول: «أزهد في الدنيا يحبك الله، وأزهد فيما عند الناس يحبك الناس» وقد كان ﷺ أزهد الناس في الدنيا، وأقلهم رغبة فيها، حتى كان الزهد خلقاً من أخلاقه الفاضلة وسجية من سجايه الطيبة الطاهرة.

والمواقف الآتية تدل على ذلك وتشهد له وتقرره:

■ قوله ﷺ في الصحيح: «لو كان لي مثل أخذ ذهباً لما سررتي أن يبيت عندي ثلاثاً إلا قلت فيه هكذا وهكذا إلا شيئاً أرصده لذيّن». فهذا أكبر مظهر للزهد الصادق الذي كان الحبيب ﷺ يعيش عليه ويتحلى به.

■ قوله ﷺ لعمر - وقد دخل عليه فوجده على فراش من آدم حشوه ليف - فقال: إن كسرى وقيصر ينامان على كذا وكذا، وأنت رسول الله ﷺ تنام على كذا وكذا، فقال له ﷺ: «ما لي والدنيا يا عمر وإنما أنا فيها كراكب استظل بظل شجرة، ثم راح وتركها».

فكان هذا أقوى مظهر من مظاهر الزهد الحمدي الصادق.

■ عرّض عليه ربه تعالى أن يحول له الأخشبين^(٢) ذهباً وفضه، وذلك بعد عودته من الطائف جريحاً كثيراً حزينا، فقال: «لا يا رب، أشنع^(٣) يوماً فأحمدك وأثنى عليك، وأجوع آخر، فأدعوك وأنضرع إليك».

■ وأكبر مظهر لزهد ﷺ في الدنيا سؤاله المتكرر: «اللهم اجعل قوت آل محمد كفافاً». وفي لفظ: «قوتاً» أي بلا زيادة ولا نقصان. وكان يقول: «قليل يكفي خير من كثير يلهي». وما قل وكفى خير مما كثر وألهى أو أطفئ.

■ قول عائشة رضي الله عنه: مات رسول الله ﷺ وما في بيتي شيء يأكله ذو كبد إلا شطر شعير في رف لي. وقد قبض رسول الله ﷺ ودعاه مرهونة عند يهودي في ثلاثين صاعاً من شعير.

(١) القرف: التهمة والذنب.

(٢) جبلان من جبال مكة معروفان.

(٣) الحديث مروي بالمعنى لا باللفظ.

وبالتأمل في هذه المواقف تتجلى الحقيقة واضحة وهي أن الزهد الحق كان خلق النبي الحبيب ﷺ. وهو القائل: «الدنيا دارٌ مَنْ لا دار له، ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له». فَصَلِّ اللهم وباركْ وسلِّمْ على عبدك ورسولك أزهّد الزّهاد، وأفضل العُباد إلى يوم التلاقي والميعاد.

الحياء المحمدي

إن الحياء خلق فاضل فاقده لا خير فيه؛ إذ هو من الإيمان، وهو خير كله. وحقيقته: أنه تغير بسببه الخوف مما يكره قوله أو فعله، أو يُذم عليه. ويظهر أثره في احمرار الوجه، وترك ما يخشى معه الذم والملامة وهو في المرأة بمنزلة الشجاعة في الرجل، أي كما أن الشجاعة محمودة في الرجل أكثر ما هي محمودة في المرأة، فكذلك الحياء هو في المرأة محمود أكثر مما هو في الرجل. ومع هذا خلق فاضل كريم، قال فيه رسول الله ﷺ: «الحياء من الإيمان»، وقال: «الحياء كله خير»، و«الحياء لا يأتي إلا بخير»، و«الحياء شعبة من الإيمان» في أحاديث صحاح.

ومن مظاهر الحياء المحمدي التي يتجلى فيها بوضوح ما يلي:

■ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذَى الْبَنَىٰ فَتَنَّاكَ ۖ يَنفَعُكَ﴾ [الأحزاب: ٥٣]. فهذه شهادة الله تعالى لرسوله ﷺ بالحياء وكفي بها شهادة.

■ رواية الشيخين عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه وفيها، قال: كان رسول الله ﷺ أشدّ حياة من البكر في خدرها^(١)، وكان إذا كره شيئاً عرفناه في وجهه.

■ قول عائشة رضي الله عنها: كان النبي ﷺ إذا بلغه عن أحد ما يكره، لم يقل: ما بال فلان يقول كذا؟ ولكن يقول: «ما بال أقوام يصنعون أو يقولون كذا» ينهي ولا يسمي فاعله.

■ قول أنس بن مالك رضي الله عنه في رواية أبي داود قال: دخل رجل على النبي ﷺ به أثر صفرة، فلم يقل له شيئاً، وكان لا يواجه أحداً بمكرهه، فلما خرج قال: «لو قلت له يغسل هذا» أي أثر الصفرة في الثوب.

■ رواية البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: لم يكن رسول الله ﷺ فاحشاً^(٢)، ولا متفحشاً، ولا سخاباً^(٣) في الأسواق ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح. وهذا وصفه في التوراة أيضاً كما رواه عبد الله بن سلام رضي الله عنه.

■ وكان ﷺ من شدة حيائه لا يثبت بصره في وجه أحد، ويكفي عما اضطره الكلام إليه مما يكره ولا يصرح به.

(١) الخدر: الستر في البيت.

(٢) الفاحش: من يصدر عنه الفحش وهو القول أو الفعل القبيح، والمتفحش من يتعمد الفحش ويبالغ فيه.

(٣) السخاب والصخب: رفع الصوت، والسخاب فاعل ذلك.

■ قول عائشة رضي الله عنها: «ما رأيت من رسول الله ﷺ، ولا رأى مني» أي من العورة. كانت هذه مظاهر حياته ﷺ وشواهد، وفيها كفاية لمن أراد أن يتأنس به ﷺ في حياته، وفي سائر أخلاقه؛ فقد جعله الله تعالى أسوة المؤمنين فقال تعالى في آية من كتابه: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (١).

أدب مخالطته ﷺ وحسن عشرته

إن من كمال خلق المرء حسن صحبته ومعاشرته لأهله، وكمال أدبه في مخالطته لغيره، وقد كان الحبيب ﷺ مضرب المثل في حسن الصحبة وجميل المعاشرة وأدب المخالطة. وفيما نعرضه من مواقف له ﷺ في هذا الشأن كفاية لمن أراد الالتئام به ﷺ في كمالاته الروحية والخلقية والأدبية:

■ وصف علي رضي الله عنه له ﷺ في قوله: «كان رسول الله ﷺ أوسع الناس صدراً، وأصدق الناس لهجة، وألينهم عريكة، وأكرمهم عشرة» وهو كما قال رضي الله عنه، والقصة التالية تؤكد ذلك وتقرره: مر ﷺ على ابن أبي - وهو جالس مع بعض المسلمين وغيرهم - فقال ابن أبي لرسول الله ﷺ وهو راكب على دابته: لا تغبروا علينا، ارجع إلى رحلك (٢) فَمَنْ جَاءَكَ مِنَّا فَاقْصِصْ عَلَيْهِ؛ فغضب المسلمون، واستبوا مع المشركين حتى كادوا يقتتلون، فهدأهم رسول الله ﷺ ومنعهم من التواثب على بعضهم البعض، ومضى رسول الله ﷺ على دابته، فنزل سعد بن معاذ وذكر له ما جرى، فقال له سعد: يا رسول الله اعفُ عنه واصفح؛ فقد اتفق أهل هذه البُحيرة «المدينة» على أن يعصبوه - يتوجهوا ملكاً عليهم - فلما ردَّ الله ذلك بالحق الذي بعث به شرق بذلك، فعفا عن ﷺ فلما أراد ﷺ الانصراف قَرَّبَ إليه سعدُ حملاً ووطأ عليه بقطيفة فركب رسول الله ﷺ ثم قال سعد لابنه قيس: اصحب رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ لقيس: «إِذَا أَنْ تَرَكَبَ - أي معي على الحمار - وَأَمَّا إِنْ تَنْصَرَفَ». قال: فانصرف. وفي رواية أخرى قال: «اركب أمامي، فصاحب الدابة أولى بمقدمها» (٣).

فأي كمال أعظم من هذا الكمال المحمدي في أدبه ومخالطته لأصحابه؟ ولنستمع إلى ابن أبي هالة (٤) في وصفه له ﷺ إذ يقول: كان دائم البشر، سهل الخلق، لين الجانب، ليس بفظ ولا غليظ، ولا سخاب ولا فاحش، ولا عتاب ولا مداح، يتغافل عما لا يشتهي ولا يؤس منه، وكان يجيب من دعاء، ويقبل الهدية ممن أهدها، ولو كانت كراع شاة، ويكافئ عليها. ■ قال أنس بن مالك خدمت رسول الله ﷺ عشر سنوات، فما قال لي: أف قط، وما قال

(١) القدوة.

(٢) الصالحة.

(٣) الرجل: المنزل من دار وغيرها.

(٤) القصة: واردة في الصحاح.

(٥) ووصف ابن أبي هالة صحيح كذلك.

لشيء صنعتُهُ : لم صنعتُهُ ؟ ولا لشيء تركته : لم تركته ؟

■ قالت عائشة رضي الله عنها : ما كان أحد أحسن خلقاً من رسول الله ﷺ ما دعاه أحد من أصحابه ولا أهل بيته إلا قال : «لييك» أي أجاب دعوته .

■ وصفه عارف به ﷺ فقال : كان ﷺ يمازح أصحابه ويخالطهم ويحادثهم ويداعب صبيانهم ، ويُجلِسُهُمْ في حجره ، ويجيب دعوة الحر والعبد ، والأمة والمسكين ، ويعود المرضى في أقصى المدينة ويقبل عذر المعتذر .

■ قال أنس رضي الله عنه : ما التقم^(١) أحد أذن رسول الله ﷺ فينحي رأسه حتى يكون الرجل هو الذي ينحي رأسه ، وما أخذ أحد بيده ﷺ فيرسل يده حتى يرسلها الآخر ، ولم يُرْ مُقَدِّمًا ركبته بين يدي جليس له .

■ ووصفه عليم به فقال : كان صلى الله عليه وسلم يبدأ مَنْ لقيه بالسلام ، ويبدأ أصحابه بالمصافحة ، ولم يُرْ قط ماذا رجليه بين أصحابه حتى لا يضيق بهما على أحد . يكرم مَنْ يدخل عليه ، وربما بسط له ثوبه ، ويؤثره بالوسادة التي تحته ، ويعزم عليه في الجلوس عليها إن أبي ويكني^(٢) أصحابه ، ويدعوهم بأحب أسمائهم : تكرمته لهم ، ولا يقطع على أحد حديثه حتى يتجاوز - أي يُكثِرْ - فيتجاوز الحد - فيقطعه ، ينهي أي له أو قيام . وكان إذا جلس إليه أحد - وهو يصلي - خَفَّفَ صلاته وسأله عن حاجته ، فإذا فرغ عاد إلى صلاته .

وحسبنا في بيان أدبه ﷺ وحسن عشرته وجميل مخالطته قولُ رَبِّهِ عز وجل فيه : ﴿فِيمَا رَحِمَهُ بَيْنَ أَهْلِهِ يَتَنَبَّهٌ وَكَانَ عَلَيْهِ خُلُقٌ نَبِيلٌ لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِهِ فَانْفَعَتْ عَنْهُمْ وَأَسْتَفِيرَ لَهُمْ وَكَانُوا فِي الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ١٥٩] . وقد فعل ﷺ فجزاها الله عن أمته خير الجزاء .

خشية الحبيب ﷺ وطول عبادته

إن خشية الله تعالى في السر والعلن ثمرة العلم بالله رباً وإلهاً ذا جلال وكمال لا حدَّ لهما تقصر الفهم دون إدراكها قال تعالى : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨] . وقال رسول الله ﷺ : «إني أعلمكم بالله وأشدكم له خشية» ، فدل على هذا أن الخشية يثمرها العلم الصحيح ، العلم بالله ذي الجلال والإكرام ، وبأسمائه الحسنی ، وصفاته العلی ، وبمحابه من العقائد والأقوال والأعمال والصفات والذوات ، وبمكارهه من ذلك كله .

مَنْ أَعْلَمُ بالله من رسول الله ؟ اللهم لا أحد ، ولذا فلا اتَّقَى لله من رسول الله في سائر عباد الله ، ولا أكثر طاعة من رسول الله ﷺ ، ولا أرغب فيما عند الله من رسول الله ﷺ ، ولا أرهب مما لدى الله من رسول الله ﷺ ، ولا أشد انقطاعاً وتبتلاً لله من رسول الله ﷺ ، وهذه

(١) أي لأجل يُساره في أذنه حتى لا يسمع أحد ما يقوله .

(٢) أي يدعوهم بأسمائهم بل بكنائهم كان يقول : يا أبا الحسن ، وأبا حفص ، وأبا أمية مثلاً .

الأحاديث والآثار تقرر ذلك وتؤكد.

○ (أ) مظاهر خشية ﷺ:

■ روى الترمذي عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، أظن^(١)، السماء، وحق لها أن تثنى؛ ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجداً لله، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً وما تلذذتم بالنساء على الفراش ولخرجتم إلى الصعدات^(٢) تجأرون إلى الله تعالى» لوددت أني شجرة تعضد^(٣). فهذا الحديث شاهد حق على خشية رسول الله وخوفه من ربه تعالى، ويؤكد قوله: «إني لأعلمكم بالله وأشدكم له خشية».

■ ما حدث به عبد الله بن الشَّخِير حيث قال: أثبت رسول الله ﷺ وهو يصلي، ولجوفه أزيز كأزيز الوزجل.

■ ما تقدم عن ابن أبي هالة في وصفه ﷺ إذ قال: كان رسول الله ﷺ متواصل الأحزان، دائم الفكر، ليس له راحة.

■ ما صح عنه ﷺ من قوله: «إني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة» وفي رواية: «سبعين مرة» فهو دائم الاستغفار، ويوماً يستغفر سبعين، ويوماً يستغفر مائة، وهذا من كمال خشية وعظيم تقواه لربه عز وجل.

■ ما حدث به عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، إذ قال: كنا نَعُدُّ لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد قوله: «رب اغفر لي، وتب علي إنك أنت التواب الرحيم» مائة مرة.

○ (ب) مظاهر طول عبادته ﷺ:

■ حديث الصحيح عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه إذ قال فيه: قام ﷺ حتى انتفخت قدماه، فقيل له: أتكلف هذا وقد غُفِرَ لَكَ ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «أفلا أكون عبداً شكوراً؟».

■ ما حدثت به عائشة رضي الله عنها في قولها: كان عمل النبي ﷺ ديمَةً، وأيكم يطيق ما كان يطيق؟ كان يصوم حتى نقول: لا يفطر، ويفطر حتى نقول: لا يصوم، وكنت لا تشاء أن تراه من الليل مصلياً إلا رأيته مصلياً، ولا نائماً إلا رأيته نائماً.

■ روى أبو داود في سننه عن عوف بن مالك قال: كنت مع رسول الله ﷺ ليلة، فاستاك ثم توضأ، ثم قام يصلي، فقامت معه فبدأ فاستفتح البقرة فلا يمرُ بآية رحمة إلا وقف فسأل، ولا يمر

(١) الأظيط: صوت القتب إذا ضغطه ثقل ما عليه من الحمل.

(٢) الطرقات.

(٣) تقطع: كناية عن تمنيه أن لو لم يكن في هذه الحياة إنساناً حياً. وهذا تمنى أبي ذر، وليس قول الرسول ﷺ

بآية عذاب إلا وقف فتعوذ، ثم ركع فمكث بقدر قيامه يقول: «سبحان ذي الجبروت والملك والملكوت والمعظمة»، ثم سجد وقال مثل ذلك، ثم قرأ آل عمران، ثم سورة سورة يفعل مثل ذلك.

■ ما حدثت به أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: إذا قالت: قام رسول الله ﷺ بآية من القرآن ليلة هي آخر سورة المائدة: ﴿إِنْ تُدْبِرُوا عَنْ آلِهَتِهِمْ فَابْتَدِئُوا بِآلِهِمْ إِنَّ تَقْوَىٰ لَهُمْ فَلَيْسَ أَنْتَ الْقَرِيبُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨].

■ ما صح عنه ﷺ من قوله: «وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ». فهذه مظاهر إطالة العبادة، وطول التبتل وبه اتتسى الصالحون من هذه الأمة، ففازوا بالقرب والرضا. جعلنا الله تعالى منهم، وحشرنا في زميرتهم، وصلى الله وسلم وبارك على أسوة المؤمنين وقرة عين المحبين محمد ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين.

التواضع المحمدي

إذا كان التواضع معناه إظهار الضعة وذلك من رفيع القدر عالي المقام، شريف الأصل والمحتد وهو كذلك، فإن خلق التواضع من أفضل الأخلاق وأسمائها، وقد بلغ فيه رسول الله ﷺ شأوا لا يلحقه فيه أحد من الأولين ولا من الآخرين. وباستعراضنا لأقواله ﷺ وأفعاله وأحواله الظاهرة، تتجلى هذه الحقيقة ويطلع كل مؤمن - يستعرض ما نوره في هذا الباب - في أن ينال قدرا من التواضع اتساة بنبيه ﷺ. وهذا ما رجونا من كتابة هذه السيرة العطرة وتقديمها للمسلمين.

○ مظاهر التواضع المحمدي:

■ أخبر ﷺ أنه قد خیر بين أن يكون نبيا ملكا، أو نبيا عبدا، فاختار أن يكون نبيا عبدا، وأخبر أن الله تعالى كافاه على اختياره العبودية بأن يكون سيد ولد آدم، وأول من تنشق عنه الأرض، وأول شافع. فاختياره العبودية على الملوكية أكبر من مظاهر التواضع المحمدي.

■ حَدَّثَ أَبُو أَمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَتَوَكِّئًا عَلَى عَصَا، فَقَمْنَا لَهُ، فَقَالَ: «لَا تَقُومُوا كَمَا تَقُومُ الْأَعَاجِمُ يُعْظَمُ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ»، وَقَالَ: «إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ، أَكَلْتُ كَمَا يَأْكُلُ الْعَبْدُ، وَأَجْلَسْتُ كَمَا يَجْلِسُ الْعَبْدُ».

■ ما عرف به ﷺ وشهد به غير أحد من أصحابه، وأنه كان يركب الحمار ويُرَدَّفُ خلفه، ويعود المساكين، ويجالس الفقراء، ويجب دعوة العبد، ويجلس بين أصحابه مختلطا بهم، حيثما انتهى به المجلس جلس، وكان يدعى إلى خبز الشعير والإهالة البتحة فيجيب.

■ قوله ﷺ: «لَا تَطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، وَإِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ فَقُولُوا: عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ».

■ في حجه الذي أهدى فيه مائة بدنة، حج على بعير فوَّقه رحل عليه قطيفة ما تساوي أربعة دراهم.

■ ولما فتح الله تعالى على رسول الله ﷺ مكة ودخلها ظافراً منتصراً - والجيش الإسلامي قد دخلتها من كل أبوابها - دخل راكباً على ناقته، وإن لحيته الشريفة تكاد تمسُّ قائم رحله تطامناً وتواضعاً لله عز وجل، وهو موقف لم يقفه غيره في دنيا البشر قط.

■ قوله ﷺ: «لا تفضلوني على يونس بن متى، ولا تفضلوا بين الأنبياء، ولا تختاروني على موسى، ونحن أحقُّ بالشك من إبراهيم، ولو لبثت ما لبث يوسف في السجن لأجبت الداعي».

■ وقوله ﷺ للذي قال له: يا خير البرية: «ذاك إبراهيم».

■ ما أخبر به بعض نسائه، وتحدثن، وهو أنه ﷺ يكون في بيته في مهنة أهله يفلي^(١) ثوبه، ويحلب شاته، ويرقع ثوبه ويخصف^(٢) نعله، ويخدم نفسه، ويقم البيت، ويعقل البعير، ويعلف ناضحه، ويأكل مع الخادم، ويعجن معها ويحمل بضاعته من السوق.

■ دخل عليه رجل فأصابته من هيبته رعدة فقال له: «هَوَّنْ على نفسك؛ فإني لست ملكاً، وإنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد».

■ حدث أبو هريرة رضي الله عنه فقال: دخلت السوق مع النبي ﷺ فاشتري سراويل، وقال للوازن: «زن وأرجع»، فوثب الوازن إلى يد النبي ﷺ يقبلها، فجذب يده وقال: «هذا تفعله الأعاجم بملوكها، ولست بملك، إنما أنا رجل منكم» ثم أخذ السراويل، فذهبت لأحملها فقال: «صاحب الشيء أحق بشيئه أن يحمله».

إن كان مظهر من هذه المظاهر التي بلغت أحد عشر مظهراً دالاً بمفرده على كماله ﷺ ثم تواضعه، وأنه مضرب المثل في ذلك. ولما كان كماله لا يداني فيه، فتواضعه يكون آية نبوته ومعجزة رسالته. وغير مانع محاولة الانتساء به، لأن التواضع من الأخلاق المكتسبة، وبقدر صدق النية والرغبة الصادقة يحصل للعبد ما يرغب فيه من الكمالات المحمدية التي هي موضع الانتساء به ﷺ.

المزاح الحمدي

إن المزاح كالمداعبة والملاعبة، والهزل الذي هو خلاف الجد، يقال: هزل في قوله أو فعله، أو مزح، أو داعب: الكل بمعنى واحد. والسؤال: هل كان رسول الله ﷺ على جلال قدره وسمو مكانته، وانشغال باله بمهام الرسالة وأعباء القيادة وهداية الناس يمزح؟ والجواب: نعم، كان يمزح ويداعب ويهزل بقلّة لاستيعاب الجدّ وقته كلّهُ إلا أنه كان في مزاحه ومداعبته وهزله لا

(١) أي ينقيه من القمل إن كان به.

(٢) يلصق بعضه ببعض إذا تقطع ويجرّزه ليلصق ولا ينحلّ.

يخرج أبداً عن دائرة الحق وبحال من الأحوال، وهو في مزاحه ومداعبته يقدم معروفاً لأصحابه بما يدخل عليهم من الغبطة والسرور وعلى أطفالهم إذا داعبهم من الفرح والمرح والسرور والخبور.

وباستعراضنا للمواقف النبوية الآتية تتجلى لنا الحقيقة، وهي أن النبي ﷺ كان يمزح ولا يقول إلا حقاً. وفي الإمكان الانتساء به في ذلك، لأنه من المقدور المستطاع، وليس من خصائصه ﷺ، بل هو أدب عام يأخذ به كل مؤمن قدر عليه.

■ حدث أنس بن مالك رضي الله عنه فقال: إن رجلاً أتى النبي ﷺ فاستحمله - أي طلب إليه أن يحمله على بعير ونحوه - فقال له ﷺ: «إنا حاملوك على ولد الناقة» فقال الرجل: يا رسول الله! ما أصنع بولد الناقة؟ فقال رسول الله ﷺ: «هل تلد الإبل إلا النوق؟» فكان قوله مداعبة للرجل ومزحاً معه، وهو حق لا باطل فيه.

■ وحدث النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: استأذن أبو بكر النبي ﷺ، فسمع صوت عائشة عالياً على رسول الله ﷺ، فلما دخل تناولها ليلطمها وقال: لا أراك ترفعين صوتك على رسول الله ﷺ، فجعل النبي ﷺ يحججه. وخرج أبو بكر مغضباً، فقال رسول الله ﷺ حين خرج أبو بكر: «كيف رأيته أنقذتك من الرجل؟».

فمكث أبو بكر أياماً، ثم استأذن على رسول الله ﷺ فوجدهما قد اصطلحا، فقال لهما: أدخلاني في سلككما كما أدخلتماني في حربكما، فقال رسول الله ﷺ: «قد فعلنا، قد فعلنا».

ففي هذا الحديث من حسن العشرة وطيب المداعبة ما لا يخفى على متأمل. ■ وحدث أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال له: «يا ذا الأذنين»، وهي مداعبة ظاهرة، وهي حق واضح، إذ كل إنسان ذو أذنين اثنين.

■ وحدث أنس بن مالك فقال: كان رجل من أهل البادية يقال له زاهر، وكان يهدي للنبي ﷺ الهدية من البادية، فيجهزه النبي ﷺ إذا أراد أن يخرج فقال رسول الله ﷺ فيه يوماً: «إن زاهراً باديتنا، ونحن حاضره»، وكان رسول الله ﷺ يحبه، وكان هو رجلاً دميماً، فأثاه النبي ﷺ، وهو يبيع متاعه، فاحتضنه من خلفه - ولا يبصره الرجل - فقال: أرسلني من هذا؟ فالتفت، فعرف النبي ﷺ فجعل لا يالو ما ألصق ظهره بصدر النبي ﷺ، وجعل رسول الله ﷺ يقول: «من يشتري هذا العبد» فقال لرسول الله ﷺ: إذن والله تجدني كاسداً، فقال رسول الله ﷺ: «لكن عند الله لست بكاسد أنت عند الله غالي» فالمزاح في هذا الحديث ظاهر بصورة واضحة، ومعه من كمال الخلق وحسن الصحبة، وطيب المخالطة ما لا مزيد عليه.

■ وروى البخاري - رحمه الله - أن رجلاً كان يقال له: عبد الله، ويلقب بحمار، وكان يضحك النبي ﷺ، وكان يؤتى به في الشراب - أي الشكر ليقام عليه الحد - فجاء به يوماً فقال

رجلٌ: لعنه الله ما أكثر ما يؤتى به!! فقال رسول الله ﷺ: لا تلعنه؛ فإنه يحب الله ورسوله». فقلوه: وكان يضحك النبي ﷺ دليل على أنه يمازحه حتى يضحك، والمزاح يكون بين اثنين، فكل واحد يمازح الثاني.

■ وحدث أنس بن مالك رضي الله عنه فقال: كان للنبي ﷺ حاد يحدو بنسائه يقال له: أنجشة، فحدا فأعتقت الإبل، فقال رسول الله ﷺ: «ويحك يا أنجشة ارفق بالقوارير» أي بالنساء؛ فإطلاق القوارير على النساء مداعبة ظاهرة ووصفهن بالقوارير لضعفهن، فلو سقطت إحداهن من هودجها لتكسرت، ولو كنَّ غير أمهات المؤمنين لصحَّ أن يقال: إن الحداء - وهو صوت الحادي الرقيق - قد يوجد في نفس المرأة أثرًا غير صالح.

■ وحدث مسروق عن عائشة رضي الله عنها قالت: حدث رسول الله ﷺ نساء ذات ليلة حديثًا، فقالت امرأة منهن: يا رسول الله! كأن الحديث حديث خرافة، فقال لها رسول الله ﷺ: «أتدريين ما خرافة؟ إن خرافة كان رجلاً من بني عذرة أسرته الجن في الجاهلية، فمكث فيهم دهرًا طويلاً، ثم رده إلى الإنس، فكان يحدث الناس بما رأى فيهم من الأعاجيب فقال الناس: حديث خرافة»^(١)، والمداعبة في هذا الحديث ظاهرة في الرد على القائلة: حديث خرافة، فبدل أن يؤنبها لألفها وداعبها، وقصَّ عليها قصة خرافة العذري.

■ حدث الحسن البصري - رحمه الله تعالى - فقال: أتت امرأة النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله! ادع الله لي أن يدخلني الجنة، قال: «يا أم فلان إن الجنة لا يدخلها عجوز» فولت العجوز تبكي، فقال: «أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوز؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَهُنَّ إِنثًا ۖ فَمَلَئَهُنَّ أَبْنَارًا ۖ عُرِّيَّ أَثَرًا﴾» [البقرة: ٢٥-٢٧].

■ وحدث أن امرأة جاءت تسأل عن زوجها، فقال النبي ﷺ: «زوجك الذي في عينيه بياض» فبكت، وظنت أن زوجها عيى، فأعلمت أن العين لا تخلو من بياض، فكانت مداعبة كمداعبته ﷺ للعجوز، ومصدقًا لما قدمناه من أنه ﷺ لا يقول في مزاحه إلا حقًا، فقد قال أبو هريرة رضي الله عنه قالوا: يا رسول الله! إنك تداعبنا، قال: «إني لا أقول إلا حقًا».

الفصاحة الحمديدية

نترك صاحب «الشفاء» يصف لنا فصاحة الحبيب ﷺ فيقول: تحت «فصل» وأما فصاحة اللسان، وبلاغة القول، فقد كان ﷺ من ذلك بالمحل الأفضل، والموضع الذي لا يجهد سلامة طبع، وبراعة^(٢) منزع، وإيجاز^(٣) مقطع، ونصاعة لفظ، وجزالة قول، وصحة معان، وقلة

(١) الحديث رواه الترمذي إلا أن ابن كثير أعله وضعفه، وذكرناه لأنه حل لنا إشكال قول الناس: هذا حديث خرافة.

(٢) براعة منزع: أي هو ذو تفوق في قوم هم أفصح الناس.

(٣) إيجاز مقطع: أي هو ذو إيجاز في قوله، وفصل في كلامه مع قلة الألفاظ وتحديد المعنى وتوضيحه.

تكلف . أوتي جوامع الكلم، وخص ببداية الحكيم، وعلم أئمة العرب، يخاطب كل أمة منها بلسانها ويحاورها بلغتها ويأريها في منزع بلاغتها، حتى كان من أصحابه يسألونه في غير موطن عن شرح كلامه وتفسير قوله .

ومما اختص به وتفوق فيه - فلا يدانيه فيه غيره، ولا يساميه فيه سواه - أنه ﷺ يتكلم مع كل قوم بلهجتهم وفصاحة لسانهم، وبلاغة كلامهم، فكلامه مع قريش والأنصار وأهل الحجاز ونجد ليس هو ككلامه مع ذي المشعار الهمداني، وطفه (١) النهدي، وقطن بن حارثة العُليمي والأشعث (٢) بن قيس، ووائل بن حجر الكندي وغيرهم من أقبال (٣) حضرموت وملوك اليمن . وهذه نماذج من كلامه ﷺ مع الأقوام المتباينين اللهجات، وإن شملتهم الجزيرة العربية داراً، واللسان العربي منطقاً، فنراه يخاطب كل قوم بلهجتهم، وفصاحتهم في كلامهم ويتفوق عليهم .

■ لما وفد عليه ﷺ ذو المشعار الهمداني كتب إلى همدان وبعثه مع ذي المشعار وهذه جملته :

«إن لكم فراغها (٤) ووهاظها (٥)، وعزازها (٦) تأكلون بملانها (٧)، وتزعون عفاءها (٨)، لنا من دفتهم (٩) وصرامهم (١٠) ما سلّموا بالميثاق والأمانة، ولهم من الصدقة الشلب (١١) والنايب والفصيل، والفارض والداجن (١٢) والكيش الخوري، وعليهم فيها الصالغ (١٣) والقارح (١٤) . فهذا الكلام بلهجة همدان إذا سمعه الحجازي أو النجدي وحتى القرشي يحتاج في أكثره إلى شرح وتفسير .

■ وقد عليه طفه النهدي، وشكا إليه ما أصاب قومه من القحط، وطلب منه أن يدعوا لنهد القبيلة فقال : «اللهم بارك لهم في مخضها ومخضها ومدقها، وابعث راعيها في الدسر (١٥)، وافخر لها الثمد وبارك له في المال والولد . من أقام الصلاة كان مسلماً ومن أتى الزكاة كان محسناً، ومن شهد أن لا إله إلا الله كان مخلصاً، لكم يا بني نهد ودائع الشرك وضائع الملك، لا تلطط (١٦) في الزكاة ولا تلحد (١٧) في الحياة، ولا تناقل في الصلاة» .

■ وكتب لبني نهد في الوظيفة والفريضة فقال : «ولكم الفارض والفريش وذو العنان والركوب

- (١) هو خطيب نهد ووافدها عام الوفود وهو سنة تسع .
- (٢) وقدموا من اليمن في ستين راكباً فأسلموا كلهم ورجعوا إلى اليمن .
- (٣) جمع قيل : بمعنى الملك .
- (٤) ما ارتفع من الأرض .
- (٥) ما سفل وانخفض .
- (٦) ما صلب واشتد .
- (٧) ما يعلف للدواب .
- (٨) الإبل والغنم .
- (٩) الجمل المسن .
- (١٠) جمع صرمة القطعة من النخل والتمر .
- (١١) ما يربض حول البيوت لهرمه وهزاله .
- (١٢) الذي شق نابه من ذوي الحافر مطلقاً .
- (١٣) الإبل الكثيرة .
- (١٤) أي لا تمنعها .
- (١٥) لا تجر عن الحق ولا تعدل عنه .
- (١٦) أي لا تمنعها .
- (١٧) لا تجر عن الحق ولا تعدل عنه .

والفلق الضبين، لا يمنع سرحكم ولا يعضد، ولا يحبس دركم ما لم تضرعوا الرماق^(١) وتأكلوا الرباق^(٢)، من أقر الوفاء بالمهد واللثة ومن أوى فعلية الرؤفة^(٣).

■ وكتب إلى وائل بن حجر فقال: «إلى الأقيال المباهلة والأرواح^(٤) المشاييب».

وجاء فيه: «في التبعة^(٥) شاة لا مَفْوْذَةُ الألباط^(٦) ولا ضنك وأنطوا^(٧) الشيحة، وفي السيوف^(٨) الخمس. ومن زنى مم^(٩) بكر، فاصمقوه مائة، واستوفضوه عامًا، ومن زنى مم ثيب فضرّجوه بالأضاميم، ولا توصيم^(١٠) في الدين، ولا غمة في فرائض الله، وكل مسكر حرام، ووائل بن حجر يترفل^(١١) على الأقيال».

■ وقوله ﷺ: «فإن اليد العليا هي المنطية واليد السفلى هي المنطاة» في حديثه مع عطية السعدي فقال: كلمنا رسول الله ﷺ بلغتنا.

■ وقوله في حديث العامري حين سأله فقال له ﷺ: «سل عنك» أي: سل عما شئت وهي لغة بني عامر.

من كل ما تقدم من نماذج كلامه ﷺ يتبين أنه كان يخاطب كل قوم بلهجتهم ويتفوق عليهم في الفصاحة والبيان، وهو ﷺ مأمور بذلك؛ ليبين للناس ما نزل إليهم، وإذا خاطب الأنصار والمهاجرين من قريش وأهل نجد والحجاز بكلامه المعتاد خلّق في سماء البلاغة والبيان، ونثر الدر من كلامه الجامع للحكم المشتمل على فنون الهداية وضروب البيان، وهذه نماذج منه:

■ قوله ﷺ: «المسلمون تنكأ دماؤهم، ويسمى بلمتهم أديانهم وهم يد واحدة على من سواهم».

■ أقواله ﷺ: «الناس كأسنان المشط، والمرء مع من أحب، ولا خير في صحبة من لا يرى لك ما ترى له»، «الناس معادن»، «وما هلك امرؤ عرف قدره»، «المستشار مؤتمن»، «ورحم الله عبداً قال خيراً فغنم، أو سكت فسليم»، «أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين»، «إن أحبكم إلي وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً الموطئون^(١٢) أكنافاً الذين يالفون ويؤلفون». «ذو الوجهين لا يكون عند الله وجيهاً»، «اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن»، ونهى عن قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال.

(١) الثفاق.

(٢) أي تظهروا نقض العهد.

(٣) أي الزيادة على الفريضة عقوبة له.

(٤) السادة الزُّهر الألوان، والمشايب: الزهر الحسان الوجوه.

(٥) الأريمون من الغنم.

(٦) المهازيل المسترخية الجلود.

(٧) أعطوا الوسط.

(٨) الركاز والمال المدفون.

(٩) مم: أي من كذا.

(١٠) أي لا عيب في إقامة الحد.

(١١) كناية عن جملة رئيساً لأن الترفُّل إطالة الثوب والرداء وهما من مظاهر الغنى والسيادة عند الناس.

(١٢) الموطأ الكتف - أي الجانب: من فيه لين ورفق.

■ ما قاله من الكلم الذي لم يُسبق إليه، ولا قاله أحد قبله كقوله: «حبي الوطيس»، و«مات خنقاً أنه». «لا يلدغ المؤمن من جُحْرِ مرتين»، «السعيد من وعظ بغيره».

■ وقيل له ﷺ يوماً: ما رأينا الذي هو أفصح منك، فقال: «وما يمنعني؟»، وإنما أنزل القرآن بلساني بلسان عربي مبين». وكيف لا يكون كذلك وهو من قريش، ونشأ في بادية بني سعد، وأنزل عليه القرآن، وأوتي جوامع الكلم، ﷺ.

وخلاصة القول إن فصاحة الرسول ﷺ لا عجب فيها ولا غرابة ما دام مضرباً هاشمياً، خصه ربُّه بالعناية في التأديب والتربية، وهياه للوحي، وحمله البلاغ والبيان ﷺ ما نطق ناطق وأبان، من كل مخلوق من إنس وجان.

الرحمة المحمدية

إن الرحمة المحمدية التي أودعها الله تعالى قلب نبيه وصفيه وخليله من عباده محمد ﷺ رحمة عامة لسائر الخلق قال تعالى فيها: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] ورحمة خاصة قال تعالى فيها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وللرحمة في القلب مظاهر في الحياة تتجلى فيها، وهذه بعض مظاهر تلك الرحمة المحمدية.

○ (أ) الرحمة العامة:

■ لما كذبه قومه أناه جبريل وقال له: «إن الله تعالى قد سمع قول قومك إليك ما ردوا عليك، وقد أمر ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم»، فناداه ملك الجبال وسلم عليه، وقال: «مُرني بما شئت، وإن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين»^(١). قال ﷺ: «لا، بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً». فكان هذا مظهرًا من مظاهر الرحمة المحمدية العامة.

■ ركب عاتشة رضي الله عنها جملاً، وكان فيه صعوبة، فجعلت تردده - أي تذهب به وتجيء تروضه - فأتته، فقال لها رسول الله ﷺ: «عليك بالرفق يا عاتشة»، فهذا مظهر من مظاهر الرحمة العامة إذ شملت الحيوان.

■ وقوله ﷺ: «في كل ذات كبد رطبة أجر» مظهر من مظاهر الرحمة العامة أيضًا.

■ وقوله ﷺ: «دخلت امرأة النار في هرة حبستها حتى ماتت، فلا هي أطعمتها حين حبستها، ولا تركتها تأكل من خشاش^(٢) الأرض».

○ (ب) مظاهر الرحمة الخاصة:

■ قوله ﷺ: «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك مع كل صلاة». فهذا مظهر من مظاهر

(١) جيلان بمكة ويضافان إلى منى لقرنهما من مكة ومنى.

(٢) ما يجش فيها ويدخل من حشرات، ومن غيرها كالفران ونحوها.

الرحمة والشفقة المحمدية على أمته ﷺ، وهو من مظاهر الرحمة الخاصة .

■ قوله ﷺ: «لا يبلغني أحد منكم عن أحد من أصحابي شيئاً فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر» .

فهذه من رحمته وشفقته على أصحابه - رضوان الله عليهم أجمعين - وهي من مظاهر الرحمة الخاصة .

■ جاءه ﷺ أعرابي يطلب شيئاً فأعطاه، ثم قال له: «هل أحسنْتُ إليك؟» قال الأعرابي: لا، ولا أجمَلْتُ، فغضب المسلمون لمقاتلته وقاموا إليه ليضربوه - على سوء أدبه مع رسول الله ﷺ - فأشار إليهم: أنْ كَفُوا، ثم قام فدخل منزله وأرسل إلى الأعرابي وزاده شيئاً، ثم قال له: «أحسنْتُ إليك؟» قال: نعم، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرًا، فقال له الرسول ﷺ: «إنك قلتَ ما قلتَ، وفي نفس أصحابي من ذلك شيء فإن أحببت فقل بين أيديهم ما قلتَ بين يدي حتى يذهب ما في صدورهم عليك» قال: نعم، فلما كان الغد أو العشي، جاء فقال النبي ﷺ: «إن هذا الأعرابي قال ما قال، فزدناه فزعم أنه رضي، أكذلك؟» قال: نعم، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرًا. فقال رسول الله ﷺ: «مثلي ومثل هذا، مثل رجلٍ له ناقة شردت عليه، فاتبعها الناس فلما يزدنها إلا نفورًا، فناداهم صاحبها: خلوا بيني وبين ناقتي، فإني أرفق بها منكم وأعلم، فتوجه لها بين يديها، فأخذ لها من قمام الأرض، فردّها حتى جاءت واستناخت وشدّ عليها رحله واستوى عليها. وإني لو تركتكم - حيث قال الرجل ما قاله - فقتلتموه: دخل النار» .

فهذا أكبر مظهر من مظاهر الرحمة المحمدية الخاصة والعامة، فصلى الله عليه من نبي رءوف رحيم، وحقًا إنه الرحمة المهداة والتعمة المعطاة وسفينة الرأفة والشفقة والرحمة المرساة، فَوَيْلُ لمن عاداه وما والاه، وويل لمن عصاه وأذاه، وويل لمن كفر به أو كذبه في الممات والمحيات .

الوفاء الحمدي

إن الوفاء بالعهد، وعدم نسيانه أو الإغضاء عن واجبه خلقٌ كريم، ولذا كان رسول الله ﷺ فيه بالمحل الأفضل والمقام الأسمى، والمكان الأشرف، وفواؤه، وصلته لأرحامه كان مضرب المثل، وحق له ذلك وهو سيد الأوفياء والأولياء والأوصياء والأنبياء من بني آدم . والمظاهر التالية تقرر هذه الحقيقة وتؤكددها:

○ (١) وفاءؤه:

■ حديث عبد الله بن أبي الحُمساء، إذ قال: بايعتُ النبي ﷺ ببيع قبل أن يبعث وبقيت له بقية، فوعده أن آتية بها في مكانه فنسيت، ثم تذكّرت بعد ثلاثة، فبحثت فإذا هو في مكانه، فقال: «يا فتى لقد شققت عليّ أنا ههنا منذ ثلاث أنتظرك» .

ومثل هذا كان لجده إسماعيل - عليه السلام - فأثنى الله تعالى به عليه في قوله: ﴿وَاذْكُرْ فِي

الْكُتَيْبِ يُنْتَبِلُ إِنَّكَ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﷺ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٤-٥٥﴾ .

■ روى البخاري في الأدب المفرد عن أنس بن مالك قال كان النبي ﷺ إذا أتى بهدية قال : «ذهبوا بها إلى بيت فلانة فإنها كانت صديقة لخديجة ؛ إنها كانت تحب خديجة» . أي وفاء هذا يا عباد الله ؟ إنه يكرم أحياء خديجة وصديقاتها بعد موتها رضي الله عنها .

■ وَحَدَّثَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فَقَالَتْ : مَا غَرْتُ مِنْ امْرَأَةٍ مَا غَرْتُ مِنْ خَدِيجَةَ ؛ لَمَّا كُنْتُ أَسْمَعُهُ يَذْكُرُهَا ، وَإِنْ كَانَ لِيَذِيعُ الشَّاءَ فَيُهْدِيهَا إِلَى خِلَالِهَا ، وَاسْتَأْذَنْتُ عَلَيْهِ أَخْتَهَا فَارْتَاخَ إِلَيْهَا ، وَدَخَلْتُ عَلَيْهِ امْرَأَةٌ فَهَشَّ لَهَا وَأَحْسَنَ السُّؤَالَ عَنْهَا ، فَلَمَّا خَرَجْتُ ، قَالَ : «إِنهَا كَانَتْ تَأْتِينَا أَيَّامَ خَدِيجَةَ ، وَإِنْ حُسِّنَ الْعَهْدُ مِنَ الْإِيمَانِ» .

وهكذا يتجلى خلق الوفاء في الحبيب ﷺ ، فلم يَنْسَ بوفائه مَنْ مات فضلاً عمن هو حيٌّ ويهاب لومه أو عتابه .

○ (ب) صلته لرحمه :

صلة الرحم واجبة ، ومن أقدر الناس على القيام بالواجب من رسول الله ﷺ ؟ اللهم إنه لا أحد ، ومع هذا نذكر نموذجين أو ثلاثة لما كان عليه ﷺ من صلة أرحامه ، ليقنتى به في ذلك .

■ قوله ﷺ في أبي العاص بن أمية - وكان مشركاً ظالماً في أول أمره ثم أسلم وحسن إسلامه - قال فيه وهو مشرك : «إِنْ أَلَّ أَبِي فَلَا نَ لِيَسُوا بِأَوْلِيَانِي غَيْرَ أَنْ لَهُمْ رَحِمًا سَأَلُهَا ^(١) بِلَالُهَا .

■ حديث أبي الطفيل قال : رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَأَنَا غُلَامٌ ، إِذْ أَقْبَلَتْ امْرَأَةٌ حَتَّى دَنَّتْ مِنْهُ ، فَبَسَطَ لَهَا رِداءً فَجَلَسَتْ عَلَيْهِ ، فَقُلْتُ : مَنْ هَذِهِ ؟ قَالُوا : أُمُّهُ الَّتِي أَرْضَعَتْهُ .

■ صلاته ﷺ بأمامة بنت زينب ابنته رضي الله عنها إذ كان يحملها على عاتقه وهو يصلي ، فإذا سجد وضعها وإذا قام حملها على عاتقه ، فهذا مظهر من مظاهر صلة الرحم ، كالذي قبله من بسطه ردائه لمن أرضعته .

■ كان ﷺ يبعث إلى ثُوَيْبَةَ مَوْلَاةِ أَبِي لَهَبٍ مَرْضَعَتَهُ بِصَلَةِ وَكْسُوَةٍ ، فَلَمَّا مَاتَتْ سَأَلَ : «مَنْ يَقِي مِنْ قُرَابَتِهَا؟» فَقِيلَ : لَا أَحَدٌ ، وَلَوْ قِيلَ : بَقِيَ فَلَانٌ أَوْ فَلَانَةٌ لَوَصَلَهُمَا ؛ قِيَامًا بِوَجِبِ صِلَةِ الْأَرْحَامِ - وَلَوْ بَعْدُوا - وَلَوْ كَانُوا لِمَجْرَدِ رِضَاعِ بِلَا أَرْحَامٍ ؛ فَصَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم تَسْلِيمًا كَثِيرًا .



(١) أي أصلها بصلتها الواجبة لها .

خاتمة

○ في بيان حقوق الحبيب ﷺ الواجبة له على كل مسلم ومسلمة:
 إن الحقوق الواجبة للنبي ﷺ على كل فرد من أفراد هذه الأمة المسلمة عشرة وهي كالآتي:
 «الإيمان به، محبته، طاعته، متابعتة، الاقتداء به، توقيره. تعظيم شأنه. وجوب النصح له.
 محبة آل بيته وصحابته. الصلاة عليه ﷺ.
 وهذا بيان أدلة وجوبها، وشرح معانيها، وعرض مظاهرها في الحياة..

○ (أ) الإيمان به ﷺ:

إن الإيمان به ﷺ مستلزم للإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر، قال تعالى
 في الأمر الواجب القيام به: ﴿قَائِمُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ. وَالْثَوْرَ الَّتِي أَرْكَأُ﴾ [التغابن: ٨] ، وقال عز من قائل:
 ﴿قَائِمُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الَّتِي أَلْزَمَ يَوْمَئِذٍ وَاللَّهُ وَكَانَ بَيْنَهُمْ لَعَنُوكُمْ تَهْتَكُونَ﴾ [الأمراء: ١٥٨]
 وقال هو ﷺ في الإخبار بوجوب الإيمان به: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله
 إلا الله وأن محمدًا رسول الله» وقال في حديث آخر له في موقف آخر: «أمرت أن أقاتل الناس
 حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ويؤمنوا بي وبما جئت به، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم
 وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله».

ومعنى الإيمان به ﷺ التصديق بنبوته ورسالته التي جاء بها من عند الله تعالى، وأن كل ما جاء
 به من الدين، وما أخبر به عن الله تعالى هو حق وصدق، ولا يكتفي بالنطق باللسان، والقلب
 مُذَكِّرٌ لذلك غير مصدق به، بل لا بد من مطابقة القلب للسان.
 من مظاهر الإيمان به ﷺ طاعته ومحبته وموالاته وباقي الحقوق العشرة.

○ (ب) محبته ﷺ:

إن محبته ﷺ واجبة بالكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِئِمَّتُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ
 وَخِيَرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَبُيُوتُكُمْ تَحْسَبُونَ كَسَادًا وَمَسْكِنٌ تَرْمُونَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ
 وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].
 فهذه الآية دليل واضح على وجوب محبته ﷺ لما فيها من التهديد الشديد على من أثر على
 حب الله ورسوله حبَّ غيرهما من الأهل والمال والولد.
 وقال ﷺ في حديث الصحيح: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس
 أجمعين».

ولما سمع عمر رضي الله عنه - هذا الحديث - قال للرسول ﷺ: «لأنت أحب إلي من كل شيء
 إلا نفسي التي بين جنبي، فقال له النبي ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه»،

فقال عمر: والذي أنزل عليك الكتاب، لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي الَّتِي بَيْنَ جَنْبَيْ، فأجابه الرسول قائلاً: «الآن يا عمر» أي بلغت حقيقة الإيمان.

وقال ﷺ: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر - بعد أن أنقذه الله منه - كما يكره أن يثدق في النار».

ومعنى محبته ﷺ: إثارة ما يحب ﷺ على ما يحب العبد.
○ مظاهر محبته ﷺ:

ومن مظاهر محبته ﷺ ما يلي:

- ١- طاعته، الاقتداء به، ومحبة ما جاء به ودعا إليه، ونصرته في دينه ونصرة المؤمنين به من آل بيته وصحابته والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.
 - ٢- توقيره وتعظيمه عند ذكره وذكر شمالك، عند الوقوف على قبره للسلام عليه وعلى صاحبيه، وعن الجلوس في مسجده والصلاة فيه، وذلك بخفض الصوت، وغض البصر، وعدم ارتكاب أي حدث فيه من قول أو عمل، وعدم إقراره أو الرضا به.
- علامات حبه ﷺ:

من علامات حبه ﷺ ما يلي:

- ١- كثرة ذكره، فإن من أحب شيئاً أكثر من ذكره.
 - ٢- كثرة الشوق إليه، إذ كل محب يحب لقاء حبيبه ويتشوق إلى لقائه.
 - ٣- البكاء عند ذكره شوقاً وحنيناً إليه ﷺ.
- (ج) طاعته ﷺ:

إن طاعته ﷺ واجبة بأمر الله تعالى في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْغُوا أَمْوَالَكُمْ﴾ [سجدة: ٣٣]. ويقول عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا يُطِيعُ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤]. وقوله: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]. ويدل على عظم شأن طاعته ﷺ قوله: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٣]. وقوله: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [النور: ٥٤].

ومعنى طاعته ﷺ: فعل ما أمر به، وترك ما نهى عنه من اعتقاد أو قول أو عمل، إذا كان الأمر للوجوب والنهي للتحريم، فإن كان الأمر للنذوب والاستحباب، والنهي للتنزيه فلا معصية في الفعل ولا في الترك.

○ مظاهر طاعته ﷺ:

من مظاهر طاعته ﷺ:

١- التمسك بسنته، والاهتداء بهديه، وذلك كالمحافظة على رغبة الفجر، وسنة الوتر، والرواتب مع الفرائض، والمحافظة على صلاة الجماعة، والرغبة في الصف الأول والذي يليه، ونافلة الضحى، والصلاة بعد الوضوء، وترك الصلاة في الأوقات المنهي عن الصلاة فيها.

٢- الالتزام بحسن السموت وخفض الصوت، ونظافة الثوب والجسم، وتحري الصدق في القول والعمل.

٣- طلب الحلال في الطعام والشراب واللباس والنكاح.

٤- حب المساكين والإحسان إليهم، وزيارة القبور للترحم عليهم والاستغفار لهم والتذكر بحالهم.

٥- الالتزام بمبدأ: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧].

وبمبدأ: «إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه»^(١).

○ (د) متابعتة ﷺ:

إن متابعتة ﷺ في المعتقد والقول والعمل واجبة وهي الدين كله، ومخالفتة في ذلك هي الخروج من الدين كله إذ قال تعالى: ﴿وَأَنِصُّوهُ لِمَا كُنتُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، فمتابعتة ﷺ سبيل الهداية، وتركها سبيل الغواية، وقد اشترط تعالى لحبه العبد أن يتابع العبدُ رسولَه في كل ما جاء به، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١]. ومعنى المتابعة للرسول ﷺ أن يكون اعتقاد العبد وقوله وعمله تابعاً لاعتقاد رسول الله ﷺ وقوله وعمله، فلا يخالفه في شيء من ذلك، بتقديم ولا تأخير ولا زيادة ولا نقصان، ومن مظاهر المتابعة له ﷺ ما يلي:

١- ألا يبتدع المسلم بدعة، وألا يعمل ببدعة ابتدعها غيره مهما كان هذا المبتدع إلا أن يكون أحد الخلفاء الراشدين الأربعة أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً - رضي الله عنهم أجمعين - وذلك لقوله ﷺ: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عصوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة».

٢- ردُّ كل قول لقوله، وترك كل تشريع لشرعه، والإعراض عن كل ما خالف هديه في الاعتقاد والقول والعمل. والأخذ بكل ما صح عنه وثبت نسبته إليه ﷺ، وقد قالت عائشة رضي الله عنها: صنع رسول الله ﷺ شيئاً ترخص فيه فتنزه عنه قوم؛ فبلغ رسول الله ﷺ،

(١) مسلم وغيره.

فحمد الله ثم قال: «فما بال أقوام يتنزهون عن شيء أصنعهم؟ فوالله إني لأعلمهم بالله وأشدّهم له خشية».

٣- التمسك بالسنة الواجبة والمستحبة على حد سواء.

○ فضل المتابعة:

وفي بيان فضل المتابعة نورد الحديث الآتي:

روى الترمذي وابن ماجه عنه ﷺ: «التمسك بسنتي عند فساد أمتي له أجر مائة شهيد». وقوله ﷺ: «إن بني إسرائيل افترقوا على اثنتين وسبعين ملة، وإن أمتي ستفترق على ثلاث وسبعين، كلها في النار إلا واحدة» قالوا: وما هي يا رسول الله؟ قال: «الذي أنا عليه»^(١) اليوم وأصحابي، رواه الترمذي وابن ماجه بالفاظ مختلفة. والحديث دليل على فضل المتابعة للرسول ﷺ وأصحابه في العقيدة والعبادة والسلوك، إذ خلاف ذلك يفضي بالعبد إلى النار.

○ (هـ) الاقتداء به ﷺ:

لقد أمر تعالى رسوله ﷺ بالاقتداء بمن سبقه من الأنبياء والرسل، فقال عز وجل: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَفْئِدَةٌ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وأمرنا تعالى نحن أيها المسلمون بالاقتداء به ﷺ فقد قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]. أي قدوة صالحة فاقتدوا به. ورتب تعالى هدايتنا على طاعته، والاقتداء به فقال عز وجل: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكُمْ مَآ جُلَّ وَعَلَيْكُمْ مَا جُمِعْتُ وَإِنْ طَٰغَوْا فَبِهِدَّتْهُمْ أَفْئِدَةٌ﴾ [النور: ٥٤]، ولأزم هذا أن ترك الاقتداء به ﷺ مُفَضِّلٌ بضاحبه إلى الضلال الموجب للهلاك في الحياتين، وهو كذلك. فَيُؤَمِّمُ هذا سلف هذه الأمة، فالتزموا بطاعته ﷺ ومتابعته والاقتداء به.

هذه مظاهر تلك المتابعة وذلك الاقتداء:

■ صلى عمر بن الخطاب، فكانما قيل له في ذلك فقال: أنا أفعل كما رأيت رسول الله ﷺ يفعل.

■ قرن عليّ بين الحج والعمرة على عهد عثمان رضي الله عنهما فقال له عثمان: ترى أني أنهي الناس عنه وتفعله؟! فقال عليّ: لم أكن أدع سنة رسول الله ﷺ لقول أحد من الناس.

وقال مرة: ألا إني لست بنبي، ولا يوحى إليّ، ولكني أعمل بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ.

■ وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول: القصد في السنة^(٢) خير من الاجتهاد في البدعة،

(١) في لفظ: «هم الذين يكونون على ما أنا عليه اليوم وأصحابي». وهو الصحيح، وإن كان لفظ الحديث دالاً عليه ولو لم يذكر، وفي لفظ: «افترقت النصارى بعد أن افترقت اليهود».

(٢) يريد أن القليل من العمل الموافق للسنة خير من الكثير المخالف لها.

يريد أن المتابعة للنبي ﷺ - وإن اقتصد العبد في العمل الصالح ولم يكثر منه - خير من عمل كثير في غير متابعة للرسول ﷺ .

■ وكان أبي بن كعب رضي الله عنه يقول : إن اقتصاداً في سبيل^(١) وسنة خير من اجتهد في خلاف سبيل وسنة ، وموافقة بدعة ، وانظروا أن يكون عملكم إن كان اجتهداً واقتصاداً أن يكون على منهج الأنبياء وستتهم .

■ روى أحمد أن ابن عمر رضي الله عنه روي يدير ناقته في مكان ، فسئل عنه فقال : لا أدري ، إلا أنني رأيت رسول الله ﷺ فعله ففعلته . وقال أبو عثمان الحيري : من أمر السنة على نفسه قولاً وفعلًا نطق بالحكمة ومن أمر الهوى على نفسه نطق بالبدعة .

والمقصود من هذا كله ، أن الاقتداء بالرسول ﷺ واجب فعله محقق للنجاة من الهلاك ، وتركه مقتض له والعياذ بالله تعالى ، فالخير كل الخير في اتباعه ﷺ والاقتداء به في الصغير والكبير ، والقليل والكثير . وفي كل الأحوال وسائر الظروف .

○ (و) توقيره ﷺ :

إن توقير النبي ﷺ واجب أكيد ، إذ خلافه - وهو الاستخفاف به ﷺ - ما هو من الكفر ببعيد ، بل هو كفر عتيد . أمر تعالى بتوقير نبيه ﷺ في قوله : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ [التهميم: ١٠] .

فالتعزير : النصرة ، والتوقير للتعظيم والإجلال ، وهذه له ﷺ ، والتسبيح لله عز وجل ، وهو تنزيهه تعالى عن النقائص والشريك والشبيه والتظير والصاحبة والولد .

فما أرسل الله تعالى رسوله مبشراً ونذيراً إلا ليؤمن الناس به تعالى وبرسوله ، ويعزروه الرسول : أي ينصروه ، ويوقروه : أي يجلوه ويعظموه بما يليق بمنصبه الرفيع ومقامه السامي الشريف .

ومعنى توقيره ﷺ تعظيمه وإجلاله والإكبار من شأنه والرفع من قدره حتى لا يدانيه أحد من الناس . وكون أصحابه قد عرفوا قدره فأجلوه وعزروه ووقروه ، فليس ذلك عائداً لكونه فيهم وبينهم فحسب ، بل هو لما أوجبه الله تعالى عليهم ، وأفاضه في نفوسهم وأجراه على ألسنتهم من حبه وتقديره وإجلاله وتعظيمه .

ومن مظاهر توقيره ﷺ ما أمر الله تعالى به وأرشد إليه في كتابه العزيز كقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا فِي يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ [الحجرات: ١٠] . أي لا تقولوا قبل أن يقول ، وإذا قال : فاستمعوا له وأنصتوا ، فلا يحل لأحدهم أن يسبق بقوله قوله ، ولا برأيه رأيه ، ولا بقضائه قضاءه ، بل عليهم أن يكونوا تابعين له في كل ذلك . وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا فِي يَدَيْ اللَّهِ

(١) المراد من السبيل سبيل الله تعالى الذي هو سبيل المؤمنين .

وَرَسُولُهُ وَأَقْرَبُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠﴾ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ [الحجرات: ١٠-١١] فقد منعهم في هذا الخطاب من رفع أصواتهم فوق صوته لمنافاة ذلك للأدب معه والوقار له، كما منعهم من الجهر بالقول له إذا خاطبوه وكلموه، لما في ذلك من سوء الأدب والجفاء والغلظة المنافية للإجلال والتوقير والتعظيم، وقوله تعالى: ﴿لَا تَجْهَلُوا ذُكْرًا لِلرُّسُولِ يَنْتَكُمُ كَذَٰلِكَ بِبَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣] . فقد نهاهم عن ندائه باسمه العَلَم: يا محمد، وأرشدهم أن يدعوه بلقب النبوة والرسالة نحو: يا نبي الله، ويا رسول الله، وبأحب كناه إليه نحو: يا أبا القاسم، واستحباب أصحابه البررة لأمر الله تعالى، فقال أبو بكر الصديق: والله يا رسول الله لا أكلمك وبعدها إلا كأخي السرار^(١)، وفعلاً لما نزلت هذه الآية كان عمر إذا حدثه حدثه كأخي السرار، فما كان يُسمع الرسول حتى يستفهمه، ليبين مراده من كلامه، ونزل فيهم قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

○ مظاهر توقيره:

ومن مظاهر توقير الأصحاب - رضوان الله عليهم - لتبنيهم ﷺ ما يلي:

■ حدث عمرو بن العاص يوماً فقال: ما كان أحد أحب إلي من رسول الله ﷺ، ولا أجل في عيني منه، وما كنت أطيق أن أملأ عيني منه، إجلالاً له، ولو سئلت أن أصفه ما أظفت؛ لأنني لم أكن أملأ عيني منه.

■ روى الترمذي عن أنس قوله: كان رسول الله ﷺ يخرج على أصحابه من المهاجرين والأنصار وهم جلوس فيهم أبو بكر وعمر، فلا يرفع أحد منهم إليه بصره إلا أبو بكر وعمر، فإنهما كانا ينظران إليه وينظر إليهما ويتسمان إليه، ويتسم إليهما.

■ روي عن أسامة بن شريك قال: أتيت رسول الله ﷺ وأصحابه حوله كان على رؤوسهم الطير.

■ قال عروة بن مسعود - حين وجهته قريش إلى رسول الله ﷺ يوم صلح الحديبية، ورأى من تعظيم أصحاب رسول الله ﷺ له ما رأى، وأنه لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءه، وكادوا يقتتلون عليه، ولا يصبق بصاقاً ولا يتنخم نخامة إلا تلقوها بأكفهم، فدلوكوا بها وجوههم وأجسادهم، ولا تسقط منه شعرة إلا ابتدروها، وإذا أمرهم بأمر ابتدروا أمره، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يُحدون إليه النظر؛ تعظيماً له. فلما رجع إلى قريش - قال: يا معشر قريش، إني جئت كسرى في ملكه وقيصراً في ملكه، والنجاشي في ملكه، وإني والله ما رأيت ملكاً من قوم قط مثل محمد في أصحابه. فهذا الذي حكاه عروة بن مسعود رضي الله عنه - وهو حق ثابت - أكبر مظهر من

(١) أي كلاماً خفياً كالمسألة التي لا يسمعا غير من سارّه بها من الحاضرين.

مظاهر توقير أصحاب رسول الله ﷺ لنبيهم صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم تسليماً .

○ (ز) تعظيم شأنه ﷺ :

إن المراد من تعظيم شأن النبي ﷺ : إكرام وإكبار كل ما تعلق به ﷺ كاسمه وحديثه، وسنته، وشريعته وآل بيته، وصحابته وأفراد أمته، ومسجده وقبره، وكل ما له اتصال به من قريب أو بعيد، إذ كل هذا داخل تحت وجوب توقيره وحبه وتعظيمه كما هو مندرج تحت حرمة الله، والله يقول : ﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرْمَتَ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لِّمَنْ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ [الحج: ٣٠] . ويدل لذلك ويشهد له : أن الله تعالى نهى عن رفع الصوت بحضرته، وأمر بغضه بين يديه، ولم يأذن بأن يدعى كما يدعى غيره، وذلك لما له من الفضل والتفوق على سائر الناس . ولنتعرض الآن مواقف الصحابة والتابعين في هذا الشأن، لنزداد يقيناً بوجوب تعظيم شأنه ﷺ كله . وهذه مظاهر ذلك :

○ مظاهر تعظيم حديثه :

■ روي عن عبد الرحمن بن مهدي أنه كان إذا قرأ حديث رسول الله ﷺ أمر الحاضرين بالسكوت، وقال : لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ﷺ، يرى أنه يجب له الإنصات عند قراءة حديثه كما يجب ذلك عند سماع قوله ﷺ .

■ ما روي عن جعفر بن محمد الصادق - وكان كثير الدعابة والتبسم - أنه إذا ذكر عنده النبي ﷺ اصفر وجهه، وما روي يحدث عن رسول الله ﷺ إلا على طهارة .

■ ما روي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه إذا حدث فقال : قال رسول الله ﷺ علاه كرب، وتحذر العرق من جبينه - رضي الله عنه وأرضاه - .

■ مر مالك بن أنس - إمام دار الهجرة - رحمه الله - مر على أبي حازم - وهو يحدث - فجازه ولم يقف عنده وعلل لذلك بقوله : إني لم أر موضعاً أجلس فيه، فكرهت أن آخذ حديث رسول الله ﷺ وأنا قائم، وكان - رحمه الله تعالى - إذا أراد أن يحدث بحديث رسول الله ﷺ اغتسل وتطيب ولبس أحسن ثيابه، ثم خرج فحدث .

○ مظاهر تعظيم آل بيته ﷺ :

إن من مظاهر تعظيم آل بيت الحبيب ﷺ - الذي قال الله فيهم : ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣] . وقد أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً - ما يلي :

■ قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه : ارقبوا محمداً ﷺ في أهل بيته، وقوله : والذي نفسي بيده، لقراءة رسول الله ﷺ أحب إليّ أن أصل من قرابتي .

■ ما روي أن زيد بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه قد قبل يد ابن عباس، وقال : هكذا أمرنا

أن نفعل بأهل بيت نبينا.

○ مظاهر تعظيم أصحابه ﷺ:

إن تعظيم أصحابه ﷺ من تعظيمه - فداء أبي وأمي - إذ لولا صحبتهم له ما عظموا هذا التعظيم الخاص دون غيرهم من سائر الناس.

ومن مظاهر تعظيمهم ما يلي:

- قول عبد الله بن المبارك: خصلتان من كانتا فيه نجا: الصدق، وحب أصحاب محمد ﷺ.
- قول أبي أيوب السخيتاني: مَنْ أَحَبَّ أَبَا بَكْرٍ فَقَدْ أَقَامَ الدِّينَ، وَمَنْ أَحَبَّ عُمَرَ فَقَدْ أَوْضَحَ السَّبِيلَ، وَمَنْ أَحَبَّ عُثْمَانَ فَقَدْ اسْتَضَاءَ بَنُورَ اللَّهِ، وَمَنْ أَحَبَّ عَلِيًّا فَقَدْ أَخَذَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى، وَمَنْ أَحْسَنَ الثَّنَاءَ عَلَى أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ بَرِيءٌ مِنَ النِّفَاقِ، وَمَنْ انْتَقَصَ أَحَدًا مِنْهُمْ فَهُوَ مُبْتَدِعٌ مُخَالَفٌ لِلسُّنَّةِ وَالسَّلَفِ الصَّالِحِ، وَأَخَافُ أَلَّا يَرْفَعَ لَهُ عَمَلٌ إِلَى السَّمَاءِ حَتَّى يَحْبِيحَ جَمِيعًا وَيَكُونُ قَلْبُهُ سَلِيمًا.

○ مظاهر تعظيم آثاره ﷺ:

ومن مظاهر تعظيم آثار الحبيب ﷺ ما يلي:

- من أنه كانت لأبي محذورة قصة في مقدم رأسه، إذا قعد وأرسلها وصلت إلى الأرض، ف قيل له: ألا تحلقها؟ قال: لم أكن بالذي يحلقها وقد مسحها رسول الله ﷺ بيده.
- ما روي أن خالد بن الوليد رضي الله عنه كانت له قلنسوة، فيها شعرات من شعر رسول الله ﷺ فسقطت منه في بعض حروبه، فشذ عليها شدة، أنكرها عليه أصحابه، لكثرة مَنْ قُتِلَ فيها، فقال: لم أفعلها من أجل القلنسوة، بل لما فيها من شعر رسول الله ﷺ، لثلا أسلب بركتها، وتقع في أيدي المشركين!!
- قول مالك: من قال: تربة المدينة رديئة، يُضرب ثلاثين درةً ويُحبس. وقال: ما أحوجه إلى ضرب عنقه!! تربة دُفِنَ فيها رسول الله ﷺ يزعم أنها رديئة!!
- قول الرسول ﷺ: «مَنْ حَلَفَ عَلَى مَنْبَرِي كَاذِبًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ». ففي هذا شاهد قوي على وجوب تعظيم منبر رسول الله ﷺ، إذ هو أثر من آثاره ﷺ.
- قوله ﷺ - في المدينة كل المدينة - : «مَنْ أَحْدَثَ فِيهَا حَدَثًا أَوْ آوَى مُحَدَّثًا، فَعَلِيهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لَا يَقْبَلُ مِنْهُ صَرْفٌ وَلَا عَدْلٌ»^(١). وقوله: «صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام».

(١) أي لا يقبل منه نفل ولا فرض حتى يتوب.

○ (ح) وجوب النصح له ﷺ :

إن لوجوب النصح له ﷺ أدلة من الكتاب والسنة مثل قوله تعالى من سورة التوبة: ﴿وَلَا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يُحْدِثُونَ مَا يُفْعَلُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٩١] فذكر النصح لرسوله ﷺ وأنه نافع لصاحبه رافع عنه الحرج ما دام ناصحاً لله ورسوله ﷺ غير غاش ولا خادع بهما.

ومثل قول الرسول ﷺ: «الدين النصيحة لله ولكتابه ولرسوله» فجعل النصح له ديناً. معنى النصح: أنه إرادة الخير للمنصوح له، ولا يتم هذا إلا بعد تخليص النفس من كل الشوائب حتى تصل إلى درجة تريد فيها الخير كاملاً لمن تريده له. والنصيحة لرسول الله ﷺ تكون بأمور، هي مظاهر لها، وهي:

- ١- التصديق بنبوته المشرع لطاعته في أمره ونهيه، وموازرتة ونصرتة، وحمايته حقاً وميثاقاً وإحياء سنته بتعليمها بعد العمل بها، والتخلق بأخلاقه والتأديب بأدابه ﷺ.
- ٢- شدة المحبة له ولأهل بيته، وكافة أصحابه، وموالاة من يواليه، ويوالي أهل بيته وأصحابه في صدق، ومعادة من يعاديه ويعادي أهل بيته وأصحابه - رضوان الله عليهم أجمعين -.
- ٣- إبلاغ رسالته بعده، ونشر دعوته وإقامة شريعته، وإعزاز أهل ملته، وإذلال أهل بغضته وعداواته من الكافرين بدينه، والكائدين لأمنه وملته.

○ (ط) محبة أهل بيته وصحابته:

إن محبة أهل بيت رسول الله ﷺ ومحبة أصحابه من محبته ﷺ وما دامت محبته واجبة، فمحبة ما يحب واجب أكيد أيضاً، وعليه فما أحب رسول الله ﷺ من لم يحب أهل بيته وأصحابه، إذا كان ﷺ يحبهم. وحسبنا في التدليل على وجوب محبة أهل بيت رسول الله ﷺ ومحبة أصحابه: إيراد الأحاديث والآثار الآتية:

- ما حدث به زيد بن أرقم رضي الله عنه: إذ قال: قال رسول الله ﷺ: «أنشدكم الله في أهل بيتي» أي أسألكم بالله وأقسم به عليكم، قالوا ثلاثاً. وسئل زيد بن أرقم عن أهل بيته فقال: هم آل علي وآل جعفر، وآل عقيل، وآل العباس.
- قوله ﷺ للعباس: «والذي نفسي بيده لا يدخل قلب رجل الإيمان حتى يحبكم لله ورسوله، ومن أذى عمي فقد آذاني، وإنما عم الرجل صنؤ أبيه»^(١).
- قوله ﷺ في أسامة بن زيد والحسن بن علي: «اللهم إني أحبهم؛ فأحبهم».
- قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه أرقبوا محمداً ﷺ في أهل بيته.
- قوله ﷺ لأم سلمة: «لا تؤذي في عائشة».

(١) الصنو: المثل.

■ قول عمر بن عبد العزيز لعبد الله بن الحسن بن حُسين: إذا كانت لك حاجة فأرسل إليّ، أو اكتب، فإني أستحيي من الله أن يراك الله على بابي. فهذا تعظيم وأي تعظيم من عمر لأهل بيت رسول الله ﷺ.

■ قول عمر لابنه عبد الله لما أعطى أسامة ثلاثة آلاف وخمسمائة، وأعطى ولده عبد الله ثلاثة آلاف، فقال: لم فضلت عليّ؟ فوالله ما سبقني إلى مشهد، قال: لأن زيداً كان أحبّ إلى رسول الله ﷺ من أبيك، وأسامة أحبّ إليه منك فأثرت حبّ رسول الله ﷺ على حبيّ!! كانت تلك الأخبار الموجبة لحب أهل بيت رسول الله ﷺ. وأما أصحابه - رضوان الله عليهم - ففي كتاب الله ما يُوجب حبهم وتقديرهم والترضي عنهم، وما يُحرّم انتقاصهم، والظعن فيهم، والنيل من كرامتهم، فقد قال تعالى: ﴿لَقَدْ رَفَعْنَا اللَّهُ عَنْ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يَأْمُرُكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨]. فهل يرضى الله عن عبده، ويجوز السخط عليه من قِبَل عباده؟ اللهم لا، لا، وقال تعالى: ﴿وَمُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّامًا سَاجِدًا﴾ [الفتح: ٢٩] إلى قوله: ﴿يَتَّبِعُكَ يَوْمَ الْكُفَّارِ﴾ [الفتح: ٢٩]. فهل يمدح الله تعالى أقواماً ويثني عليهم في كتابه، ويجوز ذمهم وعدم إجلالهم وتقديرهم؟ اللهم لا، لا.

■ قوله ﷺ - في أبي بكر وعمر رضي الله عنهما: «اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر».

■ قوله ﷺ: «لا تسبوا أصحابي؛ فلو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مدّ أحدهم ولا نصيفه»^(١).

■ قوله ﷺ في الأنصار: «اعفوا عن مسيئتهم، واقبلوا من مُحسنهم».

■ قول سهل بن عبد الله التستري - رحمه الله تعالى - : لم يؤمن بالرسول مَنْ لم يؤثّر أصحابه، ولم يُعزّز^(٢) أوامره.

■ قول مالك بن أنس إمام دار الهجرة: من غاظه أصحاب محمد فهو كافر؛ لقوله تعالى: ﴿يَتَّبِعُكَ يَوْمَ الْكُفَّارِ﴾ [الفتح: ٢٩].

■ قوله وقول غيره أيضاً: من أبغض أصحاب رسول الله ﷺ وسبهم لاحقّ له في فيء المسلمين لقوله تعالى: ﴿وَمَا آفَاكُمُ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾ [الحشر: ١٦] إلى قوله: ﴿وَلَا يَجْعَلُ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحشر: ١٠]. فالذين في قلوبهم غلّ على أصحاب رسول الله ﷺ لاحقّ لهم في القِيء؛ إذ يخرجون بهذه الآية الكريمة من سورة الحشر. وهذا فقه عظيم، وفهم لكتاب الله كبير سديد.

○ (ي) الصلاة عليه ﷺ:

هذا آخر الحقوق العشرة الواجبة لرسول الله ﷺ صاحب هذه السيرة العطرة، الواجبة له على كل مؤمن ومؤمنة، وهو الصلاة والسلام عليه ﷺ. إن هذا الحق الواجب الأكيد ثابت بالكتاب

(١) المد: الحفة، والنصيف نصفها.

(٢) فينصرها ويقويها ويجلها ويعظمها.

والسنة وإجماع الأمة، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَلَكَ يَكُونُ عَلَى النَّبِيِّ يَكُنْهَا أَلَيْسَ مَا مَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]. وقال رسول الله ﷺ: «رَغِمَ أَنْفُ امْرِئٍ ذُكِرَتْ عَنْهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ». وقال: «صلوا عليّ حيثما كنتم؛ فإن صلاتكم تبلغني»، وقال له أصحابه رضي الله عنهم أما السلام عليك فقد عرفناه، فكيف نصلي عليك؟ قال «قولوا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد». اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد». فالصلاة عليه ﷺ واجبة في الجملة وتؤكد عند ذكره ﷺ، وفي التشهد الأخير من كل صلاة. وجاء في فضلها قوله ﷺ: «من صلى عليّ مرة صلى الله عليه بها عشراً». وقوله: «إذا سمعتم النداء فقولوا مثل ما يقول المؤذن، ثم صلوا عليّ، أي قولوا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد ثم سلوا لي الوسيلة والفضيلة، أي قولوا: اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدًا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقامًا محمودًا الذي وعدته، فإن من فعل ذلك حلت له شفاعتي يوم القيامة».

○ المواطن التي تستحب فيها الصلاة عليه ﷺ:

- إن هناك مواطن كثيرة تستحب فيها الصلاة على النبي ﷺ نجملها إزاء النقاط الآتية:
- قبل الدعاء وبعده، فالداعي يبدأ دعاءه بحمد الله والثناء عليه، ثم يصلي على النبي ﷺ ثم يدعو بما شاء من الخير ثم يختم دعاءه بالصلاة على النبي ﷺ لما ورد: «الدعاء بين الصلاتين علي لا يُردّ». ولقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «إذا أراد أحدكم أن يسأل الله شيئًا، فليبدأ بحمد الله والثناء عليه بما هو أهله، ثم يصلي على النبي ﷺ، ثم ليسأل؛ فإنه أجدر أن يُنَجَّح»^(١) أي يفوز باستجابة دعائه.
- يوم الجمعة وليلتها؛ إذ روى النسائي بسنده أن النبي ﷺ أمر بالإكثار من الصلاة عليه يوم الجمعة، وورد ليلتها أيضًا.
- عند سماع ذكره أو كتابته لحديث: «رَغِمَ أَنْفُ امْرِئٍ ذُكِرَتْ عَنْهُ وَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ».
- عند دخول المسجد بأن يقول: «باسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله اللهم اغفر لي ذنبي، وافتح لي أبواب رحمتك» وعند الخروج كذلك إلا أنه يقول: «وافتح لي أبواب فضلك» بدل «رحمتك».
- وبعد التكبيرة الثانية من صلاة الجنائز؛ إذ الأولى يقرأ بعدها الفاتحة، والثانية يصلي بعدها

(١) ورد بهذا اللفظ أو يقرب منه مرفوعًا وصحيح الإسناد وهو أن النبي ﷺ سمع رجلاً يدعو في صلاته، فلم يصل على النبي ﷺ فقال النبي ﷺ: «جعل هذا» ثم دعاء فقال له ولغيره: «إذا أراد أحدكم... إلخ».

على النبي ﷺ الصلاة الإبراهيمية، وهي التي يصلي بها في التشهد الأخير من كل صلاة فريضة أو نافلة.

○ صيغ الصلاة على النبي ﷺ:

لقد ورد في الصلاة على النبي ﷺ صيغ كثيرة، بعضها مرفوع إلى النبي ﷺ، وبعضها مأثور عن السلف الصالح، وبعضها محدث مبتدع^(١). ونظراً لذلك، فإننا نكتفي بذكر أعلى الصلاة وذكر أدناها، فأعلى الصلاة وأفضلها على الإطلاق الصلاة الإبراهيمية التي علمها رسول الله ﷺ أصحابه كما تقدم قريباً، إذ قال لهم: «قولوا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد» وأدنى الصلاة عليه ﷺ: اللهم صل على محمد وسلم تسليمًا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]. فاللهم صل على محمد عبدك ورسولك، النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعَزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۖ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ۖ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠-١٨٢].

المدينة النبوية في ٢٠/١١/١٤٠٧ هـ

(١) من تلك الصلوات المحدثه: صلاة الفاتح عند الطائفة التيجانية.

فہرست

الفهرس

المقدمة	٥	عودة سريعة إلى النسب الشريف ... ١٥
هذا الحبيب محمد ﷺ	٥	قبل الفجر المحمدي حالة العرب
يا محب	٥	السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية
أرض النبوة	٧	والدينية
الدوحة الكريمة	٧	الحالة السياسية في بلاد العرب ... ١٧
وقفه قصيرة	٨	ولاية قصي بن كلاب
ثمرة القصة	٩	حقائق وعبر
بداية أمر مكة	٩	وفي هذه المقطوعة من العبر ما يلي ٢٠
عبرة	٩	الحالة الاقتصادية في بلاد العرب ... ٢٠
عمارة مكة	١٠	نتائج هذه المقطوعة
عبرة	١٠	الحالة الاجتماعية في بلاد العرب ... ٢١
نتائج وعبر	١١	العادات السيئة
بناء إبراهيم - عليه السلام - للبيت العادات الحسنة؛ هي	٢٣	
العتيق	١١	نتائج وعبر
نتائج هذه المقطوعة من الحديث ... ١٢		الحالة الدينية في بلاد العرب ... ٢٤
بداية أمر الحبيب محمد ﷺ	١٢	عمل العرب مع أصنامهم
إسماعيل وذريته	١٣	نتائج وعبر
نتائج هذه المقطوعة	١٣	البدع الدينية في عهد الجاهلية ... ٢٨
سلسلة الطهر النسب الشريف	١٣	النصرانية واليهودية في بلاد العرب .. ٣٠
العرب البائدة	١٣	نتائج وعبر
العرب العاربة	١٤	هل من حفاء في بلاد العرب؟ ... ٣٤
العرب المستعربة	١٤	نتائج وعبر

تبشير الصباح	٣٥	نتائج وعبر	٤٧
فأولاً دعوة إبراهيم وإسماعيل عليهما		مظاهر الكمال المحمدي قبل النبوة	٤٨
السلام	٣٥	خطبة الزواج الميمون	٥٤
ثانياً أخذ الميثاق له ﷺ	٣٦	نتائج وعبر هذا المظهر	٥٤
ثالثاً بشارات الكتب الإلهية به	٣٦	دنو ساعة طلوع الشمس المحمدية	٥٥
وجاء في التوراة أيضاً	٣٦	طلوع الشمس المحمدية	٥٥
وجاء في الإنجيل	٣٦	نتائج وعبر	٥٦
وجاء فيه أيضاً	٣٦	أشعة الشمس المحمدية تضيء دار	
وجاء فيه أيضاً	٣٧	خديجة	٥٦
وجاء في الزبور	٣٧	وتطلع على ورقة بن نوفل	٥٦
رابعاً قال أشعيا النبي - عليه السلام	٣٧	هنا صورة	٥٨
وقال أيضاً	٣٧	نتائج وعبر	٥٩
وقال حزقيال - عليه السلام -	٣٧	فتور الوحي وعودته	٥٩
وقال دانيال - عليه السلام -	٣٨	نتائج وعبر	٥٩
شهادات أهل الكتاب	٣٨	صور الوحي المحمدي	٥٩
هتاف الجن بالبشري	٣٩	نتائج وعبر	٦٠
نتائج وعبر	٤١	بدء الحبيب ﷺ دعوته وأول من أسلم	٦١
طلوع الفجر المحمدي أو الميلاد	٤١	نتائج وعبر	٦٢
نتائج وعبر	٤٣	إسلام الصديق وأثره في الدعوة	٦٣
الحمل والميلاد	٤٣	نتائج وعبر	٦٤
نتائج وعبر	٤٤	أفواج السابقين بعد الأولين	٦٤
رضاع الحبيب ومراضعه صلى الله عليه		نتائج وعبر	٦٥
وآله	٤٥	الجهر بالدعوة بعد الإسرار بها	٦٦
نتائج وعبر	٤٦	نتائج وعبر	٦٦
كفلاء الحبيب محمد ﷺ وحاضنته	٤٧	قصة إسلام حمزة رضى الله عنه	٦٧

- قصة إسلام عمر رضي الله عنه ٦٧..... عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام ... ٨٦
- ارتفاع ضوء الشمس المحمدية ٦٨..... نتائج وعبر ٨٧
- وعشا أبصار المشركين ٦٨..... خروج الحبيب ﷺ إلى الطائف ٨٨
- وعرض ثان ٦٩..... يطلب النصرة لدينه ٨٨
- وعرض ثالث ٧٠..... نتائج وعبر ٨٩
- وعرض رابع ٧١..... الإسراء بالحبيب ﷺ والعروج به إلى ٩٠
- وعرض خامس ٧٢..... الملكوت الأعلى ٩٠
- نتائج وعبر ٧٣..... متى كان الإسراء والمعراج؟ ٩٠
- خيبة المشركين تتحول إلى نقمة ٧٤..... وكيف كان الإسراء؟ ٩٠
- على المستضعفين من المؤمنين ٧٤..... نتائج وعبر ٩٢
- نتائج وعبر ٧٥..... ثلاث آيات من آيات النبوة المحمدية ٩٢
- المستهزئون بالحبيب ﷺ وما أنزل الله نتائج وعبر ٩٤
- تعالى ٧٥..... الخروج بالدعوة خارج مكة ٩٤
- بهم من أليم العذاب ٧٥..... نتائج وعبر ٩٥
- نتائج وعبر ٧٩..... تدابير إلهية لظهور الإسلام ٩٥
- أول هجرة في الإسلام ٨٠..... نتائج وعبر ٩٨
- نتائج وعبر ٨١..... لطائف أمور قبل هجرة الحبيب ﷺ ٩٩
- إرسال قريش وفدها إلى النجاشي ٨٢... مراجعة ١٠٠
- نتائج وعبر ٨٣..... هنا صورة بيان مراحل هامة مرت بها ١٠٠
- هجرة أبي بكر الصديق الأولى ٨٤..... الدعوة من البعثة الصادقة إلى الهجرة ١٠٣
- نتائج وعبر ٨٤..... المباركة إلى طيبة الطيبة الطاهر ١٠٣
- في شغب أبي طالب ٨٥..... هجرة الحبيب الطيب محمد ﷺ إلى طيبة ١٠٤
- نتائج وعبر ٨٦..... الطيبة ١٠٤
- اشتداد حلولكة الليالي والأيام على نتائج وعبر ١٠٦
- الحبيب ٨٦..... الطريق إلى المدينة ١٠٧

- عودة إلى مسيرة الركب الميمون . ١٠٨ نتائج وعبر ١٢١
- نتائج وعبر ١٠٩ وفاة كلثوم بن الهمد، وأسعد بن زرارة
- في طيبة دار الحبيب ﷺ ١٠٩ رضى الله عنهما ١٢١
- الحبيب ﷺ بقاء ١١٠ نتائج وعبر ١٢٢
- أول عمل بقاء لرسول الله ﷺ ... ١١٠ أول مولود للمهاجرين بالمدينة ١٢٢
- نتائج وعبر ١١١ نتائج وعبر ١٢٢
- استقبال الأنصار للحبيب ﷺ بناء النبي ﷺ بأحب نسائه إليه ١٢٢
- وعظيم ١١١ نتائج وعبر ١٢٣
- فرحهم وحفاوتهم به ١١١ آخر أحداث هذه السنة سرايا يبعث بها
- نتائج وعبر ١١٢ النبي ﷺ ١٢٣
- بناء المسجد النبوي وفضله وشرف ١٢٤ نتائج وعبر
- المدينة وأهلها ١١٣ سرية عبدة بن الحارث بن عبد
- نتائج وعبر ١١٥ المطلب بن هاشم ١٢٤
- جهود الحبيب ﷺ في الإصلاح .. ١١٥ نتائج وعبر ١٢٤
- والتأسيس والبناء بالمدينة النبوية .. ١١٥ سرية سعد بن أبي وقاص ١٢٤
- الخطوة الأولى ١١٥ نتائج وعبر ١٢٥
- الخطوة الثانية ١١٥ ظهور العداء الشديد وبدء الصراع
- الخطوة الثالثة ١١٦ الداخلي ١٢٥
- الخطوة الرابعة ١١٦ منافقو اليهود ١٢٥
- بسم الله الرحمن الرحيم ١١٧ منافقو المشركين ١٢٦
- الخطوة الخامسة ١١٨ الأعداء المعلنون عداؤهم من اليهود ١٢٨
- نتائج وعبر ١١٩ نتائج وعبر ١٢٩
- أحداث بعضها مفرح، وبعضها جدليات اليهود ومظاهر عنادهم ... ١٢٩
- محزن ١٢٠ نتائج وعبر ١٣٠
- الصلاة والأذان ١٢٠ وكاليهود نصارى نجران يجادلون،

ويعاندون	١٣١	المبارزة قبل الالتحام	١٤٥
نتائج وعبر	١٣٢	نهاية سعيدة	١٤٦
الحالة الصحية بدار الهجرة	١٣٣	آية محمدية	١٤٧
وأولها	١٣٤	جيف المشركين	١٤٧
غزوة الأبواء	١٣٤	توبيخ الحبيب محمد ﷺ لأعدائه	١٤٧
وثانيها	١٣٤	خلاف الأجابة وحسمه	١٤٨
غزوة بواط	١٣٤	بشائر النصر	١٤٩
وثالثها	١٣٥	طلوع البدر	١٤٩
غزوة العشيرة	١٣٥	أيهما خير؟ القتل أو الفداء	١٤٩
ورابعها	١٣٥	كرم محمدي	١٥٠
غزوة بدر الأولى	١٣٥	صدى هزيمة المشركين في مكة	١٥٠
وخامستها	١٣٦	من أصداء المعركة وآثارها	١٥١
سرية عبد الله بن جحش إلى نخلة بين فداء أبي وداعة	١٣٦	سهيل بن عمرو	١٥٢
مكة والطائف	١٣٦	سهييل بن عمرو	١٥٢
نتائج وعبر	١٣٨	أبوالعاص بن الربيع	١٥٢
غزوة بدر الكبرى	١٣٨	هجرة زينب رضي الله عنها	١٥٢
تدبير حربي	١٤٠	إسلام أبي العاص وكيف كان	١٥٣
تدبير آخر	١٤١	مثل رائع يضربه أبوالعاص	١٥٤
تدبير سابق	١٤٢	إسلام شيطان	١٥٤
عودة إلى المعسكر الإسلامي	١٤٢	شرف أهل بدر	١٥٥
تدبير صالح	١٤٣	نتائج وعبر	١٥٦
تقارب المعسكرين	١٤٣	أهم ما وقع من أحداث في السنة	١٥٨
في معسكر الكفر	١٤٣	الثانية	١٥٨
في معسكر الإسلام	١٤٤	من هجرة الحبيب محمد ﷺ	١٥٨
التقاء الفريقين	١٤٥	وسابعتها	١٥٩

غزوة بني قينقاع	١٥٩	عوامل هذه الغزوة القاسية الشديدة .	١٦٧
نتائج وعبر	١٦٠	ونعود إلى معسكر التوحيد والإيمان	١٧٠
وثامنتها	١٦١	سبب الهزيمة	١٧١
غزوة الكدر	١٦١	مواقف (في أحد) ومواقف	١٧٤
نتائج وعبر	١٦١	مواقف مشرفة	١٧٤
وتاسعتها	١٦١	مواقف مخزية	١٧٥
غزوة السويق	١٦١	نتائج وعبر	١٧٦
نتائج وعبر	١٦٢	ورابع الغزوات	١٧٨
أحداث السنة الثالثة من هجرة الحبيب		غزوة حمراء الأسد	١٧٨
محمد ﷺ	١٦٣	نتائج وعبر	١٨٠
أولى غزوات السنة الثالثة	١٦٣	أهم ما وقع من أحداث في السنة الثالثة	
غزوة ذي أمر	١٦٣	من هجرة الحبيب محمد ﷺ	١٨٠
نتائج وعبر	١٦٣	أحداث السنة الرابعة من هجرة الحبيب	
وثاني الغزوات	١٦٤	محمد ﷺ	١٨٢
غزوة الفرع من بَحْران	١٦٤	حَدَّث الرَّجِيع	١٨٢
نتائج وعبر	١٦٤	نتائج وعبر	١٨٣
أولى السرايا	١٦٤	وثاني أحداثها	١٨٣
سرية زيد بن حارثة إلى القردة ...	١٦٤	حَدَّث بئر معونة الجلل	١٨٣
نتائج وعبر	١٦٥	نتائج وعبر	١٨٥
وثاني السرايا	١٦٥	وثالث أحداثها	١٨٥
سرية محمد بن مسلمة لقتل كعب		سرية عمرو بن أمية الضمري إلى مكة	
اليهودي	١٦٥	لقتل أبي سفيان	١٨٥
نتائج وعبر	١٦٧	نتائج وعبر	١٨٧
وثالث الغزوات	١٦٧	وأولى غزواتها	١٨٧
غزوة أحد	١٦٧	غزوة بني النضير	١٨٧

نتائج وعبر	١٨٩	نتائج وعبر	٢٠٢
عبرة خاصة	١٩٠	وثالث أحداثها	٢٠٣
وثاني غزواتها	١٩٠	غزوة بني قريظة	٢٠٣
غزوة ذات الرقاع	١٩٠	بداية غزوهم	٢٠٣
وحدث في هذه الغزوة ما يلي	١٩٠	عرض مرفوض	٢٠٤
نتائج وعبر	١٩١	وآخر مقبول	٢٠٤
وثالث الغزوات	١٩٢	عشرة كريم أقالها جل جلاله	٢٠٥
غزوة السويق أو بدر الأخرى	١٩٢	في ليلة نزول قريظة	٢٠٥
نتائج وعبر	١٩٢	نزول بني قريظة على حكم رسول الله	
أهم ما وقع من أحداث في هذه السنة ﷺ	٢٠٥		
الرابعة من هجرة الحبيب محمد ﷺ	١٩٣	من المستشفى إلى المحكمة	٢٠٦
أحداث السنة الخامسة	١٩٣	كيف نزل القرظيون من حصونهم	٢٠٦
غزوة دومة الجندل	١٩٣	تنفيذ الحكم	٢٠٧
نتائج وعبر	١٩٤	القرظية العجب	٢٠٧
وثاني أحداثها	١٩٤	أموال بني قريظة	٢٠٨
غزوة الخندق أو الأحزاب	١٩٤	ريحانة الحبيب ﷺ	٢٠٨
أ - سبب وقوعها	١٩٤	وفاة سعد بن معاذ رضى الله عنه	٢٠٩
ب - الخندق لإجراء وقائي	١٩٥	نتائج وعبر	٢٠٩
ج - آيات تظهر أثناء الحفر وبعده	١٩٦	أهم ما وقع من أحداث في السنة	
د - موقف مخز للمنافقين	١٩٦	الخامسة	٢١٠
هـ - مواجهة العدو	١٩٧	من هجرة الحبيب ﷺ	٢١٠
و - عمل شرير يقوم به ابن أخطب	١٩٧	أحداث السنة السادسة من هجرة الحبيب	
ز - رحمة نبوية تتجلى في عرض ﷺ			٢١٠
صالح	١٩٨	غزوة بني لحيان	٢١٠
ح - بداية المعركة	١٩٨	نتائج وعبر	٢١١

- وثاني أحداثها ٢١١ سفارة أعظم ٢٢١
 غزوة ذي قرد ٢١١ بيعة الرضوان ٢٢٢
 سبب هذه الغزوة ٢١١ سفارة وهدنة ٢٢٢
 أول من علم بالغارة ٢١١ عمر ينكر ٢٢٢
 نتائج وعبر ٢١٢ توبة عمر ٢٢٣
 غزوة بني المصطلق من خزاعة أو كتابة وثيقة الصلح ونصها ٢٢٣
 المريسيع ٢١٣ أبو جندل يستصرخ ٢٢٣
 سبب وقوع هذه الغزوة ٢١٣ التحلل من الإحرام ٢٢٤
 جويرية تكاتب مالكا ٢١٣ آثار المصالحة ٢٢٤
 فتنة أرادها ابن أبي، ولكن الله سلم ٢١٣ نتائج وعبر ٢٢٥
 موقف متحفظ ٢١٤ وخامس أحداثها ٢٢٦
 أي الأمرين خير؟ ٢١٤ مجموعة السرايا الآتية ٢٢٦
 لا عجب في غدر الكافر ٢١٥ مكاتبة الرسول ﷺ الملوك والرؤساء ٢٢٧
 حادث الإفك ٢١٥ أسماء حاملي كتبه إلى الملوك ٢٢٧
 نتائج وعبر ٢١٧ نماذج من كتبه ﷺ ٢٢٧
 ورابع أحداثها ٢١٨ أ- كتابه إلى كسرى ٢٢٧
 عمرة الحديبية وبيعة الرضوان والصلح صورة الخاتم النبوي ٢٢٨
 فيها ٢١٨ ب- كتابه ﷺ إلى قيصر ٢٢٨
 وفد خزاعة ٢١٩ ج- كتابه ﷺ إلى المقوقس ٢٢٨
 سفارة قريش ٢١٩ د- كتابه إلى ملك الحبشة ٢٢٩
 غصبة صادقة ٢٢٠ هـ- كتابه إلى الحارث الغساني بالشام ٢٢٩
 سفير ثالث ٢٢٠ و- كتابه إلى ملك عمان ٢٢٩
 عودة السفير ٢٢٠ ز- كتابه ﷺ إلى هروذ صاحب ٢٢٩
 سفير النبي ﷺ ٢٢١ اليمامة ٢٣٠
 إساءة وإحسان ٢٢١ كتابه ﷺ إلى المنذر حاكم البحرين ٢٣٠

نتائج وعبر	٢٣٠	وخامس السرايا	٢٤١
هنا صورة بيان مواقع غزوات الشمال سرية بشير بن سعد الأنصاري	٢٤١		
خير ودومة الجندل وتبوك	٢٣٢	وسادس السرايا	٢٤١
أحداث السنة السابعة	٢٣٣	سرية عبد الله بن رواحة	٢٤١
من هجرة الحبيب ﷺ	٢٣٣	وسابع السرايا	٢٤١
غزوة خيبر	٢٣٣	سرية عبد الله بن حذافة	٢٤١
خطبة تشريع حكيم	٢٣٤	نتائج وعبر	٢٤٢
دعوة نبوية مستجابة	٢٣٤	ورابع أحداثها	٢٤٢
آخر حصن يفتح	٢٣٥	عمره القضاء	٢٤٢
مواقف يحسن أن تذكر، وهي ...	٢٣٦	زواج الحبيب ﷺ	٢٤٣
نتائج وعبر	٢٣٧	الكرم المحمدي	٢٤٣
وثاني أحداثها	٢٣٧	نتائج وعبر	٢٤٣
غزوة وادي القرى	٢٣٧	وخامس أحداثها	٢٤٤
نتائج وعبر	٢٣٨	سرية ابن أبي العوجاء	٢٤٤
ما تم من أمور هامة عند العودة من غزوة نتائج وعبر	٢٤٤		
خيبر	٢٣٨	أهم أحداث هذه السنة غير الغزوات	
وثالث أحداثها	٢٤٠	والسرايا	٢٤٥
سبع سرايا تبعث إلى أنحاء مختلفة ٢٤٠ أحداث السنة الثامنة من هجرة الحبيب	٢٤٠		
سرية أبي بكر الصديق	٢٤٠	سرية غلب	٢٤٥
وثاني سرية	٢٤٠	سرية غلب	٢٤٥
سرية عمر بن الخطاب	٢٤٠	نتائج وعبر	٢٤٥
وثالث سرية	٢٤٠	وثاني أحداثها	٢٤٦
سرية بشير بن سعد الأنصاري	٢٤٠	سرية شجاع	٢٤٦
ورابع سرية	٢٤٠	وثالث أحداثها	٢٤٦
سرية غلب الكلبي	٢٤٠	سرية عمرو بن كعب	٢٤٦

٢٥٥	٢٤٦	ورابع أحداثها
٢٥٦	٢٤٦	إسلام كل من خالد، وعمرو، استعراض القوة للإرهاب
٢٥٦	٢٤٦	وعثمان دخول القوات إلى مكة
٢٥٧	٢٤٧	نتائج وعبر من القبة إلى المسجد
٢٥٧	٢٤٧	وخامس أحداثها مظاهر الكرم المحمدي
٢٥٧	٢٤٧	سرية ذات السلاسل المجرمون الثمانية
٢٥٨	٢٤٨	وسادسة أحداثها فالرجال الثمانية هم
٢٥٨	٢٤٨	سرية عمرو بن العاص البيعة على الإسلام
٢٥٩	٢٤٨	وسابعة أحداثها الإنسان قبل الإيمان
٢٥٩	٢٤٨	سرية الخيط ذكريات فيها عبر وعظات
٢٦٠	٢٤٨	نتائج وعبر نتائج وعبر
٢٦١	٢٤٩	وثامنة أحداثها وثاني عشر أحداثها
٢٦١	٢٤٩	سرية أبي قتادة غزوة خالد بن جزيمة
٢٦٢	٢٤٩	وتاسعة أحداثها نتائج وعبر
٢٦٢	٢٤٩	سرية أبي قتادة إلى إضم حدثان هامان عقيب الفتح
٢٦٢	٢٤٩	وعاشرة أحداثها الأول إسلام عباس بن مرداس
٢٦٢	٢٤٩	غزوة مؤتة والثاني هدم خالد للعزى
٢٦٣	٢٥١	إخبار النبي ﷺ بالواقعة وثالث عشر أحداثها
٢٦٣	٢٥١	امرأة جعفر تحدث غزوة هوازن
٢٦٣	٢٥٢	نتائج وعبر رأي صائب لم يقبل
٢٦٣	٢٥٢	وحادي عشر أحداثها عيون ترى الملائكة
٢٦٤	٢٥٢	غزوة الفتح فتح مكة خروج رسول الله ﷺ إلى هوازن
٢٦٤	٢٥٢	أسباب هذه الغزوة طلب جاهلي مرفوض
٢٦٥	٢٥٣	التجهيز والإعداد لفتح مكة شماتة ذوي الضغائن
٢٦٦	٢٥٤	المسير إلى مكة أنباء ذات خطر متفرقة

٢٧٥	(أ) أمر أم سليم	٢٦٦	أسباب هذه الغزوة	٢٧٥
٢٧٥	(ب) أمر أبي قتادة عجب	٢٦٦	التعبئة العامة	٢٧٥
٢٧٦	(ج) وأمر دريد بن الصمة أعجب	٢٦٧	جمع المال لخوض المعركة	٢٧٦
٢٧٦	نتائج وعبر	٢٦٧	اعتذار كاذب	٢٧٦
٢٧٦	ورابع عشر أحداثها	٢٦٨	اعتذار مردود	٢٧٦
٢٧٦	حصار الطائف	٢٦٨	تخلف من غير شك	٢٧٦
٢٧٦	أحداث يحسن ذكرها	٢٦٨	البكاءون	٢٧٦
٢٧٧	نتائج وعبر	٢٦٩	مسيرة الحبيب ﷺ	٢٧٧
٢٧٧	وخامس عشر أحداثها	٢٦٩	المثبطون	٢٧٧
٢٧٧	قسمة غنائم حنين	٢٦٩	أبو خيثمة يفوز	٢٧٧
٢٧٨	وغاب مالك	٢٧٠	من أعلام النبوة	٢٧٨
٢٨٠	مطالبة النبي الكريم	٢٧٠	المقام المبارك	٢٨٠
٢٨٠	من لا يعطى خير ممن يعطى	٢٧١	خطبة نبوة جامعة	٢٨٠
٢٨١	موجدة الأنصار	٢٧١	إيجابيات نبوة	٢٨١
٢٨٢	واعتمر الحبيب ﷺ	٢٧١	حدث هام	٢٨٢
٢٨٢	نتائج وعبر	٢٧٢	يا ليتني كنت صاحب الحفرة	٢٨٢
٢٨٣	أهم أحداث سنة ثمان من هجرة الحبيب	٢٧٢	مسجد الضرار	٢٨٣
٢٨٣	ﷺ	٢٧٢	عود مبارك واستقبال حافل	٢٨٣
٢٨٣	ودخلت السنة التاسعة من هجرة الحبيب	٢٧٣	الرهط المتخلف	٢٨٣
٢٨٤	ﷺ	٢٧٣	نتائج وعبر	٢٨٤
٢٨٥	وكان أول أحداثها	٢٧٣	وثالث أحداثها	٢٨٥
٢٨٥	إسلام كعب بن زهير بن أبي سلمى	٢٧٣	غزوة طيئ وإسلام عدي	٢٨٥
٢٨٦	نتائج وعبر	٢٧٤	نتائج وعبر	٢٨٦
٢٨٦	وثاني أحداثها	٢٧٥	ورابع أحداثها	٢٨٦
٢٧٥	غزوة تبوك	٢٧٥	قدوم عروة بن مسعود الثقفي على	٢٧٥

رسول الله ﷺ	٢٨٦	نتائج وعبر	٢٩٦
نتائج وعبر	٢٨٦	وثالث أحداثها	٢٩٧
وخامس أحداثها	٢٨٧	قدوم وفود عديدة على الرسول ﷺ	٢٩٧
قدوم وفد ثقيف	٢٨٧	نتائج وعبر	٣٠٠
شروط مرفوضة	٢٨٧	ورابع أحداثها	٣٠٠
قضاء ديون من مال الطاغية	٢٨٨	إرسال النبي ﷺ عليا إلى اليمن، وإسلام	
عهد لابن أبي العاص	٢٨٨	همدان	٣٠٠
نتائج وعبر	٢٨٨	نتائج وعبر	٣٠٠
وسادس أحداثها	٢٨٨	وخامس أحداثها	٣٠٠
قدوم الوفود على الحبيب ﷺ	٢٨٨	بعث النبي ﷺ أمراء على الصدقات	٣٠٠
جفاء هذا الوفد وسوء أدبه	٢٩٠	نتائج وعبر	٣٠١
عبر ونتائج	٢٩٤	وسادس أحداثها	٣٠١
وسابع أحداثها	٢٩٤	حجة الوداع والبلاغ	٣٠١
حج أبي بكر الصديق بالناس	٢٩٤	نتائج وعبر	٣٠٤
نتائج وعبر	٢٩٥	ودخلت السنة الحادية عشرة من هجرة	
أهم أحداث السنة التاسعة من هجرة الحبيب ﷺ	٢٩٥	وكان أول أحداثها	٣٠٤
الحبيب ﷺ	٢٩٥	وكان أول أحداثها	٣٠٤
ودخلت السنة العاشرة من هجرة الحبيب	٢٩٥	بعث جيش أسامة إلى الشام	٣٠٤
ﷺ	٢٩٥	نتائج وعبر	٣٠٥
وكان من أول أحداثها	٢٩٥	خاتمة الجهاد المحمدي ببيان عدد غزواته	
بعث النبي ﷺ خالد بن الوليد إلى بني سرياه	٢٩٥	وسراياه	٣٠٥
الحارث بن كعب بـ «نجران»	٢٩٥	وآخر أحداثها وأجلها	٣٠٦
نتائج وعبر	٢٩٦	مرض الحبيب ﷺ ووفاته	٣٠٦
وصول وفد نصارى نجران إلى الحبيب	٢٩٦	بداية مرضه ﷺ	٣٠٦
ﷺ	٢٩٦	في بيت عائشة	٣٠٦

- اشتداد الكرب وكمال الصديق ٣٠٨ وثلاثة المعجزات ٣٢٢
- غسل الحبيب، وكفنه، ودفنه ٣٠٨ نزول المطر بدعائه ٣٢٢
- بكاء ودموع على فراق الحبيب ﷺ ٣٠٩ ورابعة المعجزات ٣٢٣
- ٣١٠ نبوع الماء من بين أصابعه ﷺ ٣٢٣
- الذات المحمدية ٣١١ وخامسة المعجزات ٣٢٣
- الرسم الكريم لمحمد الحبيب ﷺ ٣١١ فيضان ماء بئر الحديبية ٣٢٣
- أسماء الذات المحمدية ٣١٢ وسادسة المعجزات ٣٢٤
- ماله علاقة بالذات المحمدية كالزوجات قدح لبن روى فثامًا من الناس ببركته
والأولاد والموالي والممتلكات له ﷺ ٣٢٤
- كالمراكب وأنواع السلاح ٣١٢ وسابعة المعجزات ٣٢٥
- أ) أزواجه ﷺ ٣١٢ امتلاء عكة سمن بعد فراغها ٣٢٥
- ب) أولاده ﷺ ٣١٤ وثامنة المعجزات ٣٢٥
- ج) موالي الحبيب ﷺ ٣١٥ الطعام القليل يشبع العدد الكثير ٣٢٥
- د) إمام رسول الله ﷺ ٣١٦ وتاسعة المعجزات ٣٢٦
- هـ) كتابه ﷺ ٣١٧ تكثير الطعام ٣٢٦
- و) أسماء خيله ﷺ ٣١٨ وعاشرة المعجزات ٣٢٧
- ز) أسماء بغال الحبيب ﷺ ٣١٩ توفية دين جابر الذي استغرق كل
ح) أسماء إبله ولقاحه ومناحه ﷺ ٣١٩ ماله ٣٢٧
- ط) أسماء سلاح الحبيب ﷺ ٣١٩ وحادية عشر المعجزات ٣٢٧
- الخصائص المحمدية ٣٢٠ انقياد الشجر له ﷺ ٣٢٧
- المعجزات المحمدية ٣٢١ وثانية عشرة المعجزات ٣٢٨
- وأولى تلك المعجزات أو الآيات ٣٢٢ حنين الجذع شوقًا إليه ﷺ ٣٢٨
- القرآن الكريم ٣٢٢ وثالثة عشرة المعجزات ٣٢٨
- وثانية المعجزات ٣٢٢ تسبيح الحصى في يديه وسلام الشجر
انشقاق القمر ٣٢٢ عليه ٣٢٨

- ورابعة عشر المعجزات ٣٢٩ صدق إخباره بالغيب ﷺ ٣٣٣
 سلام الحجر عليه ﷺ ٣٢٩ الأخلاق المحمدية التي فيها أسوة
 وخامسة عشر المعجزات ٣٢٩ للمؤمنين ٣٣٨
 سجود البعير له ﷺ وشكواه إليه . ٣٢٩ الآداب المحمدية ٣٣٨
 وسادسة عشر المعجزات ٣٣٠ الأخلاق المحمدية ٣٣٩
 شهادة الذئب برسالته ﷺ ٣٣٠ الكرم المحمدي ٣٣٩
 وسابعة عشر المعجزات ٣٣٠ الحلم المحمدي ٣٤٠
 توقير الوحش له ﷺ واحترامه ٣٣٠ العفو المحمدي ٣٤١
 وثامنة عشر المعجزات ٣٣١ الشجاعة المحمدية ٣٤٢
 احترام الأسد لمولاه ﷺ ٣٣١ ومن أدلة شجاعته ﷺ ومظاهرها .. ٣٤٢
 وتسعة عشر المعجزات ٣٣١ الصبر المحمدي ٣٤٤
 نطق الغزالة ووافائها له ﷺ ٣٣١ العدل المحمدي ٣٤٥
 المعجزة الموفية عشرين ٣٣١ الزهد المحمدي ٣٤٦
 خروج الجن من الصبي بدعائه ﷺ ٣٣١ الحياء المحمدي ٣٤٧
 المعجزة الحادية والعشرون ٣٣٢ أدب مخالطته ﷺ وحسن عشرته .. ٣٤٨
 شفاء الضرب بدعائه ﷺ ٣٣٢ خشية الحبيب ﷺ وطول عبادته ... ٣٤٩
 المعجزة الثانية والعشرون ٣٣٢ (أ) مظاهر خشيته ﷺ ٣٥٠
 شفاء علي رضي الله عنه بقاله ﷺ ٣٣٢ (ب) مظاهر طول عبادته ﷺ ٣٥٠
 المعجزة الثالثة والعشرون ٣٣٢ التواضع المحمدي ٣٥١
 ردّ عين قتادة بعد تدليها ٣٣٢ مظاهر التواضع المحمدي ٣٥١
 المعجزة الرابعة والعشرون ٣٣٣ المزاح المحمدي ٣٥٢
 شفاء الصبي بفضل سوره ﷺ ٣٣٣ الفصاحة المحمدية ٣٥٤
 المعجزة الخامسة والعشرون ٣٣٣ الرحمة المحمدية ٣٥٧
 تحول جذل الحطب سيقًا ٣٣٣ (أ) الرحمة العامة ٣٥٧
 المعجزة السادسة والعشرون ٣٣٣ (ب) مظاهر الرحمة الخاصة ٣٥٧

٣٦٣.....	الوفاء للمحمدي ﷺ	٣٥٨	(هـ) الاقتداء به ﷺ
٣٦٤.....	(أ) وفاؤه ﷺ	٣٥٨	(و) توقيره ﷺ
٣٦٥.....	(ب) صلته لرحمه ﷺ	٣٥٩	مظاهر توقيره ﷺ
٣٦٦.....	خاتمة ﷺ	٣٦٠	(ز) تعظيم شأنه ﷺ
٣٦٦.....	في بيان حقوق الحبيب ﷺ الواجبة له	٣٦٠	مظاهر تعظيم حديثه ﷺ
٣٦٦.....	على كل مسلم ومسلمة ﷺ	٣٦٠	مظاهر تعظيم آل بيته ﷺ
٣٦٧.....	(أ) الإيمان به ﷺ	٣٦٠	مظاهر تعظيم أصحابه ﷺ
٣٦٧.....	(ب) محبته ﷺ	٣٦٠	مظاهر تعظيم آثاره ﷺ
٣٦٨.....	مظاهر محبته ﷺ	٣٦١	(ح) وجوب النصح له ﷺ
٣٦٨.....	علامات حبه ﷺ	٣٦١	(ط) محبة أهل بيته وصحابته ﷺ
٣٦٩.....	(ج) طاعته ﷺ	٣٦١	(ي) الصلاة عليه ﷺ
٣٧٠.....	مظاهر طاعته ﷺ	٣٦٢	المواطن التي تستحب فيها الصلاة عليه ﷺ
٣٧١.....	(د) متابعتة ﷺ	٣٦٢	صنيع الصلاة على النبي ﷺ
٣٦٣.....	فضل المتابعة ﷺ		

